

روحیہ مارتان دُوغار

اسرہ نیبو

ترجمہ
بھٹیچ شیعبان

منشورات عویدات
بکروت - لبستان

روحیہ مارتان دؤغار

اسرہ نیبو

الجزء الأول

الدفتري الرمادي الاصلاحية
الفصل الجميل

ترجمته

بهنج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة
لدار منشورات عويدات
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٩٧٠

الدفتري الروماني

١

في زاوية شارع فوجيرار ، حيث كانت تمتد مباني المدرسة آنذاك ، فإن السيد تيبو الذي لم يكلم ولده أثناء الطريق وقف فجأة وقال :

— آه ! هذه المرة ، كلا يا انطوان . هذه المرة تجاوز الأمر الحد . فلم يحب الشاب بشيء .

وكانت المدرسة مقفلة ، والنهار الأحد ، والساعة التاسعة مساءً ، وفتح بواب الكوة ، فصاح انطوان :

— أتعلم أين اخي ؟ ..

فحملق الآخر بعينيه ، وفحص السيد تيبو برجله وقال :

— اذهب وادع لنا الأب بينو .

وتبع البواب الرجلين حتى قاعة الاستقبال ، وسحب من جيبه فتيلاً قطنياً مغطى بالشمع وأثار الثريا .

ومضت بضع دقائق . وارتمى السيد تيبو ، الضيق النفس ، على كرسي ؛ وتمتم من جديد ضامناً أسنانه :

— هذه المرة ، انت تعلم ، كلا .

وقال الأب بينو الذي دخل دون ضجة :

- عفوا يا سيدي .

وكان قبيحاً ، واضطر الى أن ينتصب ليضع يده على كنف انطوان :

- صباح الخير أيها الشاب ! ما الأمر إذن ؟

- أين اخي ؟ ..

- جاك ؟

وهتف السيد تيبو الذي نهض واقفاً :

- لم يعد اليوم إلى البيت ! ..

فقال الكاهن دون أن يبدي الكثير من الدهشة :

- ولكن ، أين ذهب ؟

- هنا بالتأكيد ، في الحجز .

فأدخل الكاهن يديه تحت حزامه وقال :

- جاك لم يكن محجوزاً .

- ماذا ؟ ..

- جاك لم يظهر اليوم في المدرسة .

وتمعدت القضية . ولم يترك انطوان وجه الكاهن بنظره . وهز السيد تيبو

كفيه ، والتفت نحو الكاهن منتفخ الوجه وجفونه الثقيلة تكاد لا ترتفع :

- لقد قال لنا جاك البارحة انه محجوز أربع ساعات . وفي هذا الصباح

ذهب في الساعة المعتادة . ويبدو انه عاد نحو الساعة الحادية عشرة حين كنا

جميعاً في القداس : لم يجد سوى الطاهية . وقال انه لن يعود لتناول طعام الغداء

لأنه محجوز ثمان ساعات بدلاً من أربع .

فقال الكاهن : محض اختلاق .

وتابع السيد تيبو :

- لقد اضطررت الى الخروج في نهاية فترة ما بعد الظهر حاملاً مقالي الى

« مجلة العاملين » . وكان المدير يستقبل ، ولم أعد الى البيت الا لتناول طعام

الغداء . وجاك لم يكن قد عاد . وفي الساعة الثامنة والنصف ، لا أحد .

فانتابني الخوف وأرسلت في طلب انطوان الذي كان مناوباً في مستشفى .
وها نحن جثنا .

وعض الكاهن على شفتيه مفكراً . وفتح السيد تيبو جفونه قليلاً ورشق
الكاهن ثم ولده بنظرة حادة .
- اذن ، يا انطوان ؟ ..

فقال الشاب :

- اذا كان الغياب متعمداً يا أبي فانه يبعد افتراض وجود حادث .
وكانت هيئته تدعو الى الهدوء . وأخذ السيد تيبو كرسيّاً وجلس ؛ وكان
عقله النشط يلاحق آثاراً مختلفة ؛ ولكن الوجه الذي شلّه الشحم لم يكن
يفصح عن شيء . وردد :

- اذن ما العمل ؟

فقال انطوان مفكراً : هذا المساء لا شيء سوى الانتظار .
كان الأمر واضحاً . ولكن استحالة الوصول الى نهاية سريعة بعمل من
السلطة ، والتفكير بمؤتمر العلوم الاخلاقية الذي سيفتح في بروكسل بعد غد
حيث كان مدعواً لتروؤس القسم الفرنسي ، كل هذا جعل نفخة غضب تصعد الى
جبهة السيد تيبو ، فنهض وهتف :

- سأجعل الدرك يبحثون عنه في كل مكان . ألا يزال يوجد شرطة في
فرنسا ؟ .. ألا يجدون الاشرار ؟

وكانت سترته تتدلى من جانبي بطنه ؛ وثنيات ذقنه تنقبض كل لحظة بين
طرفي طوق عنقه ، ويحرك فكبيه الى الامام كجواد يسحب عنانه . وفكر :
« آه ! هذا التافه ، لو يحدث مرة ان يسحقه قطار ! » وفي وقت لا يتجاوز
فترة البرق بدا له ان كل شيء قد سوّى : خطابه في المؤتمر ، ربما نيابة الرئاسة ..
ولكنه في نفس الوقت يشاهد الصغير على نعش ؛ ثم موقفه ، هو الأب البائس ،
في كنيسة مشتعلة ، وشفقة الجميع .. انه يشعر بالخجل . وقال بصوت مرتفع :
- انقضي الليل في هذا القلق ! هذا أمر شاق أيها الكاهن ، هذا شاق على

والد أن يمر بساعات كهذه .

وسار نحو الباب . وسحب الكاهن يديه من تحت حزامه ، وقال خافضاً

صوته :

- اسمح لي .

وكانت الثريا تنير جبهته التي اختفى نصفها تحت خصلة شعر سوداء ، ووجهه الهزيل الذي استدق بشكل مثلث حتى الذقن . وبدت بقعتان حمراوان على خديه .

- اننا نتردد منذ هذا المساء في اخبارك قصة عن ولدك . - مع انها لا تزال حديثة العهد - وتدعو للأسف .. ولكننا ، بعد كل شيء ، نعتبر ان بالامكان الحصول على بعض الأدلة عليها .. ولو كان لديك لحظة يا سيد ...

كانت اللهجة البيكاردية تثقل على ترده . اما السيد تيبو فقد عاد نحو كرسيه دون أن يجيب ، وجلس بتثاقل مطبق العينين . وتابع الكاهن :

- لقد أظهرنا في هذه الايام الأخيرة اخطاءً لولذلك ذات طابع خاص ... اخطاء خطيرة بشكل خاص . حتى اننا هددناه بالطرده . أوه !! وذلك لتخيفه . ألم يحدثك بشيء ؟ ..

- الا تعرف كم هو مرء ؟ .. لقد كان صموتاً كالعادة .

وقال الكاهن مصححاً :

- ان الغلام العزيز ليس رديئاً في الاصل رغم الاخطاء الأخيرة . ونحن نعتبر انه في هذه المناسبة الأخيرة قد أقدم على الخطيئة بسبب الضعف ، بسبب الانقياد : تأثير رقيق خطر ، كما هو موجود بكثرة ، مع الاسف ، في مدارس الدولة ..

ووجه السيد تيبو إلى الكاهن نظرة قلقة .

- هذه هذه الوقائع أيها السيد ، بالترتيب : نهار الخميس الماضي ..

واستجم هنية وتابع بلهجة شبه مرحة :

- كلا ، عفواً . كان ذلك نهار الجمعة قبل البارحة ، نعم ، صباح الجمعة

اثناء فترة الدرس ، قبل الظهر بقليل . وقد دخلنا إلى القاعة بسرعة كما نفعل دائماً — وطرف بعينه لناحية انطوان — لقد ادركنا الزر دون ان يتحرك الباب . وفتحنا بدفعة واحدة . ولدى دخولنا سقطت أنظارنا على الصديق جاكو الذي كنا قد وضعناه مقابل بابنا تماماً . وسرنا إليه ، وأزحنا قاموسه . لقد علق ! وامسكنا بالكتاب المشبوه : رواية مترجمة عن الإيطالية لمؤلف نسينا أسمه بعنوان : « عذراوات الصخور » .

فصاح تيبو :

— ما أنظف هذا !

— وبدأت هيئة الغلام القلقة انه يخفي شيئاً . ونحن معتادون على ذلك واقتربت ساعة الطعام . وعندما قرع الجرس طلبت من استاذ الدرس ان يسير بالتلامذة إلى غرفة الطعام . وحين بقينا لوحدها رفعنا قمطر جاك : كتابان آخران : « الإعترافات » لجان جاك روسو ، أما ما هو أقل طهارة ، عفواً يا سيد ، فرواية سافلة لزولا : « غلطة الأب موريه » .

— أه ! التافه !

— وكدنا نعيد اغلاق القمطر حين جاءتنا الفكرة بأن ندخل اليد وراء صف الكتب المدرسية ، حيث رجعنا بدفتر ذي قماش رمادي اللون لم يكن عليه أي طابع مخالفة خفية . وفتحناه وتصفحنا الصفحات الأولى ..

ونظر الكاهن إلى الرجلين بعينه الحيتين الخاليتين من الرقة وتابع :

— وعرفنا ما نريد ان نعرفه . ووضعنا غنيمتنا في مأمن . وقد استطعنا اثناء فرصة الظهر ان نقوم بجردة على مهل . كانت الكتب مجلدة باعتناء وتحمل في أسفل الظهر حرف : ف . أما الدفتر الرمادي ، المستند الرئيسي — المستند المقنع ، — وكان نوعاً من دفتر مراسلات ؛ كتابتان متباينتان جداً : كتابة جاك مع توقيع : ج ؛ وكتابة أخرى لا نعرفها ، موقعة بحرف د كبير . وتوقف ، وخفض صوته :

— اللهجة ، ومضمون الرسائل لا يتركنا أي شك ، مع الأسف ، حول

طبيعة هذه الصداقة . إلى درجة اننا اعتقدنا يا سيد ان هذه الكتابة المحكة المطولة هي كتابة فتاة ، أو بالأحرى كتابة امرأة ..

واخيراً ، بعد ان حللنا النصوص ، أدركنا ان هذه الكتابة المجهولة كانت كتابة أحد رفاق جاك ، وليست كتابة تلميذ من مؤسستنا ، والحمد لله ، ولكنها من غلام كان جاك يلتقي به دون شك في المدرسة . ولكي نتأكد ، ذهبنا في ذلك النهار إلى المراقب - ذلك الشجاع السيد كيلار . - قال ذلك ملتفتاً إلى انطوان . - وهو رجل صلب ذو تجربة كثيفة مع التلامذة الداخليين . وجرب حالاً اثبات الهوية . فالغلام المتهم الذي يوقع بحرف : د ، هو تلميذ في الصف الثالث ، ورفيق لجاك ، ويدعى فوتتانان ، دانيال دي فوتتانان .

فهتف انطوان :

- فوتتانان ! بالتأكيد ! اتعرف يا أبي اولئك الذين يسكنون ميزون - لافيت ، صيفاً ، بقرب الغاب ؟ .. فعلاً ، فعلاً ، ففي هذا الشتاء ، عندما كنت أعود مساء فاجأت جاك عدة مرات وهو يقرأ كتباً شعرية أعارها إياها فوتتانان هذا .

- كيف ؟ .. كتب مستعارة ؟ أما كان عليك ان تخبرني ؟ ..

- لم يكن هذا يبدو لي خطراً .

أجاب انطوان وهو يتطلع إلى الأب كأنه يعارضه ؛ وفجأة أضاءت وجهه المتأمل ابتسامة صغيرة جداً مرت بسرعة . وقال موضحاً :

- انها لفكتور هيفو ولامارتين . وقد صادرت له القنديل لأجبره على

النوم .

وكان الكاهن قد ترك فمه مفتوحاً فقال ثائراً لنفسه :

- ولكن هناك ما هو أكثر خطراً : ان فوتتانان هذا هو بروتستانتى .

وصاح السيد تيبو مرهقاً :

- ايه ، أعرف ذلك جيداً .

وقال الكاهن على الأثر مظهرأً إنصافه :

— ومع ذلك فهو تلميذ ممتاز . وقد قال لنا السيد تيلار : « انه كبير ويبدو رصيناً ؛ وهو يخدع من حوله ! والأم أيضاً تبدو انها جيدة » .

فقال السيد تيبو مقاطعاً :

— أوه !. الام .. أناس صعب رغم هيئاتهم الوقورة .

وتدخل الكاهن بمهارة :

— وبعد ، فإن ما تحبّه رصانة البروتستانت معروف !

— ومهما كان الأمر ، فالأب متقلب حسب مصالحه .. وفي ميزون لا يستقبله

احد ؛ ولا يكادون يلقون عليه التحية . آه ! يستطيع أخوك ان يفخر بحسن انتقاء علاقاته .

وقال الكاهن :

— مهما كان الأمر ، فقد عدنا من المدرسة عارفين بكل شيء . وكنا على

استعداد لفتح تحقيق حسب الأصول عندما قام الصديق جاك بهجوم على مكتبنا

البارحة ، نهار السبت ، عند بدء دروس الصباح . هجوم بالمعنى الحرفي . كان

شاحباً ، واسنانه تصر . وصاح بنا من الباب دون ان يلقي تحية الصباح :

« لقد سُرقت لي كتب واوراق !.. » فجعلناه يلاحظ ان دخوله كان غير

لائق ابدأ . ولكنه لم يسمع شيئاً . وعيناه الصافيتان عادة أصبحتا قاتمتين من

الغضب . وكان يصرخ : « انتم سرقتم دفترتي ، هذا انتم ! »

واضاف الكاهن بابتسامة بلهاء :

— وقال لنا أيضاً : « لو تجرأتم على قراءته فساقتل نفسي » . وحاولنا أن

نأخذه باللطف فلم يدعنا نتكلم : « اين دفترتي ؟ اعيدوه الي ! سأحطم كل

شيء الى أن يعاد إلي ! » وقبل ان نستطيع منعه أخذ عن مكتبنا مكبس

ورق من البلور . — اتعرفه يا انطوان ؟ انه تذكّار جاءنا به تلامذة قدامى من

بوي - دي - دوم . — وقذفه بكل قوته على رخام المدخنة . انه أمر تافه -

اسرع الكاهن مضيقاً ليجيب على حركة السيد تيبو المهمة . — ونحن ندلي إليكم

بهذه التفاصيل لتريكم الى أية درجة من الهوس توصل ولدكم العزيز . وهنا أخذ

يتدحرج على الأرض عرضة لنوبة عصبية حقيقية . وقد استطعنا التخلص منه
ودفعناه الى غرفة صغيرة للقراءة ملاصقة لمكتبنا وأقفلنا عليه .

فقال السيد تيبو رافعاً قبضتيه :

- آه ! منذ عدة أيام وهو كأنه مصاب بمس ! سل انطوان : ألم نره
يتعرض لمثل هذه الحالات من الهياج لمجرد معاكسة بسيطة ؟ كان يَزْرَقُ
وتنتفخ أوردة عنقه ، ويكاد يختنق من الغضب !

وقال انطوان مؤكداً :

- ذلك لأن جميع آل تيبو من ذوي العنف .

وكان يبدو انه يشعر بقليل جداً من الاسف بحيث ظن الكاهن ان من واجبه
أن يبتسم ملاطفاً ، وتابع :

- وحين كنا نعمل على إنقاذه بعد ساعة ، جلس أمام المنضدة ورأسه بين
يديه وأخذ يقذفنا بنظرة خفيفة . وكانت عيناه جافتين ، وقد طلبنا منه أن
يعتذر ، فلم يجبنا . وكان يتبعنا مطيعاً الى مكتبنا ، وعيناه في الأرض بهيئة
عنيدة . وقد جعلناه يلتقط بقايا مكبس الورق المحطم ولكن دون أن يكف
عن الشد على أسنانه . وعندئذ سرنا به الى الكنيسة ، معتقدين ان من المناسب
ان نتركه وحيداً مع الله طوال ساعة كاملة . ثم جئنا وركعنا بجانبه ، وقد بدا
لنا في تلك اللحظة انه ربما كان يبكي ؛ ولكن الكنيسة كانت مظلمة ، ولم نجرو
على التأكد . وصلينا عشر مرات بالسبحة وبصوت منخفض ؛ ثم وبخناه ،
وصورنا له غم والده عندما يعلم ان رفيقاً رديئاً قد لوث طهارة ولده العزيز
وكان قد صالب ذراعيه على صدره ورفع رأسه ، وعيناه ناظرتان الى المذبح
كأنه لم يسمعا . وحين رأينا ان هذا العناد قد طال ، ألزمناه بالعودة الى
الدرس . وظل هناك حتى المساء ، في مكانه ، وذراعه متصلبان دائماً دون أن
يفتح كتاباً . ولم نكن نريد أن نبدي اهتماماً بذلك . وفي الساعة السابعة ذهب
كالعادة دون أن يأتي لتحتينا .

واختتم الكاهن حديثه بنظرة فيها الكثير من الحيوية وقال :

— هذه هي الحكاية كلها يا سيد ، ولكي نخبركم بذلك كنا ننتظر المجازاة التي اتخذها مراقب المدرسة بحق ذلك العادم الخطوة المسمى فوتتانان : طرد بحت وبسيط دون شك . ولكن حين رأيته قلقاً هذا المساء ...

فقاطعه السيد تيبو وقد ضاق نفسه كأنه كان يركض :

— يا سيدي الاب ، لقد قضي علي . وهل أنا بحاجة لأقول لك ! حين أفكر بما يمكن أن تحبته لنا أمثال هذه الحشرات ! لقد قضي علي .

وردد ذلك بصوت حالم ، منخفض تقريباً ، وظل جامداً ، ورأسه الى الامام ، واليدان على الفخذين . ولولا الرجفة التي لا تكاد تُرى ، والتي كانت تحرك شفته السفلى ولحيته البيضاء تحت شاربيه الرماديين ، لأكسبته جفونه المنخفضة هيئة رجل نائم .

— التافه !

هكذا صرخ فجأة ، دافعاً فكه الى الامام ؛ وكانت النظرة النافذة التي تفرقت في تلك اللحظة من بين الاهداب تسجل الكثير من الاحتقار ، وقد ظل وقتاً طويلاً على جموده الظاهر . وأطبق عينيه ، وأدار جسده نحو انطوان . والشاب لم يجب على الأثر ، بل كان يمسك لحيته بيده ، عابساً ، ناظراً الى الارض . وقال :

— سأمر على المستشفى لكي لا يعتمدوا علي غداً . وسأذهب منذ الساعة الاولى لأسأل فوتتانان هذا .

فردد السيد تيبو آلياً ، ثم انتصب واقفاً :

— منذ الساعة الاولى ؟ وبانتظار ذلك ستكون ليلة بيضاء .

وتأوه ، وسار نحو الباب . وتبعه الكاهن . وعلى العتبة مد الرجل الكبير يده للدنة الى الكاهن وقال متأوهاً دون أن يفتح عينيه :

— لقد قضي علي .

فقال الاب بينو بأدب : سنصلي للرب ليساعدنا جميعاً .

ومشى الأب والابن بضع خطوات صامتين ، وكان الشارع مقفراً .

وسكنت الريح ، والامسية حلوة . انها الايام الاولى من شهر ايار .
وكان السيد تيبو يفكر بالهارب . « لو كان في الخارج فهو على الاقل لن
يبرد كثيراً » . وبعث التأثير الوهن في ساقيه . ووقف والتفت الى ولده . وقد
أعادت إليه هيئة انطوان شيئاً من الاطمئنان . كان يحب ولده البكر ؛ وهو
فخور به . وهذا المساء كان يحبه بشكل خاص لأن حقه على ولده الثاني قد
ازداد ، لا لأنه غير قادر على محبة جاك : فقد كان يكفي أن ينيله الصغير شيئاً
يرضي كبريائه حتى يوقظ حنوه ؛ ولكن تصرفات جاك الخاطئة وانحرافاته
كانت تصيبه دائماً في النقطة الأكثر حساسية ، في حب الذات . وقال مدمماً :
- بشرط ألا يسبب كل ذلك الكثير من الفضيحة !

ثم اقترب من انطوان ، وتغير صوته ، وقال :
- انا مسرور لأنك استطعت أن تبدل مناوبتك هذه الليلة .
وخجل من العاطفة التي افصح عنها . اما الشاب الذي كان أكثر قلقاً من
والده فلم يجب .

وتم السيد تيبو وهو يزلق ، ربما لأول مرة ، ذراعه تحت ذراع ولده :
- انطوان .. انا مسرور لوجودك بقربي هذا المساء يا عزيزي .

٢

في نهار الاحد هذا ، وجدت مدام دي فونتنان ، عند عودتها حوالى الظهر ،
كلمة من ولدها في دهليز البيت ، فقالت لجنى :
- لقد كتب دانيال يقول انه أبقي على الغداء عند آل برتبه . ألم تكوني
هنا حين جاء ؟
- دانيال ؟

ثم ارتمت على قوائمها الاربع لتمسك بكلبتها الصغيرة المتلبدة تحت كنبه .
ولم تكد تنهض حتى قالت :

– كلا : لم أره

ثم اخذت الكلبة بوس بين ذراعيها وهربت وثباً الى غرفتها مغطية الحيوان بالمداعبات .

وعادت ساعة الغداء وقالت :

– اشعر بصداع . لست جائعة ، وأريد ان استلقي في الظلام .

ووضعتها مدام دي فوتتانان في سريرها وأسدت الستائر . وتغلغت جني تحت الاغطية . واستحال النوم . ومضت الساعات ، وجاءت مدام دي فوتتانان عدة مرات في النهار لتضع يدها اللدنة على جبهة الطفلة . وعند المساء ، وكانت قد خارت قواها من الشفقة والقلق ، امسكت الصغيرة بتلك اليد وقبلتها دون ان تستطيع امساك دموعها .

– انت مهتاجة الاعصاب يا عزيزتي .. يجب ان يكون عليك شيء من الحمى .

ودقت الساعة السابعة ، ثم الثامنة . وكانت مدام دي فوتتانان تنتظر ولدها لتجلس الى المائدة . ليس من عادة دانيال ان يتغيب عن وجبة طعام دون ان يخبرهم .. وخصوصاً لم يكن يدع امه وأخته تتناولان غداءهما وحيدتين نهار الاحد . وأسندت مدام دي فوتتانان مرفقها الى الشرفة . وكان المساء هادئاً . وهناك مارة قلائل يسرون باتجاه جادة الاوبسرفاتوار . واشتد الظلام بين كثافة الاشجار . وظلت عدة مرات انها عرفت دانيال من خطواته على ألقى المصابيح . وقرع الطبل في حديقة اللوكسمبورغ . واقفل حاجز القضبان المشتبكة . وجاء الليل .

واعتمرت قبعتها وركضت الى منزل آل برتيه : كانوا في الريف منذ البارحة . لقد كان دانيال يكذب .

وكان لدى مدام دي فوتتانان تجربة عن هذه الاكاذيب ؛ ولكن من دانيال ، من دانيالها ، فهذه الكذبة هي الاولى ! وقد بلغ الرابعة عشرة من عمره . ولم تكن جني قد نامت ، كانت تترصد الجلبة ، ونادت امها :

— ودانيال ؟

— لقد نام . فقد ظن انك نائمة ولم يشأ ان يوقظك .

كان صوتها طبيعياً ، وما الفائدة من إخافة الطفلة ؟

واصبح الوقت متأخراً . وجلست مدام دي فونتنان على كنبه بعد ان فتحت باب الرواق قليلاً لتسمع ولدها وهو عائد .

ومضى الليل كله ، وجاء النهار .

حوالي الساعة السابعة انتصبت الكلبة مزجرة . فقد دق الجرس . واندفعت مدام دي فونتنان في الدهليز ؛ كانت تريد ان تفتح بنفسها . ولكنه كان شاباً ملتجئاً لا تعرفه .. حادث ؟ ..

وذكر انطوان اسمه ؛ وطلب ان يرى دانيال قبل ان يذهب هذا إلى المدرسة .

— ولكن ولدي قد اختفى هذا الصباح .

واتى انطوان بحركة تدل على الدهشة .

— عفواً إذا ألححت يا سيدتي .. فإن أخي الذي هو صديق حميم لولدك قد اختفى منذ البارحة . ونحن قلقون جداً .

— اختفى ؟ ..

وتشجبت يدها على الحمار الأبيض الذي كانت تغطي شعرها به . وفتحت باب غرفة الاستقبال ، وتبعها انطوان .

— ودانيال أيضاً لم يعد البارحة يا سيد . وانا قلقة أيضاً .

وكانت قد خفضت رأسها ، ثم رفعت على الأثر ، وازافت :

— بالإضافة إلى ان زوجي في هذه اللحظة غائب ايضاً في باريس .

كانت امائر هذه السيدة توحى ببساطة وصدق لم يلتق بها انطوان في الخارج . أما وقد فوجئت هكذا ، وبعد ليلة من السهر وتشوش قلقها ، فإنها قدمت لنظر الشاب وجهاً عارياً ، تتتابع العواطف عليه كأنغام واضحة . وتطلعا ببعضها البعض عدة ثوان دون ان يرى أحدهما الآخر . فقد كان كل منهما

يتبع وثبات تفكيره .

كان انطوان قد قفز من السرير بنشاط شرطي . ولم يحمل هرب جاك على محمل الأمر الفاجع ، إلا أن فضوله وحده كان في حالة عمل : وقد جاء يسير غور « الآخر » ، شريك الذنب الصغير . ولكن ها ان الأمر يتعقد مرة أخرى . وقد شعر باللذة من جراء ذلك . وما ان كان يفاجأ بالحادث هكذا حتى تصبح نظراته مشؤومة ، وتحت الذقن المربعة ، فإن الفك ، فك آل تيبو القوي ، يشد تماماً . وسأل :

— في أية ساعة ذهب ولدك صباح البارحة ؟..

— باكراً ، ولكنه عاد ، بعد قليل ..

— آه ! بين العاشرة والنصف والحادية عشرة ؟..

— تقريباً .

فاستنتج بلهجة واضحة ، شبه فرحة :

— مثل جاك . فقد ذهباً معاً .

ولكن الباب الذي ظل مفتوحاً قليلاً فُتح في هذه اللحظة ، وسقط جسد ولد بقميص النوم ، على الطنفسة . فأطلقت مدام دي فونتنان صرخة . وكان انطوان قد رفع الأبنية المغمى عليها وحملها بين ذراعيه ؛ ودلته مدام دي فونتنان فسار بها الى غرفتها ووضعها على سريرها .

— لا عليك يا سيدتي . أنا طيب . ماء بارد . هل عندكم أثر ؟

واستعادت جني وعيها حالاً . وابتسمت أمها لها ، ولكن عيني الطفلة ظلتا

قاسيتين . وقال انطوان :

— ليس في الأمر شيء . يجب أن تنام .

— أسمع يا عزيزتي ؟..

هكذا تمت مدام دي فونتنان ، ويدها الموضوعة على جبهة الفتاة الرطبة انزلقت حتى الجفون وأبقتها مطبقة .

كانا واقفين على جانبي السرير لا يتحركان . والأثير المتبخر كان يعطر

الغرفة . وكان نظر انطوان ، المتطلع أولاً باليد اللطيفة وبالذراع الممدود ، يفحص مدام دي فونتنان من طرف خفي . وكانت المحرمات (الدانتيل) التي تغطيها قد سقطت ؛ وشعرها أشقر ولكنه مخطط بفتائل رمادية ؛ يجب أن تكون في الأربعين مع ان مشيتها وحركة قسايتها تدل على امرأة فتية . وبدأت جني انها نامت . وانسحبت اليد الموضوعه على عيني الطفلة بخفة جناح . وتركها الغرفة على رؤوس الأصابع تاركين الأبواب مفتوحة قليلاً . وكانت مدام دي فونتنان تسير في المقدمة ؛ والتفتت قائلة :
— شكراً .

قالت ذلك مادةً يديها . كانت الحركة عفوية ، مذكّرة ، بحيث ان انطوان أخذ هاتين اليدين وشد عليها دون ان يجرؤ على وضع شفتيه عليها . وقالت موضحة :
— هذه الصغيرة عصبية جداً . لقد سمعت بوس تنبح فركضت طائشة ان أخاها قد جاء . ليست على ما يرام منذ صباح البارحة وقد انتابتها الحمى طول الليل .

وجلسا . وسحبت مدام دي فونتنان من صدرها العبارة التي كتبها ولدها البارحة وقدمتها إلى انطوان . وكانت تنظر اليه وهو يقرأ . كانت دائماً تقاد بغريزتها في علاقاتها مع الكائنات . وقد شعرت منذ الدقائق الأولى انها في حالة ثقة بجانب انطوان . وكانت تفكر : « الرجل الذي يحمل هذه الجبهة لا يقوم بعمل سافل » . وكان شعره مرفوعاً ولحيته كثيفة على الحدين ، بنوع ان العينين الغامضتين ومثلث الجبهة الابيض تؤلف كل وجهه بين هاتين الكتلتين القاتنتين بلونها الرمادي الأسمر تقريباً . وبدأ انه يفكر بما قرأه ؛ كان في الواقع يبحث عن وسيلة ليقول بعض الأمور . وقد قال ملمحاً :

— في رأيي ، اعتقد ان من اللازم ان نقرر وجود رابط بين هربها وهذا الواقع : هو ان صداقتها .. وعلاقتها قد اكتشفنا من قبل الاساتذة .
— اكتشفنا ؟

- ولكن نعم . فقد وجدت مراسلاتها في دفتر خاص .
- مراسلاتها ؟

- كانا يتراسلان اثناء الدرس . رسائل ذات لهجة خاصة كما يبدو - ثم كف
عن التطلع اليها - إلى درجة ان المذنبين قد هُددوا بالطرد .
- مذنبان؟ .. اعترف لك بأنني لا أرى جيداً . مذنبان بماذا ؟ بالتراسل؟
- لهجة الرسائل كما يبدو كانت ..
- لهجة الرسائل؟ ..

لم تكن تفهم شيئاً ، ولكنها كانت كثيرة الحساسية لتلاحظ منذ لحظة قلقي
انطوان المتزايد ؛ وفجأة هزت رأسها وصرخت بصوت مرغم . مرتجف
قليلاً :

- كل هذا خارج الموضوع يا سيد .
وبدا أن هناك مسافة فصلت بينها فجأة ، فنهضت قائلة :
- ليكن أخوك وولدي قد رتبا معاً لا أدري أي هرب ، هذا ممكن ؟ مع
ان دانيال لم يلفظ ابداً أمامي اسم ..
- تيبو .

فرددت بدهشة دون ان تتم عبارتها :
- تيبو ؟ هذا غريب : لقد لفظت ابنتي هذا الاسم بوضوح في هذه الليلة ،
اثناء كابوس .

- لقد استطاعت ان تسمع اخاها وهو يتحدث عن صديقه ..
- كلا ، أقول لك ان دانيال ابداً ..
- كيف عرفت ؟ ..
فقالت :

- أوه ! هذه الظاهرات الخفية مألوفة كثيراً .
- أية ظاهرات ؟

وكانت واقفة ، وقسماتها رصينة وذاهلة ، فقالت :

— انتقال الافكار .

كان الإيضاح واللهجة جديدين عليه بحيث تطلع اليها بفضول . ولم يكن وجه مدام دي فونتنان وقوراً فقط ، بل متألّفاً ، وتتوه على شفيتها نصف ابتسامة لمؤمنة معتادة على اقتحام ارتيابية الغير في هذه المواد .

وخيم الصمت . وخطرت لانطوان فكرة ؛ فقد استيقظ فيه نشاط الشرطي :

— عفواً يا سيدتي : أقلت لي ان ابنتك لفظت اسم أخي ؟ وانها اصيبت

طوال نهار البارحة بحمّى لم تعرف اسبابها ؟ ألا يمكن ان تكون قد تلقت اعترافات من ولدك .

فأجابت مدام دي فونتنان بتعبير متسامح :

— هذا الشك ينهار من تلقاء نفسه يا سيد . لو كنت تعرف ولديّ وطريقة

تصرفها معي . ليس عند هذه ولا ذاك اي شيء يخفيانه عن ...

وسكتت ؛ فقد لدغتها خيبة الأمل التي أصيبت بها من سلوك دانيال . وقالت

على الأثر بشيء من التعالي ، وهي تتقدم نحو الباب :

— ومع ذلك ، فسل جني إذا كانت لم تم .

كانت عينا الطفلة مفتوحتين . ووجهها الدقيق منفصل عن الوسادة ؛

ووجنتاها محمومتان ، تضم بين ذراعيها الكلبة الصغيرة التي كان حلقومها الاسود

يتجاوز حافة الغطاء بشكل مضحك .

— جني . هذا السيد تيبو ، شقيق صديق دانيال كما تعلمين .

فألقت الطفلة على الغريب نظرة جشعة ، ثم حذرة . واقترب انطوان من

السريّر ، وأخذ معصم الفتاة وسحب ساعته . وصرح :

— لا يزال سريعاً .

وأصغى بإذنه الى حالة القلب والصدر . وكان يضع في هذه الحركات المهنية

وقاراً راضياً .

— كم عمرها ؟

— ثلاث عشرة سنة .

- حقيقة ؟ لم اكن اظن ذلك . مبدئياً يجب دائماً مراقبة حركات الحمى دون اي قلق .

قال ذلك متطلعاً بالطفلة ، وابتسم . ثم ابتعد عن السرير واتخذ لهجة اخرى .

- اتعرفين اخي يا آنسة .. جاك تيبو ؟

فعمبت وأتت بإشارة تفيد النفي .

- بالتأكيد ؟ .. ألم يحدثك اخوك الكبير ابدأ عن افضل صديق له ؟

فقالت : ابدأ .

وألحّت مدام دي فونتانان :

- مع ذلك ، في هذه الليلة ، تذكرني . حين أيقظتك كنت تحملين بأن

هناك من يلاحق دانيال وصديقه تيبو على الطريق . لقد قلت تيبو بكثير من الوضوح .

وبدت الابنة انها تبحث ، وقالت اخيراً :

- لا اعرف هذا الاسم .

وقال انطوان بعد صمت :

- يا آنسة ، لقد أتيت اطلب من والدتك ايضاحاً لا تتذكره ، ولابد منه

لإيجاد اخيك : ماذا كان يرتدي ؟

- لا اعلم .

- اذن لم تربه صباح البارحة ؟

- نعم ، عند تناول الفطور . ولكنه لم يكن قد ارتدى ثيابه .

ثم التفتت نحو امها وقالت :

- ليس لك إلا ان تنظري في خزانته ما هي الملابس الناقصة .

- امر آخر يا آنسة ، وهو ذو أهمية كبيرة : هل جاء اخوك ليضع الرسالة

في الساعة التاسعة ، ام العاشرة ، أم الحادية عشرة ؟ امك لم تكن هنا ولا نستطيع الايضاح .

– لا أعلم .

فاعتقد انه لاحظ قليلا من الغضب في لهجة جني . وقال بحركة
لاشجاعة فيها :

– اذن سنتعب كثيراً في إيجاد اثره .

فقالت وقد رفعت ذراعيها لتمسك به :

– انتظر . كان ذلك في الساعة الحادية عشرة الا عشر دقائق .

– بالضبط ؟ أأنت متأكدة ؟

– نعم .

– هل تطلعت بالساعة حين كان معك ؟

– كلا ، ولكنني كنت في تلك الساعة في المطبخ أبحث عن فتات خبز

لأرسم ؛ ولو جاء قبل ذلك ، أو جاء بعده ، لسمعت الباب ولكنك رأيت .

– آه ! هذا صحيح .

وفكر لحظة . ما الفائدة من أن يزيد في تعبها ؟ لقد كان مخطئاً فهي

لا تعرف شيئاً . وقال ، وقد عاد طبيبياً :

– الآن ، يجب ان تظلي دافئة ، اطبقي عينيك ونامي .

وأعاد الغطاء على الذراع الصغير المكشوف ، وابتم قائلاً :

– نتيجة لا بأس بها : حين تستيقظ تكون قد شفيت ويكون الأخ الكبير

قد عاد .

وتطلع إليها . لن يستطيع ابداً ان ينسى ما قرأه في تلك النظرة آنذاك :

لامبالاة كلية بأي تشجيع ، وحياة داخلية قاسية جداً ، وضيقة كهذه في

وحدة كهذه . لقد اضطرب لإراديًا وخفض عينيه . وقال حين عاد الى

غرفة الاستقبال :

– انت على حق يا سيدتي . هذه الطفلة هي البراءة نفسها . انها تتعذب

بشكل خفيف ولكنها لا تعرف شيئاً .

فرددت مدام دي فونتنان حاملة :

- انها البراءة نفسها ، ولكنها تعرف .

- تعرف ؟

- تعرف ..

- كيف . اجوبتها ، بالعكس ..

فأجابت ببطء :

- نعم ، أجوبتها .. ولكنني كنت بقربها .. وشعرت .. لا اعرف كيف أوضح .

وجلست ، ثم نهضت حالاً . كان وجهها معذباً ؛ وهتفت فجأة :

- انها تعرف ، انها تعرف ، الآن أنا متأكدة . وأشعر أيضاً انها تموت ولا

تفشي سرها .

بعد رحيل انطوان ، وقبل ان تذهب مدام دي فوتتانان لتسأل السيد كيلار مراقب المدرسة ، بناء على نصيحته ، استجابت لفضولها وفتحت دليل « كل باريس » :

- تيبو (اوسكار ماري) - فارس في جوقة الشرف - نائب قديم لمنطقة اور - نائب رئيس العصبة الاخلاقية لاستعمال الوسائط الكاملة لولادة اطفال اصحاء - مؤسس ومدير اعمال الوقاية الاجتماعية - خازن نقابة الاعمال الكاثوليكية في اسقفية باريس - ٤ مكرر ، شارع الجامعة (الدائرة السابعة) .

٣

بعد مضي ساعتين على زيارة مدام دي فوتتانان لمكتب المراقب ، وقد خرجت منها دون جواب ، ملتهبة الوجه ، لم تكن تعرف من تطلب المساعدة ، ففكرت بالجيء الى السيد تيبو ، بينما اشارت عليها غريزة خفية بأن تتفادى ذلك . ولكنها صرفت النظر ، كما كانت تفعل احياناً ، مدفوعة بميل للمجازفة ، وبروح للتصميم كانت تمزجها بالشجاعة .

عند آل تيبو كانوا يعقدون مجلساً عائلياً حقيقياً . فقد اسرع الأب بينو

مبكراً الى شارع الجامعة ، متقدماً قليلاً على الأب فيكار السكرتير الخاص للمونسنيور رئيس أساقفة باريس ، والمدير الروحي للسيد تيبو وصديق كبير للبيت ، وقد أنبىء بواسطة الهاتف .

والسيد تيبو الجالس الى مكتبه يبدو كأنه يرأس محكمة . وقد نام نوماً سيئاً ، وصبغته الآحية كانت اكثر بياضاً من المعتاد . والسيد شاسل ، سكرتيه ، وهو قزم ذو وبر رمادي ونظارات ، اتخذ مكاناً الى يساره . وانطوان ظل واقفاً ، مفكراً ، مستنداً الى المكتبة . والمدموازيل نفسها كانت قد دعيت الى الاجتماع مع انها ساعة الأعمال البيتية : الكتفان مغطيان بنسيج صوفي اسود ، وقد وقفت منحنية على حافة كرسيها ، منتبهة وصامتة ؛ وعصائبها الرمادية ملتصقة يجبهتها الصفراء ، وحدقتها ، كحدقتي الغزالة ، لم ينقطعا عن الانتقال من كاهن الى آخر . وأجلس هؤلاء السادة في كل ناحية من الموقد على كنبات ذات مساند عالية .

وبعد استعراض نتائج التحقيق الذي قام به انطوان شكا السيد تيبو من الوضعية . كان ينعم بالشعور باستحسان المحيطين به ، والكلمات التي وجدها ليرسم قلقه حركت قلبه . الا ان وجود معرفه حدا به الى أن يعيد فحص ضميره : هل قام بجميع واجباته الأبوية حيال الولد البائس ؟ لم يكن يعرف بماذا يجب . وانحرف تفكيره : لولا هذا الزنديق الصغير لما حدث شيء ! وزجر ناهضاً :

— صعايليك مثل هذا الفوتنانان ، اما كان يجب ان يسجنوا في بيوت خاصة ؟ وهل من المقبول ان يتعرض أولادنا لمثل هذه العدوى ؟ وكان يروح ويحيي وراء مكتبه ، ويداه وراء ظهره ، وجفونه مطبقة . وقد زاد مع حقه التفكير بالمؤتمر الذي فاتته ، وان كان لن يتكلم فيه .

— مضى عليّ أكثر من عشرين سنة وانا أبذل نفسي في سبيل مشاكل جرائم الأولاد . عشرون سنة وانا أكافح بواسطة عصبات الوقاية ، والنشرات ، وتقارير إلى جميع المؤتمرات ! — ثم قال مديراً وجهه نحو الكهنة : — ألم انشئ في مستعمرتي

المهتمة بإصلاح السجناء في كروي (Crouy) بيتاً خاصاً يخضع فيه الأولاد الفاسدون المنتمون إلى طبقة اجتماعية غير طبقة ابنائنا ، إلى معاملة يقظة بشكل خاص ؟ وبعد ، ان ما أقوله لا يصدق : ان هذا البيت فارغ بشكل دائم ! وهل علي ان اجبر الأهل على ان يسجنوا أبناءهم فيه ؟ اني فعلت كل شيء لأستميل وزارة المعارف العامة إلى ما قمنا به .

وانهى كلامه هازأً كتفيه ، وعاد إلى الجلوس على مقعده قائلاً :

— وهل هؤلاء السادة التابعمون إلى مدرسة بدون رب ^(١) يهتمون بالصحة العامة ؟ ..

في تلك اللحظة قدمت له الوصيفة بطاقة زيارة ، فسألها :

— هل هي هنا ؟

ثم التفت الى ولده دون ان ينتظر الجواب وقال :

— اذهب يا انطوان .

فقال انطوان بعد ان القى نظرة على البطاقة :

— تستطيع ان تعتذر عن استقباليها .

وكاد السيد تيبو يفضب ، ولكنه تمالك حالاً ووجه الكلام إلى الكاهنين :

— مدام دي فونتنان ! .. ما العمل أيها السادة ؟ ألسنا ملزمين بالاحترام

حيال امرأة مها كانت ؟ وهذه ، أليست اماً قبل كل شيء ؟ ..

فتمتم السيد شاسل ، ولكن بصوت منخفض جداً كأنه يوجه الكلام إلى نفسه .

ماذا ؟ .. ام ؟ ..

وتابع السيد تيبو : ادخل هذه السيدة .

وحين ادخلت الوصيفة الزائرة ، نهض وانحنى بشكل احتفالي .

١ - عبارة اطلقها الاكبروس في فرنسا يوم فصل التعليم عن الكنيسة والغيث العلوم الدينية من المدارس الرسمية واستعويض عنها بعلم الاخلاق .

لم تكن مدام دي فونتانان تتوقع وجود كثير من الناس . وشعرت على العتبة
بتردد لم ينتبه اليه أحد ، ثم خطت نحو المدموازيل . وكانت هذه قد وثبتت عن
مقعدتها وتفحصت البروتستانتية بعينين خائفتين ليس فيها شيء من الحرارة ،
يحملانها تشبه ليس غزالة بل دجاجة . وتمتعت مدام دي فونتانان :

— مدام تيبو ، دون شك ؟

فأسرع انطوان وقال :

— كلا يا سيدتي . انها الآنسة دي ويز التي تعيش معنا منذ أربع عشرة
سنة - منذ موت والدتي - والتي ربنا ، أخي وأنا .

وقدم السيد تيبو الرجال . وقالت مدام دي فونتانان ، وهي مضطربة من
النظرات المصوبة إليها ، ولكن دون ان تفقد شيئاً من طلاقة اللسان :

— عفواً لإزعاجك يا سيد . جئت لأرى إذا كان منذ هذا الصباح ... ان
مصيبتنا متشابهة يا سيد . وقد فكرت ان من الأفضل ... ان نوحّد جهودنا ،
أليس كذلك ؟ ..

أضافت ذلك بنصف ابتسامة لطيفة وكثيرة . ولكن نظرتها اللطيفة التي
كانت تتبع نظرة السيد تيبو لم تلاق سوى قناع أعمى .

عندئذ بحث بعينها عن انطوان ! ورغم المسافة الجافة التي وضعتها بينها
نهاية حديثها السابق ، فقد دفعتها بواعثها نحو هذا الوجه القاتم الصادق . وهو
نفسه شعر عندما دخلت بوجود نوع من التحالف بينها . وقد اقترب منها وقال :
— ومريضتنا الصغيرة يا سيدتي ، كيف حالها ؟ ..

فقطع السيد تيبو كلامه . وكانت حمّاه لا تفصح عن نفسها إلا بواسطة
هزات الرأس ليبرز ذقنه . وادار نصفه الأعلى نحو مدام دي فونتانان ، وبدأ
بنبرة معتادة :

— هل أنا بحاجة يا سيدتي لأقول لك انه ما من أحد يستطيع ان يفهم قلقك
أكثر مني ؟ لقد كنت أقول لهؤلاء السادة انه لا يمكن التفكير بهؤلاء الأولاد
المساكين دون ان ينقبض القلب . ومع ذلك فلاني لا أتردد في القول يا سيدتي :

هل العمل المشترك مرجو؟.. بالتأكيد ، يجب العمل ، يجب إيجادهما ؛ ولكن أليس من الأفضل أن تكون ابحاثنا منفصلة ؟ أريد ان أقول : ألا يجب علينا ان نخشى قبل كل شيء عدم رصانة الصحفيين ؟.. لا تدهشي إذا كنت اكلمك بلغة رجل تضطره وضعيته إلى شيء من الحذر حيال الصحافة ، وحيال الرأي العام .. فيما يتعلق بي ؟.. كلا ، بالتأكيد ، فأنا والحمد لله فوق نقيض الحزب الآخر . ولكن ألا يمكن ان يحاولوا من خلال شخصي ، واسمي ، ان يصلوا إلى الأعمال التي أمثلها ؟.. ثم اني افكر بولدي . أليس من واجبي ان اتجنب بأي ثمن ، وفي مغامرة دقيقة كهذه ، ان يلفظ اسم يحانب اسمنا ؟.. أليس واجبي الاول ان أعمل حتى لا يمكنهم ذات يوم من ان يجابهوه ببعض العلاقات - العرضية واعرف ذلك - ذات الطابع الضار ، إذا استطعت ان أقول عن حق ؟..

وختم متوجهاً بالكلام إلى الأب فيكار ، فاتحاً جفونه لحظة :

— أستم من هذا الرأي يا سادة ؟

وشحب لون مدام دي فوتتانان ، وتطلعت دورياً بالكهنة ، وبالمدموازيل وبأنطوان : فكانت تصطدم بوجوه صامتة ، وهتفت :

— أوه ، أرى يا سيدي ان ...

ولكن حنجرتها انقبضت ؟ وتابعت يجهد :

— أرى ان شكوك السيد كيلار .. وصمتت من جديد . — هذا السيد

كيلار رجل بائس ، نعم بائس ، رجل بائس .

هكذا هتفت اخيراً بابتسامة مرة .

وظل وجه السيد تيبوا مستغلقاً ؛ وارتفعت يده المسترخية نحو الأب بينو كأنه يريد ان يتخذه شاهداً ويؤليه حق الكلام . فارتمى الكاهن في المعركة بسرور جرو بندوق :

— اننا نجيز لأنفسنا ان نجعلك تلاحظين يا سيدي انك رفضت تحقيقات

السيد كيلار المؤلة دون ان تعرفي ما يثقل على السيد ولدك من اعباء ..

بعد ان قاست مدام دي فوتتانان الأب بينو بنظرها ، خاضعة دائماً لغريزتها

في الكائنات ، التفتت نحو الأب فيكار . وكانت النظرة التي يوجهها اليها ذات عذوبة تامة . ووجهه النائم الذي تمتد فيه بقية من شعر منتصب كالفرشاة حول صلته ، يشي ببلوغه الخمسين . وقد أسرع بالتدخل شاعراً بنداء الهرطقة الصامت :

— الجميع هنا ياسيدي يعلمون كم ان هذا الحديث مؤلم بالنسبة إليك . وثقتك بولدك مؤثرة للغاية ، ومحترمة للغاية ..

وأضاف وسبابته ترتفع ، بحركة مألوفة لديه ، حتى شفتيه دون ان ينقطع عن الكلام :

— ولكن مع ذلك ، فالوقائع ياسيدي ، مع الأسف ..
وتناول الأب بينو الكلام بكثير من الرقة ، كما لو ان زميله ترك له الكلام :
— يجب ان نقولها ياسيدي : الوقائع مرهقة .
فتمتعت مدام دي فونتانا وهي تلتفت :
— ارجوك ياسيد .

ولكن الكاهن لم يستطع ان يمك نفسه فصاح وقد أسقط قبعته وسحب من حزامه دفترأ رمادي اللون ذا حافات حمراء :
— ومع ذلك ، فأليك مستند الاقناع . إلق عليه نظرة فقط ياسيدي :
ومهما كان من المؤلم ان نزيل من نفسك كل شك فاننا نعتبره ضرورياً ، وانك ستعلمين به .

وخطا خطوتين نحوها ليضطرها الى أخذ الدفتر ، ولكنها نهضت وقالت :
— لن اقرأ منه سطوراً أيها السادة . النفاذ الى أسرار هذا الولد امام الناس ، وبغيباه ، دون ان يستطيع الايضاح على الأقل ! اني لم أعوده على أن أعامله هكذا .

وظل الاب بينو واقفاً ، ماداً ذراعه وعلى شفتيه الرقيقتين ابتسامة مرغبة وقال أخيراً برنة هازئة :
— لن تلج .

ثم وضع الدفتر على المكتب ، والتقط قبعته وعاد الى الجلوس . وشعر انطوان برغبة في أن يسكه بكتفيه ويلقيه خارجاً . وتلاقت نظرتيه الواشية بنفوره بنظرة الأب فيكار وتوافقنا لحظة .

إلا أن مدام دي فونتنان غبرت موقفها : فقد كان على جبهتها المرتفعة تعبير تحد . وتقدمت نحو السيد تيبو الذي لم يترك مقعده :

— كل هذا بلا داع أيها السيد . لقد أتيت فقط أسألك ماذا نويت ان تفعل . فزوجي ليس في باريس الآن ، وأنا وحيدة لأتخذ قرارات ، وأريد على الخصوص أن أقول لك : يبدو لي من المستحسن ان نلجأ الى الشرطة .

فأجاب السيد تيبو بحدة ، وقد جعله الغضب ينتصب واقفاً :

— الشرطة ؟ ولكن هل تفترضين يا سيدتي ان كل شرطة المقاطعات في هذه الساعة ليست على استعداد ؟ لقد تلفنت بنفسي هذا الصباح الى رئيس مكتب مدير البوليس لاتخاذ جميع الاحتياطات بأكبر قدر من الفطنة .. وأرسلت برقية الى مختارية ميزون — لافيت في حالة تفكير الهاربين بالاختباء في منطقة يعرفها واحد منها . وقد أُنذرت شركات الخطوط الحديدية ، ونحافر الحدود ، ومرافقء الاجار ولكن يا سيدتي — باستثناء الفضيحة التي أريد تجنبها بأي ثمن — أليس من الأفضل ، لإصلاح هذين التافهين ، أن يأتونا بهما ، والقيود في أيديهما ، بين اثنين من رجال الدرك ؟ لا لشيء الا ليدكروهما انه لا يزال يوجد في بلادنا البائسة مظهر عدالة لمساندة السلطة الأبوية ؟

فحييت مدام دي فونتنان ، دون أن تحيب ، وسارت نحو الباب . فمالك السيد تيبو نفسه وقال :

— على الأقل ، تاكدي يا سيدتي اننا اذا تلقينا أقل خبر فيسذهب ولدي حالاً ليحمله اليك .

فحنّت وأسها قليلاً ثم خرجت يرافقها انطوان ويتبعها السيد تيبو . وعندما اختفت ضحك الأب بينو قائلاً :

— البروتستانتية !

ولم يستطع الأب فيكار ان يكتم حركة توبيخ :

- ماذا ؟ البروتستانتية ؟

هكذا تلجلج السيد شاس وهو يرجع القهقري كما لو أنه وضع رجله في بركة

القديس برتلي^(١).

٤

عادت مدام دي فونتانا الى منزلها . وكانت جني مسترخية في سريرها ؛
فرفعت وجهها المغموم وسألت أمها بنظرة وأطبقت عينها .
- خذي بوس فالضجة تؤذيني .

وبلغت مدام دي فونتانا غرفتها ، وقد أصيبت بدوار ، وجلست دون
أن تخلع قفازيها . هل كانت الحمى تترصدها هي أيضاً ؟ .. يجب أن تكون
هادئة ، وقوية ، وواثقة بنفسها .. وانحنت جبهتها لتصلي . وحين نهضت كان
لفعاليتها هدف : ان تتصل بزوجها وتستدعيه .

واجتازت الدهليز ، وترددت أمام باب مقفل ، وفتحته . كانت الغرفة
رطبة غير مسكونة ؛ يعبق فيها أريج نبات رعي الحمام *Verveine* والليمون ،
ورائحة زينة نصف متبخرة . فنعثت الستائر . وكان هناك مكتب يشغل
منتصف الغرفة ؛ وغبار دقيق يغطي القرطاس ؛ لم يكن يوجد أية ورقة ،
ولا أي عنوان ، ولا أي أثر . وكانت المفاتيح في الاقفال . ولم يكن الساكن
هنا على شيء من الحذر . وسحبت درج المكتب : رزمة رسائل وبعض الصور ،
ومروحة ، وقفاز من الحرير الاسود في احدى الزوايا .. وفجأة تصلبت يدها
على المنضدة . فقد دأمتها ذكرى ، وأفلت منها انتباهها ، واستقرت نظرتها في
البعيد .. كان ذلك منذ سنتين ، حين كانت تمر في إحدى أمسيات الصيف على

١ - اشارة الى مذبة البروتستانت في هيد القديس برتلي، وفي أيام شارل التاسع ، بأمر من

كارين دي مديس وعائلة دي غيز . وذلك في ليل ١٣ آب ١٥٧٢ . «المغرب»

الأرصفة بالقطار الكهربائي ، ظنت انها رأت - وكانت قد وقفت - وعرفت جيروم ، زوجها ، بجانب امرأة . نعم ، كان منحنيًا نحو امرأة شابة تبكي على أحد المقاعد ! ومنذ ذلك الوقت فإن خيلتها الجافة العاملة حول هذه الرؤية التي استمرت ثانية واحدة ، كان يسرها أن تستعيد التفاصيل مئة مرة : ألم المرأة الوضع ، حيث انقلبت قبعتها وسحبت بسرعة منديلًا كبيراً أبيض من تنورتها الداخلية ؛ وهيئة جيروم على الخصوص ! آه ! كم كانت متأكدة من انها عرفت ، بعد موقف زوجها ، جميع العواطف التي كانت تعتلج في نفسه ذلك المساء ! شيء من الرأفة دون شك لأنها تعرفه ضعيفاً سهل التأثر ؛ والانزعاج أيضاً لكونه موضوع هذه الفضيحة في نصف الشارع ؛ وأخيراً القساوة ! نعم ! في وقفته نصف المنحنية والتي لا استسلام فيها ، كانت واثقة من انها فاجأت الحساب الاناني للعاشق الذي عنده منه ما فيه الكفاية ، والذي كانت تغريه نزوات اخرى دون شك ، فعقد النية على الاستفادة من هذه الدموع ليعلن القطيعة حالاً ، بالرغم من شففته ، وبالرغم من الحجل الخفي . كل هذا ظهر لها واضحاً في لحظة . وفي كل مرة يستولي عليها هذا الضيق فإن نفس الدوار كان يوهن قواها .

وتركت الغرفة بسرعة وأقفلت الباب بالمفتاح .

وخطرت لها فكرة واضحة : تلك الخادمة ، تلك الصغيرة مارييت التي اضطر إلى طردها منذ ستة أشهر .. كانت مدام دي فوتتانان تعرف عنوان عملها الجديد . فكظمت اشمزازها وتوجهت اليها دون ان تزيد من ترددها .

كان المطبخ في الطابق الرابع وله درج للخدمة . والساعة ساعة غسل آنية المطبخ . وفتحت لها مارييت : شقراء ، بشعر قصير ، وحدقتين بدون مقاومة ، طفلة . وكانت وحدها ؛ واحمر وجهها ولكن عينيها تألقتا .

— كم انا مسرورة برؤية السيدة ! والآنة جني ، ألا تزال تكبر ؟ ..

وترددت مدام دي فوتتانان . وكانت ابتسامتها مؤلمة .

— مارييت .. اعطني عنوان زوجي .

فأصبحت الفتاة ارجوانية اللون ؟ وعيناها اللتان تصاعدت منها الدموع ظللتا مفتوحتين . العنوان ؟ .. هزت رأسها لأنها لم تكن تعرف ؛ اي انها لا تعرف شيئاً : فالسيد لم يسكن في الفندق حيث ... ثم ان السيد تركها على الأثر .

وخفضت مدام دي فونتانان عينيها وتقهقرت نحو الباب لتنجو مما يمكن ان تسمعه ايضاً . وساد صمت قصير ؛ ولما كان ماء القدر يتفلت على الوجع متقلصاً فإن مدام دي فونتانان اتت بحركة آلية وتمتت :
- ماؤك يغلي .

ثم اضافت وهي لا تزال تتقهقر :

- أأنت سعيدة هنا على الأقل يا ابنتي ؟ ..

فلم تجب مارييت ؛ ولكن حين التقت نظرتها بنظرة مدام دي فونتانان ، وقد رفعت رأسها ؛ رأت ان شيئاً حيوانياً ينبعث منها : كانت شفتاها المشقوقتان اللتان تشبهان شفتي ولد تكشفان عن الاسنان . وبعد تردد بدا غير منته للالنتين قالت الصغيرة متلجلجة :

- لو تسأل مدام دي بقي-دوتراي .

ولم تسمعها مدام دي فونتانان وهي تبكي . فهبطت الدرج كأنها تهرب من حريق . لقد اوضح لها هذا الاسم فجأة مئة حادث مشابه لم تكدر تلاحظ ، منسية بمقدار ، وفجأة اتخذت معنى .

ومرت مركبة فارغة ؛ فارتدت فيها لتعود إلى البيت بمزيد من السرعة . ولكن في لحظة اعطاء عنوانها ساورتها رغبة لا تقاوم . وظننت انها تلي داعي العقل ، فصرخت :

- شارع مونسو .

وبعد ربع ساعة كانت تطرق باب ابنة عمها نومي بقي - ديتراي .

وكانت التي فتحت لها فتاة في الخامسة عشرة ، شقراء وناضرة ، بعينين واسعتين مرحبتين .

-- صباح الخير يا نيكول . هل والدتك هنا ؟
وشعرت بنظرة الفتاة المندمسة تثقل عليها :
-- سأدعوها ، يا عمي تيريز !

وظلت مدام دي فونتنان وحدها في الدهليز ، وكان قلبها ينبض بشدة
فأسندت يدها إليه ولم تجرؤ على سحبها . ونظرت إلى ما حولها بهدوء . كان
باب قاعة الاستقبال مفتوحاً ؛ والشمس تؤلق ألوان الطنافس والسجاد ؛ وكان
للغرفة المظهر المهمل المرضي لببت رجل عازب . وفكرت مدام دي فونتنان :
« يقال ان طلاقها جعلها بدون مورد » . وذكرتها هذه الفكرة بأن
زوجها لم يرسل إليها نقوداً منذ شهرين ، بحيث لا تدري كيف تعمل لمواجهة
نفقات البيت : وسأوتها الفكرة ان فخفخة نومي هذه ربما كانت ...

ولم تعد نيكول . وساد الصمت في الشقة . ومدام دي فونتنان ، وقد
ازداد ضيقها شيئاً فشيئاً ، دخلت إلى قاعة الاستقبال لتجلس . وكان البيانو
مفتوحاً ، وعلى الاريكة مجلة ازياء مفتوحة ؛ وهناك سكاير على منضدة منخفضة ؛
وباقية من القرنفل الأحمر كانت تملأ كوباً . وقد ازداد قلقها منذ اللحظة الأولى .
لماذا إذن ؟..

آه ..! ذلك « لأنه » كان هنا ، حاضراً في كل جزء ..! فهو الذي دفع
البيانو منحرفاً إلى أمام النافذة ، كما في بيتها ! وهو دون شك الذي تركه
مفتوحاً ؛ أو إذا لم يكن هو ، فلأجله كانت الموسيقى تعزف بدون ترتيب !
وهو الذي أراد هذه الاريكة الواسعة المنخفضة ، وتلك السكاير بمتناول اليد !
وهو الذي تراه هنا ، متمدداً بين الوسائد هيثمه المسترخية المعتنى بها ، وبالنظرة
المرحة المترققة بين الاهداب ، ذراعه مرخى ، وبين أصابعه سيكارة .

وارتعشت من أثر انزلاق على الطنفسة : فقد ظهرت نومي في مئزر ذي
مخرمات ، وذراعها ملقى على كنف ابنتها . كانت امرأة في الخامسة والثلاثين ،
سمراء ، كبيرة ، سمينة قليلاً .

-- صباح الخير يا تيريز ، عفواً ، فقد اصبت منذ هذا الصباح بصداع منعني

من الوقوف على رجلي . أسدلي الستائر يا نيكول .
وكان بريق عينيها وصبتها يكذبها . وسرعة حركتها وشت بالاضطراب
الذي سببته لها هذه الزيارة ، اضطراب أصبح قلقاً حين التفتت العمة تيريز نحو
الطفلة وقالت بمذوبة :

— أنا بحاجة للتحدث مع والدتك يا صغيرتي ، أتريدان ان نتركينا لحظة ؟
فقالت نومي :

— هيا ، اذهبي واشتغلي في غرفتك ، اذهبي !
ثم وجهت إلى ابنة عمها ضحكة متجاوزة الحد وقالت :
— هذا لا يحتمل . في هذا السن وتريد أن تأتي وتتدخل في غرفة الاستقبال !
هل جني هكذا ؟ .. يجب أن أقول انني كنت كذلك . أتذكرين ؟ .. وكان
هذا يبعث والدتي على اليأس .

لقد جاءت مدام دي فونتنان لتحصل على العنوان الذي هي بحاجة إليه .
ولكن منذ وصولها ، كان وجود جيروم مفروضاً عليها بقوة ، وكانت الإهانة
جسيمة ، ومنظر نومي ، وجمالها المتفتح المتبدل بدالها مهيناً فصمتت على أمر
غير صائب ، مستجيبة مرة أخرى لدافعها الداخلي . وقالت نومي :
— ولكن ، اجلسي يا تيريز .

إلا ان تيريز تقدمت نحو ابنة عمها بدلاً من ان تجلس ومدت لها يدها ، ولم
يكن هناك شيء مسرحي في حركتها ، فقد كانت عفوية ، وظلت وقورة ،
وقالت دفعة واحدة :

— نومي ... أعيدي إلي زوجي .
وجدت ابتسامة مدام دي بتي دوتراي الترحيبية . وكانت مدام دي فونتنان
لا تزال ممسكة بيدها :
— لا تجيبي بشيء . ابي لا ألوم : انه هو دون شك ... أنا أعرف
كيف هو ..

وقاطعت نفسها لحظة ، وأعوزها النفس . ولم تغتم نومي الفرصة لتدافع عن

نفسها . وكانت مدام دي فونتنان ممتنة من هذا السكوت ، لأنه اقرار ، بل لأنه يثبت انها ليست ساقطة إلى درجة احترازها حالاً من ضربة فجائية كهذه .
— أصغي إلي يا نومي . لقد كبر أولادنا . فدانيل في الرابعة عشرة . والقذوة يمكن أن تكون سيئة ، والشر كثير العدوى ! وهذا يجب ألا يدوم ، أليس كذلك ؟ .. وبعد قليل لن أكون وحدي أرى .. وأتعذب .

واصبح صوتها اللاهث متوسلاً :

— اعيديه إلينا الآن يا نومي .

— ولكن يا تيريز ، أوكد لك .. أنت مجنونة .

وكانت المرأة الشابة قد تمالكت نفسها ، واصبحت عيناها غاضبتين وشفاتها

متقلصتين :

— نعم ، صحيح ، أنت مجنونة يا تيريز ؟ .. وانا قد تركتك تتكلمين اثناء دهشتي ! انك تحلمين أو ان أحداً أدخل ذلك في رأسك ، انها أقاويل .. أوضحي !

ودون ان تجيب مدام دي فونتنان شملت ابنة عمها بنظرة عميقة ، شبه رقيقة ، تبدو انها تقول : « يا للنفس المسكينة المتأخرة ! مهما كان الأمر فانت أفضل من حياتك ! » . ولكن هذه النظرة انزلت فجأة حتى بروز الكف ، حيث اللحم العاري ، النافر السمين ، يختلج تحت حلق المخمرات كحيوان علق في شبكة : ان الصورة التي انبجست أمام عينيها كانت من الوضع بحيث طبقت تينك العينين ، ومر على وجهها تعبير من الحقد ، ثم من الألم . وعندئذ قالت لتنتهي من ذلك ، كأن شجاعتها فارقتها :

— ربما كنت مخطئة .. اعطني عنوانه فقط . أو بالأحرى ، كلا ، فأنا لا

اطلب ان تقولي لي أين هو ، ولكن اخبريه فقط ان من الواجب ان أراه .

— اخبره ؟ .. وهل أعرف أين هو ؟ .. — وكانت قد صبغها الاحمرار — ثم

هل انتهت هذه التوبيخات المتواترة ؟ .. ان جيروم يأتي لرؤيتي أحياناً ..!

وبعد ؟ .. فهذا لا يجب ! .. بين ابناء العم ! ما اجل هذا ! .. — ثم اوحى إليها

غريزتها بالكلمات الجارحة - : سيكون مسروراً حين اسرد عليه انك اتيت إلى هنا لتحدثي هذه الضجة .

وكانت مدام دي فونتنان قد تقهقرت :

— انت تتكلمين كفتاة صغيرة .

فأجابت نومي بسرعة :

— آه .. حسناً ، أتريدين أن أقول لك ؟ .. حين تفقد المرأة زوجها فإن ذلك يكون بسبب خطأها . لو كان جيروم يجد في بيته ما يطلبه في الخارج لما .. كنت تركضين وراءه يا جميلتي .
« أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ » .

لم تستطع مدام دي فونتنان أن تمنع نفسها من التفكير بذلك . وكانت قد خارت قواها وشعرت بميل إلى الهرب ؛ ولكنها كانت خائفة من أن تجد نفسها وحيدة ، دون عنوان ، ودون أية وسيلة لاستدعاء جيروم . ولطفت نظرتها من جديد .

— إنسي يا نومي ما قلته لك ، واصفي إلي . ان جنني مريضة ، فهي محومة منذ يومين . وأنا وحيدة . وانت ام ، ويجب ان تعرفي ما هو الإنتظار بقرب ولد بدأ به المرض ... ها قد مضت ثلاثة أسابيع دون ان يعود جيروم ولو مرة واحدة ! أين هو ؟ .. ماذا يفعل ؟ .. يجب ان يعلم ان ابنته مريضة . يجب ان يعود . قولي له ذلك .

فهزت نومي رأسها بعناد شرس .

— اوه ! لا يمكن يا نومي أن تكوني قد أصبحت شريرة بهذا الشكل ! اسمعي ، سأقول لك الباقي . جنني تتالم ، وهذا صحيح ، وأنا أتعذب ، ولكن ليس هذا الاكثر خطورة - وازداد صوتها ضراعة - لقد تركني دانيال : لقد اختفى .

— اختفى ؟ يجب البحث عنه ، ولا أستطيع البقاء وحيدة في لحظة كهذه ...

مع طفلة مريضة ، أليس كذلك ؟ .. قولي له فقط يا نومي أن يعود !

وظنت مدام دي فوتنانان أن المرأة الشابة ستستجيب ؟ كانت نظرتها مشفقة ؛ ولكنها دارت نصف دورة وهتفت وهي ترفع ذراعها :
— يا إلهي : ماذا تريدن أن أفعل ما دمت قد قلت لك انني لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك !
ولما كانت مدام دي فوتنانان قد سكنت وهي ثائرة ، فإنها التفتت ملتبهة الوجه وقالت :

— ألا تصدقيني يا تريز ؟.. كلا ؟ لا هم ! فستعلمين كل شيء ! لقد خدعني مرة أخرى ، أتفهمين ؟.. وقد سار لأدري إلى أين — هرب مع أخرى !..
أتصدقيني الآن ؟
وشحب لون مدام دي فوتنانان ، ورددت بصورة آلية :
— هرب ؟ ..

وكانت المرأة الشابة قد ارتقت على الأريكة واخذت تنتحب ، ورأسها بين الوسائد .

— آه ! لو كنت تعلمين كم عذبي ! كنت في أغلب الاحيان اصفح ، وقد ظن اني اصفح دائماً ! لقد وجه إلي أسوأ اهانة ! أمامي ، في بيتي ، اغوى فتاة طرْحاً كانت هنا عندي ، خادمة صغيرة في التاسعة عشرة من عمرها ! لقد هربت منذ خمسة عشرة يوماً بأسمائها دون داع ! وهو ، كان ينتظرها تحت في عربة ! نعم — ثم صاحت وقد انتصبت واقفة — في شارعي ، على بابي ، في وضح النهار ، أمام جميع الناس — في سبيل خادمة ! أتصدقين ؟

وكانت مدام دي فوتنانان قد استندت إلى البيانو لتستطيع ان تظل واقفة . كانت تتطلع بنويي دون أن تراها . وكانت تمر أمام عينيها رؤى : تمثلت لها مارييت قبل بضعة أشهر ، الاشارات الصغيرة ، الخفيف في الدهليز ، الصعدات الخفية إلى الطابق السادس ، إلى اليوم الذي اضطرت فيه ان ترى وتطرّد الصغيرة التي كانت مختلفة من اليأس وتطلب الصفح من السيدة ، وتمثلت لها على مقعد الرصيف تلك المرأة التي كانت تمسح عينيها ، والعاملة الصغيرة المرتدية السواد ،

ثم شاهدت أخيراً هنا ، وفي مكان قريب جداً؛ نومي ، فالتفتت إلى جهة أخرى . ولكن نظرها عاد رغماً عنها إلى جسد تلك الفتاة الجميلة الساقطة على عرض الأريكة ، إلى ذلك الكتف العاري الذي تهزه الشبهات حيث اللحم ينفخ المحرمات . انها صورة تفرض نفسها بشكل لا يحتمل .

وكان صوت نومي يأتينا متقطعاً :

— آه ! انتهى الامر ! انتهى الامر ! بإمكانه أن يعود ، بإمكانه أن يزحف على ركبتيه فلن القي عليه نظرة ! اني أكرهه ، اني احتقره . لقد فاجأته يكذب مئة مرة دون أي سبب ، بدافع اللعب ، اللذة الصرف ، بدافع الغريزة ! انه يكذب منذ أن يتكلم ! انه كذاب !

— لست عادلة يا نومي .

فنهضت المرأة الشابة بوثة :

— أأنت تدافعين عنه ؟ .. أنت ؟

ولكن مدام دي فونتنان كانت قد تماثلت نفسها ، وقالت بنبرة أخرى :

— أليس لديك عنوان تلك ال

ففكرت نومي لحظة ، ثم انحنى بشيء من الدالة :

— كلا ، ولكن زوجة البواب ، عدة مرات

فقاطعتها تيريز بإشارة ، وبلغت الباب . وخبأت المرأة الشابة وجهها بين الوسائد بدافع امتلاك النفس ، وتظاهرت بعدم رؤيتها وهي تذهب .

وفي الدهليز ، حين كانت مدام دي فونتنان ترفع ستار المدخل ، شعرت بذراعي نيكول ، التي كان وجهها مبللاً بالدمع ، يطوقانها . لم يكن لديها متسع من الوقت لتقول لها كلمة . وقد عانقتها الطفلة بشغف ، وهربت .

ولم تكن زوجة البواب تطلب سوى ان تحدث :

— أنا ، اعيد رسائلها الى بلادها الأصلية في بريتانية ، الى بيروس - غيراك ؛ وأهلها لا يزالون أحياء دون شك . اذا كان هذا يهملك .

أضافت ذلك وهي تفتح سجلاً قديراً .

قبل ان تعود مدام دي فونتنان الى بيتها دخلت الى مكتب البريد وأخذت ورقة برقية وكتبت .

«فكتورين لوغاد . ساحة الكنيسة ، بيروس - غيراك (كوت-دي-نور) .
«تفضلي بإبلاغ السيد دي فونتنان ان ولده دانيال قد اختفى منذ نهار
الأحد » .

ثم طلبت بطاقة - رسالة وكتبت :

« القسيس غريغوري ،

الجمعية المسيحية للعلوم ،

٢ مكرر ، شارع بينو ،

نوي - سير - سين .

« عزيزي جيمس

« منذ يومين ذهب دانيال دون أن يقول الى أين ، ودون أن يزودنا بأخباره ؛
لقد أضناني القلق . فضلاً عن ذلك فان جني مريضة . حتى شديدة لم يوضحها
شيء بعد . ولا أعرف اين أجد جيروم لأخبره .
« انا وحيدة يا صديقي ، تعال الي .

«تيريز دي فونتنان»

٥

في غد اليوم الثاني ، نهار الاربعاء ، الساعة السادسة مساء ، جاء الى جادة
الابسرفاتوار رجل كبير ، متخلم ، هزيل بشكل نحيف ، دون عمر محدد .
وقد أجابه البواب :

- من المحتمل قليلاً ان تستقبل السيدة . فالاطباء موجودون فوق ،
والآنسة الصغيرة توت .

وتسلك القسيس الدرج . وكان الباب على سطحه مفتوحاً . وهناك عدة
معاطف رجالية تزحم الدهليز . ومرت ممرضة وهي تركض .

— انا القسيس غريغوري . ماذا جرى ؟ هل جني تتألم ؟..

فتطلعت الممرضة اليه وغمتمت :

— انها تموت .

ثم اختفت .

وارتجف كأنه ضرب على وجهه . وبدأ له ان الجو قد قلت كثافته فجأة ، وضاق نفسه ، ودخل الى قاعة الاستقبال وفتح النافذتين .

ومضت عشر دقائق . وهناك رواح ومجيء في الرواق ، وأبواب تصطفق . وجلبة اصوات : وظهرت مدام دي فونتنانان يتبعها رجلان مسنَّان يرتديان السواد . ورأت غريغوري فاندفعت نحوه :

— جيمس ! أخيراً ! آه ! يا صديقي .. لا تتركني .

فدندن بسرعة :

— لقد عدت اليوم من لندن .

وسارت به ، تاركة الطبييين يتشاوران . وفي الدهليز كان انطوان ، بالقيص ، يحك اظافره في طست تمسكه له الممرضة . وامسكت مدام دي فونتنانان بيدي القسيس . كانت متغيرة الوجه ، وخداها ابيضان يبدوان مجردين من لحمها ، وفيها لا يكف عن الارتجاف .

— آه ! ابق معي يا جيمس ، لا تتركني وحيدة ! إن جني ...

وُسمع نحيب من داخل المنزل ، فلم تتم كلامها وأسرعت نحو الغرفة . واقترب القسيس من انطوان ، ولم يقل شيئاً ، ولكن نظرتة القلقة كانت تسأل ، وهز انطوان رأسه قائلاً :

— انها تموت .

فقال غريغوري بنبرة لائمة :

— اوه ! لماذا تقول هكذا ؟

فقال انطوان مقطّعاً كلمته ، وهو يرفع يده الى جبهته

— (مي - نان - جيت) التهاب السحايا .

ثم أضاف بينه وبين نفسه : ياله من رجل غريب .

كان وجه غريغوري اصفر ذا زوايا ، وفتائل سوداء كامدة كأنها شعرميت ، كانت تتبعثر حول جبهة عمودية بشكل استثنائي . وعلى جانبي الأنف ، الذي كان طويلاً ، ساقطاً ، محتقناً ، كانت العينان المتلبذتان تحت الحاجبين تلعبان كأنها مزودتان بالفوسفور : كثيراً السواد ، دون بياض تقريباً ، ورطبتان دائماً . تقومان بحركة مدهشة تجعلنا نفكر بعيون بعض القروء : فيها فتور وقساوة . أما الأكثر شذوذاً فهو أسفل الوجه : ضحكة صامتة ، وفتحة فم لا تدل على أية عاطفة معروفة ، تجتذب من كل النواحي الذقن الخالية من الشعر ، والشبيبة بالرق ، وملصقة بالعظم .

وسأل القسيس : أكان ذلك فجائياً ؟

— بدأت الحتى نهار الاحد . ولكن الاعراض لم تتأكد الا البارحة ، نهار الثلاثاء ، في الصباح . وانعقد مجلس أطباء على الأثر ، وعملنا كل شيء — ثم أصبحت نظرتة مفكرة — وسرئ ما سوف يقول هؤلاء السادة .
وختم كلامه وقد تقلص وجهه : ولكني أرى ان الطفلة المسكينة تمو ...
فقاطعه القسيس بصوت اجش : لا تكلم .

وكانت عيناه مصوبتين نحو انطوان ، ولم يكن هياجها يتناسب مع ضحكة الغم الغريبة . وكأ لو ان الهواء أصبح غير صالح للتنفس ، رفع يده العظمية الى طوقه وأبقاها متشنجة تحت ذقنه ، شبيهة بعنكبوت الكابوس .
وشمل انطوان القسيس بنظرة مهيبة وقال لنفسه : « عدم تناسق واضح ، وتلك الضحكة الداخلية ، تلك الكثرة غير المعبرة كضحكة مهووس ... »

وسأل غريغوري بكثير من المجاملة :

— ارجوك ، هل عاد دانيال ؟

— لا أخبار عنه .

فتمتم وقد غير صوته بشكل ناعم : يا للسيدة المسكينة !
في تلك اللحظة خرج الطبيبان من غرفة الاستقبال ، فتقدم انطوان .

— انها تموت .

هكذا خنخن الاكبر سناً وقد وضع يده على كتف انطوان الذي التفت حالاً الى القسيس . اما الممرضة التي كانت تمر فقد اقتربت وقالت بصوت منخفض :

— حقيقة يا دكتور ، أعتقد أنها...

في هذه المرة أدار غريغوري ظهره حتى لا يسمع الكلمة . وأصبح شعوره بالاختناق لا يحتمل . وشاهد الدرج من الباب المفتوح قليلاً ، وببضع وثبات أصبح في أسفل ، واجتاز الشارع وأخذ يركض أمامه تحت الاشجار ، ضاحكاً ضحكته الجنونية ، مختلط الشعر ، ويداه كمنكبوت الحقل متصالبتان على صدره ، متنشقاً هواء المساء بلء رثييه . وكان يدمدم : « يا للأطباء الملاعين ! » كان مرتبطاً بعائلة فوتنانان ارتباطه بعائلته . وحين هبط باريس منذ ست عشرة سنة ، دون فلس في جيبه ، وجد الحفاوة والمساندة لدى القسيس بيريه والد تيريز . ولم ينس قط . وفيما بعد ، أثناء مرض المحسن إليه ، ترك كل شيء ليبقى بجانب سريريه . ومات القسيس الهرم ويده في يد ابنته واليد الأخرى في يد غريغوري الذي كان يدعوه ولده . وكانت هذه الذكرى مؤلمة جداً بالنسبة إليه في هذه اللحظة ، بحيث نكص على عقبيه وعاد بخطى كبيرة . ولم تكن عربة الاطباء واقفة أمام البيت . فصعد بسرعة .

كانت الأبواب قد ظلت مفتوحة قليلاً . وقاده النحيب الى الغرفة ، وقد أسدلت الستائر ، والظلام مليء باللهاث والانين . ومدام دي فوتنانان والممرضة ومديرة البيت منحنيات على السرير يحرسن بكثير من الغم الجسد الصغير الذي كان يتمدد ويتقلص كسمكة على العشب .

وظل غريغوري يضع لحظات صامتاً ، وذقنه في يده ، ووجهه متجهم . وأخيراً انحنى نحو مدام دي فوتنانان وقال :

— سوف يقتلون صغيرتك !

فقال متلجلجة وهي متعلقة بذراع جني الذي كان يفلت منها

دون انقطاع :

— ماذا ؟ يقتلون ؟ كيف ؟

فأجاب بقوة :

— اذا لم تطردهم فسيقتلون ابنتك .

— أطرده من ؟

— الجميع .

فتطلعت إليه ذاهلة ، هل سمعت جيداً ؟ كان وجه غريغوري الصفراوي ،
القريب منها ، خفيفاً . وكان قد أخذ إحدى يدي جني وناداهَا بصوت عذب
كأنه غناء :

— جني ! جني ! يا أعز ما لدي ! اتعرفيني ؟ اتعرفيني ؟

فدارت الحدتان الشاردتان المتطلعتان في السقف ببطء نحو القسيس .
وعندئذ زاد من انحنائه ، وصب نظره عليها بكثير من الاصرار والعمق بحيث
انقطعت الطفلة فجأة عن التأوه . وقال للنساء الثلاث :

— دعونا !

فلم تطعه أية واحدة منهن ، وقال دون ان يحرك رأسه ، وبسلطة لا تقاوم :
— اعطني يدها الأخرى . حسناً . والآن دعونا .

فابتعدن . وظل وحده منحنيًا على السريو غارزاً في المينين المحتضرتين
إرادته المغناطيسية . وظل الذراعان الذي كان يمسك بهما يضربان الهواء فترة
طويلة ثم انخفضا . واستمر الساقان بالانتفاض ؟ وتمددا بدورهما . واخيراً
خضعت العينان فأطبقتا . وغريغوري ، المنحني دائماً ، أشار إلى مدام دي
فونتانا ان تقترب منه . ودمدم :

— أنظري ! لقد سكنت . انها أكثر هدوءاً . أطردهم ، أقول أطردي
« أولاد بعزبول » هؤلاء ! فالضلال وحده هو المسيطر فيهم ! . والضلال
سيقتل طفلك . »

وكان يضحك ضحكة صامتة ، ضحكة المتنبئين الذين يملكون الحقيقة

الأبدية وما بقي من العالم بنظرهم مؤلف من الاغبياء . وبدون ان ينقل نظرتة المنصبة على حدقتي جني ، خفض صوته وقال :

— يا امرأة ، يا امرأه ، الشر غير موجود ! وانت خلقتيه . انت التي منحتة القوة السيئة لانك تخشينه ، لأنك قبلت بوجوده .! انظري : ما من أحد منهم هنا يأمل بشيء . وكلهم يقولون : « هي ... » وانت نفسك ، تفكرين ، وقد لفظت الآن تقریباً : « هي ... »! « أيا الأزلي ؟ ضع حارساً على فمي ، ضع حارساً على باب شفتي ! » أوه ! الشيء الصغير المسكين ، حين ظهرت لم يكن حولها سوى الفراغ ، سوى السلي !

ثم هتف بيقين معدي بحيث تكهربت النسوة الثلاث :

— أنا أقول : انها ليست مريضة ! انها بكامل صحتها ! ولكن ليتركوني . وباهتزازات مشعوزة فرئ الأصابع شيئاً فشيئاً ، ووثب وثبة صغيرة إلى الورا تاركاً أعضاء الطفلة تتمدد طائفة على السرير .

وقال مؤكداً بصوت موسيقى :

— جميلة هي الحياة ! جميلة هي كل مادة ! جميل هو الذكاء ، وجميل هو الحب .! كل صعة هي في المسيح ، والمسيح فينا !

والتفت نحو الوصيعة والمرضة اللتين كانتا قد تراجعتا إلى داخل الغرفة :

— ارجوكا ، اتركاني .

فقال مدام دي فونتنانان :

— اذهبا .

ولكن غريغوري كان قد انتصب بكل ارتفاعه ، وكان يلقي بذراعه الممدودة الحُرْم على المنضدة حيث توجد زجاجات الادوية ، والأربطة ، ودلو الجليد المسحوق . وقال آمراً :

— خذن كل شيء .

واطاع النسوة . وحين أصبح وحيداً مع مدام دي فونتنانان صاح بفرح :

— الآن ، افتحي النافذة ، افتحي ، افتحيها على مصراعها يا عزيزتي .

وبدت النسمة العلية التي كانت تحدث حفيفاً في أوراق أشجار الشارع انها جاءت تهاجم هواء الغرفة الفاسد ، فتأخذه من أسفل ، وتجعله يدور بشكل حلزوني ، وتطرده خارجاً ، ووصلت مداعبتها الى وجه المريضة المحموم فارتعشت . وممست مدام دي فونتنانان :
- سوف يؤذيها البرد .

فلم يجب بسوى ضحكة سعيدة . وقال اخيراً :
- صمتاً ! . اقفلي النافذة ، نعم ، جيد جداً ! . وانيري كل أضوائك يامدام .
دي فونتنانان : يجب وجود النور حولها ، يجب وجود الفرح ! وقلوبنا ايضاً يجب وجود النور حولها ، وكثير من الفرح ! « الخالد هو نورنا ، الخالد هو فرحنا : من ماذا اخاف اذن ؟ .. »
وأضاف رافعاً يديه :

- انت وعدت ان اصل قبل الساعة الملعونة !
ثم قدم كرسياً إلى جانب السرير وقال :
- اجلسي . كوني هادئة ؟ هادئة جداً . احتفظي « بالرقيب الشخصي » . اسمعي فقط ما يوحى اليك المسيح . أقول لك : المسيح يريد ان تكون بصحة جيدة ! فلنرد معه ! لنستجد بقوة الخير العظيمة . الروح هي كل شيء . والمادي عبد للروحي . منذ يومين والعزيزة المسكينة بدون وقاية من التأثير السلي اوه ! . كل هؤلاء الرجال والنساء يبعثون في النفور : انهم لا يفكرون إلا بالسوء ، ولا يثيرون شيئاً آخر سوى المعاكس . ويعتقدون ان كل شيء قد انتهى حين يفرغ يقينهم الصغير المسكين الهزيل !

وعاد الصراخ . وعادت جني تنتفض من جديد . وفجأة قلبت رأسها ، وانفرجت شفتاها قليلاً كأنها تريد أن تسلم النسمة الأخيرة . وكانت مدام دي فونتنانان قد أرتمت على السرير مغطية الصغيرة بجسدها ، صارخة في وجهها :
- لا أريد ! لا أريد !

فسار القسيس نحوها كأنها جعلها مسؤولة عن الأزمة :

— خوف ؟ .. أليس عندك إيمان إذن ؟ .. أمام الله لا يوجد خوف . الخوف جسدي فقط . ضعي الكائن الجسدي جانباً فليس هو حقيقتك . لقد قال مرقس : « كل ما تطلبونه أثناء الصلاة ، آمنوا قبلاً أنكم تلقيتم هذا الشيء ، وعندئذ سوف تحصلون على تتمته . » اتركي . صلي !

فركت مدام دي فونتنان ، وردد هو بنبرة حارقة :

— صلي ! صلي أولاً لأجلك أيتها النفس الضعيفة ! ليعد الرب اليك أولاً الثقة والسلام ! ففي ثقتك الكلية تجد الطفلة الخلاص ! استحضري روح الله ! اني أضم قلبي اليك : ولنصل .

واستجم لحظة وبدأ الصلاة . لم تكن في أول الأمر سوى تتمعة : كان واقفاً ، ضاماً رجليه ، مصالباً ذراعيه ، ورأسه مرتفع نحو السماء ، والجفون مطبقة ؟ وكانت فتائل شعره المعقوفة حول جبهته تكمل بلهب أسود . وشيئاً فشيئاً أصبحت الكلمات مفهومة ، والحشرة الموقعة للطفلة كانت كمصاحبة أرغن لتضرعه .

— أيها القادر ، أيتها النسمة المنعشة ! انت ساكن في كل مكان ، في كل أصغر قطعة من مخلوقاتك . وأنا أدعوك من أعماق قلبي . إملأ بسلامك هذا البيت المبتي ! ابتعد عن هذا السرير كل شيء ليس هو فكرة حياة ! الشر موجود في ضعفتنا فقط . آه ! يا رب ، اطرد « السلي » منا . أنت وحدك الحكمة اللامتناهية ، وما تفعله بنا يكون وفقاً للقانون . ولهذا فإن تلك المرأة تكلم اليك أمر ابنتها في دهليز الموت . انها تودعها ارادتك ، وتتركها ، وتهملها ! واذا لزم انتزاع الطفلة من أمها ، فهي ترضى بذلك ، هي ترضى بذلك !

فقال مدام دي فونتنان متلجلجة :

— أوه ! . اسكت ! . كلا ، كلا يا جيمس .

وبدون أن يتقدم غريغوري خطوة اسقط يداً حديدية على كنفها وقال :

— أيتها المرأة القليلة الايمان ، أهذا أنت ؟ . انت التي نفخت فيك روح الاله

أكثر من مرة ..

- آه ! يا جيمس . لقد تعذبت كثيراً يا جيمس منذ ثلاثة أيام ، لا أستطيع .
فقال وهو يتراجع :

اني انظر إليها . ليست هي ، ولا أعرفها أبداً ! لقد تركت الشرير يدخل
إلى تفكيرها ، في معبد الله ! صلي أيتها السيدة المسكينة ، صلي !
ان جسد الصغيرة ، وقد غضنته هزات عصبية ، كان يثب تحت الأغطية ؛
وانفتحت العينان ؛ وحدقت النظرة المتجاوزة الحد في أضواء الغرفة بالتتابع ؛
ولم يعرفها غريغوار أي انتباه ، وحضنت مدام دي فوتنانان الابنة بذراعيها ،
وحاولت السيطرة على ارتجافاتها . وكان القسيس يرتل :

- ايتها القوة العظمى ! ايتها الحقيقة ! لقد قلت : « من اراد ان يتبعني
فليترك نفسه » . إذا لزم ان تنفصل الام عن ولدها فهي ترضى ! انها راضية !
- كلا ، يا جيمس ، كلا .
فانحنى القسيس .

- تنازلي ! فالتنازل كالحفيرة : كما تعمل الحفيرة بالطحين كذلك يعمل
التنازل بالفكرة السيئة ويرفع الخير ! - ثم نهض وقال : - اذن خذ ابنتها
يارب ان أردت ، خذ . انها تتنازل ، انها تترك ! واذا كنت بحاجة الى ولدها .
- كلا ، كلا .

- ... إذا كنت بحاجة لأخذ ولدها أيضاً فلينتزع منها ولا يعود الى الظهور
أبداً على عتبة بيت الأم .
- دانيال .. كلا .

- يارب ، انها تسلم ولدها الى حكمتك ، وبلاء رضاها ! وإذا لزم ان
يزول الزوج أيضاً فليزل .

فأعولت وهي تزحف على ركبتيها :
- ليس جيروم .

فقال القسيس بهوس متزايد :

- ليكن كذلك ! ليكن دون جدال ، وبإرادتك يا منبع النور ! يا منبع

الخير ! ايها الروح .

ووقف وقفة قصيرة ثم قال دون ان ينظر إليها :

— هل قمت بالتضحية ؟

— الشفقة يا جيمس ، لا استطيع ..

— صلي .

ومضت بضغ دقاتي .

— هل قمت بالتضحية ، التضحية الكاملة !

فلم تجب وهبطت على قدم السرير .

ومضى ما يقرب من ساعة . وظلت المريضة ساكنة ؟ ورأسها فقط ، رأسها الأحمر المنتفخ ، كان ينوس يميناً وشمالاً ؛ وكان تنفسها خشناً ؟ وكان لعينها اللتين لم تطبقها تعبير خنون .

وفجأة ، ودون ان تتحرك مدام دي فونتنان ، ارتجف القسيس كما لو انها نادته باسمه ، وجاء يركع إلى جانبها . فانتصبت ؟ وكانت قسماتها اقل تمداً ! وتأملت طويلاً الوجه الصغير الأزرق على الوسادة ، وابعدت ذراعيها وقالت :
— يا رب . لتكن مشيتك وليس مشيتي .

ولم يتحرك غريغوري . لم يكن يشك في ان هذا الكلام سيقال في وقته . وكانت عيناه مطبقتين ؛ وكان يطلب رحمة الله بكل إرادته .

وقالت الساعات . وبين لحظة واخرى كان يظن ان الصغيرة ستفقد قواها الأخيرة ، وكان كل ما بقي لها من الحياة يبدو مهتزاً مع نظراتها . وفي لحظات اخرى ، كانت التشنجات تهز الجسد ، عندئذ كان غريغوري يأخذ احدي يدي جني في يديه ويقول بضراعة :

— سنحصد ! سنحصد ! ولكن يجب ان نصلي . لنصل* .

ونفض حوالى الساعة الخامسة وأسبل على الطفلة غطاء كان قد انزلق على الأرض ، وفتح النافذة . وهجم هواء الليل البارد على الغرفة . ومدام دي فونتنان لا تزال راكعة ولم تقم بحركة لتمسك القسيس .

وصعد إلى الشرفة . وكان الفجر لا يزال متردداً ، والسماء تحتفظ بلون معدني ؟
والشارع متجوف كخندق في الظلام . ولكن الافق كان يشحب على حديقة
اللوكسمبورغ ، والابجرة تدور في الشارع وتغلف باقات الذرى السوداء بالقطن
المندوف . ووتر غريغوري ذراعيه لئلا يرتجف ، وانمعدت قبضته على الحاجز .
وطراوة الصباح يهددها هواء خفيف بللت جبهته الرطبة ووجهه الذي ابلاه
السهر والصلاة . وكانت السطوح قد اصبحت زرقاء ، والنوافذ الخارجية تبدو
جلية على حجر البيوت الداخن .

وأدار القسيس وجهه نحو المشرق . أعماق مظلمة من الليل ، وبساط واسع
من النور كان يصعد نحوه ، ونور وردي شع في السماء كلها . واستيقظت الطبيعة
بأكملها ؛ وكانت مليارات من الذرات الفرحة تتلألأ في الهواء الصباحي . وفجأة ،
نفخت صدره نسمة جديدة ، ونفذت اليه قوة فوق قوة البشر ، ورفعت به ،
وكبرته بشكل مفرط . ووعى في لحظة مسؤوليات لا حدود لها : تفكيره
يقود الكون : يستطيع ان يفعل كل شيء . يستطيع ان يصيح بتلك الشجرة :
اهتزي ! فتهتزي ؟ وبذلك الطفلة : انهضي ! فتبعث حية . يمد ذراعه ، وبطيل
حركته ، فتختلج فجأة أوراق أشجار الشارع : يتفلت سرب من العصافير من
الشجرة التي عند قدميه ويزقزق بنشوة .

عندئذ اقترب من السرير ، ووضع يده على شعر الام الراكمة . وهتف :
— هلوليا ، يا عزيزتي ! لقد تم التنظيف الكلي !

وتقدم نحو جني :

— لقد طردت الظلمات ! اعطني يديك يا قلبي الحلو .

والطفلة التي لم تكن تفهم الكلام منذ يومين قدمت يديها .

— انظري إلي !

فقطلمت اليه العينان الشاردتان اللتان تبدوان انها لا تنظران .

— سينقذك من الموت ، وسوف تكون حيوانات الارض بسلام معك . انت

بصحة كاملة أيها الشيء الصغير ! لا يوجد ظلمات أبداً ! الحمد لله ! صلي .

واستعاد نظر الطفلة تعبيراً واعياً : وقد حركت شفتيها ، وبدأ حقيقة أنها تبذل جهداً لتصلي .

- والآن يا حبيبتى اطبقي جفونك . بهدوء... حسناً... نامي ، يا حبيبتى .
ليس عندك ما يعاكسك . يجب أن تنامي من الفرح .
وبعد بضعة دقائق ، وللمرة الاولى منذ خمسين ساعة ، نامت جني . وانغمس
رأسها الجامد باسترخاء في المخدة ، وكان ظل الأهداب يمتد على الخدين ، واخرجت
الشفتان نفساً منتظماً . لقد نجت .

٦

لقد كان دفتر أستاذ مدرسياً ذا قماش رمادي اللون ، اختير للروح والجهد بين
جاك ودانيال دون أن يلفت انتباه الأستاذ . وكانت الصفحات الاولى ملوثة
بكتابات مثل :

« ما هي توارينغ بيير التقي ؟ »

« هل تكتب *Rapsodie* أو *Rhapsodie* ؟ »

« كيف تترجم كلمة *Eripuit* ؟ »

وصفحات أخرى مملأة بملاحظات وتعليقات يجب أن تكون متعلقة
بقصائد جاك المكتوبة على أوراق منفصلة .

وبعد ذلك مراسلة متصلة بين الطالبين . والرسالة الاولى ، الطويلة قليلاً
كانت من جاك :

« باريس ، مدرسة اميو ، الصف الثالث أ ، تحت العين المشككة للأستاذ
ك ، ك ، الملقب بوبر الخنزير ، نهار الاثنين ، اليوم السابع عشر من اذار ، في
الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة والثلاثين ، والثانية الخامسة عشرة .

هل حالتك النفسية هي اللامبالاة ، وحب الذات الجسدية ، أو الحب ؟
اني أميل إلى الحالة الثالثة التي تلائم طبيعتك أكثر من الآخريات .
أما أنا فكما درست عواظفي أرى ان الانسان هو بهيمة .

وان الحب وحده يستطيع النهوض به . أنها صرخة قلبي المجرّوح وهو لا
يخدعني ! وبدونك يا أعز صديق لن أكون سوى تلميذ كسول ، سوى أبله .
وإذا كنت اهتز للمثل الأعلى ، فأني مدين لك بذلك .

لن أنسى أبداً تلك اللحظات ، النادرة جداً مع الأسف ! والقصيرة جداً
حيث كان الواحد منا للآخر بكامله . انت حيي الوحيد ! ولن يكون لي سواك
أبداً لأن الف ذكرى غرام منك سوف تهاجمني حالا . وداعاً ، لقد انتابتني
الحمى ، وصدغاي يخفقان ، وعينان تضطربان . لن يفصلنا شيء أبداً ، أليس
كذلك ؟ أوه ! متى ، نصبح أحراراً ، متى نستطيع العيش معاً ، ونقوم برحلة
معاً ؟ سأعبد البلاد الأجنبية ! نجتمع معاً انطباعات خالدة ، ومعاً نحوّها إلى
شعر وهي لا تزال طازجة !

لا أحب الانتظار . أكتب إلي بأسرع ما يمكن . أريد أن نجيشني قبل
الساعة الرابعة إذا كنت تحبني كما أحبك !
قلبي يعانق قلبك كما كان بترون^(١) يعانق حبيبته الالهية اونيس .
إلى اللقاء يا روحي .

- ج -

وقد أجاب دانيال على هذه الرسالة على الصفحة التالية :
« اشعر اني أود ان أعيش وحيداً تحت سماء أخرى ، والرباط الوحيد الذي
يجمع بين روحينا ، يجعلني مهما كان الامر أعرف كل ما يطرأ عليك . ويبدو لي
ان الايام لا تمر على محبتنا القلبية .
ويستحيل علي قول مقدار السرور الذي سببته لي رسالتك . ألم تكن
صديقي ، أو لم تصبح لي أكثر من صديق ؟ نصفي الحقيقي ؟ ألم اساهم في تكوين

١ بترون *Pétrone* : كاتب وشاعر لاتيني عاش في بلاط نيرون واتهم بمؤامرة في
بيزون ، وقطع شرايئه عام ٦٥ .

نفسك كما ساهمت في تكوين نفسي ؟ يا إلهي ، لكم اشعر بصدق وقوة ذلك وانا
اكتب إليك ! انا احيا ! وكل شيء يحيا في ، الجسد ، والروح ، والقلب ،
والخيلة ، بفضل حبك الذي لا أرتاب به أبداً يا صديقي الحقيقي الوحيد .

- د -

« ملاحظة : لقد اقنعت امي لتبيع لي دراجتي التي اصبحت قديمة . »

- د -

ورسالة اخرى من جاك :

« اوه ، يا حبيبي !

كيف تستطيع ان تكون تارة مرحاً وطوراً كئيباً ؟ فانا ، في أكثر
مرحي جنونا ، اكون احياناً فريسة ذكرى مؤلمة . كلا ، ابداً ، اني اشعر بها ،
ولن اعرف ان اكون مرحاً وتافهاً ! سينتصب امامي دائماً طيف مثل أعلى
صعب المنال !

آه ! احياناً أدرك الانجذاب الروحي لأولئك الراهبات الشاحبات ذوات
الوجه المصاب بفقر الدم ، واللواتي يقضين حياتهن خارج هذا العالم الكثير
الواقعية ! انه الحصول على أجنحة لتخطيمها ، مع الأسف ، على حواجز سجن !
أنا وحيد في كون معاد ؛ وابي المحبوب لا يفهمني . ومع اني لست هزماً ، فكم
ورائي من أغراس مكسرة ، ومن ندى اصبغ مطراً ، وكم من لذات لم تشبع ،
ومن يأس مر !

سامحني يا حي لكوني حزيناً في هذه اللحظة . انا في طريق التكوين دون
شك : دماغني يغلي ، وقلبي ايضاً (وبشكل اشد اذا امكن ذلك) . لنظّل
متحدين . وستجنب المهالك معاً ، وكذلك هذا الاعصار الذي يسمونه
اللذات .

كل شيء اختفى في يدي ، ولكن تبقى لي اللذة في ان انذر نفسي لك ،
اوه ، انت الذي اختاره قلبي ! » .

«ملاحظة : انهي هذه الرسالة على عجل بسبب قطعة الاستظهار التي لا أعرف منها اول كلمة .
اوه يا حيي ، لو لم احصل عليك لقتلت نفسي » .

- ج -

وقد أجاب دانيال على الأثر :

« أتتالم يا صديقي ؟

لماذا ، واذت لا تزال صغيراً ، يا صديقي العزيز جداً ، انت الذي لا تزال صغيراً ، لماذا تلعن الحياة ؟ تدنيس للقدسيات ! اتقول ان نفسك مقيدة بالأرض ؟ اشتغل ! أمل ! أحب ! اقرأ !

كيف أخفف عنك العذاب الذي يرهق نفسك ؟ وأي دواء لصرخات خمود الهمة تلك ؟ كلا يا صديقي . ان المثل الأعلى غير متناقض مع الطبيعة الانسانية . كلا ، ليس ذلك فقط خيالاً صبيانياً خلال حلم الشاعر ! والمثل الأعلى في نظري (هذا صعب شرحه) ، ولكن في نظري هو مزج الكبير بأصغر الأشياء الأرضية ، هو ان تجعل كل ما تعمله كبيراً ، انه النمو الكامل لكل ما وضعته النسمة الخالقة فينا كخصائص إلهية . اتفهمني ؟ هذا هو المثل الأعلى كما هو موجود في أعماق قلبي .

واخيراً ، اذا كنت تصدق صديقاً مخلصاً حتى الموت ، عاش كثيراً لانه حلم كثيراً وتعذب كثيراً ، اذا كنت تصدق صديقك الذي لا يريد سوى سعادتك ، فيجب ان تردد بانك لا تعيش لأجل اولئك الذين لا يستطيعون فهمك ، ولا لأجل العالم الخارجي الذي يحتقرك ، ايها الولد المسكين ، بل لأجل أحد الناس (أنا) الذي لا ينقطع عن التفكير بك ، ويشعر مثلك ومعك في جميع الاشياء !

آه ! لتكن حلاوة علاقتنا المتأخرة بلسماً مقدساً على جرحك يا صديقي !» .

- د -

وكان جاك قد كتب على الهامش دون ان ينتظر :

« عفواً ، يا حيي الأعز ! انه خطأ طبعي العنيف ، المبالغ ، الجامح ! اني انتقل من خمود الهمة الاكثر دكنة الى الآمال الاكثر تفاهة : حتى الاملاق ، وفي اللحظة التالية أجتذب حتى الأوج ! الا احب اذن شيئاً بعد ذلك ؟ (إذ لم تكن انت !) (وفني !!!..) هذا هو قدري ! اقبل هذا الاقرار .

احبك لشرف نفسك ، ولحساسيتك التي تشبه حساسية الزهرة ، وللجدية التي تضعها في كل افكارك ، وفي كل أعمالك ، وحتى في اندفاعات الحب . ان كل حنانك ، كل قلقك ، اعانيه مثلك في الوقت نفسه ! لنشكر العناية لاننا تحابيننا ، ولان قلوبنا التي اتلفتها الوحدة استطاعت ان تتحد في حضنة لا تتحل .
لا تتركني ابداً !

ولنتذكر إلى الأبد ان للواحد منا في الآخر ، مادة الشغف لحبنا .

- ج -

صفحتان طويلتان من دانيال : كتابة عالية ورصينة :

هذا الاثنين ٧ نيسان

« يا صديقي ،

غداً ابلغ الرابعة عشرة . في السنة الماضية كنت اقيم : اربع عشرة سنة .. كما في حلم جميل لا يمكن بلوغه . الوقت يمضي ونحن نذبل . وفي الداخل لم يتغير شيء . نحن انفسنا دائماً . ما من شيء تغير ، سوى انني اشعر بخمود الهمة وانني شخت .

البارحة مساءً ، وانا أنام ، أخذت كتاباً لموسيه ^(١) Musset . في المرة الأخيرة ، ومنذ الابيات الأولى ، كنت ارتعش . واحياناً كانت الدموع تتفلت من عيني . والبارحة ، اثناء ساعات الأرق الطويلة ، تمحست وما شعرت بحدوث شيء . وكنت أجد الجمل مقطعة جيداً ، ومتناسقة .. يا له من تدينيس للقدسيات ! واخيراً استيقظت في العاطفة الشعرية ، مع سيل من الدموع العذبة ، واخيراً تأثرت .

١ - الفريد دي موسيه الشاعر الفرنسي المعروف .

آه ! بشرط الا يحف قلبي ! اني أخشى ان تقسي الحياة قلبي وحواسي .
لقد شخت . والأفكار الكبرى لله ، والروح ، والحب ، لا تخفق الآن في صدري
كالسابق . والشك القارض يفترسني أحياناً . يا للأسف ! لماذا لا نعيش بكل
قوة نفسنا بدلاً من ان نشغل العقل ؟ « اننا نفكر كثيراً ! » واني لأحسد قوة
الشباب التي تندفع إلى الخطر دون ان ترى شيئاً ، دون تفكير ! أريد ان
أستطيع التضحية بنفسي ، وانا مطبق العنين ، في سبيل فكرة سامية ، في
سبيل امرأة مثالية ، دون دنس ، بدلاً من ان أظل دائماً منطوياً على نفسي !
آه ! هذا فظيع ، هذه المطامع بدون نتيجة .

تهنئي على « جديقي » . انها شفائي ، بالعكس ، انها قدرتي الملعون ! انا
لست كالنحلة التي تجني وتذهب لتمتص الرحيق من زهرة ، ثم من زهرة اخرى .
اني كالتنفساء السوداء التي تجلس نفسها في حضن وردة واحدة وتعيش فيها الى
ان تطبق تويجاتها عليها ، وحين تختنق من هذه الحضنة السامية تموت بين ذراعي
الزهرة التي اختارتها .

ان تعلقي بك كثير الاخلاص يا صديقي ! أنت الوردة النضرة التي تفتحت
لأجلي على هذه الأرض الحزينة . أدفن حزني الأسود في أعماق تجويف قلبك
الصديق ! » .

« ملاحظة : سيصبح بإمكانك ان تكتب إلي إلى البيت دون خوف اثناء
عطلة عيد الفصح . أمي تحترم جميع رسائلني . (ومع ذلك لا لزوم لاشياء غير
عادية !) .

انهيت زواية « النكبة » لزولا واستطيع إعارتها لك . لا ازال متأثراً
منها ومرتعشاً . انها جمال من القوة والعمق . وقد بدأت بدورتر ⁽¹⁾ Werther .
آه !.. يا صديقي ، أخيراً هذا هو كتاب الكتب ! واخذت ايضاً « هي وهو »

ل جيب GEP ، ولكنني سأقرأ ورتز أولاً » .

- د -

وأرسل اليه جاك هذه الأسطر القاسية :

« بمناسبة بلوغ صديقي السنة الرابعة عشرة من سنه :

يوجد في الكون رجل يقاسي في النهار آلاماً فائقة الوصف ، وفي الليل لا يستطيع النوم ، يشعر بفراغ رهيب في قلبه لا تستطيع اللذة ان تملأه ، وفي رأسه غليان جميع خصائصه ، وإثناء المسرات ، وبين جميع المدعويين المرحين يشعر فجأة بالوحدة ذات الاجنحة القائمة تحوم على قلبه ، ويوجد في الكون رجل لا يأمل بشيء ولا يخشى شيئاً ، يكره الحياة ولا يملك القوة لتركها : ان هذا الرجل هو الذي لا يؤمن بالله .

ملاحظة : احتفظ بهذه . وستقرأها حين تصاب بالتلف وستهدأ عبثاً في الظلمات » .

- ج -

وفي أعلى صفحة سأل دانيال :

- هل اشتغلت اثناء العطلة ؟

واجاب جاك :

- « انتهيت قسيده من نوع قصيدتي « هارموديوس وأريستوجيتون » تبداً بطريقة لبقة :

ايك سيزار ! هذه هي الغالية ذات العينين الزرقاوين .

لأجلك ، الرقصة المحبوبة لوطنها المفقود !

مثل لوتس الأنهر تحت طيران البجع الثلجي .

قامتها تلتوي في ارتعاشه ..

ايها الامبراطور ! وسيوفها الثقيلة تقدح شرراً ..

انظر ! انها رقصة من بلادها !

الخ... الخ... وتنتهي هكذا :

ولكنك تشجبن يا سيزار ! وأأسفاه ! ثلاث مرات وأأسفاه !

لقد عضت ظلمات السيوف نحرها !

ونجا من القطع .. عيناها مطبقتان .

وها هي دامية .

الرقصة العارية في الامسيات السابجة بنور القمر !

أمام النار المتأججة المضيئة التي تختلج على ضفة البحيرة .

ها قد انتهى رقص

المحاربة الشقراء في وليمة سيزار !

وقد دعوتها « التقدمة الارجوانية » ولدي رقص ايمانى يلائمها وارىد

اهداءها إلى لوي فولر الإلهية لترقصها في الأولمبيا . اتعتقد انها تفعل ذلك ؟

« منذ عدة ايام عزمت عزماً لا يتزعزع على ان أعود إلى الشعر المنتظم وإلى

قافية الكلاسيكيين الكبار . (وبالأجمال ، اظن انني كنت احتقرهم لأن هذا

اكثر صعوبة) . وقد بدأت بقصيدة مغناة *Ode* ذات ابيات مقفاة ، حول

الشهيد ، كنت حدثك عنها ، وإليك أولها :

إلى الأب المحترم بربوير اللعازري

الذي استشهد في الصين في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٣٩ وُطوب في كانون

الثاني ١٨٨٩ :

سلاماً أيها الكاهن القديس الذي استشهاده المؤثر

جعل العالم المرتعب يرتعش اشمزازاً !

اسمح لاشعاري ان تنشذك على قيثارتي ،

يا بطل مسيحيتنا .

ولكن منذ البارحة مساء ، أعتقد أن دعوتي الحقيقية ستكون في كتابة

قصص قصيرة وروايات إذا كان لي صبر على ذلك ، وليس في الشعر . وأنا

أشتغل بموضوع عظيم . اسمع :

« فتاة شابة ، ابنة فنان كبير ، ولدت في زاوية مشغل ، وهي نفسها فنانة

(يعني من نوع خفيف قليلاً ، ولكنها تجعل مثلها الأعلى ليس في حياة العائلة ، بل في التعبير عن الجمال) . أحبها شاب عاطفي ولكنه بوجوازي ، استهواه جمالها الوحشي . ولكنها لم يلبث أن تباغضا بشدة وافترقا ، هو لحياة عائلية طاهرة مع ريفية صغيرة ، وهي ، وقد كدرها الحب ، تنغمس في الفسق (أو تكرر عبقريتها لله ، لا أعرف بعد) . هذه هي فكرتي : فما رأيك يا صديقي ؟ آه ! كما ترى ، عدم عمل أي شيء اصطناعي ، وأن يتبع المرء طبيعته ، وحين يشعر أنه وُلد لكي يبتكر ، فإنه يعتبر أن لديه أخطر المهام وأجلها في هذا العالم ، واجباً كبيراً يجب القيام به . نعم ! أن يكون المرء صادقاً ، حاذقاً بكل شيء ، وبشكل دائم ! آه ! لكم تلاحقني هذه الفكرة بضراوة ! الف مرة ظننت أنني اشاهد في نفسي زيف الفنانين الزائفين ، والعبقریات الزائفة التي تحدث عنها موبسان^(١) في قصته « على الماء » . كان قبلي يحتاج من التقزز . أوه يا عزيزي ، لكم اشكر الله الذي اعطانيك ، وكما يحتاج احدنا الآخر الى الابد لنعرف أنفسنا جيداً ولا نتخذع بعبقريتنا الحقيقية ابداً .

اعبدك واشد على يدك بشغف ، كهذا الصباح ، هل تعلم ؟ وبكل كياني الذي هو لك ، بكامله وبلذة !

احذر ، فانك .ك ينظر الينا نظرة مريبة . لا يستطيع ان يدرك ان هناك افكاراً نبيلة يرسلها المرء الى صديقه بينما يكون هو متمتعاً بقراءة صلواته ! .

- ج -

ومن جاك ايضاً هذه الرسالة المكتوبة بسرعة ، وغير مقروءة تقريباً :

« صديقي الحبيب !

قلبي كثير الامتلاء ، انه يفيض ! وأسكب ما استطيع من امواجه المزبدة على الورقة .

اني مهلود للألم ، والحب ، والامل ، وها اني آمل وأحب وأتأمل ! ان

حكاية حياتي قائمة في سطرين : ان ماجعلني اعيش هو الحب ، وليس لي سوى حب واحد : انت !

كنت منذ سنوات طفولتي بحاجة إلى إفراغ غليان قلبي هذا في قلب واحد يفهمني في كل شيء . كم كتبت من رسائل في السابق إلى شخص وهي كان يبدو لي كأخ ! وأأسف ! كان قلبي يتكلم ، أو بالأحرى يكتب إلى قلبي بنشوة . ثم ، فجأة ، أراد الله ان يتكوّن هذا المثل الأعلى لحماً ، وتجدد فيك ، أوه ! يا حبيبي ! كيف بدأ هذا ؟ ما من أحد يعلم : من حلقة إلى حلقة ، يضع المرء في متاهة من الأفكار دون ان يجد الاصل . ولكن هل بالامكان ان يحلم المرء بما هو اكثر عاطفة وسمواً ؟ اني ابحت عبثاً عن مقارنات . كل شيء يبهت أمام سرنا الكبير ! انه شمس تدفئ وتير حياتنا . ولكن كل هذا لا يمكن كتابته ! الكتابة ، انها تشبه صورة فوتوغرافية لزهرة .

ولكن يكفي !

ربما تكون بحاجة إلى نجدة ، إلى تعزية ، إلى أمل ، واني أرسل اليك ، ليس كلمات حبية ، بل تلك الشكايات لقلب اناني لا يعيش إلا لنفسه . عفواً يا غرامي ! لا استطيع ان اكتب اليك غير ذلك . اني اجتاز أزمة وقلبي اكثر جفافاً من أرض وهدّة صخرية . ارتياح بكل شيء وبنفسي ، أليس أنت الضرر الأكثر شراسة ؟

احتقري ، لا تكتب إلي ! أحب غيري ! فلست جديراً بعطية نفسك !
يا لسخرة القدر المشؤوم التي تدفعني إلى اين ؟ اين ؟ العدم !
اكتب إلي فلو لم تكن لي لقتلت نفسي .
لا تنقطع عني يا عزيزي ! ، ، .

- ج -

وكان الأب بينو قد ادرج في نهاية الدفتر بطاقة عثر عليها الاستاذ عشية الحرب .

وكانت الكتابة بخط جاك : خريشة شنيعة بالقلم الرصاصي :

« إلى الناس الذين يهتمون بيجن ودون براهين ، إلى هؤلاء ، العار !

« العار والبؤس !

« هذه المكيدة يسيرها فضول دنيء ! كانوا يريدون بعثرة صداقتنا وطريقتهم

شائنة .

« لا وجود للإحراج الجبان ! الوقوف في وجه العاصفة ! وإلا الموت !

« ان حبنا فوق النائم والتهديدات .

« لنثبت ذلك .

« لك مدى الحياة » .

- ج -

٧

كانا قد وصلا إلى مرسيليا مساء الأحد ، بعد منتصف الليل . وكانت الحماسة قد فطرت . وكانا قد ناما منطويين على المقعد الخشبي في عربة القطار المضاء بشكل سيء ، والدخول إلى المحطة ، وقرقعة الصفائح الدائرة ، ايقظاهما مرتجفين ، فنزلا إلى الرصيف بعيون طارفة ، صامتين قلقين ، صاحيين من السكر .

وكان يجب ان يناما . ومقابل المحطة ، تحت كرة بيضاء تحمل آرمه «فندق» كان المدير يرصد الزبائن . ودانيال ، وهو الأكثر رباطة جأش بينهما ، طلب سريرين لقضاء الليل . والقي الرجل بعض الاسئلة ، لانه حذر مبدئياً ، (كان كل شيء مهياً : في محطة باريس نسي والدما طرداً وتأخر عن الرحيل ، وسوف يصل غداً دون شك في أول قطار) . وصفر صاحب الفندق صغيراً خفيفاً والقي على الولدين نظرة سيئة . واخيراً فتح سجلاً :

- سجلاً اسميكاً .

ووجه الكلام إلى دانيال لأنه يبدو الأكبر سنًا - يبدو في السادسة عشرة -

ولأن تمييز قسائمه على الخصوص ، وشخصه كله ، يوحيان بعض المراعاة . وكان قد خلع قبعته عند دخوله إلى الفندق ، لا بدافع الخجل ، بل كان لديه طريقة في خلع قبعته وإسقاط ذراعه تبدو انها تقول : « لم اخلع قبعتي خصوصاً لاجلكم ، بل لانني اتمسك بعادات الأدب » . وكان شعره الأسود المغروس بترتيب يشكل طرفاً مميزاً في وسط الجبهة التي كانت كثيرة البياض ، والوجه المستطيل ينتهي بذقن ذات رسم ثابت ، هو إرادي وهادىء معاً ، دون شيء من العنف . ونظراته خضعت ، دون ضعف أو ثرثرة ، لفحص صاحب الفندق ، وكتب على السجل دون تردد : جورج وموريس لوغران .

— الغرفة هنا بسبعة فرنكات ، والدفع مقدماً دائماً . ويصل أول قطار في الساعة الخامسة والنصف ، سوف أذك الباب عليكما .
ولم يحروا على القول انها كانا ميتين من الجوع .

كان أثاث الغرفة مؤلفاً من سريرين ، وكُرسي وطست . وعند دخولهما بعث نفس الارتباك فيها الاضطراب : ان يخلعا ملابسهما الواحد أمام الآخر .. وتبددت كل رغبة بالنوم . ولكي يؤخرا اللحظة المؤلة جلسا على سريريهما ليعملا حساباتهما : وبعد الجمع ارتفعت مدخراتهما إلى مئة وثمانية وثمانين فرنكاً اقتسماها . وسحب جاك ، وهو يفرغ جيوبه ، خنجراً كورسكياً صغيراً ، وأوكارينا ^(١) ، وترجمة لدانتي بخمسة وعشرين سنتيماً .. واخيراً ، لوحاً من الشوكولا ذاب نصفه ، واعطى نصف ما بقي لدانيال . ثم انها ظلا دون ان يعرفا ماذا يفعلان . ولكي يربح دانيال الوقت حل شريط حذائه ، وفعل جاك مثله . واخيراً عزم دانيال على امر : إذ نفخ الشمعة قائلاً : « إذن اطفىء النور .. اسعدت مساءً » . وناما بسرعة ، صامتين .

وفي الصباح هز باهما قبل الساعة الخامسة ، فارتديا ملابسهما كالاشباح دون

١ - اوكارينا *Ocarina* : آلة موسيقية هوائية صغيرة من فخار أو من معدن ، بيضوية الشكل لها قم وفيها عدة ثقوب .

اي ضوء سوى الفجر الشاحب . وقد جعلها الخوف من التحدث اليها يرفضان القهوة التي اعدما صاحب الفندق ، وبلغا محل بيع المأكولات في المحطة ، مرتعين ، على الطوى .

وعند الظهر كانا قد طافا مرسيليا من جميع جهاتها . وعادت اليها المرأة مع النهار والحرية ، وكان جاك قد اشترى دفتراً صغيراً ليكتب انطباعاته ، وكان يقف بين وقت وآخر ، ملهم العين ، ليكتب ملاحظات . واشترى خبزاً ولحم خنزير ، وبلغا المرفأ ، وجلسا على لقافة من الحبال امام البواخر الكبيرة الساكنة والمراكب الشراعية المهتزة .

وانهضها بحار لينشر حباله . وجازف جاك سائلاً :

— الى اين تذهب هذه المراكب ؟

— هذا يتوقف . اي مركب منها ؟..

— ذلك الكبير .

— الى مدغسقر .

— صحيح ؟ وهل سنراه يبحر ؟..

— كلا ، فهذا لا يبحر الا يوم الخميس . ولكن اذا أردت ان تشاهد عملية إبحار فيجب ان تأتي في الساعة الخامسة من هذا المساء : فهذا ، « لافايت » يذهب الى تونس .

وحصلا على ما أرادا من معلومات . وقال دانيال ملاحظاً :

— ان تونس ليست الجزائر ..

— انها افريقيا على كل حال .

قال جاك ذلك منتزعاً لقمة من الخبز . وكان مقعياً على عقيبهِ فوق كومة من الأغطية المعدة لحفظ البضائع من المطر ، بشعره الامفر ، القاسي ، المشعث ، المغروس كالاعشاب على جبهته المنخفضة ، ورأسه العظمي ذي الاذنين المنفصلتين ، وعنقه الهزيل ، وانفه الصغير السيء التكوين الذي كان يفضنه دون انقطاع . وكانت هيئته كسنباج يقضم اثمار الزان .

وتوقف دانيال عن الاكل :

- قل اذن .. لو كتبت لهم من هنا قبل ان ...

فقاطعته نظرة الصغير الذي صرخ وفمه ملآن :

- أجنون انت ؟ ليقبضوا علينا عند الوصول ؟

وتطلع الى صديقه بغضب . ففي ذلك الوجه الكريه ، المبتسح ببقع من النخالة ، كان في العينين الزرقاوين ، الصغيرتين ، المكسرتين ، العنيدتين حياة مؤثرة ، وكانت نظراتها متغيرة الى درجة انها لا تفهم ، احياناً جدية ، ثم شيطانية ، وتارة عذبة ، وناعمة ايضاً وفجأة تصبح رديئة ، شرسة تقريباً ؛ وأحياناً مبللة بالدموع ولكنها في أغلب الأحيان جافة ، مضطربة ، كأنها لا تستطيع ان ترق ابدأ .

وكان دانيال على وشك الاجابة ، ولكنه صمت . وكان وجهه المصالح يمرض نفسه لغضب جاك دون دفاع ، وأخذ يبتسم كأنه يعتذر . وكانت لديه طريقة خاصة بالابتسام : كان فمه الصغير ذو الشفتين المخاطتين يرتفع فجأة نحو اليسار كاشفاً الأسنان ، وعلى قسماته الجدية يضح المرح الطارىء ومهما جذاباً .

لماذا لا يتمرد ذلك الغلام الكبير المفكر على سلطة ذلك الصبي ؟ ألم تمنحه تربيته ، والحرية التي كان يتمتع بها ، الحق الذي لا يقبل الجدل على جاك ، بصفته الأكبر سناً ؟ ودون ان نذكر ان دانيال كان تلميذاً ممتازاً وجاك كسولاً في المدرسة حيث التقيا . وكان عقل دانيال النير متقدماً على ما يطلب منه من جهد . اما جاك ، فبالعكس ، كان يشتغل بشكل سيء ، وبالأحرى لا يشتغل ابدأ . ألأن الذكاء ينقصه ؟ كلا . ولكن من سوء الحظ كان ذكاؤه يندفع الى جهة اخرى غير جهة الدرس . فهناك شيطان داخلي كان يوحى اليه دائماً مئة حماقة يقوم بها ؟ ولم يكن يعرف ان يقاوم اي ميل ؛ ومع ذلك فقد كان يبدو غير مسؤول ويرضي اهواء شيطانه فقط . اما ما بقي ان نقوله فهو الاكثر غرابة : مع انه كان الاخير في صفه ، في كل شيء ، فان رفاقه ، وحق

أساتذته ، لم يكونوا يستطيعون الكف عن العمل لصالحه : وبين أولئك الاولاد ، حيث الشخصية تتأرجح بين العادة والنظام ، والى جانب هؤلاء الاساتذة الذين ابلى السن والرقابة طاقتهم الحيوية ، فان ذلك الكسول ذا الوجه المقيت ولكنه ذو فورات من الصراحة والإرادة ، والذي يبدو عائشاً في دنيا من الوهم خلقها لنفسه فقط ، والذي لا يتردد في الاندفاع في المغامرات الأكثر صعوبة دون ان يخشى الاخطار ابداً ، ذلك المسخ الصغير كان يثير الرعب ، ولكنه كان يفرض اعتباراً لاواعياً . وكان دانيال من الاوائل الذين تعرضوا لجاذبية هذه الطبيعة الأكثر تعقيداً منه ، ولكنها غنية جداً ما انفكت تدهشه وتعلمه ؛ ومع ذلك فقد كان لديه هو أيضاً شيء من النشاط ، وذلك الميل نفسه إلى الحرية والتعرد . أما جاك ، وهو تلميذ نصف داخلي في مدرسة كاثوليكية ، ومولود في عائلة تشغل فيها الشعائر الدينية مكاناً كبيراً ، فكان يحاول اثارة انتباه هذا البروتستانتى الذي يتوقع من خلاله عالماً مناقضاً لعالمه ، أولاً لأجل التملص مرة اخرى من الحواجز المحيطة به . ولكن ببضعة اسابيع ، وبسرعة النار ، اسبغت رفقته شغفاً مانعاً ، حيث وجد كل منها أخيراً الدواء لعزلة أخلاقية كانا كلاهما يتألمان منها دون ان يعرفا . انه حب طاهر ، حب صوفي كان شبابهما فيه يتحدان في نفس الاندفاع نحو المستقبل ، والاشتراك في جميع العواطف المفرطة والمتناقضة التي تحتاج نفسيهما في سن الرابعة عشرة ، منذ الشغف بدود الحرير والالقباءات المرقمة حتى وساوس ضميريهما الأكثر سرية ، وحتى ذلك الذوق المسكر الذي يثيره فيها كل يوم يعيشانه .

كانت ابتسامة دانيال الصامتة قد هدأت جاك الآخذ في قضم خبزه . كان أسفل وجهه عادياً - فك آل تيبو - ، بقم مشقوق كثيراً ذي شفتين مشققتين ، فم قبيح ولكنه معبر ، متسلط ، شهواني .

لقد رفع رأسه وقال مؤكداً :

— سترى ، انا اعلم ، ان الحياة سهلة في تونس ، انهم يشغلون في حقول الارز كل من يتقدم للعمل ، ويمضغون التببول *Bétel* ، وهو لذيق ... وهم يدفعون

حالاً ويطعمون التمور ، وليمون يوسف افندي (المندرين) ، والجوافة .
فقال دانيال مجازفاً :

— وسنكتب اليهم من هناك .

فقال جاك مصححاً هازأ وجهته الشقراء :

— ربما . ولكن حين نستقر جيداً و يرون اننا نستطيع الاستغناء عنهم .

وصحنا . ودانيال الذي لم يكن يأكل اخذ يتأمل امامه الهياكل الكبيرة السوداء وحركة العمال على البلاط المضاء بالشمس ، ولمعان الأفق من خلال تشابك الصواري : كان يناضل ويساعده المشهد لئلا يفكر بأمه . وكان المهم أن يبعثوا منذ هذا المساء على المركب «لافايت» .

ودلهما غلام مقهى على مكتب شركة المساجري . وكانت لائحة الاثمان معلقة . وانحنى دانيال على نافذة التذاكر وقال :

— أيها السيد ، لقد أرسلني أبي لأخذ مكانين في الدرجة الثالثة الى تونس .

— ابوك ؟

قال الهرم ذلك وهو مستمر في عمله . ولم يكن يبدو منه سوى جزة شعر رمادية تطفو على الاوراق . وظل يكتب فترة طويلة ، حتى وهن قلب الولدين . وقال أخيراً دون أن يرفع انفه :

— حسناً ، قل له ان يأتي بنفسه الى هنا مع اوراقه ، أسمعتم ؟

وشعرا ان الناس الموجودين في المكتب يتفحصونها ، فهربا دون ان يجيبا . وكان جاك مهتاجاً وقد ادخل يديه الى أعماق جيوبه . وكانت مخيلته تقترح عليه عشر حيل مختلفة : ينخرطان في الخدمة كنوتيين ؛ او يسافران كالطرود في صناديق مسمرة مع مؤوتتها ، او يستأجran زورقاً ويذهبان بمراحل قصيرة على طول الشواطىء حتى جبل طارق ، حتى مراکش ، ويتوقفان مساءً في المرافىء ليعزفا بالأوكارينا ويجمعا الصدقات على شرفة الفنادق .

كان دانيال يفكر ؛ وقد سمع التحذير الخفي من جديد . وكان قد سمعه قبلاً عدة مرات منذ الرحيل . ولكنه لم يستطع التملص هذه المرة ، ويجب الاهتمام

به : كان في داخله صوت مستاء يلوم . وقال مقترحاً :

— وإذا بقينا محتبئين في مرسيليا ؟

فأجاب جاك هازأ كتفيه :

— سيعثرون على أثرنا قبل يومين . وهم يبحثون عنا اليوم في كل مكان ، وبإمكانك التأكد من ذلك .

كان دانيال يتخيل هناك امه القلقة التي ترهق جني بالأسئلة ، ثم تذهب وتسال المراقب ماذا حل بولدها . فقال :

— اسمع .

كان تنفسه ضيقاً ؛ وقد لمح مقعداً ، فجلسا عليه ، ثم قال بشجاعة :

— انها لحظة التفكير . وبعد ، الا يكونون قد عوقبوا بما فيه الكفاية حين

يبحثون طوال يومين او ثلاثة ؟

فضم جاك قبضتيه وصاح :

— كلا ، كلا وكلا ! انسيت كل شيء ؟

كان جسده العصبي متوتراً ، ولم يكن جالساً على المقعد بل مستنداً إليه كقطعة خشب . وكانت عيناه تتألقان بالحدق ضد المدرسة ، والرئيس ، والمعهد ، والريب ، ووالده ، والمجتمع ، والظلم العام ، وصاح ، وقد اصبغ متوحشاً :

— لن يصدقونا ابداً .. فقد سرقوا دفترنا الرمادي ! وهم لا يفهمون ، ولا يستطيعون ان يفهموا ! لو رأيت الرئيس كيف كان يحاول ان يجعلني على الاعتراف ! متكلفاً الحلم .. اذت خليق بكل شيء لأنك بروتستانتى !

وتحولت نظرتة بدافع الحياء ، وخفض دانيال بصره ، واستولى عليه ألم طاع لفكرة ان امه يمكن أن يساورها الشك المقيت . وتمتم :

— اتظن انهم سيسردون القصة على امي ؟

ولكن جاك لم يكن يسمع ، وتابع :

— كلا ، كلا وكلا . هل تعلم ما جرى الاتفاق عليه ؟ لم يتغير شيء ! كفى

اضطهادات ! الى اللقاء ! فحين نظهر بالاعمال من نحن ، واننا لسنا بحاجة إليهم ،

فسترى كيف يحترمونا ! ليس هناك سوى حل واحد : الاغتراب ، وتحصيل المعيشة بدونهم . هذا كل شيء . وعندئذ ، نعم . نكتب إليهم ونخبرهم أين نحن ، ونضع شروطنا ، ونصرح بأننا نريد ان نظل أصدقاء ، ونكون أحراراً لأن ما بيننا هو في الحياة وفي المات .

وصمت ، وامتلك نفسه ، وتابع بنبرة مركزة :
— او اقتل نفسي ، كما قلت لك .

فألقي دانيال عليه نظرة خائفة . كان الوجه الصغير الشاحب المذخور ببقع صفراء ثابتاً ، بدون تبجح .

— اقسم لك ، اني مصمم على ألا أقع في ايديهم ! وقد أدليت ببراهيني قبلاً .
الهرب ، أو هذا .

قال ذلك ، مظهر آت تحت صدرته قبضة الخنجر الكورسكي الذي أخذه صباح الأحد من غرفة اخيه . وأكمل وهو يسحب من جيبه زجاجة صغيرة ملفوفة بورقة :

— او الأفضل هذه ... اذا رفضت الآن ان تبهر معي فإن الأمر لن يطول . هوب — وأتى بحركة لابتلاع محتويات الزجاجة — وأسقط ميتاً .
فتمتم دانيال : ما هذا ؟

فقال جاك دون ان يخفض عينيه : صبغة اليود .

فقال دانيال متوسلاً : اعطينيها ياتيبو .

لقد شعر بالشفقة والاعجاب رغم رعبه ؛ كان يخضع لسحر جاك غير العادي ، ثم ها هي المغامرة تستولي عليه من جديد . ولكن جاك كان قد أعاد الزجاجة الى جيبه . وقال بنظرة قائمة :

— لنمشر ، ان تفكيرنا يسوء ونحن جالسان .

في الساعة الرابعة عادا الى الرصيف . كان المهرج والمرج شديداً حول «لافايت» : صف لا ينقطع من العمال حاملين الصناديق على اكتافهم كنال تجرّ بيوضها ، ويمرّون على العبارات . وسار الولدان في نفس الطريق ، وجاك في

المقدمة . وعلى الجسر المغسول حديثاً بحارة يحركون رافعة فوق ثقب فاغري فاه
كان يبتلع المشحونات في قعر السفينة . وهناك رجل ربعة ، ذو أنف أعقف
ولحية كنعلة الحصان ، اسود الشعر ، وردى الجلد أملسه ، كان يدير العمل ،
بسترة زرقاء وشريط ذهبي على الكم .

وفي اللحظة الأخيرة توارى جاك . وقال دانيال رافعاً قبعته ببطء :

— هل انت القبطان ؟

فضحك الآخر وقال : لماذا ؟

— انا مع اخي يا سيدي ، وقد اتينا نطلب منك ...

وقبل ان ينهي دانيال كلامه شعر انه يسير على غير الطريق الصحيح ، وانها
ضاعا ، فأكمل : ان نذهب معكم الى تونس .

— هكذا ؟ وحدهما ؟

قال الرجل ذلك محرّكاً حاجبيه . وكان في تعبير عينه الدامية شيء جريء ،
مجنون قليلاً ، يرمي الى أبعد من كلامه . ولم يكن لدى دانيال من مخرج سوى
الاستمرار في الأكاذيب المناسبة :

— أتينا الى مرسيليا للقاء والدنا ، ولكنهم عرضوا عليه وظيفة في تونس ،
في أحد حقول الأرز ... وكتب إلينا ان نلتحق به . ولدينا ما ندفعه لكم
اجرة الرحلة .

أضاف ذلك غير خاضع للإلهامه الذي يدرك ان هذا الطلب ليس اقل غباوة
من سواه .

— حسناً ، ولكن عند من تسكنون هنا ؟

— عند ... ليس عند احد فقد جئنا رأساً من المحطة .

— الا تعرفون أحداً في مرسيليا ؟

— ك ... كلا .

— وتريدان الابحار هذا المساء اذن ؟

فكاد دانيال يجيب بالنفي ويهرب . ولكنه دندن بسرعة :

— نعم يا سيدي .

فقال الرجل ضاحكاً :

— حسناً يا حماتي . ان حظك عظيم لعدم سقوطكما على الرجل المعجوز ،
لأنه لا يحب السخريه ، ولكان قبض عليكما وقادكما الى مفوضية الشرطة لإيضاح
كل ذلك ... دون أن نحسب ان ذلك هو الشيء الوحيد الواجب عمله مع
مزحات كهذه .

وصرخ فجأة ، ممكاً بدانيال من كمه :

— هيه ، شارلو . اقبض على الصغير ، أما أنا ف...

وكان جاك قد رأى الحركة ووثب وثبة عنيفة من فوق الصناديق ، متفادياً
بصدمة من صدره ذراع شارلو الممدود ، وبلغ العبارة بثلاث وثبات ، وانزلق
كالقرد بين الحمالين ، وقفز الى الرصيف واندفع شمالاً . ولكن دانيال ؟
والتفت : لقد افلت دانيال ايضاً . فقد رآه جاك بدوره يدفع صف النال ،
ويتدحرج على السلام ، ويثب الى الرصيف وينعطف الى اليمين ، بينما كان
القبطان المزعوم منحنيّاً على مؤخر السفينة ينظر إليها يهربان وهو يضحك .
عندئذ واصل جاك ركضه ؟ سيجدان بعضها البعض فيما بعد ؟ أما الآن فيجب
الاختفاء بين الجمهور والابتعاد عن المرفأ بقدر الامكان .

لقد وقف بعد ربع ساعة ، وهو على آخر رمق ، وحيد في شارع مقفر في
إحدى الضواحي . لقد شعر أولاً بسرور خبيث متخيلاً ان دانيال يمكن ان
يكون قد قبض عليه ، انه جزاء وفاق : ألم يكن الخطأ خطأه باخفاق خطتها؟
كان يكرهه وكان على وشك بلوغ الحقول والهرب وحده دون ان يهتم به .
واشترى سكاير وأخذ يدخن . وبعد دورة كبيرة خلال حي جديد انتهى بالعودة
الى ناحية المرفأ . كانت «لافايت» لا تزال جامدة . ورأى من بعيد ان طبقات
سطح السفينة الثلاث كانت محملة بوجوه يزحم بعضها بعضاً ، والسفينة متهيئة
للاقلاع . فصر جاك بأسنانه ودار على عقبيه .

واخذ عندئذ يبحث عن دانيال ليصرف غضبه إلى أحديهما . فدخل

الشوارع ، وخرج إلى الكانيبيير *Canebière* ، واندس لحظة بين الجموع ، وعاد أدراجه . وكان حر عاصفة خائق ينيخ على المدينة . وسبح جاك بالعرق . كيف يلتقي بدانيال بين جميع هؤلاء الناس ؟ واصبحت رغبته في إيجاد رفيقه ملحة شديداً فشيئاً بقدر يأسه من الوصول إليه . وشفتاه الجافتان من السكاير والحشى أصبحتا محرقتين ، وبدون ان يخشى ملاحظة أحد ، وبدون ان يكثرث بهزيم الرعد البعيد ، أخذ يركض ، هنا وهناك ، وآلمته عيناه لكثرة البحث . وتغير منظر المدينة فجأة : فبدأ النور صاعداً من بلاط الشوارع ، وواجهات المنازل تتقطع بوضوح على سماء بنفسجية اللون ، وكانت الزوبعة تقترب ، وبدأت قطرات كبيرة من المطر تنفصم على الرصيف بشكل نجمة . وهزيم رعد عنيف قريب جعله يرتجف . فمشى تحت مثلث في مقدم بناء ذي أعمدة ، وفتح مدخل كنيسة أمامه ، وغاب فيه .

ورنت خطاه تحت القباب ، وبلغت انفه رائحة معروفة . وشعر حالاً بتعزية وامان : لم يكن وحده ، فقد كان يحيط به وجود فائق للطبيعة . ولكن رعباً شديداً اجتاحه في نفس اللحظة : لم يعد يفكر بالله منذ رحيله ، وفجأة شعر بالنظرة غير المنظورة تحوم عليه ، وتنفذ وتعكس النوايا الأكثر سرية ! وشعر انه مذنب كبير لوث وجوده المكان المقدس ، وان باستطاعة الرب ان يصعقه من أعالي السماء . وكان المطر يسيل على السطوح ، وبروق فجائية تؤلق زجاج صدر الكنيسة ، والرعد يلعلع بقصف متكرر ، ويدور حول الولد في ظلام القباب كأنه يبحث عن مذنب . وكان جاك راكماً على مصلى ، ويبدو صغيراً جداً ، وقد حنى رأسه وتم بسرعة بشيء من « أبانا » وشيء من « السلام عليك يا مريم » .

وأخيراً تباعد ما بين الواحدة والأخرى من زيجرات الرعد ، وهبط من الزجاجيات ألق بلا تغيير ، وابتعدت الزوبعة ، ومضى الخطر الآتي . وشعر بأنه استعمل الغش ولم يقبض عليه . وجلس ، وكان يحتفظ في أعماقه بشعوره بحالة ذنبه . ولكن الكبرياء الماكرة لكونه نجاً من العدالة ، مهما كان خجلاً ، لم

تكن دون عذوية . وهبط المساء . ماذا ينتظر هنا ؟ كان هادئاً ، متخدرأ يرمق بقية شمع المعبد المتذبذبة بشعور مبهم من النقص والعجز ، كما لو ان الكنيسة زالت محبتها . وجاء قندلفت يقفل الأبواب . فهرب كاللص دون شيء من نهاية الصلاة ، دون ركوع : كان يعلم انه لن يحصل على عفو الله .

وجاءت ريح رطبة فجففت الارصفة . وكان المتزهون قلائل . اين يمكن لدانيال ان يكون ؟ لقد خيل لجاك انه اصيب بشر ، فامتلات عيناه بالدموع التي شوشت طريقه فكبحها واسرع الخطى . لو يشاهد دانيال فجأة يحتاز الطريق ويأتي اليه لأغمي عليه من المحبة .

ودقت الساعة الثامنة في قبة أجراس أكلول Accoules ، وأضيئت النوافذ ، وشعر بالجوع فاشترى خبزاً وتابع السير أمامه ، جاراً يأسه ، غير مفكر بتفحص المارة .

وبعد ساعتين ، وقد انهكه التعب ، شاهد مقعداً تحت الأشجار في نهاية جادة مقفرة ، فجلس . وكان الماء يقطر من اشجار الدلب . وهزت كفه يد خشنة . هل نام ؟ انه أحد حراس الامن : فظن انه يموت ، واصطك ساقاه .

— عد إلى بيتك ، وبسرعة .

وهرب جاك . لم يكن يفكر بدانيال ، لم يكن يفكر بشيء ، وكانت رجلاه تؤلمانه ، وكانت يتجنب الشرطة . وعاد نحو المرفأ . ودقت ساعة منتصف الليل . وهبت الريح ، وكانت نيران ذات ألوان تتأرجح على الماء اثنتين اثنتين . وكان الرصيف مقفراً . وكاد ساقاه يصطدمان بمتسول كان يشخر وهو نائم بين رزمتي بضاعة . وعندئذ شعر برغبة لا تقاوم ، هي اشد قوة من خوفه ، بان يتمدد حالاً ، ولا يهم في أي مكان ، وان ينام . فخطا بضعة خطوات ، ورفع زاوية غطاء بضائع كبير وسقط بين الصناديق ذات الخشب المبلل ، ونام .

وكذلك كان دانيال يهم باحثاً عن جاك .

كان يطوف في جوار المحطة ، حول الفندق حيث نأما ، وبالقرب من مكتب شركة المساجري : على غير طائل . وهبط إلى الارصفة . كان مكان « لافايت » فارغاً ، والمرفا لا حياة فيه : لقد أعادت الزوبعة الملتكئين إلى بيوتهم .

وعاد من المدينة منخفض الرأس . وقد انهزم وابل المطر على كتفيه واشترى شيئاً من المؤونة لجاك وله ، وجاء يجلس إلى طاولة في المقهى حيث توقف في الصباح . وكانت زوبعة من المياه قد سقطت على الحى ، ورفعت الستائر عن جميع النوافذ ، وكان غلمان المقهى يلقون خيام السطوح العريضة ومناشهم على رؤوسهم . والقطارات الكهربائية تسير دون نفخ بالبوق ، قاذفة في الساء الرصاصية شرر هوائياتها ، والماء الشبيه بصدمات محراث يسيل من ناحيتي الخطوط الحديدية . وكانت رجلا دانيال مغمستين بالماء وصدغاه ثقيلين . ماذا حل بجاك ؟ كان أله على فقده اقل من أله وهو يتخيل قلق الصغير وشقاء وحدته . وكان يخيل إليه انه سيراه يظهر هناك ، في زاوية ذلك الخبز تماماً ، واخذ يترقب ، كان يشاهده مسبقاً في ملابسه المبللة ، جاراً حذاءه في برك الماء ، شاحب الوجه وعيناه تروحان وتحيثان بيأس . عشرون مرة كاد يناديه : ولكنهم أولاد مجهولون يدخلون راكضين الى عند الخباز ويخرجون ، والخبز تحت ستراتهم .

ومضت ساعتان . وانقطع المطر ، وجاء الليل . ولم يجرؤ دانيال على الذهاب ؛ فقد كان يبدو له ان جاك سيظهر حين يفادر هو المكان . واخيراً سار في طريق المحطة . كانت الكرة البيضاء مضاءة فوق باب فندقها . وكان الحى مناراً بشكل سيء ؛ هل يعرفان بعضها البعض اذا تلاقيا في هذا الظلام ؟ وصرخ صوت : « امي ! » ورأى ولدأ من سنه يجتاز الشارع ويلحق بسيدة اخذت تقبله ؛ ومرا بقربه ، وقد فتحت السيدة مظلتها لتتقي مياه السطوح ، وقدم لها ولدها ذراعه ! وكانا يتحدثان ، واختفيا في الليل . وحضرت قاطرة . ولم يبق لدي دانيال من القوة ما يقاوم غمه .

آه ! لكم كان مخطئاً باتباع جاك ! كان يعرف ذلك جيداً ولم يكف عن

الشعور به منذ البدء ، منذ ذلك الموعد الصباحي في اللوكسمبورغ حيث تقرر
مغامرتها الجنونية . كلا ، لم يستطع التخلص لحظة من هذا التأكيد ، من انه كان
عليه ان يركض ويشرح لأمه كل شيء بدلاً من ان يهرب ، وهي ما كانت لتوجه
اليه اللوم ، بل كانت حمته من الجبيع ، وما كان حدث أي ضرر . لماذا خضع ؟
لقد ظل أمام نفسه كأنه أمام لغز .

واخذ يستعيد ما حدث صباح الأحد في الدهليز . لقد سمعته جني حين عاد
إلى البيت ، وركضت . كان على الطابق غلاف اصفر عليه شارة المعهد ، انه
يتضمن طرده دون شك ، فخبأه تحت غطاء الطاولة . اما جني الصامتة فقد
صوبت إليه عينيها النافذتين ، وادركت حدوث مأساة ، فتبعته إلى غرفته ،
ورأته يأخذ محفظته التي يضع فيها مدخراته ، فارتمت عليه وضمت بين ذراعيها
وقبلته ، وضيق نفسه : « ماذا حدث ؟ ماذا تفعل ؟ » فاعترف عندئذ انه
راحل ، وانه اتهم خطأ ، بحادثة في المعهد حيث اعتصب الاساتذة كلهم ضده ،
وان من اللازم ان يختفي بضعة ايام . فصرخت : « وحدك ؟ » - « كلا مع
رفيق . - « من ؟ » - « تيبو . » - « خذني ! » فجذبها نحوه واجلسها على ركبتيه
كالسابق واجابها بصوت منخفض : « وامي ؟ » فبكت . فقال لها : « لا
تخافي ، ولا تصدقي ما سيقال لك . سأكتب بعد بضعة ايام ، وسأعود . ولكن
اقسمي انك لن تقولي ابدأ ، لا لأمي ولا لأي شخص ، ابدأ ابدأ ، باني عدت
إلى البيت ، وانك رأيتني . وانك تعرفين اني ذاهب . » فأشارت إشارة مباغنة
من رأسها . ثم أراد ان يعانقها ولكنها هربت إلى غرفتها وهي تنتحب نحيباً
ابح ، صرخة يأس لا تزال تمزق اذنه . واسرع الخطى .

وبما أنه كان يسير أمامه دون أن ينظر في طريقه ، فقد وجد نفسه على مسافة
بعيدة عن مرسيليا ، في الضاحية . كان البلاط لزجاً ، والمصابيح نادرة . وفي
كل ناحية ، في الظلام ، كانت تنفتح ثقوب سوداء ، وأبواب ساحات ، وأروقة
نتنة . وفرقة اطفال تصيح دون انقطاع في داخل المنازل ، وفونوغراف يعوي
في حانة حقيرة . فعاد أدراجه ومشى طويلاً في الاتجاه الآخر . وأخيراً شاهد نار

قرص : كانت المحطة قريبة . وسقط من التعب . وكانت ميناء الساعة المتألقة
تسجل الساعة الواحدة . لا يزال الليل طويلاً : ما العمل ؟ بحث عن زاوية
يستعيد أنفاسه فيها . وكان قنديل غاز يزفر على مدخل درب فارغ ؛ واجتاز
المساحة المضاء وتلبد في الظلام . وكان حائط كبير لمصنع ينتصب إلى اليسار ،
فأبند ظهره إليه وأطبق عينيه .

وأيقظه صوت امرأة ، وهو يرتجف :

— أين تسكن ؟ لن تنام هنا كما أعتقد .

وقادته إلى النور . ولم يكن يعرف ما يقول .

— أؤكد . أن والدك قد وبخك ، ألا تجرؤ على العودة إلى البيت ؟

كان الصوت عذبا . فقبل الكذب ، ورفع قبعته وأجاب بأدب :

— نعم يا سيدتي .

فأخذت تضحك

— نعم يا سيدتي ! مهما كان الأمر يجب أن تعود إلى البيت . فقد عرفت

ذلك قبلك . وما دمت ستعود ذات يوم فما فائدة الانتظار ؟ كلما انتظرت يزداد
الأمر تنكيداً .

ولما ظل صامتا سأله خافضة صوتها ، بلهجة مهتمة ، أنيسة ، مشاركا في الذنب :

— أتخاف أن تضرب ؟

ولم يجب . فقالت :

— يا لها من ظاهرة ! انه مصر على تفضيل قضاء الليل هنا ! هيا ، تعال إلى

بيتي . ليس عندي أحد ، سأضع لك فراشا على الأرض . اني لا أستطيع أن
أترك ولداً في الشارع .

لم تكن هيئتها هيئة لصة ، وشعر بتعزية عظيمة لأنه ليس وحيداً وأراد أن
يقول : « شكراً يا سيدتي » ؟ ولكنه سكت وتبعها .

وبعد قليل دقت الجرس أمام باب منخفض . فلم يفتح الباب حالاً . كان
الدهليز مفعماً برائحة الفسيل . واصطدم بالدرجات فقالت :

— أنا معتادة . هات يدك .

كانت يد السيدة داخل قفاز ورطبة . وقد تركها تقوده . والدرج أيضاً كان رطباً . وكان دانيال سعيداً لأنه ليس في الخارج . وصعدا طابقين أو ثلاثة ، ثم سحبت مفتاحها وفتحت باباً وأضاءت قنديلاً ، فشاهد غرفة غير مرتبة ، وسريراً شاحباً . فظل واقفاً طارفاً بعينيه في النور ، منهوكاً ، شبه نائم . وبدون أن ترفع قبعتها سحبت عن السرير فراشاً أخذته إلى الغرفة الأخرى . والتفتت وأخذت تضحك :

— انه يسقط من النعاس ... هيا ، اخلع نعليك على الأقل .

فأطاع مرتخي اليدين . وعاد إليه ، كفكرة ثابتة ، مشروع العودة في صباح الغد وفي الساعة الخامسة تماماً ، إلى مطعم المحطة ، آملاً أن تساور جاك نفس الفكرة ، وتتم :

— يجب ايقاظي باكراً .

فقال ضاحكة : نعم ، نعم .

وشعر أنها تساعد على سحب ربطة عنقه وخلع ملابسه ، وسقط على الفراش وغاب عن الصواب .

عندما فتح عينيه كان النهار قد طلع . فظن نفسه في باريس ، في غرفته ، ولكنه دهش من لون الأضواء من خلال الستائر ؛ وكان هناك صوت فتي يغني : عندئذ تذكر .

كان باب الغرفة المجاورة مفتوحاً ، وفتاة صغيرة منحنية على المفصلة تغسل وجهها بالماء . والتفتت ، فرأته متكئاً على مرفقه ، وأخذت تضحك .

— آه ! ها أنت قد استيقظت ، ليس الأمر مؤسفاً .

أهي سيدة البارحة ؟ بالقميص والتنورة الداخلية القصيرة ، عارية الذراعين ، عارية الساقين . وكانت هيئتها هيئة طفلة . ولم يكن قد لاحظ تحت القبعة أن شعرها مجزوز ، وهناك فتائل سمراء لولند ملقاة إلى الراء بواسطة الفرشاة . وأرمته فجأة فكرة جاك فصاح :

— آه ! يا إلهي ! أنا الذي كنت أريد أن أكون في المطعم باكراً .
ولكن حرارة الغطاء الذي لفه حوله أثناء نومه كانت لا تزال تحدره ؛ ثم
أنه لم يكن يجرؤ على النهوض إلا إذا كان الباب مقفلاً . في تلك اللحظة دخلت
تحمل فنجاناً داخناً وقطعة خبز بالسمن .

— خذ كل هذا ، ثم ارحل ! لست حريصة على إثارة المشاكل بنبي وبين أبيك !
كان مضطرباً لأنه رؤي هكذا ، بالقميص ، وطوق عنقه مفتوح ؛ ولأنه
رآها تقترب ، عارية العنق هي أيضاً ، عارية الكتفين ... وانحنت ، وأخذ
الفنجان خافضاً جفونه ، وأخذ يأكل بهدوء . وكانت تروح وتجيء من غرفة
إلى أخرى جارية خفها وهي تدندن . ولم يرفع عينيه عن فنجانه ؛ ولكن حين
تربقربه كان يشاهد دون أن يريد ، وعلى مستواه ، الساقين العاريين الدقيقين
ذوي العروق ، وتنزلت على الأرض الخشبية الشقراء الاعقاب المحمرة التي لم تكن
قد دخلت في الحفين . كان الحبز يخنقه . وكان بدون شجاعة على عتبة هذا اليوم
الكبير المجهول . وفكر بكرسیه الفارغ على مائدة الافطار في بيته .

وفجأة ملأت الشمس الغرفة ، فأغلقت المرأة الشابة المصاريع ، وانفجر
صوتها الطري في النور كلمن عصفور :

آه ! لو كان للحب جذور

لغرس مني في حديقتي !

وكان هذا كثيراً . الشعاع الشمسي وتلك اللامبالاة المرححة في نفس اللحظة
التي كان يكافح فيها ضد يأسه . وتصاعدت الدموع إلى عينيه ، فصرخت
بمرح ، رافعة الفنجان الفارغ :

— هيا اسرع .

وانتهت إلى بكائه ، فقالت :

— أحزين انت ؟

كان صوتها حنوناً كصوت اخت كبرى ، ولم يستطع ان يمسك بكاءه ،
فجلست على حافة الفراش ، وأمرت ذراعها حول عنقه بشكل امومي لتخفف

عنه - آخر حجة لجميع النساء - وأخذت رأسه وأسندته الى صدرها ، فلم يحرؤ
على القيام بأية حركة ، وشعر برواح وحيء العنق ورطوبته على طول وجهه ومن
خلال القميص . لقد اعوزه التنفس .

- حيوان !

قالت ذلك متراجعة ومخبئة نصفها الأعلى بذراعها العاري .

- هل رؤية هذا أعادت إليك كل شيء ؟ أترون هذا الميب ، في مثل سنه !

كم عمرك ؟

فكذب دون ان يفكر بذلك ، كما كان يفعل منذ يومين ، وتمتم :

- ست عشرة سنة .

فرددت بدهشة :

- ستة عشرة سنة ، الآن ؟

وأخذت يده وتفحصتها لاهية ، وأبعدت الكم وكشفت الساعة . وتمتمت

وهي تبتسم :

- ذلك لأن بشرة هذا الطفل بيضاء ، كفتاة .

وكانت قد رفعت معصم الولد وداعبته بخنجرها المنحني ، وانقطعت عن

الابتسام ، وتنفست بمزيد من القوة وتركت اليد تسقط .

وقبل ان يفهم كانت قد فكت عرى تنورتها الداخلية ، وهمت وهي

تندس تحت الأغطية :

- دفني !

. . .

كان جاك قد نام نوماً سيئاً تحت غطاء البضائع الذي شدده المطر . وكان

قد انساب من مخبئه قبل الفجر وأخذ يتمشى في النهار الطالع . وكان يفكر :

« بالتأكد لو كان دانيال حراً لخطر له فكرة الهجيء الى مطعم المحطة

كالبارحة » . وقد قام هو بذلك قبل الساعة الخامسة . وفي الساعة السادسة لم

يكن قد قرر الذهاب .

بماذا يفكر ؟ ما العمل ؟ لقد دلوه على السجن وهو مضطرب القلب ، وكاد لا يجرؤ على رفع عينيه الى البوابة المغلقة حيث قرأ :

بيت التوقيف

يمكن ان يكون دانيال هنا .. ودار حول الجدار الذي لا ينتهي ، وقام بدورة ليشاهد أعلى النوافذ المشبكة بالحديد ، واجتاحه الخوف ، فهرب .

وجال في المدينة كل فترة الصباح . والشمس حارة ، والفسيل الملون الذي يحفف على جميع النوافذ كان يزين الطرقات الشعبية كالليبارق ، وعلى عتبة الأبواب كان المعائن يتحدثون ويضحكن على انفسهم مشاجرة . وبين لحظة وأخرى ، كان منظر الشارع ، والحرية ، والمغامرة ، تبعث فيه نشوة سريعة الزوال ، ولكنه كان يفكر بدانيال . وكان يمسك بزجاجة صبغة اليود في جيبه يجماع يده : إذا لم يجد دانيال قبل هذا المساء فسوف يقتل نفسه ، وقد أقسم على ذلك رافعاً صوته قليلاً ليلزم نفسه بذلك بمزيد من القوة ؛ ولكنه ، في داخله ، كان يرتاب بشجاعته .

كان ذلك حوالي الساعة الحادية عشرة فقط ، وهو يمر للمرة المئة امام المقهى حيث دلّوهما البارحة على مكتب شركة المساجري . - آه ! انه هنا !
وأسرع جاك خلال الطاولات . وكان دانيال يمتلك نفسه اكثر منه ،
فنهض قائلاً : اسكت ...

كانوا يلاحظونها ، ومدا أيديهما . ودفع دانيال ، وخرجا وانعطفا إلى أول شارع عرض لها . وعندئذ امسك جاك بذراع صديقه ، متعلقاً به ، حاضناً له ، وفجأة اخذ ينتحب وجبهته على كتفه . اما دانيال فلم يكن يبكي ، بل استمر في التقدم وهو كثير الشحوب ، والنظرة القاسية متطلعة بعيداً إلى الأمام ، ضاماً إلى جانبه يد جاك قائلاً :

— نمت كاللص على الرصيف ، تحت غطاء بضائع . وأنت ؟

فاضطرب دانيال . كان يحترم صديقه وصداقته كثيراً : للمرة الأولى وجب ان يخفي شيئاً عن جاك ، وشيئاً أساسياً . وضخامة هذا السر بينها خنقته . وكان على وشك الاستسلام وقول كل شيء ، ولكن كلا ، انه لا يستطيع . وظل صامتاً مشدوهاً دون ان يستطيع ابعاد ضغط كل ما حدث . وردد جاك :

— وانت ؟ ابن قضيت الليل ؟

فأتى دانيال بحركة مبهمة وقال :

— على مقعد ، هناك .. ثم اني قد تهت .

وما ان تناولا فطورهما حتى اخذا يتناقشان . ان في بقائها في مرسيليا عدم تبصر ، ورواحها ومجيتها لا يلبثان ان يصبحا موضع ريبة . وقال دانيال مفكراً بالعودة : وإذن ؟

فأجاب جاك :

— إذن لقد فكرت : يجب الذهاب حتى طولون ، فهي على بعد عشرين أو ثلاثين كيلومتراً من هنا ، هذه الجهة ، إلى اليسار ، متبعين الشاطئ . سنسير على الأقدام كأولاد يتزهون . وهناك يوجد كثير من السفن ، وسنجد وسيلة للإبحار .

وإثناء ما كان يتكلم ، فإن دانيال لم يستطع ان يترك بنظره الوجه العزيز الذي وجده ، يحلده المبعع بالنخالة ، واذنيه الشفافتين ، ونظرته الزرقاء التي تمر فيها رؤى الأشياء التي كان يدعوها طولون ، والسفن ، والافق الواسع . ومهما كانت رغبته في مقاسمة إصرار جاك ، فإن حسه السليم كان يجعله ارتيابياً : كان يعلم أنها لن يبحرا ؛ ولكن رغم كل شيء ، لم يكن متأكداً ، وفي بعض الفترات أيضاً كان يأمل أن يخطيء ، وأن يكذب الوهم البصيرة .

واشتريا طعاماً وسارا على الطريق . وهناك فتانان نظرتا اليهما مبتسمتين . واحمر وجه دانيال ؛ لم تعد التنورات تحجب عنه سر الأجساد ... وكان جاك يصفر صغيراً خفيفاً ؟ فهو لم يلاحظ شيئاً . وشعر دانيال منذ ذلك الوقت أنه منفرد بسبب هذه التجربة التي عكرت دمه : لا يمكن لجاك أن يكون صديقه

بشكل تام : فهو ليس سوى ولد .

وأخيراً بلغا خلال الضواحي طريقها الممتد على منحنيات الشاطئ كخط وردي . وهب من أمامها هواء خفيف ذو مذاق ، يترك أثر طعم الملح . وكأنا يسيران خطوة خطوة ، في الغبار الأشقر ، والاكتاف معرضة للشمس . وبجاورة البحر بعثت فيها النشوة ، فتركا الطريق ليركضا نحو صارخين : « تالاسا ! تالاسا ! » رافعين الأيدي ليفمساها في الماء الأزرق . ولكن الماء كان صعب المأخذ . وحين اقتربا من البحر فان الشاطئ لم يكن ينحني نحو الماء بواسطة ذلك المنحدر من الرمل الناعم الذي تخيله طعمها ، بل كان ينحرف عن نوع من المدخل الضيق العميق ، المتساوي العرض في كل مكان . حيث يغور البحر بين صخور عمودية . وتحتها ردم من الأحياء الصخرية كان يتقدم كبناء لتخفيف شدة الامواج ، وكصرف من الحجارة بناء عملاقة . والموجة التي كانت تصطدم بهذا المنقار من الغرانيت ، المشقوق ، المخطم ، العاجز ، كانت تمتد بداراة على طول جنباته المصقولة ، سائلة اللعاب . وأمسك واحدهما بيد الآخر ، وانحنينا معاً ، ونسيا أنفسهما وهما يتأملان الماء المتموج المتلألئ تحت السماء . وكان في حماسها الصامتة شيء من الرعب . وقال دانيال :

— انظر .

على بعد مئات الامتار زورق أبيض لامع بشكل لا يصدق ، كان ينزلق على صفحة البحر النيلي . وهيكله تحت خط العوم مدهون بالأخضر ، انها خضرة اعتدائية لنبتة فتية ، وضربات المجاذيف تدفع الزورق إلى الأمام بهزات سريعة متعاقبة كانت ترفع مقدمته خارج الماء ، وتكشف ، لدى كل وثبة ، الرونق اللبل للهيكل الأخضر ، المباغت كالشرارة .

ونتم جاك متمسكاً دفتره الصغير في جيبه .

— آه ! لو كان بالمستطاع وصف كل هذا !

ثم هتف هازأ كتفيه :

— ولكن سترى ! ان إفريقيا أجمل من ذلك . تعال .

واندفع خلال الصخور باتجاه الطريق . وكان دانيال يركض بجانبه ؛ لقد تخلص قلبه لحظة من حمله ، متخففاً من كل حسرة ، راغباً بالمغامرة بشكل جنوني .

ووصلا إلى مكان تصعد الطريق فيه وتشكل زاوية قائمة لتأمين المواصلات بين أكوام من البيوت . وما كادا يبلغان هذا المنعطف حتى أوقفتها قرععة جهنمية : تشابك خيول ، وعجلات ، وبراميل ، كانت تقفز من ناحية إلى أخرى من الطريق ، وتتدحرج نحوها بسرعة تسبب الدوار . وقبل ان يقوموا بحركة ليهربا ، جاءت الكتلة الضخمة تتحطم على بعد خمسين متراً منها ، على حاجز من القضبان الحديدية وتتطاير شظايا . كان الانحدار كثير السرعة : عجلة نقل كبيرة كانت تهبط عملة حمولة كاملة لم تشد فراملها في الوقت المناسب ؛ وبكل ثقلها سحبت الجياد الاربعة التي كانت تجرهما . وقد وقفت هذه الجياد على قوائمها الخلفية وانقلبت ، ودخل بعضها في بعض او سقطت على المنعطف ممتزجة بعضها ببعض ، قالبة عليها جبل البراميل التي كان يسيل منها النبيذ . وهناك رجال جنوا وكثرت حركاتهم فكانوا يركضون صارخين وراء تلك الكدسة من انوف البهائم الدامية ، والاكفال ، والحوافر التي كانت كلها تحتلج في الغبار . وفجأة أمتزج صهيل الحيوانات ، وجلبة الجلاجل ، والرفسات الشديدة على الباب الحديدي ، وقرععة السلاسل ، وصراخ السائقين يحرف أبج سيطر على كل شيء : انها حشرجة جواد على عرش العربية ، جواد رمادي اللون داسته جميع الجياد الأخرى ، وسجنت قوائمه تحته ، فتعبت رثائه ، واختنق بلجامه . وهناك رجل يهز فأسه قد ارتقى في المعترك ؛ ورؤي وهو يعثر ، ويسقط ، وينهض ؛ كان يمسك الجواد الرمادي من اذنه ، ويضرب الطوق بفأسه ضربات شديدة ؛ ولكن الطوق كان من حديد ، وقد انثلم الفولاذ عليه ؛ ورؤي رجل ينتصب بوجه مجنون ويقذف الفأس على الجدار ، بينما اصبحت الحشرجة صغيراً ذا صوتٍ حاد وكريه وازدادت سرعة ، وكانت دفقة من الدم تنبجس من منخره . عندئذ شعر جاك بأن كل شيء يرتجّ : وحاول التمسك بكم دانيال ولكن

أصابه كانت متصلة ، وساقاه المرتحيان جعلاه يسقط على الأرض ، وأحاط به الناس واقتادوه إلى حديقة واجلسوه بالقرب من مضخة ، وسط الزهور ، ورشوا صدغيه بالماء الطازج . وكان دانيال شاحباً مثله .

وحين عادا إلى الطريق كانت القرية كلها مشغولة بالبراميل . وكانت الحيل قد نهضت . وجرح منها ثلاثة من أربعة ، بينها إثنان تحطمت قوائمها الأمامية وسقطا على ركبهما . أما الرابع فقد مات : كان يضطجع في الحفرة التي سال إليها النبيذ ، ورأسه المغمور ملتصق بالأرض ، واللسان خارج الفم ، والعينان الخضراوان نصف مطبقتين ، والقوائم ملتوية تحته كما لو انه يحاول ، وهو يموت ، ان يصبح حمله سهلاً بقدر الامكان على الجزار . وجود هذا الجسد الأشعر ، الملوث بالرمل والدم والنبيذ ، يتنافى مع لهاث الثلاثة الآخرين الذين يختلجوت في اماكنهم ، متروكين في نصف الطريق .

وشاهدا أحد السائقين يقترب من الجثة . وعلى وجهه الملوح ، ذي الشعر الملتصق بسبب العرق ، امائر غضب تسمو بشيء من الرزانة ، كانت تشهد بمقدار عمق شعور سائق العربية هذا بالفاجعة . ولم يستطع جاك ان يحول عينيه عن هذا الرجل . فقد رآه يضع في زاوية الشفتين عقب سيكارة كان يمسكه بيده ، ثم انحنى على الجواد الرمادي ، ورفع اللسان المتورم ، الأسود من الذباب ، وادخل السبابة في الفم وكشف الاسنان الصفراء . وظل يضع ثوان منعنياً ، لامساً اللثة الضاربة إلى اللون البنفسجي ، واخيراً انتصب ، وبحث عن نظرة صديقة ، فالتقى بنظرة الولدين . وبدون ان يسمح اصابعه الملوثة بالزبد الذي يلتصق الذباب به ، أخذ عقب السيكارة من بين شفتيه ، وقال هازأ كفيه :

— هذا لم يبلغ السابعة من عمره .

ثم وجه الكلام إلى جاك .

— انه أجل حيوان بين الاربعة ، وافضلهم في العمل ! اني اعطي اثنين من

اصابعي ، خذ ، هذين الاثنين ، لاسترجاعه .

ثم ادار رأسه وابتسم ببرارة وبصق .

وعادا إلى السير دون نشاط ، منزعين . وسأل جاك :

— هل اتيح لك ان ترى ميتاً ، ميتاً حقيقياً ، رجلاً ميتاً ؟
— كلا .

— آه ! يا صديقي . انه أمر خارق للعادة ! اما انا ، فقد مضى وقت طويل وهذا يخب في رأسي . ففي نهار احد في ساعة التعليم المسيحي . ركضت اليه .
— أين هذا ؟

— في معرض الجثث المجهولة .

— أنت ؟ وحدك ؟

— تماماً . آه ! يا صديقي ! فالملت شديد الشحوب ، ليس لديك فكرة ؛ انه كالشمع ، كالمعجون المستعمل للنسخ . وكان هناك اثنان . واحد كان كل وجهه مبسووعاً . أما الآخر فكان كالحي ، حتى ان جفونه لم تكن مطبقة . كأنه حي . ومع ذلك فهو ميت ، وهذا لا شك فيه ، منذ النظرة الأولى ، ولسبب لا أعلمه ... آه ! حين نصبح احراراً يجب ان أسير بك إلى معرض الجثث في يوم أحد .

لم يكن دانيال يصغي اليه . وكانا قد مرا تحت شرفة دارة وكانت يد ولدٍ تنثر بعض الأشياء . جني .. كان يرى أمامه الوجه الناعم ، ونظرة جني الجافة حين صرخت : « ماذا تفعل ؟ » وحين تصاعدت الدموع إلى العينين الرماديتين المفتوحتين بشكل واسع . وقال بعد لحظة :

— أأست متحسراً لأن ليس لك اخت ؟

— اوه ! بالتأكيد . وخصوصاً اخت كبرى . لأن لي اختاً صغيرة تقريباً . فتطلع اليه دانيال مندھشاً ، فقال موضحاً :

— ان المدموازيل تربى في البيت ابنة أخ لها صغيرة ، يتيمة ، عمرها عشر سنوات . جيزه ... إنها تدعى جيزيل ولكن يقال جيز ... كانت اختاً صغيرة بالنسبة الي .

وتبللت عيناه فجأة ، وتابع دون ان يربط الافكار :

— أنت ، أنشئت بطريقة أخرى . أولاً ، أنت تلميذ خارجي ، وتعيش كأنطوان ، حرّاً تقريباً . وصحيح أنك ذا عقل .
لاحظ ذلك بنبرة حزينة ، فقال دانيال جاداً :
— وانت ، لا ؟

فقال جاك عابساً :

— اوه ! انا ! انا أعلم أنني لا أحتمل . ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك وهكذا ، فأنا اغضب أحياناً ، ولا أعرف شيئاً ، واكسر ، وأضرب ، وأصرخ من الرعب ، وسوف أصبح حريماً بالقاء نفسي من النافذة ، أو اقتل أحداً ! أقول لك ذلك لتعرف كل شيء . — اضاف ذلك ، وكان ظاهراً أنه يشعر بمتعة كثيفة وهو يتهم نفسه — لا أعلم إذا كان ذلك عن خطأ مني ، أو ماذا ؟ ويبدو لي أنني لو عشت معك فلن أكون كذلك . ولكن هذا ليس أكيداً .
ثم اكمل بعد وقفة ، متطلعاً إلى بعيد :

— في البيت ، حين أعود مساءً ، لو تعرف كيف هم ! إن أبي لا يحملني على محل الجد ابسداً . وفي المدرسة فإن الكهنة يقولون له أنني مسخ ، بداعي التعلق ، وذلك ليظهروا أنهم يجدون كثيراً من العذاب في تربية ابن السيد تيبو ذي الباع الطويل في الاسقفية ، أفهمت ؟ . — ثم اكد بحوية مفاجئة — ان أبي طيب ، وانت تعلم ، طيب جداً ، وأؤكد لك . ولكني لا أعرف كيف أقول ... دائماً اعماله ، مهامه ، خطبه ، دائماً الدين . والمدموازيل أيضاً : فهم حدث من شر فلأن الله يعاقبني . اتفهم ؟ بعد الغداء يختلي والذي في مكتبه ، والمدموازيل تجعلني اتلو دروسي التي لا أعرفها ، في غرفة جيز ، بينما تكون تسيم الصغيرة . إنها لا تريدني ان ابقى وحيداً في غربي ! وقد فككوا براغي عاكس التيار الكهربائي حتى لا يستطيع ان ألمس الكهرباء .

فسأل دانيال : ولكن أخوك ؟

— انطوان ، نعم ، انه نموذج كيتس ولكنه لا يكون هناك ابداً ، اتفهم ؟
ثم ، اني افترض انه هو أيضاً لا يهتم بالبيت ، وهو لم يقل لي ذلك ... كان

كبيراً يوم ماتت والدتي ، لانه يكبرني بتسع سنوات ؛ وهكذا لم تستطع المدموازيل ان تنشب كلاًّ بها فيه . بينما أنا ، فقد ربّتي ، اتفهم ؟ وسكت دانيال . وردد جاك :

— أما أنت ، فليس الشيء نفسه . لقد عرفوا كيف يعاملونك ، وقد نشأت بطريقة اخرى . كما يصدد الكتب : فقد تركوك تقرأ كل شيء : المكتبة مفتوحة عندك . اما أنا فلم أعط ابداً سوى الكتب الحمراء والذهبية ذات الصور . من نوع جول فيرن ، بلاهات . حتى انهم لا يعرفون انني اكتب شعراً . وسوف يحدّثون مشكلة بسبب ذلك ، لانهم لا يفهمون . وربما وضعوني في علبة ليراقبوني عن كثب .

وساد صمت طويل . وانفصلت الطريق عن البحر وصعدت نحو غاب صغير من السنديان . وفجأة اقترب دانيال من جاك ولمس ذراعه وقال :

— اسمع .

واتخذ صوته المتغير رنةً منخفضة احتفالية :

— اني افكر بالمستقبل . وهل هناك من يعرف ؟ من الممكن ان تنفصل . وهناك شيء اردت طلبه منك منذ وقت طويل ، كرهن ، كالحاتم الأبدي لصداقتنا . عدني بانك تهدي اليّ أول كتاب شعري لك .. اوه ! دون ان تضع اسماً : بكل بساطة : « إلى صديقي » . — أتريد ؟ فقال جاك منتصباً . وقد شعر انه كبير :

— أقسم لك .

ووصلا إلى الغاب ، وتوقفا تحت الأشجار . وكان الغيب يشتمل فوق مرسيليا .

وكان جاك يشعر بتورم كعبيه فزرع حذاءه وتمدد على العشب . وكان دانيال ينظر إليه دون أن يفكر بشيء ؛ وفجأة لفت جاك عينيه عن ذينك القدمين الصغيرين العاريين اللذين أحمر عقباهما ، وقال ماداً ذراعه :

— انظر ، منارة .

فارتجف دانيال . في البعيد ، على الشاطئ ، لمان متواتر يلسع أعماق السماء التي كانت بلون الكبريت . ولم يجب دانيال .

وكان الهواء قد اشتد حين تابعا رحلتهم . وكانا قد عزماعلى النوم في الصحراء ، في أحد الأدغال ، ولكن الليل ينذر بالجليد .

ومشيا نصف ساعة دون أن يتبادلا كلمة ، ووصلا أخيراً إلى أمام فندق دهن حديثاً بالابيض وتُرى فيه الغرف الصغيرة منضدة فوق البحر . والغرفة المضاء تبدو فارغة . فتشاورا . ورأتهما امرأة يترددان على العتبة ففتحت الباب . ورفعت نحوهما قنديلها الزجاجي الذي كان الزيت يلمع فيه كالزمرد الأصفر . كانت قميئة ، مسنة ، ويتدل من اذنيها قرطان ذهبيان على عنقها الذي يشبه عنق السلحفاة . وقال دانيال :

— هل عندك يا سيدتي غرفة بسريرين لهذه الليلة ؟

وقبل أن تستجوبه قال :

— نحن اخوان ذاهبان إلى والدنا في طولون . ولكننا سرنا متأخرين من مرسيليا فلا نستطيع النوم في طولون هذا المساء .

فقالت المرأة الطيبة وهي تضحك :

— هيه ! أرى ذلك .

وكانت نظرتها فتية ، فرحة ، وتحرك يديها وهي تتكلم :

— على الاقدام حتى طولون ؟ انها حكايات تحكونها لي . أخيراً . لا يهم !

غرفة ، نعم ، فرنكان مدفوعان حالاً .

وحين اخرج دانيال حافظة نقوده قالت :

— الحساء على النار : أأتيكهما بصحنيين ؟

فقبلا . وكانت الغرفة عبارة عن طبقة في مطبخ (تتخينة) ، وليس فيها سوى سرير وأحد شراشفه استعملت قبلاً . وباتفاق مشترك ، وبدن أي ابضاح ، نزعا نعليهما بنشاط واندسا تحت الغطاء ظهرأ لظهر مرتدين ملابسهما . ولم يناما الا بعد مدة طويلة ، وكان القمر ينير النافذة . وفي الخزن المجاور جردان كانت

تركض بضجة مسترخية . وشاهد جاك عنكبوتا خفيفة تمشي على الجدار الشاحب وتحتفي في الظلام ، فأقسم ان يسهر طول الليل . وكان دانيال يستعيد في فكره خطيئة الجسد ، وكانت مخيلته قد أغنت ذكرياته ، ولم يجرؤ على التحرك ، وكان ساجداً بالعرق ، لاهثاً من الفضول والتقزز واللذة .

وصباح الغد - وجاك لا يزال نائماً - كان دانيال على وشك النهوض ليتخلص من رؤاه حين سمع بلبلة في الفندق . لقد عاش طول الليل في وسواس مغامرته ، وكانت فكرته الأولى انهم سيجرّونه الى القضاء بسبب فسقه . وبالفعل ، فقد فتح الباب الذي لامزلاج له : انه دركي جاءت به صاحبة الفندق . وعند دخوله اصطدمت جبهته بالعتبة العليا ونزع قبعته . وكانت المعجوز توضح ، دائمة الضحك ، هازة قرطياها :

- جاء في الليل الفاتئ يكسوها الغبار . انظر الى حداثيها . وحكيالي حكاية خرافية ، انها يريدان الذهاب الى طولون سيراً على الاقدام . وما ادراني؟ وهذا ، الكبير - قالت ذلك مقدمة نحو دانيال ذراعها الذي توسوس فيه الاساور - اعطاني ورقة بمئة فرنك ليدفع اربع فرنكات وخمسين سنتيماً أجرة الغرفة والعشاء .

وكان الدركي يفرشي قبعته بهيئة متيقظة وقال مدممداً :

- هيا ، قفا ! واعطيانى اسميكما واسم عائلتكما . والحزب كله .

وتردد دانيال . ولكن جاك كان قد قفز من السرير ، باللباس الداخلي والجورب ، منتصباً كديك عراك . وكان يبدو مصمماً على هزيمة هذا الرجل الطويل الكبير ، وصرخ في وجهه :

- موريس لوغران . وهو ، جورج . انه أخي ! ووالدنا في طولون ولن

نمنعنا من الذهاب للالتحاق به . اذهب !

بعد بضع ساعات دخلا الى مرسيليا في عربة تسير خبيبا وعلى جانبيها دركيان ولص وضعت القيود بيديه . وفتحت بوابة سجن التوقيف العالية ثم اطبقت ببطء .

وقال لها دركي وهو يفتح باب زنزانة :

- ادخلا الى هنا . واقبلا جيوبكما . اعطني هذا . ستبقيان معاً حتى العشاء ، الوقت الذي نتحقق فيه من أقاويلكما .

ولكن قبل ساعة الطعام جاء أحد رؤساء الدرك ليأخذهما الى مكتب الضابط الملازم .

- لا فائدة من الانكار . فقد انكشف امركما . انهم يبحثون عنكما منذ نهار الأحد . أنما من باريس : وانت ، الكبير ، تدعى فوتتانان ! وأنت ، تيبو . أبناء عائلة ويركضون على الطرقات كصغار المجرمين .

وكان دانيال قد اتخذ هيئة متخوفة ، ولكنه كان يشعر بتعزية عميقة . فقد انتهى الأمر ! ان أمه الآن تعرفه حياً وتنتظره . سيطلب منها الصفح وهذا الصفح سيمحو كل شيء حتى ذلك الذي يفكر به بتأثر مضطرب في هذه اللحظة ، والذي لا يستطيع الاعتراف به لأحد .

وكان جاك يصبر بأسنانه مفكراً بزجاجة السود ، وبخنجره ، ويشنح قبضتيه بيأس في داخل جيوبه الفارغة . وكان يتأهب في رأسه عشرون مشروعاً للثأر والحرب . في تلك اللحظة أضاف الضابط :

- ان اهلكما في منتهى اليأس .

فحدجه جاك بنظرة خفيفة ، وفجأة تشنح وجهه ، وانهمرت دموعه . فقد كان يتخيل والده ، والمدموازيل ، وجيز الصغيرة .. لقد فاض قلبه بالركة وتوبخ الضمير . وقال الملازم :

- اذهبا الى النوم ، وغداً ندير الأمر . اني أنتظر الأوامر .

٨

منذ يومين وجني مسترخية ، كثيرة الضعف ، ولكن بدون حمى . ومدام دي فوتتانان واقفة أمام النافذة تراقب ضوء الشارع : لقد ذهب انطوان

ليأتي بالمهاجرين من مرسيليا ، ويجب أن يعود بها هذا المساء ، وقد دقت الساعة التاسعة ، ويجب ان يكونوا هنا .

وارتجفت : ألم تقف عربية أمام البيت ؟

انها الآن على سطح الدرج ، ويداها على الدرازين . وهرعت الكلبة وأخذت تنبح محتفلة بعودة الولد . وانحنى مدام دي فونتنان ، وقبأة ، وبالاختصار ، ها هو ! انها قبعتها التي تخفي رفارفا وجهه ، وهذه حركة كتفيه في ملابسه . وهو يمشي في المقدمة يتبعه انطوان ممسكاً بيد أخيه .

ورفع دانيال عينيه وشاهد أمه ؛ وقنديل سطح الدرج الموجود فوقها جعل شعرها أبيض وغس وجهها في الظلام . فخفض رأسه واستمر في الصعود متوقفاً أن تنزل نحوه ؛ ولم يتوصل إل رفع ساقيه ، وحين انكشف ، ولم يجرؤ على رفع رأسه ، وتوقف من التنفس ، وجد نفسه أمامها وجهته على صدرها . لقد كان قلبه متألماً ، بدون سرور تقريباً : فطالما تأقت نفسه إلى هذه الدقيقة التي لم يكن حساساً بها ، وحين انفصل أخيراً لم يكن هناك أية دمعة على وجهه اللذيل . ولكن جاك الذي اسند ظهره إلى جدار الدرج هو الذي انفجر باكياً . وأمسكت مدام دي فونتنان وجه ولداها بيديها ، وجذبت إلى شفتيها . ولم توجه إليه أي لوم : قبلة طويلة . ولكن كل القلق النفسي الذي شعرت به في الاسبوع الرهيب جعل صوتها يرتجف حين سألت انطوان :

— هل تناول هذان الولدان المسكينان الطعام على الأقل ؟

وتتم دانيال : جني ؟

— لقد نجت ، وهي في سريرها . سترها فهي بانتظارك .

وحين أفلت دانيال واندفع إلى الشقة قالت :

— بهدوء يا صغيري ، احذر ، كان مرضها شديداً ، وانت تعلم .

ولم يستطع جاك ، من خلال دموعه التي جفت بسرعة ، أن يتألك من إلقاء نظرة فضولية على ما حوله : إذن ، هذا هو بيت دانيال ، وهذا هو الدرج الذي يتسلقه كل يوم حين يعود من المدرسة ، والدهليز الذي يمتازه ، وهذه

هي التي يقول عنها « امي » بذلك اللطف الغريب في صوته . سألت

— وانت يا جاك ، اتريد ان تقبّلني ؟

فقال انطوان مبتسماً :

— ولكن أجب .

ودفعه . ففتحت ذراعيها نصف فتحة ، وانزلت جاك بينها ، وقعت
جبهته هناك في المكان الذي ترك فيه دانيال جبهته طويلاً . ولامست مدام دي
فونتنان بأصابعها الرأس الصغير الامفر ، وهي تفكر ، ولفتت إلى الاخ الاكبر
وجها الذي يريد ان يبتسم ، وبما ان انطوان ظل على العتبة ويبدو متعجلاً
الذهاب ، فإنها مدت إليه يديها معاً من فوق الولد المتعلق بها ، بحركة واعية
ملأى بالشكر وقالت :

— اذهب يا صديقي . فوالدكا ينتظركما ايضاً .

وكان باب غرفة جني مفتوحاً .

ودانيال ، وقد طوى احدى ركبتيه ، ورأسه على الاغطية ، وضع شفتيه
على يدي شقيقته اللتين امسكهما مجتمعتين في يديه . وكانت جني تبكي ، وكان
ذراعاه الممدودان يسحبان بانحراف نصفها الأعلى خارج الوسائد ، وكان الجهد
ظاهراً على قسماتها والهزال لم يترك تعبيراً إلا في العينين : نظرة لا تزال مريضة ،
دائماً قاسية وعنيدة ، نظرة امرأة ، لغزية ، تبدو انها فقدت شباهها وطلاقتها
لوقت طويل .

واقتربت مدام دي فونتنان ، وكادت تتحني وتضم الولدين بين ذراعيها .
ولكن يجب ألا تتعب جني ، واجبرت دانيال على النهوض ومرافقتها إلى غرفتها .
كانت الغرفة مضاءة بهجة . وكانت مدام دي فونتنان قد جهزت أمام
الموقد طاولة الشاي : خبز محمص ، سمن ، عسل . وتحت منشفة كستناء ساخنة
تغلي كما يحبها دانيال . وكان السماور يزفر ، والغرفة فاترة ، والجو ملطّف ،
واعتقد دانيال انه متعكر المزاج ، فرفض بيده الصحن الذي قدمته امه له
ولكنها كانت تبدو ملتحة :

— ماذا إذن يا صغيري ؟ لن تحرمني من فنجان شاي معك هذا المساء .

فقطلع دانيال إليها . ماذا تغير فيها ؟ مع ذلك كانت تشرب شايها الساخن كما هو الأمر دائماً ، يجرعات صغيرة ، وهذا الوجه المعاكس للضوء والمبتسم في بخار الشاي ، كان هو وجهها كل يوم ، مع انه اكثر تعباً دون شك ! آه ! هذه الابتسامة : وهذه النظرة الطويلة ... انه لا يستطيع احتمال عذوبة بهذه الكثرة : فخفض رأسه ، واخذ قطعة خبز محمص ، وتظاهر بقضمها بداعي المسيرة . وإزداد ابتسامها ، كانت سعيدة ولا تقول شيئاً ، وانفقت ما فاض من حنوها بمداعبة جبهة الكلبة الجائئة في تجويف ثوبها .

ووضع الخبز ، وعيناه دائماً في الأرض ، وقال وقد شحب لونه :

— وفي المدرسة ، ماذا قالوا لك ؟

— قلت لهم ان ذلك ليس صحيحاً .

وارتخت جبهة دانيال اخيراً ، ورفع عينيه ، والتقى بنظرة امه : نظرة واثقة بالتأكيد ، ولكنها كانت تستجوب رغم كل شيء ، وتتمنى ان تكون متأكدة من ثقتها ، واجابت نظرة دانيال على هذا السؤال الصامت بالطريقة التي لا تقبل الشك . عندئذٍ اقتربت فهللت وقالت بصوت منخفض جداً :

— لماذا ، لماذا لم تأت وتقص علي كل شيء يا كبير ي بدلاً من ان ..

ولكنها توقفت دون ان تكل : لقد رنت حزمة مفاتيح في الغرفة الملاصقة . وظلت جامدة ، ملتفتة نحو الباب المشقوق . وحركت الكلبة ذيلها وانزلت دون ان تنبح إلى أمام الزائر الصديق .

وظهر جيروم .

كان يبتسم .

وكان بدون معطف ولا قبعة ، وذو هيئة طبيعية جداً إلى درجة يظن معها انه مقيم هنا ، وانه خرج من غرفته . وألقى نظرة على دانيال ، ولكنه سار نحو زوجته وقبل اليد التي تركتها له معلقة . وكان يتوضع حوله عطر رعي الحمام *Vervetne* والليمون .

— ها انذا يا صديقي ! ماذا جرى ؟ انا شديد الحزن حقيقة .

واقترب دانيال بوجه فرح . فقد كان معتاداً على محبة والده ، مع انه في طفولته ظل وقتاً طويلاً يظهر لأمه حباً مانعاً ، غيوراً ، والآن ايضاً يقبل برضى لامبالٍ ان يظل والده غائباً عن مودتها . وقال جيروم :
— انت هنا إذن ، ما هذا الذي حدثوني عنه ؟

وأمسك ولده من ذقنه ونظر اليه عابساً ، ثم قبله .

وكانت مدام دي فوتتانان قد ظلت واقفة . وكانت قد قالت : « ساطرده عندما يعود » . ان حقدّها لم تهدأ حدته وكذلك عزمها ، ولكنه اخذها على حين غفلة وفرض نفسه بطريقة تحبط تدبيرها . لم تستطع ان تحول نظرها عنه ! ولم تعترف كم كانت مضطربة من حضوره ، ولم تزال حساسة بسحر نظراته الرقيق ، وابتسامته ، وحر كاته : لقد كان رجل حياتها . وخطرت لها فكرة النقود فتعلقت بها لتعتذر عن جمود موقفها ؟ فقد انفقت في الصباح آخر مدخراتها ، ولم تكن تستطيع الانتظار ، وجيروم كان يعرف ذلك ، وهو دون شك يحمل إليها نقود الشهر .

ولم يعرف دانيال كيف يجيب ، فالتفت نحو والدته ، وعندئذ فاجأ على الوجه الامومي الطاهر شيئاً لا يعرفه ، شيئاً خاصاً ، حبیباً بحيث ادار رأسه شاعراً بالحياء . لقد فقد في مرسيليا حتى براءة النظرة .

وقال جيروم بابتسامة عابرة جعلت اسنانه تلمع :

— هل يجب ان أوبخه يا صديقي ؟

فلم تجب حالاً . وأخيراً قدفته بنبرة تظهر فيها رغبة الثأر :

— لقد اشرفت جني على الموت ...

فترك ولده وخطا خطوة نحوها ، وبدا الذعر على وجهه بحيث رضيت حالاً أن تغفر له كل شيء لتمحو ذلك الألم الذي كانت تتمنى في بادئ الأمر ان تسببه له ، وقالت :

— لقد نجحت ، اطمئن .

وأجبرت نفسها على الابتسام لتسرع في طمأنته . وهذه الابتسامة ، بالفعل ، كانت معاهدة وقتية . وكانت شاعرة بذلك ، فكل شيء يتآمر ضد جدارتها . وأضافت ، ملاحظة أن يدي جيروم ترتجفان :
— اذهب وشاهدها . ولكن لا توقظها .

ومرت بضع دقائق . ومدام دي فونتنان جالسة . وعاد جيروم على رؤوس أصابعه وأغلق الباب باعتناء . وكان وجهه يتألق بالحنو ، ولكن القلق تبدد ، وضحك من جديد وطرف بعينه :

— لو ترينها وهي نائمة ! فقد وضعت يدها على خدها من ناحية — وكانت أصابعه ترسم في الهواء الشكل الظريف للطفلة النائمة — لقد هزلت ، ولكن ربما كان هذا أفضل ، فهي لم تردد إلا جملاً ، ألا تجدين ذلك ؟
فلم تجب . وتطلع إليها متردداً ، ثم هتف :
— ولكنك يا تيريز قد أصبحت بيضاء .

فنهضت وأسرعت الى الموقد . لقد كان هذا صحيحاً : يومان كانا كافيين ليصبح شعرها ، الفضي سابقاً والذي لا يزال أشقر ، أبيض على صدغيها وحول جبهتها . وأخيراً أدرك دانيال ما بدا له مختلفاً منذ وصوله ، مستغلقاً . وفحصت مدام دي فونتنان نفسها غير عارفة بماذا تفكر ، وغير مستطاعة الدفاع عن نفسها بحسرة ، وفي المرأة ، شاهدت جيروم الذي كان وراءها : كان يبتسم لها . وقد خففت هذه الابتسامة عنها دون أن تنتبه . كان يبدو لاهياً ، ولامس بيده خصلة شعر زال لونها كانت تحفّق في النور .

— لا شيء يلائمك أفضل من ذلك يا صديقتي ، وما من شيء يشي بصورة أفضل — كيف أقول ؟ بشباب نظرتك .

فقالت كأنها تعتذر ، ولكن على الخصوص لتغطي سروراً خفياً :
— آه ! يا جيروم ، لقد قضيت أياماً وليالي مفرطة في القساوة .. ونهار الأربعاء بذلت جميع المحاولات ، ولم أجرؤ على الأمل بشيء .. كنت وحدي . وانتابني خوف عظيم .

فهمت باندفاع :

— أنا حزين يا صديقي المسكينة . كان بإمكانني المجيء بسهولة ، فقد كنت في ليون لأجل القضية التي تعرفينها . قال ذلك بكثير من الاطمئنان مما جعلها تبحث في ذاكرتها . وقد نسيت ان عنواني ليس معك . ومع ذلك فلم أذهب إلا لأربع وعشرين ساعة : حتى اني خسرت الاستفادة من بطاقة العودة .

في تلك اللحظة تذكر انه لم يترك نقوداً مع تيريز منذ وقت طويل . لم يكن يستطيع ان يقبض شيئاً قبل ثلاثة أسابيع . وحسب ما كان في جيبه ، ولم يستطع ان يمتلك نفسه من رسم كسرة ، ولكنه فسرهما حالاً :

— كل ذلك ليس في سبيل شيء ذي أهمية ، فليس هناك صفقة جدية . وكنت آمل حتى آخر يوم ، وعدت خائباً . ان أصحاب المصارف الكبار في ليون هم مضجرون في الأعمال ، كثيرو الحذر .

وانطلق في حكاية عن رحلته . وابتكر اسبابات دون أي اضطراب ، كأنه قاص يلهو . وكان دانيال يصغي إليه : للمرة الأولى كان يشعر أمام أبيه بنوع من الخجل . وبدون سبب ، بدون أي رابط ظاهر ، فكر بذلك الرجل الذي حدثته عنه المرأة هناك ، « صديقها » كما كانت تقول ، رجل متزوج ، رجل أعمال ، يأتي غالباً بعد الظهر كما أوضحت لأنه لا يخرج في المساء أبداً « دون زوجته الحقيقية » . ووجه أمه التي كانت تصغي إليه هي أيضاً ، بداله في هذه الدقيقة لا يسر غوره . وتلاقت نظراتها . ماذا قرأت الام في عيني ولدها ؟ هل تغفلت كثيراً في تقدمها بين الأفكار التي لم يكن دانيال قد صاغها بنفسه ؟ وقالت بمجلة فيها شيء من الاستياء :

— هيا ، اذهب إلى النوم يا صغيري . انت منهوك من التعب .

فأطاع . ولكن في اللحظة التي انحنى فيها ليقبلها تراءت له المرأة المسكينة المتروكة من الجميع حين كانت جني مشرفة على الموت . بسبب خطأه ! وقد طفئ حنوها على الألم الذي سببه لها . فاحتضنها وتمتم في إذنها :

— ساحبيني .

كانت تنتظر هذه الكلمة منذ عودته ، ولكنه لو لفظها قبلًا شعرت بالسعادة التي تذوقتها . وشعر دانيال بذلك فحقد على والده . وشعرت مدام دي فونتنان أيضاً ؛ ولكنها حقدت على ولدها لأنه لم يتكلم حين كانت لا تزال له وحده . وتقدم جيروم نحو الطبق ، نصف بدافع الشيطنة ، ونصف بدافع البطنة ، وقام بجرده لمحتوياته مع كشرة لاهية .

— لمن إذن كل هذه الحلويات ؟

كانت طريقته في الضحك كثيرة التصنع ؛ وكان يلقي رأسه إلى الوراء ، مما جعل حدقته تجريان في زاوية العين . وكرر ثلاث آهات متتالية : آه ! آه ! آه ! وسحب كرسيًا صغيراً إلى جانب الطاولة واستولى على إبريق الشاي . فقالت مدام دي فونتنان وهي تشعل السماور :

— لا تشرب هذا الشاي فهو فاتر .

وحين اعترض قالت دون أن تبتسم : دعني أعمل .

كانا وحيدين . واقتربت لترقب الاناء الذي يُغلى الماء فيه وتنشقت تلك الرائحة المزة من الليمون ونبات رعي الحمام ، المتصاعدة منه . ورفع رأسه نحوها مبتسماً نصف ابتسامة ، وكانت أمائره رقيقة أخاذة : كان يمسك قطعة خبزه باليد كالتلميذ ، وأحاط بالذراع الحرجسد زوجته بجرأة تدل على خبرة غرامية طويلة . وتخلصت مدام دي فونتنان فجأة : كانت خائفة من ضعفها ،

وحين سحب ذراعه عادت تم صنع الشاي ، ثم ابتعدت من جديد .

لقد ظلت وقورة حزينة ؛ كان أشد حقدًا قساوة يخضع أمام هذا اللاشعور . وكانت تتفحصه خلصة في المرأة . صبغته الكهربائية اللون ، وعيناه اللوزيتان ، وانحناء قامته ، وحتى التصنع الغريب قليلاً في زيه كانت كلها تكسب تخنسه شيئاً شرقياً . وتذكرت انها كتبت في مذكراتها أيام الخطبة : « حبيبي جميل كأمر هندي . » كانت تنظر إليه ، وبمعني ذلك الزمان دائماً . كان جالساً باعوجاج على المقعد المنخفض ماداً ساقيه نحو النار . وبأطراف أصابعه ذات الأظافر المصقولة كان يغمس قطع خبزه المحمص بالزبدة ، الواحدة بعد الأخرى ،

ثم يذهبها بالعلل ويحني نصفه الأعلى فوق الصحن ويقضم الخبز بأسنان جميلة .
وعندما انتهى شرب شايه يجرعة واحدة ، ونهض برشاقة راقص ، وجاء يتمدد
على الكتبة ، حتى كأن شيئاً لم يحدث ، وانه يعيش هنا كالسابق . وكان يداعب
بوس التي قفزت على ركبتيه . وبنصره الأيمن يحمل خاتماً عريضاً من اليسب ورثه
عن والدته ، وحجراً ثميناً قديماً يرتفع فيه خيال ابيض لغانيميد *Ganymède*
كالحليب على أسود عميق ؛ وطول الاستعمال رقق الحلقة ، فينزلق الخاتم عند
كل انتقال لليد من طرف إلى آخر بين عقدتي الاصبع . وكانت تراقب كل حركاته .
- اتسمعين يا صديقتي أن أولع سيكارة ؟

كان لذيذاً ولا يمكن اصلاحه . وله طريقة خاصة في لفظ كلمة «صديقتي»
تاركاً الحرف الأخير يتلاشى على حافة الشفاه كالقابلة . ولعلت علبة السكاير
الفضية بين أصابعه . وكانت تعرف فرقعتها الجافة ، وتلك العادة المضحكة في
ضرب السيكارة على ظاهر كفه قبل ان يضعها تحت الشاربين . وكذلك تعرف
اليدين الطويلتين المعروقتين اللتين يحمل منها فجأة عود الثقاب صدفتين شفافتين
بلون الذهب .

وبذلت جهدها في ترتيب طاولة الشاي بهدوء . لقد أضناها هذا الأسبوع .
وأدركت في هذه اللحظة انها بحاجة الى كل شجاعتهما . وجلست ، ولم تكن
تعرف كيف تفكر ، وتسمع إلهام الروح بشكل سيء . ألم يضعها الله بجانب
هذا الخاطئ الذي يظل ، حتى في فسقه ، قريباً من الطيبة لتستطيع ذات يوم
أن تنصره في تقدمه التدريجي نحو الخير ؟ كلا : ان الواجب الآتي هو ان تقبي
العائلة والأولاد . واستقام تفكيرها شيئاً فشيئاً . وكان مما يعزها انها شعرت
بنفسها اكثر صلابة مما تظن . والحكم الذي أقرته في أعماق ضميرها النار بالصلاة
في غياب جيروم ظل قطعياً .

كان جيروم يتأملها منذ فترة بانتباه حالم ، ثم اتخذت نظرته تعبير صدق
شديد . كانت تعرف هذه الابتسامة الحائرة ، وتلك العين المحترزة ؟ وكانت
تشعر بالخوف لأنه إذا كان صحيحاً انها صلت في كل لحظة ، ورغماً عنها تقريباً ،

طلاسم هذا الوجه ذي النزوات ، فان حدسها كان ينتهي دائئاً بصدم نقطة فاصلة تفوص بصيرتها وراءها في رمل متحرك ، وغالباً ما كانت تسأل نفسها : « وفي أعماق نفسه ، ما هو ؟ » .

وبدأ جيروم ، بشيء من الكآبة الواقعة :

— نعم ، أنا أدرك جيداً . انك تقاضيني بصرامة يا تيريز . اوه ! انا افهمك ، افهمك جيداً . ولو كان الأمر يتعلق بأحد غيري لقاضيته كما تفعلين ، ولكنت فكرت : هذا بائس . نعم ، بائس — ليكن لدينا شجاعة الكلمات على الاقل . آه ! كيف اشرح لك كل ذلك ؟

— ما الفائدة ، ما الفائدة ...

هكذا قاطعت المرأة المسكينة . وكان وجهها الذي لا يعرف المداجاة يتوسل .

وكان قد انقلب في داخل الكنبه وهو يدخن ، وتشابك ساقيه يكشف حق كعب قدمه الذي كان يؤرجحه بتناقل .

— تأكدي انني لن أناقش . والوقائع هنا تدينني ، ومع ذلك يا تيريز فمن الممكن أن يكون لكل هذا تفسيرات أخرى غير التي تبدو للعيان .

وابتسم بحزن . كان يحب ان يسيء استخدام العقسل في تبرير أخطائه ويستنجد ببهامين ذات تسلسل أخلاقي ، وربما كان يرضي بذلك ما بقي في نفسه من البروتستانتية . وتابع :

— في الغالب يكون للعمل السيء دوافع أخرى غير الدوافع السيئة . ويبدو الأمر انه بحث عن ارضاء عنيف لغريزة ، وفي الواقع ، في بعض الأحيان ، وفي أغلب الأحيان أيضاً ، يخضع المرء لعاطفة تكون صالحة في ذاتها — كالشفقة مثلاً . وهكذا نسب الألم لكائن نحبه . وفي بعض الأحيان ، لأننا نشعر بالشفقة على كائن آخر ، زالت حظوته ، وذو وضع متدنٍ ، نظن ان قليلاً من الانتباه يكفي لإنقاذه .

وتراءت لها على الرصيف تلك العاملة الصغيرة التي كانت تبكي . وخطرت لها

ذكريات أخرى ، مارييت ، نومي ... كاذت عينها محدقة بذهاب وإياب الحذاء اللامع حيث ينار ضوء القنديل وينطفئ دورياً . وتذكرت يوم كانت لا تزال زوجة شابة ، وجبات الطعام التي كان يتناولها خارجاً بحجة الأعمال الطارئة والاضطرارية التي لم يكن يعود منها إلا مع الفجر ، ليغلق غرفته على نفسه وينام حق المساء . وجميع الرسائل المغلفة التي كانت تقرؤها ثم تمزقها وتحرقها وتدوسها دون أن تتوصل الى تخفيف وطأة قوة السم ! لقد رأت جيروم يفسق مع خادوماتها ، ويتعلق صديقاتها واحدة واحدة . وجعل حولها فراغاً . وتذكرت التوبيخات التي كاذت تجازف بها في بادئ الأمر ، والمشاهد الحذرة التي كانت تتكلم فيها باخلاص وتساؤل ولا تجد أمامها سوى كائن تسيطر عليه نزواته ، مفلق ، هارب ، يكابر في الملموس بغضب بوريتاني^(١) ، ثم يقسم على الأثر ، مبتسماً كالولد ، انه لن يعود الى ذلك ابداً . وتابع :

— هكذا ، ترين ، اني أسأت التصرف معك . وأنا ... نعم ، نعم ، يجب ألا تخاف من الكلام . مع هذا فلاني أحبك يا تيريز من كل قلبي وأحترمك وأرثي لك . ولا شيء آخر ، أبداً ، وأقسم على ذلك ، ولا مرة ، ولا دقيقة ، ما من شيء كان يشبه هذا الحب ، الوحيد المتغلغلة جذوره في أعماقي ! آه ! حياتي بشعة ولا أذافع عنها ، وأنا أخجل منها . ولكن حقيقة يا صديقتي ، صدقيني انك ترتكبين ظلماً ، انت المألئ بالانصاف ، بمقاضي فقط على ما أفعل . أنا . أنا لست بالضبط رجل اخطائي ... اني أعبر بشكل سيء وأشعر انك لاتصنين الي ... كل هذا ألف مرة اكثر تعقيداً بحيث لا أستطيع قوله ولن أتوصل الى استشفافه الا شيئاً فشيئاً .

وسكت ، منحني الرأس ، وعيناه تنظران الى بعيد كأنه أنك بهذا الجهد الذي لا طائل تحته ليبلغ الحقيقة الخاصة بحياته ولو لحظة . ثم رفع رأسه ، وشعرت مدام هي فوتانان بلامسة نظرة جيروم لوجهها ، خفيفة في الظاهر ،

ولكنها تملك فضيلة استلفات أنظار الغير عند مرورها ، وتتلقفها بسرعة إذا صح القول ، وتبقى لحظة ملتصقة بها قبل أن تستطيع الانفصال عنها : بالطريقة التي يجتذب فيها المغناطيس حديدة ثقيلة ، ويرفعها ويتركها . ومرة أخرى أيضاً تلات عيونها وتفارقت . وفكرت : « وأنت أيضاً ، الن تكون أفضل من حياتك ! » .

الا أنها هزت كتفها . وتمم :

— لم تصدقني .

فسمت لتتخذ لهجة منفصلة :

— اوه ! أريد أن أصدقك ، وقد صدقتك سابقاً في أغلب الأحيان ، ولكن ليس لهذا أي أهمية . مذنب أم لا ، مسؤول أم لا يا جيروم ، فالشر قد وقع . والشر يقع في جميع الأيام . — والشر سيقع أيضاً . — وهذا يجب الايدوم . أخيراً ، لنفصل ، لنفصل نهائياً .

لقد فكرت كثيراً بذلك منذ أربعة أيام ، بحيث لفظت هذه الكلمات بنشوفة لم يخطئها جيروم . ورأت ذهوله وألمه فأسرعت بالمتابعة :

— اليوم ، يوجد الأولاد . وما داموا صغاراً فلن يفهموا . كنت وحيدة ، وأنا ... — ولكن الحياء أمسكها في اللحظة التي كانت ستلفظ فيها كلمة « أتعذب » . — الألم الذي سببته لي يا جيروم لم يصبني بفرد في ... محبتي : انه يدخل معك الى هنا ، انه في هواء بيتنا ، في الهواء الذي يتنشقه أولادي . لن أحتمله . انظر ما فعل دانيال هذا الأسبوع ، ليساعه الله كما ساعته عن الجرح الذي سببه لي ! انه يأسف لذلك من قلبه الذي ظل مستقيماً . — وشع في نظرتها ألق من الكبرياء ومن التحدي تقريباً — ولكني متأكدة ان قدوتك ساعدته على فعل الشر . وهل كان يذهب بهذه السهولة دون أن يهتم بقلقي لولم يكن يراك تحتفتي دون انقطاع ... لأجل أعمالك ؟

ونفضت وخطت خطوة مترددة نحو الموقد ، وشاهدت شعرها الأبيض ، وانحنت قليلاً باتجاه زوجها دون أن تنظر إليه .

— لقد فكرت جيداً يا جيروم . وتأملت كثيراً هذا الاسبوع ، وصليت ، وفكرت . لم افكر بتوجيه أي لوم إليك . ومع ذلك لم تبق لدي قوة هذا المساء ، فقد أنهكت . واني أطلب منك فقط أن تواجه الحقيقة : وسوف تعترف انني على حق وان ليس هناك حل آخر ممكن . والحياة المشتركة . ما بقي لنا من حياة مشتركة ، هذا القليل الذي يبقى لنا ، فهو كثير أيضاً يا جيروم .
وتصلبت ، ووضعت كلتا يديها على الرخامة ، مميزة كل كلمة بحركة من نصفها الأعلى ومن يديها ، وقالت بوضوح :

— لا أريد .

فلم يجب جيروم ، ولكن قبل أن تتمكن من الابتعاد زحف حتى قدميها ووضع خده على خصرها كولد يريد أن يغتصب الصفح ، وقال متلجلجاً :
— وهل باستطاعتي الانفصال عنك ؟ وهل أستطيع العيش بدون صفاري ؟ اني ألهب دماغي .

وشعرت برغبة بالابتسام لما وضع من الصبانية في التمثيل الذي قام به وهو يشير إلى صدغه . وأمسك بمعصم تيريز المتدلي على طول تنورتها وغمره بالقبلات . فانتزعت يدها وداعبت جبهته بأطراف أصابعها ، بحركة غير منتبهة وتعبة بدت امومية ، وكانت تبرهن عن انفصالها الذي لا دواء له . وخدع بذلك وزفع رأسه ، ولكنه أدرك من النظر إلى وجهها كم كان مخدوعاً . وكانت قد ابتعدت حالاً ومدت ذراعها نحو ساعة سفر كانت على طاولة الليل ، وقالت :

— الساعة الثانية ! لقد تأخر الوقت جداً . أرجوك ... غداً .

وألقى نظره على ميناء الساعة ومنها على السرير الكبير المهيأ الذي تضطجع عليه الوسادة الوحيدة . وفي هذه اللحظة أضافت :
— ستجد مشقة في إيجاد عربة .

فاتى بحركة مبهمه مندهشة ؛ لم يكن عازماً أبداً على الخروج هذا المساء . ألم يكن في بيته ؟ غرفته دائماً مجهزة ، كانت تنتظره . وليس عليه الاجتياز الرواق . كم مرة عاد ليلاً بعد غياب أربعة أو خمسة أيام ؟ كانوا يرونه يظهر عند

تناول طعام الافطار بالبيجاما ، حالقاً ذقنه ، مازحاً ، ضاحكاً بصوت مرتفع ليتغلب عند ولديه على ذلك الحذر الصامت من الحدّاع الذي لم يكن يفسّر . وكانت مدام دي فونتنان تعرف كل ذلك . وأخذت تتابع على قسماته خط تفكيره المنحني ؟ ولكنها لم تتساهل وفتحت الباب المطل على الدهليز . فمر ، خجلاً في سره ، ولكنه احتفظ بهيئة صديق نال إجازة .

وبينما كان يرتدي معطفه فكر أنها بدون نقود . وبدون تردد وضع بعض الاوراق النقدية التي بقيت في جيبه ، مع القول أنه ليس لديه أية وسيلة للحصول على مدد آخر . ولكن تفكيره بأن هذه الالهية يمكن أن تبدل شيئاً في رحيله وانها بعد أن تتلقى هذه النقود ربما لا تساورها الحرية في أن تصرفه بكثير من الحشونة ، ان هذه الفكرة قد نكدت عليه رفته ؛ يضاف إلى ذلك أيضاً الخوف من إمكان ارتياب تيريز بالحساب . وقال فقط :

— يا صديقي ، لا يزال لدي الكثير مما أقوله لك .

فأجابت بسرعة ، مفكرة بعزمها على الانفصال ، ثم بالمبلغ المقرر :

— غداً يا جيروم . سأستقبلك غداً ، إذا أتيت . وستحدث .

وعندئذ عزم على الذهاب بلطف ، فأمسك بأطراف اصابعها ووضع شفتيه عليها . وكانت بينهما لحظة تردد . ولكنها سحبت يدها وفتحت باب الدرج .

— لا بأس . إلى اللقاء يا صديقي ... إلى الغد .

وشاهدته للمرة الأخيرة ، رافعاً قبعته ، هابطاً الدرجات الأولى ، ورأسه منحني نحوها ، وهو يتسّم .

وأغلق الباب . وظلت مدام دي فونتنان وحدها ، وجبهتها مستندة إلى أطار النافذة ؛ والاصطفاق الشديد للباب الكبير بعث الرعدة في البيت النائم كله . وأمامها قفاز فاتح اللون كان ملقى على السجادة . فأمسكه دون أن تفكر ، وضمته إلى فمها ، وتنشقت رائحته ، باحثة خلال عفونة الجلد والدخان عن عطر لطيف كانت تعرفه جيداً . وحين شاهدت حركتها في المرأة احترت وألقت القفاز وادارت عاكس التيار بحدة ، متخلصة من نفسها بالظلام ،

وركضت حتى غرفة الأولاد متلمسة الحائط ، لتستمع فترة طويلة إلى تنفسهم
النائم .

٩

كان انطوان وجاك قد صعدا إلى عربتها . ولم يكن الجواد يتقدم ويبدو ،
بحوافره ، انه يلعب بالصناجات على طريقة ماك آدم . كانت الشوارع مظلمة .
وكانت رائحة غطاء عفنٍ تتبخر في ظلام العربة . وكان جاك يبكي . فالتعب
دون شك ، ثم عناق تلك السيدة ذات الابتسامة الامومية ، أسلماه أخيراً
لتوبيخ الضمير : بماذا يجيب والده ؟ وشعر بوهن قواه ، وظهر ما استتر من سره
فجاء يسند شقائه إلى كتف الأخ الذي أحاطه بذراعيه . انها المرة الأولى التي
لم يحل خجلهما بينهما .

واراد انطوان ان يتكلم ، ولكنه لم يتوصل إلى التجرد من كل احترام
انساني ، وكان لصوته بساطة مرغنين ، قاسية قليلاً :
— هيا يا صديقي ، هيا ... لقد انتهى الأمر ... ما فائدة وضعك في
هذه الحالة ؟ ..

وسكت ، واكتفى بان يبقى حاضناً النصف الأعلى من جسد الصغير .
ولكن فضوله كان يعمل ، فقال بكثير من العذوبة :
— ما الذي أصابك ؟ ماذا جرى ؟ هل هو الذي اقتادك ؟
— أوه ! كلا . انه لم يكن يريد . ولكن انا ، انا وحدي .
— ولكن لماذا ؟

لا جواب . وتابع انطوان بحمق :
— انت تعلم اني أعرف ذلك . العلاقات في المدرسة . بإمكانك ان تعترف لي
بكثير من الأمور ، لي انا ، وانا أعرف ما الخبر . والانسان يقاد .
فنفخ جاك دون ان يترك كتف أخيه :
— انه صديقي ، هذا كل شيء .
فجازف الآخر :

— ولكن ماذا ... تفعلان معاً ؟

— نتحدث . وهو يؤاسيني .

ولم يحيروا انطوان على السير ابعد من ذلك . « يؤاسيني » . ان لهجة جاك عصرت قلبه . وكاد يقول : « إذن أنت بائس جداً يا صغيري ؟ » حين اضاف بجرأة :

— ثم إذا اردت ان تعرف كل شيء : فهو يصلح اشعاري .

فأجاب انطوان :

— آه ! هكذا ! حسن جداً . هذا يسرني كثيراً ، انا مسرور كما ترى بأن تكون شاعراً .

فقال الولد : صحيح ؟

— نعم . مسرور جداً . وكنت أعرف ذلك قبلاً . وقد قرأت قصائد لك ، وكنت احياناً أجدها ملقاة على الأرض . ولم اكللك عنها . ومع ذلك فنحن لم نكن نتحدث معاً ، ولا أدري لماذا . ولكن يوجد فيها ما يسرني كثيراً : فعلاً أنت ذو موهبة ويجب الاستفادة منها .

فزاد جاك من انحنائه وتتم :

— لكم أحب هذا . واني أعطي كل شيء في سبيل الاشعار الجميلة التي احبها . وفونتنان يعيرني كتباً . — قل ، ألن تقول لأحد ؟ — انه هو الذي جعلني اقرأ لابرا^(١) ، وسيللي بريدوم ، ولامارتين ، وفكتور هيجو ، وموسيه ... آه ! موسيه ! قل :

يا نجمة المساء الشاحبة ، ايتها الرسالة البعيدة ،
التي تخرج جبهتها متألفة من أقنعة المغيب ...

وهذا :

هنا قد مر وقت طويل على تلك التي نمت معها

١ - ريشاردي لابراد : شاعر فرنسي ولد في مونبريزون (١٨١٢ - ١٨٨٣) مؤلف (قصائد انجيلية) ذات الهام رومانتيكي . وكان عضواً في الجمع العلمي الفرنسي .

وتركت فراشي إلى فراشك إياها السيد
ولا تزال ممزجين واحداً بالآخر ،
هي نصف حية وأنا نصف ميت ...
و « مصلوب » لامارتين ، اتعرفه ؟ قل :
انت الذي جمعت على فمه المحتضر
بين نفسه الاخير ووداعه الأخير .
هذا جميل ، ها ، انه سائل ! في كل مرة يجعلني هذا مريضاً .

ثم فاض قلبه ، فتابع :

— في البيت لا يفهمون شيئاً ، وأنا متأكد من انهم سوف يتهمونني بالبلاهة
لو عرفوا انني انظم اشعارا . انت لست مثلهم .. وشذ ذراع انطوان إلى
صدره .. وكنت اعتقد ذلك منذ وقت طويل . إلا انك لم تكن تقول شيئاً ، ثم
انك لست هنا في اغلب الاحيان .. آه ! أنا مسرور ، لو تعلم ! واشعر الآن انه
سيكون لي صديقان بدلاً من واحد .

فتلا انطوان مبتسماً :

ايف سيزار ، ها هي الغالية ذات العينين الزرقاوين ..
فابتعد جاك وقال : اقرأت الدفتر ؟

— ولكن اسمع ...

— وايي ؟

هكذا صرخ الصغير بلهجة حزنة جعلت انطوان يقول متلجلجاً :

— لا أعلم . ربما قرأ شيئاً منه .

ولم يستطع ان يكمل ، فقد ارتقى الولد داخل العربة وتدحرج على الوسادة ،
ورأسه بين ذراعيه :

— هذه نذالة ! والاب الرئيس واش ، قدر ! سأقولها له ، سأصرخ فيه

أثناء الدرس ، سأبصق في وجهه ! بإمكانهم طردي من المدرسة ، فلا يهمني
سأهرب أيضاً ! وسأقتل نفسي !

وكان يفحص برجله . ولم يجرؤ انطوان على ان ينبس بكلمة . وفجأة ، سكت الولد من تلقاء نفسه ، وتلبد في الزاوية وسد اذنيه ، وكانت اسنانه تصطك . وكان صمته مقلقاً اكثر من غضبه . ومن حسن الحظ فإن العربية هبطت شارع سان - بير ، لقد وصلا .

وخرج جاك أولاً ، وانطوان لم تفارق عيناه أخاه وهو يدفع اجرة العربية ، خائفاً من ان يعاود الهرب في الليل بدون تبصر . ولكن الولد بسدا محطماً ؛ ووجهه ، وجه ابن الشارع ، المضنى من السفر ، التالف من الغم ، كان جافاً ، وعيناه منخفضتان . وقال انطوان :

— اقرع الجرس . اتريد ؟

فلم يجب جاك ولم يتحرك . وادخله انطوان فأطاع منقاداً ، حتى انه لم يفكر بفضول الام فرولان ، البوابة . كان مسحوقاً بمعجزة الواضح . ورفع المصعد كالعصافة ليلقيه تحت المقرعة الابوية . كان من جميع النواحي ، وبدون أية مقاومة ممكنة ، سجين العائلة والشرطة والمجتمع .

إلا انه حين وجد سطح درجه من جديد ، حين عرف الثريا المضاءة في الدهليز كما يحدث في الامسيات التي يقيم فيها والده حفلات عشاء ، شعر بعذوبة ، رغم كل شيء ، لإحساسه بتلك العادات القديمة من حوله تحيط به ، وحين رأى المدموازيل آتية تعرج نحوه من داخل غرفة الزائرين ، وهي اكثر صفراً واكثر اهتزازاً من أي وقت مضى ، شعر بالرغبة في إلقاء نفسه ، دون أي حقد تقريباً ، بين هذين الذراعين من الصوف الاسود اللذين انفرجا لأجله . لقد امسكت به والتهمتهم بالمداعبات ، بينما كان صوتها العاثر يرتل بلحن وحيد حاد :

— يا لها من خطيئة ! العديم القلب ! إذن كنت تريد ان تميئنا من الغم ؟
يا لها من خطيئة يا ربي ! أليس لك قلب ؟

وامتلأت عيناهما اللتان تشبهان عيني اللاما بالدمع .

ولكن باب المكتب فتح على مصراعيه وظهر الاب في فرجة الباب . لقد شاهد جاك منذ اللحظة الاولى ولم يستطع اخفاء تأثره . إلا انه وقف واطبق

جفونه ، لقد بدا انه ينتظر الابن المذنب ليسرع ويركع كما في لوحة غروز^(١)
Greuse الموجودة في قاعة الاستقبال .

ولم يجرؤ الولد . لأن المكتب ايضاً كان مضاءً كما يضاء للحفلات . وظهرت
الحادمتان في باب المكتب . وكان السيد تيبو يرتدي معطفاً مع انها ساعة درّاعة
المساء : ان كثيراً من الاشياء غير المألوفة شلت حركة الولد فتخلص من حضنة
الدموازيل وتقهر ، وظل واقفاً ، خافضاً رأسه ، منتظراً ما لا يعرف ، شاعراً
بالرغبة بالبكاء لكثرة ما تكس من الرقة في قلبه ، وفي ان ينفجر ضاحكاً ايضاً .
ولكن أول كلمة للسيد تيبو تبدو انها تعني طرده من العائلة . فموقف جاك
بحضور شهود لاشئ في لحظة كل ميل إلى التساهل . ولكي يذل المتمرد ، تظاهر
بالتجرد التام وقال موجهاً الكلام إلى انطوان وحده :

— آه ! ها انت اتيت . لقد بدأت ادهش . هل جرى كل شيء عادياً
هناك ؟

وعلى الجواب الإيجابي لأنطوان الذي جاء يشد على اليد الرخوة التي قدمها له
والده ، قال :

— اشكرك يا عزيزي لتوفيرك علي مسعى ... مسعى غزياً جداً .
وتردد بضع ثوان ، وهو لا يزال يأمل باندفاعه من المذنب ! والتفت نحو
الحادمتين ، ثم نحو الولد الذي كان يتظاهر بالنظر إلى السجادة . عندئذ قرر
الغضب وقال :

— سئى منذ الغد الاحتياطات الواجب اتخاذها لكي لا تتجدد امثال هذه
الفضائح ابداً .

وحين خطت الدموازيل نحو جاك لتدفعه إلى ذراعي والده - حرّك اذركها
جاك دون ان يرفع عينيه وكان ينتظرها كآخر حظ له بالنجاة - مدّ السيد

١ - جان بابتيست غروز : ولد في تورنو (سون - أي - واز) ١٧٢٥ - ١٨٠٥ . اشتهر
في رسم المشاهد العائلية .

تبدو ذراعه ووقف المدموازيل آمرا :

— دعيه ! دعيه ! هذا تافه . قلب من حجر . هل يستحق المتاعب التي
مررتا بها بسببه ؟

ووجه الكلام من جديد إلى انطوان الذي كان يبحث عن فرصة ليتدخل :
— يا عزيزي انطوان ، أدّ لنا خدمة باهتمامك هذه الليلة ايضاً بهذا الشقي .
وأعدك اننا سنخلصك منه في الغد .

وكان تردد : فقد اقترب انطوان من والده . ورفع جاك جبهته بنجمل .
ولكن السيد تيبو تابع كلامه بنبرة لا جواب لها :
— هيا ، اتسمعي يا انطوان ؟ خذه إلى غرفته . لقد دامت هذه الفضيحة
كثيرا .

ومنذ ان اختفى انطوان في الرواق أخذ آجاك امامه ، وحيث الخادومات
توارين بمحاذاة الجدار كما على طريق وقد الاعدام ، فإن السيد تيبو عاد إلى
مكتبه ، مطبق العينين دائما ، وأغلق الباب وراءه .

لم يكن عليه الا أن يجتاز الغرفة ليدخل الى غرفة نومه . انها غرفة أهله
كما رأها منذ بدء طفولته في فسطاط المصنع الوالدي بالقرب من روان ، وكما
ورثها وجاء بها الى باريس حين جاء يدرس الحقوق : خزانة الاكاجوزات
الأدراج ، والكنبات من طراز فولتير ، والستائر الزرقاء ، والسرير الذي مات
عليه أبوه وأمه ، الواحد بعد الآخر ، معلق أمام المصلّى الذي طرزت وشيه
مدام تيبو ، والمسيح الذي وضعه بنفسه بين أيديها المضمومة ، في فسحة بضعة
أشهر فصلت موتها .

وهناك ، وقد أصبح بمفرده ، عاد هو نفسه ، الرجل الكبير المستدير
الكتفين ؛ وظهر على وجهه قناع من التعب ، واتخذت قسامته تعبيراً بسيطاً جعله
يشبه صورته وهو طفل . واقترب من المصلّى وركع باستسلام ، ويداه المنفتختان
تصالبتا بطريقة سريعة ، معتادة : ان لجميع حركاته هنا شيئاً سهلاً ، سرياً ،
منفرداً . ورفع وجهه الجامد ؛ وذهبت نظرتة الراشحة تحت أهدابه رأساً نحو

المصلوب . وقدم لله إخفاقه ، ذلك البرهان الجديد ، ومن أعماق قلبه الخالي من كل شعور جديد أخذ يصلي كأب ، لأجل الصغير الضال . وأخذ سبحته من تحت المسند الجانبي ، بين الكتب الدينية ، سبعة مناولته الأولى التي تجري حباتها بعد أربعين سنة من الصقل ، من تلقاء نفسها بين أصابعه . وكان قد أطبق عينيه ، ولكنه احتفظ بجبهته متلعة نحو المسيح . ما من أحد رأى في الحياة تلك الابتسامة الداخلية ، وذلك الوجه المجرد السعيد . وتمتمة شفتيه جعلت خداه يرجفان . وهزة رأسه التي يحدثها في فترات منتظمة ليخرج عنقه خارج الطوق تبدو أنها تؤرجح المبخرة على قدم العرش الإلهي .

في الغد كان جاك وحيداً ، جالساً على سريره الشاحب . لم يكن يعرف ماذا سيحل به في ذلك الصباح من يوم السبت ، الذي ليس يوم عطلة ، بالعكس ، فقد قضاء هنا ، في غرفته . كان يفكر بالمدرسة ، بصف التاريخ ، بدانيال . وكان يسمع جلبة الصباح التي لم تكن مألوفة لديه وتبدو له عدائية ، المكنسة على الطنافس ، والأبواب التي تصر بسبب مجرى الهواء . لم يكن خامد النشاط: كان بالأحرى متحمساً ؛ ولكن جموده ، وذلك التهديد الغامض الذي يحوم في البيت سببا له قلقاً لا يحتمل . وكان يبحث كخلاص عن فرصة تقانٍ ، عن تضحية بطولية ومستحيلة تتيح له أن يستنفذ دفعة واحدة ذلك الفيض من المحبة التي تخنقه . وبين فترة وأخرى فان الشفقة التي كانت لديه على نفسه ، كانت تجعله يرفع رأسه ويتذوق دقيقة من اللذة الفاسدة ، المصنوعة من حب غير معترف به ، ومن الحقد والكبرياء .

وحرك أحدهم زر القفل . انها جيزيل . فقد غسلوا لها شعرها وكانت صفائرها السوداء تجف على كتفها ؛ وكانت بالقميص والبنطلون ، وعنقها ، وذراعاها ، وساقاها كلها سمراء ، وهيئتها كجزائري صغير في سروالها المنتفخ ، وبميينها الجيليتين كميني كلب ، وشفتيها الناضرتين ، وشعرها المشعث . وقال جاك دون لطف : ماذا تريدن ؟

فقالته وهي تنظر إليه : جئت لأراك .

لقد جعلتها سنواتها العشر تدرك أشياء كثيرة هذا الأسبوع . أخيراً عاد جاك . ولكن لم تعد الأمور إلى نصابها ما دامت عمتها ، وهي تسرح لها شعرها ، قد دعيت لمقابلة السيد تيبو ، وتركتها هناك وشعرها في الهواء بعد أن نالت منها وعداً بأن تكون عاقلة . وسأل :

— من قرع الجرس ؟

— السيد الرئيس .

فمبس جاك وصعد إلى السرير على جانبه ، فتمتعت :

— مسكين يا جاك .

هذه المودة أحسنت إليه كثيراً ، ولكي يشكرها ، أجلسها على ركبتيه وقبلها . ولكن أذنه كانت تسترق السمع ، وهمس وهو يدفعها نحو الرواق :

— اهربي ، فقد أتوا .

لم يتسع الوقت له للوثوب عن السرير وفتح كتاب القواعد . فقد ارتفع صوت الأب فيكار وراء الباب :

— صباح الخير يا صغيرتي . هل جاكو هنا ؟

ودخل ، ووقف على العتبة ، وخفض جاك عينيه . واقترب الأب الرئيس وقرص أذنه ، وقال :

— هذا جميل .

ولكن مظهر الولد العنيد جعله يغير طريقته . كان يتصرف مع جاك دائماً بحذر . فقد كان يشعر حيال هذه النعجة الضالة في أغلب الأحيان بحب رقيق خاص ، ممزوج بالفضول والاعتبار ؛ كان يميز جيداً أية قوة تكن هناك .

وجلس وجاء بالولد إلى أمامه . وقال مع أنه يعرف الأمر حق المعرفة :

— هل طلبت الصفح من والدك على الأقل ؟

وحقد جاك عليه بسبب هذه المداواة ؛ ورفع إليه نظراً هادئاً وأتى بإشارة تفيد النفي . وساد صمت قصير . وتابع الكاهن بصوت حزين ، متردد قليلاً :

— لا أخفي عليك يا ولدي أن كل ذلك سبب لي الكثير من الغم . وحقى الآن ، وبالرغم من طيشك ، كنت دائماً آخذ جانب الدفاع عنك عند والدك . وكنت أقول له : « أن لجاكو قلباً طيباً ، وهناك وسيلة ، فلنصبر » . ولكني اليوم لا أعرف ماذا أقول ، وأكثر من ذلك ، لا أعرف بماذا افكر . فقد علمت عنك أشياء ما كنت أجرو على الظن بها أبداً ، أبداً . وسنعود إلى ذلك ، وكنت أقول لنفسي : « سيكون لديه الوقت الكافي للتفكير ؛ سيعود إلينا تائباً ، وليس هناك خطأ لا يمكن التكفير عنه بتوبة نصوح . » وبدلاً من ذلك ، فها أنت بوجهك الرديء لا تبدي حركة أسف ، ولا دموع . لقد خمدت شجاعة والدك المسكين هذه المرة ؛ وقد أغميت . انه يتساءل إلى أية درجة من فساد الاخلاق قد انحدرت ، إذا كان قلبك قد جف تماماً . ولعمري فاني لأتساءل أيضاً .

كان جاك يشنح قبضتيه في داخل جيوبه ويضغط ذقنه على صدره لئلا ينبجس أي بكاء من حنجرتة ، ولكي لا تشي به أية عضلة في وجهه . هو وحده كان يعرف كم يتعذب لأنه لم يطلب الصفح ، وأية دموع لذينة كان يسكبها لو أنه استقبل كدانيال ! كلا ! ما دام الأمر هكذا فلن يدع احداً يعرف ما يشعر به حيال والده ، تلك المحبة الحيوانية ، المحبولة بالكراهية ، والتي تبدو انها زادت تأججاً منذ عدمت مساندة اي أمل بالمبادلة !

وكان الأب الرئيس صامتاً ، ووداعة قسائمه جعلت صمته أكثر ثقلاً . ثم نظر الى بعيد دون ديباجة اخرى ، وبدأ بصوت مرتل :

(كان لرجل ولدان . وقد جمع اصغرها كل ما لديه وذهب الى منطقة غريبة وبعيدة . وهناك بعثر امواله عائشاً في الفوضى . وبعد ان انفق كل شيء عاد إلى نفسه وقال : « سأنهض واسير نحو ابي وسأقول له : « يا أبي ، لقد أخطأت بحق السماء ولست جديراً ، بنظرك ، أن أكون ولداً لك » . ونهض عندئذ وسار نحو والده . وفيما كان لا يزال بعيداً شاهده والده وأخذته الرأفة وركض نحوه وضمه بين ذراعيه وقبله . ولكن الابن قال له : « يا أبي لقد أخطأت بحق السماء وفي نظرك لست جديراً بان ادعى ابناً لك ... ») .

في تلك اللحظة أصبح ألم جاك أكثر قوة من إرادته ، فانخرط في البكاء .
وغير الأب الرئيس لهجته :

— كنت أعلم أنك لست فاسداً حتى أعماق قلبك يا بني . وقد تلوت هذا الصباح قداساً لأجلك . لا بأس ، اذهب كالابن الضال ، وسر الى والدك وسوف تأخذه الرأفة . وسيقول هو أيضاً : « لنفرح لأن ولدي هذا كان ضالاً ، ولكنه اهتدى ! » .

عندئذ تذكر جاك أن ثريا الدهليز كانت مضاءة لدى عودته ، وأن السيد تيبو كان محتفظاً بمعطفه . وزادت من رقة قلبه فكرة وجود تجهيزات لحفلة . وقال الكاهن مداعباً الرأس الصغير الأمغر :

— أريد أن أقول لك شيئاً آخر أيضاً . لقد صمم والدك على أمر خطير في قضيتك ...

وتردد وهو يختار كلماته ، ويمر بيده جيئةً وذهاباً على الأذنين المنفصلتين المنطويتين على طول الخد ثم تنتصبان كالنوابض وتصبحان محرقتين ؛ أما جاك فلم يجرؤ على الحركة .

— ... انه تصميم وافقت عليه .

قال الأب الرئيس ذلك واضعاً سبابته على شفتيه ، باحثاً باصرار عن نظر الصغير :

— يريد ارسالك ، لبعض الوقت ، إلى مكان بعيد عنا .

فصرخ جاك بصوت مخنوق :

— إلى أين ؟

— سيقول لك ذلك يا بني . ولكن مهما كان تفكيرك أولاً ، فيجب أن تقبل هذه العقوبة بقلب نادم كندبير اتخذ لصالحك . وربما يكون في البدء قاسياً أحياناً أن تجد نفسك هاعات بكاملها منفرداً تجاه نفسك : تذكر في تلك اللحظات أنه لا يوجد عزلة للمسيحي الصالح ، وان الله لا يترك أولئك الذين يضعون ثقتهم به . هيا . قبلي . وتعال واطلب الصفح من والدك .

بعد بضع لحظات عاد جاك إلى غرفته ، ووجه متورم من الدموع ، ونظرته نارية . وتقدم نحو المرأة وتصفح نفسه بضراوة حتى أعماق عينيه ، كأنه بحاجة إلى صورة كائن حي ليصبح فيه ببغضه وكراهيته . ولكنه سمع وقع خطوات في الرواق ؛ وليس في قفل بابه مفتاح ؛ فكوّم متراساً من الكراسي وراء الباب ، ثم أسرع إلى طاولته وكتب بضعة أسطر بالقلم الرصاصي ، ووضع الورقة في غلاف ، وكتب العنوان ، وألصق الطابع ، ونهض . كان كالضائع . لمن يوكل هذه الرسالة ؟ لا يوجد حوله سوى اعداء ! وفتح النافذة قليلاً . كان الصباح رمادي اللون ؛ والشارع مقفر . ولكن هناك سيدة هرمة وولد كانا آتين على مهل . فأسقط جاك الرسالة التي أخذت تدور وتدور واستقرت على الرصيف ، وتقهقر بسرعة . وحين جازف من جديد بمد رأسه إلى الخارج كانت الرسالة قد اختفت : والسيدة والولد ابتعدا .

وعندئذ ، وقد خارت قواه ، زفر زفرة حيوان في قفص ، ووثب إلى سريره ، ساند أقدامه إلى الحشب ، وأعضاؤه تهتز من الغضب العاجز ، عاضاً الوسادة ليخنق صراخه ، وكان قد ظل لديه ما يكفي من الوعي ليحرم الآخرين من منظر يأسه .

وفي المساء تلقى دانيال البطاقة التالية :

« يا صديقي .

يا حيي الوحيد ، ورقة وجمال حياتي !

اكتب اليك هذه الرسالة كوصية .

لقد فصلوني عنك ، فصلوني عن كل شيء . يريدون وضعي في مكان لا أجروء على أن أقول لك ما هو ، ولا أجروء على أن أقول لك أين ! اني أخجل عن أبي !

أشعر بأنني لن أراك أبداً ، أنت يا وحيدى ، أنت الوحيد الذي يستطيع
أن يجعلني صالحاً .

وداعاً يا صديقي ، وداعاً .

إذا جعلوني تعيشاً شريراً فسانتحر . وستقول لهم عندئذ انني قتلت نفسي
عمداً بسببهم ! ومع هذا فقد كنت أحبهم !

ولكن تفكيري الأخير ، على عتبة المجهول موجه اليك يا صديقي .
وداعاً » .

من تموز ١٩٢٠ - آذار ١٩٢١



٥

الاصلاحية

١

منذ ذلك النهار من السنة الماضية ، حين جاء انطوان بالطالبيين الهاربين ، لم يعد إلى بيت مدام دي فوتنانان أبداً ، ولكن الوصيفة عرفته ، وأدخلته دون تكليف مع أن الساعة هي التاسعة مساء .

كانت مدام دي فوتنانان في غرفتها ، وولداها بقرها ، جالسة أمام الموقد ، مستقيمة الجسم تحت القنديل ، وكانت تقرأ كتاباً بصوت مرتفع ، وكانت جني ، المتلبدة في كرسي ، تقتل ضفیرتها ، وعيناها محدقتان بالنار ، وكانت تستمع ، ودانيال منتح جانباً ، متصالب الساقين ، وعلى ركبته لوح من كرتون يتم عليه رسماً أولياً لأمه بالقلم الفحمي . وشعر انطوان على العتبة حيث وقف لحظة ، كم كان مجيئه في غير وقته ، ولكن لم يعد هناك مجال للعودة .

كان استقبال مدام دي فوتنانان بارداً قليلاً ! وقد بدت مندهشة بشكل خاص ، فتركت الولدين هناك وقادت انطوان إلى قاعة الاستقبال . وما ان أدركت سبب مجيئه حتى نهضت لتأتي بولدها .

كان دانيال يبدو آنذاك أنه في السابعة عشرة ، مع أنه في الخامسة عشرة ، وهناك ظل شارب يشي بخط الفم . وكان انطوان خجلاً ، ينظر إلى الشاب

أمامه بهيئة ساخطة قليلا تبدو انها تقول : « أنا ، كما تعلم ، أسير إلى الهدف دون
مواربة » . وكما في السابق ، فان غريزة خفية جعلته يبالغ قليلا بهذا المسلك من
الصراحة منذ أن يجد نفسه أمام مدام دي فوتتانان ، وقال :
— لقد أتيت لأجلك . أن لقاءنا البارحة جعلني افكر .

وبدا دانيال مندهشاً وتابع انطوان :

— نعم ، اننا لم نكد نتبادل بعض الكلمات . وكنت متمجلاً ، وأنا أيضاً ،
ولكن بدالي ... ولا أعرف كيف أقول ... ثم ، لم تسألني أي خبر عن جاك :
فاستنتجت انه يكتب إليك ، أليس كذلك ؟ حتى اني أرتاب في أنه يكتب
إليك أشياء ، أشياء لا أعرفها وأنا بحاجة لمعرفة . كلا ، انتظر ، اصغ إلي .
ان جاك ترك باريس منذ حزيران الماضي ؛ ونكاد نصبح في نيسان ؛ أي انه قد
مضى عليه تسعة أشهر هناك . لم أره ، ولم يكتب إلي ، ولكن أبي يراه في الغالب :
ويقول لي ان جاك بصحة جيدة ، وهو يدرس ، وان البعد والنظام قد أحدثا
مفعولاً ممتازاً . هل هو مخدوع ؟ أيخدعونه ؟ منذ لقائنا البارحة وأنا قلق . وقد
جاءتني فكرة أنه ربما كان تعساً هناك حيث هو ، وبما أنني لا أعرف شيئاً فلا
أستطيع اسداء المساعدة له ؛ وهذه الفكرة أصبحت غير محتملة بالنسبة إلي .
عندئذ فكرت بالجبيء اليك ، بصراحة . اني أتوجه إلى حبك له . والامر لا يتعلق
بإفشاء مسارات . ولكن يجب أن يكون كتب اليك عما يجري هناك ، وانت
الوحيد الذي يستطيع أن يجعلني مطمئناً — أو يجعلني أتدخل .

كان دانيال يصغي ، غير متأثر . وكانت حركته الاولى رفض هذا الحديث .
وأبقى رأسه مرفوعاً وأثبت على انطوان نظره التي جعلها الاضطراب قاسية ،
ثم التفت نحو أمه متحيراً . وكانت تتأمل راعبة في معرفة ما سوف يفعل .
وطال الانتظار . وأخيراً ابتسمت ، وقالت ، بحركة مقحامة من يدها :

— قل الحقيقة يا كبير . لا يندم المرء أبداً على عدم الكذب .

عندئذ عزم دانيال على الكلام ، وبنفس الحركة . نعم ، كان يتلقى بين وقت
 وآخر رسائل من تيبو ، رسائل تقصر مرة بعد مرة ، وتقل تفاصيلها مرة بعد

مرة . وكان دانيال يعلم ان رفيقه تلميذ داخلي عند استاذ في الارياف ، ولكن أين ؟ كانت الطوابع تلصق على رسائله في عربة بريد ، على شبكة خطوط حديدية في الشمال . نوع من مدرسة يعدون فيها التلامذة للباكالوريا بسرعة . وبذل انطوان جهده لئلا يبدو ذهوله . بأي غم كان جاك يخفي الحقيقة عن أخلص أصدقائه ! لماذا ؟ بدافع الخجل ؟ أنه دون شك نفس السبب الذي كان يدفع السيد تيبو إلى أن يخفي عن أعين الناس مستعمرة كروي Krouy الاصلاحية ، حيث كان يسجن ولده ، ويحولها الى « مؤسسة دينية على ضفة نهر الواز » . لقد اجتاز فجأة عقل انطوان ذلك الشك القائل بأن هذه الرسائل قد أملت على اخيه . من الممكن انهم يحكمون هذا الصغير بالارهاب . وتذكر حملة قامت بها صحيفة ثورية في يوفيه ، واتهامات رهيبة وجهت ضد « اعمال الوقاية الاجتماعية » : اكاذيب قاضاها السيد تيبو أثناء دعوى تشنيع ربحها على طول الخط ؟ ولكن اخيراً ؟

بالحقيقة لم يكن انطوان يعتمد إلا على نفسه ، وسأل :

— الا تريد ان تريني احدى هذه الرسائل ؟

وحين رأى دانيال وقد احمر وجهه اعتذر بابتسامة متأخرة قائلاً :

— رسالة واحدة لأرى . لا يهم اي واحدة .

فنهض دانيال وخرج من الغرفة بدون ان يجيب ، وبدون ان يستشير امه بعينيه . وبقي انطوان وحيداً مع مدام دي فونتانا ، فأحس ثانية بالانطباعات التي شعر بها في السابق : حيرة ، فضول ، اجتذاب . كانت تنتظر امامها وتبدو غير مفكرة بشيء . ولكن وجودها كان كافياً لحث حياة انطوان الداخلية وبصيرته . كان في الهواء حول هذه المرأة قابلية خاصة للنقل ، وفي تلك اللحظة ، ودون ان يستطيع الذهول عنها ، شعر انطوان بشيء من اللوم ينتقل منها ، ولم يكن مخطئاً ابداً . ودون ان تلوم انطوان بوضوح ، ولا السيد تيبو ، ما دامت تجهل مصير جاك ، بل متذكرة زيارتها الوحيدة الى شارع الجامعة ، فقد كانت تشعر ان ما حدث هناك في الغالب لم يكن حسناً . وقد ادرك

انطوان ذلك وربما استصوبه . وبالتأكيد ، اذا اتيج لأحد ان ينتقد والده لصاح معترضاً ؛ ولكن في هذه اللحظة ، وفي دخيلة نفسه ، كان مع مدام دي فوتنانان ضد السيد تيبو . وفي السنة الماضية - ولم ينس ذلك - حيث اجتاز للمرة الاولى ذلك الجو الذي يسبح فيه آل فوتنانان ، فان الهواء العائلي ، عند عودته ، ظل مدة طويلة غير صالح للتنفس .

وعاد دانيال ، وناول انطوان غلافاً ذا مظهر حقير ، وقال :

-- هذه هي الرسالة الأولى ، والأكثر طولاً .

ثم جلس .

« عزيزي فوتنانان .

اكتب إليك من بيتي الجديد . لا تحاول أنت ان تكتب إلي لأن هذا ممنوع تماماً هنا . وفيما عدا ذلك فكل شيء على ما يرام . استاذي جيد وهو لطيف معي ، وانا اشتغل كثيراً . ولدي جماعة من الرفاق كلهم لطفاء ايضاً . ومع ذلك فأبي وأخي يأتيان لرؤيتي نهار الأحد . ها أنت ترى اني على خير حال . أرجوك يا عزيزي دانيال ، باسم صداقتنا ، ألا تحكم على أبي بقسوة ، فأنت لا تستطيع ان تفهم كل شيء . أنا أعلم انه طيب جداً ، وحسناً فعل بإبعادي عن باريس حيث كنت أضيع وقتي في المدرسة . وانا نفسي مقتنع الآن وانا مسرور . لن أعطيك عنواني لكي أكون واثقاً من عدم كتابتك إلي ، لأن هذا هنا خيف بالنسبة إلي .

سأكتب إليك ايضاً حين استطيع يا عزيزي دانيال .

- جاك -

قرأ انطوان هذه البطاقة مرتين . ولولم يكن يعرف خط أخيه من بعض العلامات لارتاب في ان تكون هذه الرسالة من جاك . وكان عنوان الغلاف بخط يدي أخرى : خط فلاح ، مرتخ ، متردد ، قذر . والشكل والمحتوى حيراه بالتساوي . لماذا هذه الاكاذيب ؟ « رفاقي » ! ان جاك يعيش في صومعة في ذلك البيت الخاص « الشهير الذي أوجده السيد تيبو في إصلاحية كروي لأبناء

العائلات ، والذي كان فارغاً بصورة دائمة ! ولم يكن يتكلم مع أي كائن حي إلا الخادم المكلف بحمل طعامه أو بأخذه إلى النزهة ، وإلى استاذة الذي يأتي من كومبيانيه ليلقنه درسين أو ثلاثة بالاسبوع . « أبي واخي يأتيان لرؤيتي ! » ان السيد تيبو يذهب رسمياً إلى كروي في أول اثنين من كل شهر ليرأس فيها مجلس الإدارة ، وفي ذلك النهار ، فعلاً ، وقبل العودة ، يقابل ولده لبضع لحظات في قاعة المحادثة . أما انطوان فقد أظهر كثيراً من الرغبة في الذهاب لزيارة أخيه في اثناء العطلة ، ولكن السيد تيبو عارض ذلك ، وكان يقول : « المهم في نظام أخيك هو انتظام العزلة » .

كان يدير الورقة بين أصابعه ، ومرفقاه على ركبتيه . لقد فقد الراحة منذ وقت طويل . وشعر فجأة ان الدنيا اسودت في عينيه ، وانه وحيد ، بحيث أصبح على وشك الاعتراف بكل شيء لهذه المرأة المستتيرة التي وضعتها صدفة جميلة في طريقه . ورفع عينيه نحوها : يداها على تنورتها ، ووجهها مفكر ، وكانت تبدو انها تنتظر ، ونظرتها ثابتة . وتمتت وهي تبسم نصف ابتسامة : — لو نستطيع مساعدتك بشيء .

كان بياض شعرها الخفيف قد جعل هذه الابتسامة ، وكل ذلك الوجه ، اكثر شباباً .

إلا انه تردد في لحظة الاستسلام . وكان دانيال يتأمل بهيئته المنصفة . وخاف انطوان ان يظهر بمظهر المتردد ، واكثر من ذلك ، أن يعطي السيدة دى فوتتانان صورة زائفة عن الرجل العزوم الذي كانه . ولكنه تحاشى أفضل سبب : ألا يفشي السر الذي حرص جاك على اخفائه . وبدون ان يزيد من تردده ، ومحاذراً من نفسه ، نهض ليذهب ، ويده ممتدة ، مكسباً وجهه تلك الهيئة المشؤومة التي اتخذها مختاراً والتي تبدو انها تقول للجميع : « لا تسألوني . لقد أدركتم ما في نفسي . ونحن نفهم بعضنا بعضاً . وداعاً » .

في الخارج أخذ يسير امامه . وكان يردد لنفسه : « شيء من الدم البارد . شيء من العزم » . ان خساً أو ست سنوات من الدراسات العلمية كانت تضطره إلى تحكيم عقله مع مظهر من المنطق : « ان جاك لا يشكو . إذن فجاك ليس بائساً » . وبالضبط كان يفكر بعكس ذلك . وتذكر بالحاح تلك المعركة الصحفية التي اشتجرت في السابق ضد الاصلاحية ؛ وتذكر على الخصوص مقالاً بعنوان « سجن الأولاد » وصف فيه بدقة الشقاء المادي والمعنوي للقاصرين السيئي التغذية ، السيئي الإقامة ، المتعرضين للعقوبات الجسدية ، المتروكين في أغلب الاحيان لشراسة الحراس . وأفلتت منه حركة تهديد : مهما كلف الامر سوف ينتشل الولد المسكين من هناك ! انه دور جميل يلعبه ! ولكن كيف ؟ يخبر والده ، ويناقشه ، هذا مفروغ منه : بالفعل ، انطوان يتمرد على والده ، وعلى العمل الذي أسسه وأداره . هذه الحركة من التمرد البنوي كانت جديدة عليه ، وقد شعر منها أولاً ببعض القلق ، ثم بالكبرياء . وتذكر ما حدث في السنة الماضية ، عادة عودة جاك ، فمنذ الساعة الأولى دعا السيد تيبو انطوان إلى مكتبه ، حيث جاء الأب الرئيس فيكار . وكان السيد تيبو يصيح : « هذا التافه ! يجب سحق إرادته ! » وكان يفتح أمامه يده الكبيرة الشعراء ويطبّقها ببطء ، جاعلاً المفاصل تفرقع . ثم قال بابتسامة راضية : « اعتقد اني أمسكت بالحل » . وبعد وقفة ، رفع اخيراً جفونه وقذف هذه الكلمة : « كروي » فصاح انطوان : « جاك في الاصلاحية ؟ » وكانت المناقشة حامية ، وكان السيد تيبو يردد مفرقاً مفاصل أصابعه : « يجب سحق إرادته » . وكان الأب الرئيس متردداً . وعندئذ عرض السيد تيبو النظام الخاص الذي سيخضع جاك له ، والذي كان يبدو ، لدى سماعه ، محسناً وابوياً . ثم ختم بصوت مليء ، مشيراً إلى الفواصل : « هكذا ، يوضع في معزل عن الميول الضارة ، ويتطهر من غرائزه الرديئة بالوحدة » ، ويتذوق العمل ، وسوف يبلغ السادسة عشرة من سنه ، واريد ان آمل انه سيستطيع حينئذ ، دون خطر ، ان يستعيد الحياة العائلية إلى جانبنا » . ووافق الأب الرئيس قائلاً : « العزلة تنتج علاجات رائعة » .

أما انطوان ، وقد زعزعت حجب السيد تيبو ، واستصواب الكاهن ، فأنتهى إلى التفكير انها على حق . وهذا الرضا لا يغفره اليوم لنفسه ولا لوالده .
كان يمشي بسرعة دون ان ينظر إلى طريقه . والتفت أمام أسد بلفور ثم عاود سيره بخطى كبيرة ، مولعاً سيكارة بعد سيكارة ، وقاذفاً دخانها في ريح المساء . كان يجب ان يضرب ضربة مستقيمة : السير إلى كروي ، والظهور بمظهر المحب للقضاء العادل ...

ودنت منه امرأة ، ودست له بضغ كلمات بصوت رقيق . فلم يجب بشيء . وتابع هبوطه شارع سان ميشال . وكان يردد : « كمحب للقضاء العادل ، وكشف النقاب عن خداع المديرين وقساوة حراس السجناء ، واحداث فضيحة ، والعودة بالصغير ! » .

ولكن اندفاعه قطع . فقد كان عقله يتبع أثراً مزدوجاً : لقد انبجست نزوة على هامش المشروع الكبير . فاجتاز السين : كان يعرف جيداً إلى أين يقوده شروده . ولماذا لا ؟ ألم يكن مهتاج الأعصاب كثيراً ليعود الى البيت وينام ؟ وتنشق الهواء ، ومد صدره ، وابتسم . وكان يفكر : « ان يكون المرء قوياً ، أن يكون رجلاً » . وبينما كان يدخل فرحاً في الزقاق المظلم رفمته من جديد نفحة كريمة : فقد بدا له عزمه ، بالاختصار ساطعاً ، منتصراً ؛ وعلى أهبة تنفيذ أحد المقصدين اللذين كانا منذ ربع ساعة يتنازعا انتباهه ، بدا له الآخر فجأة شبه محقق ؛ وقد قال موضعاً في اللحظة التي دفع فيها ، بحركة مألوفة ، الباب الزجاجي :

— غداً ، السبت ، يستحيل ان اترك المستشفى . ولكن الأحد . الأحد صباحاً سأكون في الاصلاحية .

٢

ان قطار الصباح السريع لا يتوقف في كروي ، وقد اضطر انطوان الى النزول في فينيت Venette ، آخر محطة قبل كومبيانيه . ووثب من القطار

بحيوية متناهية . وطوال الرحلة ، ورغم الامتحان الذي عليه أن يجتازه في الاسبوع التالي ، لم يركز تفكيره على كتب الطب التي حملها معه . فقد اقتربت الساعة الحاسمة . كانت مخيلته منذ يومين تمثل له بكثير من الوضوح اتمام هذه الحرب الصليبية حيث كان يفكر أن يضع نهاية لسجن جاك ولم يكن يفكر أبداً باكتساب مودته .

كان هناك كيلومتران يجب اجتيازهما على طريق جميلة مسطحة اكسبتها الشمس بهجة . للمرة الاولى من السنة ، بعد أسابيع ممطرة ، بدا الربيع انه يقدم نفسه اخيراً في الاريج الطازج لذلك الصباح من آذار . كان انطوان يتطلع بنشوة على جانبي الطريق ، الى الحقول الممهدة بالمسلفة ، المحضوذة ، وتحت سماء الأفق الصافية حيث تجتذب أبخرة خفيفة ، الى كروم نهر الواز تشع بالنور . وانتابه الضعف لحظة حيث تمنى ان يكون مخطئاً ؛ ان كثيراً من الهدوء يحيط به ، وكثيراً من النقاء ، فهل يكون هذا اطار سجن أولاد ؟

كان عليه ان يجتاز قرية كروي كلها قبل ان يصل الى المستعمرة الاصلاحية وفجأة ، تلقى صدمة عند منعطف آخر البيوت : لقد عرف من بعيد ، البناء الكبير المغطى بالقرميد ، وصفوف نوافذه المشبكة ، وميزوكلته التي تلمع في الشمس ، دون أن يكون قد رآه قبلاً ، منفرداً كقبرة جديدة في حزامها من الجدران المحصنة ، وفي وسط سهل طباشيري عاري من كل نبات . وقد يظن انه سجن لو لم يكن الخط الدال على محبة البشر ، والمحفور في الحجر فوق الطابق الاول ، منفصلاً بحروف ذهبية :

مؤسسة اوسكار تيبو

ودخل في الممر الفارغ من الشجر والموصل الى الاصلاحية . وكانت النوافذ الصغيرة ترى من بعيد مجيء الزائر . واقترب من البوابة وسحب الجرس الذي رن في الصمت الخاص بيوم الاحد . وفتح مصراع الباب . ونبح كلب اشقر مربوط الى وجاره مهتاجاً . ونفذ انطوان الى الباحة : حديقة ، أو بالاحرى ، أرض خضراء محاطة بالحصى وتستدير امام البناية الرئيسية . وشعر ان هناك من

يلاحظه ولم يشاهد أي كائن حي ، الا الكلب الذي لم ينقطع عن النباح وهو يشد سلسلته . والى يسار المدخل ترتفع كنيسة صغيرة يعلوها صليب حجري ؛ والى اليمين بناء منخفض يقرأ عليه : «الادارة» . وقد سار نحو هذا البناء . وافتتح الباب المغلق عندما بلغ سطح الدرج . والكلب لا يزال ينبج . ودخل . دهليز مبلط ، مدهون بالمفرة ومجهز بكراسي جديدة كقاعة محادثة في دير . وكانت الغرفة دافئة . وهناك تمثال نصفي للسيد تيبو بالحجم الطبيعي ، ولكنه يأخذ نسباً عملاقة على هذا الجدار المنخفض ، ويزين المصراع الايمن ، ومصوب متواضع من الخشب الاسود ، مزين بالبقس ، حاول أن يجعل له مثيلاً على الجدار المقابل . وظل انطوان واقفاً وقفة دفاعية . آه ! كلا ، لم يكن خطأ ! فكل شيء يُشعر بمفونة السجن .

وأخيراً فتحت كوة في الجدار الداخلي : أمرٌ منها ناظر رأسه . فألقى اليه انطوان بطاقته مع بطاقة أبيه ، وطلب بنبرة جافة ان يكلم المدير . ومضى ما يقرب من خمس دقائق .

وئارت حفيظة انطوان واستعد الى دخول البيت مسبقاً حين انزلت خطوة خفيفة في الرواق : شاب بنظارات ، يرتدي قانيلا هافانا ، اشقر ، مستدير ، كان يركض نحوه قافزاً على خفيه بوجه متألق ، واليدان ممدودتان .

— صباح الخير يا دكتور ! يا للمفاجأة الطيبة ! سينتشي أخوك فرحاً ! اني أعرفك جيداً ، فالسيد المؤسس غالباً ما يتحدث عن ولده الكبير الطيب . ومع ذلك فهناك سمة العائلة ظاهرة — قال ذلك ضاحكاً — وأؤكد لك . ولكن ادخل الى مكنتي ، ارجوك . وعفواً . انا فاييسم *Faïsme* المدير .

ودفع انطوان نحو غرفة الادارة ، جاراً رجله ، وهو يتبعه عن قرب ، والذراعان مرفوعان ، واليدان مفتوحتان ، كأنه يخاف أن يخطو انطوان خطوة خاطئة وأنه يريد ان يلتقطه طائراً .

واضطر انطوان الى الجلوس ، وأخذ مكانه على مكتبه ، وسأل بصوته

العذب :

— هل السيد المؤسس بصحة جيدة ؟ انه لا يشيخ ، وهو غير عادي !
لاني آسف لعدم استطاعته مرافقتك .

كان انطوان يتفحص الأماكن بنظرة حذرة ، وكان يتأمل بدون مجاملة ذلك الوجه الصيني الاشقر وتلك النظارات الذهبية التي يوجد ورائها عينان صغيرتان ملجومتان كانتا تتحركان دون انقطاع بتعبير مرح . انه غير متيء لهذا الاستقبال السريع ، ومحتار جداً لأنه وجد تحت المظهر الباسم لشاب بالبيجاما مدير السجن الذي كان يتخيله بقسمات متجهمة لدركي بالثياب المدنية ، أو رئيس مدرسة ، وكان بحاجة الى جهد ليستعيد رباطة جأشه .
وهتف السيد فاييسم فجأة :

— بالتأكيد ! ذلك لأنك أتيت أثناء القداس الكبير تماماً . كل أولادنا في الكنيسة ؛ وأخوك أيضاً . ما العمل ؟ — واستشار ساعته — عشرون دقيقة أيضاً ، وربما نصف ساعة إذا كان متناولو القربان كثيرين . وهذا ممكن . كان على السيد المؤسس أن يقول لك : ان لدينا زبدة المحسنين ، كاهن شاب ذاهب ، ذو مهارة لا مثيل لها ! لقد تبدلت المواطف الدينية للمؤسسة منذ وجوده هنا . ولكن يالها من خسارة ! ما العمل ؟

ونفض انطوان دون لطف . فقد ظل هدف تحقيقه ماثلاً في ذهنه ، وقال ناظراً الى الشاب :

— ما دامت أماكنكم الآن خالية من سكانها فهل تكون زيارة المستعمرة عملاً غير رصين ؟ أنا فضولي لرؤية الاشياء عن قرب ؛ وقد سمعتم يتكلمون عنها في أغلب الاحيان منذ طفولتي .
فقال الآخر مباهتاً :

— صحيح ؟ لا شيء أسهل من ذلك .
قال هذا ولكنه لم يتحرك عن مقعده . كان يبتسم ، وبدأ حالماً لحظة دون أن يكف عن الابتسام .
— أوه ! انت تعلم ان البناء ليس فيه ما يشوق . انه ثكنة صغيرة لا أكثر

ولا أقل ، ومع ذلك فأنت تعرفه أكثر مني .

وظل انطوان واقفاً . وصرح :

— كلا . هذا يشوقني .

وبما أن المدير كان يتفحصه بعينه الصغيرتين المغضتين بشكل لاهٍ قليل التصديق فقد تابع مصرّاً :

— أوكد لك .

— حسناً يا دكتور ، بكل طيبة خاطر . الوقت الذي ارتدي فيه سرة

وحذاء ، وأكون تحت امرك .

واختفى . وسمع انطوان دقة جرس صغير ، ثم جرس كبير في الباحة ، دق خمس مرات ، ففكر : « آه ! آه ! انه ينذر بالخطر ، فالعدو في البيت ! » ولم يستطع ان يظل جالساً . واقترب من النافذة ولكن الزجاج كان غير مصقول وقال لنفسه : « هدوءاً ، افتح عينك ، وتأكد . اعمل . انه شغلي » .

وأخيراً عاد السيد فاييسم . وهبطا .

وقال المدير مقدماً بفخفخة : ساحة الشرف .

وابتسم متساهلاً . ثم أسرع الى الكلب الذي عاد إلى النباح ، ورشقه برفسة

عنيفة في خاصرته جعلت الحيوان يدخل الى جحره .

— هل لديك إلمام بالبستنة ؟ ولكن هذا مؤكد ، فالطبيب ذو علاقة

بالنبات . بالتأكيد . ووقف ملاطفاً في وسط الحديقة - أشر علي ، كيف أخفي

هذه القطعة من الحائط ، باللبلاب ؟ ذلك يحتاج الى سنوات .

وسار به انطوان ، دون أن يجيب ، نحو المبنى الرئيسي . وطافا الطابق

الأرضي . وكان انطوان يمشي في المقدمة ، متمد العين ، فاتحاً أقل باب مغلق

ولم يفته شيء . كانت الجدران بيضاء في قسمها الأعلى ، ومطلية بالزفت الاسود

على علو مترين من الأرض . وكانت جميع النوافذ كنافذة المدير ، ذات زجاج

غير مصقول ، ومقواة بشبكة من القضبان الحديدية . وأراد انطوان أن يفتح

إحداها ولكن ذلك يحتاج إلى مفتاح خاص ؛ وقد أخرج المدير الأداة من جيبه

وفتح النافذة ، ولاحظ انطوان مهارة يديه الصغيرتين الصفراوين السميتين . وأرسل نظره البوليسي الى الباحة الداخلية ، وكانت مقفرة : ساحة كبيرة مستطيلة من طين مداس ومجفف ، خالية من الأشجار ، ومحصورة بين جدران عالية شائكة بقطع آنية مكسرة .

وكان السيد فاييسم يشرح ، ببشاشة ، الغاية من استعمال الأبنية : غرف درس ، مشاغل نجارة وحدادة وكهرباء ، الخ ... وكانت الغرف صغيرة ونظيفة . وفي قاعات الطعام انهى غلمان الخدمة مسح الطاولات الخشبية البيضاء ، وتصاعدت رائحة حموضة من البالوعات الكائنة في الزوايا .

— كل تلميذ يأتي في نهاية الطعام إلى هنا ويفسل قصعته وطاسته وملعقته . لا سكاكين ولا شوكات أبداً .

وتطلع إليه انطوان دون ان يفهم . أما هو فقد أضاف طارفاً بعينه :
— لا شيء مروع .

وفي الطابق الاول تتابعت قاعات درس أخرى ، ومشاغل أخرى ، وتجهيزات « للدوش » لا تستعمل في أغلب الاحيان ولكن المدير كان يبدو فخوراً بها . وكان يروح ويحيي بمرح من غرفة إلى أخرى ، وذراعه منفصلان ، ويداه إلى الامام ، وفيما هو يتكلم ، وبجركة آلية ، كان يدفع منضدة عمل حتى الجدار ، ويلتقط مساراً عن الأرض ، ويقفل صنبوراً بإحكام ، ويرتب كل ما لا يكون في مكانه .

وفي الطابق الثاني تفتتح قاعات النوم . وكانت على نوعين . ومعظمها يحتوي على عشرة اسرّة مصفوفة تحت أغطية رمادية . وكانت مع رفوف الصرر تشبه غرفاً عسكرية صغيرة بدون نوع من القفص الحديدي ، المجهزة بقضبان حديدية دقيقة ، ويشغل وسط الغرفة . وسأل انطوان :

— اتسجنون أحداً داخله ؟

فرفع السيد فاييسم ذراعه بطريقة خائفة هزلية ثم أخذ يضحك .

— ولكن كلا . هنا ينام الناظر كما ترى : يقع سريره في الوسط تماماً ، على

مسافة متساوية عن الجوانب الداخلية ، فيرى كل شيء ، ويسمع كل شيء ، ولا يخشى شيئاً . ومع هذا فقلبه جرس انذار تمر أسلاكه تحت الأرض الحشبية . وقاعات نوم أخرى مؤلفة من حجرات صغيرة بجانب بعضها البعض ، مبنية ، مقفلة بشبكات من القضبان الحديدية ككراسي معرض الوحوش . وكان السيد فاييسم قد وقف على العتبة . وكانت ابتسامته تأخذ أحياناً تعبيراً صاحبياً ، مفكراً تكسب لحظة وجهه النضر كآبة بعض تماثيل بوذا . وقال موضحاً :

— آه ، يا دكتور . هنا تلامذتنا الخيفون ! أولئك الذين جاؤنا متأخرين ليجري اصلاحهم بشكل جدي : انهم ليسوا زبدة ما عندنا ، إذ يوجد بينهم بعض الفاسدين ، أليس صحيحاً ؟ ونحن مضطرون إلى عزلهم ليلاً . وادنى انطوان وجهه من إحدى الشبكات الحديدية ، فميز في الظلام حصيراً بالياً ، وجدراناً عليها رسوم فاحشة وخطوط . فأتى بحركة تقهقر . وقال المدير متأوهاً وهو يجذبه :

— لا تنظر ، هذا محزن . انت ترى انه المر المركزي الذي يروح الناظر ويحيي فيه طوال الليل . هنا الناظر لا ينام أبداً . ولا تطفأ الكهرباء . وبالرغم من ان الأبواب مرتجة جيداً من هؤلاء الطائشين الصغار فانهم جديرون بعمل سيء ... تماماً .

وهز رأسه واخذ يضحك فجأة ، كاجأ عينيه : واختفى كل تعبير حزين ، وختم بسداجة ، هازأ كتفيه .

— يُرى بينهم من جميع الأنواع . وكان انطوان مهتماً جداً بما رآه ليفكر بجميع الاسئلة التي كان قد أعدها . ومع ذلك فقد قال :

— كيف تعاقبونهم ؟ اني أرغب ايضاً ان أرى سجونكم . فتراجع السيد فاييسم خطوة ، وفتح عينيه المستديرتين ، وضرب يديه ضرباً خفيفاً :

— السجون ! ولكن اتمتد نفسك يا دكتور في لاروكيت ! كلا ، كلا ، لا يوجد سجون هنا والمحمد لله ! فقوانيننا تمنعها علينا ، وانت تعرف جيداً ان السيد المؤسس لا يرضى بها مطلقاً .

ودهش انطوان ، واحتمل سخرية العينين الصغيرتين المتغضبتين اللتين كانت أهدأهما ترف وراء النظارات . وبدأ يشعر بحيرة كبيرة من الشخص الارتياحي الذي جاء يلعب عليه . وما من شيء مما رآه يحدوه به إلى مساندة هذا الدور . حتى انه تساءل ، بشيء من الاضطراب ، إذا لم يكن المدير قد كشف عدم الثقة الذي اجتذبه إلى كروي ؟ ولكن كان من الصعب ان يعرف ذلك ما دامت سلامة نية السيد فاييسم تبدو حقيقية رغم بروق الخبث التي تسيل بين لحظة واخرى من زوايا جفونه .

وكف المدير عن الضحك ، واقترب من انطوان ووضع يده على ذراعه :
— كنت تريد المزاح ، أليس صحيحاً ؟ فأنت تعرف اكثر مني نتيجة الصرامة المفرطة : التمرد ، أو ما هو اسوأ ايضاً ، المראה ... والسيد المؤسس لفظ حول هذا الموضوع كلمات جميلة في مؤتمر باريس ، سنة المعرض ...
وكان قد خفض صوته وتطلع إلى الشاب بتعاطف خاص ، كما لو ان انطوان وهو نفسه يؤلفان نخبة ، جديرة وحدها بمناقشة هذه المسائل التربوية دون الوقوع في اخطاء سفلة الناس . وشعر انطوان انه أطري فازداد انطباعه المتلطف .
— عندنا في الساحة ، كما في الشكنات ، بناء صغير عمدة المهندس المعماري على الخريطة باسم « أماكن تأديبية » .

— ؟ ..

— ... ولكننا نضع فيها مؤنثتنا من الفحم والبطاطا . ما فائدة السجون !
اننا نحصل على ما نريد بالاقناع .

فقال انطوان : حقيقة ؟

فابتسم المدير ابتسامة ناعمة ، ووضع من جديد يده على ساعد انطوان وقال معترفاً :

— لتفاهم . ان ما ادعوه الاقناع ، وأحب ان أخبرك حالاً ، هو الحرمان من بعض الأطعمة . فصغارنا بطنون جداً . وهذا يعود الى سنهم ، أليس صحيحاً؟ ان الخبز الحاف يا دكتور فضائل مقنعة لا شك فيها مطلقاً... ولكن يجب معرفة استعمالها : من الأساسي ألاّ نغزل الولد الذي يراد اقناعه . وها انت ترى كم نحن بعيدون عن العزل في السجن ! كلا ، ففي إحدى زوايا قاعة الطعام يجب أن نجعله يأكل كسرته من الخبز البائت ، في ساعة أفضل وجبة ، وجبة الظهر ، مع رائحة الطعام المتبّل الذي يتصاعد منه البخار ، ومع رؤية الآخرين بشبعون . هذا لا يمكن مقاومته ! أليس صحيحاً؟ في هذا السن يهزل الجسم بسرعة ! خمسة عشر يوماً ، ثلاثة أسابيع ، ليس أكثر : اني آتي دائماً عندما يعيا أكثرهم جموحاً . — وختم مدوراً عينيه — الاقناع ! أبداً ، اني لا أعاقب بغير ذلك ! ولم أرفع يدي أبداً على أحد من هؤلاء الصغار الذين أوكل أمرهم إلي .

وكان وجهه يشع بالفخر والركة . وكانت هيئته كمن يحبهم حقيقة ، أولئك الاشقياء ، حتى أولئك الذين كانوا يقعونه في الارتباك .

وهبطا الطوابق . وسحب السيد فاييسم ساعته .

— لكي انهي ، دعني اقدم لك مشهداً موجباً للعبارة . وسوف تقص ذلك على السيد المؤسس . وأنا متأكد من انه سيكون مسروراً .

واجتازا الحديقة ، ودخلا الى الكنيسة . وقدم السيد فاييسم الماء المقدس . ورأى انطوان من الخلف ما يقارب الستين ولداً ببلوزات قصيرة ، مصفوفين بخط مستقيم ، راكعين على البلاط ، جامدين . وأربعة مراقبين بشوارب ، ولباس أزرق مطرز بالأحمر ، كانوا يروحون ويحيثون دون أن يرفعوا عيونهم عن الأولاد . والكاهن على المذبح يقوم بخدمته ولدان ، وكان ينهي مهمته .

وقال انطوان هامساً : أين جاك ؟

فأشار المدير الى المنصة التي كانا تحتها ، وبلغ الباب على رؤوس أصابعه . وقال السيد فاييسم حين أصبحا خارجاً :

ان لأخيك مكانه فوق دائماً . وهو وحده فيه ، يعني مع الغلام المكلف بخدمته .
وبهذه المناسبة تستطيع أن تحبر السيد والدك اننا وضعنا بجانب جاك الخادم
الجديد الذي كلمناه عنه . وقد مر ثمانية أيام على ذلك . والآخر ، الأب ليون
كان كبير السن نوعاً ، ومن الأفضل وضعه في مراقبة مشغل . أما الجديد فهو
شاب من اللورين ! آه ! انه زبدة الناس الفضلاء : خرج من الجيش وكان تابعاً
لكولونيل ؛ ولدينا عنه معلومات تامة . وهذا سيخفف الضجر عن أخيك أثناء
النزهات ، أليس صحيحاً ؟ ولكن ، اني اثرثر ، وهامم بخرجون .
وأخذ الكلب ينبج مهتاجاً ، فأسكته السيد فاييسم ، وثبت نظارتيه ، ووقف
في منتصف ساحة الشرف .

وكان باب الكنيسة قد فتح على مصراعيه . والاولاد ، ثلاثة ثلاثة ،
والمراقبون على جانبي الصف يسرون بخطى موقعة ، كما في عرض عسكري .
كانوا عراة الرؤوس وينتعلون أحذية نعالها من حبال ، تكسب مشيتهم الخطوة
المتلبدة لمجتمعات الجباز ، وكانت البلوزات نظيفة ، مشدودة إلى القامة بحزام
جلدي تلمع بكلته في الشمس . وكان الأكبر سنّاً بينهم يبلغون السابعة عشرة أو
الثامنة عشرة ، والأصغر عشر أو إحدى عشرة سنة . ومعظمهم ذوو صبغة
شاحبة ، والعيون منخفضة ، والسحنة هادئة دون شباب . ولكن انطوان الذي
كان يتفحصهم بكل انتباهه لم يفاجئ أية نظرة مريبة ، ولا ابتسامة رديئة ،
ولا تعبير مداح : هؤلاء الأولاد لا تبدو سحتهم انهم « غيفون » ، وأضطرو
انطوان إلى الاعتراف لنفسه انهم لا يبدوون كشهداء .

وحين اختفى الصف الصغير في الشكنة حيث طن الدرج الحشبي طويلاً ،
التفت نحو السيد فاييسم الذي بدا أنه يسأله ، وقال مؤكداً :
— إدارة ممتازة .

ولم يجب الشاب ، ولكنه كان يدير يده يديه السمينتين الواحدة بالآخرى
كأنه يفلسهما بالصابون ، ووراء نظارتيه كانت عيناه اللامعتان بالكبرياء تقولان
شكراً .

عندئذ فقط ، وحين أصبحت الساحة مقفرة ، ظهر جاك على درجات الكنيسة الشامسة .

أكان هو ؟ لقد تغير جداً وكبر جداً ، بحيث كان انطوان ينظر إليه دون أن يعرفه تقريباً . لم يكن يرتدي ملابس الاصلاحية ، بل بزة جوخ ، وقبعة من اللباد ، ومعطف ملقى على الكتفين ، وكان يتبعه غلام في العشرين من سنه ، ربعة ، أشقر ، ولم يكن يرتدي ملابس المراقبين . وهبطا الدرج . ولم يبد هذا ولا ذاك انها رأيا انطوان والمدير . وكان جاك يمشي باطمئنان ، وعيناه ممدقتان بالارض . وعلى بعد بضعة أمتار فقط من السيد فاييسم ، رفع رأسه ووقف ، واتخذ هيئة مندهشة ، وخلق قبعته حالاً . وكانت حركته طبيعية تماماً ؛ إلا أن انطوان ساوره الشك بأن هذه الدهشة مصطنعة . ولكن وجه جاك ظل هادئاً . ومع أنه مبتسم ، لم يدل على أي سرور حقيقي . وتقدم انطوان ماداً يده ، وهو أيضاً تظاهر بالفرح .

وهتف المدير :

— انها مفاجأة سعيدة أليس كذلك ؟ ولكني أريد أن اوبخك . عليك أن ترتدي معطفك وتزرره حين تكون في الكنيسة ، والمنصة باردة وسوف تصاب بأذى .

كان جاك قد لفت وجهه عن أخيه حين سمع السيد فاييسم يوجه الكلام إليه وتطلع في وجه المدير باحترام قلق كما لو أنه كان يحاول أن يفهم جميع المعاني التي يمكن لكلامه أن يحتويها . ثم ارتدى معطفه حالاً دون أن يجيب .

وتتم انطوان :

— لقد كبرت كثيراً ، أنت تعلم

وتفحص أخاه بذهول محاولاً أن يحلل ذلك التغير الكامل في المظهر والهيئة والسحنة ، والذي كان يشل اندفاعه . واقترح المدير :

— أتريد أن تبقى قليلاً في الخارج ؟ الطقس جميل . وسوف يقودك جاك إلى منزله بعد قيامكما معاً ببعض الدورات في الحديقة .

وتُردد انطوان . واستفهم من أخيه بالعيني :
— أتريد ؟

ولم يظهر جاك انه سمع . فافترض انطوان أنه غير مهتم بالبقاء هنا تحت نوافذ الاصلاحية . وقال :

— كلا ، سنكون أفضل في غرفتك ، اليس كذلك ؟

فهتف المدير :

— كما يحلو لك ، ولكن قبلأ اريد أن اريك شيئاً . يجب ان ترى جميع تلامذتنا . تعال معنا يا جاك .

وتبع جاك السيد فاييسم الذي كان منفصل الذراعين ، ضاحكاً كتمليذ مازح ، وكان يدفع انطوان نحو سقيفة إلى جانب جدار المدخل . كان الأمر يتعلق بدزينة من جحور الارانب . وكان السيد فاييسم شغوفاً بترية الدواجن . وأخذ يشرح بنشوة :

— هؤلاء ولدوا نهار الاثنين . والآن ، انظر ، فقد فتح هؤلاء المحبوبون عيونهم ! من هنا . هؤلاء ذكوري . انظر هذا يا دكتور . قال ذلك مدخلاً ذراعه في قفص وسحب بالاذنين واحداً كبيراً فضيلاً من فصيلة شامبانيه كان يسترخي منتفضاً انتفاضات فجائية :
— هذا تخيف كما ترون .

لم يكن يضع في ذلك أي مكر ، وكان يضحك ضحكه البريئة . وفكر انطوان بغرف النوم فوق وحجورها المشبكة بالحديد .

والتفت السيد فاييسم . وكان يبتسم ابتسامة غير مفهومة :

— لقد ثرثرت ، وارى جيداً انك تصفي إلي بدافع التهذيب الصرف ، أليس صحيحاً ؟ سأسير بك حق غرفة جاك واتركك . سر يا جاك ودلنا على الطريق .

وسار جاك في المقدمة . ولحق به انطوان ووضع يداً على كتفه . وبذل جهداً ليتصور في ذهنه ثانية الكائن الصغير ، الضعيف الصحة ، العصبي ، الداب

على رجليه ، والذي التقطه في مريليا السنة الماضية .

— انت الآن كبير مثلي .

وصعدت يده من الكتف حتى النقرة الشبيهة بعنق عصفور هزيل . لقد كانت جميع الأعضاء تبدو انها طالعت حتى الهشاشة : المصمان المتمدان كانا يتجاوزان الكين ، والبنطلون يكاد يكشف الكعبين ، وكان في المشية تصلب ، وخرق ، وفي الوقت نفسه مرونة وشباب جديان تماماً .

كانت الشقة المخصصة للقاصرين الخصوصيين تشكل ملحفاً لبناية الإدارة ؛ ولا يمكن الدخول إليها إلا من المكاتب . خمس غرف متشابهة تفتح على رواق مدهون بالمر . ووضح السيد فاييسم ان جاك هو « الخصوصى » الوحيد ، والغرف الأخرى بدون استعمال ، والفلام المكلف بخدمة جاك كان ينام في واحدة منها بينما تستعمل الأخريات لوضع كل شيء .

— وهذه زنزانة سجيننا .

قال المدير ذلك ضارباً بطرف أصبعه السمين جاك الذي نظر إليه مشدوهاً ، ثم حاداً ليدعه يدخل .

وقام انطوان بتفتيش الغرفة بدقة . انها تشبه غرفة فندق ، متواضعة ولكنها مرتبة جيداً . وكانت جدرانها مغطاة بأوراق ذات زهور ، ومنارة بشكل كاف ، بالرغم من ان ذلك كان من مكان مرتفع ، من كوتين مجهزين بزجاج غير مصقول ، وبشبكتين من القضبان الحديدية ، وكانت هذه النوافذ واقعة تحت السقف . ومع ان الغرفة مرتفعة فقد كانت النافذتان ترتفعان أكثر من ثلاثة أمتار عن الأرض . والشمس لا تصل إليها . ولكن الغرفة كانت دافئة ومحماة ايضاً بواسطة ناقل الحرارة المستعمل في الإدارة . والأثاث مؤلف من خزانة من خشب الصنوبر ، وكرسيين قعديهما متشابهة ، ومنضدة سوداء صفت عليها الكتب والمعاجم للمعركة . والسرير الصغير ، المربع ، المتحد كبليار ، يظهر الشراشف التي لم تستعمل بعد . والطست موضوع على نسيج نظيف ، وعدة مناشف نظيفة كانت تتدلى من المشجب .

هذه اللحة الدقيقة بعثت الاضطراب في نوايا انطوان . كل ما رآه منذ ساعة كان مناقضاً تماماً لما كان يتوقعه . ان جاك يعيش معزولاً تماماً عن القاصرين الآخرين ، ويعامل بمراعاة ودودة ! والمدير غلام شجاع ، اكثر تساهلاً مما يكون عليه حارس سجن ، وجميع المعلومات المعطاة من السيد تيبو كانت صحيحة . ومهما كان انطوان مكابراً فقد اضطر إلى التخلي عن شكوكه واحداً واحداً . وفاجأ نظرة المدير الموجهة إليه ، فقال ملتفتاً نحو جاك :

— بالحقيقة ، انك تقيم خير إقامة .

فلم يجب هذا . وخلع معطفه وقبعته اللذين أخذهما الخادم من يديه وراح يعلقها على المشجب . وردد المدير :

— يقول لك أخوك انك مقيم خير إقامة .

فالتفت جاك بسرعة ، وكان ذا هيئة متأدبة ، مهذبة لم يكن أخوه قد رآه فيها ابداً .

— نعم يا سيدي المدير ، على خير ما يرام .

فقال الآخر مبتسماً :

— يجب ألا نبالغ . هذا بسيط جداً ، اننا نحصر فقط على ان يكون كل شيء نظيفاً . ومع ذلك فيجب ان يوجه الشناء إلى ارتير — أضاف ذلك متوجهاً إلى الغلام — إليك هذا السرير ، فكأنه رُتب لإجراء تفتيش ...

وتألق وجه ارتير . وانطوان الذي كان ينظر إليه لم يستطع ان يمنع نفسه من الإشارة إليه بمودة . كان ذا رأس مستدير ، وقسمات رخوة ، وعينين شاحبتين ، وشيء من الاخلاص والبشاشة في الابتسامة وفي النظرة . وكان قد بقي بقرب الباب يعقف شاربيه ، ويبدو بدون لون تقريباً لأن صبغته أصبحت شهباء . وكان انطوان يقول لنفسه :

— هذا هو السجن الذي كنت اتخيله قبلاً في ظلام قبو ، مجهزاً بقنديل لا يظهر نوره ، وبسلسلة مفاتيح .

وضحك من نفسه رغماً عنه ، واقترب من الكتب وتفحصها بمرح . وسأل

بينما تأخرت ابتسامة ساخرة على وجهه :

— سالوست ^(١) ؟ لقد احرزت تقدماً في اللاتينية .

وكان السيد فاييسم هو الذي اجاب ، متظاهراً بالتردد وطارفاً بعينه نحو جاك

— ربما اخطىء ان اقول ذلك امامه . ومع ذلك فيجب الاعتراف بان استاذة مسرور من اجتهاده .

ثم تابع يحد وذهب الى اللوح الاسود المعلق بالحائط وأصلح وضعه وهو يقول .

— اننا نشتغل ساعتنا الثمان باليوم . ولكن هذا لا يمنعنا من أن نقوم كل يوم ، مهما كان الطقس — وبحرص السيد والدك على ذلك كثيراً — بالسير مقدار ساعتين ، مع ارتير . إن للاثنتين سيقاناً جيدة ، وأتركها حرين في ان ينوعا الطرق . اما مع ليون الهرم فقد كان الامر مختلف . وأعتقد انها لم يكونا يقطعان كثيراً من الطرق ، ومقابل ذلك ، كانا يقطفان الزهور على طول السياج . اليس صحيحاً ؟ ويجب ان أقول لك ان الاب ليون كان في شبابه غلام صيدلي وهو يعرف كثيراً من النباتات بأسمائها اللاتينية . وكان مفيداً جداً . ولكني افضل ان اراهما يقومان بجولات طويلة في الحقول ، وهذا افضل للصحة .

وكان انطوان قد التفت عدة مرات نحو اخيه بينما كان السيد فاييسم يتكلم . وكان يبدو ان جاك يسمع وهو في حلم ، وانه بين لحظة واخرى ، يضطر الى بذل الجهد لينتبه ، وعندئذ تنفجر شفتاه عن تعبير قلق مبهم ، وكانت اهدابه ترتجف .

وهتف السيد فاييسم وهو يتراجع نحو الباب بحركات صغيرة مألوفة :

— اني اثرثر ، مع ان جاك قد مضى عليه وقت طويل دون ان يرى اخاه الكبير ... — وسأل — : اتأخذ قطار الحادية عشرة ؟

١ - سالوست *Salluste* : مؤرخ لاتيني ولد في اميتارن (٨٦ - ٣٥ قبل المسيح) .

لم يكن انطوان قد فكر بذلك . ولكن نبذة السيد فاييسم كانت تتضمن ان هذا لا يحتمل الشك، وكان انطوان غير قادر على مقاومة هذا الطلب للهرب، ورغم كل شيء فان كآبة المكان والامبالاة جاك اخذتا شجاعته ؛ لم يكن قد حدد ذلك منذ الآن ؟ لم يعد لديه شيء يعمل هنا . وقال :

— نعم . مع الاسف اني مضطر الى العودة باكراً ، لأجل زيارة تفتيشية ...

— لا تأسف على ذلك . انه القطار الوحيد قبل قطار المساء . الى الملتقى . وظل الاخوان وحيدين . وكانت لحظة قلق قصيرة . وقال جاك وهو يستعد للجلوس على السرير : خذ الكرسي .

ولكنه غير رأيه بعد ان رأى الكرسي الثاني ، وقدمه لأنطوان مردداً بنبرة طبيعية : « خذ الكرسي » كأنه يقول : « اجلس » وجلس هو .

ولم يتفقت شيء من ملاحظة انطوان فسأل وقد ساوره الشك :

— اليس عندك ، عادة ، سوى كرسي واحد ؟

— نعم ، ولكن ارتير اعارنا كرسيه ، كالايام التي يكون لدي دروس فيها .

ولم يلح انطوان وقال ملاحظاً ، بعد ان القى نظرة جديدة حوله :

— بالحقيقة ليس بالمسكن السيء .

ثم اشار الى الشراشف النظيفة والمناشف :

— هل يبدلون البياضات في اغلب الاحيان

— نهار الاحد .

كان انطوان يتكلم بتلك النبذة المقتضبة المرححة العادية لديه ، ولكنها في تلك الغرفة الرنانة وامام موقف جاك السلبي ، بدت انها لاذعة شبه هجومية .

وقال :

— تصور . كنت اخاف ، ولا ادري لماذا، ان لا تعامل معاملة حسنة هنا ..

فتأمله جاك بدهشة وابتسم . ولم يحول انطوان عينه عن اخيه .

— اذن ، والامر بيننا ، الاتشكو من شيء ؟
— ابدأ .

الا تريد ان اغتنم فرصة زيارتي للحصول على شيء من المدير ؟
— ماذا اذن ؟

— لا ادري انا : إبحث

وبدأ جاك مفكراً وابتسم من جديد ، وهز رأسه :
— ولكن كلا ، ها انت ترى ان كل شيء على ما يرام .

لم يكن صوته اقل تغيراً من السابق : صوت رجل ، حار وخشن ، رنان ،
مع انه بهيم وغير منتظر في جسم اليافع هذا . وكان انطوان ينظر اليه .
— كم انت متغير ... ومع ذلك فلا يمكن القول انك تغيرت . انت لست
نفسك ابدأ ، ولا بشيء .

ولم يحول نظره عن جاك ، محاولاً ان يجد في تلك السحنة الجديدة القسمات
السابقة . لقد كان نفس الشعر الامفر ، الاكثر دكنة ، المائل الى اللون الاسمر ،
ولكنه قاس دائماً ومنخفض المنبت . وكان نفس الانف الدقيق السيء التكوين ،
ونفس الشفاه المشققة التي يظللها زغب دقيق جداً واشقر ؛ ونفس الفك الغليظ ،
الموسع ؛ ونفس الاذنين المنفصلتين اللتين تبدوان انها تشدان الفم وتجعلانه
مخطوطاً . ولكن هذا لم يكن يشبه ولد البارحة في شيء . وفكر : « حتى
المزاج نفسه قد تغير ؛ هو ، الكثير الحركة ، المعذب دائماً ، والآن هذا الوجه
المسطح ، النائم ... هو الكثير العصبية يصبح الآن لمفاوي المزاج » .
— انهض قليلاً .

ورضي جاك بالفحص بابتسامة مجاملة لم تكن تنير نظراته . فقد كان على
حدقتيه شيء كالبخار . وتحسس انطوان ذراعيه وساقيه .

— ذلك لأنك كبرت ! ألا تشعر بالتعب لهذا النمو السريع ؟

فهز الآخر رأسه . وابقاه انطوان أمامه ممسكاً بمعصميه . ولاحظ شحوب
البشرة التي جعلت عليها بقع النمش مشتلاً داكناً ، وكذلك الدائرة الخفيفة

المحفورة تحت الجفنين الاسفلين .

— ليست الصبغة جيدة .

قال ذلك بشيء من الجدية ؛ وعبس ، وكان على وشك ان يقول شيئاً آخر ، وسكت . وفجأة ذكرته سحنة جاك الخاضعة ، غير المعبرة ، بالشك الذي ساوره حين ظهر جاك في الساحة . وقال بدون مقدمات :

— هل اندروك بانني انتظرك بعد القداس ؟

وكان جاك يتأمله دون ان يفهم . وألح انطوان :

— حين خرجت من الكنيسة ، هل كنت تعلم اني هنا ؟

فابتسم بدهشة ساذجة وقال :

— ولكن كلا ، كيف ؟

فتراجع انطوان وتتم :

— ظننت ذلك ... هل استطيع التدخين ؟

قال ذلك ليغير الحديث . وتطلع جاك إليه بقلق . وحين قدم انطوان إليه علبة سكايره أجاب وقد تكدر وجهه :

— كلا .. ليس انا .

لم يكن انطوان يعرف ماذا يقول . وكما هي العادة دائماً حين يراد إطالة الحديث مع محدث لا يجيب إلا بالجهد ، فقد بذل جهده في إلقاء الاسئلة ، وبدأ :

— إذن ، أحقيقة لست بحاجة إلى شيء ؟ هل لديك كل ما يلزمك ؟

— ولكن نعم .

— اتنام جيداً . هل لديك أغطية كاملة ؟

— أوه ! نعم ، حتى اني أشعر بكثير من الدفء .

— واستاذك ؟ هل هو لطيف معك !

— جداً . *

— ألا يضجرك ان تعمل وحدك دائماً ؟

— كلا .

- والسهرات ؟
 - انا بعد تناول العشاء ، في الساعة الثامنة .
 - وتنهض ؟
 - في الساعة السادسة والنصف عندما يقرع الجرس .
 - أيأتي الكاهن المرشد احياناً لرؤيتك ؟
 - نعم .
 - هل هو جيد ؟
 - ورفع جاك إلى انطوان نظره المقنّع ولم يفهم السؤال ، ولم يجب .
 - والمدير ، هل يأتي ايضاً !
 - نعم ، في اغلب الأحيان .
 - يبدو لطيفاً . هل هو محبوب ؟
 - لا أدري ... نعم ، بالتأكيد .
 - ألا تلتقي أبداً ... بالآخرين ؟
 - أبداً .
- كان جاك الذي احتفظ بعينييه منخفضتين يرتعش ارتعاشاً خفيفاً لدى كل سؤال ، كأنه يبذل جهداً ليقفز هكذا من موضوع إلى آخر . وسأل انطوان بنبرة عادية :
- والشعر ؟ ألا تزال تنظم الاشعار ؟
 - أوه ! كلا .
 - لماذا ؟
- فهز جاك رأسه ثم ابتسم ابتسامة وديعة لم تختف حالاً . ولم تكن ابتسامته تختلف لو ان انطوان سأله : « ألا تزال تلعب لعبة المجلات ؟ » .
- عندئذ صمّ انطوان ، وقد كاد ينضب معينه ، ان يتكلم عن دانيال . ولم يكن جاك ينتظر ذلك : فقد اصطبغ خداه قليلاً بالاحمرار ، وأجاب :
- كيف تريد أن أعرف أخباره ؟ فهنا لا تتلقى رسائل .

فتابع انطوان :

— ولكن انت ، ألم تكتب اليه ؟

وأبقى اخاه تحت نظره . وابتسم الآخر نفس الابتسامة السابقة حين تكلم انطوان عن الشعر . وهز كتفيه بهدوء

— كل هذا ، حكاية قديمة ، لا تحدثني عنها .

ماذا يقصد بذلك ؟ لو أجاب : « كلا » لم أكتب إليه أبداً ، لفاجأه انطوان وأزعجه ، وبسرور خفي لأن جمود اخيه بدأ يزعجه . ولكن جاك تجنب السؤال بمهارة بنبرة ثابتة وكثيية شلت انطوان . وفي اللحظة ذاتها لاحظ أن نظر جاك كان ينصب وراءه من ناحية الباب ، وفي حالة الحدة المنعكسة التي وجد نفسه فيها فان كل شكوكه أجتاحت من جديد . كان هذا الباب مزججاً لكي يستطيع من الخارج مراقبة ما يجري في الغرفة ، وفوق الباب يوجد كوة مشبكة بالحديد دون زجاج تتبيح سماع ما يقال في الداخل .

وقال انطوان بجدية ، ولكنه خفض صوته :

— هل هناك أحد في الرواق ؟

فتطلع اليه جاك كأنه أصبح مجنوناً :

— كيف ، في الرواق ؟ نعم ، أحياناً ... لماذا ؟ شاهدت مرور الأب

ليون .

في تلك اللحظة طرق الباب : لقد جاء الاب ليون يتعرف على الأخ الاكبر.

وجلس بدالّة على زاوية الطاولة .

— ايه ، أمل ان تراه بهيئة حسنة . ألم يكبر منذ الحريف ؟

وكان يضحك . ووجهه وجه متدمر هرم ذي شاربين متهدلين ، وضحكته كرجل بشوش كانت تحقن وجنتيه وتغطيها بعروق حمراء صغيرة تتشعب حتى يباض عينيه ، وتُشوش نظرقته التي يكون تعبيرها في أغلب الأحيان أبويًا ، ولكنه ما كر . وقال موضحاً وهو يورجح كتفيه :

— لقد وضعوني في المشاغل . انا الذي كنت معتاداً تماماً على السيد جاك !

أخيراً - قال ذلك وهو ذاهب - يجب الا يظهر المرء الاستياء من حياته ..
سلامي للسيد تيبو ، دون ان أمرك ؛ من الاب ليون ، وهو يعرفني جيداً ،
هيا !

وقال انطوان بعد ان خرج :

- يا له من هرم شجاع !

وأراد وصل ما انقطع من الحديث فقال :

- استطيع أن أوصل اليه رسالة منك إذا أردت .

وبما أن جاك لم يفهم ، أضاف :

- أأست راغباً في كتابة كلمة الى فونتنان ؟

وحاول أن يرصد على قسماته الهادئة علامة تأثر ، وتذكير للماضي ؛ عبثاً .

فقد كان الشاب يهز رأسه دون ان يبتسم هذه المرة :

- كلا ، شكرأ . ليس عندي ما أقوله له . انها حكاية قديمة .

واقصر انطوان على ذلك . وقد كان تعباً ، ومع هذا فقد مضى الوقت ؛

وسحب ساعته :

- الساعة العاشرة والنصف : علي ان اذهب في مدى خمس دقائق .

وبدا جاك مضطرباً فجأة ، راغباً في قول شيء . فسأل أخاه عن صحته ،

وعن ساعة القطار ، وعن امتحاناته . وحين نهض انطوان دهش من اللهجة التي

تأوه بها جاك :

- الآن ؟ انتظر قليلاً .

وفكر انطوان ان الولد كان غدوعاً ببرودته ، وان هذه الزيارة ربما سببت

له من السرور اكثر مما بدا عليه . وتمم بحمق :

- أنت مسرور لأنني جئت ؟

وبد جاك غائباً ، قلقاً ؛ وارتجف ، وشده ، وأجاب بإبتسامة مهذبة :

- ولكن نعم ، سررت جداً ، اشكرك .

- حسناً ، سأحاول ان اعود . إلى اللقاء .

قال انطوان ذلك متكدراً . ونظر مرة أخرى إلى أخيه الأصغر في وجهه ،
وقد استيقظت كل فطنته ؛ واهتزت رقة قلبه وقال :

— غالباً ما افكر بك يا صغيري . وأخشى دائماً ألا تكون سعيداً هنا .

كانا قرييين من الباب . وأخذ انطوان يده وقال :

— سوف تقول لي ، اليس كذلك ؟

وبدا جاك بهيئة قلقة . وانحنى كأنه يريد ان يفضي اليه بشيء . واخيراً

صمم بسرعة :

— عليك ان تعطي شيئاً لأرتير ، للغلام . انه لطيف جداً .

ولما رأى انطوان متردداً لأن هذا ممنوع ، قال : اريد ؟

فقال انطوان : ولكن ألا يسبب ذلك مشاكل ؟

— كلا ، كلا . قل له بلطف وانت ذاهب : الى اللقاء ، ثم دس في يده قليلاً

من البخشيش . اريد ؟

وكان ذا هيئة متوسلة تقريباً .

— بالتأكيد . وانت ، اجب ، الست راغباً بشيء ؟ اجب ... ألسنت تفسأ ؟

فأجاب جاك باختلاف طفيف في المزاج : ولكن كلا .

ثم خفض صوته وقال : كم ستعطيه ؟

— لا ادري . كم ؟ عشرة فرنكات ، هل تكفي ؟ اريد عشرين فرنكاً ؟

فقال جاك بنوع من الفرح المشوش :

— اوه ! نعم . عشرون فرنكاً . شكراً يا انطوان .

وشد بقوة على اليد التي مدها اخوه اليه .

وكان الغلام ماراً في الرواق حين خرج انطوان من الغرفة . وقبل البخشيش

دون تردد . ووجهه الصريح الذي لا يزال على شيء من الصبانية قد احمر من

الفرح . وقام انطوان الى مكتب المدير .

وقال المدير متحققاً :

— الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعون . كل وقتك معك ، ولكن

يحب الذهاب ،

واجتاز الدهليز حيث التمثال النصفى للسيد تيبو يجلس على عرشه . وتأمله
انطوان الآن بدون سخرية . وأدرك ما هناك من شرعي في الفخر الذي يستخرجه
والده من هذا العمل الذي أوجد بكامله بفضل ؛ وشعر بشيء من الفخر من جراء
ذلك .

ورافقه السيد فاييسم حتى المدخل ، وكلفه بنقل احتراماته للسيد المؤسس ؛
ولم ينقطع عن الضحك وهو يتكلم ، مغضناً عينيه خلف نظارته الذهبية ، وكان
يسك يد انطوان بدالة بين يديه الناعمتين السمينتين كيدي امرأة . وتلص انطوان
أخيراً . وظل الرجل البسيط القلب على الطريق عاري الرأس في الشمس ،
وذراعه مرفوعان ، ضاحكاً دائماً ، هازراً رأسه علامة الصداقة .

كان انطوان يقول لنفسه وهو يسير :

— لقد ركبت رأسي كإحدى العاملات الظهرية (١) . فهذه المؤسسة تدار
جيداً . وبعد ، فجاك ليس تمساً فيها .
وفكر فجأة :

— والاكثر حمقاً من كل ذلك هو انني اضعت وقتي مقلداً عمل قاضي التحقيق ،
بدلاً من ان اتحدث مع جاك كصديق .

ولم يكن بعيداً عن الاعتقاد ان اخاه رآه يذهب دون ان يأسف ، وفكر
بملل : « لقد بدا لامبالياً جداً » .

وكان يأسف رغم كل شيء لأنه لم يضع كثيراً من الحرارة وهو يقوم
بالمقدمات الأولى .

وكان انطوان يعيش دون عشيقه ، ويكتفي باللقاءات التي تقدمها له الصدفة ،
ولكن قلبه ، ابن الرابعة والعشرين ، كان يثقل عليه أحياناً : كان يحب ان

١ - بالفرنسية *Midinette* : وهو اسم يطلق في باريس على عاملات الحياطة والأزياء اللواتي
يخرجن من المشغل عند الظهر . - المغرب -

يُحِيط كائناً ضعيفاً بالشفقة ، ويساعد احداً ما بسند من قوته . وكانت محبته للصغير تزداد بقدر ابتعاده عنه . والآن متى يراه ؟ انه يعود ادراجه لأجل لا شيء .

كان يسير منخفض الجبهة بسبب الشمس . وحين رفع رأسه وجد انه اخطأ الطريق . ودله بعض الأولاد على طريق مختصر خلال الحقول . فأسرع الخطى وقال لنفسه : « ماذا افعل لو فاتني القطار ؟ » وتخيل عودته إلى الاصلاحية ، سوف يقضي نهاره إلى جانب جاك ، ويسرد عليه مخاوفه الوهمية ، ورحلته خفية عن الأب ؛ وسوف يبدو واثقاً ، رقيقاً ؛ ويذكر الصغير بحادث العربة اثناء العودة من مرسيليا ، وكيف شعر في ذلك المساء ان بإمكانها ان يصبحا صديقين حقيقيين . والرغبة في ان يفوته القطار اصبحت لا تقهر بحيث خفف سيره غير عارف ما يقرر . وفجأة سمع صفير القاطرة . وكان يتصاعد دخان كالريش في أعلى قبعة ، على يساره ، فوق باقة من الأشجار ؛ ودون ان يفكر كثيراً ، اخذ يركض . وشاهد المحطة . وكانت تذكرته في جيبه وليس إلا ان يشب إلى عربة ، على الا تكون عربة تسير في جهة معاكسة . كان يتنشق الهواء ببلء رثيبه ، والمرفقان على الجسم ، والراس الى الوراء ، واللحية في الهواء . كان فخوراً بعضلاته ، واثقاً من الوصول .

ولكنه عمل حسابه دون ان يدخل انحدار الخط بالحساب . فلبلوغ المحطة كانت الطريق تغير اتجاهها فجأة وتم من تحت جسر صغير . وزاد من سرعته الى الحد الأقصى ، وطلع خارج الجسر حين كان القطار الذي في المحطة يهتز . لقد فاته بمسافة تقرب من مئة متر .

وكان له من كبرائه ما يجعله لا يرضى بفشله ، مع انه يفضل هذا الفشل . وقد قال لنفسه في مدى ثانية واحدة : « ما يزال بإمكانني الوثوب الى إحدى العربات لو اردت . ولكني لا استطيع الاختيار وإلا لذهبت دون ان أرى جاك ثانية » . وتوقف راضياً عن نفسه .

ان ما تخيله منذ قليل اصبح حقيقة في الحال : تناول طعام الغداء في الفندق ،

والعودة الى الاصلاحية ، وتكريس النهار لأخيه .

٣

كانت الساعة اقل من الواحدة حين كان انطوان امام مؤسسة تيبو . وخرج السيد فاييسم ، ودش بحيث ظل منذهلاً عدة ثوان ، وعيناه ترقصان وراء نظارتيه . فروى له انطوان حادث السوء الذي وقع له . وعندئذ فقط انفجر السيد فاييسم ضاحكاً وعاد ثثاراً .

وعرض انطوان ان ينزه جاك كل فترة ما بعد الظهر ، فقال المدير مرتبكاً :
- سارستي ! وأنظمتنا ؟

ولكن انطوان ألح إلى ان ربح القضية .

- سنوضح الامر للسيد المؤسس . انا ذاهب لآتي بجاك .

فقال انطوان : سأرافقك .

وأسقط في يده : لقد وصلا في وقت غير مناسب . وما كاد يدخل في الرواق حتى شاهد اخاه مقعياً بمنظر حسن في الخلوة التي تسميها الادارة « *Les valères* » ، والتي كان بابها مفتوحاً على مصراعيه بواسطة ارتير الذي كان يدخل غليونه ، مسنداً ظهره الى احد المصراعين .

واسرع انطوان بالدخول الى الغرفة . وكان المدير يفرك يديه ويبدو كثير السرور وهتف :

- أرايت ؟ ان الاولاد الذين علينا ان نحرسهم هم محروسون حتى هنا .

وجاء جاك . وكان انطوان ينتظر ان يراه مضطرباً ، ولكنه كان يزور ثيابه بهدوء ، وقسماته لا توضح شيئاً ، حتى ولا الدهشة لرؤية انطوان مرة ثانية . وأوضح السيد فاييسم انه يسمح لجاك بالخروج مع اخيه حتى الساعة السادسة . وكان جاك يتطلع في وجهه كأنه يحاول ان يفهم جيداً ، ولكنه لم يفهم بكلمة . وتابع السيد فاييسم بصوته الزامر :

- وفوق ذلك فأنا ذاهب ، عفواً . اجتماع مجلسي البلدي . لأنني مختار .

قال ذلك من الباب وهو يضحك ، كما لو انها آخر مزحة . اما انطوان فقد ابتسم فعلاً .

كان جاك يرتدي ملابسه متمهلاً . وبمجاملة لاحظها انطوان ، كان ارتير يلبسه ثيابه ؛ حتى انه كان يريد ان يسمح له الحذاء ؛ وتركه جاك يفعل ذلك . كانت الغرفة قد فقدت منظرها المعنى به جداً والذي ادesh انطوان في الصباح . وبحث عن السبب . كان طبق الافطار باقياً على الطاولة: صحن وسخ ، وطاسة فارغة ، وكسرات خبز . واختفت البياضات النظيفة : كانت ممسحة ، قاسية ومبقعة تتدلى من علاقة المناشف ؛ وتحت الطست قطعة قماش مشمع ، مهترئة وقذرة ؛ والشراشف البيضاء حل مكانها شراشف خشنة ، بالية ، لم تغسل . واستيقظت شكوكه فجأة . ولكنه لم يلق اي سؤال .

وحين أصبح الاثنان على الطريق قال انطوان بمرح :
- إلى أين نذهب ؟ ألا تعرف كومبيانيه ؟ هناك أكثر من ثلاثة كيلومترات بقليل ، بطريق ضفة نهر الواز . أيلأنك ذلك ؟
فقبل جاك . وبدأ انه حريص على ألا يعاكس أخاه بشيء .
وادخل انطوان ذراعه تحت ذراع أخيه وسار . وقال وهو ينظر إلى جاك ضاحكاً :

- ما قولك بقضية المناشف ؟
فردد الآخر الذي لم يفهم شيئاً : قضية المناشف ؟
- نعم ، هذا الصباح عندما كانوا يطوفون في المؤسسة ، كان لديهم الوقت الكافي ليعضوا عندك شراشف بيضاء جميلة ، ومناشف جميلة جديدة . ولكن شاء سوء الحظ ان أعود حين لم يكونوا ينتظرونني ، و ...
وتوقف جاك ، وعلى ثغره نصف ابتسامة مرغبة ؛ وانتهى إلى القول بصوته الرصين الذي كان يرتجف قليلاً :

- يبدو انك تريد بكل قواك ان تجد كل ما يحدث في المؤسسة شيئاً .
وصمت ، واخذ يشي ، ثم تابع على الأثر تقريباً ، ويجهد ، كأنه يشعر بضجر

لأحدود له في التبسط بموضوع لا طائل تحته :

— ان ذلك أبسط مما تتوهم . فهم يبدلون البياضات في الأحد الأول والثالث من كل شهر . وأرتير ، المهتم بي منذ عشرة أيام فقط ، كان قد غير الشراشف والمناشف نهار الأحد الماضي . وظن انه يفعل حسناً بان يقوم بذلك هذا الصباح لأنه يوم أحد . ولكن قيل له في خزانة البياضات انه اخطأ . وجعلوه يعيد البياضات النظيفة . إذ لا حق لي فيها قبل الاسبوع القادم .

وسكت من جديد واخذ يتطلع إلى الحقول .

وبدأت النزهة بشكل سيء . وسعى انطوان حالاً إلى تغيير الحديث ، ولكن الأسف على حماقته لازمه ولم يسمح له باستعمال النبرة البسيطة البشوش التي يريدها . وكان جاك يجيب بنعم أو بلا حين تكون عبارة انطوان استفهامية ؛ ولكن دون أقل اهتمام . واخيراً قال بغتة :

— أرجوك يا انطوان ألا تكلم المدير بقضية البياضات : لأن هذا يسبب التوبيخ لأرتير لأجل لا شيء .

— مفهوم .

وأضاف جاك : ولا لوالدي .

— ولكن لا لأحد . كن مطمئناً . حتى اني لم أعد أفكر بذلك ابداً . أريد ان أقول لك الحقيقة : تصور انني كنت وضعت في رأسي ، ولا أدري لماذا ، ان كل شيء يجري بشكل سيء هنا ، وبأنك لست سعيداً ...

والتفت جاك قليلاً وفحص أخاه بشكل جدي . وتابع انطوان :

— لقد قضيت فترة الصباح في البحث ، وادركت اخيراً اني كنت مخطئاً . عندئذ تظاهرت بان القطار قد فاتني . لم اكن أريد الرحيل دون ان يتاح لي وقت اتحدث فيه قليلاً معك ، افهمت ؟

ولم يجب جاك . هل كان مرمى هذا الحديث مقبولاً عنده ؟ لم يكن انطوان متأكداً ؛ كان يخاف ان يخطيء الطريق ، وسكت .

ومنحدر الطريق الهابط نحو ضفة النهر جعل مشيتها ناشطة . وبلغا ساعداً

من النهر يجري في قناة . وهناك جنزر حديدي صغير يمتاز سداً ، وثلاثة زوارق كبيرة فارغة كانت تعوم بكل ارتفاع هيكلها الأسير على الماء شبه الراكد . وسأل انطوان بمرح :

- اتحب القيام برحلة في زورق ؟ وتنزلق بهدوء على الأقنية بين أشجار الحور ، مع الوقوف على السدود ، وضباب الصباح ، والمساء ، عند مغيب الشمس . تدخن سيكارتك في المقدمة دون ان تفكر بشيء ، والقدمان متدليان يتأرجحان فوق الماء .. ألا تزال ترسم ؟

في هذه المرة ارتجف جاك بوضوح وتأكد انطوان من رؤية احمرار وجهه . وسأل بصوت غير واثق : لماذا ؟

فاجاب انطوان قلقاً :

- لا شيء . لأن هنا رسماً يبعث العمل به على التسلية ، هذه الزوارق الثلاثة ، والسد ، والجسر .

واتسع الدرب الذي تسحب فيه الزوارق واصبح طريقاً . ووصلا إلى ساعد الواز الكبير حيث المجرى الملائن كان يجري نحوهما . وقال انطوان :

- هذه كومبيانيه .

ووقف ، ووضع يده على جبهته اتقاء للشمس . وعرف في السماء البعيدة ، فوق الأوراق الخضراء ، رؤوس البرج التي تشبه الحزمة ، وبرج أجراس الكنيسة المستدير ؛ وكان على وشك تسميتها حين القى نظرة على أخيه بجانبه ويده كحافة الخوذة على عينيه ، ويبدو كأنه يبحث في الافق . ورأى ان جاك يتطلع في التراب عند قدميه ؛ ويبدو انه ينتظر مسير انطوان ، وما يفعله ، دون ان يقول شيئاً .

ويبدو ان كومبيانيه كانت كلها في الخارج هذا الأحد . واختلط انطوان وجاك بالجمهور . وكان هناك مجلساً للقرعة العسكرية ، لان جماعات من الشبان بلباس الأحد كانوا يشتركون من الباعة المتجولين أمواجاً من الشرائط المثلثة الألوان . متماسكي الأيدي ، سادّين الارصفة ، متأيلين وهم يغنون اناشيد الثكنة .

وفي المنتزه العمومي ، بين الفتيات بالاثواب الزاهية ، والجنود المتفلتين من الحي ،
كان هناك عائلات تتلاقى وتتبادل التحية .

وكان جاك المندھش المتصائم يتأمل جميع هؤلاء الناس بمزاج يزداد تعكركه .
وقال متوسلاً :

— هيا الى مكان آخر يا انطوان .

وفي منتصف المنتزه العمومي سارا في شارع وعمر الجوانب ، يعلو صعوداً .
وهو داكن صامت . وكان الوصول الى ساحة القصر يبهر النظر . وكان جاك
يطرف بعينيه . ووقفاً وجلساً تحت اشجار بشكل مربعات لم تكن تعطي ظلاً
بعد .

وقال جاك واضعاً يده على ركبتي انطوان : اسمع .

كانت اجراس سان جاك تهتز لصلاة العصر ؛ ويبدو ان اهتزازها وضوء
الشمس شيء واحد .

وتخيل انطوان ان الولد يتعرض خفية لنشوة هذا الاحد الاول من فصل
الربيع . فجازف قائلاً :

— بماذا تفكر يا صديقي ؟

ولكن جاك نهض بدلاً من ان يجيب ، وسارا صامتين نحو الحديقة .

ولم يمر جاك اي انتباه لعظمة المناظر الطبيعية . وبدأ على الخصوص انه
يهرب من الاماكن المأهولة . وكان يحتذبه الهدوء المسيطر حول القصر وعلى
الشرفات ذات الدرابزين . وكان انطوان يتبعه ، متحدثاً عما رأى . وهناك
اشجار بقس مشدبة مقطوعة على خضرة الارض ، وحمام برية واقفة على
اكتاف التماثيل . ولم يكن يحصل إلا على اجوبة مراوغة .

وسأل جاك فجأة : هل تحدثت اليه ؟

— من ؟

— فونتنان .

— ولكن نعم . فقد التقيت به في الحي اللاتيني . وانت تعلم انه الآن تلميذ

خارجي في مدرسة لويس الكبير .

- آه !

هكذا لفظ الآخر . ولكنه اضاف بصوت مرتجف كان يذكر للمرة الاولى
بنبرة التهديد التي كان يستعملها غالباً في السابق .

- ألم تفل له ابن انا ؟

- انه لم يسألني . لماذا ؟ الا تريد ان يعرف ؟

- كلا

- لماذا ؟

- لأن ..

- سبب وجيه . ولكن اما عندك غيره ؟

وتأمله جاك بغباوة ؛ لم يدرك ان انطوان كان يمزح . ولم تتلاشى غضونه ،
واخذ يمشي . واطاف فجأة :

- وجيز ؟ هل تعلم ؟

- ابن انت ؟ كلا . لا اعتقد . ولكن المرء لا يكون واثقاً من شيء مع

الاولاد .

وتعلق بهذا الموضوع الذي علق طعمه جاك نفسه ، وتابع :

- في بعض الايام تبدو كفتاة كبيرة ، فتسمع كل ما يقال ، بعينها
الجميلتين المفتوحتين جيداً . ثم في ايام اخرى لا تكون سوى طفلة . أتصدق ان
الدموازيل بحثت عنها مساء البارحة في كل مكان ، وهي تلعب بالدمية تحت
المنضدة الموجودة في الدهليز ؟ ستبلغ الحادية عشرة عما قريب .

وهبطا نحو أرض غرس فيها نبات على شكل فراشة . ووقف جاك في أسفل
الدرج بالقرب من تمثال لأبي الهول من رخام وردي مرقش ، وأخذ يداعب جبهته
المصقولة التي كانت تلمع في الشمس . هل كان يفكر بيجيز ؟ بالدموازيل ؟ هل
ترامت له فجأة المنضدة القديمة الموجودة في الدهليز بغطائها ذي الشراريب ،

والطبق الفضي الذي توضع عليه البطاقات ؟ كان انطوان يظن ذلك . وتابع
بحر :

— لا أدري من أين تأتي بما لديها من أفكار ! والبيت ليس مرحاً بنظر طفل !
والدموازيل تحبها جداً ولكنك تعرف كيف هي : انها تخاف من كل شيء ،
وتنمها من كل شيء ، ولا تتركها ثانية لوحدها .

وأخذ يضحك وينظر إلى أخيه ليشاركه بالبهجة ما دام يشمران هذه
التفاصيل عن الحياة العائلية كانت كزهما الأخوي . ولم يكن لها معنى إلا
بنظرهما ، ولم تنقطع أبداً عن أن تكون لهما شيئاً وحيداً لا يمكن استبداله :
ذكريات الطفولة . ولكن جاك ابتسم ابتسامة مقتضبة مرغمة . وتابع انطوان :
— وكذلك وجبات الطعام ليس فيها ما يستغرب ، وأؤكد لك . فأبي لا
يقول شيئاً ، أو انه يعيد على الدموازيل خطابات تقليده مناصبه ويسرد بالتفصيل
كيفية استعماله لنهاره . وبالنسبة ، فالترشيح للمجمع يسير سيراً حسناً .
— آه !

لقد لطّف قسماً جاك شيء من الرقة . وفكر لحظة وابتسم قائلاً :
— عسى أن يكون خيراً .

وتابع انطوان :

— جميع الاصدقاء يتحركون . والأب الرئيس مدهش ، فهو ذو علاقات
بالأكاديميات الأربع .. والانتخاب يجري في مدى ثلاثة اسابيع .
ولم يكن يضحك ، وتتم :

— لا اهمية لذلك ، ولكن مهما كان الأمر فعوضو في المجمع شيء ذو قيمة .
وابي ربح ذلك عن جدارة ، ألا ترى ذلك ؟

— اوه ، نعم ! — وقال عفويًا : — أبي طيب السريرة كما تعلم .

وتوقف ، وأحمر وجهه ، وأراد اضافة شيء ، ولم يجزم بالأمر . وقال
انطوان بحسرة :

— اني انتظر جلوس ابي براحة تحت قبته ليحدث انقلاباً . انا بالحقيقة

متضايقي في الغرفة الموجودة في طرف البيت ، ولا اعرف اين اضع كتي . أتعلم انهم اسكنوا جيز في غرفتك القديمة ؟ اريد ان اقنع ابي باستئجار المنزل الصغير في الطابق الارضي ، منزل الشيخ الجميل ؛ سينتقل منه في الخامس عشر من الشهر . ثلاث غرف : سيكون لدي مكتب حقيقي للعمل حيث يستطيع استقبال زبائن ، ونوع من المختبر أيضاً أقيمه في المطبخ .

وخجل فجأة من عرض حياته الحرة ورغبته في الرفاهية على حبيس ؛ وأدرك انه تحدث عن غرفة جاك كأن هذا لن يعود إليها ابداً . وسكت . واستعاد جاك هيئته اللامبالية .

وقال انطوان مستهدفاً ايجاد ألهية :

— والآن ، لو نذهب لناكل قليلاً ، أتريد ؟ يجب أن تكون قد جعت . وكان قد فقد كل أمل باقرار معاشرة أخوية بينه وبين جاك . ودخلا إلى المدينة ، وكانت الشوارع المألوفة بالناس تدوي كقفران النحل . وشنت غارة على دكاكين الحلوى . ووقف جاك على الرصيف جامداً أمام الطبقات الخمس من الحلويات المطلية بالسكر ، السائلة بالزبدة . وقد بدا له هذا المنظر خانقاً . وقال انطوان مبتسماً :

— ايه ، ادخل !

كانت يدا جاك ترتجفان وهما تاخذان الصحن الذي قدمه جاك إليه وجلسا في داخل الدكان أمام هرم من الحلوى الممتازة . وكانت نسائم من الفانيليا والعجين الساخن تأتي من باب الخدمة المفتوح قليلاً . وجاك مكوم على كرسيه دون أية كلمة ، والعينان محقتتان كأنه على وشك البكاء ، وكان يأكل بسرعة ، متوقفاً بعد كل قطعة حلوى ، منتظراً ان يقوم انطوان بتقديم الطعام له ، ثم يعود إلى الأكل . وسكب انطوان كأسين من البورتو . وأمسك جاك بالكأس بين أصابعه الدائمة الارتجاف ؛ وغمس شفثيه به ، فاحترق من النبيذ المحتوي على كحول ، وسعل . وكان انطوان يشرب بجرعات صغيرة دون أن يظهر الاهتمام بأخيه . وتجراً جاك وأخذ جرعة ، وتركها تسقط في جسمه

ككرة من النار ، ثم اخرى ، ثم كل محتويات الكأس حتى الثالثة . وحين ملأ له انطوان الكأس مرة اخرى تظاهر بعدم رؤية ذلك وقام ، متأخراً ، بحركة لينمنه .

حين خرجا من الدكان كانت الشمس قد مالت الى الزوال . وهبطت الحرارة . ولكن جاك لم يكن يشعر بالطراوة . كان خداه محترقين ، وفي كل جسده احساس بأنه في رفاهية مصطنعة ، شبه مؤلمة . وقال انطوان :

— لا يزال امامنا ثلاثة كيلومترات نقطعها . يجب ان نعود .

وكان جاك على وشك البكاء . وأطبق قبضتيه في داخل جيوبه ، وشد فكيه ، وخفض رأسه . وكان انطوان ينظر اليه خلسة ، فلاحظ تغييراً في قسباته بعث فيه الخوف . وسأل :

— هل أتبتك هذه النزهة الطويلة ؟

وبدت نبرة هذا الصوت لجاك ذات رقة جديدة ؛ ولما كان غير قادر على التفوه بكلمة فانه لفت نحو أخيه وجهه المتشنج ، وامتألت عيناه بالدموع هذه المرة . وذهل انطوان فتبعه صامتاً . وحين هبطا المدينة واجتازا الجسر وأصبحا على الدرب المخصص لسحب الزوارق ، اقترب من أخيه وأخذ ذراعه وقال مبتسماً :

— ألا تأسف على نزهتك المعتادة ؟

فلم يجب جاك بشيء . ولكن هذه اللفتات ، وذلك الصوت المحب ، وتلك النسيمات من الحرية التي كانت تبعث فيه النشوة منذ ساعات ، وشراب البورتو ، وتلك النهاية لفترة ما بعد الظهر الكثيرة العذوبة ، الكثيرة الكتابة ... جعلت التأثير ينهك قواه فجأة : فانفجر بالنحيب . واحاطه انطوان بذراعه ، وأسنده وأجلسه مستنداً اليه على المنحدر . ولم يكن يفكر ان يكشف في حياة جاك اسراراً قاتمة ، ولكنه كان يشعر بالانفراج لرؤية ذوبان هذه اللامبالاة التي كان يصطدم بها منذ الصباح .

كانا وحدهما على الضفة المقفرة ، وحدهما مع الماء الهارب تحت سماء ضبابية

حيث ينطفئ المنيب ؟ وأمامها قارب يدهده المجرى ويرضض القصب اليابس
بطرف سسلته .

كان أمامها طريق يجب اجتيازه ، ولا يستطيعان البقاء هناك . وأراد
انطوان ان يحبر الولد على رفع رأسه فقال :

— بماذا تفكر ؟ ما الذي يبكيك ؟

وزاد جاك من التصاقه به . وحاول انطوان أن يتذكر كلمات حركت هذه
الأزمة من الدموع .

— هل تفكيرك بنزعتك المعتادة هو الذي أبكاك ؟

— نعم .

لقد اعترف الولد لكي يجيب بشيء . وألح الآخر :

— لماذا ؟ أين تنتزه نهار الأحد اذن ؟

لا جواب .

— ألا تحب الخروج مع اريتير ؟

— كلا .

— لماذا لم تقل ذلك ؟ اذا كنت تأسف على الأب ليون الهرم فان الحصول

عليه سهل .

فقاطع جاك بعنف غير متوقع :

— اوه ! كلا .

وكان قد انتصب وأبدى وجهاً من الحقد كثير الدلالة وغير منتظر ، بحيث

دهش انطوان منه .

ولما كان جاك لا يستطيع البقاء جامداً فقد نهض وجر أخاه بخطى كبيرة ،

ولم يقل شيئاً ؛ اما انطوان ، فبعد انتظار بضع دقائق ، وخوفاً من ارتكاب

حماقة ، وهو الرأغب قبل كل شيء بتوسيع هذا الجرح كما كان يفكر ، فقد

تابع بعزم :

— اذن لم تكن تحب الخروج ايضاً مع الأب ليون ؟

واستمر جاك في السير وعيناه مفتوحتان ، والأسنان تصران دون أن يلفظ كلمة . وجازف انطوان قائلاً :

— ومع ذلك فالأب ليون يبدو لطيفاً معك .

لا جواب .

كان يخاف ان يعود جاك إلى الانطواء على نفسه من جديد . وأراد الامساك بذراعه ، ولكن الولد تملص وأسرع الخطى . وتبعه انطوان مرتبكاً ، غير عارف كيف يحوز على ثقته ، حين انتحب جاك فجأة ، وأخذ يبكي دون أن يدبر رأسه بعد أن خفف سيره :

— لا تقل ذلك يا انطوان ، لا تقله لأحد .. لم أكن أتنزه أبداً مع الأب ليون . أبداً تقريباً .

وسكت . وفتح انطوان فمه ليسأل ، فأنذرتة الغريزة بأن عليه ألا يحدث صوتاً . وبالفعل ، فان صوت جاك المتردد قليلاً ، الأبح ، تابع :

— في الأيام الاولى ، نعم ... لقد بدأ في النزهة يقص علي أشياء . وكان يعبرني كتباً — لم أكن اعتقد أن هذا موجود ! وبعد ، فقد اقترح علي ارسال رسائل إذا كنت اريد ... في تلك الفترة كتبت إلى دانيال . وكنت اكذب عليك : لقد كتبت . ولكن لم يكن معي نقود للطوابع . عندئذ ، انت لا تدري ... رأى انني أعرف شيئاً من الرسم .. أتدرك ... هو الذي كان يقول لي كيف يجب ان أفعل ... ومقابل ذلك دفع ثمن الطوابع لرسالة دانيال . ولكنه في المساء كان يُري الرسوم للمراقبين ، وكان الجميع يريدون غيرها ، معقدة أكثر فأكثر .. وعندئذ ، ومنذ تلك اللحظة لم يعد الأب ليون قلقاً ، وانقطع عن اصطحابي إلى النزهة . وبدلاً من السير بي إلى الحقول ، كان يجعلني أدور حول المؤسسة لأجتاز القرية ... وكان الأولاد يركضون خلفنا ... وكنا نسير في الزقاق لندخل الفندق من الساحة الداخلية . ويذهب هو ليشرب ويلعب الورق ، ويفعل ما لا أدري ؛ وطوال الوقت الذي يقضيه هناك كان يخبثني ... في مفصل فارغ للثياب ... ومقفل بالمفتاح .. طوال ساعتين .

— ولكن لماذا ؟

— لا أدري ، أنت تعلم . كان اصحاب الفندق يخافون . وذات يوم كان هناك غسيل يجفف في المغسل ، وعندئذ وضعوني في رواق . وقالت المرأة ... قالت ...

وانخرط في البكاء .

— ماذا قالت ؟

— قالت : « لا يعرف المرء ماذا يفعل مع هذه البذور ... »

فردد انطوان منحنياً : هذه البذور ...

— هذه البذور ... بذور السارقين .

انهى الولد أخيراً ، وأخذ ينتحب بشدة .

وكان انطوان يصني ؛ وفضوله في هذه اللحظة لمعرفة المزيد كان أكثر قوة من شفقته . فقال :

— وبعد ؟ إحكِ .

فتوقف جاك وراح يتعلق بذراع أخيه الأكبر . وصرخ :

— انطوان ، انطوان . اقسم لي بأنك لن تقول شيئاً ! اقسم لي . لو ارتاب أبي بشيء فإنه ... أبي يحبني في دخيلته ، فإنه سيكون تفساً . ليس الخطأ منه إذا كان لا يعرف الامور مثلنا ... — وفجأة — آه ! انت يا انطوان ... لا تتركني يا انطوان ، لا تتركني .

— ولكن كلا يا صغيري ، ولكن كلا . ثق بي ، أنا هنا ... لن أقول شيئاً سأفعل كل ما تريد . ولكن قل الحقيقة .

ولما كان جاك غير عاجز على الاكمال ، فقد قال له :

— أكان يضربك ؟

— من ؟

— الأب ليون .

— اوه ، كلا .

ودعش لعدم استطاعته الامتناع عن الابتسام بين دموعه

- ألا يضربونك ؟

- اوه ! كلا .

- صحيح ؟ لا أحد أبداً ؟

- ولكن كلا . لا أحد .

- إذن ؟

- صمت .

- والجديد ، ارتير ؟ أليس حسناً ؟

- فhez جاك رأسه .

- ولكن ماذا ؟ هل يذهب هو ايضاً إلى المقهى ؟

- كلا .

- آه ! اتنزعه معه ؟

- نعم .

- إذن . ماذا تشكو منه ؟ هل هو قاس معك ؟

- كلا .

- إذن ماذا ؟ ألا يعجبك ؟

- كلا .

- لأي سبب ؟

- لأن ...

وتردد انطوان ثم تابع أخيراً :

- ولكن ، يا للشيطان ، لماذا لا يعجبك ؟ لماذا لا تذهب وتشرح كل ذلك

للمدير ؟

كان جاك يشد جسده المغموم إلى جسد انطوان ، وقال متوسلاً :

- كلا ، كلا يا انطوان . لقد أقسمت لي . أنت تعلم ، لقد أقسمت لي انك

لن تقول شيئاً ! لا شيء ، لا شيء لأي كان .

- ولكن نعم . سأفعل كما تريد ، اني أسألك فقط . لماذا لم تشك الأب ليون إلى المدير ؟
- فهر جاك رأسه دون ان يفتح اسنانه . وقال انطوان موحياً :
- ربما كنت تفترض ان المدير يعرف كل شيء ، وانه يتساهل معه ؟
- أوه ، كلا .
- ما رأيك بالمدير ؟
- لا شيء .
- اتعتقد انه يسيء معاملة الأولاد الآخرين ؟
- كلا ، لماذا ؟
- هيئته تدل على اللطف ؛ ولكني لا أعرف شيئاً : والأب ليون ايضاً تدل هيئته على انه رجل طيب : هل سمعت أشياء تقال ضد المدير ؟
- كلا .
- هل المراقبون يخشونه ؟ والأب ليون ، وارتير هل يخافانه ؟
- نعم ، قليلاً .
- لماذا ؟
- لا أدري . لأنه المدير .
- ولكن أنت ؟ معك ، هل لاحظت أشياء ؟
- أية أشياء ؟
- حين يأتي لرؤيتك كيف يكون معك !
- لا أدري .
- ألا تجرؤ على التحدث إليه بحرية ؟
- كلا .
- ولكن لو كنت قلت له ان الأب ليون يذهب إلى المقهى بدلاً من النزومة ، وانهم يحتجزونك في المفصل ، ماذا تعتقد انه كان يفعل ؟
- فأجاب جاك برعب :

- كان يطرد الأب ليون .
- إذن ، ما الذي كان يمكنك عن الكلام ؟
- ولكن هكذا يانطوان !
- وكان انطوان قد استنفذ جهده في كشف هذا الاشتراك بالذنب المعقد الذي كان يشعر ان أخاه سجينه . وسأل :
- ألا تريد ان تقول لي ما الذي أمسكك ؟ أو ايضاً ، أذت نفسك ألا تعرف شيئاً ؟
- فتمتم جاك خافضاً رأسه :
- هناك ... رسوم اجبروني على توقيعها .
- وتردد ، وسكت ، ثم قال فجأة :
- ولكن ليس هذا فقط .. لا يمكن قول شيء للسيد فاييسم لانه المدير ، أتفهم ؟
- كانت اللهجة تعبة ولكنها صادقة . ولم يلحّ انطوان ؛ كان يحذر من نفسه ، ويعلم ان لديه ميلاً ليعرف الكثير ، وبسرعة . وقال :
- على الأقل ، هل تدرس جيداً ؟
- وكانا قد وصلا إلى مرأى السد بالقرب من الزوارق ، حيث النوافذ الصغيرة كانت مضاءة . واستمر جاك في السير ، وعيناه في الأرض . وردد انطوان :
- إذن ، والدرس ايضاً لا يسير سيراً حسناً ؟
- فأشار جاك نفياً دون ان يرفع رأسه .
- ومع ذلك فالمدير يؤكد ان استاذك مسرور منك .
- لأن الاستاذ قال له ذلك .
- ولكن لماذا يقول ذلك لو لم يكن صحيحاً ؟
- وبدا جاك انه يتابع هذه الاسئلة يجهد ، وقال باسترخاء :
- أنت تعلم ، انه هو الاستاذ . وهو هرم لا يطلب إلا ان اشتغل . وهو يأتي إلى هناك لأنه قيل له ان يأتي ، هذا كل شيء . ويعرف جيداً ان احداً لن

يتحقق من ذلك . وهو ايضاً يجب ألا يكون لديه فروض ليصلحها . كان يبقى ساعة ، وتحدث ، وهو لطيف جداً معي . يحدثني عن كومبيانيه ، وعن تلامذته ، وعن كل شيء ... وهو ليس سعيداً ابداً .. يحدثني عن ابنته المصابة بامراض في بطنها ، وانه يتشاجر مع زوجته .. لأنه تزوج من جديد ، وعن ولده معاون الضابط الذي ازلت رتبته بسبب استدانته من امينة صندوق ... انه يتظاهر بالانكباب على الدفاتر والدروس ، ولكن الصحيح انه لا يفعل شيئاً .

وصمت . ولم يجد انطوان ما يجيب به . وشعر بالحجل تقريباً أمام هذا الولد الذي قاسى هذه التجربة في الحياة .. ومع ذلك فلم يكن لديه ما يسأله . وكان الولد قد عاد إلى الكلام من تلقاء نفسه ، وبصوت رتيب ومنخفض ، دون ان يستطيع فهم تألف أفكاره في هذا التشوش ، ولا حتى ما يدفعه فجأة إلى هذه الاستفاضة بعد ذلك التحفظ العنيد .

— انت تعلم ان الماء يحمر لونه بسبب الفيضان .. وقد تركه لهم ، اتفهم ؟ وكان الأب ليون قد طلب ذلك مني في البدء ؛ وانا لم أكن اهتم ، لأنني احب ماء الوعاء اكثر منه .. اما ما يزعجني فهو انهم يطوفون في الرواق كل الوقت . وخطواتهم لا تسمع بسبب احذيتهم النسيجية . وكانوا احياناً يخيفونني . كلا ، لا لأنني اخاف ، بل على الخصوص لأنني لا استطيع ان آتي بحركة دون ان يروني ، ودون ان يسمعونني .. دائماً وحدي وبالحقيقة لست وحدي ابداً كما ترى ، لا في الزمة ، ولا في أي مكان ! وليس هذا بشيء ، واعلم ذلك ، ولكن ليس لديك فكرة عن التأثير الذي يحدثه ذلك مع طول المدة ، كأنك على وشك ان تصاب بأذى .. وهناك أيام كنت أريد فيها الاختباء تحت السرير لأبكي ، ولكن لأبكي « دون ان يروني » ، اتفهم ؟ أما مجيئك هذا الصباح : فقد اخبروني في الكنيسة ، وارسل المدير امين سره ليتفقد هيتي ، وجسيء لي بمعطفي ، وكذلك قبعتي ، لأنني كنت عاري الرأس .. أوه ! لا تعتقد انهم فعلوا ذلك ليخدعوك يا انطوان .. كلا ، ابداً : انها العادة . وهكذا ، نهار الاثنين ، أول

يوم اثنين في الشهر ، حين يأتي ابي لحضور المجلس ، يفعلون دائماً اشياء كهذه ، تفاهات ، ليكون والدي مسروراً .. وكذلك البياضات : ان ما رأيته هذا الصباح بياضات بيضاء موجودة دائماً في خزانتي لترتيب الغرفة إذا جاء أحد .. اوه ! ولا يعني ذلك انهم يتركونني ببياضات قذرة ، كلا ، فهم يبدلوها في اغلب الاحيان ، وحتى لو طلبت منشفة نظيفة زيادة على ما عندي لأعطيني إياها . ولكنها العادة ، لكي يستلفت ذلك النظر حين يدخل المرء .

انا مخطيء بسردي عليك كل هذا يا انطوان ، وستعتقد ايضاً بوجود اشياء ليست موجودة . اؤكد لك انني لا اشكو من شيء ، وان النظام سهل جداً معي ، وانهم لا يفعلون شيئاً لا استلطفه ، بالعكس . ولكن هذه السهولة ذاتها ، اتفهم ؟ ثم لا شيء هناك عمله ! فأنا مربوط هناك طول النهار ، ولا شيء ، لا شيء عمله ابداً ! وفي اول الأمر بدت لي الساعات طويلة ، طويلة ، ليس لديك فكرة عن طولها ؛ ثم كسرت البرغي الذي ادير ساعتي بواسطته ، ومنذ ذلك الوقت صار ذلك افضل ، واعتدت عليه شيئاً فشيئاً . ولكنني لا اعرف كيف اقول ، كأني انا في اعماق نفسي ، في الأعماق .. ولا انا لم بالحقيقة ما دمت كأنني كنت دائماً . وهذا متعب مهما كان الأمر اتفهم .

وصمت لحظة ، وتابع بصوت مهتز ، وقد زاد تردده :

- ثم اني لا أستطيع ان اقول لك كل شيء يا انطوان .. ولكنك تعرف جيداً .. فحين يكون المرء وحيداً هكذا ينتهي الى أن يصبح لديه كدسة من الأفكار التي يجب ألا تكون . وخصوصاً ان ... حكايات الأب ليون ، وأنت تعلم .. والرسوم .. حسناً ، في الأساس هي ألهمية الى حد ما ، أتفهم ؟ وقد صنعت منها مقدماً .. وفي الليل أعيد التفكير بها .. وانا اعرف عدم لزوم ذلك .. ولكن ، وانا وحدي ، اتفهم ؟ دائماً وحدي .. اوه ! انا مخطيء بقول ذلك .. وأشعر اني مأسف عليه .. ولكنني تعب جداً هذا المساء . ولا استطيع ان امتلك نفسي .

واخذ فجأة يبكي بشدة .

كان يشعر باضطراب نفسي غريب ؛ ويخيل اليه انه يكذب رغمًا عنه ، وانه كلما اكثر من محاولة قول الحقيقة يقل توصله اليها . الا ان لاشيء مما سرده كان غير صحيح ! ولكن بالنبرة ، وزيادة اضطرابه ، وباختيار ما أقرّ به ، كان يشعر انه يعرض من حياته صورة محرّفة قليلا - وانه لم يستطع ان يفعل غير ذلك . ولم يتقدما ابدأ ؛ فقد ظل امامها نصف المرحلة يجب اجتيازه . والساعة بلغت الخامسة والنصف ، والنهار لا يزال منيرًا : وكان بخار يتصاعد من النهر وينتشر على الحقول ويغطيها .

وكان انطوان ، وهو يسند الصغير الذي يتعثر ، يفكر بكل قواه ، لا بما عليه ان يفعله ؛ فقد كان مصممًا : انتزاع الولد من هنا ! ولكنه كان يبحث عن وسيلة للحصول على موافقته . ولم يكن ذلك سهلاً . وعند الكلمات الاولى تعلق جاك بذراعه منتحبًا ، مذكراً إياه بأنه اقسم ألا يقول لأحد ، وألا يفعل شيئًا . - ولكن كلا يا صغيري ، لقد اقسمت على ذلك ، ولن افعل شيئًا ضد إرادتك . فقط ، اصغ إلي . هذه الوحدة الاخلاقية ، هذا الكسل ، وهذه الفوضى ! انا الذي كنت اظن هذا الصباح انك سعيد ! - ولكنني سعيد .

لقد امّحى كل ما كان يشكو منه في لحظة : انه لا يعيش سوى النواحي الجيدة من عزله ، البطالة ، غياب المراقبة ، ابتعاد اهله . - سعيد؟ لو كنت سعيداً لكان في ذلك ما يخجل ! انت ! كلا يا صغيري ، كلا ، لا استطيع الاعتقاد انك ترضى ان تتعفن في الداخل . انك تذل ، وتحرق ؛ لقد دام هذا طويلا . وقد وعدتك بانى لا افعل شيئاً الا بموافقتك ، وسأفي بوعدى . كن مطمئناً ؛ ولكن فكر ، لتواجه الامور ببرود ، انت وانا ، كصديقين ... ألسنا صديقين الآن ؟

- نعم .

- اتشقى بي ؟

- نعم .

أذن ؟ مم تخاف ؟

- لا اريد العودة الى باريس .

- ولكن لئلا صغيري ، بعد اللوحة التي رسمتها لي عن حياتك هنا فان حياة العائلة لا يمكن ان تكون اسوأ .
- اوه ! بلى .

امام هذه الصرخة صمت انطوان مرهقاً .

وازدادت حيرته . وكان يردد « اسم الله » دون ان يستطيع التفكير بشيء . واستمع لها الوقت . وكان يخيل اليه انه يمشي في الظلمات . وفجأة تمزق القناع ، وأمسك بالحل ! وفي هنية تجهزت الخطوة في رأسه . وضعك ، وهتف :

- اصغ الي يا جاك . لا تقاطعني ! او بالاحرى أجب : لو وجدنا في الدنيا وحدنا ، انت وانا ، الا تريد المجيء الى جانبي وتعيش معي ؟
ولم يفهم الولد حالاً . واخيراً قال :

- آه ! يا انطوان . كيف تريد ؟ فهناك ابي .

كان الوالد ينتصب معترضاً المستقبل . وساورتها فكرة : « كيف يترتب كل شيء ، وفجأة... » وخجل انطوان من فكرته الخاصة منذ ان فاجأ انعكاس نظرة اخيه ؛ فلفت عينه . وقال جاك :

- آه ! بالتأكيد . لو استطعت ان اكون معك ، معك وحدك ، فسوف اصبح انساناً آخر ! ولكنك درست ، وسوف ادرس ، وربما اصبحت شاعراً... شاعراً حقيقياً .

فأوقفه انطوان بآشارة :

- اسمع : عاهدتك بأن لا يهتم احد بك سواي فهل ترضى بالخروج من هنا ؟
- نعم .

قالها بدافع المودة ورضي حتى لا يعاكس اخاه .
- ولكن اتعهد بأن تتركني انظم حياتك ودروسك ، وراقبك بكل شيء

كأنك ولدي ؟

- نعم .

- حسناً .

قال انطوان ذلك وسكت ، كان يفكر . كانت رغباته آمرة دائماً فلا يشك ابداً بتنفيذها ؛ وبالفعل فقد قاد الى النهاية حتى الآن كل ما اراده بعناد وتصلب . والتفت نحو اخيه الصغير وابتمس ، وقال دون ان يكف عن الابتسام ، ولكن بصوت حازم :

- اني لا احلم . واعرف بماذا أتعهد . قبل خمسة عشر يوماً ، اتسممني ؟ قبل خمسة عشر يوماً ، وثق بذلك ، ستعود الى بيتك بشجاعة دون ان يبدو عليك شيء . قبل خمسة عشرة يوماً ، واقسم لك ، ستصبح حراً . وجاك ، بدون ان يسمع جيداً ، التصق بانطوان وبشبهة فجائية للحنو ؛ وكان يريد ان يحنم بقربه ويظل هناك طويلاً دون ان يتحرك ، في دفء جسده الاخوي .

وردد انطوان : ثقي بي .

وشعر هو نفسه بالانتعاش ، وكأنه قد اصبح نبيلاً ؛ وشعر بالسرور لوجوده الآن فرحاً قوياً . وقارن حياته بحياة جاك : « شخص مسكين تحدث له دائماً امور لا تحدث لأحد » وكان يريد ان يقول : « امور لم تحدث لي ابداً » . كان يرثي له ، ولكنه كان يشعر على الخصوص بتمعة شديدة جداً لكونه انطوان ، ذلك الانطوان المتزن ، المنظم جيداً ليكون سعيداً ، ليصبح رجلاً عظيماً ، طبيباً كبيراً ! كان راغباً في زيادة سرعة سيره ، وان يصفر بمرح ، ولكن جاك كان يحرس ساقه ، ويبدو منهوكة . ومع ذلك فقد وصلا الى كروي . وتم أيضاً مرة اخرى ضاغطاً على ذراع جاك تحت ذراعة : ثقي بي .

كان السيد هاييسم يدخن سكاراً امام المدخل . وقد رأهما من بعيد فأخذ يقفز نحوهما .

- حسناً . آمل ! يا لها من نزهة ! يبدو لي انكما رأيتما كومبيانيه . - وكان

يضحك على هواه ويرفع ذراعيه - على ضفاف الماء ؟ آه ! يا له من طريق جميل !
ويا لها من بلاد جميلة ، بلادنا ، اليس صحيحاً ؟ - وسحب ساعته - لا لا أوجه
الك امرأ يا دكتور ، ولكن اذا اردت الا يفوتك قطارك من جديد ...
فقال انطوان : اني ذاهب .

والتفت نحو أخيه وقال بصوت متأثر : إلى اللقاء يا جاك .
وهبط الليل . وشاهد على نور خفيف وجهاً مستسلماً وجفوناً مسبلة ، ونظرة
نحو الأرض . وكرر : إلى اللقاء .
كان ارتير ينتظر في الباحة . واراد جاك ان يستأذن المدير ، ولكن السيد
فايسم ادار له ظهره : ودفع هو نفسه ، ككل مساء ، مصاريع البوابة .
وخلال نباح الكلب سمع جاك صوت ارتير :
- ايه ، الا تأتي ؟

فتبعه . وبلغ حجرته وقد خف ما به . كان كرسي انطوان هناك بقرب
المنضدة . وكانت محبة أخيه الأكبر لا تزال تشمله . وارتدى ثياب الشغل ،
وكان جسده تعباً ولكن الدماغ نشيط ؛ لقد كان فيه ، عدا جاك كل الأيام ،
كائن آخر غير مادي ، ولد اليوم ، وكان يتطلع إلى الآخر الذي يسيطر عليه
وهو يعمل .

لم يستطع ان يظل جالساً فاخذ يدور في الغرفة . لقد ابقته واقفاً عاطفة
جديدة وقوية : الوعي بالقوة . وكان قد اقترب من الباب ، وبقي هناك ،
جبهته على الزجاج ، والعين محدقة بقنديل الرواق المقفر . وكان جو ناقل الحرارة
الخانق يزيد من تعبته . كان شبه نائم . وفجأة انتصب ظل من ناحية الزجاج
الآخرى ، وفتح الباب المقفل : كان ارتير يحمل الطعام .

- هيا ، اسرع ايها الوغد الصغير !

وقبل ان يبدأ جاك بالعدس اخذ عن الطبق قطعة الجبن وطاسة الماء الاحمر
اللون . وقال الغلام : اهذا لي ؟

وابتسم ، واخذ قطعة الجبن واخذ يأكلها بالقرب من الخزانة لئلا يروه من

الباب . انها الساعة التي ياتي فيها السيد فاييسم منتعلاً الخف ، قبل عشائه ،
ليقوم بدورة في الرواق . وفي اغلب الأحيان لايفطنون لزيارته إلا بعد مروره ،
وذلك من رائحة سيكاره المقرفة التي تنفذ من شبكة الكوة .

واكل جاك خبزه غامساً كسرات كبيرة في ماء العدس الاسود . وحين انتهى
قال ارتير : والآن إلى السرير .

— ولكن الساعة لم تبلغ الثامنة .

— هيا اسرع . انه نهار الأحد والرفاق ينتظرونني .

فلم يجب جاك بشيء واخذ في خلع ملابسه . وكان ارتير ينظر اليه ويداه
في جيوبه . لقد كان في هذا الوجه الوحشي قليلاً وفي هذا الجسم الربعة لحال
اشقر ، شيء عذب . وقال متمثلاً :

— الاخ . انه رجل ساذج يعرف ان يعيش .

واتى بحركة ادخل فيها قطعة في جيبه ، وابتمس ، واخذ الطبق فارغاً
وخرج . وحين عاد كان جاك في سريره .

— انمت الآن ؟

ودفع الغلام بطرف اصابعه الحذاء تحت منضدة الزينة .

— قل اذن ، الا تستطيع ان ترتب امتعتك قليلاً قبل ان تنام ؟

واقترب من السرير قائلاً : اتسمع ايها الخبيث الصغير ؟

ثم اسند يديه الاثنتين الى كتفي جاك وضحك بشكل غريب . وشوهدت
ابتسامة مؤلمة وجه الولد شيئاً فشيئاً .

— ألا تخبئ شيئاً تحت الحدة على الأقل ؟ ألا يوجد شمعة ؟ ألا يوجد كتاب ؟

ومديده تحت الشراشف . ولكن الولد تخلص بحركة لم يكن ارتير يتوقعها
ولا يستطيع ردها ، وارتمى إلى الوراء وظهره للجدار . وكانت عيناه مليئتين
بالحقد . وقال الآخر :

— اوه ، اوه ! انك سريع الغيظ هذا المساء .. — اني استطيع أن أتكلم .

وانت تعلم ...

كان يتكلم بصوت منخفض ويراقب بعينيه باب الرواق . ثم بدون أن يلقي انتباهاً لجاك أولع القنديل الذي يظل مضاءً طوال الليل لأجل المراقبة وأفضل عاكس التيار بالمفتاح العمومي ، وخرج وهو يصفر صفيراً خفيفاً .

وسمع جاك المفتاح يدور مرتين في القفل ، وابتعد الرجل جاراً على البلاط نعليه المنسوجين من الحبال . وعندئذ عاد إلى وسط السرير ، ومدد ساقيه وظل مستلقياً على ظهره . كانت أسنانه تصر . وفارقت رباطة الجأش . وتذكر نهاره واعترافاته ، واجتاحته رجفة غضب أعقبها خمود همة مزقه : لقد تخيل باريس ، وانطوان ، والبيت ، والمشاجرات ، والشغل ، والرقابة العائلية ... آه ! لقد اقترب الغلطة التي لا يمكن اصلاحها . وأسلم نفسه لأعدائه : « ولكن ماذا يريدون مني ، ماذا يريدون كلهم مني ؟ » وسالت دموعه ، وتعلق بالفكرة القائلة ان مشروع انطوان الغامض لن يتحقق ، وان السيد تيبو سوف يعارضه . وكان والده يبدو له كمنفذ . نعم ، كل ذلك سيحقق ، وسوف ينتهون إلى تركه براحة ، إلى تركه هنا . وهنا ، هي الوحدة ، والحذر ، والسعادة في السلام .

كان نور السريج يدور على السقف ، ويدور فوق رأسه .

هنا السلام ، والسعادة .

٤

في ضوء الدرج الخفيف التقى انطوان بسكرتير والده ، السيد شاسل ، الذي كان ينزلق بمحاذاة الجدار كالجرذ ، وحين رآه وقف مشدوه العين .

— آه ! اهذا انت ؟

لقد اخذ عن معلمه هذه الطريقة في توجيه الكلام ، وقال هامساً :

— خبر سيء ! ان تكتل الجامعيين جعل ترشيح عميد كلية الآداب في المقدمة : خمسة عشر صوتاً خسارة على الأقل ؛ ومع اصوات الحقوقيين يبلغ العدد خمسة وعشرين . ماذا ؟ هذا ما يدعونه نحساً . سيوضح لك الرئيس الأمر .

وكان يعمل سعالاً خفيفاً دون انقطاع بداعي الحجل ، ويعتقد نفسه ضحية

نزلة صدرية . وكان طول النهار يمصّ حبوباً من الكوم *Gomme* . وتابع حين رأى ان انطوان لا يجيب :

— اني ذاهب ، فأمي تقلق عليّ .

وسحب ساعته ، واصفى إليها قبل ان ينظر إلى الوقت ، ورفع طوق عنقه ، واختفى .

منذ سبع سنوات وهذا الرجل الصغير ذو النظارات هو المساعد اليومي للسيد تيبو . إلا ان انطوان لم تزد معرفته به عن أول يوم . كان يتكلم قليلاً ، بصوت منخفض ، ولا يشرح سوى افكار منتشرة ، مكدساً المترادفات . وكان يبدو شديد الدقة ، يهتم بأقل العادات . ويعيش مع أمه التي يبدو انه يسرع إلى خدمتها بشكل مؤثر . وكان حذاه يصر دائماً . واسمه الأول جول . ولكن السيد تيبو ، بداعي اعتباره لنفسه ، كان يدعو سكرتيه « السيد شاسل » . أما انطوان وجاك فقد اطلقا عليه اسم « كرة الكوم » أو « المضجر » .

دخل انطوان رأساً إلى مكتب والده الذي كان يرتب أوراقه قبل ان يذهب إلى السرير .

— آه ! أهذا انت ؟ اخبار سيئة .

فقاطعه انطوان :

— نعم ، فقد حدثني السيد شاسل .

وسحب السيد تيبو ذقنه خارج طوقه بحركة جافة . لم يكن يحب ان يُعرف ما كان يستعد لقوله . وانطوان في تلك اللحظة لم يكن يهتم بذلك ؛ كان يفكر بما جاء يعمل ، ويشعر ان الشلل يستولي عليه إلا انه وعى ذلك في الوقت المناسب وقال مهاجماً :

— وانا ايضاً احمل إليك اخباراً سيئة جداً : ان جاك لا يستطيع البقاء في كروي .

ثم استعاد نفسه وتابع دفعة واحدة :

- اني آتٍ من هناك . وقد رأيته ، وجعلته يعترف . واكتشفت اشياء
محزنة . وجئت لأكلمك . من اللازم اخراجه من هناك بأسرع ما يمكن .
وظل السيد تيبو جامداً بضع ثوان ، ولم تُدرك دهشته إلا في صوته .
- انت ؟ في كروي ؟ انت ؟ متى ؟ لماذا ؟ دون ان تخبرني ، هل انت
مجنون ؟ اوضح .

ومع ان انطوان خفف عن نفسه لاجتيازه الحاجز من اول وثبة ، إلا انه
كان منحرف المزاج وغير قادر على الكلام . وساد صمت خائق . وكان السيد
تيبو قد فتح عينيه ، إلا انها انطبقتا بهدوء كأنه مرغم . وعندئذ جلس ووضع
قبضتيه على المكتبة ، وقال مطرّقاً كل مقطع باحتفال :

- أوضح يا عزيزي . اقلت انك كنت في كروي ؟ متى ؟
اليوم .

- كيف ؟ مع من ؟

- وحدي .

- هل . هل استقبلوك ؟

- بالطبع .

- هل .. تركوك ترى اخاك ؟

- قضيت النهار كله معه . وحدي معه .

كان لأنطوان طريقة مثيرة في إرفان آخر عباراته التي كانت تسوط غضب
السيد تيبو ، ولكنها تنبئه ان هناك مجالاً ليكون متحفظاً . وصرح هذا كأنه
تثبت من عمر انطوان من رنة صوته :

- لست ولدأ . وعليك ان تدرك عدم اللياقة في إقدامك على خطوة كهذه
بدون علمي . هل كان لديك سبب خاص للذهاب إلى كروي دون ان تقول لي؟
هل كتب اخوك إليك ؟ هل دعاك ؟

- كلا . لقد ساورتني الشكوك فجأة .

- شكوك ؟ حول ماذا ؟

- ولكن حول كل شيء . حول النظام ... حول تأثير النظام الخاضع له جاك منذ تسعة اشهر .
- بالحقيقة يا عزيزي ، لقد .. لقد فاجأتني .
- وكان يتردد ويختار عبارات موزونة تناقضها يدها الكبيرتان المطبقتان وهزات رأسه إلى الأمام .
- عدم الثقة هذا ، هل هو بشأن والدك ؟
- كل الناس يمكن ان يخطئوا . والبرهان !
- البرهان ؟
- اسمع يا ابي ، لا فائدة من الغضب . اعتقد اننا كلانا نريد الشيء نفسه :
- خير جاك . وحين تعلم في أية حالة من الانحطاط وجدته فستقرر قبلي ان جاك يجب ان يترك الاصلاحية بأسرع وقت .
- هذا ، كلا .
- وبذل انطوان جهده لئلا يسمع ضحكة السيد تيبو .
- بلى يا ابي .
- قلت لك : لا !
- حين تعرف يا ابي ..
- هل تعتبرني أبله ؟ هل تفترض انني كنت انتظر معلوماتك لأعرف ما يجري في كروي ، وانا أجري ، منذ عشر سنوات ، تفتيشاً عاماً في جميع الاشهر يتبعه تقرير ؟ وحيث لا يقرر شيء قبل مناقشته أولاً في اجتماع مجلس الإدارة الذي انا رئيسه ؟
- ان ما رأيته هناك يا ابي ..
- كفى . لقد استطاع اخوك ان يلقي عليك جميع الاكاذيب التي ارادها؛ انه يحتال عليك ، اما معي فسيكون امر آخر .
- جاك لم يشك من شيء .
- حسناً ، إذن ؟

- بالعكس ، وهذا اخطر ما في الأمر : لقد قال انه مرتاح البال ، وقال ايضاً انه سعيد ، وانه راض هناك .

وحين اسمعه السيد تيبو ضحكة راضية قال انطوان بلهجة جارحة :
- ان للصغير المسكين ذكريات عن حياة العائلة تجعله يفضل سجنه .
ولم تصب الاهانة هدفها .

- حسناً . هذا جيد ، ونحن متفقان . ماذا تريد غير ذلك ؟

لم يكن انطوان متأكداً من الحصول على حرية جاك ليكشف للسيد تيبو كل ما عرفه من اعترافات الولد ؛ وعزم على الاقتصار على شكاوى عامة واخفاء الباقي . وبدأ بان القى على السيد تيبو نظرة منتبهة .

- اريد ان اقول لك الحقيقة يا ابي . كنت ارتاب بوجود حرمان ، ومعاملة سيئة ، وسجون هناك . نعم انا اعلم ان لا شيء من هذا له اساس لحسن الحظ ، ولكني تأكدت من وجود بؤس اخلاقي في حياة جاك اسوأ بمئة مرة . انهم يخذعونك حين يقولون لك ان العزلة تفيده . فالدواء اشد خطراً من الداء . وايامه تنتقضي في بطالة مفسدة . واستاذة ، دعنا من الكلام عنه : الحقيقة ان جاك لا يفعل شيئاً . وبدأ ظاهراً ان ذكاه اصبح غير قادر على بذل اقل جهد . وإطالة أمد التجربة ، صدقني ، تعني تعريض المستقبل للخطر . لقد سقط في حالة من اللامبالاة ، واصبح من الضعف بحيث لو ظل عدة اشهر ايضاً في هذا الخمود لأصبح الوقت متأخراً في اعادة العافية اليه .

لم يرفع انطوان نظره عن والده ؛ وكان يبدو انه يرمي بكل ثقل نظره على ذلك الوجه الجامد ليجري فيه ألق الرضا . والسيد تيبو المنكمش على نفسه كان يحتفظ بجمود ثقيل ! انه يبعث على التفكير بالحيوانات السميكة الجلد التي تبقى قوتها مخبأة ما دامت في حالة الراحة ؛ وكان له من الفيل الاذنان العريضتان المسطحتان ، والعين المحتالة ايضاً . وقد طمأنه دفاع انطوان . فقد حدثت في الماضي بعض الفضائح في المؤسسة ، بعض المراقبين الذين وجب تسريحهم دون افشاء اسباب طردهم . وكان السيد تيبو خائفاً للحظة ان تكون

افشاءات انطوان من هذا النوع ؛ وتنفس الصعداء ، وقال بهينة مفرطة
بالبسطة :

— أعتقد انك اخبرتني شيئاً ؟ ان كل ما قلته يكسب كرم نفسك شرفاً
يا عزيزي : ولكن اسمح لي ان اقول لك بكل وعي ان هذه القضايا عن الاصلاح
معقدة جداً . وان الطاقات لا ترتجل في هذه المواد بين اليوم والغد . آمن
بتجربتي وبتجربة ذوي الاختصاص . وتقول : ضعف وخمود . الحمد لله ! انت
تعرف ما يساوي أخوك ؛ أعتقد ان بالامكان سحق ارادة للعمل السيء كهذه
دون اخضاعها أولاً ؟ باضعاف الولد الفاسد بمقدار ، نضعف غرائزه السيئة ،
وعندئذ يمكن الوصول إلى نتيجة : ان التطبيق العملي هو الذي يعلمنا ذلك . وانظر :
ألم يتغير أخوك ؟ انه لم يعد يفضب ؛ وهو خاضع للنظام ، مهذب مع من يقترب
منه . وانت نفسك قلت انه توصل إلى محبة النظام ، وانتظام حياته الجديدة .
هيه ! ولكن أليس هناك مجال للفخر بنتيجة كهذه ، وفي اقل من سنة ؟

كان يشد بين اصابعه المضمومة رأس لحيته ، وحين انتهى القى على ولده
نظرة منحرفة . وكان اللسان الجمهوري الصوت ، والإلقاء بحلال قد اكسبا اقل
أقواله مظهراً من القوة ؛ وكان من عادة انطوان ان يتيح لوالده فرض سلطته
عليه ، وان يضعف في دخيلة نفسه . ولكن السيد تيبو اقترف حماقة كبرياء :
— إلا اني اتساءل لماذا اهتم بالدفاع عن صلاح عقوبة لم تكن موضع بحث ولن
تكون . اني افعل ما اعتقد ان من واجبي ان افعله ، بكامل الوعي ، وليس علي
ان اقدم حساباً لأي كان ، واعتبر الامر منتهياً يا عزيزي .

— ليست هذه هي الوسيلة لإسكاتي يا ابي ! اني اكرر عليك ان جاك لا
يستطيع البقاء في كروي .

فضحك السيد تيبو من جديد ضحكة صغيرة لاذعة . وبذل انطوان جهداً
ليظل مالكا نفسه وقال :

— كلا يا ابي . ان إبقاء جاك هناك جريمة . ان فيه قيمة يجب ألا ندعها
تضيع . دعني أقول لك يا أبي : لقد كنت في الغالب مخطئاً حول طباعه : انه

يزعجك ، ولم تر

— ما هو الذي لا أراه . اننا لم نعش مرات حين هنا إلا منذ رحيله . أصبح هذا؟ حسناً ، سننظر في أمر إعادته عندما يصلح . ومن الآن حتى ذلك الوقت... وارتفعت قبضته كأنه سيسقطها بكل ثقلها ؛ ولكنه فتح يده ووضعها بهدوء مفتوحة على المكتب . وكظم غيظه . وانفجر غضب انطوان فقال :
— اتعهد لك بأن جاك لن يبقى في كروي يا ابي .

فقال السيد تيبو بنبرة هازئة :

— اوه ! اوه ! ألم تسرع في النسيان بانك لست السيد يا عزيزي ؟
— كلا . لم أنس ذلك . واني أسألك أيضاً : ماذا تنوي أن تفعل ؟
فتمتم السيد تيبو ببطء ، وابتسم ابتسامة باردة ، وفتح جفنيه لحظة :
— انا ؟ ليس في ذلك شك : أوبخ السيد فاييسم بشدة لأنه استقبلك دون إذن مني ، ومنعك الى الابد من دخول المستعمرة .
فشبك انطوان ذراعيه وقال :

— اذن ، نشراتك ومحاضراتك ! وكل أقوالك الجميلة ! في المؤتمرات ، نعم ! ولكن امام ذكاء يصاب بالثلف ، ذكاء ابن ، فليس له حساب : لا لزوم للتعقيدات ، العيش بهدوء وليحدث ما يحدث .
فصرخ السيد تيبو ووقف :

— دجال ! آه ! هذا كان يجب أن يحصل ! لقد كنت أراك تأتي منذ وقت طويل . بعض الكلمات تتفلت منك على المائدة ، « كتبك » ، « صحفك » .. برودتك في اتمام واجباتك .. لقد استقر كل شيء : اهمال المبادئ الدينية ، والفوضى الاخلاقية بعد ذلك ، والانتهاه بالتمرد .
فهز انطوان كتفيه وقال :

— يجب ألا نعقد الامور . ان الامر يتعلق بالصغير ، وهذا أمر معجل ،
عدني يا ابي ان جاك ...

— إني امنعك من التحدث عنه بعد الآن . هل الامر واضح هذه المرة ؟

وتطلعا ببعضها البعض :

— اهذه هي كلمتك الاخيرة ؟

— اذهب .

فتم انطوان مع ضحكة ملأى بالتحدي :

— آه ، يا أبي . انت لا تعرفني . اقسم لك ان جاك سيخرج من هذا السجن !

وان لا شيء ، لا شيء يوقفي .

فشى الرجل الكبير بعنف مباغت نحو ولده وهو مضموم الفك :

— اذهب .

وكان انطوان قد فتح الباب ، والتفت على العتبة ليقذف بصوت بهيم :

— لا شيء ! ولو اضطرت الى ان اقود بنفسي معركة جديدة في «صحفي» .

٥

وفي الغد ، وفي ساعة مبكرة ، كان انطوان الذي لم تغمض عيناه ينتظر في سكرستيا الاسقفية انتهاء الاب فيكار من قداسه . يجب أن يعرف الكاهن بكل شيء ويستطيع التدخل . ولم يكن لجاك حظ آخر .

كان الحديث طويلاً . وكان الكاهن قد اجلس الشاب قريباً منه ، كما في عملية اعتراف . وكان يصغي اليه بجميع حواسه ، نصفه الاعلى إلى الورا ، والرأس منحني على الكتف الايسر حسب عادته . ولم يقاطعه مرة . اما وجهه الذي لا لون له ، ذو الانف الطويل ، فلم يكن معبراً ابداً . ولكن بين لحظة وأخرى كان يلقي على انطوان نظرة عذبة ، ملحة ، تحاول فهم ما وراء الكلام . ومع ان اختلاطه بأنطوان كان أقل من اختلاطه باعضاء العائلة الآخرين ، فقد كان يظهر له اعتباراً خاصاً ؛ والمؤثر في ذلك هو انه كان متأثراً بالسيد تيبو الذي كان زهوه حساساً جداً بنجاحات انطوان ، وكان يسر بإطراء ولده .

لم يحاول انطوان ان يقنع الكاهن ببراهين ماهرة ؛ بل سرد عليه القصة المفصلة للنهار الذي قضاه في كروي والذي انتهى بالمشادة مع والده ، حيث

لامه الكاهن بسببها دون أن يقول كلمة ، بل بحركة باليد ذات دلالة ، اذ أبقاها مرفوعتين على علو الصدر - يدا حبر . وسقط معصاها المستديران باسترخاء ، وبدون أن يغيرا مكانها انتعشا فجأة كأن الطبيعة احتفظت لهما بخاصة التعبير هذه ، ورفضت هذه الخاصة للوجه . وختم انطوان كلامه :

— ان مصير جاك الآن بين يديك يا سيدي الأب ، فأنت وحدك تستطيع ان تقود والدي الى الصواب .

ولم يجب الكاهن ، ولفت نحو انطوان نظراً كثير العبوس ، كثير الذهول ، بحيث لم يعرف الشاب بماذا يفكر . وعندئذ شعر بضعفه ، وبالصعوبات التي لا يمكن التغلب عليها لما شرع به . وقال الاب بلطف : وبعد ؟

— افترض ان أباك استدعى جاك الى باريس ، ماذا سيفعل به بعد ذلك ؟
فاضطرب انطوان . لقد كان لديه مشروعه ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يعرضه ، ما دام يبدو من الصعب قبول الكاهن بالمبدأ : ترك البيت العائلي ، والسكن مع جاك في الطابق الأرضي من منزلها ؛ وإنقاذ الولد نهائياً تقريباً من السلطة الأبوية ؛ وأن يقوم هو وحده بتربيته ، ومراقبة عمله ، والسهر على سلوك أخيه الصغير . هذه المرة لم يستطع الكاهن أن يمنع نفسه من الابتسام ، ولكن ابتسامته كانت دون سخرية :

— بهذا ستقوم بأعباء مهمة ثقيلة جداً يا صديقي .
فقال انطوان بجرارة :

— آه ! انا مقتنع تمام الاقتناع ان هذا الصغير بحاجة الى حرية كبيرة جداً !
وانه لن ينمو أبداً في حالة الضغط ! إهزأ مني يا سيدي الاب ولكنني أظل مقتنعاً انني لو كنت حقيقة وحدي مهتماً به .

ولم يحصل هن الكاهن إلا على هزة رأس جديدة متبوعة بإحدى نظراته الثابتة النافذة التي تبدوا انها آتية من مكان بعيد جداً وتنفذ مقدماً . وذهب بائساً : فبعد رفض أبيه العنيف ، فان استقبال الكاهن المتراخي لم يترك له أي

أمل . وكان سيصاب بالدهشة لو علم ان الكاهن ضمم على الذهاب في اليوم نفسه الى السيد تيبو .

لم يكن عليه أن يزعم نفسه .

فحين عاد إلى البيت كما كان يفعل كل صباح بعد القداس ، ليشرب فنجاناً من الحليب البارد في الشقة التي يشغلها مع أخته على بعد خطوتين من الاسقفية ، شاهد السيد تيبو الذي كان ينتظره في قاعة الطعام . وكان الرجل الكبير مسترخياً على كرسي ، ويداه على فخذه ، ولا يزال كاظمًا غيظه . ووصول الأب جعله ينهض . وقال :

— ها انت أتيت . اتفاجئك زيارتي ؟

فأجاب الكاهن :

— ليس بقدر ما تفترض .

بين لحظة واخرى كانت ابتسامة خفية ، أو ألقى ماكر من النظرة يضيء وجهه الهادئ . وأضاف وهو يقترب من الطاسة التي تنتظره على الطاولة :

— ان شرطي مكونة بشكل جيد : فأنا على علم بكل شيء . أسمح ؟

— على علم ؟ هل رأيت قبلاً ؟

كان الاب يشرب حليبه بجرعات صغيرة :

— عرفت منذ البارحة حالة أستيه Astier من الدوقة . ولكنني لم أعلم بتراجع

خصلك سوى البارحة .

— حالة أستيه ! هل ؟ لا أفهم . لا أعرف شيئاً .

فقال الكاهن :

— غير ممكن . هل احتفظ لي بلذة إبلاغك الخبر السار ؟ — وسكت لحظة —

حسناً ، ان الأب الهرم أستيه قد تعرض لهجوم رابع: لقد ضاع الرجل المسكين هذه المرة . وعدهدئذ ، فالعميد ليس بالأبله ، وسينسحب ويتركك وحدك مرشحاً للعلوم الأخلاقية .

فتتم السيد تيبو :

- العميد ... ينسحب ؟ ولكن لماذا ؟

- لأنه فكر ان عميداً لكلية الآداب سيكون أفضل في مكانه في التسجيلات ،
وانه يفضل انتظار مقعد لا ينازعه عليه أحد بضعة أسابيع على الجحافة بحظه ضدك .
- أمتأكد انت من ذلك ؟

- هذا شيء رسمي . فقد التقيت بالسكرتير الدائم في اجتماع للمجمع
الكاثوليكي ، البارحة مساءً . وجاء العميد يحمل بنفسه كتاب التنازل . انه
ترشيح دام أقل من أربع وعشرين ساعة !
- ولكن ، إذن ...

دندن السيد تيبو بسرعة ، وقد بهرته المفاجأة والفرح ، فخطا بضغ خطوات
كيفما اتفق ، وذراعاه وراء ظهره ، ثم جاء إلى الكاهن وكاد يمسك بكففيه ،
ولكنه أخذ يده فقط .

- آه ! يا عزيزي الرئيس ، لن أنسى أبداً . شكراً . شكراً .

لقد دخل إلى نفسه من السرور ما طفا على كل شيء ؛ وحاد غضبه عن
الطريق إلى درجة انه اضطر إلى الاستعانة بذاكرته ليحجب حين قساده الكاهن
بدون ان ينتبه إلى مكتب عمله وسأله بنبرة طبيعية جداً :

- اذن ما الذي اتى بك في مثل هذه الساعة المبكرة يا صديقي العزيز ؟

عندئذ تذكر انطوان ، واستعاد حدثه دفعة واحدة . لقد جاء يطلب
نصيحته في السلوك الواجب اتخاذه حيال ولده البكر الذي تغير كثيراً في هذه
الافواق الاخيرة ، ويحس بأنه يعمل بروح من الشك والتمرد . هل هو مستمر
في اتمام واجباته الدينية ؟ هل يحضر قداس يوم الاحد ؟ ان ظهوره يقل اكثر
فاكثر على مائدة العائلة بحجة مرضاه ، وحين يظهر على المائدة تكون هيئته غير
ما كانت في السابق : يقف بوجه والده ، ويسمح لنفسه بحريات في الرأي
خارقة للعادة ، ان المناقشة اثناء الانتخابات البلدية الاخيرة اتخذت عدة مرات
اتجاهاً عنيفاً بحيث اضطر الى فرض الصمت عليه كأنه ولد . وبالاختصار ، اذا
أريد إبقاء انطوان في الطريق القويم فمن الضروري اتخاذ ترتيبات جديدة

بصدده ، بحيث بدت مساندة ، وربما تدخل ، الاب فيكار لاغنى عنها . وحكى السيد تيبو ، كمثل ، عن العمل المخالف للنظام ، والذي جعل من انطوان مذنباً بذهابه الى كروي ، وعن الاوهام الرعناء التي حملها من هناك ، والمشهد الذي لا يوصف الذي عقب ذلك . وفي كل مرة ، فان الاعتبار الذي يكتنه لانطوان ، والذي ازداد دون معرفته بواسطة هذه الاستقلالية التي يلومه عليها ، ظل محسوساً من خلال كلامه ؛ وقد لاحظته الكاهن .

كان جالساً باسترخاء على مكتبه ، ويعطي بين وقت وآخر اشارات استحسانية صغيرة بيديه المرفوعتين على جانبي قطعة النسيج المتدلية من عنقه . ولكن ما ان اصبح الامر يتعلق بجاك حتى رفع رأسه وتضاعف انتباهه . وبسلسلة من الاسئلة الماهرة التي لا يُدرك الرباط بينها تأكد بواسطة الاب من جميع المعلومات التي حملها اليه الابن

— ولكن .. ولكن .. ولكن ..

قال ذلك كأنه يحدث نفسه . وجمع افكاره لحظة . وكان السيد تيبو ينتظر مندهشاً . وأخيراً تناول الكاهن الكلام بعزم :

— ان ما جئتني به عن موقف انطوان لا يشغلني مثلك يا صديقي العزيز . وكان يجب أن تنتظر ذلك . فالتأثير الأول للدراسات العلمية على ذكاء مولع بالنظر الى الأشياء وهاورٍ للاستقصاء ، هو تحرك الكهرياء وزعزعة الايمان ؛ قليل من العلم يبعد عن الله ؛ والكثير يقود اليه . لا تحف . ان انطوان في السن الذي يسرع المرء فيه من طرف إلى آخر . لقد أحسنت صنعاً بإعلامي : وسأعمل بنوع ان أراه كثيراً وأتحدث معه . كل هذا ليس بالأمر الخطير ، فاصبر : انه سيعود إلينا . ولكن ما أخبرتني عن حياة جاك زاد من قلقي . كنت بعيداً عن الافتراض بأن عزلته ستكون قاسية إلى هذا الحد ! انها حياة سجين تلك التي يحياها هناك ! ولا أستطيع الاعتقاد انها دون خطر . اني أعترف يا صديقي العزيز بأنني مضطرب جداً بسببه . فهل فكرت في ذلك ؟

فابتسم السيد تيبو وقال :

— بموجب ضميري يا عزيزي الرئيس ، سأقول ما أجبته به انطوان البارحة :
هل تفترض انه ليس لدينا تجربة في هذه الأمور أفضل من أي شخص ؟
فقال الكاهن دون أية حدة :

— لا أنكر ذلك . ولكن الاولاد الذين اعتدتم على رعايتهم لا يحتاجون
كلهم الإدارة التي يحتاجها المزاج الخاص لولدك . ونظامهم يختلف ، إذا كنت
فهمت جيداً ، لأنهم يعيشون معاً ، ولهم ساعات تنفس ، ويتمرنون على أشغال
يدوية . وكنت ، كما تذكر ، ميتالاً إلى إنزال عقوبة قاسية بجاك ، وتلك الصورة
لعقوبة العزلة بدت لي حسنة للحمل على التفكير ، وعلى اصلاح نفسه . ولكن ،
يا للشيطان ، لم أفكر مطلقاً بأن ذلك سيكون سجيناً حقيقياً ، ولا انه سيفرض
لوقت طويل . فكثر بذلك ! منذ تسعة أشهر ، ولد لا يكاد يبلغ الخامسة
عشرة ، وحيد في زنزانه ، تحت مراقبة حارس غير متعلم ، ولا تملك عن شرفه
سوى معلومات رسمية . انه يتلقى بعض الدروس ، ليكن ؛ ولكن ذلك
الأستاذ من كومبيانيه ، والذي يخصص له ثلاث أو أربع ساعات بالأسبوع كله ،
ما قيمته ؟ لا تعرف شيئاً عنه . ومن ناحية أخرى تحتج بتجربتك . فاسمح لي
بالتذكير انني عشت اثنتي عشرة سنة مع الطلاب وانني لا أجعل أبداً ما هو
غلام في الخامسة عشرة من سنه . ان حالة التلف الجسدي ، وخصوصاً الأخلاقي ،
التي يمكن أن ينحدر إليها هذا الصغير المسكين ، تبعث على الارتعاش ، دون أن
يبدو ذلك لعينيك !

فأجاب السيد تيبو :

— انت أيضاً ؟

وأضاف بضحكة صغيرة جافة :

— كنت أظنك ذا روح أكثر متانة . ومع ذلك فالأمر الآن لا يتعلق بجاك .

فقاطعه الكاهن دون أن يرفع صوته :

— في نظري ، لا يمكن للأمر ان يتعلق بشيء آخر . اني اعتبر ، بعد الذي

عرفته ، ان الصحة الجسدية والأخلاقية لهذا الولد تتعرض لأشد الأخطار .

وبدا مفكراً ثم قال بسرعة :

— وانه يجب ألا يبقى يوماً واحداً هناك حيث هو .

فقال الآخر : ماذا ؟

وساد صمت . لقد كانت المرة الثانية التي يُضرب فيها السيد تيبو على النقطة الحساسة . واجتاحه الغضب ولكنه ملك نفسه ، وقال بحياء وهو يقف :
— سنتكلم في ذلك .

فقال الآخر بحجوية غير منتظرة :

— عفواً ، عفواً ان أقل ما يمكن قوله هو انك تصرفت بعدم تبصر ..
مذنب تماماً .

كان له أسلوبه الثابت العذب في مد صوته على بعض الكلمات دون أن ينتعش وجهه ، وفي إيقاف سبابته في الوقت نفسه أمام شفتيه كأنه يقول :
انتبه : وهذا ما فعله حين ردد : « مذنب تماماً » . ثم قال بعد وقفة :
— المقصود اصلاح الأذى في أقرب وقت ممكن .

فصرخ السيد تيبو الذي لم يستطع امتلاك نفسه هذه المرة :
— ماذا ؟ ماذا تريد مني ؟

وأدار نحو الكاهن انفاً هجوماً وقال :

— أأقطع دون سبب علاجاً اعطى نتائج ممتازة فيما مضى ؟ أأعيد ذلك الشقي إلى بيتي لأكون من جديد تحت رحمة جنونه ؟ شكراً !
وشنج قبضتيه الى درجة فرقة مفاصلها . وفكه المضموم جعل له صوتاً أبح :

— أقول بكل ضمير مرتاح : كلا ، كلا ، كلا !

وبحركة هادئة من يديه بدا الكاهن انه يقول : كما تشاء .

وكان السيد تيبو قد نهض بوثبة . وكان مصير جاك قد تقرر مرة أخرى .
وقال :

— أيها الأب العزيز . أرى انه ليس لدي ما أتحدث عنه جدياً معك هذا

الصباح ، وأنا ذاهب . ولكن دعني أقول لك انك ركبت الخيالة كأنطوان لا أكثر ولا أقل . فهل تدل هيتي على أب خال من العواطف الطبيعية ؟ ألم أفعل كل شيء لأوصل هذا الولد إلى الخير بواسطة المحبة ، والتساهل ، والمثل الصالح ، وتأثير الحياة العائلية ؟ ألم أحتمل منه طوال سنوات كل ما يستطيع والد احتماله من ولده ؟ أتتكر ان كل حسناقي ظلت دون نتيجة ؟ من حسن الحظ انني أدركت في الوقت المناسب ان واجبي كان شيئاً آخر ، ومهما بدا لي مؤلماً ، فلما لم أتردد في العقاب . وقد استصوبت رأيي آنذاك . وكان الله قد منحني بعض التجربة . وكنت دائماً افكر أن العناية الإلهية ، بإيحائها إلي فكرة تأسيس ذلك البيت الخاص في كروي ، أتاحت لي تهيئة الدواء لشخص سيء . ألم أعرف أن أتقبل هذه التجربة بشجاعة ؟ وهل يتصرف كثير من الآباء مثلي ؟ وهل لدي ما ألوم نفسي عليه ؟ ان ضميري مرتاح بمحمد الله .

قال ذلك مؤكداً ، بينما كان احتجاج مبهم يخفي صوته قليلاً :

— أتمنى لجميع الآباء أن يكون ضميرهم مرتاحاً مثلي ! وهنا ، فأنا ذاهب .

وفتح الباب : وظهرت ابتسامة كافية على وجهه ، واتخذت لهجته لحناً سائراً لم يكن دون طعم ويشعر برائحة الحقل النورماندي . وقال :

— من حسن الحظ ان رأسي أكثر متانة من رؤوسكم جميعاً .

واجتاز الدهليز يتبعه الكاهن صامتاً . وحين أصبح على سطح الدرج قال بخلوص نية :

— هيا ، إلى اللقاء يا عزيزي .

والتفت ليصافح باليد حين بدأ الكاهن بصوت مفكر ، وفجأة ، بدون استهلال :

— صعد رجلان إلى الهيكل للصلاة . أحدهما كان فريسيًا والآخر عشقاراً . فالفريسي ظل واقفاً وتلا هذه الصلاة في نفسه : « يا إلهي ، أشكرك لأنني لست كبقية الرجال . أصوم مرتين بالاسبوع واوزع عشر اموالي على الفقراء » . أما العشقار ، من ناحيته ، فقد انتحى جانباً ولم يجرؤ على رفع عينيه نحو السماء ،

ولكنه كان يضرب على صدره قائلاً : « ارحمني يا إلهي لأنني لست سوى خاطيء » .
وفتح السيد تيبو جفونه فرأى مرشده واقفاً في ظلام الدهليز رافعاً سبابته
إلى شفتيه :

« أوكد لكم ان هذا سينال البراءة وليس الآخر : لأن من يرتفع يذل ،
ومن يذل يرتفع » .

وتلقى الرجل الكبير الصدمة دون ان يحرك حاجبيه ؛ وظل جامداً وعيناه
مطبقتان . وحين طال السكوت جازف بنظرة ثانية ؛ كان الكاهن قد دفع
المصراع دون ضجة ، ووجد السيد تيبو نفسه وحيداً أمام الباب المغلق ، فهز
كفيه ودار على نفسه وذهب . ولكنه وقف في منتصف الطابق . كانت يده
تشد على الدرابزين ؛ وكان تنفسه قصيراً ؛ ومد ذقنه إلى الأمام كحصان يتعجل
الكأمة ، وتمتم : كلا . وعاد إلى بيته دون ان يزيد من تردده .

وسعى جاهداً طول النهار لينسى ما جرى . ولكنه في فترة ما بعد الظهر ،
وحين تأخر السيد شاسل في اعطائه ملفاً كان بحاجة إليه ، أحس بفورة فجائية
بذل جهداً لكبحها . كان انطوان في الخدمة في المستشفى . وكان العشاء صامتاً .
وبدون أن ينتظر انتهاء جيزيل من طعامها ، طوى السيد تيبو منشفته وسار
إلى مكتبه . ودقت الساعة الثامنة ، فقال مفكراً وهو يجلس ، عازماً على ألا
يفعل شيئاً :

– لا يزال لدي الوقت الكافي لأعود هذا المساء إلى هناك . وسوف يحدثني
عن جاك من جديد . وقد قلت كلا يعني كلا .
وتساءل للمرة المئة :

– ولكن ما الذي أراد أن يقوله بحكايته عن الفريسي ؟
وفجأة ، أخذت شفته السفلى ترتجف . كان السيد تيبو يخشى الموت دائماً .
فانتصب واقفاً ، ومن فوق البرونز الذي يزحم الموقد ، بحث عن صورته في
المرآة . لقد فقدت قسبته تلك الطمأنينة الراضية التي قولبت وجهه شيئاً فشيئاً ،

والتي لم يكن يتخلى عنها أبداً ، لا في العزلة ولا في الصلاة . وهزته رعشة ، وسقط على مقدمه منخفض الكتفين . واخذ يتصور نفسه على فراش الموت ويتساءل برعب اذ كان سيمثل امامه فارغ اليدين . كان يتعلق بشكل يائس بأراء الناس فيه . وكان يردد : « ومع ذلك ، فانا رجل خير ؟ » ولكن النبوة ظلت استهامية ؛ انه لا يستطيع الاكتفاء بالكلمات حيث فحص النفس يهبط الى وحدات لم تنر أبداً بعد . وكان منحنيًا على حياته ، وقبضته متشنجتان على ذراعي مقدمه ، فلم يكتشف فيها عملاً كان نقيًا . وانبعثت من غيابة النسيان تذكارات واخيرة . وهناك احدها ، وهو اكثر إيلاماً من التذكارات الاخرى كلها ، هاجمه بدقة كثيرة العنف بحيث اخذ جبهته بين يديه . وشعر السيد تيبو بالحجل ربما للمرة الاولى في حياته . لقد عرف أخيراً هذا التقزز المتناهي من النفس ، والذي لا يحتمل بحيث ان أية تضحية لا تبدو غالية الثمن ، بشرط أن يكون فيها اعادة اعتبار ، وان يشتري العفو الالهي ، وان يعيد السلام إلى النفس الحزينة ، والامل بالسلامة الأبدية . آه ! ايجاد الله من جديد .. ولكن أولاً ايجاد اعتبار الكاهن المنتدب عن الله . نعم .. لن يعيش ساعة واحدة بعد في هذه العزلة الملعونة ، وتحت وطأة هذا التبكيت ..

وهدأه الهواء الطلق ، فأخذ عربة ليصل بسرعة . وجاء الأب فيكار يفتح له ؛ ووجهه المضاء بالقنديل الذي رفعه ليتعرف إلى الزائر كان عادم التأثير وقال السيد تيبو : هذا أنا .

ومد يده بصورة آلية ، وصمت وسار نحو غرفة الشغل ، وصرح دفعة واحدة حين جلس :

— لم أرجع لإعادة الحديث عن جاك .

وبما ان يدي الكاهن رسمتا حركة تميل إلى المصالحة قال :

— صدقي . يجب ألا نعود إلى ذلك . لقد سرت في الطريق الخطأ . ومع ذلك ، إذ قال لك قلبك أن تسير إلى كروي فسر وتأكد ، وسترى اني على

حق . — ثم قال بمزيج من العنف وسلامة النية — اغفر لي مزاجي السيء هذا الصباح . انت تعرفني . أنا حاد ... وأنا لا ولكني في اعماقي ... ذلك لأنك كنت قاسياً مع ذلك الفريسي ، وأنت تعلم ، كنت قاسياً جداً . لي الحق بالاعتراض . وها قد مضت ثلاثون سنة وأنا اعطي وقتي كله وقواي كلها للأعمال الكاثوليكية ، والأفضل من ذلك ، القسم الأكبر من دخلي . فهل أفعل كل ذلك لأسمع كاهناً ، صديقاً ، يقول لي انني ... انني لا كلا ، إعترف بأن هذا ليس عدلاً !

ونظر الكاهن إلى التائب ، وبدا أنه يقول : « ان الكبرياء تتفجر في أقل كلماتك رغماً عنك » . وتوقف طويلاً ، وتابع السيد تيبو بنبرة مضطربة : — يا عزيزي الرئيس . اني أقبل بأنني لم أكن ... جنناً ، نعم ، اني اقتنع : في اغلب الاحيان أكون ... ولكنها طبيعتي إذا صح القول ... ألا تعرف كيف أنا ؟ — كان يتسول شيئاً من التساهل — آه ! ان طريقي الخلاص صعب . انت الوحيد القادر على إقالة عثرتي وهدايتي ... لقد كبرت ، وأنا أخاف ... هكذا تتم فجأة ، وتأثر الكاهن من تبدل هذا الصوت . وشعر ان من الواجب ألا يطيل سكوته ، فأدنى مقعده وقال :

— أنا الذي أتردد الان ... ومع ذلك يا صديقي العزيز ، ماذا أقول زيادة على ذلك بعد ان دخل الكلام المقدس مسبقاً ؟ — وجمع افكاره لحظة — اني اعلم ان الله اعطاك مركزاً صعباً . وبعملك في سبيله اكتسبت السلطة على الرجال وحصلت على الشرف . ويجب ذلك ؛ ولكن كيف لا يمتزج مجده قليلاً بمجده ؟ وكيف لا تخضع لمملك الى تفضيل مجده على مجده تدريجياً ؟ اني اعلم جيداً ... كان السيد تيبو قد فتح عينيه ولم يطبقها ؛ وكانت نظراته الشاحبة تعبير خائف ، وفي الوقت نفسه طفولي ويريء . وتابع الاب :

— ولكن مع ذلك . « في سبيل مجد الرب الأعظم ^(١) » . هذا وحده المهم ،

١ - عبارة لاتينية في الاصل .

وكل ما بقي فهو غير صالح. وانت يا عزيزي من عرق الأقوياء، يعني المتكبرين. وانا اعلم كم من المزعج إبقاء هذه القوة المتكبرة في الطريق القويم ! وكم من الصعب ألا يعيش المرء لنفسه ، وان لا ينسى الله ، حتى عندما يكون منشغلاً بأعمال الخير ! وألا يكون بين أولئك الذين قال عنهم ربنا بكآبة ذات يوم : « هذا الشعب يمجدي بشفتيه ، ولكن القلب بعيد جداً عني » .

فقال السيد تيبو بحماسة دون ان يخفض رأسه :

— آه ! هذا مخيف... انا الوحيد الذي اعرف الى اية درجة هو مخيف !

وشعربسكينة لذيدة في خشوعه . وشعر بشكل مبهم انه يستطيع بذلك استمالة الكاهن ثانية دون ان يخضع لشيء حول قضية الاصلاحية . وكانت هناك قوة تدفعه لأن يزيد من مفاجأة الكاهن بعمق ايمانه ، وبعرض اريحية غير منتظرة : اغتصاب اعتباره ولا يهم بأي ثمن . وقال فجأة ، وكان لنظرته ، لفترة ، ذلك لتعبير المشؤوم الذي تتخذه عادة نظرة انطوان :

— ايها الاب الرئيس ! اذالم اكن حتى الآن سوى متكبر بائس ، الم يقدم لي الله اليوم فرصة للاصلاح ؟

وتردد ، وبدا انه يصارع نفسه . كان يصارع بالفعل . ورآه الكاهن يرسم باهامه اشارة صليب مربعة على صدرته ، مكان القلب . وتابع :

— اريد ان اقول هذا الترشيح ، افهمت ؟ فيه حقيقة تضحية ، وتضحية كبرياء ، ما دمت قد اخبرتني هذا الصباح ان الانتخاب مؤكد . حسناً ، فإني لا يزال يوجد هنا شيء من الصلف : اليس علي ان اصمت ، وان اقوم بذلك دون اتكلم عنه معك ؟ ولكن لا يهم . حسناً ايها الاب الرئيس : اني اقسم ان اسحب غدا ، والى الابد ، ترشيحي للجمع .

فاتى الكاهن باشارة من يده لم يرها السيد تيبو لانه كان يلتفت نحو المصلوب المعلق في الجدار . وتتم :

— يا الهي ! اشفق علي لأنني لست سوى خاطيء .

ووضع في هذه الحركة بقية من عجرفة لا يرتاب هو نفسه بها ؛ ان للكبرياء

جذوراً ، بحيث انه في أحر ندامة يتذوق خشوعه بتمعة مدهشة من الكبرياء .
وشمله الاب الرئيس بنظرة ثاقبة : الى اية درجة يمكن لهذا الرجل ان يكون
صادقاً ؟ الا ان وجه السيد تيبو في تلك الدقيقة كان يتألق بالزهد والافراط في
التعبد الى درجة ان انتفاخاته وغضونه لم تعد تُرى ، والى درجة انه كان لوجه
هذا الهرم طهارة وجه طفل . واضطرب الكاهن من ذلك وشعر بنجمل من
السرور الحقيق الذي انتابه في الصباح وهو يخزي العشار الكبير . وانقلبت
الادوار . واخذ يراجع حياته الخاصة . فهل ترك تلامذته بمثل تلك السرعة
واكسب في الاسقفية هذا المركز بقرب الشمس ، لمجد الله وحده ؟ الم يكن
يستخلص كل يوم مسرة شخصية محرمة وهو يمارس نعومة الدبلوماسي التي
وضعها في خدمة الكنيسة ؟

— هل تعتقد ضميراً ان الله سيعفو عني ؟

هذا الصوت القلق ذكر الاب فيكار بوظيفته كمرشد روحي . فضم يديه تحت
ذقنه ، وحنى رأسه وابتمس يجهد ، وقال :

— لقد تركتك تسير حتى النهاية . وتركتك تشرب الكأس . وانا متأكد ان
الرحمة الإلهية ستهتم بك في هذه الساعة . ولكن — وأضاف رافعاً سبابته — النية
تكفي ، وواجبك الحقيقي ليس في السير في التضحية حتى النهاية . لا تعترض .
هذا انا ، معرفك ، الذي يحلك من تعهدك . بالحقيقة ، ان تنازلك سوف يكون
اقل فائدة لمجد الله من انتخابك . ان لوضعك العائلي والمالي متطلبات لا تستطيع
تجاهلها . ولقب عضو الجمع هذا سيمنحك سلطة جديدة بين كبار الجمهوريين من
اقصى اليمين الذين هم خلاص بلادنا . ونعتبر ذلك ضرورياً للقضية الصالحة . وقد
عرفت في كل وقت ان تضع حياتك تحت وصاية الكنيسة . حسناً ، دعها مرة
اخرى تدلك على الطريق ، بواسطتي . ان الله يرفض تضحياتك يا صديقي العزيز :
مهما كان ذلك حماسياً فاقبل به . « المجد لله ! المجد لله في أعالي السموات ، والسلام
على الارض للرجال ذوي الارادة الطيبة ! » .

كان الكاهن ، وهو يتكلم ، يرى قسماً السيد تيبو تتجمع وتستعيد توازنها

القديم شيئاً فشيئاً. وعندما انتهى، كان الرجل الكبير قد اسبل جفونه من جديد، ولم يكن ممكناً قراءة ما يحول في نفسه. والكاهن، بإعادته هذا المقعد إليه، وهو قبلة نظره طوال عشرين سنة، رد إليه الحياة. ولكنه كان لا يزال مسترخياً بسبب الجهد العظيم الذي بذله حيال طبيعته، ويحتاجه شكران فوق طاقة البشر. وكان للاثنتين نفس التفكير: بدأ الكاهن، حانياً جبهته، بتلاوة صلاة أعمال الرحمة بصوت منخفض. وحين رفع رأسه كان السيد تيبو قد ركع على ركبتيه؛ ووجهه، كوجه الأعمى، المرفوع نحو السماء، كان متألقاً من الفرح، وهناك لجلجة كانت تحرك شفثيه المبللتين، وعلى المكتب يدها الشعراوان، المنتفختان كأن الزنابير قد لسعتهما، قد اشتبكت أصابعها بحمية مؤثرة. لماذا أصبح هذا المشهد الموجب القدوة فجأة لا يحتمل في عيني الكاهن؟ إلى درجة أنه لم يستطع امتلاك نفسه من أن يد ذراعه ليصطدم بالتائب؟ إلا أنه أصلح حركته حالاً ووضع يده بمودة على كتفي السيد تيبو الذي نهض بتناقل.

عندئذ قال الكاهن بتلك العذوبة الصلبة الخاصة به:

— لم يُقل كل شيء بعد. عليك أن تتخذ قراراً بموضوع جاك.

فانتصب السيد تيبو بكل جسمه. وجلس الكاهن وقال:

— لا تكن كأولئك الذين يعتقدون أنهم أبرأوا ذمتهم لأنهم واجهوا واجباً صعباً، وأهملوا الواجب الآتي، القريب جداً منهم. حتى لو كانت التجربة التي اخضعت لها هذا الولد ليست ضارة بقدر ما أخشى، فلا تطل أمدها. فكر بالخدام الذي لم يستثمر الموهبة التي عهد سيده بها إليه. هيا يا صديقي، لاتذهب من هنا قبل أن تعي مسؤوليتك كاملة.

وظل السيد تيبو واقفاً يهز رأسه، ولكن هيئته لم تكن الهيئة المكابرة نفسها. ونهض الكاهن وتتم:

— الصعوبة في أن لا يبدو الأمر خضوعاً لأنطوان.

ورأى أنه أصاب القصد. وخطا بضع خطوات وقال فجأة بنبرة طليقة:

— أتدري ما افعل لو كنت مكانك يا صديقي العزيز؟ كنت أقول له:

«أتريد ان يترك اخوك الاصلاحية ؟ نعم ؟ أتتكفل دائماً به ؟ حسناً. اني آخذك بكلمتك . اذهب بطلبه : ولكن حافظ عليه . لقد اردت ان يعود: فاهتم به . ولم يحرك السيد تيبو ساكناً ، وتابع الكاهن :

- وكنت اذهب الى أبعد من ذلك . كنت أقول له : لا اريد جاك في البيت : رتب نفسك كما يحلو لك . كنت دائماً تعتقد باننا لا نعرف كيف نعامله ، حسناً . جرب انت اذن ! ضع له اخاه على ذراعه ، ودعها يسكنان معاً في احدى النواحي - قريباً من بيتك طبعاً لكي يستطيعا تناول الطعام معك ؛ ولكن اترك لأنطوان قيادة اخيه الكاملة . لا تعاود الصراخ يا صديقي العزيز - اضاف ذلك مع ان السيد تيبو لم يأت بحركة - انتظر ، دعني انهي كلامي : ففكرتي ليست خيالية كما تبدو .

وعاد إلى مكتبه وجلس ، ومرفقاه على الطاولة ، وقال :

- تابعني جيداً :

أولاً : هناك ما يؤكد تماماً ان جاك سيحتل سلطة اخيه افضل من احتمال سلطتك . ولست بعيداً عن الظن انه ، بتمتعه بقدر كبير من الحرية ، سيكف عن ان تكون لديه روح المقاومة وخرق النظام التي عرفناها لديه في السابق .

ثانياً : اما بالنسبة لأنطوان ، فان رصانته تعطيك كل الضمانات . وإذا ارتبط بالكلام فأنا مقتنع انه لن يرفض هذه الوسيلة لانقاذ أخيه . أما فيما يتعلق بميوله المكدرة التي رثينا لها هذا الصباح ، فان سبباً صغيراً يمكن أن يكون ذا نتائج كبيرة : وأعتبر انك بفرضك عليه هذا العبء النفسي سوف تعطيه افضل قوة ادبية موازية ، وسوف تعيده دون شك الى مفهوم اقل فوضوية في المجتمع والأخلاق والدين .

ثالثاً : ان سلطتك الابوية التي تبقى هكذا بمعزل عن الاحتكاكات اليومية التي تبليها وتبعثرها ، تحتفظ بكل نفوذها لتمارس من عل على ولديك تلك القيادة العامة التي هي من نصيبها ، و .. كيف اقول ؟ فائدتها الرئيسية .

وأخيراً - وقد أصبحت النبرة مسارة - اعترف لك ان من المرغوب فيه

في لحظة انتخابك اما ان يكون جاك قد ترك كروي ، وان لا يبقى اي مجال لهذه القضية . فالشهرة تجتذب جميع انواع المقابلات والتحقيقات ؛ وستصبح عرضة لعدم تبصر الصحافة .. انا اعلم ان هذه اعتبارات ثانوية ، ولكن اخيراً ... وافلت السيد تيبو نظرة تشي بالقلق . وبدون ان يعترف لنفسه ، فان اخلاء سبيل السجين يحزر ضميره . وليس في ترتيب الكاهن سوى الفوائد لأنه ينقذ حب الذات عنده حيال انطوان ، ويعيد الى جاك وضعية نظامية دون أن يكون على السيد تيبو الاهتمام بالولد . وانتهى الى القول :
- لو كنت متأكداً من ان هذا الشقي لا يحلب الينا فضائح جديدة اذا افلت مرة اخرى .

ونجحت القضية هذه المرة .

وتعهد الكاهن بممارسة رقابة رصينة على حياة الولدين ، في الاشهر الاولى على الاقل . ثم قبل أن يأتي في الغد لتناول الطعام في شارع الجامعة ويشترك بالحديث الذي يريد الأب ان يحريه مع ولده البكر . ونهض السيد تيبو ليذهب . وسار بنفس خفيفة متجددة . الا انه حين ضغط على يدي معرفه بحمّة ، ساوره شك جديد فقال بشكل مشفق :
- ليساعني الله لكوني كما انا .

فشمله الآخر بنظرة سعيدة وتمتم :

- « من منكم ، وعنده مئة نعجة ، اذا اضاع واحدة لا يترك التسع والتسعين الأخرى في القفر ، ولا يذهب للبحث عن تلك التي أضاعها ، إلى ان يجدها ؟ » -
ورفع اصبعه بابتسامة هاربة : - « اقول لكم ان في السماء كثيراً من الفرح للخاطيء الذي يندم ... »

٦

ذات صباح ، والساعة لا تكاد تبلغ التاسعة ، فان حارسة المنزل في شارع الاوبسرفاتوار طلبت السيدة دي فوتنانان . فهناك تحت « شخص » يرغب

في رؤيتها ، ولكنه لا يريد الصعود الى الشقة ، ولا اعطاء اسمه .

— شخص ؟ امرأة ؟

— فتاة صغيرة .

وأنت مدام دي فونتنان بحركة تراجع . انها احدى مغامرات جيروم دون شك . تهديد بالتشهير .

وأضافت حارس المنزل : صغيرة جداً ! طفلة !

— انا آتية .

انها بالفعل طفلة كانت تستقر في ظل المسكن . وأخيراً رفعت رأسها .

— نيكول ؟

هتفت مدام دي فونتنان وقد عرفت ابنة نوعي بتي — ديتراي . كانت نيكول تكاد تلقى بنفسها بين ذراعي عمتها ولكنها اوقفت هذا الاندفاع . وكانت صبغتها رمادية ، والوجه مشوش . لم تكن تبكي : كانت تبقي عينيها مفتوحتين جداً ، وحاجبيها مرفوعين . وتبدو غاضبة ، حازمة ، ومالكة نفسها تماماً .

— اريد ان اكلّمك يا عمي .

— تعالي .

— ليس فوق .

— لماذا ؟

— كلا ، ليس فوق .

— ولكن لماذا ؟ انا وحدي — وادركت ان نيكول تتردد — دانيال في

المدرسة وجني في درس البيانو : اقول لك انني وحدي حتى موعد الغداء . هيا ، تعالي .

وتبعتهما نيكول دون كلام . وأدخلتها مدام دي فونتنان إلى غرفتها . ولم تستطع اخفاء حذرها فقالت :

— ما الأمر ؟ من ارسلك ؟ من أين أتيت ؟

وكانت نيكول تنظر اليها دون أن تخفض عينيها ؛ واهدأها تطرف .
- لقد هربت .

- آه !

قالت مدام دي فونتانا معبرة عن الألم . الا انها شعرت بتعزية وقالت :
- وهل اتيت الى هنا ؟

فأتت نيكول بإشارة من كتفها كأنها تقول : إلى اين اذهب ! ليس لي احد .

- اجلسي يا عزيزتي . تبدين تعبـة . أأأأ جائعة ؟
- قليلاً .

وابتسمت لتعذر .

- ولكن لماذا لم تقولي ذلك ؟

هتفت مدام دي فونتانا وهي تقود نيكول إلى غرفة الطعام . وحين رأت كيف كانت الصغيرة تقضم خبزها المدهون بالزبدة سحبت من خزانة الطعام بقية لحم بارد ومربيات . وكانت نيكول تأكل دون ان تقول شيئاً ، خجلة من شهيتها ، غير قادرة على اخفاؤها . وكان الدم يصعد إلى خديها . وشربت فنجانين من الشاي بدون انقطاع . وسألتها مدام دي فونتانا وكان وجهها مضطرباً اكثر من وجه الطفلة :

- منذ متى لم تأكلي ؟ اتشعرين بالبرد ؟
- كلا .

- ولكن بلى . فأنت ترتعشين .

وأأت نيكول بحركة تدل على فراغ صبر . كانت حاقدة لعدم قدرتها على إخفاء ضعفها .

- لقد سافرت الليل بطوله ، وهذا ما سبب اصابتي بالبرد .

- سافرت ؟ من اين انت آتية إذن ؟

- من بروكسل .

- من بروكسل ، يا إلهي ! وحدك !

فقالت الفتاة : نعم .

كانت لهجتها كافية للدلالة على صلابة عزمها . واخذت مدام دي فونتانا يدها :

- انت متجمدة من البرد . تعالي إلى غرفتي . أتريدن ان تنامي ؟ ستشرحين لي فيما بعد .

- كلا ، كلا ، حالاً ، ما دمنا وحدنا . ومع ذلك فلست نعسانة ، أؤكد لك ، دعيني .

كان الوقت في أوائل نيسان . فأشعلت مدام دي فونتانا النار ، ولفست الهاربة بشال وأجلستها قسراً قرب الموقد . وكانت الطفلة تمنع ثم استسلمت ، منزعجة ، بعينين لامعتين ثابتتين تأبيان ان ترقتا . وتطلعت إلى الساعة ، كانت متعجلة للتكلم ، اما الآن ، وقد جلست ، فلم تعد عازمة على الكلام . وكانت عمتها تتجنب النظر إليها لكي لا تزيد من اضطرابها . وقضت بضعة دقائق ، ولم تبدأ نيكول . فقالت مدام دي فونتانا عندئذ :

- مهما كنت فاعلة يا عزيزتي فما من احد هنا يسألك شيئاً . احتفظي بسرك إذا أردت . أنا راضية لأنك فكرت بالهجرة إلينا . وانت هنا كولد من البيت . وانتصبت نيكول . فهل هناك ارتياح بارتكابها خطأ مؤلماً تعترف به ؟ وبسبب الحركة التي قامت بها انزلت الشال عن كتفها وكشف عن جذع مليء بالصحة ، يتناقض مع وجهها الهزيل ومع الشباب المتناهي في قسبتها . وقالت بنظرة ملتفة :

- بالعكس ، اريد ان اقول كل شيء . - وبدأت حالاً بنوع من النشوفة المثيرة : - يا عمي .. في اليوم الذي اتيت فيه الى شارع مونسو .
- آه !

آه اخرجتها مدام دي فونتانا واتخذ وجهها من جديد تعبير ألم . وأكملت نيكول بكثير من السرعة ، طارفة يحفونها :

... لقد سمعت كل شيء .

وساد صمت .

... كنت اعرف ذلك يا عزيزتي .

وخنقت الصغيرة بكاءها ووضعت وجهها بين يديها كما لو أن دموعها انهمرت .
ولكنها رفعت رأسها حالاً ؛ كانت عيناها جافتين وشفتاها مضمومتين ، الأمر
الذي بدل تعبيرها العادي وحتى رنة صوتها .

... لا تحكي «عليها» بالشر يا عمتي تيريز ! «انها» بائسة جداً ، وأنت
تعلمين .. ألا تصدقيني ؟

فأجابت مدام دي فوتتانان : بلى .

كان هناك سؤال يحرق شفتيها ؛ فتطلعت إلى الفتاة بهدوء لا يمكن أن
يخدع أحداً :

... هل هناك ايضاً .. عمك جيروم ؟

... نعم .

وأضافت بعد وقفة ، رافعة جفونها :

... انه هو نفسه الذي أشار علي بالنجاة بنفسي والمجيء إلى هنا .

... هو ؟

... كلا ، يعني .. كان يأتي كل صباح اثناء هذه الأيام الثمانية ، ويعطيني بعض
النقود لكي أستطيع العيش لأني بقيت هناك لوحدي . وأول البارحة قال لي :
« إذا كان باستطاعة احدي النفوس المحسنة ان تأخذك إلى عندها فستكونين
أفضل من هنا » . وقال : « احدي النفوس المحسنة » ولكن تفكيرني اتجه حالاً
إليك يا عمتي تيريز . وانا متأكدة انه هو ايضاً كان يفكر بذلك . ألا تصدقين ؟
فتمتعت مدام دي فوتتانان : ربما .

وشعرت فجأة بعاطفة من السعادة كادت تبتسم على أثرها ، وأسرعت
بالقول :

... ولكن ، كيف كنت وحيدة ؟ اين كنت إذن ؟

في بيتنا .

- في بروكسل ؟

- نعم .

- لم أكن أعلم ان والدتك كانت تقيم في بروكسل .

- اضطررنا إلى ذلك في أواخر تشرين الثاني . كان كل شيء محجوزاً عليه في شارع مونسو . والدتي لاحظها . دائماً متاعب ، ومباشرون يطالبون بالنقود . ولكن الدين 'دفع الآن وتستطيع العودة .

فرفعت مدام دي فونتانا عينيها ، وأرادت أن تسأل : « من الذي دفع ؟ » وكان نظرها يلقي السؤال بوضوح بحيث قرأت الجواب على شفتي الطفلة . ومن جديد لم تستطع امتلاك نفسها .

- و ... وهل ذهب في تشرين الثاني معها ؟

فلم تجب نيكول . وكان صوت العمة تيريز يرتجف بشكل مؤلم جداً . وقالت أخيراً يجهد :

- يا عمتي ، يجب ألا تحقدي علي . لا أريد أن اخفي عنك شيئاً . ولكن من الصعب شرح كل شيء ، هكذا ، مرة واحدة . هل تعرفين السيد ارفيلد ؟

- كلا ، من هو ؟

- عازف كان كبير من باريس كان يعطيني دروساً . اوه ! فنان كبير ، كبير ، يعزف في الحفلات .

- وبعد ؟

- كان يسكن باريس ، ولكنه بلجيكي . ولهذا سار بنا إلى بلجيكا حين اردنا الهرب . فليده بيت يملكه في بروكسل ، حيث نزلنا .

- معه ؟

- نعم .

وكانت قد فهمت السؤال ولم تتهرب . وتبدو انها تشعر بسرور وحشي حين تغلب على كل كتمان . ولكنها لم تجرؤ على قول شيء آخر وصمتت .

- وقالت مدام دي فونتنان بعد وقفة طويلة :
- ولكن اين كنت في تلك الأيام الأخيرة ، حين كنت وحيدة والعم جيروم يأتي لرؤيتك ؟
- هناك .
- عند ذلك السيد ؟
- نعم .
- وكان عمك يأتي إلى هناك ؟
- بالتأكيد .
- فتابعت مدام دي فونتنان دون أن تكف عن عذوبتها :
- ولكن كيف أصبحت وحدك ؟
- لأن السيد راوول كان يقوم بجولة آنذاك في لوسرن وجنيف .
- من هو راوول هذا ؟
- السيد ارفيلد .
- ووالدتك تركتك وحيدة في بروكسل لتذهب معه إلى سويسرا ؟
- وأنت الطفلة بحركة بائسة جداً بحيث احمر وجه مدام دي فونتنان وتتمت :
- اسألك الصفح يا عزيزتي . لن نتكلم عن كل هذا . انك أتيت ، وحسناً فعلت . ابقني معنا .
- ولكن نيكول هزت رأسها بعنف :
- كلا ، كلا ، لقد انتهى هذا تقريباً .
- وتنفست تنفساً عميقاً وقالت دفعة واحدة :
- اسمعي يا عمتي . ان السيد ارفيلد في سويسرا . ولكن بدون امي . فقد حصل لها على عقد في مسرح بروكسل لتغني دوراً في اوبريت ، بسبب صوتها الذي جعلها تفرغه . حتى انها نالت نجاحاً كبيراً في الصحف . ومعي في جيبي قصاصات منها تستطيعين رؤيتها .
- وتوقفت غير عارفة أين صارت وتابعت بنظرة غريبة :

عندئذ جاء العم جيروم لأن السيد راوول ذهب إلى سويسرا . ولكن متأخراً . فحين وصل لم تكن امي هناك . وذات مساء قبّلني .. كلا . قالت ذلك خافضة صوتها وعابسة بشدة - لقد ضربتني تقريباً لأنها لم تكن تعرف ماذا تفعل بي . - ورفعت رأسها وأرغمت نفسها على الابتسام - اوه ! الحقيقة انها لم تكن تحقد علي ، بالمعكس . - واختنقت ابتسامتها في حنجرتها - كانت بائسة جداً يا عمي تيريز ، ولا تستطيعين ان تعلمي : كان يجب ان تذهب لأن هناك من ينتظرها تحت ، وكانت تعلم ان العم جيروم سوف يأتي لأنه جاء قبلاً عدة مرات لرؤيتنا ، حتى انه كان يعزف الموسيقى مع السيد راوول ؛ ولكنه قال في المرة الأخيرة انه لن يرجع ما دام السيد ارفيلد هناك . اذن قالت لي امي قبل ذهابها ان أخبر العم جيروم بانها ذهبت لوقت طويل ، وانها تركتني ، وان يهتم بي . وانا متأكدة انه سيقوم بذلك ولكني لم اجرؤ على القول له حين رأيته يأتي . كان غاضباً ، وخفت ان يذهب لملاحقتهم ؛ عندئذ كذبت عليه عمداً ؛ وقلت له ان امي ستعود غداً ؛ وكنت اقول له في جميع الايام اني انتظرها . أما هو فبحث عنها في كل مكان ، وكان يظنها لا تزال في بروكسل . اما انا ، فقد كان ذلك كثيراً ، ولم اشأ أن أبقى ؛ أولاً لأنني اكره خادم السيد راوول - وارتعشت - انه يا عمي تيريز رجل ذو عيون .. اني اكرهه ! عندئذ عزمتم فجأة ، في اليوم الذي حدثني فيه العم جيروم عن «احدى النفوس المحسنة» . وصباح البارحة ، عندما اعطاني بعض النقود ، خرجت لثلاثي مسك بي الخادم ، واختبأت في الكنائس حتى المساء ، وأخذت القطار الليلي .

كانت تتكلم بسرعة ، منخفضة الجبهة . وحين رفعت رأسها كان وجه مدام دي فونتانا الحلو يعبر عن هيجان ، عن صرامة ، بحيث ضمت نيكول يديها وقالت :

- لا تسيئ الحکم على والدتي يا عمي تيريز . اؤكد لك ان شيئاً من كل هذا لم يكن بسبب خطأها . فأنال آكن دائماً لطيفة ، وكنت مصدر ازعاج لها ، وهذا مفهوم ! ولكني كبيرة الآن ، ولا أستطيع العيش هكذا . كلا ،

لا أستطيع أبداً . - قالت ذلك وقد ضمت شفتيها - اريد ان اشتغل وأربح عيشي ، ولا اكون عالة على احد . ولهذا اتيت يا عمي تيريز . ليس لي سواك . كيف تريد ان افعل ؟ ساعديني بضعة ايام فقط يا عمي تيريز ، انت وحدك تستطيعين مساعدتي .

كانت مدام دي فونتانا منائرة جداً فلم تستطع الاجابة . هل كانت تعتقد ان هذه الفتاة ستصبح عزيزة عليها ذات يوم بهذا الشكل ؟ كانت تتأملها بخنو تتذوق حلاوته هي نفسها وقد هدأ من آلامها . ربما كانت أقل جمالاً من السابق ؛ فالقم مشوه ببعض بثور الحمى ؛ ولكن عيناها ! عيناها بلون رمادي أزرق فاتح ، متسعتان مستديرتان كثيراً ... أي صدق وأي شجاعة في صفائها !

وحين استطاعت الابتسام قالت وهي تنحني :

- لقد فهمتك يا عزيزي وأحترم عزمك ، وأعدك بالمساعدة . ولكنك ستبقي هنا في الوقت الحاضر ، إلى جانبنا ، فانت بحاجة إلى الراحة .

قالت : « الراحة » ونظرتها كانت تقول : « العطف » ولم ته نيכול عن ذلك ولكنها كانت لا تزال ترفض ان تلين :

- اريد ان أشتغل ، ولا اريد ان أكون عبئاً .

- وإذا عادت والدتك لتبحث عنك ؟

فاضطربت النظرة الشفافة واتخذت فجأة قساوة لا تصدق ، وقالت بصوت ابح : هذا ، أبداً .

ولم تبد مدام دي فونتانا انها سمعت . وقالت فقط :

- أنا ، سوف احتفظ بك معنا بكل طيبة خاطر ... دائماً .

ونهضت الفتاة وبدت مترنحة ، وفجأة اسرعت تضع رأسها على ركبتي عمها . وداعبت مدام دي فونتانا خد الطفلة وكانت تفكر ببعض الأسئلة التي يجب أن تتطرق إليها ، وجاذفت قائلة :

- لقد رأيت يا ابنتي أشياء كثيرة ما كان يجب ان تريها وانت في هذا السن . وأرادت نيכול ان تنهض ولكنها منعتها . لم تكن تريد ان ترى الطفلة

احمرار وجهها ، فأبقت جبهة الصغيرة على ركبتها وأخذت تلهو بلفّ خصلة من الشعر الأشقر حول أصبعها باحثة عن كلماتها :

— لقد عرفت كثيراً من الأمور ... أمور يجب ان تظل سرية ... أتفهميني؟ وأمالت عينيها على عيني نيكول اللتين كان فيها ألق سريع :

— اوه ! كوني متأكدة يا عمتي تيريز ... لا أحد ؟ انهم لن يفهموا شيئاً وسوف يتهمون امي .

كانت ترغب في اخفاء سلوك امها كما كانت مدام دي فونتانا تحرص على اخفاء سلوك جيروم عن اولاده . انها شراكة في الذنب غير منتظرة توطدت فجأة حين رفعت نيكول وجهها المنتعش ، بعد ان فكرت :

— اسمعي يا عمتي تيريز . إليك ما يجب ان يقال لهم : ان امي مضطرة إلى العمل لتعيش ، وانها وجدت عملاً في الخارج . في انكلترا مثلاً ... وهو عمل يمنحها من اصطحابي ... وظيفة معلمة . أتريدين . وأضافت بإتسامة طفل - : وبما ان امي ذهبت ، فليس هناك ما يدesh في ان أكون حزينه . أليس كذلك ؟

٧

ان الهرم الجميل في الطابق الارضي نقل اثاره في الخامس عشر من نيسان . وفي صباح اليوم السادس عشر ، فان الانسة دي ويز يتبعها خادمتان ، ومدام فرولان ، وحارسة المنزل ، وعامل ، جاءت تتملك بيت العازب . كان الهرم الجميل لا يتمتع بسمعة طيبة في البناية ، والمدموازيل ، وهي تضم إلى صدرها معظمها الصوفي ، كانت تنتظر فتح جميع النوافذ لتجتاز العتبة . وعندئذ دخلت إلى الغرفة الداخلية وقامت بدورة في الغرف راكضة قصيرة الخطى . ثم نظمت أمر التنظيف وهي نصف مطمئنة لعري الجدران البريء ، كأن الامر لا يعدو تلاوة المزائم .

والانسة المعجوز ، مع دهشة انطوان قبلت دون اعتراض تقريباً بفكرة سكن الاخوين خارج المنزل الوالدي مع ان مشروعاً كهذا يبعث الاضطراب في تقاليدھا المنزلية ويقلب مفهومها عن العائلة والتربية ؛ وفسر انطوان موقف

المدموازيل بالسرور الذي حملته إليها عودة جاك وبالا احترام الذي تكنه لقرارات السيد تيبو ، خصوصاً إذا نالت استحسان الأب فيكار . ولكن الحقيقة ، فان لنشاط المدموازيل سبباً آخر : التعزية التي كانت تشعر بها لرؤية انطوان يغادر الشقة . فمنذ ان آوت جيز ، كانت الآنسة المسكينة تعيش في رعب العدوى . ألم تبق جيز في الربيع مسجونة في غرفتها طوال ستة أسابيع ، غير متجرئة على تركها تنشق الهواء خارجاً إلا على الشرفة ، ومؤخرة رحيل العائلة كلها إلى ميزون - لافيت لأن الصغيرة ليزبيت فرولان ، ابنة أخ حارسة المنزل ، كانت قد التقت السعال الديكي وانه كان من الضروري المرور أمام المنزل للخروج من البيت ؟ وغني عن القول ان انطوان ، مع عفونة المستشفى ، وحقائبه وكتبه ، كان يبدو لها خطراً دائماً . كانت تتوسل إليه ألا يحمل جيز على ركبته ، وإذا ألقى سهواً ، وهو عائد ، معطفه على كرسي في الدهليز بدلاً من ان يحمله إلى غرفته ، أو إذا وصل متأخراً وجلس إلى المائدة دون ان يذهب ويغسل يديه ، مع انها تعلم انه لا يرتدي معطفاً عندما يعتني بمرضاه ، ولا يترك المستشفى دون ان يمر على المفصلة ، فانها لا تأكل أبداً لأن مخاوفها تضغط عليها . وبعد الانتهاء تأخذ جيز إلى غرفتها لتعاقبها بغسل ضد العفونة في حنجرتها وفي أنفها . وسكن انطوان في الطابق الارضي يعني خلق منطقة واقية مؤلفة من طابقين بين جيزيل وبينه ، وتخفيف مخاطر العدوى اليومية بقدر الامكان . إذن فقد بذلت عناية خاصة لتنظيم محجر للموبوء . وفي مدى ثلاثة أيام 'حك' المنزل و'غسل' ، و'فرش' ، و'جهاز' بالستائر والمفروشات . وأصبح باستطاعة جاك ان يأتي .

وما ان كانت تفكر به حتى تتصاعد فعاليتها ؛ أو انها تكف لحظة عن عملها ، محدقة بعينها الذابلتين بالوجه العزيز الذي استشفته . وشقتها على جيز لم تفقد جاك حقه . كانت تحبه منذ ولادته ، وتحبه أبعد من ذلك أيضاً ما دامت قد أحبت وربت كجمله تلك الام التي لم يعرفها ، والتي حلت هي محلها منذ المهد . فبين هذين الذراعين المتباعدين خطا جاك خطوته الاولى ذات مساء وهو يترنح على طنفسة في الرواق ؛ وتلا ذلك أربع عشرة سنة كانت ترتعش

لأجله كما ترتعش الآن لأجل جيزيل . كثير من الحب وعدم فهم كلي . ان هذا الولد الذي لم يغب عن عينها أبداً تقريباً ظل لغزاً بالنسبة إليها . وفي بعض الايام كانت تياس من تربية مسخ ، وتبكي مفكرة بطفولة مدام تيبو التي كانت عذبة كالمنيع . ولم تكن تتسائل من اين أتبع لجاك ان يأخذ عنفه ، ولم تكن تهتم سوى الشيطان . ولكن في أيام اخرى ، فان إحدى تلك الحركات غير المنتظرة ، المباغتة ، المتجاوزة الحد ، والتي كان ينفث معها فجأة قلب الولد ، كانت ترقق قلبها وتجعلها تبكي أيضاً ، ولكن من الفرح . ولم تكن معتادة أبداً على غيابيه . ولم تفهم شيئاً عن رحيله ؛ ولكنها كانت تريد لعودته ان تكون عيداً وان تحتوي هذه الغرفة الجديدة كل ما كان يحبه . واضطر انطوان إلى الاعتراض مقدماً لانها زحمت سلفاً جميع خزائن الجدران بجميع الدمى التي كانت في السابق ، وأزلت من غرفتها تلك الكنبه التي تحبها . والتي كانت تأتي دائماً وتجلس عليها حين تكون حردة ؛ وبناء على نصيحة انطوان ابدلت سرير جاك القديم باريكة - سرير جديدة ، تطوى في النهار فتكسب الغرفة وقار غرفة عمل . كانت جيزيل متروكة منذ يومين ، محبوسة في غرفتها مع فروض عليها ان تعملها . لم تكن تستطيع تركيز انتباهها على دفاترها . وكانت تموت من الرغبة لرؤية ما يجري تحت . هي تعلم ان جاك سيعود ، وان هذا الاستعداد كله بسببه . ولكي تهدئ اعصابها كانت تدور في غرفتها .

وفي الصباح الثالث اصبح العذاب لا يحتمل والميل قوياً جداً بحيث انها عند الظهر ، وقد رأت ان عمتها لم تصعد ، هربت بدون ان تريد من تفكيرها وهبطت الدرج اربعاً اربعاً . وكان انطوان عائداً آنذاك . فانفجرت ضاحكة . لقد كان يملك الموهبة في ان يثير عندها ، منذ ان ينظر اليها بطريقة رابطة الجاش ، جافة ، ضحكات مجنونة لا تقاوم تطول بقدر احتفاظ انطوان بهيئته الجدية ، وتجعلها يتعرضان لتوبيخ المدموازيل . ولكن هنا كانا وحيدين ، واغتنيا فرصة ذلك .

وقال لها اخيراً وهو يمسك بمعصمها :

— لماذا تضحكين ؟

كانت تنتفض بقصد التملص وتستمر في ضحكها على احسن ما يكون . ثم توقفت فجأة :

— يجب ان اصلح نفسي من الضحك هكذا ، فأنت تعلم انني بدون ذلك لا استطيع ان اتزوج .

— اذن تريدن الزواج ؟

فقالت رافعة نحوه عينيها الشبهتين بعني كلب : نعم .
ونظر الى جسدها الصغير السمين البرّي وفكر للمرة الاولى ان هذه الطفلة بنت الحادية عشر سوف تصبح امرأة وتزوج . فترك معصمها .
— الى اين كنت تركضين وحدك ، عارية الرأس ، دون شال ؟ سيتناولون طعام الغداء .

فقالت وهي تتفنج قليلا :

— اني ابحث عن عمتي . لدي عملية حساب لا افهمها .
واحمر وجهها ، وأشارت باصبعها في ظلام الدرج الى باب « الفارسونبيرة »
الغامض الذي يرشح منه شعاع نور . وكانت عيناها تلمعان .
— اتودين الدخول الى هناك ؟

فقالت « نعم » بحركة شفتيها المhraوين دون ان تلفظ صوتاً .
— ستنايلن التوبنخ .

فترددت والقت عليه نظرة جريئة لترى اذا كان يمزح . واخيراً صرحت :
— ولكن كلا ! اولاً هذه ليست خطيئة !

فابتسم انطوان ؛ اذن هكذا كانت المدموازيل تميز الخير من الشر .
وتساءل عن قيمة تأثير المدموازيل الهرمة على الطفلة ؛ وألقى نظرة على جيز
فطمأنته : كانت غرسة سالمة تنمو في اي مكان ؛ وستتفقت من جميع الوصايات
ولم ترفع جيزيل نظرها عن الباب المفتوح . وقال انطوان :
— حسناً : ادخلي .

فكتمت صرخة فرح وانزلت الى الداخل كالقارة .

كانت المدموازيل وحدها . متسلقة على الاريكة - السرير ومنتصبة على رؤوس اصابعها لتعلق على الحائط المسيح الذي اعطته لجناك عند مناولته الاولى ، والذي يجب ان يستمر في وقاية نوم ولدها . وكانت مرحة ، سعيدة ، قتيه ، تقني بصوت منخفض وهي تستغل . وعرفت خطوة انطوان في غرفة الزائرين وظنت انه نسي الساعة . واثناء ذلك كانت جيزيل قد طافت الغرف الاخرى . ولما كانت غير قادرة على استيعاب فرحها فقد اخذت ترقص مصفقة بيديها . وكنمت المدموازيل وهي تقفز الى الارض :

- ايها الاله الطيب !

وشاهدت في المرأة الشعر العائم في هواء النوافذ المفتوحة ، وابنة اخيها القافزة في مكانها كالجدي صائحة ببلء صوتها :

- تحيا مجاري الهواء ! تحيا مجاري الهواء !

انها لا تفهم وما حاولت ان تفهم . ولم تخطر ببالها فكرة مجيء الابنة الى هنا بدافع العصيان . فقد كانت معتادة منذ ست وستين سنة على الانحناء للألعاب القضاء والقدر . ولكنها بلحمة عين فككت معطفها وانقضت على الطفلة ولقتها بغطاء الرأس ، وجرتها دون كلمة لوم ، واصعدتها الطابقين بأسرع مما هبطتها الصغيرة . ولم تستعد انفاسها الا بعد ان أنامت جيزيل تحت غطاء وجعلتها تشرب طامة من المنقوع المغلي .

ويجب القول ان مخاوفها لم تكن مفتقرة كلياً الى اساس . فأم جيزيل ، وهي من مدغسكر ، تزوجها القومندان دي ويز في تاماناف حيث كان مع الحامية . وماتت بالسل الرئوي بعد ولادة الطفلة بأقل من سنة ؛ وبعد سنتين مات القومندان نفسه بمرض بطيء لم يحدد جيداً . وقد ظن انه انتقل إليه من زوجته . ومنذ أن أعادتها المدموازيل من مدغسكر ، لأنها القريبة الوحيدة لليتيمة ، وأخذتها على عاتقها ، فان تهديد هذه الوراثة لم يفارقها ، مع ان الطفلة لم تصب أبداً بأي رشح مقلق ، وبنيتها المتينة قد اعتُرف بها وتأكدت دورياً من جميع الأطباء

والاختصاصيين الذين كانوا يفحصونها كل سنة .

كان التصويت للمجمع يجب أن يجري في مدى خمسة عشر يوماً ،وبدا السيد تيبو متعجلاً عودة جاك . وقد جرى الاتفاق ان يكلف السيد فاييسم بالاتيان به إلى باريس نهار الاحد التالي .

وفي السهرة ، مساء السبت ،ترك انطوان المستشفى في الساعة السابعة وتناول عشاءه في مطعم مجاور حتى لا يأكل مع العائلة . ومنذ الساعة الثامنة دخل إلى بيته الجديد وحيداً فرحاً . كان عليه أن ينام فيه هذا المساء لأول مرة . وشعر بفرح حين أدار مفتاحه في قفله ، واغلق بابه وراءه ؛ وأثار الكهرباء في كل مكان وبدأ نزهةً خلال مملكته بخطوات قصيرة . لقد احتفظ لنفسه بالجهة المطلة على الشارع : غرفتان كبيرتان وغرفة صغيرة . الاولى قليلة الأثاث : بعض المقاعد المتباعدة حول طاولة مستديرة ؛ وهذه يجب أن تكون غرفة انتظار حين يضطر إلى استقبال أحد الزبائن . والثانية ، وهي الكبرى ، انزل إليها المفروشات التي يملكها في شقة والده ، منضدة العريضة للشغل ، ومكتبته ، ومقعدين من الجلد ، وجميع الأشياء التي تشهد على حياته المجهدة . وفي الغرفة الصغيرة التي تحتوي على طاولة زينة ومكان لتعليق الثياب ، وضع سريراً .

وكانت كتبه منضدة على الارض في الغرفة الملاصقة ، بالقرب من الصناديق غير المفتوحة . وهناك ناقل حرارة يعطي حرارة هادئة ، واللبات الجديدة تلقي نورها القوي على كل شيء . وكان أمام انطوان أمسية طويلة للمتلئ ، إذ يجب في بضع ساعات ان يفتح الصناديق ويرتب ويستعد لفصل حياته من الآن فصاعداً . وفوق ، انتهت ، الوليمة دون شك : وجيز كانت تنام على صحنها . والسيد تيبو يعظ بأسباب . لكم يشعر انطوان بالاطمئنان ، ولم بدت له وحدته سائغة ! كانت امرأة المدخنة تعكس صورة نصف جسمه . وقد اقترب منها بشيء من الاعجاب بالنفس . وكان له اسلوب خاص في النظر إلى نفسه في المرآة ، مربعاً كتفيه ، ضاماً فكيه ، متطلعاً إلى نفسه ، مع نظرة قاسية كان يغمسها في عيني خياله . وكان يريد ان يتجاهل نصفه الأعلى الكثير الطول ، ساقيه

القصيرين ، وذراعيه الدقيقين ، وعدم تناسب رأس كثير القوة على ذلك الجسد شبه الركيك ، واللحية تزيد من حجمه . وكان معجباً بنفسه ويشعر أنه قوي نشيط ذو مشية عريضة . وكان يحب تعبير وجهه المقطب : لأن حلقة تشكلت على خط الحاجبين لكثرة ما غضن جبهته كما لو انه بحاجة إلى تركيز كل انتباهه على كل لحظة من حياته ؛ ونظراته ، المدججة في الظلام ، اتخذت بريقاً غنيماً كان يعجبه كعلامة ظاهرة على الحيوية .

— لنبدأ بالكسب .

قال ذلك وهو يخلع سترته ويفتح يجذل مصراعي المكتبة الفارغة .

— لئر .. دفاتر الدروس تحت .. والمعاجم بمتناول اليد .. علم العلاج .. حسناً .. ترا لا لا ! مهما كان الأمر فما أنا توصلت إلى نهاياتي . الطابق الارضي ، جاك .. من كان يظن ، منذ ثلاثة أسابيع فقط ؟ « هذا الشخص يتحلّى بارادة لا تقهر » .

قال ذلك بنبرة زامرة ، كأنه يقلد صوت شخص آخر . « ثابتة لا تقهر ! » وقذف نظرة لاهية باتجاه المرأة ، ودار على رجل واحدة فكاد يفقد التوازن مع كدسة النشرات التي كان يمسكها تحت ذقنه .

— هولاً ، بهدوء ! حسناً هذه الرفوف التي استعادت الحياة .. والآن إلى الاوراق التي لا فائدة منها .. لنؤجل الكرتون في المحفظة كما كانت ، إلى هذا المساء .. ولكن سيلزمنا اللجوء فيما بعد إلى التعليقات والملاحظات .. بدأت تتكون عندي كمية محترمة .. اختيار تصنيف منطقي وواضح مع فهرس يومي ، كما هو الأمر عند فيليب .. فهرس على بطاقات .. جميع الاطباء الكبار في اماكن أخرى ..

ومخبطوة خفيفة شبه راقصة أقبل وأدبر مرات عديدة من الغرفة الملاصقة إلى محفظة الكرتون . وفجأه ضحك ضحكة صبيانية ، غير منتظرة ، واعلن : « الدكتور انطوان تيبو » . ثم توقف هنيهة ورفع رأسه . « الدكتور تيبو .. تيبو ، انتم تعرفون جيداً الاختصاصي بالاطفال » . وخطا جانباً خطوة قصيرة

خفية ، مصحوبة بتحية مقتضبة وعاد بوقار إلى رواجه ومجيئه .

- لننتقل إلى الصندوق الخيزراني .. في سنتين أنال المدالية الذهبية ؛ رئيس معaine .. ومسابقات المستشفيات .. اقطن هنا إذن ثلاث أو اربع سنوات ليس اكثر . وعندئذ سيلزمني شقة مناسبة ، كشقة رئيس - واستعداد صوته الزامر - « ان تيبو هو أحد أصغر اطبائنا سنأ في المستشفيات .. الذراع الايمن لفيليب .. » اني على استعداد للتخصص حالاً في أمراض الاطفال .. حين افكر بلويزيه في طولون .. البلهاء ..

- الب ... ل ... هاء ..

ردد ذلك دون ان يبدو انه يفكر بما قاله . كان ذراعاه محملين بالاشياء الأكثر تنوعاً . وكان يبحث بعين حائرة عن مكان ملائم لكل شيء منها .
- لو أراد جاك ان يصبح طبيباً فأساعده واقود خطاه .. طبيبان من آل تيبو .. ولماذا لا ؟ انها مهنة لآل تيبو ! قاسية ، ولكن أي مسرات حين يكون المرء على شيء من تذوق الكفاح ، على شيء من الكبرياء ! وأي جهود للانتباه ، والذاكرة ، والإرادة ! ولن يوصل ابداً إلى النهاية ! وثم حين أصل ! طبيب كبير كفيليب مثلاً .. والقدرة على اتخاذ تلك الهبة الهادئة المطمئنة .. الكثيرة البشاشة ، ولكن بعيدة .. السيد الاستاذ .. آه ! ان تكون ذا أهمية ، وان تدعى للاستشارة من قبل الزملاء الذين يفارون منك اكثر من غيرهم !

أما انا فقد اخترت أصعب فروع التخصص : الأطفال . انهم لا يعرفون ان يتكلموا ، وحين يتكلمون يخدعونك . هنا ، اكون وحيداً حقيقةً في مجابهة الألم والعثور عليه .. ومن حسن الحظ فإن الاشعة .. فالطبيب الكامل اليوم يجب ان يكون عالماً بالتصوير بالأشعة ، ويجري ذلك بنفسه . بعد نبلي شهادة الدكتوراه ، فترة تدرج بالأشعة . وفيما بعد ، مشغل للأشعة إلى جانب مكنتي .. مع ممرضة .. أو بالاحرى مساعد ، ببلويزة .. أيام الاستشارة ، كل حالة جديدة نوعاً ، هوب ، كليشه ..

« ان ما يجعلني اثق بتيبو هو انه يبدأ دائماً بالفحص بواسطة الاشعة »

وابتسم لرنه صوته وطرف بعينه نحو المرأة ، وقال مفكراً مع ابتسامة
وقحة :

- حسناً ، نعم ، اني أعرف الكبرياء جيداً . ويقول الأب فيكار : « كبرياء
آل تيبو » . وابي ، هو .. ليكن . ولكن انا ، حسناً ، نعم ، الكبرياء . ولماذا
لا ؟ الكبرياء هي رافعتي ، رافعة كل قواي . اني استعملها . ولي كل الحق .
أليس المقصود قبل كل شيء ان يستعمل المرء قواه ؟ وما هي قواي ؟ - وكشفت
ابتسامة عن أسنانه - اني أعرفها جيداً . أولاً اني أفهم بسرعة واحفظ ؛ وهذا
يبقى . وبعد ذلك خاصة الشغل . « ان تيبو يشتغل كالثور ! » لا بأس ؛ دعهم
يقولون ! كلهم يريدون ان يفعلوا مثلي . وثم ، ماذا ايضاً ؟ طاقة . هذه نعم .
« طاقة غير عادية » - لفظ ذلك ببطء باحثاً عن نفسه في المرأة من جديد - انها
كفاعل القوة ، كبطارية مشحونة جيداً ، دائماً على استعداد ، تتيح لي أي جهد
كان . ولكن ما قيمة كل هذه القوى بدون رافعة لأستعملها بواسطتها يا سيدي
الكاهن ؟

وكان يمسك بيده محفظة مسطحة من النيكل كانت تلمع تحت نور المصباح
القريب من السقف ، ولم يكن يعرف أين يضعها ! وانتهى بان وضعها فوق
المكتبة . وقال بصوت مليء ، بتلك اللهجة الساخرة ، النورماندية ، التي يستعملها
والده احياناً :

- لا بأس . وترا لا لا ، ولتعش الكبرياء يا سيدي الكاهن !
وافرغ الصندوق . واخذ من داخله أطارين صغيرين من القطيفة نظر إليهما
لاهيأ . انها صورتا جده لأمه ، وامه : شيخ جميل واقف بالرداء الرسمي ، ويده
على طاولة مستديرة مثقلة بالكتب ؛ وامرأة فتية ، ذات قسما ناعمة ، ونظرة
لا معنى لها ، أو بالأحرى هادئة ، مع كورساج مفتوح بشكل مربع وقرطين
متهدلين ساقطين على الكتف . وكان من عادته ان يبقي هذه الصورة لأمه تحت
نظره ، وهكذا كان يعيد النظر إليها مع ان هذه الصورة يعود تاريخها إلى أيام
خطوبة مدام تيبو ، ولم يسبق له ان عرف أمه بزينة الرأس هذه . كانت في

التاسعة من عمره عند ولادة جاك، عندما ماتت. وكان يتذكر ، بشكل افضل ،
جده كوتيريه الاقتصادي ، صديق ما كاهون ^(١) ، والذي كاد يصبح حاكماً
لمنطقة السين عند سقوط السيد تيير ^(٢) ، الذي كان عميداً للمجمع لبضع سنوات ،
وحيث انطوان لم ينس ابدأ الوجه المحبوب ، وربطات العنق من المسلمين
الابيض ولا علبة الامواس السبع ذات القبضة اللؤلؤية في غمدها المصنوع من
جلد سمك اللب *Raie* .

ووضع الاطارين على المدخنة بين عينات من الصخور والمتحجرات . وبقي
عليه ترتيب المكتب المزدهج بأشياء متنوعة واوراق لا فائدة منها . فانصرف
إلى ذلك بمرح . وتبدلت الغرفة بلحمة عين . وحين انتهى أجال حوله نظراً
راضياً . وفكر بكسل : « أما البياضات والملابس فمن عمل الأم فرولان » .
(ولكي يتملص دون تحفظ من وصاية المدموازيل توصل إلى ان تقوم حارسه
المنزل وحدها بأعمال البيت وخدمة الطابق الأرضي) . واخذ سيكارة وتمدد على
كنبة من الجلد . كان من النادر ان يخصص لنفسه امسية كاملة ، دون مهمة معينة ؛
وقد وجد نفسه قلقاً تقريباً . فالساعة لم تكن متقدمة ؛ ماذا يفعل ؟ أیظل هنا
يحمل وهو يدخن ؟ كان عليه ان يكتب بضع رسائل ، ولكن لا بأس !
وفكر فجأة وهو ينهض : « كنت أريد ان أرى في هيمنون *Hémon* ماذا
قال عن داء السكري عند الأطفال » . واخذ كتاباً كبيراً مجلداً وتصفحه على
ركبتيه . « نعم .. كان علي ان اعرف ذلك ، انه بديهي - قال ذلك عابساً -
لقد اخطأت .. لولا فيليب مات ذلك الولد المسكين بسبب غلطتي . يعني ،
بسبب غلطتي ، كلا ؛ ولكن مهما كان الامر » .. واطبق الكتاب والقاه على
الطاولة .

« كم ان الرئيس جاف في هذه الحالة ! انه مزهو ، غيور من وضعيته ! » ان

١ - ما كاهون : ثاني رئيس للجمهورية الفرنسية الثالثة عام ١٨٧٣ .

٢ - تيير *Thiers* : أول رئيس للجمهورية الفرنسية الثالثة عام ١٨٧١ .

النظام الذي فرضته لا يمكن إلا ان يزيد حالته خطورة يا تيبو المسكين ! » أمام تلامذة الطب والمرضات هذا الصباح .

وادخل يديه في جيوبه وخطا بضع خطوات .

— كان علي ان اجيبه . كان علي ان اجيبه : « أولاً ، إذا كنت تقوم انت بواجبك ! » تماماً . يجيبني : « ياسيد تيبو ، اعتقد ان من وجهة النظر هذه ، لا أحد .. » ولكنني افحمه : « عفوا ! لو كنت تصل صباحاً في الساعة المعينة ، ولو كنت معها تنتظر نهاية الاستشارة بدلاً من ان تهرب في الساعة الحادية عشرة والنصف لتعني بزائنك الذين يدفعون الاجرة ، لما كنت بحاجة لأقوم بعملك ، انا ، ولما خشيت ان اخطيء ! » أمام كل الناس ! سيعاديني خمسة عشر يوماً ، ولكن لا يهمني . في النهاية !

واتخذ وجهه فجأة تعبيراً من سوء الخلق . وهز كفيه ، وبدأ في تدوير الساعة دون ان يفكر بذلك ، ولكنه ارتعش ، وأعاد سترته ، وجاء يجلس في المكان الذي تركه . وتلاشى سروره الآني ؛ وبقي له تأثير برد في القلب . وتمم بابتسامة حقود : « الابله » وصالب ساقيه بعصبية واولع سيكارة جديدة . ولكن ، وهو يقول : « الابله » ، كان يفكر بسلامة العين ، وبالتجربة ، وبغريزة الدكتور فيليب المدهشة ؛ وفي تلك اللحظة بدت له عبقرية الرئيس تشكل مجموعاً ساحقاً . وتساءل وهو يشعر بالاختناق :

— وانا ، انا ؟ هل سأعرف كيف أرى مثله بوضوح ؟ تلك البصيرة شبه المعصومة والتي تصنع وحدها الاطباء الكبار . هل انا .. ؟ نعم ، الذاكرة ، الاجتهاد ، المثابرة .. ولكن هل لدي شيء آخر ، انا غير صفات المروءوس هذه ؟ ليست هي المرة الأولى التي اصطدم فيها أمام تشخيص مرض .. بسيط — نعم « انه تشخيص مرض سهل جداً ، وبالأجمال ، حالة كلاسيكية معينة بوضوح .. آه ! — قال ذلك ماداً ذراعه فجأة — هذا لن يأتي لوحده : الشغل ، الاكتساب ، الاكتساب ! — وشحب لونه وفكر — : « وغداً جاك ، غداً مساءً سيكون جاك هنا . في الغرفة الموجودة هناك . وانا ، فاني .. فاني .. »

ونفض بوثبة . وفجأة بداله المشروع الذي وضعه للعيش مع اخيه تحت مظهره الحقيقي : جنون لا يرتق فثقه ! لم يكن يفكر بالمسؤولية التي قبل بها ؛ لم يكن يفكر بسوى القيد الذي سوف يشل مشيئته من الآن فصاعداً مهما عمل . لم يكن يفهم باي ضلال استطاع ان يأخذ هذا الانقاذ على عاتقه . هل كان لديه وقت يضيعه . هل كان لديه ساعة فقط في الاسبوع ليحيد عن هدفه ؟ أبله ! انه هو الذي ربط هذا الحجر إلى عنقه ! وليس من وسيلة للتراجع !

واجتاز آلياً الرواق ، وفتح باب الغرفة المعدة لجاك وظل على العتبة منذ هلا محاولاً النظر في الغرفة المظلمة . وخذت شجاعته : « إلى أين يهرب ليصبح مطمئناً ، واسم الرب ؟ ليستغل حتى لا يكون لديه ما يفكر به سوى نفسه ! دائماً تسليمات ! العائلة ، الاصدقاء ، جاك ! الجميع يتآمرون على منعي من الشغل ليجعلوني اخفق في حياتي ! » وصعد الدم إلى رأسه ، وجفت حنجرتة ، فسار إلى المطبخ وشرب قدحين من الماء المثلوج وعاد إلى مكتبه .

كان بدون شجاعة وبدأ يخلع ملابسه . انه غريب في هذه الغرفة التي لم يعتد عليها بعد ، والتي اتخذت فيها الأشياء المستعملة هيئة غير عادية . وفجأة ، بدا له كل شيء عدائياً .

وظل ساعة حتى استلقى في الفراش ، وبقي مدة اطول حتى نام . لم يكن معتاداً على ضجة الشارع القريبة ؛ وكل مارترن مشيته على الرصيف كان يجعله يرتعش . وكان يفكر بلا شيء : اصلاح ساعته المنبهة ؛ والصعوبة التي لاقاها في الليلة الماضية ، وهو عائد من سهرة عند فيليب ، في إيجاد عربة .. وبين لحظة واخرى كانت تعاوده فكرة رجوع جاك بتغفل واخز . وعاد يبأس إلى سريره الضيق .

وكان يفكر بفضب : « وبعد ، فان لي حياتي اعيشها ! ليتملصوا ! سأجعله يقيم هنا ما دام هذا مقررأ . سأنظم عمله ، ليكن . وبعد ، افعل ماتريد ! لقد رضيت ان أهتم به ، نعم ، ولكن قف هناك ! على ان لا يمنعني هذا من الوصول ! ان لي حياتي أعيشها ! وكل الباقي ..

لم يبق أثر من محبته للولد هذا المساء . وتذكر زيارته لكروي . ورأى اخاه هزيلا ، ابنته الوحيدة ؛ من يدري ، ربما سل ؟ إذا كان هذا صحيحاً فسيجعل والده يقرر ارسال جاك إلى مصح ممتاز ! في الاوفرنيسه *Auvergne* أو في البيرنيه ، والارجح في سويسرا ؛ وهو ، انطوان ، سوف يظل وحيداً ، حرّاً بوقته ، حرّاً بالشغل على هواه .. حتى انه فاجأ نفسه يفكر : « سأخذ غرفته ، واجعل منها غرفة نومي » .

٨

في الغد ، عندما استيقظ انطوان ، وجد نفسه في حالة نفسية معاكسة ، وقد مر على المستشفى اثناء فترة الصباح ، وتطلع إلى ساعته مرة بعد مرة بفراغ صبر فرح ؛ وقد تأخر عليه الذهاب لتلقي أخيه من يدي السيد فاييسم . وكان في المحطة قبل الساعة المعينة ، وفيما كان يمشي المئة خطوة ، أخذ يتذكر ثانية ما قرر قوله للسيد فاييسم حول المؤسسة . ولكن ما ان اصبح القطار بجانب الرصيف وشاهد خيال جاك في صف المسافرين وكذلك نظارتي المدير ، حتى نسي الأقوال التي كان قد أعدها وركض للقاء الآتين .

كان للسيد فاييسم وجه مشرق وبدا انه وجد في انطوان صديقه الأعز ؛ وكان مرتدياً باعتناء ، وفي يديه قفاز شفاف ، وقد حلق ذقنه حديثاً بحيث اضطر إلى رش وجهه بالبودرة لاطفاء نار الشفرة . وكان يبدو مستعداً لمرافقة الاخوين إلى بيتها وان يضغط عليها لقبول شيء على شرفة المقهى . إلا ان انطوان أسرع في الانفصال منادياً سيارة اجرة . ورفع السيد فاييسم نفسه صرة امتعة جاك إلى المقعد . وحين أخذت العربة بالسير ، مع خطر سحق طرف حذائه المدهون ، أدخل أيضاً نصفه الأعلى من باب العربة ليشد بحرارة على أيدي الشابين وتحميل انطوان تحياته المتواضعة إلى السيد المؤسس .

وكان جاك يبكي .

لم يكن قد قال كلمة "بعد ولا أتى" بحركة للإجابة على استقبال أخيه القلبي ،

ولكن هذا الوهن كان يزيد من شفقة انطوان ومن العواطف الجديدة التي كانت تملأ قلبه . ولو ان احداً خطر بباله ان يذكره بحقه في السهرة لكان انكره ولأكد بقلب طيب انه لم ينقطع ابداً عن الشعور بان عودة الولد جعلت اخيراً هدفاً لحياته التي كانت حتى الآن فارغة عقيمة بشكل يائس .

وحين أدخل أخاه إلى شقتها وأغلق الباب وراءها ، كانت نفسه في عيد ، كمحب يجري لعشيقته الاولى تشريفات مسكنٍ معدٍ لها وحدها . وقد فكر في ذلك وسخر من نفسه ؛ ولكن كان قليلاً ما يهيمه ان يكون مضحكاً ؛ فقد كان يشعر انه سعيد وطيب . ومع انه كان يرقب ، دون نجاح ، ألقا من الرضا على وجه أخيه ، فانه لم يشك لحظة في نجاحه بالمهمة التي شرع بها .

كانت المدموازيل قد زارت غرفة جاك في اللحظة الأخيرة : اشعلت النار لتكون الغرفة احسن حفاوة ، واعدت في مكان منظور صحناً من الحلوى باللوز المرشوش بالسكر المعطر بالفانيليا ، وهي حلوى يختص بها الحي ، وكان جاك في السابق يفضلها . وعلى طاولة الليل ، وضعت في قديمٍ باقةً صغيرة من البنفسج تتفلت منها عصابة من الورق المقصوص ، رسمت جيزيل عليها بحروف متعددة الألوان هذه العبارة :

إلى جاكو

ولكن جاكو لم يلاحظ أي شيء من هذه الاستعدادات . لأنه ما كاد يدخل ، وبينما كان انطوان يخلع معطفه ، حتى جلس بقرب الباب وقبعته بين أصابعه . فصاح انطوان :

— تعال إذن وقم بدورة كما يفعل صاحب الملك .

فانضم إليه الولد غير مسرع ، وألقى نظرة لاهية على الغرفة الاخرى وعاد إلى الجلوس . لقد بدأ منتظراً وخائفاً . فاقترح انطوان :

— أتريد أن نصعد « لرؤيتهم ؟ »

وعرف من ارتعاش جاك انه لم يكن يفكر بشيء آخر منذ وصوله .

واصبحت هيئته شاحبة ، وخفض عينيه ، ولكنه نهض على الأثر كما لو أنه كان في الوقت نفسه مرتعباً لاقتراب اللحظة المشؤومة ومتعجلاً الانتهاء منها . وأضاف انطوان ليشجعه :

— حسناً ، هيا . لن نفعل شيئاً سوى ان ندخل ونخرج .

وكان السيد تيبو ينتظرهما في مكتبه . وكان ذا مزاج رائق : فالسواء جميلة والربيع قريب . وفي الصباح ، وقد حضر قداس الرعية الكبير في مقعد العمل ، شاقه ان يردد ان عضواً جديداً في الجمع سوف يجلس دون شك في نفس المكان ، نهار الأحد القادم . وجاء إلى امام ولديه وقبل الصغير . وكان جاك ينتحب . ورأى السيد تيبو في هذه الدموع برهاناً على تبكيت ضميره ، وعلى مقاصده الطيبة ؛ وتأثر أكثر مما كان يريد ان يظهر عليه . واجلس الولد على إحدى الكنبات ذات السند العالي التي تحيط بالموقد ، وبقي واقفاً ويداه وراء ظهره ، ذاهباً آيهاً ، نافخاً كعادته ، ولفظ لوماً مقتضياً ، ودوداً وقاسياً معاً ، مذكراً تحت أية شروط كان من سعادة جاك ان يعود إلى البيت الوالدي ، طالباً منه أن يظهر لأنطوان من الاعتبار والخضوع بقدر ما يظهره له .

وقصر امد اختتام الكلام زائر غير منتظر : انه أحد زملاء المستقبل ، وقد سرح السيد تيبو ولديه حرصاً منه على ألا يدعه يشعر بالبرد في قاعة الاستقبال . إلا انه سار معها حتى باب مكتبه . وحين رفع الستار بيد ، ووضع الأخرى على رأس الولد التائب ، وشعر جاك بالأصابع الأبوية تداعب شعره وتربت على ذقرته بدالة جديدة عليه بحيث لم يستطع أن يكتفم تأثره ، فالتفت وأمسك باليد الكبيرة اللدنة ليحملها إلى شفثيه ، إلا ان السيد تيبو فوجئ بذلك ، وفتح عيناً غير راضية ، وسحب يده بشيء من القلق . وقال مدمماً ساحباً عنقه خارج الطوق عدة مرات متتابعة :

— هيا .. هيا ..

ان رقة القلب المصطنعة تلك لم تكن بنظره دلالة على شيء حسن . ووجدا المدموازيل تلبس جيزيل ملابسها اصلاة الغروب . ولكنها عندما

رأت دخول هذا الغلام الكبير الشاحب ذي العينين المحمرتين ، بدلاً من ذلك الشيطان الصغير الطائش الذي كانت تنتظره ، ضمت يديها ، وانزلت من بين أصابعها الشريط الذي كانت تعقده في شعر الابنة . وتأثرت إلى درجة انهالمتجروا على تقبيله أولاً . وقالت أخيراً وقد هرعته إليه :

— يا لله ! أهذا انت ؟

وضمته إلى برنسا ، ثم رجعت إلى الورا تنظر إليه وعيناها اللامعتان تلتهان وجهه دون أن تتوصل إلى إيجاد القسبات التي أحببتها فيه .

أما جيز ، وهي أكثر خيبة أمل ، وأكثر تحوفاً ، فقد كانت تنظر إلى الطنفسة عاضة على شفتيها لئلا تنفجر ضاحكة . وكانت هي التي حصلت على أول ابتسامة من جاك . وقد قال وهو يسير نحوها :

— ألم تعرفيني ؟

وكسر الجليد . فارتمت بين ذراعيه ثم أخذت تقفز كالجدي دون ان تترك اليد التي أمسكت بها . ولكنها لم تجرؤ على قول شيء هذا النهار ، حتى سؤاله إذا كان قد رأى زهورها .

وهبطوا جميعاً . وجيزيل لم تترك يد جاك والتصقت صامتة به ، بلذة حيوان صغير . وانفصلا في أسفل الدرج . ولكنها التفتت تحت القبو وأرسلت إليه عبر الباب الزجاجي قبلة كبيرة بيديها الاثنتين . ولم يرها .

وحين أصبحت وحيدتين في بيتها ، أدرك انطوان من النظرة الاولى التي القاها نحو جاك ان أخاه يشعر بتعزية حارة لأنه رأى أهله ، وان هناك تحسناً في حالته .

— أعتقد اننا سنكون على خير حال هنا نحن الاثنتين ؟ اجب !

— نعم .

— حسناً . اجلس ، واستقر : خذ هذه الكنبه الكبيرة ، وسترى كم نحن بخير هنا . انا ذاهب لاعداد الشاي . أنت جائع ؟ اذهب وهات لنا حلوى .

— كلا ، شكرأ .

— ولكنني اريدها أنا .

لم يكن يفسد مزاج انطوان شيء . فقد اكتشف هذا المجتهد الدائب المنعزل أخيراً حلاوة الحب ، والحماية ، والاقتسام . كان يضحك دون سبب . وهناك نشوة سعيدة جعلته يفصح عن دخيلة نفسه بشكل لم يكنه فيما مضى .

— سيكارة ؟ كلا ؟ انت تنتظر إلي .. ألا تدخن ؟ انت تنتظر إلي كل الوقت كالو .. كما لو اني كنت أنصب لك شركا ! لنر يا صديقي ، قليلاً من التساهل ، يا للشيطان ، قليلاً من الثقة ؛ أنت لست في الاصلاحية ! ألا تزال تحذر مني ؟ قل .

— ولكن كلا .

— ماذا إذن ؟ أكنت خائفاً من ان أخدعك ومن ان أعيدك ولا تكون حراً كما كنت تامل .

— ك .. كلا .

— مم تخاف . أتأسف على شيء .

— كلا .

— إذن . ماذا يجري وراء هذه الجبهة العنيدة . ها .

وجاء إلى الولد واصبح على وشك الانحناء ليصل إليه ويعانقه ؟ ولكنه لم يفعل . ورفع جاك نحو انطوان عيناً عابسة ؛ ورأى ان الآخر ينتظر جواباً فقال :

— ولماذا تسألني كل هذا ؟

وبعد ارتعاشة خفيفة أضاف بصوت منخفض جداً :

— وما فائدة ذلك ؟

— وساد صمت قصير . وشمل انطوان أخاه بنظرة مشفقة ، حيث شعر جاك

بالرغبة بالبكاء من جديد .

وأكد انطوان بلمهجة كثيفة :

— أنت كالمریض يا صغيري . ولكن هذا سيزول . ثق بذلك . فقط دعني

أعطني .. وأحب ، — أضاف ذلك بنجمل دون أن ينظر إلى الولد — إننا لانعرف

بعضنا البعض جيداً بعد . فكر إذن ، تسع سنوات فارق السن ، إنها مهواة
بيننا ، وقد كنت ولداً . كنت في الحادية عشرة عندما بلغت العشرين ؛ ولم يكن
بإمكاننا أن نشترك في شيء . أما الآن فالأمر ليس كذلك أبداً . حتى إنني لا
أعرف إذا كنت قد أحببتك في السابق : لم أكن أفكر بذلك . ها أنت ترى
أنني صريح . ولكنني أشعر جيداً أن هذا قد تغير أيضاً .. أنا مسرور جداً ،
ومتأثر جداً أيضاً برؤيتك هنا ، بالقرب مني . ستصبح الحياة أكثر سهولة على
اثنين ، وأفضل . ألا تصدق ؟ أنت ترى أنني حين أراجع من المستشفى ، فإنني
واثق من أنني سأسرع بالعودة إلى بيتنا وسأجذك هنا ، جالساً إلى مكتبك وقد
اشتغلت بنشاط ، أليس كذلك ؟ وفي المساء تنزل باكراً ويجلس كل منا من
ناحيته تحت القنديل ، وتبقى الأبواب مفتوحة لنرى بعضنا البعض ونشعر أننا
جيران .. أو أيضاً في بعض الأمسيات نثرثر ، نثرثر معاً كصديقين ، دون أن
نستطيع التصميم على النوم .. مابك ؟ .. أتبكي ؟

واقترب من جاك وجلس على ذراع كنبته ، وأخذ يده بعد تردد . وظل
جاك مديراً وجهه المليء بالدمع ، ولكنه أبقى يد انطوان في يده ، وبعد دقيقة
طويلة شد عليها بحمى حتى كاد يسحقها . وهتف أخيراً بصوت مختنق :
- انطوان ! انطوان ! لو تعلم كل ما جرى في نفسي منذ سنة .

وأخذ ينتحب بقوة بحيث احترس انطوان من توجيه الأسئلة إليه . وكان
قد ألقى ذراعه حول كتفي جاك وأبقى أخاه الصغير مضموماً إليه بحنو .
وذات مرة ، في السابق ، أثناء مكاشفتها لأول مرة ، في ظلام العربية ، كان قد
عرف تلك الهنيئة من الشفقة المسكرة ، وذلك الفيض المفاجيء في القوة ،
والإرادة لاثنين . وفي غالب الأحيان منذ ذلك الوقت ، كانت تراوده فكرة ،
وقد اتخذت هذا المساء بروزاً غريباً . ونهض ، وأخذ يذرع الغرفة . وبدأ قائلاً
بحمى خاصة : *

- اسمع . لا أدري لماذا أكلّمك عن هذا منذ اليوم . ومع ذلك فأمامنا
الفرصة للعودة إليه . ها أنت ترى أنني أفكر بذلك ؛ بأننا اخوان . وهذا

يبدو أنه لا يدل على شيء ، ومع ذلك فهو أمر جديد بالنسبة إلي ، وكثير الخطورة . اخوان ! ليس نفس الدم فقط ، بل نفس الجذور منذ بدء الأجيال . تماماً نفس دفقة النسج ، نفس الاندفاع ! نحن لسنا فردين فقط ، انطوان وجاك : نحن اثنين من آل تيبو ، نحن آل تيبو . هل تفهم ما أريد أن أقول ؟ إن ما هو مخيف ، فهو أن تجد في نفسك هذا الاندفاع ، هذا الاندفاع نفسه ، اندفاع آل تيبو . أتفهم ! فنحن ، آل تيبو ، لسنا بكيفية الناس . حتى إني أعتقد أن فينا شيئاً أكثر من الآخرين بسبب هذا : لأننا من آل تيبو . وأنا في كل مكان مررت فيه ، في المدرسة ، في الجامعة ، في المستشفى ، في كل مكان ، كنت أشعر أنني واحد من آل تيبو ، كائن على حدة ، ولا أجروء على القول أنه أكثر سمواً ، إلا أن الأمر كذلك . ولماذا لا ؟ .. نعم ، أكثر سمواً ، مسلح بقوة لا يملكها الآخرون . وأنت ، فكر بذلك . ألم تكن تشعر في المدرسة ، رغم التلميذ الكسول الذي كنته ، بذلك الاندفاع الداخلي الذي كان يجعلك تتخطى الآخرين جميعهم ، بالقوة ؟

فقال جاك الذي كف عن البكاء : نعم .

كان يتطلع في وجه أخيه باهتمام شديد ، واتخذت هيئته بغتة تعبير ذكاء ونضج منسحة عشر سنوات زيادة على عمره . وتابع انطوان :

— تأكدت ذلك منذ وقت طويل . يجب أن يكون فينا تركيب استثنائي من الكبرياء ، والعنف والعناد ، ولا أعرف كيف أقول . وهكذا ، فإني أفكر بالأب .. ولكنك لا تعرفه جيداً .. مع ذلك فهو أيضاً شيء آخر ! وتابع بعد وقفة ، وجاء يجلس قبالة جاك ، منحني الجذع ، واليدان على الركبتين ، كما كان يفعل السيد تيبو .

— إن ما أردت قوله فقط اليوم لك ، هو أن تلك القوة الخفية كانت تظهر دون انقطاع في حياتي ، لا أعرف كيف أقول ، على شكل موجة ، على شكل تلك الامواج التي في الاعماق والتي ترفعك حين تسبح ، وتحملك ، وتجعلك تقطع مساحة واسعة بوثبة كبيرة ! سري ! هذا مدهش . ولكن يجب معرفة الاستفادة

منها . لا شيء مستحيل ، لا شيء صعب حين تكون لديك هذه القوة . وهي لدينا ، أنت وأنا . اتفهم ؟ وهكذا انا.. ولكني لا أقول لك ذلك لأجل نفسي . لنحدث عنك . وهذه هي اللحظة التي يجب ان تقاس فيها تلك القوة فيك ، وان تُعرف ، وان تستخدمها . والوقت المضاع ستستعيده دفعة واحدة إذا أردت ، الإرادة ! لا يستطيع جميع الناس ان يريدوا ، (ولم يمضي وقت طويل على معرفتي ذلك) انا ، استطيع ان أريد . وانت أيضاً تستطيع ان تريد ، فآل تيبو يستطيعون ان يريدوا ، ولهذا السبب فان آل تيبو يستطيعون الشروع بكل شيء . تخطي الآخرين ! وفرض النفس . هذا ما يلزم . يجب على هذه القوة المحبأة في عرق ان تقضي اخيراً إلى شيء . وشجرة آل تيبو يجب ان تتفتح فينا : تتفتح سلالة . اتفهم هذا ؟ اتفهم هذا يا جاك ؟ كانت عينا جاك متعلقين دائماً بعيني انطوان ، بانتباه مؤلم . وصاح :
 — ولكن نعم ، افهم !

وكانت عيناه الصافيتان تلمعان ؛ وفي صوته يهتز نوع من الهياج . وكان له ثنية غريبة في زاوية شفتيه : حتى ليظن انه يحقد على أخيه لأنه شوش نفسه بتلك النسمة غير المنتظرة . واحس برعشة سريعة ، ثم استرخى وجهه ، وبدا عليه تعب متناهٍ ، وقال فجأة :
 — آه ! دعني .

وأسقط جبهته بين يديه .
 وسكت انطوان ، وتفحص أخاه . لكم شحب وهزل منذ خمسة عشر يوماً ! وشعره الامفر المجزوز من مدة قريبة كان يشي بحجم الجمجمة الشاذ ويجعل انفصال الاذنين وهشاشة النقرة أكثر ظهوراً . ولاحظ انطوان بشرة الصدغين الشفافة ، وذبول الصبغة ، والدائرة الزرقاء حول العين وقال فجأة :
 — أأصلحت نفسك ؟

— من ماذا ؟
 تتم جاك . واضطرب صفاء نظرتة ، واحمر وجهه ، ولكنه احتفظ بتعبير

دهشة كان تصنعاً .

ولم يجب انطوان .

وتقدمت الساعة . فنتطلع في ساعته ونهض ؛ كان عليه ان يقوم بزيارته التفتيشية حوالي الساعة الخامسة . وتردد في اعلام أخيه انه ستركه لوحده حتى وقت الغداء . ولكن جاك بدا مسروراً من ذهابه بعكس ما كان ينتظر .

وفعلًا ، شعر بهدوء ثائره حين بقي وحده . وخطرت له فكرة الطواف في الشقة ، ولكن قلقاً غامضاً اجتاحه في الغرفة الملائقة ، وامام الباب المقفل ، فعاد إلى غرفته واقفل الباب على نفسه . انه لم ير غرفته إلا لماماً . لقد شاهد اخيراً باقة البنفسج ، والشريط . وتشابكت جميع تفاصيل النهار في ذاكرته ، استقبال الأب ، وحديث انطوان . واستلقى على الكنبه وعاد إلى البكاء ، دون أي يأس : كلا ، كان يبكي من الانهاك على الخصوص ، وايضاً بسبب الغرفة ، والبنفسج ، وتلك اليد التي وضعها والده على رأسه ، واعتناءات انطوان ، وتلك الحياة الجديدة المجهولة ؛ كان يبكي لانهم يظهرون من جميع النواحي انهم يريدون ان يحبوه ؛ ولانهم سيهتمون به منذ الآن ، ويكلمونه ، ويتسمون له ؛ ولأن عليه ان يجيب الجميع ، ولأن كل شيء انتهى بنظره ليكون مطمئناً .

٩

لكي يخرج انطوان من موضوع إلى آخر ارجأ دخول جاك إلى مدرسة ثانوية إلى شهر تشرين الاول . وقد أعد مع رفاق قدماء يعملون في الجامعة منهاجاً للدروس الملخصة هدفه إعادة تربية ذكاء الولد بصورة تدريجية . واقسم المهمة لثلاثة اساتذة مختلفين . وكانوا كلهم شباناً ، اصدقاء . وكان التلميذ المستمع يشتغل في ساعاته وفقاً لقوة انتباهه . وسر انطوان لتأكده ان عزلة الاصلاحية لم تسبب لقوى أخيه العقلية كثيراً من الضرر بقدر ما كان يخشى : لقد نضج عقله في بعض النواحي بشكل غريب في العزلة ؛ وبعد انطلاق بطيء أصبح التقدم سريعاً أكثر مما جرؤ انطوان على ان يأمل به . واستفاد جاك من الاستقلال

الذي منح له ، دون أن يسيء استعماله . ومع ذلك فإن انطوان ، دون ان يقول أمام والده ، وبموافقة الأب فيكار الضمنية ، لم يكن يتهبب مخاطر الحرية . وكان عالماً بأن طبيعة جاك غنية ، وان بالامكان ربح الشيء الكثير إذا تركه ينمو على هواء وفي اتجاهه الخاص .

في الأيام الاولى كان الولد يشعر بنفور شديد من الخروج من البيت . فقد كان الشارع يسبب له الدوار . واضطر انطوان ان يحاول إيجاد رحلات له يقوم بها ليضطره إلى تنشق الهواء . وهكذا عاد جاك إلى التعرف على حيه القديم . حتى انه أخذ يتذوق هذه الزهات ؛ وكان الفصل جميلاً ؛ وأحب أن يتبع الارصفة حتى فوتردام ، أو ان يهيم على وجهه في التويلري . حتى انه جازف ذات يوم بالدخول إلى متحف اللوفر ؛ ولكنه وجد فيه الهواء خانقاً مليئاً بالغبار ، وترتيب اللوحات كثير الرتابة بحيث هرب بسرعة ولم يعد إليه .

واثناء تناول الطعام كان يظل صامتاً ؛ كان يصفي إلى والده . إلا ان الرجل الكبير كان كثير التسلط ذا صحبة خشنة ، بحيث ان جميع الكائنات المهجرة على العيش في بيته كانت تختبئ صامته وراء قناع . والمدموازيل نفسها ، بالرغم من اعجابها الورع ، كانت تخفي وجهها الحقيقي دائماً . وكان السيد تيبو يتمتع بهذا الصمت الامتثالي الذي يترك المجرى حراً لحاجته في فرض أحكامه ، وكان يمزج هذه الحاجة بالاستحسان العام ، بشكل ساذج . وكان متحفظاً جداً حيال جاك ، واميناً لتعهداته ، فلم يكن يسأله أبداً عن استعمال وقته .

وكانت هناك نقطة بدا السيد تيبو فيها صعب المراس : لقد منع منعاً باتاً جميعاً العلاقات مع آل فوتتانان . وزيادة في الاطمئنان فقد قرر ألا يظهر جاك هذه السنة في ميزون - لافيت حيث كان السيد تيبو يذهب في كل فصل ربيع مع المدموازيل ، وحيث آل فوتتانان يملكون ايضاً عقاراً صغيراً على حاشية الغابة . وكان من المتفق عليه ان يظل جاك هذا الصيف في باريس مثل انطوان . وكان المنع من رؤية آل فوتتانان موضوع حديث جدي بين انطوان وأخيه . وكانت أول صرخة لجاك هي التمرد : فقد كان يشعر ان الظلم الماضي لن يمحي

ما دام هذا الشك محفوظاً ضد صديقه . انه رد فعل عنيف لم يكدر انطوان : فقد كان له بثابة برهان على ان جاك ، جاك الحقيقي قد ولد ثانية . ولكن حين مضت هذه الحركة الاولى من الغضب ، انكتب على ارجاع أخيه إلى جادة العقل . ومع ذلك فلم يجد صعوبة كبيرة في ان ينال منه وعداً بالآلا يحاول رؤية دانيال . وفي الواقع ، فان جاك لم يكن حريصاً على ذلك بقدر ما يفكرون . كان لا يزال كثير الوحشية فلا يتمنى احتكاكات أخرى ، وصادقته الخالصة مع أخيه كانت تكفيه ؛ يضاف إلى ذلك ان انطوان كان يسعى ليعيش معه برفقة بسيطة ، دون أي شيء يمكن ان يشير إلى فارق السن بينهما ، وبدون السلطة المعطاة له .

في الايام الاولى من حزيران ، وكان جاك عائداً ، رأى حشداً كبيراً تحت الباب الكبير : فقد اصبحت الأم فرولان بنوبة وكانت تضطجع بالعرض في منزلها . واستعادت حواسها في السهرة . ولكن الذراع والساق من الجهة اليمنى لا يتحركان .

وبعد بضعة أيام من ذلك ، وذات صباح ، وكان انطوان على وشك الخروج ، رن الجرس ، وظهرت في اطار الباب فتاة بشوب وردي ومريلة سوداء ، وكانت محمرة الوجه بابتسامة جريئة .

— أتيت لأجل تدبير البيت .. ألا تعرفني يا سيد انطوان؟ ليزبيت فرولان.. . كانت تتكلم لهجة الازراس وهي أكثر ركاكة على شفتيها كطفلة . وكان انطوان يتذكر جيداً « يتيمة الام فرولان » التي كانت تعيش في السابق وهي تحجل في فناء الدار . وأوضحت انها جاءت من ستراسبورغ للاعتناء بعمتها ، ولتنوب عنها في عملها ؛ وبدون أن تضيع الوقت بدأت بأعمال البيت . وهكذا كانت تعود كل يوم . وكانت تحمل الطبق وتحضر فطور الشابين . وكان انطوان يمازحها حول احمرارها الفجائي ويسألها عن الحياة الألمانية . انها في التاسعة عشرة من عمرها ؛ وحين تركت البنائة منذ ست سنوات كانت تسكن

عند عمها الذي يدير في ستراسبورغ « فندق - مطعم » في حي المحطة . وما دام انطوان موجوداً هناك فان جاك كان يتدخل قليلاً في الحديث . ولكن ما ان يشعر بنفسه وحيداً مع ليزبيت حتى يتجنبها .

إلا انها كانت تحمل طعام الفطور إلى غرفة جاك في الايام التي تكون فيها نوبة انطوان في المستشفى . وعندئذ كان يسألها عن اخبار العمة ؛ ولم تكن ليزبيت تمن عليه بأي تفصيل : الام فرولان تتأثل للشفاء ، ولكن ببطء ؛ وتصبح شهيتها أفضل بين يوم وآخر . وكانت ليزبيت تحترم التغذية . وهي صغيرة ، بدينة ، وكانت مرونة جسدها تشي بجبها للرقص ، واللعب ، والغناء . وحين تضحك كانت تنظر إلى جاك دون أقل ارتباك . وجه ظريف كيتس ، الانف قصير . وشفتان ناهزتان منتفختان قليلاً ، وعينان من بورسلين ، وحول الجبهة شعر لم يكن اشقر ولكن بلون القنب .

كانت ليزبيت في كل يوم تزيد من مدة ثروتها . واعتاد خجل جاك على ذلك . وكان يصغي إليها بانتباه جدي . وكانت له طريقة في الاصغاء جعلته في كل وقت موضع أسرار : أسرار الخدم ، ورفاق التلمذة ، والأساتذة أحياناً . وكانت ليزبيت تتكلم معه بحرية أكثر من انطوان ، ولكنها مع الكبير تبدو أكثر طفولة . ولاحظت ذات صباح ان جاك يقلب صفحات قاموس ألماني فأضاعت القليل الذي بقي لها من التحفظ . كانت تريد ان ترى ماذا يترجم ، وقد رق قلبها أمام اغنية مؤثرة لغوته *Goethe* كانت تعرفها عن ظاهر قلب وكانت تغنيها أيضاً .

ليستمر النهر دائماً في جريانه .

ولكنني ابدأ لن أكون سعيداً .^(١)

وكان الشعر الألماني يدير رأسها . فدنندت عدة اغنيات وفسرت الابيات الاولى منها . وما كانت تجده الاجل فهو دائماً صياني وحزين :

لو كنت عصفور سنونو صغيراً
آه ! كم كنت اطير نحوك !

انها كانت تفضل شيلر . وجمعت افكارها وتلت دفعة واحدة شذرة تحبها بين الجميع ، ذلك المقطع من « ماري ستوارت » حيث نالت الملكة الشابة السجينة الاذن بان تخطو بضع خطوات في حدائق سجنها ، وتندفع نحو الأرض الخضراء مبهورة من الشمس ، نشوى بالشباب . لم يفهم جاك جميع الكلمات ؛ وكانت تترجم بقدر ، ولكي تشرح ذلك الاندفاع نحو الحرية وجدت نبرات كثيرة البساطة بحيث شعر جاك ، وهو يفكر بكروي ، بان قلبه يسترخي . واخذ يسرد مصائبه على دفعات ، وبعد كثير من الكتان . انه لا يزال يعيش وحيداً ويتكلم نادراً بحيث ان نبرة صوته كانت تسكره بسرعة . وانتعش ، وشوه الحقيقة كما يحلو له ، وادخل في قصته جميع أنواع التذكارات الادبية ، لأن أكثر شغله وضوحاً منذ شهرين ، يتألف من التهام روايات مكتبة انطوان . وكان يشعر جيداً ان هذا التبديل الرومانطيسي كان له على حاسة اليزبيت من التأثير ما لا يحدثه الواقع الحقيقى . وحين رأى الفتاة الجميلة تسح عينيها ، بهيئة مينيون *Mignon* وهو يبكى وطنه ، تذوق لذة الفنان التي كانت لا تزال مجبولة لديه ، وشعر بكثير من عرفان الجميل بحيث تساءل ، وهو يرتجف من الامل ، إذا لم يكن هذا حباً .

في غد ذلك النهار انتظرها بفراغ صبر . ربما كانت في ريبة ؛ وحملت إليه دفترأ مليئاً بالبطاقات المصورة والتوقعات ، والزهور الجافة : كانت حياتها منذ ثلاث سنوات كفتاة هي كل حياتها . وكان جاك يرهقها بالاسئلة ، ويحب ان يصاب بالدهشة ، ويدهش من كل ما لا يعرفه . وكانت حكايات اليزبيت معينة ومحددة بتفاصيل أكيدة لا تسمح بالارتياح بصدقها ؛ ومع ذلك ، فحين كان خذاها يغلوان وصوتها يصبح أكثر ضعفاً ، فانها تتخذ هيئة الابتكار والكذب التي ترى على الناس الذين يحاولون ان يرووا حلاً . كانت تفحص برجليها من السرور وهي تتحدث عن سهرات الشتاء في « فانز شول » حيث

يلتقي فتيان وفتيات الحي . ومعلم الرقص مسلح بكمكان صغير جداً ، وهويتابع الراقصين مسجلاً الايقاع بينما السيدة تعزف آخر رقصات الفالس من فيينا على البيانو الآلي . وعند منتصف الليل كانوا يتناولون الطعام ، ثم يغتسلون بالماء ليلاً ، كجملعات مرحلة ، ويتراقصون من بيت إلى بيت دون ان يستطيعوا الانفصال ما دام الثلج سهلاً على الخطو ، وما دامت السماء صافية والهواء حاد على الحدود . وحياناً يختلط جنود صفوف ضباط بالراقصين الاعتياديين . وأحدهم كان يدعى فريدي وآخر يدعى ويل *Will* . وترددت ليزبيت طويلاً لتدل في صورة جمهور باللباس الرسمي على الدمية الخشبية الكبيرة التي تحمل هذا الاسم « ويل » . وقالت وهي تنفض الصورة بقفا کہا : « آك » انه كثير النبل ، كثير الفتور ! وكانت تضطر إلى الذهاب إلى بيته ، فقد كان هناك حكاية قيثارة ، وتوت شوكي ، وحليب رائب ، وكانت تتوقف ضاحكة ضحكة صغيرة غير منتظرة لم تكن تكلمها . وتارة كانت تدعو ويل خطيبها ، وطوراً تتكلم عنه كانه ضاع بالنسبة إليها . وانتهى جاك إلى الفهم انه أرسل مع فرقة عسكرية بروسية بعد حادث غامض ومضحك كان ذكره يجعلها ترتعش من الرعب وتقهقه ضاحكة دورياً : لقد كان في الفندق غرفة في داخل رواق ، لأرضيتها الخشبية صرير ؛ ولكن هنا ، اصبح كل شيء غير مفهوم ؛ ويجب ان تكون الغرفة موجودة في نفس فندق فرولان ، وإلا لما استطاع العم الهرم ان يلاحق صف الضابط ليلاً في باحة الدار وان يلقيه في الشارع ، بالقميص والجورب . وكانت ليزبيت تضيف ، بدلاً من الشرح ، ان عمها كان يفكر بتزويجها لتقوم على إدارة البيت : وكانت تقول ايضاً انه كان ذا شفة كشفة الارنب ، حيث كان يحرق من الصباح إلى المساء سيكراً يشتت منه رائحة السناج ؛ وتنقطع عن الابتسام دون تأخير وتأخذ بالبكاء .

كان جاك جالساً إلى طاولته . وكان الدفتر مفتوحاً أمامه . وليزبيت جالسة على ذراع الكنبة ، وكانت حين تنحني يتنشق انفاسها ، وشعرها الاجعد يلامس اذنه . لم يكن يشعر بأي اضطراب في الحواس . فقد عرف فساد الاخلاق

قبلاً، ولكن عالماً آخر يفريه الآن، ويعتقد انه اكتشفه في نفسه، وانه استخرجه من رواية انكليزية قُرئت حديثاً: الحب الطاهر، عاطفة من الكمال السعيد والطهارة. ولم تنقطع مخيلته طول النهار عن إعداد مقابلة الغد في أدق تفاصيلها : وكان مقتنعاً انه ما من شيء يزعجها في الصباح ؛ وقد أجلس ليزبيت على الكنبه ، إلى اليمين ؛ وكانت تحني رأسها إلى الامام ، وهو واقف ، يرى نقرتها تحت الشعر النابت ، في تجويف فستانها ؛ ولم تكن تجرؤ على رفع عينها ؛ وكان منحنيًا : « لا أريد ان ترحلي ثانية .. » عندئذ فقط رفعت رأسها بنظرة مستهفمة ، أما هو فكان جوابه قبة على جبهتها ، قبة الخطوبة . « بعد خمس سنوات سيصبح عمري عشرين سنة . وسأقول لوالدي : « لست ولدًا » وإذا قالوا لي : « ولكنها ابنة أخ حارسة المنزل » فاني .. » - واتى بحركة تهديد - عروسة ! عروسة ! انت عروسي ! » وبدت له غرفته صغيرة جداً على هذا السرور الكثير . فخرج . وكان الهواء حاراً . وكان يتحرك بلذة في النور . « عروسة ! انها عروسي ! » . ونام نوماً عميقاً في الغد بحيث لم يسمعها وهي تدق الجرس ، وقفز من السرير عارفاً ضحكاتها في غرفة انطوان . وحين انضم إليها كان انطوان قد تناول فطوره . وأمسك ليزبيت بكتفها ببل يديه ، وهو على اهبة الخروج وقال مهدداً :

— اتسمعين ؟ إذا تركتها تتناول القهوة بعد فسيكون لك حساب معي . وكانت ليزبيت تضحك ضحكها الخاصة . وترفض التصديق ان قهوة جيدة بالحليب على الطريقة الالمانية ، محلاة جيداً بالسكر ، تشرب وهي ساخنة ، يمكن ان تسبب ضرراً للام فرولان .

وظلا وحدهما . وكانت قد وضعت على الطبق قطعاً من الحلوى ملفوفة ، ومرشوشة باليانسون ، صنعتها البارحة وفقاً لطلبه . وكانت تنظر إليه باحترام وهو يتناول طعامه . وكان حاقداً على نفسه لانه جائع . ما من شيء من كل هذا كان متوقعا ؛ لم يكن يعرف في أي مكان يوصل الواقع بالمشهد الذي كان قد أعده بدقة مفرطة . ولزيادة المصيبة رن الجرس . لقد كانت مفاجأة : دخلت

الأم فرولان وهي تمرج عرجاً خفيفاً ؛ لم تكن سليمة تماماً ولكنها تتحسن ، تتحسن كثيراً وجاءت تلقي تحية الصباح على جاك . ووجب بعد ذلك ان تساعدها ليزبيت على بلوغ مسكنها ، وإجلاسها في كنبها . ومضى الوقت . ولم تعد ليزبيت . وجاك لا يستطيع ابدأ احتمال معاكسة الظروف ، فكان يروح ويحيى فريسة لمعاكسة شبيهة بغضبه في السابق . كان يشد على فكيه ويدخل قبضته في جيوبه . وبدأ يحقد عليها .

وحين ظهرت اخيراً كان فمه جافاً وعينه سيئة ؛ وكان الانتظار قد أثار أعصابه بحيث اخذت يدها ترتجفان . وتظاهر بأنه يشتغل . فأعجزت ترتيب الغرفة وقالت له إلى اللقاء ، وتركها تذهب وهو منحني على كنبه والمسوت في نفسه . ولكن حين أصبح وحده ، انقلب إلى الوراء وابتسم ابتسامة مرة بحيث اقترب من المرأة ليتمتع بها بشكل محسوس . وللمرة العشرين مثلت له تخيلته المشهد المناسب : ليزبيت جالسة ، وهو واقف ، النقرة .. شعر بتقزز ، ووضع يديه أمام عينيه وارتمى على الكنبه ليبيكي ، ولكن الدموع لم تأت ، ولم يكن يشعر بسوى الاضطراب والحقد .

وحين دخلت في اليوم التالي كانت ذات هيئة حزينة اعتبرها جاك لوماً وجعلت حقه يذوب . في الواقع ، تلقت رسالة سيئة من ستراسبورغ : عمها يطلبها ، والفندق مليء ، وقد رضي فرولان ان يصبر اسبوعاً آخر وليس أكثر . وكانت تفكر بأن تري الرسالة لجاك ؛ ولكنه جاء نحوها بنظرة كثيرة الحجل والرقعة منعته من قول شيء محزن . وجلسا على الكنبه ، تماماً في المكان الذي صمم ان تجلس فيه ، وبقي واقفاً في المكان الذي كان قد تخيل نفسه فيه . وخفضت رأسها ، ورأى تحت خصلة من الشعر الاجعد النقرة الهاربة في فتحة الفستان ، وانحنى كالتمثال المتحرك حين انتصبت - متأخرة قليلاً . فتطلعت إليه بدهشة ، وابتسمت ، وجذبتة إلى جانبها على الكنبه ، وألصقت وجهها بوجهه دون تردد ، وصدغها على صدغه ، وخدها الحار على طول خده .

- ياعزيزي ..

فكاد يغمى عليه من العذوبة وانغمض عينيه . وشعر بأصابع ليزبيت التي كانت اطرافها منحوسة بالابر تداعب خده الحر ، وتنساب إلى طوقه ، وانحلت العروة . وشعر برعشة لذيدة . واليد الصغيرة المغناطيسية انزلت بين القميص والبشرة ، وراحت تجثم على نصفه الأعلى . عندئذ جازف هو أيضاً بأصبعين اصطدما بدبوس ذهبي ففتحت بنفسها طوق فستانها لتساعده . وأمسك أنفاسه . لقد لامست يده لمحا مجهولاً . واتت بحركة كأنها دغدغت ، وشعر فجأة بكثرة النهد تسيل في تجويف يده . واحمر وجهه ، وقبلها ببلاهة . وردت إليه قبلته حالاً وبحرارة وبعاء فمها ؛ وظل كذلك مضطرباً متقزراً قليلاً بسبب الرطوبة التي تركها له ذلك الرضاب الغريب بعد حرارة القبلة . وكانت قد أعادت وضع وجهها على وجهه ولم تأت بحركة ؛ وشعر بأهدائها ترف على صدغه .

منذ ذلك الوقت ، كانت الضحكة اليومية . وكانت قد سحبت دبوسها الذهبي حتى الغرفة الملاصقة وغرزته في الباب منذ دخولها . وكان الاثنان يحلسان على الكنبه ، الحد على الحد ، واليدان في الدفء ، ويظلان صامتين . أو انها كانت تبدأ بأغنية المانية تسيل دموعها . وأثناء فترة طويلة كانا يؤرجحان صدغيهما المتلاحقين على ايقاع ويمزجان انفاسهما دون رغبة بلذة أخرى ، وإذا كانت أصابع جاك تتحرك قليلاً تحت القميص . وإذا نقل رأسه قليلاً ليلامس بشفتيه خد ليزبيت ، فانها كانت تثبت عليه عينيها اللتين تبدوان كأنها تطلبان أن يكون لطيفاً معها ، وكانت تنهد :

— كن فاتراً ...

وفي كل مرة يكونان في مكانها فان الأيدي تبقى عاقلة . وباتفاق ضمني كانت ليزبيت وجاك يتجنبان الحركات الجديدة . وكان عناقهما كله في تلك الضمة الصبور المستمرة لوجهيهما ، وأيضاً ، عند كل تنفس ، في تلك المداعبة التي توفرها للأصابع تلك الاختلاجة الفاترة للصدرين . وبالنسبة لليزبيت التي كانت تبدو تعباً في معظم الأحيان ، فانها كانت تبعد دون جهد كل إثارة للحواس : كانت بقرب جاك تنتشي بالطهارة والشعر . أما هو فلم يكن بحاجة لإبعاد محاولة أكثر

وضوحاً : فتلك المداعبات الطاهرة كانت تجدد نهايتها في ذاتها ؛ والفكرة التي يمكن ان تكون تمهيداً لنشاطات اخرى لم تكن تخطر له ببال . وأحياناً ، إذا سبب له فتور هذا الجسد النسائي اضطراباً جسيماً فإن ذلك يحدث دون ان يشعر به تقريباً : سوف يموت من التقرز والخنجل لفكرة ان ليزبيت يمكن ان تلحظ ذلك .. ليس هناك اشتها غير طاهر يستولي عليه حين يكون بقربيها . لقد كان الانفصال تاماً بين روحه وجسده . فالروح للحبيبة والجسد يعيش حياته المنفردة في عالم آخر ، في عالم ظلامي لا تنفذ إليه ليزبيت . وإذا حدث له في بعض الأمسيات ألا يجد النوم ، وان يلقي بنفسه خارج الاغطية ، وان ينزع قميصه أمام المرأة ، وان يقبل ذراعيه ويلامس جسده بغباوة جنونية ، فان هذا يحدث دائماً وهو وحده ، بعيداً عنها ؛ ان صورة ليزبيت لم تكن تأتي أبداً لتنضم إلى الموكب العادي لما يخطر بباله .

أما فيما يتعلق بليزبيت فان موعد الرحيل قد اقترب ؛ يجب ان تترك باريس نهار الأحد القادم بقطار الليل . ولم تكن تملك الشجاعة لتخبر جاك . ونهار الأحد ذاك ، ساعة الغداء ، عرف انطوان ان أخاه في غرفته ، فدخل هو إلى غرفته ، وكانت ليزبيت تنتظر . فارتمت على كتفه باكية . وسألها بابتسامة غريبة : وبعد ؟

فأشارت ان لا .

— وتذهبن الآن ؟

— نعم .

فأتى بحركة تدل على فراغ الصبر . وقالت :

— انها غلطته أيضاً . فهو لم يفكر بذلك .

— لقد وعدت بأن تفكري بذلك عنه .

فتطلعت إليه . وكانت تحتقره قليلاً . فهو لم يكن يستطيع الادراك ان جاك بالنسبة إليها « ليس الشيء نفسه » . ولكن انطوان كان جميلاً ، وتحب هيئته المشؤومة ، وتغفر له كونه كالآخرين .

وكانت قد شكت دبوسها الذهبي في الستار وخلعت ملابسها بهيئة لاهية مفكرة بالرحلة. وحين أخذها انطوان بين ذراعيه ضحكت ضحكة غير منتظمة ضاعت في حنجرتها : « يا حبيبي ... كن فاتراً في مسائنا الأخير » .

وظل انطوان غائباً طوال السهرة . ونحو الساعة الحادية عشرة سمعه جاك يعود ويبلغ غرفته دون احداث ضجة . فذهب لينام ولم يناده .

وعند دخوله في سريره اصطدمت ركبته بشيء صلب : صرة ، مفاجأة ! انها بعض فطائر الحلوى باليانسون في ورقة قصدير مطوية بالسكر المذاب . وورقة صغيرة بلون بنفسجي زاهٍ مطوية في منديل حريري عليه الحرفين الاولين من اسم جاك :

إلى حبيبي !

لم تكن قد كتبت إليه شيئاً بعد . وكان ذلك كأنها اتت في المساء تنحني على وسادته . وكان يضحك من السرور وهو يفيض الغلاف :

« يا سيد جاك .

حين تتسلم هذه الرسالة أكون قد صرت بعيدة .. »
وتشوشت السطور ، وتقطعت جبهته بالعرق .

« ... سوف أكون بعيدة لانني سأأخذ في هذا المساء قطار الساعة الثانية والعشرين والدقيقة الواحدة والعشرين في محطة الشرق إلى ستراسبورغ .. »

— انطوان !

صرخة مؤثرة جداً بحيث ركض انطوان معتقداً ان أخاه جريج .

كان جاك جالساً على سريره ، متباعد الذراعين ، مفتوح الشفتين قليلاً ، والعينان متوسلتان : حتى ليظن انه يموت وان انطوان وحده يستطيع انقاذه . وكانت الرسالة ملقاة على الشرشف . فقرأها انطوان دون دهشة : لقد أوصل ليزبيت إلى القطار . وانحنى على أخيه ولكن الآخر أوقفه :

— أسكت ، أسكت ، لا تستطيع ان تعرف يا انطوان ، لا تستطيع ان تفهم .

كان يستعمل نفس الكلمات التي تستعملها ليزبيت ، واتخذ وجهه هيئة مصدوم ، ونظره إزداد تحديقاً . رزاة تذكرنا بالطفل القديم . وفجأة انتفخ صدره ، واخذت شفتاه ترتجفان . وكما لو انه كان يحاول الالتجاء من أحد ، والتفت ، وارتمى على الوسادة منتحباً . وظل أحد ذراعيه إلى الوراء ، ولمس انطوان تلك اليد المتشنجة التي اختطفت يده حالاً وضمتها بحنو . لم يكن يعرف ماذا يقول ؛ كان يتطلع إلى ظهر أخيه المنحني الذي كان يهزه البكاء . ومرة أخرى ، اكتشف تلك النار الخبأة تحت الرماد والمستعدة دائماً للاشتعال وقاس مقدار بطلان ادعاءاته التربوية .

وفي الغد كان جاك لا يزال نائماً أو انه يتظاهر بالنوم حين ترك انطوان البيت . وتلاقيا فوق ، على المائدة العائلية . كانت قسبات جاك متعبة ، وهناك ثنية احتقارية على زوايا الشفاه ، وتلك الهيئة للاولاد الذين يشمخون بانوفهم لاعتقادهم انهم غير معترف بهم . واثناء الوليمة كان نظره يتجنب نظر انطوان . انه لا يريد ان يكون موضوع شكوى . وفهم انطوان . وبالنسبة فانه لم يحرص ابداً على التكلم عن ليزبيت . واستعادت حياتها مجراها كما لو ان شيئاً لم يحدث .

١٠

ذات مساء قبل العشاء ، دهش انطوان لوجود غلاف في بريده باسمه يتضمن رسالة مختومة بعنوان أخيه . لم يعرف الخط . وكان جاك هناك فلم يشأ ان يظهر بمظهر المتردد ، وقال : « هذه لك » .

واقترب جاك بحموية واحمر وجهه . وكان انطوان يتصفح لائحة كتب فالقى إليه الغلاف دون ان ينظر إليه . وحين رفع رأسه رأى أن جاك وضع الرسالة في جيبه . وتلاقت عيونهما ؛ وكانت عينا جاك مهاجتين . وقال :
— لماذا تنظر إلي هكذا ؟ ان لي ملء الحق بتلقي رسالة .

فتأمل انطوان أخاه دون ان يقول شيئاً ، وأدار له ظهره وترك الغرفة .
واثناء الغداء تحدث مع السيد تيبو دون ان يكلم جاك . وهبطا معاً ككل
مساء ، ولكنها لم يتبادلا أي كلام . وذهب انطوان إلى غرفته ، ولم يكذب يجلس
إلى طاولته حتى دخل جاك دون ان يقرع الباب ، وتقدم بهيئة مثيرة ، والقى
الرسالة المنشورة على المكتب :

— ما دمت تراقب رسائلتي !

فطوى انطوان الرسالة دون ان يقرأها ومد يده بها إلى أخيه . ولما لم يأخذها
هذا ، فتح أصابعه وسقطت الرسالة على الطنفسة . فالتقطها جاك ووضعها في
جيبه وقال ضاحكاً :

— إذن ، لا لزوم لمعاداتي .

فهز انطوان كتفيه . وتابع جاك رافعاً صوته فجأة :

— ثم ان عندي الكثير إذا أردت ان تعرف ! انا لست ولدأ . اني أريد .
ولي ملء الحق . وأهاجته نظرة انطوان المنتبهة الهادئة فصرخ : — قلت لك ان
عندي الكثير .

— الكثير من ماذا ؟

— من كل شيء .

وكان وجهه قد فقد كل تنوع في اللون : العين ثابتة وغاضبة ، والاذنان
منفصلتان ، والفم مفتوح قليلاً . وكل هذا كان يكسبه هيئة رعاء ؛ واصبح
كثير الاحمرار .

— مع ذلك فان هذه الرسالة وصلت إلى هنا خطأ ! فقد كنت طلبت ان
يكتب إلي إلى شباك البريد ! هناك على الأقل اتلقى الرسائل التي أريد دون ان
اقدم حساباً لأي كان .

وكان انطوان لا يزال يتفحصه دون يحيب . وقد أفاده هذا الصمت وغطى
على ارتباكاه ! لم يسبق للولد ان كلمه بمثل هذه اللهجة .

— أولاً أريد ان أرى فوتنانان ، أسمع ؟ لن يمنعني أحد !

وكان ذلك قبساً من نور : خط الدفتر الرمادي ! كان جاك يراسل فوتتانان رغم وعده . وهي ، مدام دي فوتتانان ، هل كانت على علم بذلك ! وهل كانت تسمح بهذه المراسلة الخفية ؟

للمرة الأولى رأى انطوان نفسه مجبراً على القيام بأعباء دور الأهل ، ولم يكن الزمن بعيداً حين كان يقف أمام السيد تيبو الموقف الذي يقفه جاك أمامه في هذه اللحظة . ان مظهر الامور قد تغير . وسأل عابساً :

— اكبت إذن إلى دانيال ؟

فواجهه جاك بإشارة إيجابية .

— ودون ان تحدثني عن ذلك ؟

فقال الآخر : وبعد ؟

وكاد انطوان ينهض ليضع الوقح . وضم قبضتيه . انه يخشى ان يُفقد تحول هذه المشادة ما يحرص على عدم افساده . فقال بنبرة تظهر خمود النشاط : — اذهب . فأنت لا تعرف ما تقول هذا المساء .

فصرخ جاك ضارباً برجليه :

— اقول .. اقول انني اكفيت . لست ولداً . وأريد ان اعاشر من يروق لي .

لقد اكفيت من العيش هكذا . أريد ان أرى فوتتانان . لأن فوتتانان صديقي . ولأجل ذلك كبت إليه . اني أعرف ما أفعل . وقد ضربت له موعداً . بإمكانك ان تقول لـ .. لمن تريد . لقد اكفيت ، اكفيت ، اكفيت ! وفحص برجليه ، ولم يبق فيه سوى الحق والتمرد .

أما ما لم يقله ، ما لا يستطيع انطوان ان يحزره ، فهو ان الولد المسكين ، بعد رحيل ليزبيت ، شعر بقلبه فارغاً وثقيلاً بحيث خضع لحاجة اثنان كائن شاب على سر شبابه ، واكثر من ذلك : كان يتقاسم مع دانيال هذا العبء الذي كان يخنقه . وفي حاسته المنفردة ، كان قد عاش مسبقاً ساعات الصداقة الكلية ، حيث سيتوسل إلى صديقه ان يحب النصف من ليزبيت ، وإلى ليزبيت ان تدع دانيال يأخذ على عاتقه ذلك النصف من الحب .

وقال انطوان الذي كان يتظاهر بعدم التأثر ويتذوق تفوقه :
— قلت لك ان تذهب وستحدث عن كل ذلك حين يعود عقلك إليك
فعوى جاك الذي أثارت حفيظته هذه البرودة :
— جبان ! بيدق !

وذهب مطبقاً الباب وراءه بشدة .

ونفض انطوان ليقفل الباب بالمفتاح وارتمى على كنبته وقد شحب لونه من الغضب .

— بيدق ! الأبله . بيدق ! سيدفع ثمن ذلك غالياً . إذا ظن انه يستطيع السباح لنفسه ، فهو مخطيء ! لقد ضاعت امسيتي ، فأنا غير قادر على العمل الآن . أية حماقة ارتكبتها ! ولأجل هذا الأبله الصغير . بيدق ! فعلت ذلك لأجلهم .. الأبله هو انا : اني افسد لأجله جزءاً من وقتي ، من عملي . ولكن انتهى كل شيء . ان لي حياتي ، وامتحاناتي . وليس هذا الأبله الصغير هو الذي ...

لم يكن يستطيع البقاء في مكان واخذ يذرع الغرفة . وتحيل نفسه فجأة أمام مدام دي فوتتانان ، واتخذت قسماته تعبيراً صلباً متيقظاً : « لقد فعلت ما استطعت يا سيدتي . جربت اللطف ، المحبة . تركت له اكبر قدر من الحرية . وها هو . صدقيني يا سيدتي . هناك طبائع لا نستطيع معها شيئاً . وليس للمجتمع سوى وسيلة واحدة لضابته ولمنعه من الفساد . وليست بدون سبب دعيت الاصلاحيات : « أعمال الوقاية الاجتماعية » .

وشعر بحركة كقضم الجرذان فالتفت . انها ورقة ادخلت من تحت الباب المغلق : « ارجو الصفح لأجل كلمة بيدق . لست في حالة غضب . دعني اعود » . فابتسم انطوان رغماً عنه . وانتابته فجأة اندفاعة عطف ، وبدون زيادة تفكير ، ذهب نحو الباب وفتحه . كان جاك ينتظر وذراعه يلوحان . وكان لا يزال مهتاجاً بحيث خفض رأسه وعض على شفتيه لئلا ينفجر ضاحكاً . واتخذ انطوان هيئة نائرة ، مباحدة ؛ وعاد إلى الجلوس . وقال بنشوفة :

— لدي ما أعمله . لقد جعلتني اخسر الكثير من وقتي هذا المساء . ماذا تريد؟

— أريد رؤية دانيال .

وساد صمت قصير . وبدأ انطوان :

— أنت تعلم جيداً ان ابي يعارض ذلك . وقد بذلت جهدي لأشرح لك السبب . اذكر ؟ وفي ذلك النهار كان المتفق عليه بيننا ان تقبل هذه الحالة وان لا تقوم بأية محاولة لإعادة العلاقات مع آل فوتنان . وقد وثقت بكلامك . وما أنت ترى النتيجة . لقد خدعتني ، ونقضت الميثاق في أول فرصة . والآن ، قد انتهى كل شيء : لم أعد اثق بك أبداً .
فأخذ جاك يبيكي .

— لا تقل هذا يا انطوان . هذا ليس صحيحاً . لا تستطيع ان تعلم . صحيح اني اخطأت . وما كان علي ان اكتب قبل ان اكلمك . ولكن حدث ذلك لأنه كان هناك شيء آخر كنت مجبراً على قوله ولم استطع . — وتمم : — ليزبيت .
فقاطعه انطوان حالاً .
— الأمر لا يتعلق بهذا .

وذلك ليتجنب اقراراً يزعجه اكثر من أخيه . وقال ليضطر جاك إلى تغيير الموضوع :

— اني ارضى بمحاولة تجربة جديدة واخيرة : ستعديني ..
— كلا يا انطوان ، لا استطيع ان أعدك بعدم رؤية دانيال . بل انت الذي ستعديني بان تدعني أراه . اصغ إلي يا انطوان ولا تغضب . اقسم لك أمام الله انني لن اخفي عنك شيئاً . ولكني أريد رؤية دانيال ولا أريد أن أراه دون ان تعلم . وهو ايضاً كذلك . فقد كتبت إليه ان يجيئني على شباك البريد ، فلم يشأ . اسمع ماذا كتب إلي ! « لماذا شباك البريد ؟ ليس لدينا شيء نخفيه . وكان أخوك دائماً من جانبنا . إذن فسأوجه هذه الكلمة إليه ليعطيك إياها » . وفي النهاية رفض الموعد الذي اقترحته عليه خلف البانتيون : « لقد حدثت والدتي عن ذلك . ان ابسط شيء هو ان تأتي لقضاء نهار الاحد في البيت . ان والدتي تحبكما كثيراً ، أنت واخوك ، وكلفتني ان أدعوكا » . ها انت ترى انه مخلص .

وابي لا يعرف ذلك . فهو يحكم عليه دون ان يعرف شيئاً عنه ؛ لا أريد ان أحقد كثير عليه . أما انت يا انطوان ، فشيء آخر . انت تعرف دانيال وتفهمه ، ورأيت أمه ، وليس لديك أي سبب لتكون مثل ابي . يجب ان تكون مسروراً لأن لي مثل هذه الصداقة . وقد مضى علي وقت طويل وانا وحدي ! عفواً ، لا أقول ذلك لأجلك ، وانت تعرف جيداً . ولكن انت شيء ودانيال شيء آخر . فأنت لديك اصدقاء من سنك . وتعرف جيداً ما يعني ان يكون للانسان صديق حقيقي .

— لعمري ، كلا ...

هكذا كان يفكر انطوان وهو يلاحظ التعبير السعيد الحنون الذي اتخذته وجه جاك منذ ان لفظ كلمة « صديق » . وشعر فجأة بالرغبة في الذهاب إلى أخيه وتقبيله . ولكن نظرة جاك كان فيها شيء لا يمكن تبديله وميسال إلى العراك وكان جارحاً لكبرياء انطوان ، إلا أنه كان قليل الميل إلى الاصطدام بهذا العناد وتحطيمه . مع ان حيوية جاك كانت تفرض عليه ذلك . ولم يجب بشيء ، ومد ساقيه وأخذ يفكر . وكان يقول لنفسه : « في الواقع ، يجب علي ، أنا ذو التفكير الواسع ، ان اقتنع ان عمل والدي مستحيل . ففوتنانان هذا لا يمكن ان يكون له على جاره سوى تأثير جيد . محيط كامل . سوف يساعدني في مهمتي . نعم ، بالتأكيد ، « فهي » ستساعدني ، وسوف ترى بوضوح أكثر مني ؛ وسوف تفرض نفوذها بسرعة على الصغير ؛ انها امرأة من الطراز الأول . ولكن لو عرف ابي بذلك ... حسناً ... فأنا لست ولدأ . من الذي أخذ علي عاتقه مسؤولية جاك ؟ أنا . إذن لي الحق بالحكم النهائي . وأعتبر ان دفاع والدي ، إذا أخذناه بحرفيته ، هو مستحيل وغير عادل : اني أخطاه ، هذا كل شيء . أولاً سيصبح جاك أكثر تعلقاً بي . وسيفكر : « ان انطوان ليس كأبي » . ثم اني متأكد ان الأم ... » وتخيل نفسه مرة أخرى أمام مدام دي فوتنانان التي كانت تبتسم : « سيدتي ، لقد حرصت على ان احضر لكم اخي بنفسه » . ونهض ، وخطا بضع خطوات وجاء يقف أمام جاك الذي ظل جامداً ،

وإرادته متوترة ، مصممة بضراوة على محاربة اعتراض انطوان والتغلب عليه
- اني مضطر أن أقول لك ، ما دمت اجبرتي ، ان نيتي ، رغم أوامر
أبي ، كانت دائماً في ان أدعك ترى آل فونتنان . حتى اني كنت أنوي ان أسير
بك إلى هناك ، ولكنني أردت الانتظار حتى تصبح في حالة نفسية جيدة : وكنت
أنوي الانتظار حتى العودة إلى المدرسة . ورسالتك إلى دانيال عجبت الامور .
ليكن . اني أخذ على عاتقي كل شيء . واني لن يعرف شيئاً ولا الأب الرئيس .
سندهب نهار الأحد إذا أردت .

وأضاف بعد وقفة وبنبهة لوم محبة :

- لاحظ كم تحتقر نفسك ، وكم انت غطىء لأنك لم تولني أفضل ثقة . لقد
رددت عليك عشرين مرة يا صغيري : صراحة كاملة بيننا ، ثقة متبادلة ، وإلا
فاخفاق ما كنا نأمل به .
وتتم جاك : الأحد ؟

وكان كثير الدهشة لربحه القضية دون نضال . وكان يشعر انه مخدوعاً بمكيدة
لم يكن يتبينها . ثم شعر بالحنج من هذا الشك : بالحقيقة ان انطوان هو أفضل
صديق له . يا لها من خسارة لكونه كبر بالسن ! ولكن ماذا ، الأحد القريب ؟
ولكن لم هذه العجلة ؟ أصبح الآن يتساءل إذا كان صحيحاً أنه يرغب برؤية
صديقه .

١١

كان دانيال هذا الاحدي رسم بالقرب من والدته عندما أخذت الكلبة الصغيرة
تنبح . وقرع الجرس . ووضعت مدام دي فونتنان كتابها ، فقال دانيال وهو
يتقدمها نحو الباب : دعي ذلك يا امي .
لقد اضطروا بسبب المال إلى صرف الوصيفة ، ثم الطاهية في الشهر الماضي ؛
وكانت نيكول وجني تساعدان في أعمال المنزل .
ومدام دي فونتنان التي كانت ترهف السمع ابتسمت عندما عرفت صوت
القس غريغوري ، وخطت بضع خطوات للملاقاة . وكان قد أمسك دانيال من

كتفيه ونظر إليه بضحكة بحاء :

— كيف ؟ ألسنت في الخارج للقيام بنزهة جيدة أيها الولد في هذا الطقس الجميل ؟ إذن لا يوجد عندهؤلاء الفرنسيين لا زورق ، ولا لعبة الكرة والصولجان (الكريكت) ولا رياضة ؟

كان بريق عينيهِ السوداءين الصغيرتين ، اللتين كانت حدقتها تملأ انفراج الجفنين دون ان تدع البياض يظهر ، من المتعب مقاومته عن قرب ، بحيث ادار دانيال رأسه بابتسامة قلقة . وقالت مدام دي فونتانا :

— لا توبخه . انه ينتظر زيارة رفيق . . أتعرف آل تيبو ؟

فبعث القس في ذاكرته مكثراً ؛ وفجأة ، وبحيوية شيطانية ، فرك يديه الجافتين الواحدة بالآخرى وبقوة ، بحيث كان يخيل ان الشرر يتطاير منها . وانشق فمه عن ضحكة غريبة صامتة . وقال أخيراً :

— اوه ! نعم . الطبيب الملتحي ؟ جيد ، شاب شجاع . أتذكرين أي وجه مندهش حين أتى ليرى شيتنا الصغير المحبوب الذي بعث حياً ؟ كان يريد أن يقيس البعث بميزان الحرارة ! الزميل المسكين ! ولكن أين هي عزيزتنا ؟ هل هي سجينه غرفتها أيضاً في هذه الشمس الرائعة ؟^(١)

— كلا ، اطمئن . ان جنني في الخارج مع ابنة خالها . لم يكادا يصبران على تناول الافطار . وهما تجربان آلة تصوير . . تلقتها جنني بمناسبة عيدها .

وقدم دانيال مقعداً للقس ، ورفع رأسه ونظر إلى أمه التي اضطرب صوتها وهي تدلي بهذه التفاصيل . وسأل غريغوري وهو يجلس :

— ماذا بشأن نيكول هذه ؟ اما من شيء جديد ؟

فأشارت مدام دي فونتانا بالنفي . لم تكن راغبة في طرق هذا الموضوع أمام ولدها الذي تطلع نحو القس عند ذكر اسم نيكول .

وقال القس فجأة وهو يلتفت نحو دانيال :

١ - في كلام القس كثير من الكلمات الانكليزية . وقد ترجمناها دون الاشارة الى ذلك .

— ولكن قل لي أيها الولد . متى يأتي صديقك الملتحي ليزعجنا ؟

— لا أدري . ربما حوالي الساعة الثالثة .

ونهض غريغوري ليستخرج من صدرته الكهنوتية ساعة فضية عريضة كالطاسة ، وصاح :

— جيد جداً . أمامك ساعة تقريباً أيها الغلام الكسول ! إلتق عنك سترتك واذهب حالا ، واركض حول لو كسمبورغ لتربح امتيازاً بالركض على القدمين ، هيا !

فتبادل الشاب نظرة مع امه وانهض .

— حسناً ، حسناً . اني اتركك ، أيها الغلام المحتال !

قال ذلك بحيث متمماً مهدداً بقبضته .

ولكن ما أن أصبح وحيداً مع مدام فونتانا حتى اتخذ وجهه الاجرد تعبيراً يدل على الطيبة واصبحت نظراته مداعبة . وقال :

— الآن ، اتى الوقت الذي ارغب فيه بالتحدث إلى قلبك فقط يا عزيزتي .

وجمع افكاره كأنه يصلي ، ثم أتى بحركة عصبية ، وأدخل أصابعه في فتائله السوداء ، وأخذ كرسياً وجلس منفرج الساقين . وأعلن وهو يرى مدام دي فونتانا يشحب لونها :

— لقد رأيته . وجئت من قبله . إنه يأسف . كم هو بائس !

ولم يفارقها بنظره ؛ وكان يبدو ، وهو يشملها بنظره الفرح بشكل عنيد ، انه يريد تهدئة الألم الذي حمله اليها .

— هل هو في باريس ؟

تمتعت بذلك دون أن تفكر بما قالت ، لأنها تعلم أن جيروم قد جاء بنفسه أول الباردة ، في عيد ميلاد جني ، ليضع لابنته آلة التصوير تلك عند زوجة البواب . بحيث لم يرتكب ذنب الاحتفال بميلاد أولاده بعد . وتابعت بصوت ساهٍ دون ان يتوصل تعبير وجهها إلى الاستقرار : « هل رأيته ؟ » . منذ شهر وهي تفكر به بطريقة مستمرة ، مسبهة بحيث اجتاحتها حذر خاص منذ

أن أصبح هو موضوع الحديث .

وردد القس بالحاح :

— انه بائس ! انه منك بتوبيخ الضمير . وغلوقة التي تستحق الشفقة لا تزال مغنية . ولكنه متقزز فعلاً ، فهو لا يريد ابداً أن يراها . ويقول انه لا يستطيع حقيقةً أن يعيش بدون زوجته ، وبدون اولاده . واعتقد ان هذا صحيح . انه يطلب عفوك ؛ ويعد بكل شيء ليظل زوجاً لك ؛ يرجوك وان تبعدى إرادة الطلاق . ووجهه ، وقد نفذت اليه ، هو الآن وجه منصف : فهو في الواقع رجل مستقيم وصالح .

وسكنت واخذت تنظر أمامها بغموض . وخداها المليتان ، والذقن السمينة قليلاً ، والفم المسترخي الحساس كانت كلها توحى بكثير من الوداعة بحيث ظن غريغوري انها غفرت . وتابع :

— يقول انكما ستذهبان هذا الشهر إلى المحكمة لأجل المصالحة . وان الاجراءات الحقيقية للطلاق ستبدأ بعد ذلك . انه يستعطف لأنه بالحقيقة قد تغير بشكل كلي . ويقول ان دخيلته بخلاف مظهره ، وافضل مما نعتقد . وانا ايضاً افكر بذلك . وهو يرغب الآن بالعمل إذا وجد عملاً . وسيعيش هنا معك إذا أردت ، في طريق مجدد ومرمم .

ورأى الفم يتشنج ورجفةً حركت أسفل الوجه . وهزت كتفها فجأة وقالت :

— كلا .

كانت اللهجة قاطعة ، والنظرة مؤلمة ومتعالية . وبدا عزمها ثابتاً لا يمكن الرجوع عنه ، فقلب غريغوري رأسه ، وانغض عينيه وظل صامتاً فترة طويلة . وقال اخيراً بصوت يختلف كثيراً ، بعيد وبدون حرارة :

— انظري . سأسرد عليك حكاية لا تعرفينها ، أتردين ؟ انها حكاية رجل يحب كائناً آخر . قلت اسمعي . كان عريساً لا يزال شاباً لفتاة فقيرة كثيرة الطيبة ، كثيرة الجمال ، محبوبة حقيقة من الرب الذي يحبه هو ايضاً .

وأصبحت نظراته ثقيلة فقال : .. بكل روحه .

ثم بدا انه يبذل جهداً ويبحث اين صار وتابع بسرعة :

— وعندئذ ، بعد الزواج ، هذا ما حدث : شعر هذا الرجل ان زوجته لم تكن تحبه وحده فقط ، بل تحب رجلاً آخر كان صديقاً لها ويأتي إلى البيت بمثابة اخ للاتنين . واصطحب الزوج المسكين آنذاك زوجته في رحلة طويلة ليساعدها على النسيان ، ولكنه أدرك انها سوف تحب دائماً الرجل الآخر الصديق ، وليس هو ابداً : وبدأ الجحيم بينهما . وكان يرى زوجته متألماً وهي تحبونه في جسدها ، ثم في قلبها ، واخيراً في نفسها لأنها أصبحت ظالمة وردية . نعم . — قال ذلك بوقار : — كان هذا الأمر مخيفاً في الواقع : لقد أصبحت رديئة بسبب الحب المعاكس ، وهو ايضاً أصبح رديئاً ، لأن السليبي كان حولها . إذن ماذا تظنين ان هذا الرجل قد فعل ؟ كان يصلي ، وكان يفكر : « اني أحب كائناً وعلي ان اتجنب الاذى لهذا الكائن » . وبكل سرور دعا زوجته وصديقه إلى غرفته الخاصة ، أمام الانجيل ، وقال ! « كونا متزوجين بشكل احتفالي أمام الله ، بواسطتي انا نفسي » . وبكى الثلاثة . ولكنه قال بعد ذلك : « لا تخافا : انا سأرحل ، ولن أعود ابداً لأفسد سعادتكما » .

ووضع غريغوري يده أمام عينيه ، ولفظ بصوت منخفض :

— آه ! يا عزيزتي . يا لها من مكافأة من الله تلك الذكرى لتضحية كاملة كهذه ! — ثم رفع جبهته — وقد فعل كما قال : ترك لها كل ماله لأنه كان كثير الغنى ، وهي فقيرة كأيوب البائس ، وذهب بعيداً ، إلى الناحية الأخرى من العالم ، وانا اعلم انه لا يزال وحيداً منذ سبع عشرة سنة ، دون مال ، يربح معيشته بتعبه ، كما يستطيع انا ان افعل ، كمعرض بسيط تلميذ في « جمعية العلوم المسيحية » .

وكانت مدام دي فوتتانان تتفحصه بتأثر . وقال بحدة :

— انتظري ، سأقول لك النهاية الآن .

كان وجهه مجتذباً من جميع النواحي . ومن مسند الكرسي حيث كان يسند

مرفقه ، فان أصابعه التي تشبه أصابع الهيكل العظمي ، تشابكت فجأة ، وقال :

— المسكين ، كان يعتقد انه ترك لها السعادة وراه ، وانه حمل معه جميع الاشياء الرديئة ، ولكن هنا سر الله : ان الشر هو الذي ظل معها . لقد ضحكا منه ، وخانا الروح . وقبلنا تضحيته باكين ولكنها كانا ساخرين في قلوبنا . كان يتقولا ان عليه الاكاذيب بين الطبقة المتوسطة . ونشرا رسائل منه . وتظاهرا ضده بسبب معرفته الوهمي ، حتى انها قالوا انه ترك زوجته دون أي فلس ليمتلك امرأة أخرى في أوروبا . لقد قالوا اشياء . نعم ! ودفعنا ثمن حكم بالطلاق ضده .

وخفض جفنيه لحظة ، وأصدر نوعاً من النقيق الأبح ، ونهض ، وأعاد كرسيه باعتناء إلى المكان الذي أخذه منه . . واعشى كل أثر للألم عن وجهه ، وتابع وهو ينحني نحو مدام دي فونتانا الجامدة :

— وبعد ، فهذا هو الحب . وكان الصفح ضرورياً جداً بحيث لو أتت ، في اللحظة ذاتها ، تلك المرأة العزيزة الخائنة فجأة إلى لتقول : « جيمس ، اني أعود الآن إلى تحت سقف بيتك . ستكون من جديد خادمي المُداس . وسأضحك منك أيضاً حيناً اريد » . فسوف أقول لها : « تعالي وخذي كل هذا القليل الذي لدي . اني اشكر الله لعودتك . وسوف أقوم بمجهود عظيم لأكون حقيقة صالحاً أمام عينيك ، ولتصبحي انت ايضاً صالحة : لأن الشر غير موجود » . نعم ، بالحقيقة يا عزيزتي ، لو جاءت زوجتي دولي Dolly ذات يوم إلى جانبي لتطلب ملجأ ، فأليك ما أفعل معها : لن أقول : « لقد ساحتك يا دولي » ، بل أقول فقط : « المسيح يراعك » ! وهكذا فأقوالي لن تعود إلي فارغة ؛ لأن الخير هو السلطة الوحيدة القادرة على إيقاف السليبي » ! — وصمت وصالب ذراعيه ، وأخذ ذقنه المقرقة بلم يده . وبصوت مغتنى لواعظ بروتستانتية : — « انت ، عليك ان تعملي يا مدام دي فونتانا لأنك تحبين هذا الكائن بكل حبك ، والحب هو العدالة . وقد قال المسيح : « إذا لم تكن عدالتكم سوى عدالة الكاتب الاعتيادي

والفريسي ، فلن تدخلوا ملكوت السماء » .

وهزت المرأة المسكينة رأسها ، وتتمت :

— أنت لا تعرفه يا جيمس . فاهواء حوله فاسد . انه يحمل الشر إلى كل مكان .

وسوف يهدم سعادتنا من جديد . سوف ينقل العدوى إلى الأولاد .

— حين لمس المسيح جرح الابرس بيده ، فليست يد المسيح هي التي أصبحت

موبوءة ، ولكن الابرس هو الذي نظف .

— تقول انني احبه . كلا ، ليس هذا صحيحاً ! فأنا اعرفه الآن جيداً .

وأعرف قيمة وعوده . لقد كنت كثيرة الصفح في أغلب الأحيان .

— حين سأل بطرس المسيح كم يجب على الأخ ان يسامح أخاه . « أيجب حتى

السبع مرات » . عندئذ أجاب المسيح : « ما هذا حتى سبع مرات . اما أنا

فأقول حتى سبعين مرة سبع مرات » .

— اقول لك انك لا تعرفه يا جيمس .

— من إذن يستطيع ان يفكر : « اني اعرف اخي » ؟ فقد قال المسيح :

« اني لا افاضي احداً » . وانا ، غريغوري ، اقول : ان من يحيا حياة

الخطيئة دون ان يكون مضطرباً او بائساً في قلبه ، فذلك لأنه لا يزال بعيداً

عن ساعة الحقيقة ؛ اما القريب من ساعة الحقيقة فهو الذي يبكي لأن حياته في

الخطيئة . اقول لك انه يتحسر ، وقد كان له وجه حكيم .

— أنت لا تعرف كل شيء يا جيمس . سله ماذا فعل حين اضطرت تلك المرأة

الى الهرب إلى بلجيكا لتتخلص من الدائنين الذين كانوا يلاحقونها . كانت قد

ذهبت مع آخر ؛ وقد ترك كل شيء ليتبعها ورضي بكل ما يشوه سمعته . وقد

شغل طوال شهرين وظيفة مراقب في المسرح الذي كانت تغني فيه ! اقول لك

ان هذا عار . وكانت مستمرة في العيش مع عازف الكمان ، ورضي بكل شيء ،

وكان يتناول هشاءه عندهما ، ويأتي ليعزف الموسيقى مع العشي وعشيته .

وجه الحكيم ! اذت لا تفهمه . انه اليوم في باريس ، نائب ، ويقول انه ترك تلك

المرأة التي لا يريد ان يراها . لماذا اذن يدفع ديونها اذا لم يكن للتعليق بها من

جديد ؟ ذلك لأنه يدفع لدائتي نويمي واحداً أثر واحد . نعم . إليك لماذا هو في باريس ! ومع أي مال ؟ مالي ، مال أولادي . وها قد مضى ثلاثة أسابيع ، أتعرف ماذا صنع ؟ لقد رهن عقارنا في ميزون — لافيت ليدفع خمسة وعشرين ألف فرنك لأحد دائتي نويمي الذي فرغ صبره .

وخفضت جبهتها ؛ ولم تقل كل شيء . وتذكرت تلك الدعوة إلى الاجتماع عند الكاتب العدل والتي ذهبت إليها دون حذر ، فوجدت جيروم على الباب ؛ كان ينتظرها لأنه بحاجة إلى وكالتها لأجل الرهن ، لأن العقار كان ملكاً لها ، هي ، بالوراثة . وكان يتوسل إليها محتجاً انه بدون أي فلس ، مدفوع إلى الانتحار ؛ وقلب جيروم على الرصيف . واستسلمت دون نضال تقريباً . ورافقه إلى الكاتب العدل لكي يكف عن مضايقتها هكذا في وسط الشارع ، وأيضاً لأنها كانت هي نفسها بحاجة إلى المال وقد وعدها بان يقطع من المبلغ بعض الأوراق النقدية بألف فرنك كانت بحاجة إليها لتعيش ستة أشهر ، بانتظارتنظيم الحسابات بعد الطلاق .

— اكرر عليك انك لا تعرفه يا جيمس . هل أقسم لك بأن كل شيء تغير ، وانه راغب في العيش معنا ؟ ولو اخبرتك انه قبل البارحة ، حين أتى يضع هديته لعيد ميلاد جني تحت ، ترك على بعد مئة متر من بابنا عربية ... لم يأت فيها وحده !

وارتعشت ، واستعادت في ذهنها فجأة ، على مقعد رصيف التويلري ، جيروم وتلك العاملة الصغيرة المرتدية الأسود ، والتي كانت تبكي . عندئذ نهضت وصرحت :

— هذا هو الرجل كما هو . لقد بطل عنده كل حس اخلاقي إلى هذه الدرجة ، بحيث ترافقه عشيقة التقى بها في اليوم الذي ذهب ليتمنى عيداً سعيداً لابنته ! وتقول انني لا أنزال احبه . كلا ، ليس هذا صحيحاً . وكانت قد انتصبت . وبدت في هذه اللحظة انها تكرهه حقيقة . وتأملها غريغوري بقساوة وقال :

— أنت لست في صلب الحقيقة ، حتى بالتفكير . هل علينا أن نقابل الشر بالشر ؟ الروح هي كل شيء . والمادي عبد للروحي . وقد قال المسيح — وقطع كلامه بنجاح بوس فدمدم مكشراً : ها قد أتى دكتورك الملعون الملتحي . وأسرع يأخذ كرسيه ويجلس .

وفتح الباب فعلاً . انه انطوان يتبعه جاك ودانيال . لقد دخل بخطوته الجريئة وقد رضي بنتائج هذه الزيارة . كان نور النوافذ المفتوحة يضربه في وجهه ؛ وشعره ولحيته يشكلان كتلة قاتمة ؛ وكان جميع ألقي النهار يتركز على مثلث الجبهة الابيض الذي يكسبه شعاع العبقرية ؛ ومع انه ذو قامة متوسطة فقد بدا كبيراً للحظة . ورأته مدام دي فونتانا آتياً ، فامتدت كل جاذبيتها المستيقظة . وبينما كان ينحني أمامها وهي تأخذ بيده ، عرف غريغوري ، وكان مشمئزاً لوجوده هناك . أما القسيس فقد أشار إليه من مكانه بجركة من رأسه فيها بعض التعجب .

وكان جاك ، وهو منزوي في ناحيته ، يتفحص الرجل العجيب بفضول . وغريغوري منفرج الساقين على مقعده ، والذقن على ذراعيه المتصالبين ، والآنف احمر ، والفم يكشر ابتسامة غير مفهومة ، كان يتأمل الشابين بسذاجة . وفي تلك اللحظة اقتربت مدام دي فونتانا من جاك ، وتعبير عينيها كثير المودة ، بحيث تذكر المساء يوم أبقت بين ذراعيها وهو يبكي . وكانت هي نفسها تفكر بذلك لانها هتفت :

— لقد كبر كثيراً بحيث لن أجرؤ ...

وبما أنه قالت ذلك وقبلته ، فقد أخذت تضحك بدون اي شيء من الدلال وقالت :

— صحيح انني ام ؟ وانت كأخ لدانيال ...

ولكنها رأته ان غريغوري قد نهض وانه استعد للذهاب فقالت :

— لن تذهب يا جيمس .

فقال : الآن يجب ان أذهب .

وشد بقوة على يدي الاخوين وسار نحوها ، فقالت له مدام دي فونتانا
وهي ترافقه خارج الغرفة :

— كلمة اخرى أيضاً . أجبني بصراحة بعد الذي أخبرتك به عنه ، أعتقد
ان جيروم جدير باستعادة مكانه بيننا ؟ — واستجوبته بعينها — زن جوابك
يا جيمس . فإذا قلت لي : « اصفحي » فاصفح .

فصمت ؛ وكان نظره ووجهه يفصحان عن تلك الشفقة العامة التي يتلذذ بها
اولئك الذين يعتقدون انهم يملكون الحقيقة . وظن انه رأى ألقاً من الأمل يمر
في عيني مدام دي فونتانا . انه لم يكن ذلك الصفح الذي يرغبه المسيح منها .
فأدار رأسه وأسمع ضحكة رفضية .

عندئذ أمسكت بذراعه ، وأظهرت انها تصرفه بمحبة .

— أشكرك يا جيمس . وقل له : كلا .

لم يكن يسمعها . وكان يصلي من اجلها . وتغم وهو يبتعدون ان ينظر إليها :
— ليسيطر المسيح على قلبك .

وحين عادت إلى قاعة الاستقبال حيث كان انطوان ينظر حوله ويفكر
بزيارته الاولى ، فان مدام دي فونتانا اضطرت إلى بذل الجهد لكبح اضطرابها .
وهتفت مقتنبة الترحيب :

— كم هو لطيف ان ترافق أخاك . أجلس هنا . ودلت انطوان على مقعد
بقرها . سنفعل خيراً اليوم بالا نعتمد على الصغار لمرافقتنا .

وبالفعل ، فان دانيال أدخل ذراعه تحت ذراع جاك وسار به نحو الغرفة .
لقد اصبحا الآن بنفس القامة ، ودانيال لم يكن ينتظر أن يرى صديقه متغيراً
هكذا ؛ وكانت صداقته وطيدة ، ورغبته في المسارعة اكثر إلحاحاً . وما ان
اصبحا وحيدين حتى انتعش وجهه واتخذ تعبيراً غامضاً .

— انبئك أولاً : سترأها : انها ابنة خالي تسكن معنا . انها .. إلهية !

هل فاجأ قلقاً في هيئة جاك ؟ هل اضطرب بسبب وسواس متأخر ؟ وقال
بابتسامة محبوبة ، وكان يحتفظ حتى في صداقته بمجاملة احتفالية :

ولكن لتحدث عنك . منذ سنة . فكّر إذن !

وبما ان جاك كان صامتاً ، فقد تابع منحنيّاً :

— أوه ! لا شيء حتى الآن . ولكنني آمل .

كان جاك منزعجاً من إلحاح النظرة ، ومن رنة الصوت . وادرك أخيراً ان دانيال لم يكن كالسابق ، ولكن لم يعرف بماذا . فقسّماته ظلت هي نفسها ؛ وربما بيضوية الوجه قد استطالت ، ولكن للغم دائماً نفس الاعوجاج المعقد الذي ظهر بشكلٍ افضل في شريط الشاري ؛ واحتفظ بالطريقة نفسها في الابتسام من ناحية واحدة ، الابتسام الذي يشوش فجأة ترتيب الخطوط ويكشف الاسنان العليا من ناحية الشمال ؛ وربما كانت تتألق عيناه ببريق اقل صفاء ؛ وربما كان حاجباه يلبيان بشكل زائد ذلك الامتداد نحو الصدغين ، حيث يكسب النظر عذوبة غير ثابتة ؛ وربما ايضاً يجعلنا نشعر في صوته وفي تصرفاته بنوع من السيرة الطليقة التي لم يكن مسموحاً بها قبلاً .

كان جاك يتفحص دانيال دون ان يفكر باجابته ، وربما بسبب تلك البلادة الوقعة التي تزعجه وتغريه في الوقت نفسه ، شعر فجأة انه محمول نحو صديقه بعودة تلك المودة المحمومة التي كان يشعر بها في المدرسة ؛ وجالت الدموع في عينيه .

وهتف دانيال الذي لم يكن يثبت في مكان ، ثم جلس ليرغم نفسه على الانتباه :

— حسناً . لمر ، منذ سنة ؟ إحكِ !

كانت هيئته تظهر المودة الصحيحة ؛ إلا ان جاك كان يشعر بتأثيرٍ شلّ حركته . ومع ذلك فقد بدأ يتحدث عن اقامته في الاصلحية . وعاد إلى الانفاس ، دون ان يريد ، في نفس « الكليشيات » الادبية التي جرّبها على ليزبيت ؛ وكان يمنعه نوع من الحجل ان يتحدث بلا تصنع عما كانت حياته هناك كل يوم . .

— ولكن لماذا كتبت قليلاً ؟

فتجنب جاك ذكر السبب الحقيقي ، ليضع والده بمعزل عن كل نقد سيء

القصد ، الأمر الذي لم يكن يمنعه ، فيما يتعلق به ، ان يستقبح السيد تيبو في كل شيء . ووضح بعد وقفة ، لاشيء سوى ان يكسب وجهه تعبير ذهول :

— الوحدة ، كما تعلم ، تغير . يصبح المرء غير مبالٍ بشيء . وهناك أيضاً خوف مبهم لا يفارقك . ويقام ببعض الحركات ولكن دون تفكير بشيء . ومع المدة الطويلة لا يعود المرء يعرف أيضاً إذا كان موجوداً . وينتهي بالموت هناك .. أو يصبح مجنوناً .

أضاف ذلك متطلعاً أمامه بنظرة مستفهمة . وارتجف ارتجافاً خفيفة ، وبدل النبرة وروى زيارة انطوان إلى كروي .

كان دانيال يصغي إليه دون ان يقاطعه . ولكن ما ان رأى اعتراف جاك قد انتهى حتى انتعشت قساوته ، وقال :

— حتى اني لم اذكر لك اسمها . فيكول . التحب ؟
— كثيراً .

قال جاك وقد فكر لأول مرة باسم ليزبيت :

— أرى انه أسم يناسبها . ستري . ليست جميلة ، وجميلة إذا أردت . ولكنها اكثر من جميلة : ناضرة ، ملأى بالحياة ، وعينان — وتردد — انها شهية ، اتفهم ؟ وتجنب جاك نظراته . هو أيضاً تمنى ان يتحدث بقلب مفتوح عن غرامه ، وقد جاء لأجل ذلك . ولكن ، منذ اعترافات دانيال الأولى شعر باضطراب في النفس . والآن أيضاً ، كان يستمع منخفض العينين ، مع شعور بالمضايقة ، وربما الحجل .

وردد دانيال كاتماً جذله بشكل سيء :

— هذا الصباح كانت امي وجني قد خرجتا باكراً . عندئذ اصبحنا وحدنا نتناول الشاي ، نيكول وانا ، وحدنا في الشقة . لم تكن قد ارتدت ملابسها بعد . وكان الامر لذيداً . تبعتها إلى غرفة جني حيث تنام . وعندئذ ياعزيزي ، تلك الغرفة ، وسرير الفتاة ذاك .. اخذتها لحظة بين ذراعي . كانت تنتفض . ولكنها كانت تضحك . وكانت ذات جسم مرن بحيث نجت واقفلت على نفسها

في غرفة والدتي . ولم تشأ ان تفتح الباب ابداً . . انها حماقة ان أقص عليك ذلك .
قال ذلك وهو ينهض . واراد ان يتنسم ولكن شفتيه ظللتا متشنجتين .
وسأله جاك : اتريد الزواج منها ؟
— انا ؟

وشعر جاك بانطباع مؤلم كأنه مسح اهانة ، واصبح صديقه غريباً عنه بين
دقيقة واخرى . وشمله دانيال بنظرة فضولية ، ساخرة قليلاً ، انتهت بفقدان
حرارته . وسأل دانيال وهو يقترب !

— ولكن انت ؟ وفقاً لرسالتك فأنت ايضاً قد ..

فهرج جاك رأسه ، وعيناه لا تزالان منخفضتين . كان يبدو انه يقول : « كلا ،
لقد انتهى الامر ، لن تعرف شيئاً مني » . ومع ذلك فان دانيال نهض دون ان
ينتظر جواباً . وتناهت إليها ضجة أصوات فنية .

— ستروي لي فيما بعد . هاهم . تعال .

والقى نظرة على المرأة ، ورفع رأسه ، واندفع في الرواق .
ونادت مدام دي فوتنانان :

— يا أولادي .. إذا أردتم تناول الطعام .

وكان الشاي قد أعد في قاعة الطعام .

وشاهد جاك من الباب ، وهو واجف القلب ، فتاتين بقرب المائدة . وكانتا
لا تزالان تحتفظان بقبعتيهما ، وقفازيهما ، وصبغتهما المنتعشة من الزهة . وجاءت
جني إلى امام دانيال وتعلقت بذراعه . ولم يظهر عليه انه يحذر منها ، ودفع
جاك نحو نيكول ، واجرى التعارف بسهولة فكهة . وشعر جاك بفضول نيكول
ينزلق عليه ، وبثقل نظرة جني الفاحصة ؛ فأدار عينه نحو مدام دي فوتنانان
التي كانت تقف بالقرب من انطوان في باب قاعة الاستقبال تكلل حديثاً بدىء
به . وقالت وهي تنبسم بكآبة :

— ... افهام الاولاد انه لا يوجد اثنان من الحياة ، وانها قصيرة بشكل

لا يصدق .

لقد مضى وقت طويل على جاك دون ان يجد نفسه وسط اشخاص غرباء ، وقد استهواه هذا المشهد إلى درجة انه انتزع منه كل خجل . وبدت له جني صغيرة ، كثيرة القبح ، بقدر ما كان لدى نيكول من الاناقة الطبيعية والبريق . كانت في تلك اللحظة تتحدث مع دانيال وتضحك . ولم يميز جاك كلامها . وكانت ترفع حاجبها دون انقطاع علامة الدهشة والفرح . وعيناها ، بلون رمادي ضارب الى الزرقة ، قليلتا العمق ، متباعدتان ، ربما كثيرون الاستدارة ، ولكنها لامعتان ومرحتان ، تحتفظان بتجديد دائم للحياة على وجهها الأبيض والاشقر اللحم الذي كانت تثقلة صغيرة كثيفة ، ملفوفة كاللنج حول رأسها . كانت لها طريقة في البقاء منحنية قليلاً الى الامام تكسبها دائماً هيئة الإسراع نحو صديق ، وتقديم رشاقة ابتسامتها الحيوانية لكل آت . وعاد جاك رغماً عنه ، وهو يتفحصها الى كلمة دانيال التي كدرته جداً : « شهية » ... وشعرت ان هناك من يتفحصها ففقدت حالاً ما فيها من طبيعي بأن بالغت به .

ذلك لأن جاك لم يكن يهتم ابداً باخفاء الفائدة التي توحىها الكائنات اليه ؛ كانت له سذاجة الولد الذي يتأمل ، مشدوهاً ، ووجهه يصبح ثابتاً ، ونظره لا حرارة فيه . وفي السابق ، قبل عودته من كروي ، لم يكن هكذا ؛ كان يدفع الناس بمرفقه بكثير من اللامبالاة ، لانه لم يكن يعرف احداً . والآن حيث يكون ، في مخزن ، في الشارع فان نظره تتلقف المارة . الا أنه لم يكن يحلل ما يكتشفه فيهم ، ولكن تفكيره كان يعمل دون علمه ؛ لأنه كان يكفيه ان يفاجئ احدى الخصائص في الهيئة او الموقف ليصبح هؤلاء المجهولون الذين التقاهم صدفة ، اشخاصاً خصوصيين في تخيلته يعزو إليهم ميزات ذاتية . وانتزعته مدام دي فوتتانان من أحلامه بأن وضعت يدها على ذراعه ، وقالت له :

— تعال كل يوماني . زرني الآن زيارة قصيرة . وقدمت اليه فنجاناً وصحناً . انا مسرورة جداً لرؤيتك هنا . جني يا صغيرتي ، قدمي الينا الحلوى . لقد سرد عليّ اخوك الحياة التي تعيشانها في الشقة الصغيرة . وانا مسرورة جداً !

اخوان يتفاهمان كصديقين حقيقيين ، هذا هو الشيء البديع ! ان دانيال وجني يتفاهمان جيداً ، هما ايضاً . وهذا فرحي الأكبر . هذا يجعلك تبسم يا كبيرى . قالت ذلك لدانيال الذي كان يقترب مع انطوان . يجب دائماً ان يسخر من امه الهرمة . قبّلني عقاباً لك ، وامام الجميع .

كان دانيال يضحك . وربما كان مزعجاً . ولكنه اغنى ولامس بشفتيه صدغ امه . كانت اقل حركاته مشبعة بالكياسة .

وكانت جني في الناحية الاخرى من المائدة تتابع المشهد ؛ وابتسمت ابتسامة ناعمة فتنت انطوان . ولم تقاوم الهجيء من جديد لتتعلق بذراع دانيال . وفكر انطوان : « هذه واحدة اخرى ايضاً تعطينى اكثر مما تأخذ » وكانت نظرة المرأة في ذلك الوجه الطفولي قد اقلقت منذ زيارته الاولى . وقد لاحظ حركة الكتفين الجميلة التي كانت تتفلت منها بين وقت وآخر لترفع صدرها الناهد خارج المشد ، ثم تتركه يعود الى مكانه بهدوء . لم تكن تشبه امها في شيء ؛ ولا دانيال . ولم يكن في ذلك ما يدهش : كانت تبدو مولودة لحياة تختلف عن الآخرين . كانت مدام دي فونتنان تشرب الشاي يجرعات صغيرة ، مبقية الفئجان قريباً من وجهها الضاحك ، ومن خلال البخار كانت تقوم باشارات صغيرة من الصداقة لجاك . وكانت نظرتها ، من شدة الضوء والرقّة ، تعطينى انطباع نور ، وحرارة ، وشعرها الأبيض يتوج ، كتاج مدهش ، جبهتها الفتية المكشوفة بشكل واسع . وكانت عينها جاك تذهب من الأم الى الابن ، كان يحبها كلاهما في تلك الدقيقة بكثير من القوة بحيث كان يتمنى بجرارة ان يظهر ذلك ؛ لأنه كان يشعر اكثر من غيره بالحاجة لأن لا يبقى مجهولاً . ورغبته الحارة في معرفة الكائنات كانت تصل إلى هذا الحد : الى حد الرغبة في اذابة حياته في حياتها . وارتفع امام النافذة جدال بين نيكول وجني ، فجاء دانيال يدلي بدلوه فيه .. لقد انجمت الثلاثة على آلة التصوير ليتأكدوا اذا كان قد بقي فيها فيلم للتصوير . وهتف دانيال فجأة بذلك الصوت الحار الذي لم يكن يملكه في السابق مثبتاً على نيكول نظره المداعب المتعجرف :

— لكي أكون مسروراً . نعم ! أبقين كما انتن هناك ، بالقبعات ؛ وصديقي تيبو بجانبكن .

ونادى بصوت منخفض :

— جاك ! أرجوك ، أريد ان أصوركم معاً .

فانضم جاك إليها . واقتادهم دانيال بالقوة إلى قاعة الاستقبال حيث النور افضل ، كما قال .

وكانت مدام دي فوتتانان وانطوان قد تأخرا في قاعة الطعام .

وختم انطوان الحديث بهذا الكلام العنيف الذي يبدو له انه يكسب حديثه لهجة الصراحة .

— اني احرص على ألا تكوني مخطئة حول هذه الزيارة . لو كان يعلم بوجود جاك هنا ، وانني انا الذي اتيت به ، فاني اعتقد انه يخلص أخي من نفوذي ، ولبدأ كل شيء من جديد .

فتمتعت مدام دي فوتتانان بنبرة ابتسم لها انطوان :

— يا للرجل المسكين !

— اترئين له ؟

— لأنه لم يعرف ان يستحق ثقة ولدين امثالكما .

— ليس الخطأ منه ، وكذلك ليس مني . فإني هو ما يستحق ان يدعى

رجلاً سامياً ومحترماً . اني احترمه ، ولكن ماذا تريدن ؟ اننا لا نفكر ابداً نفس التفكير حول نقطة واحدة ، وانا لا اقول الشيء نفسه فقط ، بل أقول بطريقة مماثلة . ومهما كان الموضوع فاننا لا نتمكن ابداً من اتخاذ وجهة نظر واحدة .

— لم يتلقّ الجميع النور بعد .

فقال انطوان بحدة :

— إذا كنت تفكرين بالدين فان والدي مفرط في تدينه .

فهزت مدام دي فوتتانان رأسها :

— كان بولس الرسول من الرأي القائل بأن ليس الذين يسمعون الناموس هم العادلون أمام الله ، بل أولئك الذين يطبقونه .

كانت تشعر حيال السيد تيبو ، الذي تعتقد انها تربي له من كل قلبها ، بنفور غريزي عنيف . والمنع الذي كان موضوعه ولدها وبيتها ، بدا لها كثير الظلم ومعللاً بأخس الأسباب . وتذكرت باشمزاز منظر الرجل الكبير ، ولم تغفر له ارتيابه بذلك الذي تقيم له أعظم وزن : تربيته الاخلاقية ، وبروتانتيتها . وكانت راضية عن انطوان لأنه نقض الحكم الوالدي . وسألت بخوف مبهم مفاجيء :

— وانت ، هل ظللت تمارس واجباتك الدينية ؟

فأشار بالنفي . وكانت سعيدة لأن وجهها تألق . وقال موضعاً :

— بالحقيقة انني مارست واجباتي الدينية متأخراً .

وكان يبدو له ان وجود مدام دي فونتنان جعله اكثر جلاء ؛ واكثر ثرثرة بالتاكيد ، ذلك لأن لها طريقة بالاصغاء تستميل القلوب وتكسب محدثها قيمة وتشجعهم على الارتفاع ، لأجلها ، فوق مستواهم العادي .

— لقد اتبعت الروتين دون تقوى حقيقية . وكان الله بالنسبة إلي نوعاً من مدير مدرسة ثانوية لا يغرب عنه شيء ، وان من الحكمة ارضاءه بواسطة بعض الحركات وشيء من النظام ؛ كنت اطيع ، ولكني لم أكن أجدر الضجر في ذلك وكنت تلميذاً ممتازاً بكل شيء ؛ وبالدين أيضاً . فكيف أضعت الايمان ؟ لا أعرف شيئاً عن ذلك . وحين خطر ببالي — منذ أربع أو خمس سنوات — كنت قد بلغت درجة من الثقافة العلمية لم تترك للمعتقدات الدينية سوى مكان قليل . ان اختباري — قال ذلك بشيء من الفخر ، والصحيح انه كان يوضح بذلك أفكاراً ارتجلها دون ان يكون لديه فرصة أو عطلة ليحلل نفسه بشكل لطيف — اني لا أقول ان العلم يوضح كل شيء ، ولكنه يحقق ؛ وأنا ، يكفيني هذا . و « كيف » تشوقني بما فيه الكفاية لأقلع دون أسف عن البحث العبث عن « لماذا » . — وأضاف بسرعة خافضاً صوته : — بين هذين النظامين لا يوجد

سوى فرق درجة تقريباً . - وابتسم كأنه يعتذر ، وتابع : - أما الاخلاق فلا تشغلني أبداً . أأصدمك بذلك ؟ أنت ترين اني أحب عملي ، وأحب الحياة ، وأنا نشيط ، عامل ، وأعتقد انني برهنت ان هذه الفعالية هي بنفسها قاعدة للسلوك . وعلى كل حال ، فاني حتى الآن لم أجد نفسي متردداً فيما يجب ان أقوم به .

ولم تجب مدام دي فونتانان بشيء . لم تحدد على انطوان لاعترافه بأنه يختلف كثيراً عنها ، ولكنها في دخيلة نفسها كانت تزيد من شكرها لله لأنه حاضر في قلبها باستمرار . كانت تستمد من هذا الحضور ثقة فائضة وفرحة كانت تشع حقيقة فيها : إلى درجة انها ، وقد آذنتها الحوادث ، وكانت أكثر شقاء من كثير من الذين يقربونها ، كانت تملك ذلك الامتياز الذي يجعلها مصدر شجاعة وتوازن وسعادة لكل فرد . وقد اختبر انطوان ذلك في هذه اللحظة ؛ انه لم يلاق بين المحيطين بوالده شخصاً أوحى إليه هذا الاحترام المشدد وكان الجو حوله مثيراً للحساسية إلى هذه الدرجة لكثرة صفاته . وقد رغب ان يتقدم خطوة اخرى نحوها ولو على حساب الحقيقة . وقال مؤكداً ، مع انه لم يفكر مطلقاً بالبروتستانت قبل ان يعرف آل فونتانان :

- لقد اجتذبتني البروتستانتية دائماً . واصلاحكم هو الثورة على الصعيد الديني . ويوجد في مذهبكم مبادئ التحرر ...

كانت تصفى إليه بتعاطف يتعاضم . وبدأ لها فتياً ، محتدماً ، فروسياً . وكانت تعجب بهيئته الحية وثنية جبهته المنتبهة ، وحين رفع رأسه شعرت بسرور طفولي في ان تكتشف في قسماته احدى الخصائص التي تضاف إلى ميزة نظرته المفكرة . كان جفنه الأعلى كثير الضيق بحيث يختفي تقريباً تحت قوس الحاجب حين يفتح عينيه كثيراً ، إلى درجة ان الاهداب تضاعف الحاجبين تقريباً وتبرز معها . وكانت شكر : « من يملك جبهة كهذه لا يمكن ان يكون منحطاً » ، وعندئذ اجتازتها هذه الفكرة : بأن انطوان يحسد الرجل الجدير بأن يُحسب وكانت لا تزال متأثرة من شعورها بالحق على زوجها . « ربط حياتها بكائن من

هذه الطينة ... » انها المرة الاولى التي تقارن فيها جيروم بغيره ؛ والمرة الاولى على الخصوص التي تلامسها فيها حسرة واضحة ، وشك بأن احداً يمكن ان يجلب لها السعادة . ولم يكن ذلك سوى اندفاع عاطفية ، خفية ، بعثت فيها الاضطراب دفعة واحدة حتى الاعماق ، ولكنها شعرت بالحجل منها حالاً ، بحيث سيطرت عليها بينما تلاشت بشكل أبطأ تلك المرارة التي خلقتها الندامة ، وربما الحسرة ، وراءها .

ودخول جني وجاك انهى تحرير غيبتها . وقد دعتها إلى جانبها من بعيد بحركة مرحة خوفاً من ان يظننا نفسيهما ثقيلين . ولكن منذ اللحظة الاولى حدثت بأن شيئاً قد حدث بينهما . وهذا ما كان فعلاً .

فما ان اخذ دانيال صورة نيكول وجاك حتى طلب ان يتأكد حالاً من نجاحه . وكان في الصباح قد وعد جني وابنة خاله ان يعلمها كيفية تطهير الصورة . وكانا قد أعدا اللزوم في غرفة غير مستعملة لتعليق الثياب تقع في نهاية الرواق ، وكان دانيال يستعملها قبلاً كغرفة سوداء . وهذه الغرفة ضيقة بحيث لا تتسع لأكثر من اثنين . وكذلك فقد تصرف دانيال بنوع ان تدخلها نيكول أولاً ؛ وعندئذ اندفع نحو جني واسند يداً عمومة إلى كتفها وهمس في اذنيها : رافقي تيبو .

فألقت عليه نظرة ذكية لائمة ، ولكنها رضيت ، إما لأن سلطة اخيها ذات تأثير عليها ، وإما لأن طريقته في الطلب منها كانت لا تقاوم ، سواء اكان بالصوت ، ام بوقاحة النظرة ، ام بفراغ الصبر الظاهر على قسامته ، بحيث تخضع دون ان تؤجل رغبته .

وكان جاك اثناء هذا المشهد القصير قد ظل الى الورا ، امام واجهة زجاجية في قاعة الاستقبال . ولحقت به جني . ولكي تتأكد من انه لم ير شيئاً من حيلة دانيال قالت له بجرء :

وانت ، هل سبق لك ان اخذت صوراً ؟

— كلا .

فأدر كنت من الاضطراب الخفيف للجواب أنه لم يكن عليها أن تطرح السؤال ،
وتذكرت انه 'سجن وقتاً طويلاً في نوع من السجن . وقد تابعت لتقول شيئاً
بدافع توارد الافكار :

— انك لم تر دانيال منذ وقت طويل ، أليس كذلك !

فخفض عينيه وقال :

— كلا ، منذ وقت طويل جداً . منذ .. أكثر من سنة .

ومر ظل على وجه جني . فمحاولتها الثانية لم تكن سعيدة أكثر من الاولى :
كانت تبدو انها تريد تذكر جاك بالهرب إلى مرسيليا . لا يهم . انها تحقد عليه
دائماً لأجل هذه المأساة ؛ وهو بنظرها يحمل المسؤولية كلها . وكانت تكرهه
منذ وقت طويل دون ان تعرفه . وحين شاهدته في هذا المساء ، عند بدء تناول
الطعام ، تذكرت رغماً عنها الأذى الذي سببه لهم ، ومنذ الفحص الأول لم يعجبها
بدون أي تحفظ . أولاً حكمت عليه بالقبح ، وحتى بأنه زقاق ، بسبب رأسه
الكبير ذي القسمات المشوهة ، وفكه وشفتيه المفلعتين ، واذنيه ، وشعره
الامفر الذي كان ينتصب كالسنابل على الجبهة . انها بالحقيقة لم تكن تغفر لدانيال
ارتباطه برفيق كهذا ، وفي غيرتها ، سرّت تقريباً لتأكدتها من ان الكائن الوحيد
الذي تجرأ على مزاحمتها على قسم من المحبة الأخوية يملك هذه الجاذبية القليلة جداً ..
كانت قد اخذت الكلبة الصغيرة على ركبتيها وصارت تداعبها لاهية .
وابقى جاك عينيه مصوبتين نحو الارض ، مفكراً هو ايضاً بهربه ، ثم بالمساء
الذي اجتاز فيه لأول مرة عتبة هذا البيت .

وسأله اخيراً لتقطع الصمت :

— هل وجدته تغير كثيراً ؟

— فقال : كلا .

وعاد عن رأيه فجأة وقال : ومع ذلك ، بلى .

ولاحظت هذا التردد . وسرّت لانه صادق ؛ واصبحت للحظة أقل نفوراً

منه . هل فطن جاك لهذا العفو الهارب ؟ لقد كف عن التفكير بدانيال . وكان ينظر إلى جني ويلقي اسئلة على نفسه حولها . لم يكن يعرف ان يوضح ما يستشفه من طبيعتها ؛ ومع ذلك ، تحت هذا الوجه ، المعبر المعلق معاً ، وفي اعماق هاتين الحدقتين الحيتين اللتين لا تفصحان عن سرهما ، توصل إلى ادراك القلب العصبي واختلاج الحساسية الدائم . وجاءته فكرة معرفتها بصورة افضل ، والنفاذ إلى ذلك القلب المعلق ، وان يصبح تقريباً الصديق لهذه الطفلة ، ويحبها . وحلم بها دقيقة : كانت دقيقة من الغبطة . وكان قد نسي كل شيء ، وشقاء الماضي . ولم يعد له ممكناً ان يكون بائساً . كانت نظراته تروح وتجيء حول الغرفة وتلامس جني بمزيج من الاهتمام والحجل كان يمنعه من ان يلاحظ كم كانت هيئة الفتاة متحفظة ودفاعية . وفجأة ، وبانقلاب مشؤوم لتفكيره ، ظهرت له ليزبيت : شيء صغير ، مألوف ، عائلي ، لا شيء تقريباً ، يتزوج ليزبيت ؟ لقد ظهرت له لأول مرة صبيانية هذا الافتراض . إذن ؟ وفجأة انحفر فراغ في حياته ، فراغ رهيب يجب ان يملأه بأي ثمن - لئلا يملأه جني بشكل طبيعي - ولكن ..

— ... في مدرسة ؟

فارتجف . انها تكلمه .

— عفواً ؟

— هل أنت في مدرسة ؟

فقال مضطرباً :

— بعد . انا متأخر جداً . اني اتلقى دروساً على اساتذة ، من أصدقاء

أخي . - واطاف بدون ان يفكر بالشر : - وانت ؟

فشعرت بالاهانة لأنه سمح لنفسه باستجوابها ، فضلاً عن ذلك نظراته الدالة على الصداقة . فأجابت بنبرة جافة :

— كلا ، افي لا أذهب إلى المدرسة ؛ انا ادرس مع معلمة .

فقال كلمة مشؤومة :

— نعم . بالنسبة لفتاة ، فهذا لا أهمية له .

فعانثت :

— ليس هذا رأي امي ولا رأي دانيال .

ونظرت إلى وجهه بعينين تبدو فيها العداوة صريحة . وفطن لمواقفه ، و اراد ان يكسب ما خسره بقول شيء محبب :

— الفتاة تعرف دائماً ما تحتاجه بشكل كافٍ .

وادرك انه عرض نفسه للخطر ؛ ولم يكن سيداً لأفكاره ولا لأقواله ، وشعر بأن الاصلاحية صنعت منه أبله . فاحمر وجهه ، ثم ان تلك النفحة من الحرارة التي صعدت إلى وجهه اصابته فجأة بالدوار . ولم يجد مخرجاً آخر إلا في الغضب ، فبحث عن مرمى ليثار فلم يجده . وفقد كل حس سليم . وقذف بتلك اللهجة من السخرية العامة التي يستعملها والده في غالب الاحيان :

— ان الشيء الرئيسي لا يجري تعليمه في المدارس : ان يكون المرء ذا خلقٍ

حميد .

فملكت نفسها إلى درجة انها لم تهز كتفيها . وبما ان بوس جاء

تتأهب مجلبة ، فأنها قالت بصوت يرتجف من الغضب :

— أوه ! الشنيعة ! السيئة التربية !

ورددت مرة أخرى بالحاح منتصر :

— أوه ! السيئة التربية !

ثم وضعت العلبة على الارض ونهضت ، واتكأت بمرفقيها على الشرفة . وقضت خمس دقائق طوال في صمت لا يحتمل . ولم يتحرك جاك عن مقعده ، وقد ضاق نفسه . وكان صوت مدام دي فونتنان يتناوب في غرفة الطعام مع صوت انطوان . وأدارت جني ظهرها له ، واخذت تدندن تمارين البيانو ، ورجلها تضرب الايقاع بوقاحة . آه ! ستقص كل ذلك على أخيها لكي ينقطع عن معاشرة هذا القليل الادب ! كانت تبغضه ورأته خلسة احمر وقوراً ، وتضاعفت رباطة جأشه . فبحث عما تستطيع ابتكاره لتزيد من جرحه .

— تعالي يا بوس .. انا ذاهبة .

وتركت الشرفة ، ومرت امامه كأنه غير موجود وسارت دون عجل نحو قاعة الطعام .

وخاف جاك ، ببقائه هناك ، ألا يعرف كيف يذهب . فتبعها ، ولكن دون أن يرافقها .

وغير لطف مدام دي فوتنانان شعوره إلى كآبة . وقالت لأبنتها :
- إذن ، لقد تركك أخوك ؟

فصاحت جني بوجه هارب :

- لقد طلبت من دانيال تطهير الافلام حالا . اوه ! لن يستمر طويلا .
وكانت تتجنب نظرات جاك ، مرتابة بالألا يكون ابله . انها شرaka بالذنب لا إرادة تزيد من خطورة عداوتها . وحكم عليها انها كاذبة واستنكر بماملتها بتفطية سلوك اخيها . وادركت حكه ووجدت نفسها مجروحة في كبريائها .
وابتسمت مدام دي فوتنانان لها وشارت اليها بالجلوس . وقال انطوان مؤكداً :

- ان مريضتي الصغيرة كبرت جداً .

ولم يقل جاك شيئاً وكان يتطلع الى الأرض . وغرق في اليأس . لن يعود أبداً كما كان في السابق . وشعر انه مريض ، مريض حتى أعماق النفس ، ضعيف وشرس معاً ، تسيره محرضاته ، لعبة قدر حقود . وسألته مدام دي فوتنانان :
- أنت موسيقي ؟

لم تظهر هيئته انه فهم ما قالت . وامتلات عيناه بالدموع ؛ وانحنى بحدة . وتظاهر بعقد شريط حذائه . وسمع انطوان يجيب عنه . وصارت اذناه تطنانان .
وقتنى الموت . هل كانت جني تنظر اليه ؟

مضى أكثر من ربع ساعة على دخول دانيال ونيكول إلى الغرفة السوداء .
وأسرع دانيال بدفع المزلاج ونشر الافلام خارج الآلة . وقال :
- لا تلمسي الباب ، فأقل خيط من النور يطمس الشريط كله .

ونيكول ، وقد أعماها الظلام أولاً ، شاهدت بعد قليل ظلالاً متوهجة

بقربها كانت تتحرك في حالة القنديل الحمراء ؛ وميزت شيئاً فشيئاً يدي شبح ،
طويلتين ، دقيقتين مقطوعتين من المعصم ، كانتا تؤرجحان طستاً صغيراً . ولم
تكن ترى شيئاً آخر من دانيال سوق تينك القطعتين المتحركتين ؛ ولكن المكان
المظلم كان كثير الضيق بحيث كانت تشعر بكل من حركتها كأنها تلامسها .
وحسباً أنفاسها ، مفكراً كل منها ، وبلازمة مشؤومة ، بقبلة الصباح في الغرفة .
وتمتعت :

— هل يرى أي شيء ؟

فلم يشأ أن يجيب حالاً : كان يتذوق القلق النفسي اللذيذ الذي أحدثه هذا
الصمت ؛ والتفت نحو نيكول دون أن يتخذ أي حذر ، ومد منخريه
ليتنشق الهواء المحيط بها . وقال مقطعاً كلامه :
— كلا ، بعد .

وسار صمت جديد . ثم ان الطست الذي لم تحول نيكول نظرها عنه أصبح
جامداً ؛ وابتعدت اليدان من اللهب عن القنديل . وكانت لحظة لا تنتهي .
وفجأة شعرت انها احتضنت ، فلم تصب بأية دهشة ، وكانت متعزية تقريباً لأنها
تخلصت من الانتظار ، ولكنها ارجعت نصفها الأعلى إلى الورا ، وإلى أديمين
وإلى اليسار ، لتهرب من فم دانيال الذي كانت تتمناه وتخشاه معاً . وأخيراً
التقى وجهاهما . وصدمت جبهة دانيال المشتعلة شيئاً مطاطاً ، زالقاً وبارداً :
الضفيرة التي تحملها نيكول ملفوفة حول الرأس ؛ ولم يستطع أن يكبح ارتعاشه ،
وحركة تقهقر خفيفة ، واغتنتم فرصة ذلك لتبعد شفتيها عنه ، مدة الوقت
الذي نادت فيه :
— جني ! ...

فخنق الصرخة بيده . وكان واقفاً مستنداً بكل جسده على جسد نيكول
وقد حشره بالباب . وكان يتمتم بين أسنانه المضمومة كأنه مصاب بالهذيان :
— اسكتي ، دعيني ... يا نيكول ... يا عزيزتي المعبودة . اصغبي إلي .
وقل دفاعها فظن انها استسلمت . وكانت قد مدت ذراعها وراءها باحثة

عن المزلاج ، وفجأة فتح الصراع ، واجتاحت الظلام موجة من النور . فتركها
وأعاد إقفال الباب ولكنها شاهدت وجهه ! وجه متغير جداً ! قناع صيني ،
ازرق ضارب إلى السواد ، مع صفائح وردية اللون حول عينيه ، يدهما نحو
الصدغين ، وحدقتان راجعتان إلى الوراء ، خاليتان من التعبير ، وفمه الذي كان
رقيقاً أصبح الآن منتفخاً ، ناقصاً ، مفتوحاً قليلاً ... جيروم ! لم يكن له أي
شبه بأبيه . وفي هذا الضوء الفجائي ، كان جيروم هو الذي رأيته !
وقال أخيراً بصوت صافر :

— تهاينى .. لقد تلفت لفافة الفيلم كلها .

فقالت برصانة :

— اريد أن أبقى . فعندي ما أقوله لك . ولكن افتح الباب .

— كلا ، ان جني ستأتي .

فترددت ، ثم قالت :

— اذن اقسم لي انك لا تلمسني .

وشعر برغبة في الانقضاء عليها وكمّ فمها بقبضته ، وتمزيق ثوبها من أعلى ،
وفي الوقت نفسه شعر أنه غُلب على أمره . فقال :

— اقسم لك .

— حسناً . اصغ إلى اذن يا دانيال . لقد .. تركتك تسير بعيداً ، بعيداً
جداً . وقد أخطأت هذا الصباح . ولكني هذه المرة أقول كلا . لم أهرب
لأصل إلى هنا .

لفظت هذه الكلمات الأخيرة بسرعة ، ولنفسها فقط . ثم تابعت لدانيال :
— اني أعهد اليك بسري : لقد هربت من عند والدتي . اوه ! ليس هناك ما
يقال ضدها : انها فقط بائسة .. مسيرة ، ولا أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك .

وتوقفت . وظلت صورة جيروم أمام عينيها . سوف يصنع الابن بها ماتعتقد
ان جيروم صنعه بأمرها . وتابعت بسرعة ، لأن صمت دانيال كان يخيفها !
— انت لا تعرفني جيداً . ومع ذلك فهي غلطتي . وأعرف ذلك جيداً .

لم أكن معك كما أنا على حقيقتي .. مع جني ، نعم . أما معك ، فقد تركت نفسي أسير . وظننت أنت .. ولكن في أعماقي ، كلا . ليس هذا . انني لا اريد حياة .. حياة تبتدىء هكذا . فهل لهذا تجشمت عناء المحي ، لأبقي بجانب امرأة كالعمة تيريز ؟ كلا ، اريد .. ستسخر مني ، ولكن لا فرق عندي : اريد ان أستطيع فيما بعد استحقاق احترام رجل سوف يحبني حقيقة ، وإلى الابد . رجل رصين أخيراً ..
- ولكنني رصين ..

جازف دانيال ، ابتسامة تستحق الشفقة أدر كمها من رنة صوته . وشعرت حالاً بزوال كل خطر ، فقالت بمرح تقريباً :
- اوه ، كلا . لا تغضب مما أقوله لك يا دانيال : أنت لا تحبني .
- اوه !

- ولكن كلا ، فلست أنا التي تحب ، بل شيئاً آخر . وأنا أيضاً لا .. اريد ان أكون صريحة : أعتقد انني لن أستطيع أبداً ان احب رجلاً مثلك .
- مثلي ؟

- اريد ان أقول : رجلاً كبقية الرجال .. اريد ان .. احب ، نعم ، فيما بعد ، ولكنه سوف يكون عندئذ واحداً من .. أخيراً ، واحداً طاهراً ، يأتيني بشكل آخر .. وبشيء آخر .. لا أعرف كيف أشرح لك . أخيراً ، رجل يختلف عنك كل الاختلاف .
- شكراً .

وخمدت رغبته ، ولم يعد يفكر إلا بان يتجنب الظهور بمظهر المضحك ، وتابعت :
- هيا ، السلام ؛ ولن نفكر بذلك .

وفتحت الباب . وتركها هذه المرة تفتحه ، وقالت : « صديقان » ؟ وهي تمد له يدها . فلم يجب . وكان ينظر إلى أسنانها ، وعينيها ، وبشرتها ، وذلك الوجه المعروف الذي كانت تقدمه كثرة . وابتسم ابتسامة مفتضة وطرفت جفونه . وأخذت يده وشدت عليها . وتمت بصوت ناعم ، وقد رفعت حاجبيها بشكل مضحك :

— لا تفسد حياتي . فلفافة من الأفلام تكفي اليوم .
ورضي ان يضحك . ولم تكن تطلب منه أكثر من ذلك . وشعرت بشيء
من الكتابة ، ولكن بالاجمال كانت فخورة بانتصارها وبالرأي الذي سيكونه
عنها فيما بعد .

وصاحت جنني حين ظهرها في قاعة الطعام : وبعد ؟
فقال دانيال بنشوفة : اخفاق .

وجاك ، بدافع الغضب ، شعر بالسرور . وابتسمت نيكول ابتسامة خبيثة
ورددت : اخفاق تام .

ولكنها رأت جنني تدير وجهها المثنج ، وفيض من الدمع يعكّر نظرتها ،
فركضت إليها وعانقتها .

وكف جاك عن التفكير في نفسه منذ دخول صديقه . لم يكن يستطيع ابعاد
انتباهه عن دانيال . وكان لوجه دانيال تعبير جديد منظره يؤلم : تناقض بين
أسفل الوجه وأعلاه ، وعدم توافق بين النظرة المبرقة ، المهمومة ، الهاربة ،
والابتسامة الوقحة التي ترفع الشفة وتبعد القسّمات إلى الشمال .

وتلاقت نظراتها . وعبس دانيال قليلاً وبذل مكانه . وهذا الحذر زاد جرح
جاك عمقاً أكثر مما عداه . منذ وصوله لم ينقطع دانيال عن خداعه . وقد وعى
ذلك أخيراً . ليس بينهما دقيقة من الاتصال الحقيقي : حتى انه لم يستطع ان
يكشف لصديقه اسم ليزبيت ! وظن لحظة انه يتألم من زوال الوم هذا ، وكان
يتألم على الخصوص ، وفي الواقع ، ولكن بدون ان يلقي بالاً ، لأنه تجرأ للمرة
الاولى ان يأخذ عن حبه رأياً هو موضع نقد ، وان يجد نفسه صفر اليدين من هذا
الحب . ولم يكن يعيش إلا في الحاضر ككل الاولاد لأن الماضي يتلاشى سريعاً في غيابة
النسيان ، والمستقبل لا يوقظ فيه سوى فراغ الصبر . وقد اصر الحاضر على أن
يحصل اليوم على طعم من المرارة لا يحتمل ؛ وانتهت فترة ما بعد الظهر في خمول
لا حدود له . وحين أشار إليه انطوان ان يستعد للرحيل كان لذلك تأثير
تعزية عليه .

وشاهد دانيال حركة انطوان . فأسرع للانضمام إلى جاك وقال :
- لن تذهبا بهذه السرعة .

- ولكن بلى .

فأجاب بصوت أكثر انخفاضاً :

- الآن ؟ ولكننا لم نَرَ بعضنا البعض إلا قليلاً .

وهو أيضاً لم يحن من يومه سوى خيبة الأمل ، وأضاف إليها توبيخ ضميره
حيال جاك : الأمر الذي زاد من غمه تجاه صداقتها .
- سامحني .

قال ذلك فجأة وهو يدفع جاك إلى فرجة النافذة بهيئة متصنعة كثيرة
الطيبة بحيث نسي جاك كل غموه وشعر من جديد انه مرفوع بواسطة إندفاعه
من حنوه الماضي . وقال دانيال بصوت ملهح :

- اليوم ، لم يكن على ما يرام . متى أراك ثانية ؟ : يجب أن أراك بمفردك ،
ولوقت طويل . لم نعرف بعضنا البعض جيداً . وليس هذا غير عادي ، سنة
بأكملها ، فكر إذن !

وتسائل فجأة عما تؤول إليه هذه الصداقة التي لم يَغْدِها شيء منذ وقت
طويل سوى إخلاص صوفي اثبت هشاشته . آه ! يجب ألا تترك لتتلاشى ! وقد
بدأ له جاك ولداً ، ولكن مودته نحوه ظلت بأكملها ، من يدري ؟ ربما أكثر
حدة مما يشعر به الأخ الأكبر .

وفي اللحظة ذاتها كانت مدام دي فونتنان تقول لانطوان :

- اننا نبقى كل أيام الأحاد في البيت ، ولن نترك باريس قبل توزيع الجوائز
- وتألفت عيناها وهمست دون أن تحفي كبرياءها : - لأن لدانيال جائزة .
ثم أضافت ، بعد أن تأكدت أن ولدها يدير ظهره لها ولا يستطيع سماعها :
- تعال أريد أن أريك كنوزي .

واندفعت بمرح نحو غرفتها ؟ ورافقها انطوان . وفي درج خزانها كانت
موضوعاً بالصف ما يقرب من العشرين تاجاً من الأكلیل الكرتونية المدهونة ،

وأقفلت الخزانة من الأثر ، وأخذت تضحك ، مزعجة قليلا لاسترسالها في هذه الصبيانيات وقالت :

— لا تقل عن ذلك لدانيال ، فهو لا يعرف إني احتفظ بها .

وعادا صامتين حتى الدهليز . ونادى انطوان :

— هيا يا جاك .

وقالت مدام دي فوتتانان وهي تمد يديها لجاك :

— هذا النهار ليس في الحساب .

وكانت تتطلع إليه بالحاح ، حتى ليخيل انها أدركت كل شيء .

— أنت هنا عند أصدقاء يا صغيري جاك : أهلا بك في كل مرة تريد المجيء

والأخ الكبير أيضاً ، وهذا غني عن القول .

قالت ذلك وهي تلتفت نحو انطوان بحركة ظريفة .

وبحث جاك بعينه عن جني ؛ ولكنها اختفت مع ابنة خالها . فأنحنى على

الكلبة الصغيرة ووضع قبلة على جبهتها الملساء .

وعادت مدام دي فوتتانان إلى غرفة الطعام لترتب الطاولة . ودانيال الذي

كان يتبعها بدون انتباه ، جاء يسند ظهره إلى إطار الباب وأولع سيكارة

بصمت . كان يفكر بما قالته نيكول له : لماذا أخفي عنه أن ابنة خاله هربت

من بيتها وجاءت تبحث عن ملجأ عندهم ؟ ملجأ ضد ماذا ؟

وكانت مدام دي فوتتانان تروح وتجيء بتلك السهولة في الحركات والتي

تحتفظ لها بمشية امرأة شابة . وكانت تفكر بمحدث انطوان وبكل ما أخبرها

عن نفسه ، وعن دروسه ، ومشاريعه في المستقبل ، وعن والده . وقالت لنفسها :

« قلب سام . ويا لها من جبهة جميلة .. » وبحث عن نعت وأضافت باندفاع

مرحة : « مائلة إلى التأمل » . وعندئذ تذكرت الفكرة التي خالجتها : ألم

ترتكب الخطيئة بالذهن هي أيضاً ولمدة ثانية ؟ وعادت أقوال غريغوري إلى

ذاكرتها . وفجأة ، وبدون سبب واضح ، شعرت بفرح شديد ، بحيث وضعت

الصحن المسكة به لتمر بأصابعها على وجهها ، ولتلمس ، كما بدا لها ، ذلك السرور على قسبتها . وجاءت إلى ولدها ، مندهشة ، ووضعت يديها على كتفيه بمرح ، وتطلعت إليه حتى اعماق عينيه ، وقبلته دون ان تقول شيئاً . وفجأة تركت الغرفة ، وسارت رأساً إلى مكتبها ، وكتبت بخطها الضخم الصبياني ، المضطرب قليلاً :

« عزيزي جيمس .

« كنت امامك كثيرة الكبرياء . من منا له الحق بالإدانة ؟ اشكر الله الذي أنارني مرة أخرى . قل لجيروم انني اقلعت عن طلب الطلاق . قل له ... » . وكانت الكلمات ترقص خلال دموعها .

١٢

بعد بضعة أيام استيقظ انطوان مع الفجر ، بضربات على مصراعي النافذة . أن لاقط الحرق لم يستطع فتح الباب الكبير ؛ وسمع الجرس يدق في المنزل وارتاب بحدوث حادث . وبالفعل فان الأم فرولان قد ماتت : لقد طرحتها أرضاً نوبة أخيرة عند رجل سريرها .

وجاء جاك كمن يرتاح البارحة على فراشه . والفم مفتوح يكشف عن اسنان صفراء . كان هذا يذكره بشيء رهيب : آه ! نعم . جثة الجواد الاشهب على طريق طولون ... وفجأة جاءته الفكرة بان ليزبيت ربما كانت ذاهبة في رحلة . ومضى يومان فلم تأت . ولن تأتي . لا بأس . لم يكن يوضح عواطفه . حتى انه بعد زيارته لشارع الاوسرفاتوار ، استمر في نظم قصيدة يجد فيها الحبيبة ويشكو بسبب نفيها ولكنه حقيقة لم يكن يتمنى ان يراها .

إلا انه كان يتر عشر مرات بالنهار امام منزلها ، وفي كل مرة كان يلقي نظرة قلقة إلى الداخل ، وفي كل مرة كان يعود مطمئناً ، ولكنه غير راض . ومساء الدفن ، وقد عاد إلى البيت بعد ان تناول عشاءه وحده في المطعم

الصغير الذي يتناول هو وانطوان طعامها فيه منذ رحيل السيد تيبو إلى ميزون - لافيت ، فان الشيء الاول الذي استرعى نظره هو محفظة متروكة على باب المنزل . فاجتاحته رجفة ، وتغطت جبهته بالمرق . وفي النور الذي كانت تحدثه الشموع حول التابوت ، كان خيال ولد راكمأ تحت أقمعة الحداد . فدخل دون تردد . ورفعت الراهبتان نحوه نظراً لامبالياً ، ولكن ليزبيت لم تلتفت . وكان المساء عاصفاً ، ورائحة ساخنة محلاة بالسكر كانت تملأ الغرفة ، وزهور تذبل على التابوت . وظل جاك واقفاً ، متأسفاً لدخوله ، كان هذا الجهاز المأتمني يسبب له اضطراباً نفسياً لا يمكن دفعه . ولم يكن يفكر بليزبيت ، بل كان يبحث عن فرصة للهرب . ونهضت إحدى الراهبات لتقطع فتيل الشموع ، فاغتم الفرصة ليهرب .

هل عرفت ليزبيت بوجوده وعرفت خطاه ؟ انها لحقت به قبل ان يبلغ باب الشقة . وكان جاك ملتفتاً وسمع خطوها . وظلا بضع ثوان الواحد أمام الآخر في زاوية الدرج المظلمة . كانت تبكي تحت قناعها المسدل دون ان ترى اليد التي كان جاك يدها إليها . وكان يوده ان يبكي هو ايضاً ، بسبب الموقف ، ولكنه لم يكن يشعر بشيء سوى قليل من الضجر والحجل .

وقمقع باب فوق ، فخاف جاك ان يفاجئها أحد هناك وسحب مفاتيحه . ولكن الاضطراب ، والظلام منعاه من إيجاد القفل . فقالت موعزة :

- ربما لم يكن هذا هو المفتاح الصالح .

فأصابت هزة من رنة هذا الصوت الضعيفة . واخيراً فتح الباب ؛ وترددت ؛ كانت خطوة المستأجر تهبط الطوابق . وممس جاك ليجعلها تحزم أمرها :

- انطوان يقوم الآن بنوبته في المستشفى .

وشعر انه احمرّ . واجتازت العتبة دون ان يبدو عليها القلق .

وحين أعاد اغلاق الباب واشعل النور رأى انها ذهبت رأساً إلى غرفتها وجلست على الكنب ، بنفس حركاتها السابقة . وشاهد عندئذ ، من خلال النسيج الدقيق ، جفونها المتورمة . ووجهها المتبشع نوعاً ، ولكن الحزن قد

غيره . ولاحظ ان أحد أصابعها محاط بقماش . ولم يجرؤ على الجلوس ! ولم يستطع ان يبعد عن ذهنه الظروف المحزنة لهذه العودة . وقالت :
- الطقس ثقيل . وسوف يحدث زوبعة .

وغيرت مكانها قليلا على المقعد وبدت انها تدعو جاك ليأخذ المكان الذي افسحته له بجانبها : مكانه . فجلس ؛ وحالاً ، وبدون أية كلمة ، وبدون ان تنزع نقابها بل نحتته فقط من جهة جاك ، ووضعت كما في السابق وجهها ملتصقا بوجهه . كان الاحتكاك بهذا الوجه المبلل كريهاً لديه . ونقاب النسيج الدقيق .. خرجت منه عفونة صباغ ، برنيق . ولم يكن يعرف ماذا يفعل ، وماذا يقول وأراد ان يأخذ يدها ، فأطلقت صرخة .
- أنت مجروحة ؟

فقال متأوهة : آه ! انه ... انه داحوس .
وامتزج كل شيء في هذه الآهة : ألمها ، حزنها ، وموج حنوها الذي لا يخرج له . وحلت ضمادها سهواً ، وحين ظهر الاصبع ، ثالفاً ، أزرق ضارباً إلى السواد ، والظفر منتزع بسبب الدمل ، توقف تنفس جاك . وأصابها الدوار لحظة كما لو انها عرّت مكاناً خفياً من جسدها بشكل فجائي . إلا ان حرارة هذا الجسد القريب جداً نفذت إليه من خلال الملابس . وفتت نحو عينيها كالخزف المطلي واللتين تبدوان كأنهما تتوسلان دائماً ألا يلحق بها أذى . عندئذ شعر ، رغم اشمئزازه ، بالرغبة في تقبيل اليد المريضة ليشفيها .
ولكنها نهضت ولتفت العصاة بحزن حول اصبعها وقالت ؟
- يجب ان أعود .

وكانت تبدو تعباً جداً بحيث قال مقترحاً :
- دعيني اصنع لك فنجاناً من الشاي . اتردين ؟
فألت عليه نظرة غريبة ، وابتسمت بعد ذلك .
- أريد جيداً . اريد ان اصلي هناك صلاة قصيرة وأعود .
واسرع بتسخين الماء وتحضير الشاي وحمله إلى غرفته . ولم تكن ليزيت قد

عادت . فجلس .

كان الآن يرغب في ان تعود. وكان يشعر باضطراب لم يحاول تفسيره. لماذا لم تعد؟ لم يجرؤ على مناداتها ومزاحمتها على الام فلولان. ولكن ماذا تنتظرتعود؟ كان الوقت يمر. وكان في كل لحظة يذهب ويحس أبريق الشاي . وحين اصبح بارداً لم يبق هناك عذر للنهوض وظل جامداً . وآذته عيناه لكثرة ما نظر إلى القنديل . وفراغ الصبر اصابه بالحمى. وكانت اعصابه تنبض لدى ألق البرق الظاهر من خلال شقوق مصاريع النافذة . ألن تعود ابداً؟ وشعر انه متخدر ، بائس حتى الموت .

قرعة خفية . يوم ! انه الشاي ينفجر ! وخيراً فعل ! والشاي يتساقط كالطر ويسوط النوافذ الخارجية . وليزيت مبللة ، والماء يسيل على خديها ، على غطاءها الدقيق الذي زالت صبغته واصبح شاحباً ، شاحباً وشفافاً كغطاء رأس عروس .

وارتجف جاك : لقد جاءت تجلس وتسند وجهها إلى وجهه من جديد .

— اكنت نائماً يا حبيبي ؟

— لم تكن قد خاطبتني بعد بصيغة المفرد . وكانت قد نزعت نقابها ، وفي حالة نصف إغفاء ، وجد من جديد الوجه الحقيقي لليزيت ، رغم العينين الذابلتين والفم الهزيل . وابت بمرحقة من كنفها وقالت :

— الآن ، سيزوجني عمي .

وحنت رأسها . هل كانت تبكي ؟ كانت لهجتها باكية ولكنها خاضعة ؛

ومن يدري إذا كانت لا تشعر بشيء من الفضول حيال هذا المستقبل الجديد ؟ ولم يسر جاك بعيداً في تحليله . كان يريد ان تكون تعيسة لانه كان في هذه اللحظة يتذوق لذة وهو يرثي لها. واحاطها بذراعيه ، وضما بقوة متزايدة ، وكان يبدو انه يريد اذابتها فيه . وبحث عن فمه الذي تركه لها يحشع . لم يكن قد عرف قوّة كهذه في كل كيانه . ومما لا شك فيه انها كانت قد حلت عرى ثوبها مسبقاً لأن ثديها العاري الحار اصبح حالاً في تجويف يده ، ودون ان يبحث عنه تقريباً .

وعندئذ التفتت لكي تستطيع يد جاك ان تروح وتجيء على جسدها بسهولة
اكثر ، ويشعر بها حرة تحت ثوبها . وتمتت :
— لنصل "معاً لأجل الام فرولان .

ولم يشعر بأية رغبة بالابتسام . ولم يكن بعيداً عن الظن انه يصلي ما دام
هناك حية في مداعباته .

وفجأة تخلصت بنوع من الانين ؛ فظن انه صدم اصبعها المريض ، او انها
تريد الهرب . ولكنها لم تخط سوى خطوة واحدة لتطفئ النار وتعود اليه .
وسمع كلمة « حبيبي » في اذنه ، ثم شعر بغم ينزلق ويبعث مرة أخرى عمن
فمه ، واصابع محمومة تجوس خلال ثيابه ...

وايقظه هزم رعد جديد ؛ وكان المطر يزفر على بلاط الساحة . ليزيت ..
اين كانت ؟ ليل اسود . كان جاك وحده على الكنبه الممتلئة الترتيب . وعزم
على النهوض والذهاب للبحث عنها ، حتى انه اتى بحركة للاتكاء على مرفقه ؛
ولكنه لم يستطع مقاومة نعاسه ، وسقط على الوسائد .

وحين فتح عينيه اخيراً كان النهار قد تقدم . وشاهد أولاً ابريق الشاي على
الطاولة ؛ ثم سترته على الارض ، مكومة . عندئذ تذكر ؛ ونهض ، واجتاحته
رغبة لا تقاوم في خلع ما بقي من ثيابه ، وان يغسل أعضائه الرطبة بالماء . وبدت
طراوة الحمام له كالعبادة . واخذ يروح ويحيى في الغرفة وهو لا يزال مبللاً ،
مقوساً حقويه ، لامساً ساقيه العصبيين وبشرته الطريئة ، مع نسيان كلي لما
يمكن ان تذكره هذه العبادة الراضية لعريه بما هو مخجل . وقدمت له المرأة
صورته الرشيقه ، وللمرة الاولى منذ وقت طويل ، تأمل خصائص جسده دون
اي اضطراب . وكان يهز كتفيه لذكرى غواياته ويتبع ذلك بابتسامة متساعجة .
وفكّر : « حافآت ولد ؟ » كان هذا الفصل يبدو له مغلقاً بصورة نهائية ، كما
لو ان قوى ظلت مجهولة وقتاً طويلاً ، ومنحرفة طويلاً ، وجدت اخيراً وظيفتها
الحقيقية . ودون ان يفكر بوضوح بما جرى هذه الليلة ، حتى بدون ان يفكر

بليزبيت ، شعر بقلبه فرحاً ، والروح والجسد متطهران . ولم يكن ذلك لشعوره
باكتشاف شيءٍ ما ، بل بالاحرى لأنه استعاد حالة توازن قديمة : كناقه يبتهج
ولكنه لا يدهش من شيء لعودة صحته .

وذهب إلى الدهليز وهو لا يزال عارياً وفتح باب الدخول قليلاً . وظن انه
ميتر ليزبيت في ظلام المنزل راكعة تحت قناعها كما كانت مساء البارحة . ورجال
على السلام يحللون الباب الكبير بالسواد . فتذكر ان موعد الدفن في الساعة
التاسعة ، وارتنى ثيابه مسرعاً كأنه ذاهب إلى حفلة . لقد كان كل عمل سروراً
هذا الصباح .

وكان قد انتهى من ترتيب غرفته حين عاد السيد تيبو خصيصاً من ميزون
- لايت ليأخذه .

وتبع الموكب إلى جانب والده . واختبأ في الكنيسة بين الآخرين ، بين كل
هؤلاء الناس الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً ، وشد على يد ليزبيت دون تأثير
كبير ، بنوع من عاطفة التفوق المألوف .

كان المنزل فارغاً طول النهار . وكان جاك ينتظر بين لحظة واخرى عودة
ليزبيت ، دون ان يوضح بشكل واعي الرغبة الكامنة تحت فراغ الصبر هذا .
وفي الساعة الرابعة دق الجرس فركض يفتح : استاذة في اللاتينية ! لقد
نسى ان لديه مراجعة هذا النهار .

كما يتابع بذهول تفسير هوراس حين دق الجرس من جديد . هذه المرة
كانت هي . وشاهدت ، وهي على العتبة ، باب الغرفة مفتوحاً وظهر الاستاذ
منحنياً على الطاولة . وظلا تجاه بعضهما البعض بضغ لحظات يتساءلان بالعيون .
لم يشك جاك في انها جاءت تودعه ، وانها ستسافر في قطار الساعة السادسة . لم
تجروء على قول شيء ، وشمرت برعشة خفيفة ، وطرفت يحفونها ، ورفعت
اصبعها المريض حتى فمها ، ثم قذفته عن قرب بقبلة مقتضبة ، كما لو ان القطار
سيذهب بها إلى الابد ، وهربت .

واستعداد المراجع العبارة المقطوعة :

^(١) *purpurarum usus* تساوي *purpura quâ utuntur*

وكان جاك يبتسم كأنه شعر بالفرق . وكان يفكر بأن ليزبيت سوف تعود إليه حالاً ، وكان يتخيل في ظلام الرواق وجهها تحت النقاب المرفوع ، وتلك القبلة التي كأنها انتزعت من شفيتها لأجله ، بأصبعها الملفوف بالقماش .
وقال الأستاذ :

— استمر .

١٩٢١

١ - العبارة اللاتينية مبنية على الجنس اللفظي وتفقد قيمتها في الترجمة .

الفصل الجميل

١

كان الأخوان يسيران على محازاة حاجز لو كسمبورغ ، وقد دقت الساعة الخامسة والنصف في ساعة مجلس الشيوخ . وقال انطوان الذي اتعبته منذ لحظة خطوات جاك المسرعة :

— أأنت مهتاج الاعصاب ؟ ياله من حر ! ان هذا سينتهي بعاصفة .

وخفف جاك سيره ورفع قبعته التي كانت تشد على صدغيه .

— مهتاج ؟ كلا . ابدأ ، بالعكس . ألا تصدقني ؟ حتى انني مندهش من

هدوئي . فقد مضت ليلتان نمت فيها نوماً عميقاً إلى درجة انني كنت في الصباح

عاجزاً عن المشي . اني هادىء جداً ، وأؤكد لك . بإمكانك ان توفر عليك هذا

الركض : فلديك أعمال كثيرة أخرى . يضاف الى ذلك ان دانيال سيكون

هناك . نعم ، اتظن ؟ لقد عاد من كابور عمداً هذا الصباح . وقد تلفس

اليوم ليعرف ساعة اعلان النتيجة . آه ! انه لطيف جداً في هذه الأمور ...

وبالتنكور ايضاً يجب ان يأتي . وها انت ترى انني لن أكون وحدي . وسحب

ساعته — اخيراً ، في مدى نصف ساعة .

وكان انطوان يفكر : « ذلك لأنه متوتر الاعصاب . وانا ايضاً قليلاً ،

ومع ذلك ما دام فافري يؤكد انه على اللائحة .. » وابتعد كل افتراض للاخفاق

كما كان يفعل مع نفسه دائماً . وألقى على أخيه الصغير نظرة أبوية ، واخذ يترنم مطبق الفم : « في قلبي .. في قلبي ... آه ! لا استطيع التخلص من هذه النعمة التي كانت تغنيها أولغا الصغيرة هذا الصباح . انها من دوبراك كما اعتقد . بشرط ألا تنسى ان تذكري بيلان بعملية البزل . في قلبي نا - نا - نا » .

وكان جاك يتساءل : « وإذا قبلت ، فهل سأكون حقيقة سعيداً هناك ؟ »

ثم قال مفكراً بأنطوان وبوالده : « ليس أكثر منها » .

وقال مدفوعاً بذكري :

— أنت تعلم ، في المرة الأخيرة التي تناولت فيها عشائي في ميزون - لافيت كنت قد أنهيت الامتحانات الشفهية . وكانت اعصابي متوترة . وعندئذ قدفي أبي ، على المائدة ، وبهيئته التي نعرفها بهذه العبارة : « وماذا سنفعل بك اذا لم تقبل ؟ » .

وقاطع نفسه ، فقد اعترضه تذكار آخر . وفكر : « كم أنا متوتر الاعصاب هذا المساء ! » وابتسم ، وامسك بذراع أخيه :

— كلا يا انطوان . ليس هذا هو الحارق للعادة . انه الغد . غد ذلك المساء .. يجب ان اروي لك مهما كلف الامر .. كان ابي قد كلفني ، منذ اصبحت حراً ، ان اذهب بالنيابة عنه إلى دفن السيد كريسيان . اتذكر ؟ وهناك حدث أمر كان غير مفهوم . وجدت نفسي في المقدمة ، وكانت تنظر ، فدخلت إلى الكنيسة ويجب القول انني كنت منزعجاً جداً لإضاعة صباحتي ، ولكن مهما كان الامر ، فسترى ان هذا لا يوضح .. اذن ، دخلت ، وجلست في صف فارغ . وجاء كاهن وجلس بجانبني . لاحظ ان عدداً كبيراً من المقاعد ظل فارغاً ، ومع ذلك فقد جاء هذا الكاهن والتصق بجانبني تماماً . انه شاب ، تلميذ مدرسة الكليركية بالتأكيد . حالي جيداً ، يُشعر بالنظافة وبماء منظف الاسنان ، ولكن بقفازين أسودين يثيران السخط ، وعلى الخصوص مظلة ، مظلة كبيرة ذات قبضة سوداء تفوح منها رائحة كلب مبلل . لا تضحك يا انطوان ، وسترى . لم استطع ان أفكر بسوى هذا الكاهن . كان يتابع القداس محرراً شفتيه ، وانفه في كتابه .

حسناً ، حسناً . ولكن عند رفع القربان بعد الكلام الجوهري ، وبدلاً من ان يستعمل مسند الركوع الذي كان أمامه - سوف أفهم هذا فيما بعد . - كلا ، ها هو يركع على الارض ، ويسجد على البلاط . أما انا فبالعكس ، لقد ظلمت واقفاً . وعندئذٍ شاهدي حين نهض ، والتقى نظره بنظري ، وربما وجد شيئاً اعتدائياً في موقفني . وفاجأت على وجهه عتاباً لاذعاً مع انزلاق الحدقتين تحت الجفون - شيئاً من الجدارة الزائفة ، شيئاً يثير السخط ! بحيث انني .. ماذا اصابني ؟ لم افهم من ذلك شيئاً . وسحبت من جيبى بطاقة زيارة وكبت عليها بالعرض ، ومددت البطاقة اليه . (ليس هذا صحيحاً ؛ لقد تخيل جاك فقط في هذه اللحظة ان باستطاعته القيام بهذه الحركة . لماذا كان يكذب ؟) فرفع انفه ، وتردد ؛ فاضطرت .. نعم .. اضطرت ان اضع له البطاقة في يده ! فالقى عليها نظرة ، وتطلع إلى بذهول ، ثم وضع قبعته تحت ابطه ، وامسك رداءه الصوفي يهدوء ورجل .. نعم .. كما لو ان يجارحه مستاً من الشيطان .. وانا ايضاً لم استطع البقاء هناك . وكدت اختنق من الغضب . فذهبت دون ان انتظر انصراف الناس .

- ولكن ما الذي كتبته على البطاقة ؟

- آه ! نعم ، البطاقة ؛ انها بلاهة . اكاد لا أجرؤ على قوله . لقد كتبت : « انا لا أؤمن ! » نقطة تعجب وتحتها خط ! على بطاقة زيارة .. فهل هذه بلاهة ؟ « لا أؤمن » ! - واستدارت عيناه واستقرتا - أولاً هل بالامكان تأكيد ذلك ؟

وصحت لحظة يتبع بعيني شاباً بثياب الحداد وزى لا عيب فيه ، كان يجتاز مفترق مديسيس . وتابع ، مضطرب الصوت كأنه يرغب نفسه على إقرار مؤلم ؟ - هذه حماقة . اتدري بماذا فكرت طوال دقيقة ؟ كنت أقول لنفسى انك إذا مت ، انت يا انطوان ، فاني أريد ان أرتدي بزة كاملة سوداء معتنى بها كحزة ذلك الشاب الذي يسير هناك . حتى اني تمنيت موتك طوال لحظة ، بفارغ صبر .. ألا تعتقد انني سأنتهي في سجن مظلم ؟

فهر انطوان كتفيه ، وتابع جاك :

— ربما كان هذا مؤسفاً . سوف أحاول تحليل نفسي حتى الدرجة الأخيرة من الجنون . اسمع . كنت افكر بكتابة تاريخ رجل ذكي جداً أصبح مجنوناً . وتصبح جميع أعماله مغايرة للصواب . ومع ذلك فهو لا يتحرك إلا بعد تفكير دقيق ، وسوف يتصرف حسب رأيه ، بمنطق صعب . انهم ؟ وسوف اضع نفسي في مركز ذكائه ..

وكان انطوان صامتاً . انه موقف آخر اختاره وأصبح مألوفاً لديه . ولكن سكوته كان كثير الانتباه بحيث ان تفكير الغير لا يصاب بالشلل عنده بل يحد ما يثيره . وقال جاك متأوها :

— آه ! لو كان لدي فقط الوقت الكافي لأشتغل ، ولأجرب اشياء . دائماً هذه الامتحانات . وها قد مضت عشرون سنة . هذا خيف !

وفكر وهو يرفع يده إلى نقرته ، حيث كان احتكاك الطوق يهيج رأس الدمل : « وهذا المسمار الجديد الذي ينبت رغم صبغة اليود » . ثم تابع :

— قل يا انطوان . في سن العشرين لم تكن ولدأ ، انت . اني اذكر جيداً . ولكن انا لم اتغير . واشعر في أعماقي اني اليوم كما كنت منذ عشر سنوات . ألا ترى ذلك ؟

— كلا .

وكان انطوان يفكر :

— ان ما قاله صحيح . هذا الشعور بالاستمرار ، أو بالاحرى هذا الاستمرار بالشعور .. السيد الهرم الذي قال : « انا ، أحب ان لعب بوثبة الخروف .. » نفس الاقدام ، نفس الايدي ، نفس الرجل . وهكذا انا ، في ليلة خوفي في كوتيرييه ، ذلك المغص ؛ ولم اجرؤ على الخروج من غرفتي . لقد كان هو ، هو بالضبط . الدكتور تيبو .. رئيس مركز عيادتنا .. رجل ذو قيمة ..

اضاف ذلك برضا كما لو انه كان يسمع أحد تلامذة الطب عنده يتحدث عنه . وسأل جاك : أأزعجتك ؟

وخلع قبّعتَه ومسح جبهته .

— لماذا ؟

— أرى ذلك جيداً . فأنت لا تكاد تجيبني ، وتصفني إلي كمريض مصاب

بالحمى .

— ابداً .

وفكر انطوان متخيلاً الوجه المتألم لطفل جيء به إليه هذا الصباح إلى

المستشفى : « إذا لم يكفِ غسل الأذن لإسقاط الحرارة... في قلبي نا-نا-نا » .

وتابع جاك :

— لقد وضعت في رأسك اني متوتر الأعصاب . واكرر انك مخطيء . أريد

ان اعترف لك بشيء يا انطوان : هناك لحظات حيث .. نعم ، حيث اتمنى فيها

ألا أقبل .

— لماذا هذا ؟

— للتخلص .

— التخلص ؟ من ماذا ؟

— من كل شيء ، من التشابك ! منك ، منهم ، منكم كلكم .

وبدلاً من ان يقول انطوان ! « انت تهذي » - وهو ما كان يفكر به -

التفت إلى أخيه وتأمل به بعين فاحصة . وتابع جاك :

— قطع الجسور والذهاب ! أوه ! نعم . الذهاب وحدي ، ولا يهم إلى

أين ! وهناك سوف أكون مرتاح البال ، سوف اشتغل .

كان يعلم انه لن يذهب : لقد كان مستسلماً لحلمه بكثير من الحمية . وصمت .

ولكنه تابع على الأثر ، بإبتسامة مؤلمة :

— ومن هناك ، نعم ، ربما ، ولكن من هناك فقط سوف استطيع

الصفح عنهم .

فتوقف انطوان :

— ألا تزال تفكر بهم ؟

- بمن ؟

- تقول : الصفح عنهم . غن من ؟ تصفح عن ماذا ؟ الاصلاحية ؟
فنظر إليه جاك نظرة رديئة ، وهز كتفيه وعاد إلى سيره . كانت الأمر
يتعلق باقامته في كروي ! ولكن ما فائدة الايضاح ؟ فاندطوان لا يستطيع
ان يفهم .

ومع ذلك ، فهاذا يقابل فكرة الصفح هذه ؟ لم يكن جاك نفسه يعرف
بالضبط ، مع انه اصطدم دون انقطاع بهذا التناوب : الصفح ، أو بالعكس ،
إحاجة الحق ؛ القبول ، الانضمام ، ان يكون مجموعة دواليب بين مجموعة دواليب
أخرى ؛ أو ايضاً ، بالعكس ، إثارة قوى التخريب التي تتحرك فيه والهجوم بكل
حقده ضد... لم يكن يعرف ان يقول ضد ماذا - ضد الحياة الجاهزة ، والاخلاق ،
والعائلة ، والمجتمع ! حقد قديم يعود تاريخه إلى طفولته ؛ عاطفة مبهمة لأنه كان
كأنما مجهولاً ، توجه إليه بعض العناية ، وفاته الجنس البشري كله . نعم ،
بالتأكيد ، لو استطاع الهرب لوجد أخيراً ذلك التوازن الداخلي الذي كان يتهم
الآخرين انهم جعلوه مستحيلاً عليه . وردد :

- وهناك سوف اشتغل .

- هناك ، أين ؟

- آه ! أنت ترى ، أنت ، تسألني أين ! لا تستطيع أن تفهم يا اندطوان !
انت ، كنت تشعر دائماً انك على وفاق مع الباقيين . وكنت دائماً تحب الطريق
الذي اتبعته .

وفكر فجأة بأخيه البكر كان من النادر أن 'يسمح له بذلك . فالفاه راضياً
ومجتهداً . طاقة ، ليكن ؛ ولكن ذكاء ؟ ذكاء عالم بالحيوانات ! هذا الذكاء
اختباري بحيث كان يجد في الدراسة العلمية تعدده الكامل ! ذكاء كان قد بنى
فلسفة على المعرفة الوحيدة للفعالية واكتفى بها ! والأمر الذي كان أكثر خطورة ،
ذكاء كان يعمرى الأشياء دائماً من قيمتها الخفية ، من كل ما كان ، من ناحية إجمالية
هو المعنى الحقيقي ، وجمال الكون !

وأكد بحدة : انا لست مثلك !

وابتعد قليلاً عن أخيه ليمشي وحده صامتاً ، على حافة الرصيف ، وقال لنفسه :

— إنني اختنق هنا . كل ما فعلوه لي مكروه وميت ! اساتذتي ! رفاقي ! غرامياتهم ! كتبهم المفضلة ! الكتاب المعاصرون ! آه ! لو أن أحداً في العالم يستطيع الشك بماهيتي . وما أريد أن أفعل ! كلا ، ما من أحد لديه فكرة ، حتى ولا دانيال .

وخفت حدته . ولم يسمع بماذا أجابه انطوان . وكان يفكر : « نسيان كل ما كتب قبلاً . الخروج عن الخطوط ! التطلع في النفس وقول كل شيء ! لم يجرؤ أحد بعد على قول كل شيء . أحد ما ، أخيراً : انا » .

وكانت الحرارة قد جعلت صعود شارع سوفلو متعباً . فخففا سيرهما . واستمر انطوان في الكلام وجاهك في السكوت . وكان هذا يلاحظه ويبتسم داخلياً : « في دخيلة نفسي لا أستطيع ابداً مناقشة انطوان . أو انني سأجابه وأعضب ؛ أو أظل هادئاً امام الحجج التي يصفها بترتيب ، وأسكت . كما في هذه اللحظة . بشيء من المداينة . لأنني اعلم جيداً ان انطوان يحسب هذا السكوت رضا . وليس هذا صحيحاً . أبعد من ذلك ! اني اتشبث بأفكاري . ولا يهمني إذا كانت مشوشة بنظر الآخرين . اني واثق من قيمتها . ولن يتعلق الأمر بسوى معرفة إثبات هذه القيمة . اليوم الذي اريد فيه الاهتمام بذلك ! حجج ، يوجد منها دائماً . وانطوان نفسه ، يسير ، ويسير . ولا يتساءل ابداً إذا كان هناك شيء آخر صوابي في ما افكر فيه . ومهما كان الأمر ، ذلك الذي اشعر به وحدي . — ومرة أخرى تأججت الرغبة بالرحيل . — ترك كل شيء دفعة واحدة : سيكون رائئاً . « غرف متروكة ! روائح الرحيل ! » . — وابتسم من جديد ولففت نحو انطوان نظراً ما كرراً وتلا : — « ايتها العائلات ، اني اكرهك ! بيوت مقفلة ، ابواب مغلقة » .

— من هذا ؟

فقال جاك منقطعاً عن الابتسام ، وقد زاد فجأة من سرعة خطاه
 - آه ! انه من كتاب هو سبب كل شيء ! كتاب وجد فيه دانيال جميع
 الأعدار .. وأسوأ من ذلك : تمجيد لـ ... لجميع وقاحاته ! كتاب يعرفه غيباً
 الآن . وأنا ، فقد . - الا انه اضاف بصوت مرتجف : - كلا ، كلا ، لا يستطيع
 ان اقول اني اكرهه ؛ ولكن ، كما ترى يا انطوان ، فهو كتاب يحرق اليبدي
 اثناء قراءته . ولم أشأ ابداً ان أكون وحدي معه لانني اعتقد انه رهيب .
 - وقابع عجملة لإرادية : - « غرف متروكة ، روائح الرحيل » .
 ثم صمت ، وغير النبوة فجأة ، وأضاف بصوت ابح ، سريع :
 - اقول هذا : الرحيل ! ولكن فـات الوقت . اني بالحقيقة لا يستطيع الرحيل .
 فأجاب انطوان :

- تقول دائماً « الرحيل » كما يقال « الاغتراب » والواضح ان هذا معقد
 قليلاً . ولكن السياحة ، لماذا لا ؟ لو قبلت فسيجد ابي من الطبيعي ان تذهب
 للقيام بـسياحة أثناء الصيف .
 فـهز جاك رأسه قائلاً : فـات الوقت .
 ماذا كان يقصد بذلك ؟

- ومع هذا لن تذهب لتمضية شهري العطلة في ميزون - لافيت بين ابي
 والمدموازيل ؟
 - بلى .

واتى بحركة مراوغة ؛ ولما كانا قد اجتازا ساحة البانتيون ودخلا في شارع
 أولم ، فإنه دل باصبعه على ارهاط من الناس كانوا يقفون امام مدرسة دار المعلمين .
 وأظلم وجهه . وقال انطوان لنفسه : « يالها من طبيعة غريبة ! » . وهي ملاحظة
 كان غالباً ما يـبديها ، بتسامح ، وبفخر لاواع . ومع انه كان يرتعب بما هو
 غير متوقع ، وأن جاك يحيره دون انقطاع ، فإنه كان يبذل الجهد دائماً ليفهم
 اخاه . وعقل انطوان العامل كان ينصرف إلى رياضة عقلية لا تنتهي حول
 احاديث غير متلاحمة كان هذا يفلتها ، وكانت تسليه ، وتتيح له التعمق في طباع

اخيه الصغير . وفي الواقع ، فإن انطوان ما يكاد يعتقد انه توصل إلى ذروة تحقيق نفسي حتى يأتي تصريح جديد ، لجاك ليقرب بوجه عام صقالة افكاره : كان يلزم السير من جديد ، ونحو نهايات متعاكسة في أغلب الاحيان . مع ان كل محادثة لانطوان مع اخيه كانت تتألف من ارتجال احكام متتابعة ومتناقضة يبدو له آخرها دائماً نهائياً .

ووصلا الى امام واجهة المدرسة الحشنة . والتفت انطوان نحو جاك وشمله بنظرة نافذة وقال لنفسه : « حين نسبر اغوار الاشياء نرى ان لهذا الصغير ميلا لحياة العائلة اكثر مما يتصور هو نفسه » .

وكان الباب مفتوحاً والباحة ملأى بالناس .

وعلى مدخل الرواق كان دانيال دي فونتانا يتحدث مع شاب اشقر . وكان جاك يفكر : « لو شاهدنا دانيال أولاً ، فاني اكون مقبولاً » . ولكن فونتانا وباتتكور التفتا معاً لدى نداء انطوان .

وسأل دانيال : ألسنت متوتر الأعصاب أكثر من اللازم .

— لست متوتر الاعصاب ابداً .

وقال جاك لنفسه : « اذا لفظ اسم جني اكون مقبولاً » .

وصرح انطوان :

— لا شيء اسوأ من ذلك الربع ساعة قبل تعليق النتيجة .

فاعترض دانيال باسم :

— اتعتقد ذلك ؟ هناك دائماً شيء من اللذة في الانتظار .

وبدافع الشيطنة كان يسعى في اغلب الاحيان لمعاكسة انطوان ويدعوه « دكور » ، وكان الكبير الرصين يفككه .

وهز انطوان كتفيه ، وسأل أخاه :

— أأسمعه ؟ فيما يتعلق بي فاني قاسيت أربعة عشر أو خمسة عشر انتظاراً من هذا النوع ؛ ولم استطع الاعتياد على ذلك أبداً . الا اني كنت لاحظ ان اولئك الذين يبدون في هذه اللحظات ثابتي الجنان يكونون دائماً من المتوسطين

الضعفاء .

— لا يعرف جميع الناس ان يتذوقوا فراغ الصبر .

قال دانيال ذلك ، وقد اصبغت عينه المنكدة حين ينظر إلى الدكتور مداعبة حين يلتفت إلى جاك .

وكان انطوان يتابع فكرته . وقال :

— اني اكلمك جدياً . ان الاقوياء يختنقون في الارتباب . والشجاعة الحقيقية ليست في انتظار الحادث يهدوء ، بل في الركض إلى أمامه للتعرف عليه اكثر مما يمكن ولقبوله . اليس كذلك يا جاك ؟

فأجاب جاك الذي لم يسمع شيئاً :

— كلا ، انا من رأي دانيال .

وبما ان دانيال قد استمر في التحدث إلى انطوان ، فانه تدخل ، شاعراً انه

كان يغش :

— ألا تزال امك واختك في ميزون — لافيت ؟

فلم يسمع دانيال ؛ وأصر جاك على التفكير : « أنا مرفوض في الامتحان » . واكتشف كم ان ثقته بنجاحه لا تنزعزع . « سيكون أبي مسروراً » . وكان يتسم مقدماً ؛ وقدم ابتسامته الى باتنكور :

— اشكرك لمحيئك يا سيمون .

كان الآخر يتأمل بظرافة ، غير قادر على اخفاء ذلك الاعجاب الحار الذي وقفه على صديق دانيال ، ذلك الاعجاب الذي لم يكن جاك يقبله دون ملل لأنه كان يستحيل عليه ان يحببه بصدقة من نفس العنوان .

في تلك اللحظة انقطعت الجلبة في الباحة . وظهر مستطيل من الورق الابيض وراء زجاج نافذة في الطابق الارضي . وشعر جاك بشكل غامض ان امواجاً متلاطمة انتزعته من الارض وحملته نحو الورقة التي تعلن مشيئة القدر . وكانت اذناه تطئنان . وقال انطوان :

— مقبول ، الثالث .

ورن الصوت لحظة في اذنه . كان صوتاً حاراً ، حياً ؛ ولكنه لم يدرك معنى الكلمات الا حين لفت رأسه بجمل وشاهد وجه أخيه المتهلل . عندئذ نقل قبعته بيد رخوة ؛ وسال العرق على جبهته . وكان دانيال وباتنكور قد عادا إليه بعد ان دارا حول الجمهور . وكان دانيال ينظر إليه . وجاهك ، جاحظ العين ، يرى مجيء دانيال ، حيث الشفة العليا المرفوعة كانت تكشف الاسنان دون ان يكون في قسماته أقل نية في الابتسام .

وارتفعت تمتمة فملأت الباحة . وعادت الحياة سيرتها الاولى . وتنفس جاك تنفساً عميقاً . ودار الدم من جديد في أعضائه . وفجأة ، تخيل فجأة ، شركاء ، وفكر : « لقد قبض علي » . وسالت أفكار اخرى . وعاد ليعيش بضع ثوان في امتحانه الشفهي باليونانية . في اللحظة التي ارتكب فيه غلظه تماماً . وتراعى له اخضرار الطنفسة ، واصبع الاستاذ ، مسحوقه على الشويفور^(١) ، مع ظفرها الساقط كنجاة الظلف .

— من هو الاول ؟

ولم يسمع الاسم الذي لفظه باتنكور . « لو انني فهمت كلمات : ملجأ ، خورس .. حراس الخورس المنزلي .. لكنت الاول » . وبعد ذلك انهمك عدة مرات في تجديد إنشاء سلسلة الأفكار التي قادتته إلى هذه المناقضة التي لا تغتفر للمعنى الحقيقي .

وقال دانيال وهو يربت على كتف انطوان الذي ابتسم اخيراً :

— هيه يا دكتور ، ارنا هيئة راضية .

كان السرور عند انطوان يرافقه دائماً ضبط النفس لأن رصانة موقفه ترفض كل منفذ لاطهار السرور . أما دانيال فبالعكس ، فهو يترك المجرى حراً

١ - شويفور *Les choéphores* : اسم كان الاغريق القدماء يطلقونه على حلة القرايين ار الكفارات المخصصة للموتى .

لسروره . وبسرور شبه شهواني كان يتفحص اصدقاءه وجيرانه ، وخصوصاً النساء الآتيات إلى هناك ، من امهات واخوات ، حيث كانت رقة قلبه تبدو في تلك اللحظة دون خجل في أقل نبذة ، في أقل حركة .

واستشار انطوان ساعته والتفت نحو جاك :

— وبعد ، هل لديك شيء آخر تعمله هنا ؟

فارتجف جاك ، وقال مفتعاً : انا ؟ كلا .

لقد انتبه إلى انه ساعة اعلان النتائج دون شك ، ودون ان يفكر بذلك ، فقام من جديد بثرأ في شفته كان يشوهه منذ ثمانية أيام . وقال انطوان :

— إذن لنذهب . لدي زيارة أقوم بها قبل موعد الطعام .

وحين خرجوا من الباحة رأوا فافري الذي كان يسرع لاستقاء الاخبار ، وقد قال منتصراً :

— اترون ؟ لقد قيل ان مسابقة اللغة الفرنسية كانت ممتازة .

لقد خرج من دار المعلمين منذ سنة . وحصل على نيابة احتياطية في سانت لويس ليتجنب الريف ؛ وكان يعطي دروساً خصوصية في ساعات حرته ، في النهار ، بطريقة تجعله قادراً على ان يعيش حياة باريس ليلاً . وكان يكره حياة الأستاذة ، ويحلم بالصحافة ويميل سرأ إلى السياسة .

وتذكر جاك ان فافري يعرف جيداً فاحص اللغة اليونانية ؛ ومرة أخرى تحيل الطنفسة الخضراء والاصبع . وشعر انه احمرّ خجلاً . لم يكن قد فكر بعد انه مقبول ؛ ولم يشعر بأي احساس بالخلاص بل شعور بالتعب فقط ، تقطعه غضبات فجائية منذ ان يتذكر اجوبته المناقضة للصواب وثلوله .

وامسك دانيال وابتسكور من ذراعه بمرح وسارا به بخطوة راقصة نحو البانتيون . وتبعهم انطوان مع فافري .

وقال فافريّ موضعاً ، متكلماً بصوت مرتفع ، وضاحكاً بلطف :

— ان منبهي يدق في الساعة السادسة والنصف ، في طاسة تقف متوازنة على قدح . فأتذمر ، وافتح عيناً ، وأشعل النور ؛ ثم اضع الابرة على الساعة

السابعة واعود إلى النوم ، ضاماً القنبلة إلى صدري . وبعد ذلك تهز البيت والحي هزة أرضية . واغضب ولكني لا أطيع . وأجيز لنفسي البقاء خمس ، ثم حتى عشر ، ثم حتى خمس عشرة ؛ وبما ان ربع الساعة قد مضى عليه دقيقتان ، فاني أجيز لنفسي حتى العشرين لأن من اللازم انتظار رقم بلا كسور . واخيراً اسحب نفسي من السرير . كل شيء جاهز على ثلاثة مقاعد ، كجهاز رجال الاطفاء . وفي الساعة السابعة والدقيقة الثامنة والعشرين أكون في الشارع . لا يبقى لدي وقت ابدأ لتناول فطوري ولا لأغسل وجهي . لدي أربع دقائق لبلوغ المترو . وفي الساعة الثامنة اعتلي المنبر ويبدأ تلقيم المعلومات . وها انت ترى أي ساعة ينتهي . ويجب ان أذهب لأستحم ، وارتدي ملابس ، واتناول طعامي ، وارى الاصدقاء . فمتى تريد ان اشتغل ؟

كان انطوان يستمع ذاهلاً . وكان يبحث بعينه عن عربة . وقال :
— اتتناول عشاءك معي يا جاك ؟

فأجاب دانيال بسرعة :

— جاك يتناول عشاءه معنا .

فصاح جاك :

— كلا ، كلا ، هذا المساء سأتناول عشائي مع انطوان — وفكر ساخطاً —

هل يريدون ان يتركوني براحة بال في النهاية ؟ أولاً يجب ان اضع اليود على ثؤلولي .

واقترح فافري : لنتمش معاً .

— اين ؟

— لا يهم . عند باكميل *Packmell* .

فاعترض جاك :

— كلا ، ليس هذا المساء . انا تعب .

فتمتم دانيال مدخلاً ذراعه تحت ذراع جاك :

— انت تزعجنا . تعال يا دكتور لتجدنا عند باكميل .

وكان انطوان قد أوقف سيارة اجرة . والتفت ، فرأوه يتردد لحظة :

— ما هو باكميل هذا ؟

فأكد فافري حيثما اتفق ؟

— لا شيء مما تفترض .

وسأل انطوان دانيال بعينيه . فقال هذا :

— باكميل ؟ صعب التعريف اليس كذلك يا صغيري بات ؟ ليس فيه شيء من

العلب الليلية التقليدية . بنسيون عائلات تقريباً . بار ، نعم ، إذا شئت من

الخامسة إلى الثامنة . ولكن في الساعة الثامنة يذهب الساجحون ولا يبقى سوى

أبناء البلد . فتقرب الطاولات بعضها من بعض ، ويجري تناول العشاء على سماط

كبير متنوع ، حول الأم باكميل . اوركسترا جيدة . فتيات جيالات . ماذا

يلزملك اكثر من ذلك ؟ إذن ، هل هذا مناسب ؟ اتذهب إلى عند باكميل ؟

كان انطوان قليلاً ما يخرج في المساء . وكانت نهاراته قاسية وهو بحاجة إلى

امسياته ليُعدّ مسابقته عن المستشفيات ، ولكنه في هذا النهار كان يشعر برغبة

قليلة لدراسة الدم : وغداً الاحد ، ونهار الاثنين شغل . وكان يمنح

نفسه بين وقت وآخر إجازة ليلة السبت لسد جوعه . وكان باكميل يغريه .

فتيات جيالات ..

وقال بلهجة زاهدة قدر المستطاع ؟

— إذا حرصتم على ذلك . ولكن اين يقع ؟

— شارع مونسيني . سنتظرك حتى الساعة الثامنة والنصف .

فصاح انطوان وقد أطبق باب السيارة :

— سأكون هناك قبل ذلك .

ولم يقاوم جالك ، فأن قبول أخيه غير عزمه ، ثم انه كان يشعر دائماً بلذة

خفية في خضوعه لنزوات دانيال .

وسأل باتنكور : انزل سيراً على الأقدام ؟

فقال فافري وهو يلامس ذقنه :

— أنا سائب إلى المترو . الوقت اللازم لتغيير ملابسى وألحق بكم

كان بخار زوبعة يثقل على باريس في أواخر تموز ، حيث يصبح الهواء في المساء كثيفاً ورمادياً دون ان يستطاع التفريق إذا كان هذا ضباباً أو بخاراً . وكان أمامهم نصف ساعة من السير قبل الوصول إلى عند باكميل . واقترب باتنكور من جاك ، وقال دون سخرية :

— ها انت ذاهب إلى المجد .

واتى جاك بحركة ملل ، وايتسم دانيال . ومع ان باتنكور يكبره بخمس سنوات فان دانيال يعتبره ولداً ، وكان يحتمله تماماً بسبب ذاك الذي يثير جاك : سذاجته التي لا ينضب معيها . وتذكر الوقت الذي كانوا يتسلون فيه بالتوسل إلى باتنكور ليتلو عليهم شيئاً ، وكان هذا يتقدم إلى أمام الموقد ويبدأ :

« أوه يا كورسيكا ! أوه أيها الشعر السبط ! كم كانت فرنسا جميلة تحت سماء مسيدور ! » .

وذلك دون ان يرتاب بالقهقهة التي تنطلق من عقالها منذ الكلمة الثالثة . في ذلك الوقت كان سيمون دي باتنكور ، قد جاء حديثاً من مدينة في الشمال حيث كان والده كولونيل ، يرتدي سترة سوداء مزررة كان قد صنعها ليتابع دروس اللاهوت في باريس بلباقه . إذن فقسّ المستقبل كان غالباً ما يأتي إلى بيت مدام دي فوتنانان التي جعلت من واجبها ان تجتذبه إلى بيتها لأن الكولونية دي باتنكور كانت إحدى صديقات طفولتها .

— اني اشعر حقيقة برعب من حيكم اللاتيني .

قال في تلك اللحظة لاهوتي المستقبل الذي يعيش الآن في حي النجمة ، ويرتدي بزة فاتحة . وقد اختلف مع أهله بسبب زواج غير مصيب كان يستعد لإتمامه ، ويقضي نهاراته في تصنيف صور مختومة حديثة جداً في مكتبة لود فيكسون باجرة اربعمائة فرنك بالشهر ، حيث وجد له دانيال عملاً . ورفع جاك رأسه وأجال عينيه فيما حوله ، وسقط نظره على بائعة ورد هرمة

مقمية وراء سلتها ؛ وكان قد شاهدها قبلاً وهو يمر مع انطوان ؛ ولكن بعين مهمومة لم تكن تستسلم آنذاك لأي توسل . وبتذكره تلك الصعده في شارع سوفلو شعر فجأة بأن شيئاً ينقصه ، كما يحدث حين يفقد المرء شيئاً مألوفاً ، الخاتم الذي يحمله دائماً في اصبعه . والقلق النفسي الذي كان يسكنه منذ أسابيع ، والذي كان منذ ساعة يضيق عليه لدى كل خطوة ، قد اختفى تاركاً فراغاً شبه مؤلم . وللمرة الاولى منذ اعلان النتيجة ، احتك بنجاحه ، ولكن ليسعرا انه طائش ومحطم كما يكون بعد سقطة .

وسأل باتنكور دانيال :

— هل أخذت حمامات بحر ؟

فالتفت جاك ، وقد رقت نظرتة ، وقال :

— هذا صحيح . تقول انك عدت بسبيي ! هل لهوت هناك ؟

فأجاب دانيال : أكثر مما كنت اتوقع .

فابتسم جاك ببرارة وقال : ككل مرة .

وتبادلا نظرة امتدت فيها مناقشات حامية .

كان جاك قد وقف على دانيال مودة صارمة تختلف جداً عن صداقة المجاملة التي يظهرها دانيال له . وكان هذا يقول له بعض الاحيان : « انت اكثر تطلباً لي منك لنفسك . وأنت لم تأخذ ابداً قسطك من الحياة التي أحياناها » . فأجاب جاك : « كلا ، اني ارضى بحياتك ؛ اما ما لا استطيع قبوله فهو الموقف الذي اتخذته حيال الحياة » .

موضوع مخاصمات يعود تاريخه إلى بعيد .

ودانيال ، ما إن نال البكالوريا ، حتى رفض اتباع أي طريق مرسوم . وأبوه الغائب لم يكن يهتم به أبداً . وامه كانت تتركه حراً في اختيار طريقه ؛ كانت تحترم كل إرادة قوية ، تساندها ثقة غامضة عندما يتعلق الامر بأولادها وبالمستقبل بوجه عام ، وكانت ترغب قبل كل شيء أن يكون ولدها حراً وليس واجباً عليه أن يربح بعض المال لتحسين وضعيه ذويه . إلا ان دانيال كان يفكر

في ذلك . لقد ظل سنتين متتاليتين يتألم سرّاً لعدم قدرته على مساعدة امسه ، وكان يتحين الفرصة التي تتيح له التوفيق بين نظام التزاماته وبين ضرورات اخرى لا تقاوم كانت تسيطر عليه . وساوس لم يستطع جاك نفسه النفاذ إلى مركباتها . - ذلك اننا إذا نظرنا إلى الطريقة المتكاسلة التي يشغل دانيال بموجبها في الرسم ، وحده دون أي دليل سوى غريزته ، وسوى نزوته كما يبدو ، لا يصور إلا بالجهد ، ويرسم أكثر نوعاً ، مختلياً نهائياً بكامله أحياناً مع نماذج ليفطي نصف دفتر من الرسوم بالخطوط ، ثم يبقى عدة أسابيع دون أن يلمس قلماً رصاصياً - فلا يحدث أي شك في الفكرة الرائعة التي يكونها عن نفسه وعن مستقبله . كبرياء صامته ، نقية من كل صلف : كان ينتظر اليوم الذي يجد فيه كل ما في نفسه من سمو طريقته في التعبير ، بواسطة تسلسل القوانين الحتمية ؛ وكان متأكداً أن مصيره هو مصير فنان ذي عظمةٍ أولى . متى ، وبأي طرق سوف يبلغ هذه القمم ؟ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك ، ويتصرف كأنه لا يهم بها ، ويصرح بضرورة الاستسلام للحياة . وقد استسلم لها . وليس بدون توبيخ ضمير ، ولكن هذه العودات الثقلة نحو اخلاق امه لم يكن لها سوى وقت ، ولم تكن لتوقفه أبداً بحزم على منحدره . وكان قد كتب قبلاً إلى جاك ، وكان عمره آنذاك ثماني عشرة سنة : « في أسوأ أزمات الوسواس التي عكرت صفو هاتين السنتين الاخيرتين ، أقسم لك انني لم أتوصل أبداً إلى أن اخجل حقيقة من نفسي . وأفضل من ذلك : في ساعات الشك تلك حيث كنت ألوم نفسي على سلوكي ، كنت أشعر في الواقع بالاشمئزاز من نفسي أقل مما كنت أشعر به بعد ذلك وأنا أتذكر ذلك الرفض الصياني وذلك الاجبار ، منذ ان كانت الحياة تذهب بهذا الاشمئزاز من جديد » .

وبعد ان كتب هذه الرسالة بقليل سافر بقطار الضاحية مع ذلك الذي اطلقوا عليه فيما بعد اسم « رجل العربية » ، والذي ما شك أبداً بالدوي الذي أحدثه هذا اللقاء القصير على فتوة الشابين .

وكان دانيال قد عاد من فرساي حيث قضى فترة ما بعد الظهر من أحد أيام

تشرين الاول تحت ظلال الحديقة . وقد وثب إلى القطار في الدقيقة الأخيرة .
 وشاءت الصدفة أن يكون الرجل المسن الذي جلس قبالة غير مجهول منه تماماً :
 فقد التقى به أثناء النهار في غابات تريانون الكبرى ؛ ونظر إليه ، ولاحظه ؛
 وكان مسروراً لاستطاعته أن يتفحصه على مهل . وكان السائح يبدو عن قرب
 أكثر شباباً : ومع ان شعره أبيض ، فهو لا يكاد يبلغ الخمسين ؛ لحية كثيرة
 البياض وقصيرة ترسم خطأ تحت وجهه بيضوي يعبر ترتيبه بشدة عن حلاوته .
 والصبغة ، والشمية ، واليدان ، والتفصيل والقباش الفاتح للملابس ، ورباط العنق
 النادر ، وخصوصاً تلك النظرة الزرقاء ، المحترمة الحية التي تطوف على جميع
 الأشياء ، كانت كلها لفتي يافع . وتجليد الكتاب الذي كان يتصفحه باصبع معتاد
 كان لدناً كتجليد دليل ولا يحمل أي عنوان . وقد نهض بين سوريسن وسان
 كلود ، وبلغ الرواق وانحنى ليتأمل منظر باريس حيث كان المغييب يتأجج ذهباً .
 ثم جاء يستند إلى الزجاج الذي كان دانيال يجلس قبالة ؛ ورأى الشاب اليدين
 اللتين تحملان الكتاب السري على ارتفاع وجهه ، تفصلها سماكة الزجاج فقط :
 يدان طليقتان ، متراحتان وعصبيتان معاً يوقضان فكرة عن الروحانية .
 وبحركة قاما بها ، فتح الكتاب واستطاع دانيال ان يقرأ على الصفحة التي التصقت
 بالزجاج بعض الكلمات :

« نانا نائيل ، سأعلمك الحية .. »

حياة واجفة مشوشة ..

وجود مؤثر ، يا نانا نائيل ، خير من الطمانينة .. »

وتزحزح الكتاب . وكان لدى دانيال من الوقت أيضاً ما يحل به رموز
 العنوان الذي كان يركض في أعلى الصفحة : « قوت الارض ^(١) » .
 ودخل قلقاً في نفس النهار إلى عند عدة بائعي كتب . كان الكتاب مجهولاً
 لديهم . فهل سيحتفظ رجل العربية بسرّه ؟ « وجود مؤثر يا نانا نائيل خير من

١ - كتاب معروف لأندرية جيد صدر عن منشورات عويدات .

الطمأنينة .. » وفي صباح الغد أسرع يتفحص لوائح الكتب تحت أروقة الأوديون وبعد بضع ساعات أغلق الباب على نفسه والكتاب في جيبه .
 لقد قرأه دفعة واحدة . وقضى فترة ما بعد الظهر هناك وخرج في المساء .
 لم يكن قد عرف حتى كهذه بعد وحاسة مجيدة مثلها : كان يسير امامه بخطى كبيرة كالفاتح . وجاء الليل . فتبع الأرصفة ، وأصبح بعيداً جداً عن بيته .
 فتعشى كعمكة وعاد إلى البيت . وكان الكتاب ينتظر على الطاولة ، ودار دانيال حوله دون أن يجرؤ على فتحه ، ونام ، ولكنه لم يجد الغفو . عندئذ خضع ، والتف بمعطف ، وعاد إلى القراءة ببطء منذ البدء . كان يشعر جيداً ان الساعة احتفالية ، وان شغلاً ، إنباتاً غامضاً يجري اعداده في لباب ضميره . وعندما انتهى الصفحة الأخيرة للمرة الثانية عند الفجر ، وأحس انه أصبح يلقي على الحياة نظرة جديدة .

« وضعت يدي يجرأة على كل شيء واعتقدت ان لي حقوقاً على كل موضوع من مواضيع رغباتي .
 هناك مكسب في الرغبات ، ومكسب في اشباع الرغبات - لانها بذلك تزيد . »

تلك العادة الغريبة في التقييم الاخلاقي التي اعتادها بواسطة القرية ، ادرك انه تخلص منها دفعة واحدة . وكلمة « خطأ » غيرت معناها .
 « يجب ان نعمل دون ان نحكم على العمل اذا كان صالحاً أو رديئاً . ونحب دون ان نهتم اذا كان هذا خيراً أو شراً » .

ان المواطنين التي لم يكن حتى الآن يستسلم اليها إلا ضد إرادته قد انعتقت فجأة واحتلت المركز الأول بسرور ؛ وفي تلك الليلة ، وفي بضع ساعات ، انقلب سلم القيم الذي كان يعتقد منذ طفولته انه غير قابل للتقلب . وكان اليوم التالي كغد العمادة . وبقدر ما كان يتنازل عن كل ما يتمسك به كأكيد لا ريب فيه ، فان سكينه رائعة ولدت بين القوى التي كانت تجزئه حتى الآن . ولم يتحدث دانيال لأحد عن هذا الاكتشاف ، إلا لجاك ، وبعد وقت طويل

من حدوثه . وكان هذا أحد أسرار صداقتها . وكأنا يفكران به كأنه سر ديني تقريباً ولا يشير ان اليه إلا بكلمات مغطاة . ومع ذلك ، ورغم جهود دانيال ، فان جاك تخلص بعناد من عدوى هذه الحمية : فرفضه ان يروي عطشه من هذا الينبوع المسكر بدا له انه يقاوم نفسه ، وانه ظل اكثر قوة ، واحتفظ بنفسه سالماً ؛ ولكنه كان يشعر جيداً ان دانيال وجد هناك نظامه ، «غذاء» : وكانت الغيرة واليأس موجودين في مقاومة جاك .
وقال باتنكور :

– أتعده لودفيكسون بين عجائب الطبيعة ؟

فقال دانيال موضعاً :

– ان لودفيكسون يا عزيزي بات ..

إلا ان جاك هز كفيه وترك اصدقاءه يتقدمونه قليلاً .

ان لودفيكسون هذا الذي استقبل دانيال عنده عدة أيام ، والذي كان يعد في العواصم التي أسس فيها فروعه واحداً من اكبر وقحي تجار الفن في أوروبا ، كان منذ وقت طويل موضوع خلاف بين الشابين . فجاك لم يكن يستصوب ابداً ان يساهم دانيال ، من قريب أو بعيد ، ولو لأجل العيش ، في المشاريع التي يقوم بها هذا التاجر . ولكن لاجاك ولا أحد يستطيع التبجح بأنه حوّل دانيال عن مغامرة أغرته حقيقة . والحال ان ذكاء لودفيكسون ، تلك الفعالية التي لا ترتاح والتي دفعها إلى درجة انه جعل من الأرق عادة ، وذلك الاحتقار للفضيحة ، وإلى حد ما ذلك الاحتقار للمال عند أبواب منتش فقط بالخطر والنجاح ، وقدرة صانع الأعمال هذا الذي ايقظ وجوده فكرة مشعال ملتهب ، تهزه الرياح ، داخن ولكنه مبهر ، كل هذا كان يغري دانيال كثيراً ، وإذا كان قد رضي ان يعمل لأجل هذا اللص فذلك بدافع الفضول أكثر منه بدافع الحاجة .

وكان جاك يتذكر اليوم الذي تقابل فيه دانيال ولودفيكسون لأول مرة : عرقان ، مجتمعان يتواجهان . في ذلك الصباح كان موجوداً في الرسم الذي كان

دانيال يتقاسمه آنذاك مع عدة رفاق من ذوي الدخل القليل مثله . وقد دخل لودفيكسون دون ان يطرق الباب ، واجاب بابتسامة على غضب دانيال ، ثم بدون مقدمات ، وبدون ان يقدم نفسه أو يجلس ، سحب من جيبيه محفظة بسوك عامل محفوظات يلقي حافظة نقوده إلى أحد الخدم . وقدم « لمن يدعى فوتنانان بين هؤلاء السادة » راتباً شهرياً قدره ستماية فرنك ، ابتداءً من ذلك النهار ولثلاث سنوات متتالية بشرط ان تكون الرسوم الدراسية التي يرسمها دانيال اثناء هذه المدة ملكاً خالصاً له ، أي للودفيكسون صاحب رواق لودفيكسون ومدير مؤسسات لودفيكسون وشركاه الفنية . رسوم دراسية يتعهد دانيال بتأريخها وتوقيعها باسمه . ودانيال الذي كان يشتغل قليلاً ، والذي لم يكن قد عرض أو باع أقل رسم تخطيطي ، لم يستطع ان يوضح كيف استطاع لودفيكسون ان يكون عن موهبته رأياً حسناً ليعمل عرضاً كهذا . ومع ذلك فقد رضي بصيانة استقلال انتاجه ؛ وكان يعلم جيداً انه إذا رضي بمواقيت هذه الصفقة فانه لا يقبل بنقود لودفيكسون إلا بأن يعطيه كل شهر عدداً من الرسوم تعادل على الأقل المبلغ المتفق عليه : لقد كوّن لنفسه عقيدة بان يشتغل دون مضايقة ، وفي الفرح . وبمداينة باردة ، فطلب إذن من لودفيكسون ان يذهب ، أمام رفاقه المندهلين ، ودون ان يفسح للزائر مجالاً للتعرف عليهم ، فجعله يتراجع ، وبكثير من السرعة ، نحو سطح الدرج .

ولم تقف الامور عند هذا الحد . فقد عاد لودفيكسون ، وبدأ أكثر تحفظاً ، وبعد بضعة أشهر انعقدت علاقات أعمال حقيقية بين التاجر ودانيال اللاهي . وكان لودفيكسون قد أصدر مجلة فاخرة بثلاث لغات تعالج الفنون التشكيلية ؛ ورجا دانيال ان يشرف على اختيار المواد الفرنسية . (لقد أعجبه طبع الشاب منذ اليوم الاول ولم تحف عليه سلامة ذوقه) . ولم يكن العمل مضجراً ؛ وكان دانيال يستعمل فيه أوقات فراغه ، ثم تولى فعلاً إدارة القسم الفرنسي في المجلة . ولودفيكسون الذي كان يتفق على نفسه بلا حساب ، كان من مبدئه ان يعين القليل من المساعدين ، ولكنه يختارهم بعناية ويترك لهم اكبر قدر ممكن

من الابتكار وكافىء جهدهم بسخاء : ودانيال ، دون ان يطلب منه ، كان يتناول نفس الراتب الذي يتناوله المديران الآخران ، الانكليزي والالاماني . كان يجب ان يعيش ودانيال كان يفضل عملاً غريباً تماماً عن حياته كفنان . وبعد ، فان بعضاً من رسومه التي نظم لها لودفيكسون معرضاً خاصاً ، كان يطلبها جامعو اللوحات . وهذه الفوائد التي استخرجها من علاقاته مع تاجر اللوحات اتاحت له ، ليس فقط المساهمة في راحة والدته واخته ، بل ان يعيش العيشة السهلة التي كان يحبها دون ان يلزم نفسه بأية مهمة موجبة ودون ان يتخلى عن اوقات الفراغ الضرورية لعمله الحقيقي .

لحق جاك برفاقه عند اجتياز بولفار سان جرمان . وكان دانيال يقول :
— ... المفاجأة الفائقة الوصف هي التقديم هناك لودفيكسون الارملة !
فقال جاك ليتدخل في الحديث :

— لم تكن الفكرة تساورني أن يكون لصاحبك لودفيكسون ام .
فقال دانيال :

— ولا أنا . وأي أم ! تصور .. كان يلزم عمل رسم تخطيطي . وقد صنعت عدة رسوم ولكن ليس على الطبيعة : وفي ذلك لن يعزيني شيء . تصور مومياء أعيد نفخها ثانية بواسطة مهرجين للقيام بنمرة سيرك ! يهودية مصرية هرمة ، مثوية على الأقل ، مشوهة بالشحم وداء المفاصل ، يشتم منها رائحة البصل المقلبي ، تضع في يديها قفارين لا أصابع لها ، تخاطب الخدم بصيغة المفرد ، وتدعوولدها « بامبينو » وتعيش بفتات الخبز المغمس بالنبيذ الأحمر وتقدم التبغ لكل آت ..
وسأل باتنكور : للتدخين ؟

— كلا ، للسعوط . انه يطر مسحوقاً أسود على حلية من الألباس جعلها لودفيكسون على المدخل ولا أدري لماذا .. — وتردد لاهياً بالفكرة التي خطرت له ، وأضاف : — كما يشعل قنديل التدمير !
وابتسم جاك فقد كان ذا تسامح لا ينفذ أمام جيشان ذهن دانيال .

— ماذا كان يريد الحصول عليه منك بكشفه لك هذا السر العائلي الكريه ؟
— انت لا تؤمن بكلامه : أن لديه مشاريع جديدة . فهو الأول من نوعه .
— انه الأول من نوعه لأنه كثير الغنى . ولو كان فقيراً لما كان سوى ..
فقاطعه دانيال :

— دعه إذا أردت . اني أحبه . ومشروعه ليس بالأحق : مجموعة من المقالات
في موضوع واحد : « المعلمون بالصورة » . ويصير قوياً بنشره مجموعات ملأى
بصور مقلدة طبق الأصل ، باثمان خارقة للعادة ..
وكف جاك عن الاصغاء ؛ وشعر أنه متألم ، حزين ، لماذا ؟ هل هو التعب
واضطراب النهار ؟ هل هو الضجر لأنه اقتيد هذا المساء بينما كان يرغب أن
يكون وحده ؟ هل هو احتكاك الطوق بالعنق ؟
ودخل باتسكور بين الصديقين .

كان يبحث عن فرصة ليطلب إليها فيها أن يكونا شاهدي زواجه . ومنذ
أشهر لم يكن يفكر نهائياً ولا بهذا الحادث ، بحمى من الرغبة أتلقت مزاجه
المفاوي . وأخيراً بلغ هدفه . فالمهلة الشرعية المتوقعة لاعتراض أهله قد انتهت ،
وحدد تاريخ الزواج في هذا الصباح : في ظرف اسبوعين ..
وصعد الدم إلى وجهه لهذه الفكرة ، وأدار رأسه ليخفي احمراره ، ونزع
قبعته وجفف جبهته .
وصاح دانيال :

— لا تتحرك . هذا لا يصدق . انك بوجهك الجانبي تشبه الجددي !
وبالفعل ، فإن باتسكور كان ذا أنف طويل متصل بالشفة ، ومنخرين
معقوفين ، وعين مستديرة ، وفي ذلك المساء ، فان خصلة شعر بلون خيوط القنب
جعلها العرق تنعقف على الصدغ بشكل قرن صغير مروس .
وأعاد باتسكور قبعته بحزن وترك نظره يشرذ إلى ما وراء ساحة كاروزيل
نحو حديقة التوليري حيث كان الغبار يبدو محمراً .
وفكر دانيال :

— يا للجدي الثاغي المسكين ! من كان يظن انه أهل لهذا الحب الكبير ؟
ها هو يتنكر لكل مبادئه ويختلف مع أهله لأجل تلك المرأة .. أرملة ، تكبره
بأربع عشرة سنة .. أرملة خالعة العذار .. شبيهة ولكنها خالعة العذار .
وابتسم ابتسامة خفيفة . وتذكر فترة ما بعد الظهر في أول خريف ألح
فيه سيمون كثيراً ليقدمه إلى الارملة الحسنة وما نتج عن ذلك في الاسبوع التالي .
لقد أبرأ ذمته على الأقل بأن فعل كل شيء لتحويل باتنكور عن ارتكاب هذا
الجنون ولكنه اصطدم بشبهة عمياء ؛ ربما انه كان يحترم الحب أين التقاه ، فقد
اكفى بتجنب السيدة ومتابعة حوادث هذه المغامرة الزوجية من بعيد .
وقال باتنكور في هذه اللحظة ، وقد خاب أمه من سخرية دانيال فحاول
التعويض بالقرب من جاك :

— انك تبدو راجحاً مستاء .

فقال دانيال ملحاً :

— ألا تفهم إذن أنه كان يأمل أن يُرفض ؟

ودهش من النظرة المفكرة التي قذفه جاك بها ! واقترب من صديقه ووضع
يده على كتفه وتمم مبتسماً : « .. لأن قيمة كل شيء تختلف » .
وكان ذلك كافياً ليتذكر جاك المقطع بكامله الذي كان دانيال يُسرُّ بترديده
في اغلب الأحيان :

« الويل لك إذ تقول ان سعادتك ميتة لأنك لم تكن تحلم بأن تكون سعادتك
شبيهة بذلك .. ان حلم الغد هو سرور — ولكن سرور الغد شيء آخر . — ومن
حسن الحظ ان لا شيء يشبه الحلم الذي حدث لأن قيمة كل شيء تختلف » .
فابتسم جاك وقال : اعطني سيكارة .

ولكي يسر دانيال فإنه كان يحاول ان يهز خموده . « حلم الغد هو سرور .. »
وبالفعل ، فقد ظن انه شعر بسرور لا يدرك يحوم حوله .. غداً ؟ يستيقظ ،
يشاهد من النافذة المفتوحة الشمس على رؤوس الأشجار ! غداً ، ميزون لافيت
وطراوة حديقته الوارفة الظلال .

في ذلك الشارع الملت من حي الاوبرا ، كانت بعض العربات تقف بمحاذاة الرصيف ، وتلفت وحدها الأنظار إلى واجهة حانة بدون آرمة ، ذات ستائر مسدلة . ودفع احد الخدم الباب الدائر امامهم . وتنحى دانيال ، كأنه في بيته ليفسح مجال المرور لجاك وباتنكور .

ولدى ظهور دانيال حيته بعض النداءات الرصينة . كانوا يدعون « النبي » وقليل من رواد المكان يعرفونه باسمه الحقيقي . ومع ذلك فقد كان هناك قليل من الناس . ووراء البار ، التجويف الذي يقوم فيه ، بشكل لولي ، الدرج الصغير الابيض ذو الشبكات الذهبية ، الشبيه بخشبيات الجدران ، والذي يفضي إلى (أنترسول ^(١)) مدام باكميل ؛ كان هناك بيانو ، وكان ، وفيولونسيل تعزف فالس الفصل . وقد قدمت المناضد إلى أمام المقاعد ذات العوارض الخشبية الشهاء ، وبعض الازواج يرقصون رقصة البوستون على الطنفسة الارجوانية وعلى نور نهار منته لا تزال تلتطفه الستائر المؤلفة من الإبريم . وفي السقف كانت المراوح تدوي دون تمهل ، مؤرجحة البلور المتدلي من الثريات وسعوف النباتات الخضراء ، رافعة حول ازواج الراقصين ذبول شالات الموسلين .

وجاك الذي ينتشي دائماً يجو مكان جديد لأول وهلة ترك دانيال يسير به نحو منضدة يمكن منها رؤية القاعتين المتجاورتين . وكان باتنكور يرقص ، وقد استأثرت به جماعة من النساء الشابات الجالسات في الغرفة الداخلية . وقال دانيال :

— يجب دائماً ان تسحب من اذنك . اما الآن وقد أصبحت هنا فانا واثق انك ستلهو . إعترف بان هذا البار هو ألوف وولد طيب . وقال جاك فجأة :

١ - أنترسول entresol : طبقة صغيرة بين الطبقة السفلى والطبقة الاولى في بناية .

— اطلب لي كوكتيل . وانت تعلم : ذاك الذي فيه حليب وكشمش وقشر ليمون .

وكانت تقوم على الخدمة فتيات بلباس بيضاء كانوا يسمونهن « ممرضات » . وقال دانيال الذي بدل مكانه وجاء يجلس الى جانب جاك :

— اتريد ان اقدم لك بعض الرواد من بعيد ؟ أولاً تلك ، ذات الملابس الزرقاء : إنها صاحبة المكان . يقال « الأم باكميل » مع انها لا تزال شقراء مرغوبة كما ترى . ولكن نعم ! تظل طوال السهرة تروح وتحجم بتلك الابتسامة بين زبائننا من الشابات : هيئتها تشبه خيَاطة ذات شهرة توالي إظهار عارضات ازيائها . — وأشار إلى رجل اسمر القى عليه تحية الصباح ، ويتحدث الآن مع تلك الضخمة الشديدة الشحوب ، تلك التي كانت ترقص مع باتسكور منذ لحظة — كلا ، اكثر قريباً منا ، بولا ، تلك الشقراء الصغيرة التي تشبه ملاكاً ، ملاك فاسد الاخلاق قليلاً . ولكن قليلاً جداً .. انظر انها الآن تشرب السم المدهش بافراط : يجب ان يكون من شراب الكيراساو الاخضر .. إذن ذلك الشخص الذي يحدثها واقفاً ، انه الرسام نيفولسكي ، نغرة لذيدة ، كاذب غشاش ، ومع هذا فهو فروسى كفارس من حاشية الملك . في كل مرة يتأخر عن موعد يقول انه كان في مبارزة ، وبعد ذلك يقنع نفسه بهذا الامر . وهو يستدين من جميع الناس وليس معه اى فلس ، ولكن بما ان الموهبة لا تنقصه ، فانه يدفع حسابه لوحات ؛ وللتبسيط ، اتعرف ما هي فكرته ؟ يذهب في الصيف إلى الحقول ويرسم طريقاً على عصابة من القماش بطول خمسين متراً ؛ طريق حقيقية ، مع أشجار وعربات وراكبي دراجات ، ومغيب الشمس ؛ وفي الشتاء يبيع طريقه قطعاً ، وفقاً لرأس الدائن والمبلغ المدين به . ويزعم انه روسى ، وانه يملك ما لا ادري من الوف « النفوس » . وعندئذ وبحكم الطبيعة ، اثناء الحرب الروسية اليابانية ، فان جميع الناس كانوا يسخرون منه لبعائه في مورغارتر يمارس وطنية المقاهي . اتدري ماذا فعل ؟ لقد ذهب . واختفى طوال سنة . ولم يرجع الا بعد الاستيلاء على بورت ارثر . وحمل معه كدسة من الصور عن الحرب ؛ وكان دائماً يملأ جيوبه منها ، ويقول :

«اترى يا عزيزي هذه المدفعية القوية؟ وفي الورا ، اترى تلك الصخرة الكبيرة ؟ وخلف الصخرة ، اترى انبوب البندقية الذي لا يكاد يتجاوزها؟ حسناً يا عزيزي ، هذا أنا . الا انه كان يحمل ايضاً عدة صناديق أبحاث : وطوال السنتين اللتين تلتا دفع جميع ديونه مناظر من صقلية ... وقد اشمّ اني كنت اتحدث عنه ، فسر ، ونفش ريشه .

وجاك المستند الى مرفقه لم يجب بشيء ، وكان له في لحظات كهذه وجهه بليد : الشفاه مفتوحة قليلاً ، والعين قائمة ، ونظرة حيوان نائم متدمر . وكان وهو يصغي إلى صديقه يتفحص الثنائي المؤلف من نيفولسكي وبولا الصبية . كانت تمسك بيدها احمر الشفاه ، وتدور فيها ، وتضع عليه القلم الأحمر ، وتجعله يدور بحركة صغيرة كأنها تثقب ثقباً ؛ وحين رآها الرسام جعلل محفظة المرأة تدور حول أصبعه . ولم يكن بينها سوى رفقة بار - وهذا أكيد - ومع ذلك فكانت تلمس يديه وركبته وتصلح ربطه عنقه ؛ وأحياناً ينحني نحوها ليقص عليها شيئاً ، فتدفعه بمرح واضحة على وجهه يدها الصغيرة الشاحبة مسطحة .. وكان جاك مضطرباً .

وغير بعيد عنها ، امرأة سمراء ، وحيدة ، متكومة في آخر المقعد . وكانت تلتف بمعطفها من الساتان الاسود ، متأثرة بالبرد ، وتلتهم بولا بعينها دون ان تفتن هذه لها .

وكان جاك يحيل نظره الثقيل في كل هؤلاء الناس . هل كان يلاحظ أم يكتشف؟ فأولئك الذين كان ينظر اليهم بعض الوقت عزا إليهم عواطف معقدة . إلا انه لم يكن يحاول تحليل ما اعتقد انه رآه ؛ ولم يكن قادراً على التعبير عن حسده بكلمات ؛ وكان المشهد قد أثار اهتمامه كثيراً فلا يستطيع ان يجزىء نفسه ويسجله أي شيء كان . ولكن الاتصال هكذا - وهماً ام حقيقة - بكائنات أخرى ، جعله يشعر بلذة لا مثيل لها . وسأل :

— وتلك الكبيرة التي تتحدث إلى صاحب البار ؟

— تلك التي ترتدي الازرق كالطاووس مع عقد ذي أهذاب تتدلى حتى
الركبتين ؟

— نعم . كم تبدو شرسة .

— انها ماري جوزف . وهي جميلة ، باسم امبراطورة . وحكاية لآلها مسلية .
واستمر دانيال مبتسماً :

— اتسمعي ؟ كانت عشيقة ريفيل ، ابن العطار . ولريفيل هذا زوجة
شرعية كانت تخونه مع جوس صاحب المصرف . اتسمعي ؟
— ولكن نعم . أسمعك جيداً .

— ذلك لانك تبدو نائماً . وذات يوم فان جوس الذي كان كثير الغنى اراد
ان يقدم لآلئ مدام ريفيل ، عشيقته . كيف يجب ان يعمل لكي لا يرتاب
ريفيل ؟ ان جوس ليس غيباً : فقد ابتكر حكاية حفلة لمصلحة البنات الثابتات ،
وحمل إلى ريفيل ، الزوج ، عشر بطاقات بعشرين فلساً وجعله يربح العقد المخصص
لزوجته . وهنا تعقد كل شيء : كتب ريفيل إلى جوس يشكره ، ولكن في
« ملاحظة » رجاء ألا يفوه بكلمة عن اليانصيب أمام مدام ريفيل ، لأنه أرسل
الآلئ إلى ماري جوزف ، عشيقته .. انتظر إذن : أن اجمل شيء هو النهاية ..
غضب جوس الذي لم يبق في رأسه سوى فكرة واحدة : استرجاع عقده ، أو
على الأقل الحصول على المرأة التي تحمله . وبعد ثلاثة أشهر ، ترك مدام ريفيل
ليسرق ماري جوزف من الصديق ريفيل ، مبادلاً هكذا المرأة التي لا آلئ لها
بالعشيقة ذات العقد . وريفيل الشجاع الذي نسي تماماً ان العقد لم يكلفه سوى
عشر قطع بعشرين فلساً كان يطمئن أمام كل من يريد الاستماع ، بفظاظة البغايا
اللواتي لا يسبر غورهن .. صباح الخير يا ويرف Werff .

قال ذلك وهو يشد على يد غلام جميل دخل حديثاً وكانوا يهتفون له من طرف
القاعة الآخر صارخين « المشمشة » . وسأل جاك الذي مد يده إلى ويرف
بدون لطف :

— انت تعرفه ، أليس كذلك ؟

وقال دانيال منحنياً ليقبل يد بولا صديقة الرسام الروسي المصابة بفقر الدم ، اثناء مرورها :

— صباح الخير يا اجمل الجميلات . اسمحي لي ان أقدم لك صديقي تيبو .
وكان جاك قد نهض . وأجالت المرأة الشابة فيه نظراً مريضاً وواقفته
طويلاً على دانيال ؛ وبدت مترددة في قول شيء ، ومضت . وقال جاك : اتأتي
غالباً إلى هنا ؟

— كلا ، أخيراً ، نعم ، عدة مرات بالاسبوع . عادة . ثم اني بشكل عام
اتعب بسرعة من المكان ، ومن نفس الناس ؛ احب ان أشعر ان الحياة تجري ..
وفكر جاك فجأة : « لقد قُبلت » . وانتفخ صدره . وهناك فكرة
اجتازت دماغه .

— اتعرف أي ساعة يقفل تلوغراف ميزون — لافيت ؟
— انه مقفل . ولكن لو أرسلت برقية هذا المساء فسيتلقها والدك غداً ،
في الساعة الاولى .

فأشار جاك إلى الخادم :

— هات ما اكتب به .

واخذ يكتب البرقية بيد محمومة . وهذا الملل المتأخر في اعلان نجاحه كان
منه ، بحيث ان دانيال ابتسم وانحنى على كتفه ؛ ولكنه نهض بسرعة ، مندهشاً
وقلقاً على الخصوص بسبب عدم رصانته الاضطرابي : فبدلاً من عنوان السيد
تيبو قرأ : مدام دي فوتنانان . طريق الغاب . ميزون — لافيت .

وحدثت حركة فضول حول زبونة هرمة دخلت مصحوبة بفتاة جميلة سمراء
كانت هيئتها المنتبهة ، مع انها تخلو من الخجل ، تبعث على الافتراض انها جاءت
إلى هنا للمرة الأولى .

وقال دانيال بصوت منخفض :

— إليك ما هو جديد .

وابتسم « ويرف » الذي كان ماراً وقال :

- ألم تكن تعلم ؟ الام جوجو تقذف واحدة جديدة .
فقال دانيال ، مقررأ بعد وقفة :
- الصغيرة حسنة جداً .

والتفت جاك . كانت فاتنة فعلاً : عيناان صافيتان ، وخدان خاليان من
المساحيق ، بهيئة تدل على انها ليست من البيت . وكانت ترتدي ثوباً مقصباً
زاهراً قليلاً ، دون زينة ، دون حلية . وزال رونق اللواتي هن اصغر
منها بقربها .

وكان دانيال قد عاد إلى مكانه بالقرب من جاك وقال :

- يجب ان ترى الام جوجو عن قرب . اني اعرفها جيداً ؛ فهي نموذج
خاص ، وتتمتع الآن بنوع من المركز الاجتماعي : تسكن شقة جميلة ؛ ولها
يومها ؛ وتقيم سهرات ؛ وتحمي المبتدئات . أما ما عندها من خاص فهي لم تشأ
ابداً ان تكون امرأة تعيش على حساب رجل : فقد كانت بغيّاً صغيرة شجاعة .
ولم تحاول ابداً ان ترفع رتبتها . وعاشت ثلاثين سنة تحمل بطاقة ، وتتسكع
على الرصيف بين المادلين وشارع دروو Drouot . ولكنها كانت تقسم حياتها
إلى قسمين : من التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساء كانت تدعى مدام باربان ،
وتعيش عيشة بورجوازية صغيرة في (انترسول) في شارع ريشيه ، متوقفة عن
العمل ، مع خادمة ، نفس هموم البورجوازيين الصغار : دفتر نفقات ، وبيان
بأسعار البورصة لتراقب استثمار أموالها ، وهموم بيتية ، وعلاقات عائلية ،
وابناء أخ باربان ، وابناء أخت باربان ، واعياد ميلاد ، ومرة بالسنة عصرونية
أولاد حول شجرة الميلاد . اني لا ابتكر شيئاً . وفي الساعة الخامسة ، في جميع
الامسيات ، وفي جميع الاوقات ، تترك صدرتها القطنية لترتدي ثوباً انيقاً
وتذهب دون ادنى اشتمزاز لتقوم بعملها ، انها ليست مدام باربان ، بل الصبية
جوجو ، دائماً مَرَّحة ، صاحبة ضمير ، لا تتعب ابداً ، معروفة ومقدّرة في جميع
فنادق الشوارع المفروشة .

لم يرفع جاك عينيه عن الام جوجو . كان لها وجه شجاع لخوري في الريف ،

ذات حيوية ضاحكة ، ذكية ايضاً ، وتحمل قبعة صياد بالصنارة على شعر قصير ابيض .

وردد مفكراً :

– دون أي تقزز ...

فأجاب دانيال : ولكن طبعاً .

والقى على جاك نظرة ماكرة ، اعتدائية قليلاً وتمتم بيتين من الشعر لويثان :
« انتم ، حيث البغاء بديع على الارصفة ، أو تخالف للحشمة في غرفكم .
« من انا لأقول لنفسي انني أقل فحشاً منكم ؟ » .

كان دانيال يعرف جيداً انه يصطدم بحياء جاك . وكان يفعل ذلك عمداً ، وانزعج لرؤية جاك مكتفياً بحياة طاهرة طوال أشهر كاملة ، وبكثير من السهولة – ربما كرد فعل – ضد خلاعة صديقه – وكان لدى دانيال من السذاجة ما جعله يخشى ذلك ، وكان يعلم ان جاك أحياناً يهتم قليلاً بالحدود المجامل لمزاج كان يبدو في الماضي كثير التطلب . وقد بحثت هذه القضية الدقيقة مرة واحدة بينها بشكل سطحي ، في ذلك الشتاء ، وفي مساء عادافيه من المسرح وتبعاً معاً الجمع الفقير العاشق في الشوارع الكبرى . ودهش دانيال من لامبالاة رفيقه . وقد أجاب جاك : « ومع ذلك فأنا متين . وفي مجلس القرعة العسكرية تأكدت انني كنت بين الأكثر قوة » . وتذكر دانيال الاضطراب الخفيف الذي هز صوته .

وتحول عن هذه الذكرى بواسطة فافري الذي شاهده من بعيد ملتفتاً نحوهم ؛ وبمشية طليقة مدروسة أعاد القبعة والمعصاة والقفازين إلى العاملة المختصة بغرفة الملابس . وتوجه بالكلام إلى جاك ضاحكاً :

– الم يصل أخوك ؟

كان فافري يلبس في المساء طوقاً يزرر على القميص ، مرتفعاً قليلاً ، وملابس جديدة يبدو انه استعارها . وكان يدفع الى الامام ذقنه المحلوقة حديثاً ، بهيئة

جوع شديد تجعله يقول لو يرف : « ان دار المعلمين تذهب لافتتاح بابل » .
وفكر جاك : « لقد قبلت » . وشعر برغبة في الذهاب على الطريقة
الانكليزية - بدون وداع - ليأخذ القطار منذ هذا المساء الى ميزون . وقد شله
التفكير بانطوان الذي وعد بالحقاق به ، والذي سيصل بين دقيقة واخرى .
وقال لنفسه : « كلا ولكن غداً ، في ساعة مبكرة » . وشعر انه سابح في جو
فاتر : الشمس الصباحية تجتذب ندى الشوارع ... وتلاشى بالكمل .

وايقظه من خموله الضوء الباهر المنبعث من جميع الثريات معاً . وفكر ايضاً :
« لقد قبلت » كأنه يريد ان يشير الى احتكاكه بالواقع . وبحث بعينه عن
صديقه وشاهده في احدى الزوايا يتحدث بصوت منخفض مع الام جوجو .
وكان دانيال جالساً بانحراف على كرسي ، وحيوية كلامه تفيد حركاً رأسه
اللطيفة ، وذكاء وجهه ، وفطرته ، وابتسامته ، واناقة يديه اللتين ابقاهما
مرتفعتين قليلاً ؛ يدان ، وابتسامة ، ونظرة كانت تتكلم اكثر من شفنيه .
ولم يكن جاك يتعب من تأمله . وكان يفكر بدون ان يوضح تفكيره : « ما
اجل ان يستطيع كائن فني وحي ان يتمتع كلياً بالدقيقة الحاضرة ! وان يكون
طبيعياً جداً في لعبه ! ولا يعرف اني انظر اليه ؛ ولا يفكر بذلك ؛ ولا يتوقع
اية مراقبة . مفاجأة كائن لا يعرف ان هناك من يراه ، كائن في سر طبيعته !
ايوجد حقيقة اناس يستطيعون في مكان عام نسيان كل ما يحيط بهم ؟ انه يتكلم ،
وهو منصرف بكليته الى ما يقوله ، لست طبيعياً ابداً . ولن يستطيع ابداً
الانهماك الى هذه الدرجة - اذالم يكن ذلك في غرفة مقفلة وبمنجى من جميع
الانظار . وايضاً ! » وفكر لحظة : « دانيال ليس مراقباً بشكل خاص . ولهذا
لا يشغله المشهد مثلي ؛ يستطيع ان يظل هو نفسه » . وفكر من جديد :

« واختتم ناهضاً : اما انا « فان العالم الخارجي يلتهمني » .

وكانت الام جوجو تقول في اللحظة نفسها لدانيال الذي كان لنظرته يريق
غاضب بحيث اخذت تضعك :

— كلا ايها النبي الجميل ، لا لزوم للالحاح : هذه الطفلة ليست لك . الا ترى

ذلك ! « اجلس ايها الصغير ، نزوة وتمضي » .

(بعض المضجرات امثال : « ولد ، ليكن ياتيمتي » او : « هذا لا يهم احداً » ، او ايضاً : « كل هذا لا شيء ما دامت الصحة جيدة . » - كانت بعض عباراتها المعتادة الخرقاء التي تتنوع وفقاً للفصول ، والتي كان رواد المكان يرسلونها في كل مناسبة مع ابتسامات اناس مطلعين على الاسرار) .

وقال دانيال بتعبير عنيد :

— كيف عرفتھا ؟

— كلا ، ايها الجميل ، اقول انها ليست لك . فهي صبية خارقة للعادة ، فتاة طيبة ، لؤلؤة .

— قولي كيف عرفتھا ؟

— اتركھا براحة بال ؟

— ولكن نعم .

— حسناً . حين أصبت بالتهاب الغشاء الجنبي ، أتذكر ذلك ؟ عرفت ، وجاءت دون أن تطلب شيئاً من احد . سجلت جيداً انني لم أكن أعرفھا ؛ وكنت ساعدتها مرة أو مرتين ، ولكن بالجهد (حيث يجب ان أقول لك أن هذه الصغيرة كانت ذات هموم كبيرة : حكاية جدية ، رجل اجتماعي كما فهمت ، كانت تحبه ، وطفل — لن يقال شيء عن هذا ، مفهوم ؟ طفل مات على الأثر — بحيث لا يمكن أن نكلها عن الطفل دون أن تتخبط بالبكاء) . إذن ، حين أصبت بالتهاب الغشاء الجنبي جاءت تسكن عندي ، كأخت صالحة ، واعتنت بي أكثر مما لو كانت ابنتي ، ليلاً ونهاراً ، لأكثر من ستة أسابيع ؛ كانت تضع لي مئات المحاجم (كاسات هواء) في الأربع والعشرين ساعة ؛ نعم يا صغيري ؛ لقد أنقذت حياتي ، وهذا بسيط جداً ؛ ولم تكن تنفق شيئاً . لؤلؤة . عندئذ أقسمت أن انقذها . انها صغيرة ولا تعرف شيئاً آخر سوى عشقها الموقت . وأنا بذلت جهدي لأجعلها ترحل ؛ ولكن أنت تعلم ، ما يدعى الرحيل ! (ولأجل ذلك تستطيع مساعدتي ، وسأشرح لك كيف) . وها قد مضت ثلاثة أشهر

دون أن أتركها . أولاً لقد وجب أن نجد لها اسماً . كانت تدعى فكتورين ، فكتورين لوغاد . لوغاد بكلمتين ، هذا يلائمها . ولكن فكتورين ، فهذا جنون . وقد وجدت لها اسم رينيت . لا بأس به ، ها ؟ وهكذا أعطاهما كولان درساً في الإلقاء ؟ وكانت ذات لهجة بريتونية تضحك الجميع ، وبقي لها منها ما يلزم ، شيء قليل أجنبي ، مز ، انكليزي - بديع . وفي مدة خمسة عشرة يوماً تعلمت الرقص : فهي خفيفة كالريشة ، وفضلاً عن ذلك ليست حقاء . تغني جيداً ، صوت حار ، ليس فيها شيء من الرعاع . اني أعبد هذا . أخيراً ها هي مجهزة ، وسأزولها إلى الماء هذا المساء وليس المطلوب سوى أن تنفخ الريح في الأشرعة . كلا ، كن رزيناً . انك تماماً بهذا تستطيع مساعدتي . وقد تحدثت عنها إلى لودفيكسون الذي هو كالنار الراقصة منذ أن تركه برتا . ووعدني بالهجيء اليوم للملاقة الفتاة . قل له فقط انها تعجبك وستحس كثيراً . انت تفهم ان واحداً مثل لودفيكسون هو ما يلزم تماماً لهذه الفتاة . ليس لديها سوى فكرة واحدة ، هي أن تجمع مبلغاً صغيراً لتعود إلى بريتانيا . ماذا تريد ؟ هذا هو ذوقها ! والبريتونيات كلهن هكذا . بيت صغير في ساحة البيع بالمزاد ، وقلنسوة بيضاء ومواكب : بريتانية ، ماذا ! انها لا تطلب البيرو ، وتستطيع الوصول إليها بسرعة مع النظام والنصائح . وأريد بعد الهدايا ان تضع إلى الشمال عشرين ورقة نقد سوف أوظفها لها ، وأعرف الآن كيف يكون ذلك . هل سمعت أنت بمناجم الذهب ؟

وصاحت أصوات صاحبة : إلى المائدة .

وانضم دانيال إلى جاك .

— ألم يصل أخوك ؟ هيا نأخذ أمكنتنا .

كان هناك نوع من التموج حول المائدة الطويلة حيث وضعت لوازم مائدة لعشرين شخصاً . وسعى دانيال ليكون جاك إلى شمال رينيت ، ولم تكن الام جوجو تتركها ، وقد دفعتهما بقدر الامكان إلى الناحية اليمنى . ولكن في اللحظة التي جلس فيها الجميع في أما كنهم ذهب جاك ليجلس فدفعه دانيال قائلاً :

— بأدلي .

وبدون أن ينتظر أمسك ذراعه بقسوة ليبعده بحيث شعر جاك بأصابع دانيال تتشنج على معصمه ، واضطر أن يتألم للتألم للصراخ . ولكن دانيال لم يفكر بالاعتذار ، وقال :

— أيتها الأم جوجو ، أعتقد أن من اللياقة أن تقدميني إلى جازي .

— آه ! أنت !

تذمرت العجوز التي اكتشفت مناورة دانيال . ثم توجهت بالكلام إلى الجالسين حول المائدة :

— أقدم اليكم جميعاً الأناقة رينيت — وبنبرة مهددة — تحت حمايتي

وقالت عدة أصوات :

— قدمينا ! قدمينا !

فتأوهت الأم جوجو قائلة : ها هي المكائد .

ونفضت مرغمة ، ونزعت قبعتها وألقته إلى إحدى « الممرضات » التي تقوم بالخدمة . وبدأت مشيرة إلى دانيال :

— النبي . انسان جميل .

فقال الصغيرة بلطف : صباح الخير يا سيد .

فأخذ دانيال يدها وقبلها .

— استمري .

فتابعت الأم جوجو مادةً ذراعها نحو جاك :

— صديقه ، ولا أدري كيف .

فقال رينيت : صباح الخير يا سيد .

— وبعد هذا : بولا ، سيلفيا ، مدام دولوريس وولد مجهول : ابن الاعجوبة .

ويرف الملقب بالشمشة . غابي . لاغورد ..

فقاطعها صوت ضاحك :

— شكراً . أفضل اسم آبائي : فافري يا آنسة ، واحد من أكثر المتلفين

حمية عليك .

وقال صوت هازىء : أياها الولد ، كن تيمنى .

وتابعت الام جو جو دون أن تسمع :

- ليلي وهارمونيك ، أو اللامنفلستان . الكولونيل . مود الجميلة . وسيد
لا أعرفه مع سيدتين أعرفهما جيداً ولكنى نسيت اسميهما . مكان فارغ . ومكان
آخر أيضاً . باتنكور الملقب ببات الصغير . ماري جوزف ولآلها . مدام
باكميل . - ثم انحنت باحترام - والام جو جو في النهاية .

وكانت رينيت تردد بنبرة فضية مبتسمة دون اقل انزعاج :

- صباح الخير يا سيد . - صباح الخير يا آنسة . - صباح الخير يا سيد .
- صباح الخير .

ولاحظ فافري :

- يجب ألا تدعى الآنسة رينيت ، بل الآنسة صباح الخير !

فقالت الصغيرة : اريد ذلك .

- تحية للآنسة صباح الخير !

وكانت تضحك وتبدو مفتتنة بالضجة التي أحدثت على شرفها .

واقترحت مدام باكميل : الآن ، الثريدة .

ودفع جاك دانيال بمرفقه وهو يريه الدائرة الحمراء حول معصمه :

- ماذا أصابك ؟

فألقي عليه الآخر نظرة لاهية عارية من كل ندم ، نظرة محتدمة ،

وحشية قليلاً ؛ وقال خافضاً صوته :

- أنا ذلك الذي يرغب العاشق في تعذيبه ^(١) .

وحنى جاك رأسه ليشاهد رينيت التي كانت تلتفت نحوه ؛ والتقى بعينيها :

كانتا خضراوين ، نافرقتين مبللتين كالبحار .

١ - بالانكليزية في الأصل.

وتابع دانيال :

— هل تنجذب الأرض ؟ أليست كل مادة معذبة يجاذبية كل مادة ؟ هكذا جسدي ، بكل أولئك الذين أعرفهم وألتقي بهم ^(١) .
وعبس جاك . لم تكن هي الفرصة الأولى التي تتاح له ليحضر واحدة من تلك الانفصالات العاطفية التي تقذف بدانيال نحو لذته دون أن يكون الوقوف في طريقه ممكناً . وفي كل مرة ، كانت صداقة جاك تعود الى الوراء رغماً عنه . هناك أمر مسلّم يحيد بتفكيره عن الطريق : لقد خطر بباله أن داخل انف دانيال مفروش بوبر كثير السواد يجعل منخريه يشبهان ثقب قنّاع ؛ وبحسب بعينه عن يدي النبي ، عن هاتين اليدين الجميلتين الممتدتين اللتين يركض عليهما أيضاً نفس الوبر الأسود . ففكر : « رجل مغطى بالشعر ^(٢) » . وشعر برغبة كبيرة بالابتسام .

ولكن دانيال انحنى من جديد وقال دون أن يفير الثبرة ، كأنه ينهي تلاوة ويتهان :

— املأ كأس جارتك يا عزيزي . ^(٣)

وقال واحد من الجهة الأخرى من المائدة لائفاً :

— لائحة الطعام غير مقروءة هذا المساء يا مدام باكميل .

وقال فافري أمراً : سيكون لدام باكميل صفر مضاعف .

واجابت الشقراء الجميلة بفلسفة :

— « كل هذا لا شيء ما دامت الصحة جيدة » .

ووجد جاك نفسه بالقرب من بولا ، الملاك الفاسد ، ذي الجسد الكثير الشحوب . ثم كانت هناك فتاة ذات جذع سمين ، لم تكن تتكلم وتمسح شفتيها بعد

١ - بالانكليزية في الأصل .

٢ - باللاتينية في الأصل .

٣ - بالانكليزية في الأصل .

كل ملعقة . وفي مكان اكثر بعداً ، قبالة جاك تقريباً ، الى جانب تلك المرأة السمراء التي اكلت التجاعيد وجهها ، والتي اطلقت عليها الام جوجو اسم مدام دولوريس ، ولد بين السابعة والثامنة من عمره يرتدي رداء اسود يدل على الفقر ، ويتبع بعينيه الصافيتين حركات المدعويين ، وكان وجهه يتألق بوميض ابتسامة .

وسأل جاك جارتة : الم يقدموا اليك الثريدة ؟
- لا آخذ منها ، شكراً .

وأبقت عينيهَا منخفضة ، وحين رفعتها كان ذلك بانجاء دانيال دائماً . لقد فعلت كل شيء لتجلس بقربه ؛ وفي اللحظة الاخيرة رأتها يعطي كرسيه لجاك ؛ وقد اصبحت تحقد على جاك . من اين اتى هذا بوجه الكوم ودمته في نقرته ؟ كانت تكره ذوي اللون الأصهب ، وكان لهذا الاسمر مظهر أصهب ، دون ان نحسب انه كان يبدو عديم التهذيب يجبهته المعشوشبة والاذنين المنفصلتين وذلك الفك .

- ايه ، ماذا تنتظر لتضع المنشفة ؟

قالت مدام دولوريس ذلك بصوت مرتفع وهي تهز الغلام الصغير ليعقد بشكل افضل حول عنقه قطعة القماش المصنوعة بشكل اسطوانة والتي كانت طياتها تغطي نصفه .

وصاح فافري الذي كان يتناقش مع ماري جوزف :

- حين تعترف امرأة بعمرها فذلك لأنها ليست كبيرة . واقول لك انها دخلت الى المعهد الموسيقي في حدود السن وذلك منذ خمس واربعين سنة تماماً ، بشهادة ميلاد تخص اختها الصغرى التي تصفرها بسنتين . وهذا يعني اذن ... فقذفت الام جوجو قولها على جانبي المائدة :

- هذا لا يعني احداً !

ولاحظ ويرف الذي استعد في السابق للدخول الى مدرسة السنترال :

- ان فافري هو واحد من تلك الارواح الطبية التي لا تستطيع ابداً ان

تتدخل في حديث دون ان تذكر أولاً ان تسارع الثقالة هو ٩٨٠م في باريس .
وقد أطلق عليه لقب « المشمة » بسبب بشرته التي ذهبتها الرياضة في
الهواء الطلق ولوثتها ببقع نخالة (نمش) . ومع ذلك فهو ذكر رائع ، ذو كتفين
متموجين ، مع خدين قويين وشفتين منتفختين ؛ وفي المساء ، فان مزاج عضلاته
الرائقة بسبب تمارين النهار كان يلعب في عينيه الزرقاوين وعلى خديه المصقولين .
وقال أحدهم :

— لا يعرف أحد سبب موته .

فأجاب صوت ساخر : وهل تعرف بماذا كان يعيش ؟

وقالت مدام دولوريس للولد :

— هيا ، اسرع . انت تعلم انه يوجد هنا حلويات بعد الطعام . ولن تنال
منها شيئاً .

فسأل الصغير وهو يدير نحوها نظره المشع : لماذا ؟

— لن تنال منها شيئاً إذا أردت أنا ذلك . اطع . واسرع .

وفطنت لانتباه جاك ورشقة بابتسامة مجاملة وقالت :

— انه صعب كما ترى . وهو يخاف من كل ما لا يعرفه . الحمام المشوي ،

ستعطى منه ! في أغلب الاحيان يأكل شحم الخنزير بالملفوف أكثر من الحمام ،

بالتأكيد ! لقد كان دائماً مدللاً جداً . موضع عناية وحب رقيق كجميع الاولاد

الوحيدين . وخصوصاً لأن أمه ظلت مريضة وقتاً طويلاً ! نعم ، نعم — قالت

ذلك واضعة يدها على الرأس المكور المجزوز الشعر حديثاً — ولد مدلل . هذا

شنيع جداً . ولكن مع عمته فلن يكون الامر متشابهاً . أريد السيد أن يحتفظ

بقرطيه كفتاة صغيرة ؟ آه ! ولكن هذا قد انتهى ، نزوات ، عيوب ، هيا ،

كل ؛ ان السيد ينظر إليك ، اسرع — وكانت سعيدة لأن هناك من يصغي إليها .

فابتسمت من جديد لجناح وبولا وصرحت بنبرة راضية : — انه يتيم صغير . فقد

أمه هذا الاسبوع . امرأة كانت متزوجة من أخي . ماتت بداء الصدر في قرينتها ،

في اللورين . — يا للصغير المسكين . لا يزال محظوظاً لأنني قبلت ان آخذه على

عائقي : ليس له أحد في أية جهة ؛ ليس له سواي . ولكن سيكون لدى مصاعب .

وكان الغلام قد كف عن الأكل ؛ واخذ ينظر إلى عته . هل كان يفهم ؟
وسأل بنبرة غريبة :

- هل التي ماتت هي أمي ؟

- لا تشغل نفسك بهذا ، وكل .

- لم يعد لدي رغبة .

وثابت مدام دولوريس :

- ها أنت ترى كيف هو ! نعم ، هناك : انها أمك التي ماتت . والآن

أطع ، وكل . أو انك لن تنال البوظة .

في هذه اللحظة التفتت بولا وتلاقت نظراتها بنظرات جاك ، وظن انه قرأ فيها تعبير اضطراب النفس الذي يشعر هو نفسه به . كانت ذات عنق دقيق ، متحرك وشاحب ، أكثر شحوباً من خديها . ومظهرها النحيل يدعو إلى مراعاة رقيقة . وكان جاك ينظر إلى هذا العنق وتلك البشرة الناعمة التي لا يكاد الزغب يظهر عليها ، ويشعر بطعم عذب على شفتيه . وبحث عن شيء يقوله فلم يجد شيئاً ، وابتسم . وتفحصته خلسة فبدا لها أقل قبحاً . ولكن قرحة فجائية في القلب جعلتها تشحب : فوضعت يديها على حافة الطاولة وقلبت رأسها إلى الوراء عاضة على لسانها لئلا تفقد الوعي .

ورآها جاك . كانت هيئتها كعصفور جاء يموت هناك على السباط . ونتم :

- ماذا إذن ؟

وشاهد بين الجفون المطبقة بياض العينين منقلباً . وبذلت جهداً وتمت

دون ان تتحرك :

- قل لا شيء .

كانت حنجرتة منعقدة ولم يستطع المناداة . ومع ذلك فما من أحد أعارها

التفاتاً . ونظر إلى يدي بولا : الأصابع الساكنة ، الشفافة كشموع صغيرة ،

كانت ضاربة إلى السواد بحيث ان الأظافر تشكل فيها بقعاً بنفسجية اللون .
وكان فافري يوضح لجارته بهديلٍ راضٍ :

- ان منبهي يدق الساعة السادسة والنصف في طاسة متوازنة على قدح ...
وكانت بولا قد فتحت عينيها ، وخف شحوبها ؛ وادارت رأسها وابتسمت
بضعف لتشكر جاك لانه صمت . ونفخت :

- لقد انتهى الامر . هذا يحدث على نوبات . وخزات في القلب .
واضافت بطرف شفتيها اللتين لا تزالان متشنجتين ، ليس بدون كآبة :
- اجلس يا صغيري ، عارض ويمضي .

وشعر برغبة في أخذها بين ذراعيه وحملها بمبدأ عن هذا المكان الموبوء ،
وفكر بتكريس نفسه لها ، لشفاها . آه ! لكم يشعر بالحب لكل كائن ضعيف
يطلب أو يقبل فقط مساندة قوية .

كان على وشك الاعتراف لدانيال بهذا المشروع الخيالي . ولكن دانيال لم
يكن يفكر بجاك ابداً .

كان دانيال يتحدث مع الأم جوجو ، ورينيت تفصل بينهما . وكان ذلك
ذريعة ليلتفت نحو جارتها ، وليكون أكثر قرباً من فتورها ، مع انه منذ أول
الوليمة تجنب ، وفقاً لخطة ، ان يوجه إليها الكلام . وكان ظاهراً انه لا يفكر
إلا بها . وفاجأت نظرتة في عدة مناسبات : وفي كل مرة ، بدون ان تستطيع
إيضاح السبب ، كانت هذه النظرة تبعث فيها عاطفة الابتعاد بدلاً من ان
تستهويها ، وجاذبية هذا الوجه الرجالي ، مع انها كانت محسوسة ، كانت
تثيرها .

وهناك مناقشة حامية كانت تبعث الحياة في طرف الطاولة الآخر . وصرخ
« الممشة » بفافري :

- يا له من أب له معجب بنفسه !

ووافق الآخر على ذلك :

- هيه ! قلت ذلك في أغلب الأحيان .

— بصوت منخفض دون شك .

وكان ضحكك . واحتفظ ويرف بالغلبة ، وصرح رافعاً صوته عمدا :

— يا عزيزي فافري . اسمح لي أن أقول لك شيئاً : لقد تكلمت عن النساء
كواحد لم يعرف أبداً .. أن يكلمهن !

ونظر دانيال إلى فافري الذي كان يضحك ، وظن أنه باغت نظرة من
تلميذ دار المعلمين باتجاه رينيت ، كما لو ان المناقشة قد حدثت بسببها : نظرة
جريئه مبالغة إلى الملاذ الجنسية ضاعفت فجأة من نفور دانيال من فافري . وكان
يعرف عنه عدة حكايات تزيل حظوته . واستولت عليه رغبة ضارية بأن يروها
أمام رينيت . ولم يكن يقاوم أبداً هذه الانواع من الميول . فخفض صوته لكي
لا يسمعه أحد سوى المرأتين ، وانحنى نحو الام جوجو بطريقة تضع رينيت
ثالثة في الحديث وسأل بعدم اكتراث :

— هل تعرفين حكاية فافري والمرأة الزانية ؟

فهمت العجوز مستهواة :

— كلا ، إحك . واعطني سيكارة ؛ فالعشاء لن ينتهي هذا المساء .

— في يوم جميل — كانت عشيقة له منذ وقت طويل — جاءت إليه ومعهما
حقيبة ثياب وقالت : « لقد اكتفيت . اريد أن اعيش معك ، الخ .. » —
— « ولكن زوجك » ؟ — « زوجي ؟ لقد كتبتُ إليه » : « عزيزي أوجين ،
لقد وصلت إلى منعطف في حياتي ، الخ .. وانا بحاجة ، ولي الحق أن أسكب
حي في قلب صديق ، إلخ .. وقد وجدت هذا القلب . وأنا راحلة » .
— انه أمر يتعلق بالقلب . قل إذن !

— هذا شأنها . اسمعي الباقي . وأصيب فافري بالرعب . امرأة على ذراعه .
والأسوأ ، امرأة مطلقة ، حرة ، ستطلب منه أن يتزوجها .. وعندئذ خطر له
ما يسميه هو نفسه فكرة عبقرية ، فكتب إلى الزوج : « ايها السيد ، لقد عرفت
ان زوجتك تركت البيت الزوجي للحاق بي . تحياتي . فافري » .
فتمت رينيت :

- انها كياسة .

فأجاب دانيال بابتسامة شبه شريرة :

- ليس بمقدار ما تتصورين . وسترين . لقد اتخذ فافري الحبيث احتياطاته للمستقبل ؛ كان يعلم ان الزوج سوف يجعل من هذه الرسالة قضية أمام المحاكم ؛ ذلك لأن القانون يمنع على العاشق الزواج من شريكه بالذنب . وكان يقول حين يروي القصة : « جميل أن يعرف المرء القانون » .

وكانت رينيت تفكر ، وأخيراً فهمت وهتفت :

- اوه ! هذا عيب !

ودانيال الذي كان ينحني نحوها تلقى انفاسها على الوجه والشفتين . فتنشق طويلاً واضطر إلى إطباق عينيه تقريباً .

وسألت المعجوز : هل تركها ؟

فلم يجب دانيال . ولفتت رينيت عينها نحوه . فأبقى جفونه منخفضة قليلاً لأنه كان يشعر انه قليلاً ما يستطيع اخفاء شدة رغبته . ورأت عن قرب بشرته الناصعة البياض ، وثنية فه الشرسة ، وأهدابه المرتعشة ؛ وكأ لو انها اختبرت أسرار هذا الوجه الخادعة منذ زمن طويل ، فإن شيئاً فيها ، لا يمكن مناقشته كالغريزة ، تمرده ضده فجأة .

- والمرأة ماذا جرى لها ؟

فاستعاد دانيال هدوءه ولكن صوته احتفظ برجة خفيفة وقال :

- يقال انها قتلت نفسها . أما هو فيؤكد انها اصببت بالتدرن الرئوي . وحاول ان يضحك ، ووضع يده على جبهته .

كانت رينيت مستقيمة ، مستندة إلى مسند الكرسي لتبتعد بقدر الامكان عن دانيال . لماذا هذه البلبلة في نفسها ؟ لقد حدث ذلك دفعة واحدة بسبب هذا الوجه ، وتلك الابتسامة ، وتلك النظرة . كل ما في هذا الغلام الجميل كان يبدو لها بغيضاً : طريقته في الانحناء ، اناقة حركاته ، ويده على الخصوص ، يده الطويلة العصبية .. لم تكن تظن أبداً ان في نفسها هذا القدر من البغص المهيأ ،

الجاهز ضد مجهول .

وهتفت ماري جوزف ، مستشهدة بالطاولة كلها :

— إذن ، أيقال انني مفناجة ؟

فابتسم باتتكور بسذاجة :

— هل الخطأ مني ؟ ليس في اللغة الفرنسية سوى هذه العبارة لتدل على هذا الشيء الجذاب : نية الإرضاء .

وقالت مدام دولوريس بصوت كريه :

— يا لها من نظافة !

والتفت الجميع . ولكن كان المقصود الغلام الصغير الذي قلب ملمعة بوظة على سترته السوداء واخذته عمته إلى المفصلة .

واغتم جاك فرصة غيابها ، وسأل بولا ، سعيداً بالاقتراب منها :

— اتعرفينها ؟

— قليلاً .

وكانت على وشك الصمت ، لم تكن ثرثرة وتشعر بالكآبة . ولكن جاك كان لطيفاً معها ، فتابعت :

— ليست امرأة شريرة ، كما تعلم . ثم انها غنية . فقد ظلت وقتاً طويلاً مع رجل كان يكتب للمسرح . وبعد ، فقد تزوجت صيدلياً ، ومات . وتقبض ايضاً مداخيل كبيرة من المستحقات الخاصة بها . « كوريسيد دولوريس » ، اتعرف هذا ! كلا ! يجب ان تقول لها ، فمعها عينات دائماً في محفظتها . مدهش ، وسترى . طريف . وعندها في بيتها دزينة من الهرة مجندة في كل مكان . وأسماك ، حوض كبير للأسماك في غرفة نومها . انها تعبد الحيوانات .
— ولكنها لا تحب الأولاد .

فهزت بولا رأسها واختتمت قائلة :

— انها امرأة هكذا .

وكانت تتنفس بصعوبة حيناً تتكلم . وفطن جاك إلى ذلك . ومع هذا فقد

كان يحاول ان يطيل حديثها المنفرد . وتفكيره انها مصابة بمرض في القلب حمل إلى شفتيه هذه العبارات ببلاهة :

– « ان للقلب اسبابه التي لا يعرفها العقل » .

وظلت لحظة صامتة ، ثم اصلحت وهي تنقر باصابعها على الطاولة :

– « بينا العقل ليس له » . وبدون ذلك يصبح الشعر خطأ .

كان يرغبها رغم كل شيء . إلا انه أصبح أقل رغبة في تكريس حياته لها وفكر : « ما ان يدعني ابي كائن اقرأ في نفسه ، مهما كان ذلك قليلاً ، فأنا مستعد لأحبه » . وتذكر النزهة التي ابدى فيها هذه الملاحظة لأول مرة : الصيف الماضي في غابات فيروفلاي ، مع رفاق لأنطوان وطالبة طب سويدية كانت تستند إلى ذراعه لتقص عليه ذكريات طفولة .

وفجأة انتبه إلى ان انطوان لم يأت . والساعة التاسعة والنصف . عندئذ اجتاحه ذلك الرعب العصبي ، ناسياً ما عدا ذلك ، وهز دانيال ذراعه :

– بالتأكيد لقد حدث شيء .

– شيء ؟

– لأنطوان !

وقاموا عن المائدة . وكان جاك قد نهض ، ووقف دانيال محاولاً ألا يبتعد عن رينيت . وحاول ان يطمأنه :

– انت مجنون ! الاطباء .. يكفي وجود مريض ..

ولكن جاك اصبح بعيداً ، غير قادر على التفكير ، غير قادر على مقاومة شعور قلبه بالحادث المتوقع ، وركض حتى غرفة الملابس ، وبدون ان يودع أحداً ، وبدون اي تفكير ببولا ، اندفع خارجاً . وكان يردد برعب : « انا الذي جلب الشر لأنطوان . انا .. انا .. لأحصل على بزة سوداء من طراز البزة التي رأيته على مفترق مديسيس ! » .

وعزف الثلاثي الموسيقي الفالس . وكان بعض الأزواج يرقصون في قاعة

البار . ودانيال رأى فافري يرفع ذقنه كأنه يتنشق الهواء ويثبت على رينيت نظره الطارف . وبخطوة رشيقة تقدمه :

— رقصة ؟

وكانت قد رآته يأتي وتفحصته بعداوة ، وتركه ينحني الخنأة خفيفة قبل ان تجيبه : كلا .

فأخفى دهشته وابتسم ، وقال مقلداً لهجتها :

— لماذا : كلا ؟

كان متأكداً من اقناعها بحيث قال : « هيتا » وخطا خطوة نحوها . حركة واثقة كانت كافية لتمردھا : فقالت مشددة نبرتها :

— معك ، كلا .

— كلا ؟

ردد ذلك بينما كانت عينه السوداء تتحداها وتبدو انها تقول : « حينها اريد » واستدارت وشاهدت فافري الذي كان يتردد في الاقتراب ، وسارت نحوه كأنه دعاها ، واخذت ترقص دون اية كلمة .

كان لودفيكسون قد وصل ، بالسموكن ، ووقف بقرب البار ، وقبعة البحار على رأسه ، وكان يتحدث مع الام باكميل وماري جوزف التي يلامس لها العقد بدالة . وكان يتفحص القاعة دون ان يظهر ذلك ، بنظره النائم الذي كان يتحرك تحت جفونه التي تشبه جفون السلحفاة ، والذي كان بين لحظة واخرى يقع على شيء ، او على احد الناس ، كضربة عصا رصاصية .

وكانت الام جوجو تجول بين الراقصين باحثة عن رينيت ، الى ان ادركتها اخيراً ، ودفعها برفقها قائلة

— بسرعة ، وكما قلت لك .

ودانيال الذي كانت بولا حصرته في احدى الزوايا كان يصني الى المرأة الشابة بابتسامة ذاهلة . لقد رأى الام جوجو تأتي بشكل طبيعي جداً وتحتلط بجمهور ماري جوزف ، بينما رينيت ، وقد كفت عن الرقص ، ذهبت تجلس

وحيدة على طاولة بعيدة في القاعة الداخلية . وعلى اثر ذلك اجتاز لودفيكسون والام جوجو القاعتين للانضمام اليها . ولودفيكسون على الخصوص ، حين شعر ان هناك من ينظر اليه مشى موتراً نصفه الاعلى كحودي من الطراز القديم ، لم يكن يحفل ان الطبيعة فجعت بردف حورية كان يتهايل يميناً وشمالاً منذ ان اسرع الخطى واخذ يراقب نفسه . ومدت رينيت يدها اليه ، فأسند عليها شفتيه الضخمتين ، وفي الحركة التي قام بها ، شاهد دانيال جمجمته التي تكاد تخلو من الشعر ، والتي يلتصق عليها شعره الاسود الذي ازيل تجميده بمهارة . ولاحظ : « طريقة في المشي رغم كل شيء . يوجد حتمال في هذا الكراكوز الشرقي ، ولكن يوجد ايضاً وزير كبير » .

وخلع لودفيكسون قفازيه دون عجل في نفس الوقت الذي كان يقدر قيمة رينيت بعين خبير ، ثم جلس قبالتها ، والام جوجو الى جانبه . وجيء لهم بما يشربون ، ودون ان يطلب لودفيكسون شيئاً ، كانت عاداته معروفة : لا يتناول الشمبانيا ابداً ، ولكنه يشرب نبيذ أسقي Asti ، غير مزبد ولا مخضوض ، ولا طازج ايضاً . بل معتق قليلاً . وكان يقول : « فاتر كمصير ثمة في الشمس » .

ودانيال ترك بولا واشعل سيكارة ، ودار في البار ، وشد يديه ثم عاد ليجلس في القاعة الثانية . وكان لودفيكسون والام جوجو يديران ظهرهما اليه ؛ ولكنه وجد نفسه قبالة رينيت تماماً ، مع انه منفصل عنها بغرفة كاملة . وجرى حديث حول أكواب الأسقي . وكانت رينيت تبسم لكياسات لودفيكسون الذي كان منحنيًا نحوها وبدا الافتتان عليه بشكل ظاهر ، وضاعف النفقات على شرفها . وحين رأت دانيال يراقبها بالفت في مرحها .

ومن الفتحة الموصلة بين الغرفتين كان يُرى رواح ومجيء الراقصين . ووراء منضدة البائع بلهواء صغيرة ذات خدين ورديين كانت تشبه لورانس ، وكانت متمشقة على إحدى درجات الدرج الصغير الابيض ، وهناك أمسكت بكل يد جزءاً من الدرايزين ، ووقفت على رجلٍ ، مؤرجحة الاخرى ، رافعة حلقومها ،

وكانت ترافق الاوركسترا عاويةً بلازمةٍ كان جميع الناس يعرفونها في هذا الصيف عن ظاهر قلب :

تيميلو ، لاميلو ، بان ، بان ، تيميلو !

وكان دانيال مستنداً على مرفقيه ، والسيكارة بين شفتيه ، وهو يحرق برينيت . لم يكن يبتسم ؛ كان ذا وجه جامد ، وشفته مقروحتان . وكانت المرأة الشابة تتساءل : « أين رأيتَه ؟ » وكانت تضحك بقوة وتحتاط لئلا تلتقي بعيني دانيال ، وقد توصلت إلى ذلك تدريجياً بسهولة ؛ وكهبرة تحوم على المرأة فإن انتباهها في أغلب الأحيان كان يتلقف بسرعة تلك النظرة اللاصقة : نظرة مقنعة دون أن تكون مبهمه ، ويبعد وضوحها مضبوطاً على نقطة واقعة وراء رينيت ؛ نظرة ظلت حادة وعنيدة ؛ نظرة محرقة ، مكهرية ، كانت تنجح كل مرة ان تتعاشاها ، ولكن الجهد يزداد في كل مرة .

وفجأة شعر دانيال بشيء يتحرك عليه . كانت أعصابه متوترة بحيث لم يستطع منع نفسه من الارتعاش . كان ذلك بين وسائد المقعد حيث اليتيم الصغير كان ينام ملفوفاً بمعطف دولوريس الحريري ، واصبعه بقرب فمه ، ودموع لم تجف تماماً على حافة الاهداب .

وكانت الموسيقى قد صمتت . وعازف الكمان يجمع الصدقات من طاولة إلى أخرى . وحين اقترب من دانيال وضع هذا ورقة نقدية تحت المنشفة ، وتمت :

— الرقصة التالية ، ربع ساعة دون توقف .

وطرفت الجفون التي بلون الصدا علامة الموافقة .
وشعر دانيال ان رينيت تراقبه . عندئذ رفع رأسه ، واستحوذ على نظرها . وأدرك الآن أنه أصبح السيد ، ومرة أو مرتان ، بداعي اللعب استسلم للذة الاستيلاء على تلك النظرة وتركها ، وذلك ليبرهن عن تملكه . ثم لم يعد يفارق نظرها ؟

وثل لودفيكسون فضاعف من لطفه . إلا أن الانتباه الذي أعارته إياه رينيت كان متصنعاً ولاهشاً أكثر فأكثر . وحين عزف الكمان رقصة فالس جديدة ،

ومنذ أول حركة للقوس ، أدركت من الارتعاش التي أوصلها إليها وجه دانيال المنشج ان حادثاً حاسماً سيحدث . وبالفعل ، فان دانيال نهض بكثير من الهدوء ، ودون أن يرفع نظره عن فريسته ، واجتاز القاعة وجاء إليها رأساً . وكان لديه من الوقت ما يقول لنفسه : « اني أقامر بمر كزي عند لودفيكسون » ؛ وكان ذلك كضربة سوط انهالت على رغبته . وكانت رينيت تراه يقترب ، وعينه الثابتة تعبر عن شيء غير طبيعي بحيث ان لودفيكسون والام جوجو التفقنمعا . وظن لودفيكسون أن دانيال آتٍ ليسلم عليه ، فقام بحركة ليستقبله على طاولته . أما دانيال فلم يبد أنه يعرفه ، وحنى رأسه وغمس نظرتة في العينين الخضراوين اللتين كان يقرأ فيهما من القبول أكثر من الفزع . ووقفت خاضعة . فطوق خصرها دون أية كلمة ، وسار بها واختفى معها في القاعة حيث توجد الاوركسترا . وظل لودفيكسون والام جوجو لحظة جامدين يتبعان الثنائي بعيونهما . ثم تطلعا إلى بعضهما البعض . وقالت متلجلجة :

— يا لها من جرأة !

وارتجف ذقنها المزدوج من التأثر والغضب . ورفع لودفيكسون حاجبه ولم يجب . وكانت صبغته الكامدة تمنعه من الشحوب . ومد الى الكأس الموجود امامه يده الضخمة التي كانت اظافرها قائمة كالعقيق ، وغمس شفتيه في شراب الأستي . وكانت الام جوجو تنفس كمن يركض . وقالت بضحكة جافة لامرأة تتأثر :

— انه غر ، ولن يشتغل لك بعد الآن كما افترض .
فبدا مندهشاً :

— السيد دي فوتتانان ؟ ولماذا اذن ؟
وابتسم كسيد كبير لا يتدنى الى بعض الحقارات ، وادخل قفازيه في يديه مسيطراً تمام السيطرة على نفسه . يمكن ان يتسلق حقيقة بالمغامرة ؟ وسحب حافظة نقوده والقي ورقة نقدية على الطاولة ونهض وحيا الام جوجو بحركة مداينة .

ثم بلغ قاعة الرقص وتوقف على العتبة لينتظر مرور الثنائي الراقص أمامه .
والتقي دانيال بنظرة النائم حيث يوجد شيء من الشراسة ، والغيرة ، والاعجاب ،
فراه يسير حالاً نحو المخرج مجتازاً المقاعد ، مختلفاً في النطاق الزجاجي الذي بدا أنه
يتلقفه في جيشانه ليلقيه خارجاً .

وكان دانيال يرقص متمهلاً ، وجسده جامد في الظاهر ، والرأس مستقيم ،
مع نوع من الفتور المؤلف من التصلب والراحة ، ولا يرقص الا برؤوس رجليه
اللتين لم تكونا تتركان الارض . ورينيت غير واعية ، سكرى ، غير قادرة ان
تعرف اذا كانت غاضبة او منتشية ، تتجاوب مع اقل توج من فارسها ، وتبدو
انها لم ترقص ابداً إلا معه . وفي مدى عشر دقائق ظلا الاخيرين ، والازواج
الآخرون ، وقد تعبوا منذ وقت طويل ، كانوا يؤلفون دائرة حولهما . ومضت
خمس دقائق جديدة ولا يزالان يرقصان . واخيراً ، بعد مرة اخيرة ، توقفت
الاوركسترا بهدوء .

لقد رقصا حتى الأنغام الأخيرة : هي نصف مغنى عليها على كتفه ؛ وهو ،
رزين ، منخفض الجفون على نظرة محرقة جريها عليها بين وقت وآخر وجعلها
ترتفع دورياً من الحقد ومن الرغبة .
وانفجر التصفيق .

وأعاد دانيال رينيت إلى طاولة لودفيكسون . وجلس بكل بساطة في
المكان الفارغ ، وطلب كأساً رابعاً وملأه بالآستي ورفع به برج نحو الام جوجو ،
وأفرغه ، وقال :

— بواه ! يا له من شراب !

وانفجرت رينيت بضحكة عصبية وامتلات عيناها بالدموع .
وغمرت الام جوجو دانيال بنظرة مندهشة ، فقد تلاشى غضبها ، ونهضت
وهزت كتفها وتأوهت بشكل مضحك :

— « كل هذا لا شيء — ما دامت الصحة جيدة » .

بعد نصف ساعة خرجت رينيت ودانيال معاً من عند باكميل . وكانت قد

أمطرت . واقترح الشاب :

— عربة ؟

فقالت رينيت : لنمش قليلاً أولاً .

كان في صوتها تغييرات رخوة لاحظها دانيال بسرور .

وظلت حالة الطقس عاصفة رغم المطر . وكانت الشوارع خالية ، مضاءة بشكل سيئ . وكانا يسيران متمهلين أمامهما على الرصيف اللامع بالماء .

والتقى بها جندي من المشاة كان يحيط خصر امرأتين بذراعيه ويلهو بأن يجعلهما تبدلان الخطئ . « واحد ، اثنان » ! ورن ضحكهم طويلاً على واجهات البيوت الصامتة .

وكانت تنتظر ، وهي تترك البار ، أن يأتي حالاً ويدخل ذراعه تحت ذراعها . ولكن دانيال كان يتذوق الانتظار بشدة ويسر بتمديد حقه تهيج الأعصاب . وكانت هي التي اقتربت ، بعد برق بعيد .

— العاصفة لم تنته . وستمطر .

فأجاب بنبرة مداعبة توضح جميع أنواع الأشياء :

— هذا سيكون لذيقاً .

وكان هذا لطيفاً بالنسبة إليها بحيث أخجلها تحفظ دانيال . وقالت :

— أنت تعلم ، لن تراوحنى الفكرة بأنني رأيتك قبلاً في مكان آخر .

فابتسم في الظلام ؛ وكان يعلم أنها لا تلفظ سوى كلمات معدة . وكان بعيداً عن الشك باعتقادها حقيقة أنها التقت به . وكان على وشك الإجابة بدافع صياني : « وأنا أيضاً » ! وستحتم عليها إبداء تخمينات . ولكنه كان يلهو بأن يقلقها بصمته .

وقالت بعد صمت :

— لماذا يدعونك النبي ؟

— لأن اسمي دانيال .

— دانيال ماذا ؟

فتردد . لم يكن يجب الاستسلام مها كان ضليلاً . إلا أن فضول رينيث كان مفتقراً إلى حيلة بحيث تردد في خلق اسم مستعار . قال :
- دانيال دي فوتتانان .

فلم تجب ، ولكنها انتفضت . فظن انها عثرت ، وأراد ان يسندها ؛ فأتت بحركة لتجنبه . وكان هذا كافياً ليعت فيه الرغبة لما كستها : فاقترب محاولاً ان يأخذ ذراعها ؛ وتجنبت ملاسته بوثبة جانبية ، وغيرت الاتجاه فجأة ، ودخلت في شارع معترض . ففكر انها تلعب واستعد للعب . ولكنها بدت حقيقة انها تهرب امامه : فقد زادت سرعة سيرها ، وبذل الجهد ليحتفظ بالمسافة دون ان يركض . كان يلهو ؛ فهذا السير السريع يشبه الصيد في ذلك الحي الفقير . الا انه تعب قليلاً ، وكانت على وشك الدخول في شارع مظلم . وبواسطة منعطف جعلها يعودان أدراجهما ، فقد اراد ايقافها وحاول للمرة الثالثة الامساك بذراعها . الا انها تخلصت من جديد . فقال غاضباً :
- هذه رعونة . قفي الآن .

وهربت ، باحثة عن الظلام ، بمبدلة الرصيف دون انقطاع كأنها تريد حقيقة ان يفقد اثرها ؛ وفجأة اخذت تركض . ولحق بها ببضع وثبات وحصرها في فرجة باب . وعندئذ اكتشف على وجهها امائر رعب لا يمكن ان يكون مصطنعاً .
- ما الامر ؟

فظلت متلبدة وهي تلهت في الزوايا الرطبة ، مثبتة عليه عينين شاردتين . ففكر لحظة ، ولم يفهم ، ولكنه كان يرى جيداً ان شيئاً خطيراً حدث فيها . واراد اجتذابها نحوه فتخلصت بحركة كثيرة الخوف بحيث تمزقت ناحية من ثوبها .

وردد ، متراجعاً خطوة : ماذا حدث اذن ؟ اتخافيني ؟ اتشعرين بألم ؟ واستولت عليها رجفة عصبية فلم تستطع ان تلفظ كلمة ولم تنقطع عن التطلع اليه . وظل دون ان يفهم شيئاً ؛ الا انه احس بالشفقة ، فقال مقترحاً :

ـ اتفضلين ان اتركك ؟

فأنت بإشارة ايجابية . وشعر انه اصبح على وشك ان يكون مضحكاً .
وقال ، واضعاً كثيراً من العذوبة في صوته كأنه يحاول مؤانسة ولد ضائع :

ـ اصحيح هذا ؟ اتريدين ان اذهب ؟

فنفضت بعنف تقريباً : نعم .

بالحقيقة لم تكن تمثل مهزلة .

وشعر ان في الالحاح عدم كياسة . وكف عنها وعزم على التصرف بلطف

فقال :

ـ حسناً ، ليكن . الا اني لا استطيع ان اتركك هنا . سنخطو بضع

خطوات باحثين عن عربة وسأتركك . اتريدين ؟

وسارا صامتين نحو جادة الاوبرا حيث تشاهد الاضواء . وقبل وصولهما

التقيا بسيارة اجرة وقفت بمحاذاة الرصيف بناء على اشارة . وكانت رينيت

محتفظة بعينها منخفضتين باصرار . وفتح دانيال الباب . وعلى درجة السيارة

عزمت على ان تدير رأسها نحوه ، وتطلعت في وجهه كما لو انها لا تستطيع

امتلاك نفسها من تفحصه مرة اخرى . واجتهدت لتبتسم ، واجتهد ، وهو

عاري الرأس ، ليحتفظ بهيئة الصديق الذي يستأذن بالذهاب . وحين تأكدت

انه لن يحاول مرافقتها ، انفرجت اساريرها ، وأعطت السائق العنوان ، ثم

التفتت نحو دانيال وتمتت بلهجة اعتذار :

ـ عفواً . هذا المساء يجب ان تتركني يا سيد دانيال . وغداً سأوضح لك

الامر .

فقال وهو ينحني :

ـ حسناً ، الى الغد ، ولكن اين ؟

فرددت بمذاجة :

ـ هذا صحيح ، اين ؟ عند مدام جوجو اذا اردت . نعم ، عند مدام

جوجو . الساعة الثالثة .

— الى الساعة الثالثة .

ومد يده ، ومدت يدها ، ولامس بشفتيه اطراف الاصابع المفطاة بالقفاز .
وأقلعت السيارة .

عندئذ فقط اتى دانيال بحركة غضب . وملك نفسه حين رأى النصف
الاعلى للفتاة ينحني خارج العربة ويوقف السائق .

ولم يقم بسوى وثبة نحو باب السيارة ، وفتحت رينيت له ؛ كانت عيناها
مفتوحتين في الظلام . ففهم ؛ وقفز الى جانبها . وحين احاطها بذراعيه
سحقت شفتيها على شفتيه ، وشعر جيداً انها لم تكن تستسلم عن ضعف ولا عن
خوف : كانت تقدم نفسها . وكانت تبكي — ربما من اليأس — وتتمم بكلمات
غير مفهومة :

— اريد ... اريد ...

واضطرب دانيال وهو يسمع :

— اريد ... طفلاً منك !

وسأل السائق :

— أهو العنوان نفسه ؟

٣

حين ترك انطوان جاك ورفاقه سار الى باسي حيث كان عنده مريض
مصاب بذات الرئة يريد رؤيته ؛ ثم سار من هناك الى شارع الجامعة ، الى
البيت الابوي ، حيث كان يتقاسم الطابق الارضي مع اخيه منذ خمس سنوات .
وفي داخل العربة التي سارت به الى بيته ، والسيكار في فمه ، خطر بباله ان
المريض الصغير يسير حقيقة في طريق التحسن ، وان نهاره كطبيب قد انتهى ،
وانه في حالة نفسية ممتازة . وقال :

— اعترف انني لم اكن البارحة فخوراً . وعلى العموم ، حين ينقطع القيء

مطبوع . إذن ، وبعد ، إذا أراد أحد الذهاب ؟

فقال انطوان ملتفتاً : الذهاب ؟

ومن جديد ساوره شعور مؤلم انه أضاع الخيط .

— لن تبقى هناك ثلاثة أسابيع ! فهل هذا أمر يجب عمله؟ ها هي قد دخلت

في عامها السابع والسبعين . وهناك مجال كبير للتأكد من أن الوقت لن يتسع

لها لتنفق العشرة آلاف فرنك في البيت ! أليس صحيحاً ؟

فردد انطوان الذي لخص الحساب المحزن رغماً عنه :

— سبع وسبعون سنة !

لم يكن يفكر في الساعة . ولاحظ : « حين ينقل المرء انتباهه ليووجهه إلى

الغير فإنه يكتشف حالة » . (بالرغم من عاداته المهنية فإن انتباهه كان مركزاً

بشكل طبيعي جداً على نفسه ، بحيث كان يشعر بانتقال هذا الانتباه حين يحوله

نحو الغير) . وقال لنفسه : « ان هذا الأبله هو بالتأكيد حالة ، الحالة شاسل » .

وتذكر السنة الأولى التي عرف فيها الرجل الطيب القلب : بناء على توصية كهنه

المدرسة أخذ السيد تيبو معه السيد شاسل في العطلة . بصفة معيد؛ ثم عند العودة ،

وقد أغرته دقته ، فألحقه بخدمته كأمين سر . « منذ ثماني عشرة سنة وأنا أرى

هذا الرجل الصغير كل يوم تقريباً ، ولا أعرف شيئاً عنه » .

وتابع السيد شاسل دون أن ينظر إليه :

— ان امي امرأة مدهشة . في عائلتنا يا سيد انطوان لا يجب الظن ان المرء

يقنع بالقليل أفضل من لا شيء . فأنا ، ربما نعم . ولكن امي ، كلا . فقد خلقت

لتحيا الحياة الكبرى ، وليست هذه الحياة الصغيرة المطمئنة ! ولكنها لن تبقى

هناك . ولن يعيدوا إلي المال . انهم يتخذون احتياطاتهم ، ويجعلونك توقع عند

الدخول ، كورق البردي ، على ورقة ألصق عليها طابع ، تصريحاً حسب

القانون ، كما يحدث لدى شرطتك . فقط ، انهم ليسوا كثيري البلاهة . فهم لا

يكتبون إليك بعد سنة ؛ ولا يعيدون شيئاً . لا شيء ، لا شيء ، لا شيء — ثم

تابع بهيئة ساخرة ، ودون أن يغير اللهجة : — ماذا فعل صديقك ؟ هل جاء

فجأة ... « النبض جيد ، والبول جيد ، ولكن المريض يحتضر »^(١) ...
وليس المقصود سو تجنب إلتهاب شغاف القلب ... الام لا تزال امرأة جميلة ..
وباريس أيضاً جميلة جداً هذا المساء .

كان اثناء مروره يلقي نظره على خضرة التروكاديرو ، وقد التفت ليتابع
بمعينه زوجين كانا يدخلان في ممر غير ظاهر وبرج ايفل ، وثمانيل الجسر ، والسين ،
كانت كلها وردية اللون . « في قلبي ... نا - نا - نا ... » وكان هدير المحرك
يسانده غناؤه . وقال فجأة :

- « في قلبي ... ينام ! » نعم هكذا : « في قلبي ... ينام نا - نا - نا ...
من المغضب الا يستطيع المرء ايجاد الظلام . من هو الذي يستطيع ان ينام في
قلبي ؟ الحنزير الذي يغفو ؟

هكذا فكر وهو يتسم ؛ وساقه تفكيره من جديد نحو مناظر السهرة
المسلية عند باكمل . أهى مغامرة لطيفة ؟ وشعر بأنه سعيد بأن يعيش ، وكان
رغبة خفية تحمله . ورمى سيكارتة . وصالب ساقيه وتنشق الهواء الذي أكسبته
سرعة العربة مظهراً معتدل البرودة « بشرط ألا ينسى بيلان كاسات الهواء
للصغير . سننقذه ، ذلك الغلام المسكين . - وبدون مداخلات . أريد أن أرى
رأس لوازيل . اولئك الجراحون ! انهم ذوو شهرة ، ولكن ، طز ! بهالين^(٢) .
وكما كان يقول الاب الهرم : « لو كان عندي ثلاثة أبناء لقلت لأقلهم موهبة :
كن مولدأ » . ولأكثرهم رياضة : « خذ المبزع » . ولكن لأكثر الثلاثة ذكاء :
« كن طبيباً ، واعتن بكثير من المرضى واسع لتراهم بشكل أكثر وضوحاً » .
وشعر من جديد انه فرح ، فرح حق في لباب قوته . وتمتم بصوت منخفض :
« لقد أحسنت توجيه حياتي » .

وحين دخل إلى بيته ذكره باب غرفة جاك المفتوح بأن أخاه قد قبل .

١ - باللاتينية في الاصل .

٢ - جمع بهوان .

خمس سنوات من التيقظ وحسن التدبير أوصلت إلى هذا النجاح. وقال متأوها:
— لا أزال أذكر جيداً المساء الذي التقيت فيه بفافري في شارع المدارس .
حيث خطرت لأول مرة فكرة توجيه جاك نحو دار المعلمين . كانت حديقة
مونج Monge بيضاء من الثلج؛ وأقل حراً من اليوم. وتخيل مقدماً لذة الاغتسال
بالماء البارد . وألقى ملابسه حوله بفراغ صبر طفل .

وخرج من (الدوش) متجسداً . كان يفكر بباكميل ويصفر صغيراً خفيفاً
من السرور . أما ما كان يدعوه «النساء» فلا يشغل من حياته سوى مركز ثانوي؛
وأما الحب العاطفي ، فلا شيء . كان يكتفي باللقاءات السهلة ؛ ويستخرج منها
زهواً لأنها كانت « عملية » أكثر . ومع ذلك ، باستثناء بعض السهرات ، فإنه
كان يحترز من كل ذلك ، ليس بدافع النظام ولا بدافع اللامبالاة الجسدية ؛ بل
لأن « كل هذا » يشكل قسماً من طراز حياتي يختلف عن الطراز الذي صمم أن
يختاره مرة وإلى الأبد . وكان يشعر ان هذه المزعجات هي ضعف ؛ أما هو
فقد كان « قوياً » .

ودق الجرس . نظرة نحو الساعة : عند الحاجة ، لا يزال لديه وقت لرؤية
مريض قبل الالتحاق بالعصابة عند باكميل .
وصرخ من خلال الباب : من هناك ؟
— هذا أنا يا سيد انطوان .

وعرف صوت شاسل وفتح الباب . أثناء إقامة السيد تيبو في ميزون لافيت
استمر أمين سره في عمله في شارع الجامعة .
وقال السيد شاسل آلياً : آه ! هذا انت .

واضطرب لرؤية انطوان بالملابس الداخلية فأدار رأسه متمتماً : « ماذا ؟ »
بهيئة استفهامية . ثم أضاف حالاً ، رافعاً أصبعه كأنه اكتشف كلمة لغز :
— آه ! ترتدي ملابسك ، ألن ازعجك على الأقل ؟
فأسرع انطوان بالاعتراف :
— يجب أن أذهب بخلال خمس وعشرين دقيقة .

— هذا أكثر مما يلزم . انظر يا دكتور

ووضع قبعته . وانتزع نظارته وحلق بعينه :

— ألا ترى شيئاً ؟

— أين هذا ؟

— في العين .

— أيها ؟

— هذه .

— لا تتحرك . لا أرى شيئاً ابداً . ربما لفحة هواء .

— آه ! نعم . بالتأكيد . شكراً . هذا لا شيء : لحة عين على الهواء .. لقد

فتحت النافذتين . — وسعل وأعاد وضع نظارتيه — شكراً . ها أنذا قد
اطمأنيت . لحة عين على الهواء . هذا يحدث غالباً ، هذا لا شيء — وأضاف
بابتسامة صغيرة : — ها انت ترى انني لم ازعجك طويلاً .

ولكن بدلاً من ان يستعيد قبعته جلس على حافة كرسي . واخرج منديلًا
ومسح جبهته .

وقال انطوان : الطقس حار .

فأجابه الآخر مفضناً جفونه بحيث :

— بالتأكيد ! طقس عاصف . ان من يستوجب الرثاء هم المضطرون للذهاب

إلى هنا أو هناك ؛ أولئك الذين لديهم مساع يقومون بها .

وكان انطوان يربط شريط حذائه فرفع انفه :

— مساعٍ ؟

— في المكاتب . في مفوضيات الشرطة يَحْتَقِنُونَ من هذا الحر . إذن تؤجل

إلى الغد .

ختم كلامه بذلك هازاً رأسه . وظل انطوان وأنفه في الهواء . وقال

السيد شاسل :

— بالمناسبة . منذ وقت طويل وأنا أريد ان أوجه إليك هذا السؤال :

هل تعرف مأوى العمر الناضج ؟

— العمر الناضج ؟

— نعم . للشيوخ . لا يوجد اصحاب داء عضال . مأوى في بوان — دي جور . انه كالهواء وليس هناك أفضل . وحين كنا هناك يا سيد انطوان حدث أمر أريد ان اسألك عنه ايضاً : ألم تجد ذات يوم قطعة نقدية منسية بمئة فلس ؟

— منسية ؟ في جيب ؟

— كلا .. في حديقة . في الشارع تقريباً .

كان انطوان واقفاً وبنطلونه في يده ، ينظر إلى السيد شاسل ويفكر : « منذ ان أكون مع هذا الحيوان أشعر بانني صرت أبله » . وبذل جهداً ليكون منتبهاً ، وصرح برصانة :

— لم أفهم سؤالك جيداً .

— لئ : هناك أناس يفقدون شيئاً ، مثلاً . وهناك أناس يمكن ان يجدوا هذا الشيء ، ولماذا لا ؟

— بالتأكيد .

— حسناً . انت مثلاً ، لو وجدت هذا الشيء صدفة ، ماذا تفعل به ؟

— ابحث عن صاحبه .

— أليس كذلك .. ولكن إذا لم يكن هناك أحد ؟

— أين ؟

— في الحديقة ، في الشارع مثلاً .

— إذن احمل الشيء إلى مفوضية الشرطة .

فلاحت ابتسامة في زاوية فم السيد شاسل :

— ولكن إذا كان هذا الشيء نقوداً ؟ آه ! آه ! قطعة بمئة فلس ؟ نحن نعرف جيداً ماذا يصير بهذه القطعة عند هؤلاء الناس .

— أتفترض ان مفوض الشرطة يحتفظ بالقطعة النقدية لنفسه ؟

— بالتأكيد .

— ولكن كلا يا سيد شاسل . أولاً يوجد شكليات ، أوراق . إليك هذا الخبر . لقد وجدت مع أحد الأصدقاء ، ذات يوم في عربة ، دمية طفل جميلة جداً ، من العاج والفضة المذهبة . فأخذوا في مفوضية الشرطة اسم صديقي واسمي واسم الخوذي ، وعناويننا ، ورقم العربة ، وجعلونا نوقع على تصريح واعطونا وصلاً قانونياً . أيدهشك هذا ؟ وبعد سنة ، أنبىء صديقي بأن أحداً لم يأت ويطلب الدمية وان باستطاعته المجهيء لأخذها .

— ليعمل ماذا ؟

— هذا هو القانون . إذا لم يتقدم أحد لطلب اللقية فإنها بعد سنة ويوم تعود إلى من وجدها بموجب الحق .

— سنة ويوم ! إلى من وجدها ؟

— تماماً .

فهز السيد شاسل كفيه :

— دمية ، ممكن . ولكن لو كانت اللقية ورقة نقدية . . بخمسين فرنكاً مثلاً . .

— سيكون الأمر نفسه .

— لا أعتقد يا سيد انطوان .

— وأنا متأكد يا سيد شاسل .

فحلق القزم ذو الوبر الأصهب ، الجاثم على كرسيه ، بالشاب من فوق نظارتيه . ثم حوّل عينيه ، وسعل في تجويف يده ، وقال :

— ولكن كلا . كنت أتكلم عن المأوى .

وبما أن انطوان كان يرتدي سترته ، فإنه قفز عن كرسيه ليساعده في إدخال الذراع في فتحة الكم وقال ملحاً : « اجتياز المانش » ؛ واغتتم فرصة وجوده وراء انطوان فهس في اذنه بسرعة :

— الخفيف ، كما ترى ، هو انهم يطلبون تسعة آلاف فرنك . ومع النفقات

الصغيرة ، احسب عشرة آلاف فرنك . وعشرة آلاف فرنك «مقدماً» : وهذا

ليأخذها ؟

— دمية العاج ؟ لمعري كلا .

فاتخذ السيد شاسل موقفاً حالماً :

— هذا صحيح فيما يتعلق بدمية العاج ... بينما مبلغ المال ! كل أولئك الذين يفقدون نقوداً في الشارع يركضون حالاً ليطلبوها في جميع مفوضيات شرطة باريس ! واؤكد ان هناك ايضاً من يذهبون ليطلبوا أكثر مما فقدوا . واي برهان ؟

فلم يجب انطوان . وكان السيد شاسل يتفحصه بالحاح ؛ ورد ساخراً :

— واي برهان ؟ قل .

فقال انطوان غاضباً :

— اي برهان ؟ وجميع التفاصيل التي يجب تقديمها : كيف ضاع المال ، واذا كان اوراقاً او قطعاً نقدية ، واذا كان هناك ... فقاطعه السيد شاسل بحدة :

— اوه ، كلا . ليس هذا ! لن يسألهم اذا كانت اوراقاً او قطعاً معدنية ! تفاصيل ، ليكن ، اني اقبل . ولكن ليس هذا ، كلا .
وردد عدة مرات بهيئة ذاهلة : ليس هذا ! ليس هذا ..
والقى انطوان نظرة على الساعة :

— هذه المرة لا اطردك ، ولكن اصبح من اللازم ان اذهب .

فارتجف السيد شاسل . وانزلق على الارض .

— شكراً للاستشارة يا دكتور . اني عائد لأضع ضمادة ... شيئاً من القطن في الاذن ... ولن يكون هذا شيئاً .

لم يستطع انطوان ان يمتنع عن الابتسام لرؤية الرجل الصغير يخاطر بنفسه وهو يقفز على ارضي الدهليز المطلية بالدهان . وكان السيد شاسل ينتعل دائماً حذاءً يحدث صوتاً .. انه واحد من « مزعجات » حياته : فقد استشار جميع صانعي الاحذية ، واختبر جميع اشكال الاحذية ذات السوق ، والصغيرة ،

وجميع انواع النعال ، من جلد ولباد ، ومطاط ؛ واستشار اطباء الارجل ؛ وبناء على تحريض مدلك يصنع النفائس ، عهد بتقديمه لمبتكر حذاء مطاط ، يدعى « الصامت » ، مصنوع خصوصاً لخدم المائدة واهل البيت . ولكن عبثاً . عندئذ الف عادة المشي على رؤوس اصابعه : وكان برأسه الصغير ذي المينين المستديرتين وسترته المصنوعة من وبر الألباغا Alpaga حيث القسم المشقوق المتدلي منها يخفق وراءه ، يشبه عقمقاً قص جناحاه . وقال حين اصبح على الباب :

- حسناً ، لقد نسيت ! جميع المتاجر مقفلة . اما معك نقود ؟

- كم ؟

- ألف فرنك

- بوه !

قال انطوان ذلك وذهب ليفتح درجاً : وقال السيد شاسل موضعاً :
- لا احب ابدأ ان احمل واحدة من هذه القطع الكبيرة . بالضبط انت الذي كنت تكلمني عن المال المفقود ... لو كان بإمكانك اعطائي عشر ورقات بمئة فرنك ؟ او عشرين من فئة الخمسين ؟ كلما كانت الصرة معقولة يقل الخطر نوعاً ما .

فصرح انطوان مستعداً لاغلاق الدرج :

- كلا ، ليس لدي سوى قطعتين بخمسية .

فقال السيد شاسل وهو يتقدم :

- حسناً ، نعم . هذا يختلف مهما كان الأمر .

وناول انطوان الورقة النقدية التي اخذها من بطانة سترته واستعد ليدخل في البطانة القطعتين الاخرين حين رن جرس المدخل بصوت حاد بحيث ارتجف الرجلان ، وحيث قال السيد شاسل متلجلجاً ولم يكن قد انتهى من اخفاء نقوده :

- انتظر ، انتظر .

ولكن قساوته انفرجت حين عرف صوت بوابه الخاص الذي كان يصيح ضارباً الباب بقبضته :

— أليس السيد شاسل هنا ؟

فركض انطوان وفتح .

وصرخ الرجل وقد ضاق نفسه :

— هل هو هنا ؟ بسرعة ! حادث . لقد انهرست الصغيرة .

وممع السيد شاسل . وترنح . وظهر انطوان في الوقت المناسب ليلتقاه ، ويمدده على الارض ، ويضرب وجهه بمنشفة رطبة . وفتح الهرم المسكين عينيه وحاول ان ينهض . وقال الرجل :

— آه ! يا سيد جول . تعال بسرعة . معي عربة .

وسأل انطوان دون ان يتسائل من يمكن ان تكون هذه الصغيرة :

— اماتت ؟

فتمتم الآخر : انها لم تبلغ الخامسة بعد .

واخذ انطوان عن الرف حقيبة الريف التي يبقياها دائماً بمجهزة للحالات الطارئة ؛ وتذكر فجأة انه أعار جاره زجاجة صبغة اليود ، واندفع إلى غرفة أخيه صارخاً بالبواب :

— سر به وانتظرنني . اني مرافقكم .

وحين وقفت العربة بالقرب من التويلري ، أمام البيت الذي كان يسكنه آل شاسل ، شارع الجزائر ، توصل انطوان بشكل سيء من خلال إيضاحات البواب غير المنظمة ، إلى كشف ما حدث . كان الأمر يتعلق بطفلة تأتي في جميع الايام إلى أمام السيد جول . فهل كانت تريد اجتياز شارع ريفولي ، وقد رأت ان السيد جول لم يأت هذا المساء ؟ ان عربة بثلاثة دواليب تستعمل لتسليم البضاعة قلبتها ومرت على جسدها . وبائعة الصحف التي اجتذبتها تجمعهم الناس عرقها من صفائرها واستطاعت إعطاء عنوانها . وقد حملت فاقدة الوعي إلى الشقة . والسيد شاسل المنطوي في داخل العربة لم يكن يبكي . ولكن كل تفصيل

جديد كان ينتزع منه انتحابة مضطربة كان يخنقها بوضع قبضته على فيه .
وكان أمام الباب جمع من الناس قد تأخر فابتعد عند مرور السيد شاسل
الذي اضطر رفيقه الى مساندته حتى الطابق الأخير من الدرج . وكان هناك باب
مفتوح قليلاً في نهاية رواق دخل فيه السيد شاسل مصطكاً الركبتين . ومرك
البواب انطوان يمر ، ووضع يده على ذراعه :

- زوجتي ليست حمقاء . فقد ذهبت تبحث عن الطبيب الصغير الذي يتناول
طعامه في المطعم المجاور . وآمل أن تجده .

فاستصوب انطوان بإشارة من رأسه ، وتبع السيد شاسل . واجتازا نوعاً من
غرفة ثياب يشتم منها رائحة خزانة عفنة ، ثم غرفتين منخفضتين ، مبلطتين ،
شبه مظلمتين ، حيث المظهر يبدو خائفاً رغم النوافذ المفتوحة على الساحة ؛ وفي
الآخيرة دار انطوان حول طاولة مستديرة حيث لوازم طعام أربعة اشخاص
كانت تنتظر على قماش مشمع اسود . وفتح السيد شاسل باباً ، ودخل غرفة
مضاءة ، وهبط حالاً متمتماً :

- ديديت .. ديديت .

وصاح صوت صارم : جول !

لم ير انطوان أولاً سوى قنديل تمسكه بكلتا اليدين امرأة ترتدي مئزرًا
وردي اللون ، وشعرها اشقر ، والجبهة والصدر يلعبان في الضوء ؛ ثم ميز
السريـر الذي تنيره المرأة وتنحني عليه عدة ظلال . والضوء المسقي الذي لا يزال
يدخل من النافذة جاء يذوب في هالة القنديل ، وكانت الغرفة غارقة في شبه ظل
حيث كل شيء يبدو غير حقيقي . وانطوان ساعد السيد شاسل على الجلوس ،
وتقدم نحو السريـر . هناك رجل شاب ذو نظارة ، منحني ، وقبعته لا تزال على
رأسه ، كان يمزق بالمقص الثياب الدامية للضحية الصغيرة التي يرى وجهها ملقى
على الوسادة ، بين الشعر المتخثر ، وهناك عجوز راكمة كانت تساعد الطبيب .
وسأل انطوان : أتعيش ؟

فالتفت الطبيب ، وشاهده ، وتردد ومسح جبهته ، وأجاب أخيراً دون

يقين : نعم .

فقال انطوان موضعاً :

— كنت مع السيد شاسل حين جاؤوا في طلبه . وجلبت معي ما يمكن أن يعطي الاعتناءات الاولى . — وأضاف بصوت منخفض : — الدكتور تيبو رئيس معانة في مستشفى الأطفال المرضى .

فنهض الطبيب ، وأتى بحركة ليخلي المكان . فقال تيبو وقد تراجع خطوة : — قم بعملك ، قم بعملك . كيف النبض ؟
فأجاب الآخر الذي عاد إلى عمله بسرعة : — يكاد لا يُعدّ .

ورفع انطوان عينيه نحو المرأة الشابة الشقراء ، والتقى بنظرها المضطرب . وقال مقترحاً :

— الأفضل يا سيدتي الاتصال هاتفياً بمركز اسعاف وحمل طفلتك حالاً إلى مستشفى .

فقال صوت واضح : كلا .

عندئذ ميز انطوان ، وهو واقف على رأس السرير ، امرأة مسنة — الجدة دون شك — كانت تتفحصه بحدقتها الفلاحتين ، الصافيتين كالماء : أنف مروّس ، وقصات متشددة ، مكومة في اوقيانوس من الشحم ، حيث الأمواج الأخيرة تشكل طيات العنق . وقالت بصوت مستسلم :

— اعلم جيداً أننا نبدو فقراء . ولكن مهما يكن الأمر فنحن نفضل البقاء لنموت في أغطيتنا . ان ديديت لن تذهب إلى المستشفى .

فقال انطوان ملحاً : ولكن لماذا يا سيدتي ؟

فأزالت طيات عنقها ، ودفعت ذقنها إلى الأمام ، وقالت ببساطة ، وبلهجة كئيبة ولكن لا تنثني : ذوقنا هكذا .

وبحث انطوان بعينه عن المرأة الشابة ؛ كانت تبعد الذباب المصّر على الوقوف على وجهها المتير . وكانت تبدو انها ليست من هذا الرأي . وعندئذ

ساورته فكرة مناداة السيد شاسل. وكان الرجل الطيب القلب قد سقط راکعاً على قدم المقعد الذي أراد انطوان الجلوس عليه ، وادخل رأسه بين ذراعيه المطويين لكي لا يسمع شيئاً ، ولكي لا يرى شيئاً . والسيدة المعجوز التي كانت تراقب جميع حركات انطوان ادركت مقصده فسبقته وقالت :

- أليس كذلك يا جول ؟

فارتجف السيد شاسل وقال : نعم يا امي .

وبدت راضية وتابعت بصوت امومي :

- لا تبق هنا يا جول . ستكون أفضل في غرفتك .

فرفع الهرم المسكين جبهته الشديدة الشحوب ؛ وكانت عيناه ترتقصان وراء نظارتيه ، ولم يعترض بشيء ، ووقف ، وترك الغرفة على رأس قدميه .

وعض انطوان على شفتيه ، وفيما كان يتفحص مناسبة مناقشة ، خلع سترته وطوى كمي القميص فوق المرفقين ؛ ثم جاء يركع على حافة السرير . لم يكن يفكر ابداً تقريباً دون ان يبدأ العمل في الوقت نفسه لأنه كان غير خليق بوزن معطيات المشكلة طويلاً ، وكان متمجلاً لاتخاذ موقف . وكان يهيم ألا يكون مخدوعاً أقل مما يهيم التدخل بسرعة وجراًة : لم يكن التفكير في نظره سوى واسطة لتحريك العمل ، ولو كان قبل الأوان .

وبمساعدة الدكتور والمعجوز الاخرى التي كانت ترتجف ، انتهى من حل الاقمةطة عن جسد الطفلة بحيث ظهر اخيراً عري البنت الصغيرة الكثيرة الشحوب ، شبه الربداء . وكانت العربية ذات الدواليب الثلاثة قد قلبت الطفلة بعنف متناه ، لانها كانت مغطاة بالكدمات ، وهناك خط داكن كان يخطط الفخذ منحرفاً ، من الخصر حتى الركبة .

وقال الزميل موضعاً :

- انه الأيمن .

وبالفعل ، فان القدم الأيمن كان ملتوي . مفتولاً إلى الداخل ، والساق الملتوي بالدم كان يبدو مشوهاً واكثر قصرأ .

وقال الطبيب : كسر في عظم الفخذ .

ولم يجب انطوان . كان يفكر . وفكر : « ان صدمتها شديدة وهناك بالتأكيد شيء آخر ، ولكن ماذا ؟ »

وتلمس الرضفة ؛ ثم أصابعها وصعد ببطء على طول الفخذ ؛ وفجأة ؛ كان الدم يسيل من جرح دقيق جداً على الوجه الداخلي من الساق فوق الركبة ببضعة سنتيمترات ، وقال : آه !

وهتف الآخر : عظم الفخذ ؟

وكان انطوان قد نهض بسرعة . ففكرة اتخاذ القرار بمفرده أعطته الكثير من القوة . ان شعوره بمقدرته يزداد دائماً حين يكون موجوداً مع كائنات اخرى . وتساءل : « جراح ؟ كلا : انها لن تصل حية إلى المستشفى . إذن من ؟ أنا ؟ لماذا لا ؟ وما العمل بالطبيب الآخر ؟ »

وسأل الدكتور الذي أغاظه صمت انطوان :

— هل تجرب أن تربطها ؟

ولكن انطوان لم يكن يفكر بإجابته ، وفكر : « بالتأكيد ، وبدون الانتظار ثانية ؛ فربما يفوت الوقت ! » وألقى حوله نظرة حادة : « يربط . بماذا ؟ لئلا . ليس لدى الشقراء زنار ؛ والسائر بدون ربطة . نسيج مطاط ؟ آه ! لدي منه ! » وتخلص من صدرته بلحمة عين ، وفصل حالاته وقطعها بقوة وركع من جديد وصنع منها مضغطة عقدها مشدودة عند أصل الفخذ . وقال وهو ينهض :
— حسناً دقيقتان للتنفس .

وكان العرق يسيل على طول خديه . وشعر بكل الميؤن مصوبة نحوه ، فقال بصوت مقتضب :

— سموت اذا لم تجر العملية حالاً . لنجرب .

فابتعد الجميع عن السرير ، حتى المرأة التي كانت تمسك بالقنديل ، وحتى الطبيب الشاب المضطرب .

وشد انطوان فكبيه . ونظرته المقطبة ، الشرسة بدت انها استدارت كلياً

الى الداخل . وفكر : « لنر ، الهدوء . طاولة ؟ الطاولة المستديرة التي رأيتها وانا داخل » .

وصاح بالمرأة الشابة : « انيري علي » . و اضاف موجهاً الكلام الى الطبيب : « وانت ، تعال » . وبخطوة سريعة دخل الى الغرفة المجاورة ، وفكر : « حسناً ، غرفة عمليات » . وبدورة يد نزع عنها لوازم المائدة ، وصنع كومة من الصحون . وقال لنفسه : « هذا لأجل قنديلي » . لقد استولى على المنزل كحقل مناورات . « والآن ، الصغيرة » . وعاد الى الغرفة ؛ وكان الطبيب والمرأة الشابة يتابعان كل حركاته ويسيران على خطاه . وأرى الطفلة للطبيب :
— اريد حملها . انها لا تزن شيئاً . اما انت فاسند ساقها .

وادخل ذراعه تحت ظهر الطفلة التي تأوهت آمة خفيفة ، وحملها الى الطاولة . ثم اخذ القنديل من يدي الشقراء ، ورفع حاجز النور ، ووضع القنديل على كومة الصحون . واتسع له الوقت ليفكر وهو يحيل نظرة حوله : « انني طراز مدهش » . وكان القنديل يشع كالأتون بين الظلمات الحمرة التي ينبجس منها الوجه الساطع للمرأة الشابة ونظارة الطبيب . ونور لا يرحم كان يسقط على الجسد الصغير الذي كانت اعضاؤه تهتز بين لحظة واخرى . وكان الهواء ممحلاً بالذباب الذي كهربته العاصفة . وكان انطوان ينضح بالحرارة والقلق ، ويتساءل : « اتميش الى ان انتهي ؟ » ولكن قوة لم يكن يحللها قد رفعت . لم يكن أبداً واثقاً من نفسه كهذه المرة .

وأخذ حقيبته ، وبعد أن أخذ منها زجاجة مخدر وضمادة اعطاها للطبيب ، قال :
— افتحها ناحية ، على خزانة الطعام . أرفع مكنة الخياطة ، وافرج كل ما فيها .

ثم التفت ، والزجاجة في يده ، وميز أشكالاً في فتحة الباب القائمة ؛ والمعجوزان جائهقان ، واقفتان . واحداهما ، الام شاسل ، كانت عيناها الكبيرتان محمقتين كالبومة ؛ والاخرى تضغط على فمها يديها المضمومتين . وقال أمراً : اذهب . وحين دخلا في ظلام الغرفة متقهقرتين حيث كان السرير ، أشار إلى الجزء

الآخر من الشقة : « كلا .. أكثر بعداً . من هنا ! » فأطاعتا ، واجتازتا الغرفة ، واختفتا دون كلمة .

وصرخ ، وقد فرغ صبره ، بالمرأة الشقراء التي كانت تستعد للحاق بها :
- ليس انت .

فرجعت . ونظر إليها لحظة : كانت ذات وجه جميل ؛ لحيم قليلا ، زاد الألم دون شك من نبلة : تعبير عن الهدوء والنضج أعجبه . وفكر رغماً عنه : « يا للمرأة المسكينة ! ولكنني بحاجة إليها » . وسأل :
- أنت الام ؟

فهزت رأسها : كلا .

- آه ! أحسن .

وحين كان يتكلم بلل الضمادات ونشرها بمهارة على انف الطفلة . وقال وهو يعطي المرأة الزجاجاة :

- حسناً ، قفي هنا ، وخذي هذه . وحين اشير إليك تعاودين وضعها .

وانتشرت رائحة المخدر في الغرفة . وأنت الصغيرة وتنفست بعمق وصمتت .
لحظة أخيرة : لقد أصبحت الأرض ممهدة : بقيت الصعوبات المهنية وحدها .
وحلت الساعة الحاسمة ، وزال قلق انطوان كما بعامل السحر . فاقترب من خزانة أدوات المائدة حيث كان الطبيب قد انتهى من وضع محتويات الحقبة على منشفة .
وقال لنفسه كأنه يحاول أن يسرق دقائق أيضاً : « لنر : علبة الادوات ، حسناً ، المبضع ، الملاقط ، علبة الشاش ، القطن ، حسناً كحول . كافيين . صبغة اليود . إلخ . » كل شيء موجود هنا . لنبدأ .
وشعر من جديد بسموه : نشوة فرحة بالعمل ؛ ثقة دون حدود : فعالية حيوية بلغت منتهاها ، وفضلاً عن ذلك ، حماسة لشعوره انه كبير .

ورفع رأسه ، وتطلع لحظة في عيني الطبيب الشاب ؛ وبدأ انه يقول :
« لديك شجاعة . القضية صعبة . لنقم كلانا بالعمل » !

ولم يحرك الآخر ساكناً . انه يتبع الآن ، بانتباه مستعبد ، جميع حركات

انطوان . كان يعلم جيداً ان العملية هي الحظ الوحيد ؛ ولو كان وحده لما تجرأ ، ولكن مع انطوان ، فإن كل شيء بدا ممكناً .

وفكر انطوان : « الزميل الصغير ليس سيئاً . انه محظوظ . لفر . طست . باه ! ما الفائدة ؟ هذا جيد » . وأخذ صبغة اليود ومسح بها الذراعين حتى المرفقين . وقال ، مقدماً الزجاجة للطبيب الذي كان يمسح زجاج نظاريه بشكل محموم : جاء دورك .

وأضاء النافذة برق شديد متبوع برعدة غنية . وفكر انطوان : « نفخ بالبوب قبل الألوان . لم أمسك الموضع بيدي بعد . والشقراء لم ترتعش . هذا يرخي الأعصاب وينعش . أنا متأكد ان درجة الحرارة ٣٥ تحت هذا السقف » . وكان قد أخذ ضمادات وربتها حول الساق ليحدد حقل العملية . والتفت نحو المرأة الشابة وقال :

- بعض قطرات من الحذر . كفى . حسناً .
وفكر : « انها تطيع كجندي في اطلاق النار » . ثم تطلع بانتباه إلى الفخذ الصغير المتورم ، وبلغ ريقه ، ورفع الموضع :

- لنبدأ .
وبحركة وجيزة اعمل الموضع . وقال للطبيب المنحني بقربه : نشّف . وفكر : « كم هي هزيلة ! سننتصر حالاً . هذه صغيرتي ديديت تشخر . حسناً لنعمل بسرعة . والآن إلى المنظفات » . وهمس : « دورك » . فترك الآخر القطن المبلل بالدم وأمسك بالمنظفات وأخذ يتأمل الجرح .
وتوقف انطوان لحظة ، وقال لنفسه : « حسناً ، طريقي الكلاسيكية ، كل شيء على ما يرام . برق آخر أيضاً . هذا لم يحدث بعيداً . على اللوفر . أو ربما على أولئك السادة سان روك » . وشعر انه هادئ جداً : لم يكن جزءاً على الطفلة ، ولا من الموت الوشيك الحادث : كان يفكر بفرح « بالرباط الفخذي في قناة هونتر » .

« زم ! واحد ايضاً . لا مطر تقريباً . اكاد اختنق . الشريان مجروح على مستوى منطقة الكسر : لقد مزقه طرف العظم ؛ انه عمل صياني . ومع ذلك

فلم يكن لديها دم كثير تفقده . . والقى نظرة على الصغيرة : « هوم ! لنسرع !
انه عمل صبياني . ولكن يمكن ان يحدث الموت . ملقط ، حسناً . ملقط آخر .
زم ! هذه البروق لا تحتمل ؛ تأثير سهل . . ليس لدي سوى حرير املس ؛ لا
يهم . » وكسر الانبوب ، وأخرج كبة الخيوط وصنع رباطاً الى جانب كل ملقط .
« تماماً . بلغنا الهدف . الدورة الدموية الجانبية تكفي ، وخصوصاً في هذا
السن . انا طراز مدهش . هل اخفق يا موهبي ؟ لدي كل ما يلزم لأكون
جراحاً ، جراحاً كبيراً » . . في الصمت ، بين زميرتين للزوبعة التي كانت
تبتعد ، سمعت قرقرة المقص الذي كان رأسه يقطع اطراف الحرير . « كل شيء :
النظرة ، الدم البارد ، الطاقة ، المهارة » . . وفجأة اصاخ السمع وشحب
لونه . وقال بصوت منخفض :

— يا للشيطان !

لم تكن الطفلة تتنفس .

وأبعد المرأة بدفعة مباغته ، ونزع الضمادة التي تغطي وجه الصغيرة .
ووضع اذنه على القلب . وكانت عيون الطبيب والمرأة الشابة محمقة بأنطوان .
وكانا ينتظران . فتمتم :

— بلى ، لا تزال تتنفس .

وامسك بالمعصم . ولكن النبض كان كثير السرعة بحيث كفّ عن النبضات .
ووجهه المتشنج زاد انقباضه . وشعر مساعداه بنظره يقع عليها ؛ ولكنه لم
يكن يراها .

وأمر بنبرة مقتضبة :

— انت ، ارفع الملاقط وضمد الجرح . ثم ارفع المضغط . . وانت ، هاتي
شيئاً اكب عليه . . لا فائدة . معي دفتري الصغير . . ونشف يديه بشكل
محموم بكتلة قطّية . — كم الساعة ؟ لم تبلغ التاسعة بعد . الصيدلي لا يزال في
صيدليته . ستسيرن اليه ركضاً .

كانت واقفة امامه ؛ ومن الحركة الخفيفة التي رسمتها ، كأنها تلف عليها

جاني مئزرها بشكل افضل ، ادرك انها تتردد بالخروج لأنها كانت نصف عارية . وفي مدى نصف ثانية استحضر تفكيره هذا الجسد المكتنز تحت الثوب . وكب الوصفة بسرعة ووقعها . « انبوب مصل سعة ليتر . اركضي ايها السيدة . اركضي ! »

فتمتت : واذا ..

فقاسها بنظرة وصاح :

— اذا كان مقفلاً فستقرعين الجرس وتطرقين الباب الى ان يفتح لك . هيا ! وانطلقت وأمال رأسه ، وتأكد من ابتعادها راكضة . ثم التفت نحو الطبيب :

— سنجرب المصل . . وليس تحت الجلد فهذا لا يساوي الجهد : بالشریان . حظنا الاخير . — واخذ زجاجتين صغيرتين عن خزانة ادوات المائدة — هل رفع المصفاط ؟ حسناً . اصنع لي دائماً ابرة زيت بالكافور . ثم واحدة كافيين *Caféine* ، النصف فقط . بالطفلة المسكينة .. ولكن أرجوك ، اعمل ذلك بسرعة .

وعاد الى الطفلة وامسك بالمعصم الهش بين اصابعه ؛ فلم يشعر بشيء تقريباً ، رعشة متسارعة تكاد لا يُشعر بها . ففكر : « هذه المرة لا يمكن عد النبض بوضوح » . عندئذ مرت عليه دقيقة من الضعف واليأس . وتتم :

— آه ! اقول ان كل شيء قد نجح ، وان ذلك لن يفيد شيئاً !

ومن لحظة الى اخرى كان وجه الطفلة يزداد زرقة . كانت تموت . وشاهد انطوان بالقرب من الشفتين المفتوحتين قليلاً شعرتين ملتفتين ، اكثر خفة من خيوط العذراء ، كانتا ترتفعان بين فترة واخرى : انها لا تزال تتنفس . وفكر وهو يراقب الطبيب الذي يقوم بغرز الابر : « انه كإنسان أحسر ليس عديم المهارة . ولكننا لن ننقذها » . كان يشعر بالحزن المصحوب بالغضب اكثر من شعوره بالغم . كان يملك عدم حساسية الاطباء الذين تعني آلام الغير عندهم تجربة ، مصلحة ، فائدة مهنية ، والذين لا يثرون الا على

حساب الالم او الموت .

في تلك اللحظة ظن انه سمع باباً يقرع . واندفع الى امام المرأة الشابة . كانت تركز فعلاً ، بخطوتها المتوجه ، وتمسك نفسها لثلاث ثواني ، وانتزع الصرة من يدها وقال ، دون ان يفكر حتى بشكرها :

— ماء ساخن .

— يغلي ؟

— كلا ، بل ليصبح المصل فاتراً . بسرعة .

وما كاد ينتهي الوقت الذي نشر فيه محتويات الصرة حتى عادت تحمل وعاء يتصاعد منه الدخان . فتمتم هذه المرة دون ان ينظر اليها :

— جيد . جيد جداً .

كان الوقت يستعجله . وببضع ثوان كسر رأسي أنبوب المصل وضبط أنبوب المطاط . وفي الحائط كان ميزان جوي سويسري من الخشب المحفور ، معلقاً . فرفعه بيده وعلق بالآخرى أنبوب المصل بالمسار . ثم اخذ وعاء الماء الساخن وتردد عشر الثانية ، ولف المطاط في داخلها . وفكر : « سوف يسخن المصل بمروره . رائع ! » واتخذ وقتاً لإلقاء نظرة نحو الطبيب ليتأكد من ان الآخر رآه يعمل . وأخيراً عاد إلى الطفلة ورفع الذراع الصغير الذي لا حياة فيه ودهنه باليود . وكشف العرق بضربة مبضع ، وأدخل المسبر تحته ، وغرز الإبرة في الشريان . وصاح :

— انه يأخذ مجراه . عد النبض . أما أنا فلن اتحرك .

ومضت عشر دقائق لا تنتهي ، في صمت مطلق .

وكان انطوان ينتظر ، وجده مفطى بالعرق ، والنفس قصير ، والجفون متفضضة . ولم يترك الإبرة بنظره . وأخيراً رفع عينيه نحو أنبوب المصل :

— أين صرنا ؟

— نصف ليتر تقريباً .

— والنبض ؟

فهرز الطبيب رأسه دون ان يجيب .
 ومضت خمس دقائق اخرى بنفس القلق الذي لا يحتمل . ورفع انطوان
 عينيه نحو انبوب المصل وقال : - أين صرنا ؟
 - بقي ثلث اللتر .
 - والنبض ؟
 فتردد الطبيب وقال : - لا أدري . اعتقد انه يميل إلى الرجوع قليلاً
 - أتستطيع عدّه ؟
 فترة صمت .
 - كلا .

وفكر انطوان : « لو كان النبض يعود .. » انه يعطي عشر سنوات من
 حياته لبعث الحياة في هذه الجثة الصغيرة . « كم عمرها ؟ سبع سنوات ؟
 لو أنقذتها ، فستصاب بعد عشر سنوات بالترن الرئوي في هذا البيت . ولكن
 هل سأنقذها ؟ انها على الحد - الحد النهائي ... ومع ذلك فقد فعلت كل شيء ،
 المصل يأخذ مجراه . ولكن فات الوقت ... ' انتظر ... لا شيء نعمله ...
 لا شيء نجربه : الانتظار » . كانت الشقراء حسنة . مخلوقة جميلة . وهي ليست
 الام . ما هي إذن ؟ شاسل لم ينبس بكلمة عن كل هؤلاء الناس . ومع ذلك
 فليست هي ابنته . لا افهم عنها شيئاً . والعجوز ، بألحانها ... على كل حال قد
 تركوني بسلام . هذه السلطة التي يتخذها المرء فجأة .. انهم فهموا كل شيء عمن
 قضيتهم معه . نفوذ رجل عزوم ! ولكن كان يجب النجاح .. هل أنجح ! كلا ،
 لقد فقدت كثيراً من دمها اثناء نقلها . على كل حال . ما من شيء الآن يدل على
 التحسن . آه !

ونظر إلى الشفتين اللتين زال لونها ، والخططين الذهبيين اللذين لا يزالان
 يرتفعان بالتواتر ؟ لقد ظهر له التنفس اكثر وضوحاً . هل كان غدوعاً ؟ ومضت
 نصف دقيقة وبدا ان آهة خفيفة نفخت الصدر وتصادعت ببطء كأنها تستنفذ
 بقية الحياة . وظل انطوان لحظة مرتبكاً ، وعينه ثابتة . كلا ، انها لا تزال

تتنفس . يجب الانتظار . الانتظار . والانتظار ايضاً . وبعد دقيقة . آه اخرى متميزة تقريباً .

– أين صرت ؟

– انبوب المصل فارغ تقريباً .

– والنبض ؟ هل عاد ؟

– نعم .

فتتنفس انطوان الصعداء .

– اتستطيع العد ؟

ف سحب الطبيب ساعته ، وضبط نظارته وصمت دقيقة وقال :

– مئة واربعون .. مئة وخمسون تقريباً .

فقال انطوان : هذا افضل من لاشيء .

كان يدافع بكل قواه ضد الانفراج العظيم الذي اجتاحه رغماً عنه . إلا أنه لم يكن يحلم . لقد كان واثقاً من ذلك . واصبح التنفس اكثر انتظاماً . واضطر إلى بذل الجهد حتى لا يغير مكانه : كان يشعر بحاجة صيانية للصغير والغناء . وكان يدندن لنفسه : « هذا افضل من لاشيء نا – نا – نا ... ينام ماذا ؟ » وفكر فجأة : « آه ! أنا هنا ! ضوء وقر ! ضوء قمر صيف ! » .

« في قلبي ينام ضوء قر ،

ضوء جميل لقمر صيفي .. »

وكانت له لحظة خلاص ، سرور حقيقي . وفكر : « والصغيرة نجت ؛ يجب

ان تنجو ! » .

« ضوء جميل لقمر صيفي » .

وقال الطبيب مؤكداً :

– انبوب المصل فارغ .

– تماماً .

في هذه اللحظة ارتعشت الطفلة التي لم يفارقها بنظره . والتفت انطوان بفرح تقريباً نحو المرأة الشابة التي كانت منذ ربع ساعة مستندة إلى خزائنة

لوازم المائدة ، ولم تحرك هدباً . وصاح بنبرة فظة :

— ايه ، مدام . أنتم ؟ ووعاء الماء المغلي ؟ — وكاد يبتسم من دهشتها —
 حتماً ياسيدي . هذا يدركه الحس ! كرة ، وساخنة تماماً لتدفئة رجلي هذه الطفلة .
 وكان في أعماق نظراتها وميض سرور مقتضب ، واختفت .

عندئذ سحب انطوان الابرة ، وهو منعن مع مضاعفة الحيلة والخنو ،
 وبأطراف أصابعه وضع ضمادة على الجرح الصغير . ثم تلمس الذراع الذي كانت
 يده متدلية ولا تزال عادمة الحياة .

— انبوب مصل آخر من الزيت الممزوج بالكافور يا عزيزي ، كيفما كان ؛
 ونكون قد استنفدنا اللعبة الكبرى . — وأضاف بين أسنانه : — لن ادهش إذا
 أمسكنا بالطرف الصالح .

ومن جديد رفعته قوة فرحة .

وظهرت المرأة وبين ذراعيها ابريق . وكانت مترددة . وبما أنه لم يقل شيئاً ،
 فانها اقتربت من قدمي الطفلة . فقال انطوان بنفس اللهجة المبالغية المرحية :

— ليس هكذا يا سيدتي . ستحرقينها ! اعطني هذا . أقول ان من اللازم ان
 اعلمك كيف تلفين اناء لغلي الماء .

وأخذ منشفة ملفوفة كانت على الأرض ، مبتسماً هذه المرة ، وألقى حلقة
 المنشفة على أعلى الخزانة . ولف الابريق وثبته برجلي الفتاة . وكانت الشقراء
 تنظر إليه مندهشة من تلك الابتسامة الشبابية التي كانت تجدد شباب ذلك
 الوجه . وقالت :

— هل .. نجحت ؟

فلم يجرؤ على الإجابة بنعم . وقال متذمراً :

— سأقول لك ذلك في مدى ساعة .

فلم تستخف به . وشعلته بنظرة جريئة ملأى بالاعجاب

وسأل انطوان للمرة الثالثة :

— ماذا تفعل هذه الفتاة الجميلة هنا ؟

ثم أشار إلى الباب : والآخرون ؟
فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :
- انهم ينتظرون .

- طمأنيتهم قليلا . قولي لهم ليناموا . ليذهبوا إلى النوم . وانت أيضاً أيتها
السيدة . يجب أن تذهبي وتسترخي .
فتمتعت وهي ذاهبة : اوه ! أنا ..
واقترح انطوان على الطبيب :

- لنعد الصغيرة إلى السرير كما كانت في السابق . اسند الساق . ارفع الحدة ؟
الرأس مسطح . والآن جاءت اللحظة لتنظيم جهاز .. اعطني تلك المنشفة ..
وخطط الصرة . سننجز جهازاً لتعدد العضلات . ادخل الحبل بين القضبان
الحديدية . حسناً . انها مريحة تلك السرر الحديدية . والآن ثقل . لا يهم . هذا
الاناء . كلا . ذاك أفضل : تلك المكواة .. يوجد هنا كل ما يلزم . ولكن نعم
إعطي . هناك ! غداً سنتقن .. وحتى ذلك الوقت فهذا يكفي لإحداث شيء
من الامتداد .. أليس هذا رأيك ؟

فلم يجب الطبيب . كان يحدق بانطوان كما نظرت مرثا إلى المخلص حين قام
اليماز خارج ثابوته . وانفتحت شفتاه قليلا ، وتمتم فقط :

- هل بإمكانني توضيب حقيبتك ؟

في ذلك الصوت الخجول كانت ترن حاجة للخدمة ، للتفاني ، شعر انطوان
منها بنشوة الرؤساء . كانا وحدهما . فسار نحو الرجل الشاب ونظر في عينيه وقال :
- انت رجل ممتاز يا صغيري .

وفقد الآخر نفسه . ولم يترك له انطوان وقتاً للإجابة ، وهو أكثر خجلاً منه :
- الآن ، عد الى بيتك يا عزيزي . لقد أصبح الوقت متأخراً . لسا بحاجة
لنكون اثنين هنا - وتردد : - اعتقد ان باستطاعتي القول انها نجت . اظن
ذلك . الا انني مهما كان الامر فسأقضي الليل هنا اذ سمحت . لأنني لا انسي
انها مريضتك . بالضبط . لقد تدخلت بالضرورة لأن الدلالة كانت قطعية .

اليس كذلك ؟ ولكن منذ الغد ، فاني اترك الصغيرة بين يديك . وبدون قلق : هاتان يدان صالحتان جداً . - وكان يوصل الطبيب الى الباب وهو يتكلم ، وأضاف : اتريد ان تمر من هنا حوالي الظهر ؟ سأعود بعد المستشفى وسنتفق معاً على المعالجة .

- ايها الاستاذ .. انا سعيد جداً لأنني استطعت ..

كانت المرة الاولى التي سمع انطوان فيها من يحييه « كأستاذ » . فتنشق هذه النفحة من البخور بكاملها ، وبصورة تلقائية مدّ يديه للشاب . ولكنه امتلك نفسه حالاً . وقال بصوت مضطرب :

- انا لست استاذاً . أنا طالب يا عزيزي ، تلميذ : تلميذ بسيط مثلك . مثل الآخرين . مثل جميع الناس . أجرب ، اتلمس .. اعمل ما استطيع ، وهذا حسن .

كان انطوان ، بنوع من فراغ الصبر ، يرغب برحيل الطبيب الشاب ، أليكون وحيداً ؟ إلا أنه حين سمع خطوة المرأة الشابة التي عادت ، انتعش وجهه ، وقال :

- ألن تذهبي لتنامي ؟

- كلا يا دكتور .

فلم يلح .

وكانت المريضة تئن ؛ وشهقت ، وبصقت فقال :

- هذا حسن يا ديديت ، حسن جداً . - وأخذ النبض - مئة وعشرون .

من حسن إلى أحسن . - ونظر إلى المرأة دون ان يبتسم - هذه المرة اعتقد اننا انتصرنا .

فلم تقل شيئاً ؛ وشعر انها تؤمن به . ولم يكن يعرف كيف يعقد الحديث الذي كان يتمناه ، وقال :

- لقد كنت شجاعة .

وكان يسير إلى الأمام حين يكون خجلاً ، كما هو الأمر دائماً :

- بأية صفة انت هنا ؟
- أنا ؟ لا شيء . جارة . حق ولا صديقة . ذلك لانني اسكن شقة الطابق الخامس .

- ولكن ، من هي أم الطفلة إذن ؟ فأنا لا أعرف شيئاً .
- اعتقد ان الأم ميتة ، وكانت اختاً لألين .
- ألين ؟
- الخادمة .

- المعجوز التي كانت اصابعها ترتجف ؟
- نعم .

- إذن فالطفلة ليست قريبة لشاسل ؟
- كلا . إنها ابنة اخت تربيها ألين هنا ؛ على حساب السيد جول ، كما هو معلوم .

كانا يتكلمان بصوت منخفض ، منحنيين قليلاً الواحد نحو الآخر ، وكان انطوان يرى عن قرب ، الشفتين ، والحدين ، وتلك البشرة الصارخة التي أضاف إليها التعب نوعاً من الفتنة . وشعر انه ضعيف ومحموم ، دون مقاومة ضد غرائزه . وبدأت الطفلة بالتحرك في نومها فاقتربا معاً من السرير . وفتحت الصغيرة عينيهما وأطبقتها . وقالت المرأة وهي تأخذ القنديل لتبعده :
- ربما الضوء هو الذي يزعجها .

ثم عادت إلى فراش المريضة لتمسح الجبهة الصغيرة التي يتلألأ عليها العرق . وبما انها كانت منحنية فان انطوان الذي كان يلاحقها بعينه أصيب بصدمة : لقد شاهد تحت قماش المثزر ، كخيال الظل ، جسد المرأة الشابة بوضوح يحدث الاضطراب ، كما لو انها وجدت عارية فجأة امامه . فأمسك نفسه ، واخذ يتطلع ، بشعور احتراق في اعماق عينيه ، إلى النهدي في النور النصفى وهو ينخفض ويرتفع باسترخاء على إيقاع التنفس . ويدا انطوان المتجمدتان فجأة تشنجتا . انه لم يتمن ابداً أية مخلوقة بمثل هذه الفورة المفاجئة .

وهمس احد الناس :

— يا آنسة راشيل .

فنهضت .

— انها ألين التي تريد المجيء إلى جانب الصغيرة .

وكانت تبسم وتبدو انها تتشفع للخادمة . وكان مفتاضاً لمجيء شخص ثالث ، ولكنه لم يجرؤ على الرفض ، وتمت :

— هل اسمك راشيل ! نعم ، نعم : لتدخل .

انه لم يكذب يرى العجوز تركع على حافة السرير . واقترب من احدى النوافذ المفتوحة ؛ كان صدغاه يدويان ، ولم تدخل أية نسمة منعشة من الخارج ، وفوق السطوح ، فإن ظهور بعض البروق البعيدة كان يجعل لون السماء كامداً بين لحظة واخرى ، واحس عندئذ بتعبه ، لقد ظل واقفاً ثلاث أو أربع ساعات متتابة . وبحث عن كرسي ليجلس . وكان بين النوافذ فراشا ولد موضوعان على الطاولة ويؤلفان نوعاً من الأريكة . وهذا يجب أن يكون هو الفراش الطبيعي لبيديت والغرفة يجب أن تكون غرفة ألين . وترك نفسه يسقط على هذا الفراش الخفيف ، واستند ظهره إلى الحائط . ومن جديد كان ذلك كأنه يسلم نفسه دون دفاع لما يشتهي : ان يشاهد مرة اخرى ، في شفافية المنزر ، النطاق الصلب للنهد ، واختلاجه ! ولكن راشيل لم تكن واقفة في النور . وتمت دون أن ينهض :

— ألم تحرك الصغيرة ساقها ؟

فخطت خطوة نحو السرير ، وقد تموج جسدها كله تحت الثوب :

— كلا .

كانت شفتا انطوان قد جفتا ، وكان يشعر دائماً بذلك الاحتراق في داخل العينين . ولم يكن يعرف كيف يجعل راشيل تتقدم إلى أمام القنديل .

— ألا تزال شاحبة ؟

— أقل من الأول .

— ضمي رأسها مستقيماً . أتريدني ؟ مسطحاً ومستقيماً ..

عندئذ دخلت في المنطقة المضاءة . ولكن لم يكن سوى مرورها بين المنطقة الساطعة وانطوان . وكانت هذه اللحظة كافية لتنفلت رغبته من عقاليها من جديد . واضطر إلى اغماض عينيه ، ولسحق ظهره على الحائط ، وظل هناك منضم الاسنان ، بإذلاً جهده ليبقى الجفون مغلقة على رؤياه السرية . ان رائحة المدن الكبرى أثناء الصيف - تلك العفونة المصنوعة من الدخان وروث الدواب ، وغبار الاسفلت - تجعل الهواء غير صالح للتنفس . وكان الذباب يضرب حاجز النور كالكرات ويأتي ليتحركك بوجه انطوان الرطب . ومن وقت لآخر كان الرعد مستمراً يهزيمه على الضاحية .

وشيثاً فشيئاً ، فإن الحرارة والحمى ، وفرط اضطرابه أخذت تقتصر على قواه : فلم يكن يشعر بالمخمود المستحوذ عليه ، وعضلاته ترتخي ، واطمأن كتفاه للجدار . ونام .

وأيقظه من نومه إغراء خاص ، ودون ان يخرج من إغفاء نصفي احس أنه يشعر بشيء لطيف . وظل فترة طويلة في تلك الحالة من الغبطة المبهمة ، قبل أن يميز من أي قسم من جسده ، من أية نقطة من حدوده تسرب ذلك الشعور الفاتر بالرفاهية . من ساقه . لقد وعى في اللحظة ذاتها ان أحداً جاء وجلس بقربه ، وان هذه الحرارة على فخذه صادرة عن جسد حي ، وان هذا الجسد ، وتلك الحرارة ، كانا من راشيل ؛ وان ما شعر به كان في الواقع لذة جسدية تجسدت منذ أن تأكد من مصدرها . لقد اضطرت المرأة الشابة إلى الانزلاق إلى جانبه وهو نائم . وكان له من حضور الذهن ما جعله ألا يقوم بحركة ، واستيقظ . لقد جرى احتكاك الفخذين من خلال الثوبين ، بواسطة مساحة أقل عرضاً من اليد ، حيث كانت كل حساسية انطوان مركزة في تلك اللحظة . وظل لاهثاً ، جامداً ، صاحباً بشكل اعجوبي ، ناهلاً من امتزاج حرارتيهما لذة أكثر إثارة من أكثر القبل امتداداً .

وفجأة استيقظت راشيل ، وشدت ذراعها ، وابتعدت عنه دون سرعة ووقفت . فتظاهر بالاستيقاظ ايضاً لانها تحركت . واعترفت مبتسمة :

— لقد نمت طويلاً .

— وانا أيضاً .

وقالت متأكدة ، رافعة يدها لترتيب شعرها :

— لقد طلع النهار .

وتطلع انطوان في ساعته وقال : تكاد الساعة تبلغ الرابعة ،

وكانت الطفلة مرتاحة ، هادئة تقريباً وألين تضم يديها وتبدو انها تصلي .

واقترب انطوان وكشف السرير . « لا يوجد أية قطرة دم . هذا حسن » .

واخذ معصم الفتاة ، ملاحقاً بعينيه حركات راشيل ، وعدّ مئة وعشر .

وفكر : « كم كان ساقها ساخناً » .

كانت راشيل تتأمل نفسها في شذرة مرآة مثبتة في الحائط بثلاثة مسامير

وتضحك . ويقبعتها من الشعر الأشقر ، وطوقها المفكوك العري ، وذراعيها

المتينين العاريين ، ونظرتها الحرة الجريئة الساخرة نوعاً ، كانت تعيد إلى الأذهان

صورة الثورة الجمهورية « المرسلية » على المناريس .

وتتمت وهي تلم شفتيها : « هاأنا جميلة ! » كانت تعلم جيداً ان صبغتها

وشبابها يحتفظان بزهرتها حتى في لحظة استيقاظها من النوم . وقد قرأت ذلك

بوضوح على قسماط انطوان حين تقدم قريباً منها واخذ ينظر إليها في المرأة .

ولاحظت ان نظرة الرجل هذه لا تبحث عن عينيها ، بل عن شفتيها .

إلا ان انطوان انتبه لنفسه في المرأة فحسر الكين عن ذراعيه المحروقين من

اليود ، والقميص مدعوك ومبقع بالدم . وقال :

— وانا حيث كانوا بانتظاري على العشاء عند باكميل !

فأضاعت ابتسامة فضولية وجه راشيل وقالت :

— ماذا ؟ اتذهب أحياناً إلى باكميل ؟

كانت عيونها تضحك . وشعر انطوان انه مسرور جداً ! لم تكن لديه أية

مغامرة أخرى سوى مغامرات مع نساء ذوي حياة خفيفة . وفجأة بدت له

راشيل أقل بعداً عن رغبته . وقالت :

- انا هابطة إلى بيتي .

والتفتت نحو ألين التي كانت تتفحصها وقالت :

- لو أمكن ان أكون ذات فائدة فلا تترددي في منادائي .

وبدون ان تودع انطوان ، وضعت طرفي مئزرها الواحد على الآخر

وتسللت بخفة .

وما ان خرجت حتى شعر برغبة في الذهاب . وفكر وهو يلقي نظرة من

فوق السطوح نحو السماء الصباحية ؛ « اتنشق الهواء النقي ، ثم أعود إلى البيت

وأوضح لجلك .. وسأعود بعد ان أمرت على المستشفى ، مفتسلاً ، حسن المظهر .

وربما أستطيع ان اطلبها لتساعد في الضياد . أم اخبرها وانا صاعد ؟ ولكني لا

اعلم إذا كانت تسكن وحدها .

واعطى بعض التعليمات لألين في حالة استيقاظ الصغيرة قبل عودته . ثم

ساوره هاجس في لحظة الذهاب . ماذا صار بالسيد شاسل؟ واوضحت الخادمة :

- غرفته تفتح على الدهليز بالقرب من الموقد .

وبالقرب من الموقد باب خزانة في حائط يفتح على ممر طويل وضيق يتسع

بشكل مثلث ، وينيره في الداخل نور سقيم مثقوب في حاجز الدرج . وهناك ،

كان السيد شاسل مرتدياً ثيابه وممدداً على سرير حديدي ، مفتوح الفم ،

يشخر بهدوء . ولاحظ انطوان :

- الأبله ، لقد حشا اذنيه بالقطن جيداً .

وعزم على ان يصبر بضع دقائق آملاً ان يفتح الرجل عينيه . وعلى طول

الجدران صور دينية ملصقة على كروتون ملون ، وكعب دينية هي ايضاً تملأ رفاً

يحمل لوحه الاعلى خريطة نصف الكرة الارضية بين صفين من زجاجات العطر

الفارغة .

وقال انطوان لنفسه : « الحالة شاسل .. عندي ميل مفرط الى الحالات .

انه اكثر بساطة : وجه غير معبر ، حياة ابله . حين اسعى لأنظر فإني أشوه ،

وأجسم . الحيلة . انه كخادمة تولوز .. لماذا هذا التقارب ؟ لأن غرفته

الضيقة يأتيها الهواء من الدرج؟ كلا، بسبب هذه العفونة من صابون الزينة . ما اعجب تسلسل الافكار ! واكتشف انه استحضر في ذهنه ، وبسرور شديد ، مرأى تلك الخادمة في الفندق ، يوم كان لا يزال شاباً ، اثناء رحلة مع والده الى احد المؤتمرات ، وقد ذهب يقضي ليلة في غرفتها الواقعة تحت السقف المنحني . ودفع غالياً في تلك الدقيقة ثمن جسد تلك الفتاة السمين الذي استولى عليه بين الاغطية الخشنة .

وكان السيد شاسل لا يزال يشخر . واقلع انطوان عن الانتظار وبلغ الرواق الموصل الى سطح الدرج .

ولم يكذب يضع رجله على الدرجات حتى تذكر ان راشيل تسكن تحت ؛ وحين صار في المنعطف بحث عن الباب بعينه : لم يكن مغلقاً . انه بابها بالتأكيد . ولا يوجد باب غيره هناك . لماذا كان مفتوحاً ؟

لم يكن لديه وقت للتردد : هبط دون ان يجرؤ على التباطؤ ، ووصل إلى الطابق . كانت راشيل في غرفة الزائرين . والتفتت صدفة حين سمعته يمشي . كانت ناضرة ، وقد اعدت تصفيف شعرها ، وغيرت مئزرها الوردي بكيمونو من الحرير الأبيض . وشعرها الأشقر على قمة ذلك البياض يذكر بلهب شمع . وقال :

– إلى اللقاء يا آنسة .

فأنت نحوه إلى فرجة الباب وقالت :

– اتريد ان تتناول شيئاً قبل ان تذهب يا دكتور ؟ لقد انهيت الآن صنع الشوكولا .

– كلا ، بالحقيقة انا متسخ . إلى اللقاء .

ومد لها يده . فابتسمت نصف ابتسامة ولم تعطه يدها . فكرر :

– إلى اللقاء .

وحين استمرت بالابتسام دون ان تأخذ اليد التي قدمها ، اضاف :

– ألا تريدان ان تعطيني يدك ؟

ورأى ابتسامة المرأة الشابة تختفي، ونظرتها تقسو . ومدت يدها بدورها، ولكنها لم تتح له الوقت ليشد عليها : فقد امسكت بانطوان بقوة وجذبتة بحركة فجائية إلى الدهليز وأغلقت الباب وراءه . ووجدنا نفسيهما واقفين الواحد امام الآخر . لم تكن تبسم ، ومع ذلك فلم تدني شفتيها : ورأى لمعان اسنانها . وغمرته رائحة شعرها . وفكر بالنهد العاري ، وبالساق المحرق . فقرب وجهه بخشونة ، وغمس نظره في عيني راشيل المتسعيتين القريبتين من عينيه ، فلم تتراجع ؛ وما كاد يشعر بانطواء القامة التي احاطها بذراعيه حتى كانت هي التي ألفت فيها على شفتي انطوان . ثم تخلصت يجهد ، وخفضت رأسها وتمتعت وهي تبسم من جديد :

– ليالٍ كهذه تثير الاعصاب .

وشاهد في الداخل ، من الابواب المفتوحة ، سريراً تحت ستائر من الحرير الوردي ؛ وكانت الشمس المشرقة قد جعلت من هذا المهدد البعيد والقريب جداً كاساً واسعاً من الزهر ، مبللاً بالفجر ..

٤

في ذلك الصباح نفسه ، نحو الساعة الحادية عشرة والنصف . جاءت راشيل تطرق باب شاسل . فصاح صوت حاد : أدخل .

كانت السيدة شاسل قد استعادت مكانها في النافذة المفتوحة في غرفة الطعام ، وكان نصفها الأعلى مستقيماً ، وقدمها على كرسي صغير ، واليدان غير مشغولتين كما هو الامر دائماً . وكانت تقول احياناً : « انا خجلة لعدم قيامي بأي عمل . ولكن هناك عهد لا يستطيع المرء فيه ان يقتل نفسه في سبيل الآخرين » وسألت راشيل :

– كيف حال الصغيرة ؟

– لقد استيقظت ، وشربت ، ثم عادت إلى النوم .

- أليس السيد جول هنا ؟

فاجابت مدام شاسل ، هازة كتفيها ، بتعبير مستسلم :

- كلا ، لقد ذهب .

فشمرت راشيل بخيبة أمل . وتابعت المعجوز بحزن :

- لقد كان طوال الصباح كالبعوضة . آه ! نهار الاحد يوم جهنمي لأولئك

الذين عندهم رجال . كنت اعتقد ان هذا الحادث سيجعله على شيء من اللياقة

معنا . نعم ! إلا انه في هذا الصباح كان يفكر بشيء آخر . والله اعلم بماذا !

كان له ذلك الانف الممتد الذي أعرفه جيداً منذ اكثر من خمسين سنة ، وقد

احتملته . لقد ذهب لحضور القداس الكبير قبل الوقت بأكثر من ساعة . اتعتقدين

ان هذا طبيعي ؟ ولم يعد حتى الآن . انظري . - قالت ذلك حين كانت شفتاها

تنقبضان - ها هو . حين يتكلم المرء عن المصيبة .. أرجوك يا جول . - قالت

ذلك وهي تمد عنقها نحو ولدها الذي كان داخل على رؤوس أصابعه - لا تغلق

الباب هكذا . لا لأجل مرضي القلبي فقط ؛ هذه المرة ، لأجل ديديت التي

توت من ذلك .

لم يحاول السيد شاسل ان يبرىء نفسه . وقد بدا ذاهلاً مهموماً . واقترحت

راشيل :

- تعال وانظر الصغيرة .

وحين اصبحا أمام سرير الطفلة النائمة قالت :

- هل تعرف هذا الدكتور تيبو منذ زمن طويل ؟

فقال شاسل : ماذا ؟

واتخذت عينه تعبير ذعر ؛ ولكنه ابتسم بهيئة حاذقة وردد : « ماذا ؟ »

على نسق الصدى ، وصمت . ثم ، كشخص عزم على القيام باعتراف ، التفت

نحوها وقال :

- اسمعي يا آنسة راشيل . لقد كنت كثيرة الطيبة حيال ديديت ، واني

اطلب منك خدمة صغيرة . لقد ضربت بكل هذا بحيث لم يكن عقلي معي دون

ثلك هذا الصباح : من باب اللياقة يجب أن أعود . وحالاً . ولكن من المؤلم جداً
المثول مرة أخرى أمام تلك الكوة وحدي ! - وقال متوسلاً : - لا تقولي كلا .
اني أتعهد لك كرجل فاضل يا آنسة راشيل بأن هذا لن يدوم أكثر من عشرين دقائق .
فرضيت وهي تبتسم دون أن تفهم عم يتكلم ، مستعدة للتسلية بفراغات
الرجل الساذج ، وراغبة أيضاً في اغتنام فرصة وجودها معه لتسأله عن انطوان .
ولكن طول الطريق لم يبد انه يسمع اسئلتها ولم يفتح أسنانه .
وكانت الساعة قد دقت الظهر منذ وقت طويل حين وصلا إلى مخفر الشرطة .
وكان المفوض قد ذهب . وبدأ السيد شاسل والهاً بحيث أن المستخدم اغتاض بلا
داعٍ وقال :

- ما دمت أنا هنا فكأن المفوض موجود . ماذا تريد :

فألقي عليه السيد شاسل نظرة خائفة ، ولم يحسروا على الانسحاب وبدأ
الايضاحات :

- هذا لانني فكرت بكل ذلك . لدي أشياء أريد اضافتها إلى تصريحى .
- أي تصريح ؟
- لقد أتيت هذا الصباح ، وتحدثت من تلك الكوة تحت .
- اسمك ؟ أنا ذاهب للبحث عن الملف .
واقتربت راشيل قلقلة . وعاد المستخدم على الأثر ، وبيده ورقة ، وتفحص
الرجل من القدمين إلى الرأس :

- شاسل ؟ جول - اوغست ؟ أهذا أنت ؟ ما الأمر ؟
- حسناً . اني أخشى ان يكون السيد المفوض لم يفهم جيداً أين وجدت النقود .
فقال الآخر متطلعاً بالورقة : شارع ريفولي .
فابتسم السيد شاسل كأنه ربح رهاناً :

- أرايت ! كلا ، ليس الأمر كذلك تماماً . لقد عدت من هناك . وفي مكان
الحادث تذكرت تفاصيل يمكن ان يكون تسجيلها مفيداً ، لكي أكون رجلاً
فاضلاً . - وسعل في يده وتابع : - وبالأجمال ، لا أجرؤ على التأكيد ان ذلك

كان في الشارع. بل بالاحرى كان في التويلري . نعم . كنت في الحديقة ، أتعلمهم ؟
و كنت أيضاً جالساً على مقعد حجري هو الثاني بعد كوخ الصحف ذهاباً من
الكونكوردي إلى اللوفر . كنت هنال ، جالساً ومعي عصاي . وستكتشف بعد
قليل لماذا ألحّ على هذه النقطة . رأيت سيداً وزوجته يمران أمامي ، وولداً
يتبعهما من وراء . كانا يتحدثان . حتى انني فكرت : « هذان اثنان عرفا أن
يكونا عائلة ، وولداً . الخ .. » ها أنت ترى اني أقول كل شيء لك . عندئذ
سقط الولد في اللحظة التي مر فيها أمام مقعدي . وصرخ . ولم تكن سرعة الزلل
من عادتي ، فلم أتحرك . وأسرعت الام . وعندئذ ، أمامي ، على قدمي
تقريباً - ليست غلطي أليس كذلك ؟ - ها هي تركع بقرب الولد .
ولكي تمسح له وجهه سحبت من كيس صغير للسيدات كان في يدها منديلاً ،
أو لا أدري ماذا ، أما أنا فظلت جالساً . حسناً - وتابع رافعاً بنصره : -
وحين ذهبوا . وقد كنت جالساً ألعب بعصاي ، بطرف عصاي في الرمل ،
شاهدت النقود فجأة . لقد تذكرت كل ذلك فيما بعد . وكنت دائماً ما يسمونه
رجلاً متحسباً . وتستطيع الآنسة أن تقول لك . اثنان وخمسون عاماً ليس
فيها ما ألام عليه . وهذا له قيمته . إذن ليس المقصود قول هذا أو ذاك . أما
أنا فقد توصلت إلى الظن انه ربما كانت السيدة وكيسها الصغير ضالعين في قصة
النقود هذه : وأقولها بنزاهة .

وسألت راشيل :

- ألم تستطع الركض وراءها ..

- كانا بعيدين جداً .

ورفع المستخدم انفه عما يكتبه :

- اتمكن من على الأقل اعطاء اوصافها ؟

- السيد ، لا أدري . اما المرأة فكانت بلباس داكنة ؛ في الثلاثين من سنّها

تقريباً . وكان مع الطفل قاطرة . نعم . هنا انا متأكد من هذه النقطة . قاطرة

صغيرة . اخيراً أقول صغيرة : اريد ان أقول كبيرة هكذا . وكان يحركها .

اتكسب كل شيء جيداً ؟

— كن مطمئناً . هل انتهيت ؟

— نعم .

— أشكرك .

وكانت راشيل قد بلغت الباب . ولكن السيد شاسل ، بدلاً من ان يتبعها ، أسند مرفقيه الى اللوحة وحذى رأسه نحو الكرة ، وتتم وقد اصبح قرمزي اللون : — نقطة اخرى ايضاً . من الممكن انني ارتكبت خطأ خفيفاً هذا الصباح وانا اضع النقود . نعم . — وتوقف ليحفف جبهته — اعتقد جيداً انني اعدت ورقتين نقديتين . اليس كذلك ؟ ورقتان بخمسية فرنك ؟ اجل ، اجل ، الآن انا متأكد . انه خطأ من ناحيتي ، أو بالاحرى اهمال . لأن .. ما وجدته .. لم يكن هكذا : كان ورقة واحدة .. ورقة بألف فرنك . اتفهم ؟ — وكان يسمح بالعرق ، وجفف جبهته من جديد — سجل هذا ما دمت فكرت به ؛ مع ان الأمر يظل هو نفسه .

فأجاب المستخدم :

— هذا لا يظل هو نفسه ابداً وأعتقد ان هذا هام ! فالسيد الذي اضاع ورقة بألف فرنك يستطيع ان يأتي الى هنا مرة مرة متتابعة ولن يُعطى قطعناك بخمسية . يالها من قصة !

واخذ يقيس السيد شاسل بنظرة مستاءة :

— اممك تذكره هوية ؟

فبحث السيد شاسل في جيوبه : كلا .

فقال الآخر :

— هذا لا يكفي ، انا آسف . ولكني لا استطيع ان اتركك تذهب هكذا .

سيرافقك شرطي حتى بيتك : وسيشهد بوابك ان الاسماء والمساكن ليست مفترضة مسبقاً .

وبدا السيد شاسل انه غير مبال بشيء . وكان دائماً يحفف عرقه ، ولكن

وجهه كان قد عاد الى طلاقته ، مبتسماً تقريباً . وقال بأدب :
- بخدمتك .

وذهبت راشيل وهي منفجرة بالضحك . ورفع السيد شاسل اليها نظراً مليئاً بالكآبة ؛ ثم عزم بعد تفكير على التقدم خطوة نحوها وقال بشيء من التلعثم :
- احياناً يا آنسة راشيل يوجد تحت سترة رجل بسيط مجهول قلب أكثر نبلاً - نعم اقول أكثر نبلاً ، واريد ان اقول ايضاً أكثر نزاهة - مما هو موجود تحت قبعة عالية لهذا او ذاك من ذوي الاعتبار والمثقلين بالشرف ايضاً .
وارتجف اسفل وجهه ، وأسف حالاً على حديثه وأضاف ، متطلعاً دون أي خجل ، بالشرطي الذي كان داخلاً :

- لا اقول ذلك لأجلك يا آنسة راشيل ولا لأجلك يا سيدي الشرطي .
وتركت راشيل السيد شاسل والشرطي يتفاهمان في المنزل وصعدت إلى بيتها .

كان انطوان ينتظر على سطح الدرج . ولم تفكر انها ستجده هنا ، وحين شاهده شمرت بسرور شديد جعلها تخفض جفونها لحظة ، ولكن كاد لا يظهر على وجهها . وقال معترفاً :

- رننت الجرس ، ورننت . وكنت يائساً .

ونظرا إلى بعضهما البعض بمرح وبابتسامة مشتركة . وسأل وهو منتشٍ لانه رآها كثيرة الاناقة في ذلك الثوب من القماش الفاتح وتحت تلك القبعة المزهوة .
- ماذا فعلت هذا الصباح ؟

- هذا الصباح ؟ ولكن مضت الساعة الواحدة ولم اتناول غدائي .

- ولا أنا ايضاً .

فقرر فجأة :

- اتريدين ألهيء لتتغدي معي ؟ اتريدين ؟ نعم ؟

فابتسمت وقد استولت عليها تلك الهيئة التي تشبه هيئة ولد جشع لا يعرف ان يخفي رغباته .

— قولي نعم .

— حسناً ، نعم .

فقال وقد تعدد صدره : آه !

وتابعت وهي تفتح الباب :

— الوقت الذي اخبر به مدبرة البيت وارسالها إلى بيتها .

وظل وحيداً ، دقيقة ، على مدخل الدهليز . واستمعاد الاحساسات التي
شعر بها في الصباح حين تقدمت نحوه . وفكر : « كيف اعطيتني فمها » . وكان
متأثراً بحيث استند بقبضتيه إلى الجدار .

وعادت راشيل وقالت : « هيا » . وأضافت بابتسامة حيوانية تبدو كأنها
تنادي اللذة :

— انا جائعة .

واقترح بحماسة : اتفضلين الخروج وحدك ، ثم ألحق بك في الشارع ؟
فالتفتت ضاحكة :

— انا ؟ انا حرة تماماً ، ولا اختبئ من شيء ابداً .

وسارا في شارع ريفولي . ولاحظ انطوان من جديد سهولة خطواتها الابقاعية
التي تظهرها كأنها ترقص منذ ان تنتقل من مكانها . وسأل :

— إلى اين نذهب ؟

فأشارت بطرف مظلتها إلى مطعم للحي في زاوية الشارع وقالت :

— وإذا دخلنا بكل بساطة إلى هنا ؟ فالوقت متأخر .

لم يكن يوجد أحد في (الانترسول) . وكانت الطاولات الصغيرة مصفوفة
على طول نوافذ بشكل نصف دائرة تطل على القناطر ، وتثير القاعة المنخفضة
بشكل غير منتظر ، لانها مفتوحة على محاذاة الارض . وكانت الحرارة معتدلة ،
والظل ثابت . وجلسا ، الواحد قبالة الآخر ، بنظرات طفلين يريدان اللعب .
ولاحظ فجأة :

— اني لا أعرف حتى اسمك .

- راشيل غوبفير . ست وعشرون سنة . بيضوية الذقن ، متوسطة الانف ..
- وكل اسنانها ؟
- سترى .
- هتفت بذلك وهي تنقضّ على صحن مقائق .
- احذري . ربما كان بالثوم .
- فأجابت : لا يهم . أحب ان أفعل كالرعاع .
- غوبفير : ان القليل الذي بقي عند انطوان من تربته قد ظهر لدى تفكيره
- انها ربما كانت اسرائيلية : وهذا كاف ليتبل المغامرة بفيلفل الاستقلال والغربة
- وصرحت بدون فخر ، كما لو انها أدركت افكار الشاب :
- كان ابي يهودياً .
- وجاءت خادمة بأكام بائنة زبدة تحمل لائحة الطعام . فاقترح انطوان :
- شواء خليط .
- واستضاء وجه راشيل بابتسامة غريبة جداً بحيث بدا ظاهراً انها لا
- تستطيع ردعها .
- لماذا تضحكين ؟ انها اكلة ممتازة . وفيها كثير من الاشياء الطيبة مشوية
- معاً ، كالكلبي ، ولحم الخنزير المقدد ، والمقائقي ، والاضلاع ..
- .. مع الجرجير والتفاح المنفوخ بالطبخ .
- وقالت : أعلم ، أريد ذلك بطيبة خاطر .
- والبهجة التي توصلت إلى كبعها بدت انها لا تزال تتأجج في نظرتها اللغزية .
- اتشريين ؟
- جمعة .
- وانا ايضاً ، باردة .
- وكان يتأملها بينما كانت تقضم أوراق خرشوف نيئة . وقالت معترفة :
- احب كل ما هو بالحلل .
- وانا ايضاً .

كان يريد ان يجعل نفسه شبيهاً لها . وكان يملك نفسه من ان يقاطعها لدى كل كلمة ليهتف : « هذا مثلي ! » وكل ما كانت تقوله ، وما تفعله كان يطابق ما ينتظره منها . وكانت ترتدي تماماً كما كان يتمنى ان ترتدي امرأة . وتحمل في عنقها عقداً من العنبر القديم ، حيث حباته الكبيرة ، شبه الشفاقة والمستطيلة تبعث على التفكير بالاثار ، بعنق مألقة الضخم ، بالخوخ الصغير الاصفر المنتفخ من الشمس . وكان لبشرتها تحت العنبر سطوع حلبي مقلسق . وشعر انطوان أمامها انه شبيه بكائن جائع ، لا يتوصل شيء ابدأ إلى اشباع جوعه الشديد . وفكر من جديد ، مع تدفق الدم إلى القلب : « كيف اعطيتني فمها .. » وكانت هناك ، أمامه ، هي نفسها .. كانت تبسم .

ووضع على الطاولة قدحان كبيران من الجمعة المزبدة . وكانا يتمتعان بنفس فراغ الصبر لتذوقها . واخذ انطوان يلهو بالشرب مع راشيل في الوقت نفسه دون ان يحول عينيه عنها . وحين شعر بالجرعة القارصة الصابونية تبلل لسانه وتبرده في نفس اللحظة التي اسالت راشيل فيها على لسانها نفس المائع المثلوج ، كان ذلك كما لو ان فمها امتزجا مرة اخرى . وظل متخدرأ لحظة قبل ان يسمع صوتها . فقد كانت تقول :

– .. انها تعاملانه كخادم لها .

فملك نفسه وقال :

– من هذا ؟ هما ؟

.. – الام والخادمة . (فأدرك ان راشيل تتحدث عن ساشل) . والمعجوز

لا تدعو ولدها ابدأ بغير اسم داديه !

– أعترف بأن هذا يليق به .

– ما ان يدخل حتى تصفعه . وفي الصباح هو الذي ينظف الوحل عن

احذبتها على سطح الدرج ، وحتى حذاء الصغيرة .

وقال انطوان لاهياً : السيد ساشل ؟

لقد شاهد الرجل الساذج يكتب ما يليه السيد تيبو ، أو يستقبل مكان

معلمه زميلاً في العلوم الاخلاقية .

- وهما متفاهمتان على سلبه ! وتسيران إلى درجة سرقة نقوده من جيبه بحجة تنظيف الظهر بالفرشاة حين يريد الخروج . وفي السنة الماضية وقمت المعجوز على مبلغ ثلاثة أو اربعة آلاف فرنك على سندات ، مقددة توقيع ولدها حتى ظن ان السيد جول سيقع مريضاً .
- وماذا فعل ؟

- دفع كل شيء طبعاً . في مدى ستة أشهر ، وبمبالغ صغيرة ، ولم يستطع ان يشكو امه .

- نحن الذين نراه كل يوم لم نكن نرتاب بشيء من هذا .

- ألم تأت ابدأ إلى عندهم ؟

- ابدأ .

- ان بيتهم الآن مفروش بأسوأ من فرش الفقراء . ولكن كان يجب رؤية داخليتهم الصغيرة منذ سنتين في هذا المنزل المبلط ذي الخشبيات والخزائن في الجدران لتظن نفسك في عصر فولتير - اتعرف ذلك؟ مفروشات مغطاة بصفائح رقيقة ثينة ، ولوحات للعائلة ، وحتى فضيات قديمة .
- وماذا اجري ؟

- كل هذا باعته المراتان خفية . وذات مساء عاد السيد جول : مكعب من طراز لويس السادس عشر قد ذهب . وفي يوم آخر كان دور المطرقات والفرش ، والكراسي الواسعة ذات الوسائد ، والمنتبه ، والتحف الصغيرة . حتى صورة الجد ، وهو شاب جميل باللباس الرسمي مع قلنسوة مثلثة القرون تحت ذراعه وخريطة منشورة امامه .

- نبلاء سيف ؟

- تقريباً . فقد خدم في اميركا تحت امرة لافاييت .

ولاحظ انها ثرثرة ، ولكنها تروي بطريقة لا بأس بها والتفاصيل التي اعطتها كانت ذات لون . انها ذكية . وتشغل عقلها ، ولها طريقة في الملاحظة والالتقاط

رأى انها ذات قيمة . وقال .

- انه لا يشكو في البيت ابداً .

- اوه ، انا شاهدته في اغلب الاحيان حين كان يلجأ في المساء الى الدرج ليبيكي .

فنهتف : هذا لا يُصدق .

لقى هذا التعجب مع نظرة وابسامة حيتين بحيث انقطعت عن التفكير بما

كانت ترويه ، ولكي لا تفكر الابه . وسأل :

- هل هم في حالة بؤس ؟

- بالتأكيد كلا ! جميع هذه الاموال جعلت المرأتان منها مالمأ مطموراً

خبأناه ، ولا تحرمان نفسيهما من شيء ، وأؤكد لك ؛ الا انها تتشاجران معه

حين يشترى لنفسه كرات من الكوم ! آه ! لو قصصت عليك كل ما اعرفه عن

هذا البيت ! فقد ارادت الين . . احزر ! ان يتزوجها السيد جول ! لا تضحك ،

كان يلزمها القليل : فقد كانت على اتفاق مع المعجوز . ومن حسن الحظ انها

تشاجرتا في احد الايام .

- وشاسل ! هل كان يريد ذلك ؟

- اوه ! كان سينتهي بالقبول بسبب ديديت . انها كل حبه . وحين تريدان

الحصول على شيء منه تهددانه بارسال الصغيرة الى السافوى ، الى بلاد ألين ؛

عندئذ يبكي ويعد بكل ما تريدان .

لم يكن يسمع ابداً ما تقوله راشيل : كان يرى تحرك ذلك الفم الذي

قبله : فم مرسوم جيداً ، مكنتز في الوسط ، ودقيق في طرفيه كالخزّة ؛ وعند

الاستراحة تكاد زاويتا الشفاه لا ترتفعان في نصف ابسامة معلقة لم تكن ساخرة ،

بل هادئة ، مرحة .

كان يفكر قليلاً جداً بهذا المسكين شاسل ، بحيث صرح بصوت منخفض :

- انا رجل سعيد ، كما تعلمين .

ثم احمر وجهه .

وانفجرت ضاحكة . فبعد ان قاست قيمة هذا الرجل جيداً ، البارحة ،

امام طاولة العمليات ، كانت منتشية من هذه الناحية الصبيانية التي اكتشفتها ،
والتي كانت تقربه منها . وسألت :

- منذ متى ؟

فكذب قليلا وقال : منذ هذا الصباح .

ومع ذلك فقد كان هذا صحيحا . وتذكر الشعور الذي احس به وهو
خارج من عند راشيل ، مندفعاً في الشارع المشمس . لم يشعر ابداً قبل ذلك
انه كان على خير حال كهذه المرة . وتذكر امام الجسر الملكي انه القى نفسه
في الازدحام بدم بارد غير عادي ، وانه قال وهو داخل بين العربات : « كم انا
واثق من نفسي » ، كم انا سيد قواي في هذه اللحظة ! وهناك اناس ينكرون
حرية الارادة ! ، وقال :

- دعيني اخدمك . هذا الفطر المشوي ؟

- بكل سرور (١) .

- أتكلمين الانكليزية ؟

- بالتأكيد . « لقد رؤيت أشياء أكثر غرابة (٢) » .

- والاطالية أيضاً ؟ والالمانية ؟

- ولكن ليس بصورة جيدة (٣) .

ففكر لحظة وقال : هل سافرت ؟

فلكت نفسها عن الابتسام : قليلا .

وبحث عن نظرتها ، فقد بدت له نبرتها كنبرة العرافات ، وقابع :

- ماذا كنت أقول ؟

قليلا ما كان الكلام يهم : فقد شعرا بتبادل لا ينقطع قد حدث بينها بواسطة

١ - بالانكليزية في الاصل .

٢ - بالاطالية في الاصل .

٣ - بالالمانية في الاصل .

نظراتها وابتساماتها ، وبصوتيهما ، وبأقل حركة من حركاتها .
وقالت وهي تتفحصه فجأة :

- كم انت مختلف عن رأيته تلك الليلة .

فقال رافعاً يديه اللتين لا تزالان صفراوين من اليود :

- اقسام لك انه هو نفسه . مع ذلك لا أستطيع ان امثل دور طبيب كبير
حين لا يكون هناك سوى ضلع واحد اجرّد عظامه .

- لقد كان لدي الوقت الكافي لأنظر إليك جيداً ، أعلم ..
- وبعد ؟

فصمت . وتابع :

- هل هي المرة الاولى التي تحضرين فيها اجتماعاً من هذا النوع :
فنظرت إليه ولم تجب حالاً ، واخذت تضحك :
- أنا ؟

قالت ذلك بنبرة تبدو انها تقول : « لقد رأيت كثيراً غيره » ولكنها قطعت
تفكيرها وقالت :

- أتعوم بعمليات كبيرة كهذه في جميع الأيام ؟

- أبدأ ، اني لا أزاول الجراحة ، أنا طبيب ، اختصاصي بالاطفال .

- لماذا لم تكن جراحاً ؟ رجل مثلك ..

- يجب ان تؤكد اني لم أكن أميل إلى الجراحة .

فتأوهت قائلة : كم هذا مؤسف !

وكانت وقفة قصيرة . ان ما قالته أيقظ فيه صدى من الكتابة . وقال
بصوت مرتفع :

- باه ! طبيب ، جراح .. كثيراً ما تتكون أفكار خاطئة حول الميل .

يعتقد المرء دائماً انه اختار . انها الظروف .. (لقد رأت على قسبته معاودة
ظهور ذلك القناع الرجولي الذي أغواها جداً البارحة عند سرير الطفلة) . ما
فائدة إعادة البحث بشيء قد تم ؟ الطريقة التي يأخذها المرء هي دائماً الفضلى

بشروط ان تسمح بالسير قدماً .

وفكر فجأة بتلك المخلوقة الجميلة الجالسة قبالة ، وفكر بالمركز الذي احتلته في حياته منذ ساعات ، وقال لنفسه بقلق مباغت : « نعم ، ولكن قبل كل شيء ، ان لا يمنعني هذا من العمل والوصول .. » . ولاحظت ذلك الظل الذي مر على جبهته وقالت :

- يجب ان تكون عنيداً بشكل مخيف .

فابتسم وقال :

- ألا تسخرين مني ؟ لقد اتخذت شعاراً منذ وقت طويل كلمة لاتينية تعني :

سأقال ! وقد طبعتها على أوراق رسائي ، وكتبتها على الورقة الحافظة لكتبي .

- وسحب سلسلة ساعته - وحفرتها ايضاً على خاتم قديم لا ازال احمله .

واخذت الحلية المعلقة في طرف سلسلته ، وقالت :

- انها بديعة .

- صحيح ؟ أأعجبتك ؟

ففهمت مراده واعادتها اليه ، قائلة : كلا .

عندئذ انتزع الحلية من السلسلة وقال :

- أرجوك .

- انت مجنون .

- راميل . ذكرى لـ ..

- لماذا ؟

- لكل شيء .

فرددت « لكل شيء » دون ان تكف عن التطلع إلى وجهه وهي تضحك

ضحكة صريحة .

آه ! كم كانت تعجبه في تلك اللحظة ، وكم كان يحب تلك الابتسامة الحرة

كابتسامة الغلام تقريباً ! كانت تختلف كثيراً عن المحترفات اللواتي عرفهن وعن

الفتيات والنساء الشابات اللواتي سنحت له الفرصة ان يلتقي بهن في الدنيا أو

في الفنادق أثناء العطل المدرسية ، واللواتي كن ينجلنهن دون ان يجتذبنه . وراشيل لم تكن تمجعه . كانت على نفس المخطط مثله . وكانت ذات فتنة وثنية ، وقليل من تلك البساطة الموجودة لدى الفتيات اللواتي يحبن مهنتهن ؛ ولكنها تملك ذلك السحر دون ايهام أو إبتذال . لكم تمجبه ! فهو لا يجد فقط فيها رقيقة لا مثيل لها . فللمرة الاولى في حياته أخذ يفكر بالحصول على رقيقة ، على صديقة .

وكانت هذه الفكرة تلازمه منذ الصباح . وجهاز تنظيمياً لحياة جديدة تكون لراشيل حصتها فيها ولكن رضا صاحبة العلاقة وحده كان لا يزال ينقص المعقد . وكذلك ، بفراغ صبر طفولي ، كان يحترق ليأخذ يديها ويقول لها : « انت التي كنت انتظرها . اريد ان اقلع عن غراميات الصدفة . ولكني اخشى ما هو غير اكيد . لننظم بقية علاقاتنا . ستكونين عشيقتي . لنرتب انفسنا » . في عدة مناسبات كان يفصح عما يشغل باله ويحازف بكلمة تحاول ان تلزم المستقبل . ولكنها لم تبد أبداً انها فهمت ؛ وادرك وجود تحفظ عندها جعله يتردد في في كشف مخططاته .

وقالت وهي تقضم عنقوداً من الكشمش المثلج صبغ شفتيها بالحمرة القانية .

- ألسنا على خير حال هنا ؟

- نعم . يوجد في باريس كل شيء ، حتى الريف .

وأضاف مشيراً إلى الغرفة الفارغة .

- وليس هناك لقاءات يخشى منها .

- أيقظك ان تترى معي ؟

- اني أقول ذلك لأجلك .

فهزت كفيها .

- لماذا ؟

كانت تسر لشعورها كم تشغل باله ؛ ولم تتعجل لتستوضح أكثر من ذلك . إلا انه كان يستجوبها بنظره وبكثير من القلق الخفي ، بحيث انتهت إلى القول :
- اكرر لك انه ليس علي ان اقدم حساباً لأحد . لدي ما اعيش منه ،

بشواضع ، وأكون مسرورة . أنا حرة .

فتمدد وجه انطوان المتشنج بسذاجة . وادركت أن هذا يعني : « أنا ملك لك إذا أردت » . لو كان ذلك مع أي رجل آخر غيره لتمردت ، ولكنه كان يعجبها ؛ وكانت تشعر أيضاً بكثير من اللذة لشعورها انها مشتتة أكثر من الانزعاج لرؤيته كم كان مخدوعاً بها .

وجيء بالقهوة . وصمتت ، وأخذت تفكر . وهي نفسها لم تكن دون أن تتفحص احتمال حدوث علاقة ما دامت فاجأت نفسها منذ قليل وهي تفكر : « سأجعله يحلق هذه اللحية » . ومع ذلك فهي لم تكن تعرفه . وهذا الميل الذي تشعر به اليوم نحوه كانت قد شعرت به في الماضي نحو آخرين . يجب ألا يفلط ويستمر في النظر إليها ، كما يفعل في تلك اللحظة ، بكثير من الاطمئنان والشراسة .

- سيكارة ؟

- كلا ، معي هنا ، اخف من ذلك .

وقدم لها لخب عود ثقاب ؛ وسحبت نفساً غلفها دخانه .

- شكراً .

من المؤكد أن من المهم تجنب سوء التفاهم منذ البدء . وكانت تستطيع السماح لنفسها بالصراحة حيث تشعر انها لا تتعرض لأي خطر . وقدمت فنجانها قليلاً ، ووضعت مرفقيها على السباط وذقنها على اصابعها المشبكة . وجفونها المغضنة من الدخان كانت تغطي نظرها تغطية كاملة تقريباً . وقالت :

- اقول اني حرة ، ولم اقل انني بمتناول اليد . افهمت ؟

فاستعاد هيئته المشؤومة . وتابع :

- اعترف لك ان الحياة عجننتي جدياً . وحريق لم تكن دائماً معي . منذ سنتين لم اكن املكها . واليوم املكها ، وأتمسك بها . (كانت تمتد نفسها صادقة) . اني اتمسك بها بنوع اني لا ارضى بأن اتخلى عنها مقابل اي شيء في العالم . افهمت ؟

- نعم .

وساد صحت . كان يتفحصها . وكانت تبتسم قليلا دون ان تنظر اليه
مديرة ملمقتها في فنجانها .

- ومع ذلك فاني اقول لك ببساطة بان ليس لدي شيء مما يلزم لأكون
صديقة مخلصه ، وعشيقه مرتاحة . احب ان اتخلى عن كل نزواتي . كلها . ولأجل
ذلك يجب ان اكون حرة . اريد ان ابقى حرة . افهمت ؟
وجرعت قهوتها متملة ، بجرعات صغيرة ، وهي تحترق .

واصاب انطوان دقيقة يأس . فقد انهار كل شيء . ومع ذلك فهي لا تزال
هنا ، امامه ؛ ولم يضع شيء . لم يكن يعرف ان يقلع عما يريد به بشدة ؛ ولم
يكن الاخفاق من عاداته . وعلى كل فقد كانت الوضعية صريحة ؛ وهذا افضل
من التعمية ؛ انك تستطيع العمل اذا كانت معلوماتك متوفرة . وفكرة رفضها
مشاريعه في المشاركة لم تبد ممكنة له ولا لحظة . لقد كان هكذا : واثق دائما
من بلوغ الهدف .

اما ما كان يلزمه فهو ان يفهمها بصورة افضل ، ويمزق ذلك القناع الذي لا
يزال يحيط بها . وتتم بنبرة استفهامية بحثة ؟

- منذ سنتين لم تكوني حرة . فهل انت حقيقة حرة الى الابد ؟

فتأملت راشيل كما تتأمل ولدآ . ثم تحولت نظرتها الى سخرية . وبدأت انها
تقول : « اريد ان اجيبك ولكن لأنني اريد ذلك » . وقالت موضحة :
- الرجل الذي كنت اعيش معه كان مقيماً في السودان المصري . ولم يظهر
ابداً في فرنسا .

وأنت عبارتها بضحكة صغيرة صامتة ، وخبأت نظرها ثم قطعت حديثها
ونفضت قائلة : لنذهب .

وفي الخارج استعادت طريق شارع الجزائر . وكان انطوان يرافقها صامتاً ؛
وكان يتساءل عما يفعل ؛ ولم يكن يستطيع ان يقرر تركها .
وجاءت راشيل لمساعدته حين وصلا امام الباب ، واقتрحت :
- اتصعد لرؤية ديديت ؟

ثم اضافت دون ان تحرك ساكناً :

- ولكنني اقول هذا . فهل انت مشغول في الخارج ؟

وبالفعل ، فان انطوان كان قد وعد بالعودة الى مريضه الصغير في باسي ، وكان عليه ايضاً ان يمد قراءة مسودة تقرير أوصلها رئيسه اليه هذا الصباح الى المستشفى ، متوسلاً اليه ان يتحقق من الاسانيد . ويريد على الخصوص الذهاب لتناول العشاء في ميزون - لافيت حيث كانوا ينتظرونه ، وحيث كان عازماً عزمياً اكيداً على ان لا يصل متأخراً وذلك ليتحدث قليلاً مع جاك . ولكن لم يبق شيء من كل هذا منذ اللحظة التي توقع فيها امكان اتباع راشيل . وقال مؤكداً ، ومنتحياً ليدعها تمر :

- انا حر طول النهار .

لم تكذب تلامسه فكرة العمل الذي تخلى عنه ، ولا اي اضطراب في الطريقة التي يتصرف بموجبها . لا يهم . (كان تقريباً على وشك ان يفكر : احسن) . وصعدا الدرج دون ان يقولوا كلمة .

ووصلت الى بيتها ، فوضعت مفتاحها في القفل والتفتت . كانت الرغبة تنفجر في وجهها : رغبة دون حيل او تسر ، ورغبة طليقة ، مسرورة ، لا تقاوم .

٥

منذ ان عاد جاك راكضاً من عند باكيل علم من حارسة المنزل ان هناك من جاء يبعث عن السيد انطوان بسبب حادث ، فتبدد رغبه الوهمي دفعة واحدة : ولكنه ظل مفتعلاً لظنه ان تمنى ملابس الحداد يمكن ان يكفي لإحداث موت اخيه . واختفاء زجاجة اليود التي كان بحاجة اليها لأجل بثوره زاد من هياج اعصابه ، فخلع ملابسه في هذه الحالة من الحقد غير الواضح الذي كان معتاداً عليه والذي كان مؤلماً بالنسبة اليه لأنه كان خجلاً بسببه . وظل طويلاً دون ان ينام . ان نجاحه لم يأت به باي سرور .

وفي صباح الغد التقى انطوان بجاك تحت الباب الكبير ، في اللحظة التي عزم

ففيها على الذهاب الى ميزون - لافيت دون ان يشاهد احدهما الآخر . وببضع كلمات اخبره انطوان بما حدث مساء البارحة ؛ ولكنه لم ينبس بكلمة عن راشيل . وكانت عينه متوقدة وعلى وجهه الشاحب تعبير حربي عزاء اخوه الى صعوبات العملية .

كانت الاجراس تقرر بشدة حين وضع جاك رجله خارج محطة ميزون - لافيت . ولم يكن هناك شيء يتعجله ؛ فلا السيد تيبو ولا المدموازيل دي ويز ولا جيزيل يفوتهم القداس الكبير : اذن كان لدى جاك وقت ليقوم بدورة قبل العودة الى الدارة . وكانت ظلال الحديقة الفاترة تدعو الى التجول الكسول . وكانت الجادات مقفرة فجلس على مقعد . ولم يكن يسمع سوى صوت دبيب الحشرات في العشب والطيوان المباحث للمصافير الجواثم التي كانت تترك الشجرة واحداً اتر واحد فوقه . وظل جامداً ، وعلى شفثيه ابتسامة ، غير مفكر بشيء معين ، سعيد لوجوده هنا .

ان املاك ميزون القديمة المحاذية لغابة سان جرمان دي لاي كان قد اشتراها ، في عهد عودة الملكية ، لافيت الذي وضع مساحة الحديقة البالغة خمسية هكتار قيد التقسيم لكي لا يحتفظ بسوى القصر ، ولكن الرجل المالي اتخذ احتياطات لكي لا تسبب هذه التجزئة اي اذى للنناظر الرائعة المرتبة حول مسكنه ولكي يصبح استئصال الغايات لا غنى عنه . اذن فقد بقي ميزون بفضل حديقة واسعة سيادية حيث ممرات اشجار الزيزفون البالغ عمرها مئتا سنة تؤمن الاتصال بمستعمرة من الاملاك الصغيرة ، دون جدران فاصلة ، وغير منظورة تقريباً من خلال الخضرة .

وكانت دارة السيد تيبو قائمة في الشمال الشرقي من القصر ، على ساحة صغيرة خضراء ، محاطة بمجواجز بيضاء ابدية الوجود في ظلال الاشجار الكبيرة ، وفي وسطها حوض مستدير بين اجزاء متناسقة من شجر البقس . وسار جاك بخطوات متمهلة نحو هذه الساحة . ومن بعيد ، ومنذ ان استطاع

مشاهدة البيت ، ميز ثوباً ابيض متكئاً على حاجز المدخل : كانت جيزيل تترقب . وكانت ملتفتة نحو ممر المحطة فلم تره أتياً . عندئذ اخذ يركض مدفوعاً باندفاع فرحة . وشاهدته فلوحت بذراعها ، ووضعت يديها حالاً على فمها كحامل الصوت وسألت :

— هل قبلت ؟

ومع انها بلغت السادسة عشرة فلم تكن تجرؤ على الخروج من الحديقة بدون اذن المدموازيل .

ولم يجب لينكد عليها . ولكنها قرأت الخبر السار في عينيه واخذت تقفز في الساحة كطفلة . ثم اندفعت الى بين ذراعيه ، فقال بدافع العادة :

— هيا ، هيا ، ايتها المجنونة !

فتخلصت منه ضاحكة لترتمي عليه من جديد وهي ترتعش . ورأى ابتسامتها المتألقة ، وعينيه اللامعتين من الدموع : فتأثر شاكراً ، وابقى الفتاة الصغيرة هنية على صدره .

وضحكت وخفضت صوتها :

— لقد اخترعت قصة لأجبر عمي على المجيء معي الى قداس غير صارخ ؛ وكنت افكر انك سوف تصل في الساعة العاشرة . اما والدك فلم يعد بعد . تعال . قالت ذلك وهي تجره نحو الدارة .

وظهرت المدموازيل الصغيرة في داخل الدهليز : حذاء قليلا الآن . وكانت تتقدم بخطى متعجلة وقد جعلها التأثر تهز رأسها . وتوقفت على طرف الدرج . وما ان اصبح جاك على موازاتها حتى مدت نحوه ذراعيها اللذين يشبهان ذراعي دمية خشبية تحرك بالخيوط ؛ وكادت تفقد توازنها لتقبله . ومهمت كأنها تمضع شيئاً دون انقطاع :

— أُقبلت ! هل قبلت ؟

فقال بفرح :

— آخ . احذري ، هناك دمل يؤلمني جداً .

- در : يا للرب الرحيم !
لما كان هذا الألم في رأيها اهم من امتحانات دار المعلمين فانها اقلعت عن
سؤال جاك عن نجاحه لتضطره الى غسل بالماء المغلي والى ضمادات ملينة .
وتمت عملية الضاد في غرفة المدموزيل حين رن جرس الحاجز : لقد عاد
السيد تيبو .

وصاحت جيزيل وهي منحنية على النافذة .
- لقد نجح جاك .
بينما كان جاك ينزل للملاقة والده .
- آه ! أهذا انت ! اية درجة ؟
سأل السيد تيبو وقد لون الوجه الشاحب مرور جلي للحظة .
- الثالث .

وبدا استحسان السيد تيبو اكثر ظهوراً . لم يرفع جفنيه ولكن عضلات
الانف اهتزت . وسقطت النظارة على طول الخيط ، ومد يده وهو يدمدم ،
مسكاً يد جاك بين يديه .
- درجة لأبأس بها .

وتردد لحظة ، واتخذ هيئة قائمة وتمتم : « ياله من حر ! » ثم جذب ولده
اليه وقبله . وخفق قلب جاك . كان يريد ان ينظر الى والده . وكان السيد تيبو
قد التفت ، واسرع الخطى وهو يصعد الدرجات . وبلغ مكتبه ، وألقى كتاب
الصلاة على الطاولة ، ومشى بضع خطوات وسحب منديله ، وجفف وجهه ببطء .

كان طعام الافطار جاهزاً .
وكانت جيزيل قد زينت مكان جاك بباقة من الخطمية ، أكسبت المائدة
العائلية هيئة عيد . ولم تكن تستطيع الامتناع عن الضحك ما دام في قلبها
فرح . كانت حياتها صارمة كفتاة بين المعجوزين ؛ وكان فيها من الحياة ما يكفي
لكي لا تتمذّب : الا يكون المرء سعيداً وهو ينتظر السعادة ؟

ودخل السيد تيبو وهو يفرك يديه ، وقال بعد ان نشر منشفته ووضع قبضتيه على ناحيتي لوازم المائدة :

- حسناً . المقصود الآن الانقاف هنا . نحن لسنا بلهاء . اذا دخلت ثالثاً فلماذا لا تخرج الأول اذا درست ؟ - وفتح عيناً ، ومسد عثونه بهيئة ماكرة -
الا يجب دائماً ان يكون هناك اول في الفوج ؟

واجاب جاك على ابتسامة والده بابتسامة مراوغة . لقد اعتاد التظاهر اثناء هذه الوجبات العائلية بأن ليس عليه ان يكبح جماح نفسه : في بعض الايام كان يلوم نفسه على هذه العادة كخطأ يصيب جدارته . وتابع السيد تيبو :

- ان تخرج الاول من مدرسة كبيرة ، بإمكانك ان تسأل اخاك . ان هذا يرافقك طول الحياة : ففي كل مكان توجد فيه تكون موضع اعتبار بشكل مؤكد . هل اخوك بصحة جيدة ؟
- يجب ان يأتي بعد الغداء .

ولم يخطر ببال جاك ان يقص على والده ان هناك حادثاً في محيط السيد شاسل . فالجميع يصمتون حول السيد تيبو باتفاق مشترك . ليس هناك من يقترف ذنب الغفلة ليخبره بأي شيء مهما كان لأن من المستحيل معرفة النتيجة التي يستخرجها الرجل الكبير ، القوي ، العملي من اقل خبر ، ولا بأية مساع ، رسائل او زيارات ، يعتقد ان من حقه التدخل وعرقلة الحوادث .
وسأل المدموازيل ، مع انه يعرف انها لم تفتح ابداً اية صحيفة :

- هل رأيت ان صحف الصباح تؤكد اخفاق تعاونيتنا في فيلبو ؟
إلا انها اجابت بعلامة إيجابية ملحوظة ، فضحك السيد تيبو ضحكة صغيرة باردة . ثم صمت . وبدا حتى نهاية الطعام غير مهتم بالحديث . وكان سمعه المتمرد يزيد من عزله كل يوم . ويحدث له في أغلب الاحيان ان يظل هكذا ، طوال فترة الطعام ، صامتاً ، مبتلعاً القطع الوافرة التي تتطلبها معدته كمنارح ، منطقياً على نفسه . وفي الواقع كان يحترق قضية صعبة . وجوده الخادع كان كجمود عنكبوت في حالة ترصد . كان ينتظر ان يوفر له ذهاب واياب تفكيكه

حلاً لمشكلة إدارية أو اجتماعية. هكذا كان يشتغل دائماً. منفعل وكأنه متحجر، والعينان نصف مطبقتين، والدماغ وحده في حالة يقظة؛ وما من مرة سجل هذا المجتهد الكبير ملاحظات، ولم يكتب رؤوس أقلام لخطاب؛ فقد كان كل شيء يتركب، ويرسخ بالتأكيد، حتى آخر التفاصيل، تحت حجمته غير المتحركة.

كانت المدموازيل جالسة قبالة منتبهة للخدمة، مصالبة على السباط يديها الصغيرتين الباقيتين جميلتين، واللتين تصونها (خفية كما تعتقد) بواسطة دهان لتحسين الجلد من حليب الخيار. ولم تكن تتغذى تقريباً. فبعد الطعام يقدم إليها طاسة حليب وقطعة بسكوت كانت بدافع الدلال تقضمها جافة لأنها تحتفظ بأسنان فارة. وكانت تجعد دائماً أن هناك من يتغذى بشكل مفرط وتراقب صحن ابنة أخيها عن قرب. ولكن في هذا الصباح، وعلى شرف جاك، تنكرت لمبادئها إلى درجة أنها اقترحت بعد انتهاء الحلويات:

— جاكو، أريد أن تذوق مربياتي الجديدة؟

فتمتم جاك طارفاً بعينه نحو جيزيل:

— «مذاق لذيذ، قابلية تامة للهضم».

هذه المزحة القديمة التي تذكرها بكيس من الملابس وبواحدة من أفضل ضحكات طفولتها الجنونية، قد جعلتها يضحكان كطفلين حق الدموع.

ولم يسمع السيد تيبوشيناً ولكنه ضحك بسلامة طوية. وتابعت المدموازيل

— عفريت شرير. انظر كيف هي موضوعة بشكل جيد.

على مكانٍ لوضع الاطعمة مغطى بنسيج من المسلمين يحتاج الذباب ضده على غير طائل، كان هناك ما يقارب الخمسين إناء ملأى بياقوت متجمد، تنتظر أن تحاط بمحلفات من الورق المبلل بشراب الروم.

وكانت قاعة الطعام تفتح، بواسطة نافذتين، على شرفة مجهزة بصناديق مزهرة. وعلى طول الستائر كانت الشمس تمد حتى الأرض الخشبية اشعتها المبهرة. وحول صحن من الخوخ الأخضر كان زنبور يدوي، والبيت كله يبدو أنه يدوي

ممه بتأثير فترة الظهر . وقد اضطر جاك فيما بعد ان يتذكر هذه الوليمة كأنها اللحظة الوحيدة التي سبب له فيها قبوله في دار المعلمين عاطفة سرور عابرة . وجيزيل ، المتحركة السعيدة ، الصموتة بداعي العادة ، كانت تبادل بعض النظرات الخفية المثقلة بمشاركة بالذنب دون داع . وكان مرحها يسير بسرعة صاروخ لدى اقل كلمة من جاك .

- اوه ! يا جيز . هذا الفم !

قالت المدموازيل ذلك بصوت مرتجف ، ولم تكن راضية ان يكون لجيزيل فم مشقوق بشكل عرضي ، وشفتان قويتان . ولم تكن تشاركها الرأي بالشعر الاسود . شيء تافه بمجد ، والانف الافطس ، ولا بتلك الصبغة الشقراء ذات الظلال الحارة ، والتي كانت تذكرها ، اكثر مما كانت تتمنى ، بأفم جيزيل ، الخلاسية التي تزوجت القومندان دي ويز اثناء اقامته في مدغسقر . وكذلك لم تكون تفوتها الفرصة أبداً لتذكر بأسلاف ابنة اخيها من جهة الاب . وتابعت وهي تبسم :

- حين كنت في مثل سنك ، فان جدتي ، وانت تعرفين الجدة ذات الشال الايكوسي ، لكي تجعل في صغيراً ، كانت تجعلني اردد مئة مرة متتابعة . « اعطنا يا صديقتي خوختين صغيرتين جداً من خووخ تور » .

وكانت وهي تتكلم تسمى لتتلقف الزنبور في شرك منشفتها الممدودة ، وتضحك في كل لحظة لأنها اخطأت . والمجوز العزيزة لم يكن لديها شيء شرس ! فصائب حياتها لم تفسد شباب ضحكها اللؤلؤية ، الناقلة للعدوى . وتابعت :

- كانت تلك الجدة قد رقصت في تولوز مع الكونت دي فيلال ، الوزير وتكون بائسة في عصرنا هذا لانها لم تكن تحب الافواه الكبيرة ولا الاقدام الكبيرة . كانت المدموازيل فخورة بفمها وقدميها التي صنعت كأفواه واقدام المولودين حديثاً ، وهي تنتعل دائماً خفاً من القماش ، مربع الطرف ، لكي يقي اصابع رجليها من كل تشويه .

في الساعة الثالثة فرغ البيت بسبب صلاة العصر . وظل جاك وحده ،

فصعد إلى غرفته .

وكانت غرفته في الطابق الثاني قريبة من السقف ، ولكنها واسعة ، معتدلة البرودة ، مغطاة بورق رسمت عليه زهور : كان الالفق فيها محدوداً ، ولكن من قمة شجرتي كستناء كانت اوراقها ذات الريش تداعب النظر .

وعلى الطاولة يوجد معاجم ، وبحث في علم اللغة : فألقى الجميع في اسفل خزانة وعاد يجلس إلى مكتبه . وتساءل فجأة :

— هل انا ولد ام رجل ؟ ان دانيال .. شيء آخر . اما انا ، فاني .. ماذا اكون ؟
وشعر بكونه عالماً ؛ عالم مأهول بالمتناقضات ، وخليط ، من الثروات .
وكان يتسم لاتساعه الخاص ، وعينه شاردة على تلك المساحة من الأكاجو التي افرغها لاجل .. لاجل ماذا ؟ بالتأكيد فالمشاريع لا تسبب له عيباً . منذ كم من الشهور كان يبعد عن نفسه كل يوم تقريباً محاولة الشروع بشيء ؟ وكان يقول لنفسه : « حين انجح » . والآن فان تلك الحرية التي ظهرت فجأة في متناول يده لم يبد له اي شيء جديراً بتضحيتها في سبيله : لا « حكاية الشابين » ولا « النيران » ، ولا حتى « نجوى مباحثة » !

وترك مكتبه ومشى بضع خطوات ، وتلمس على الرفوف رف الكتب التي كدسها . وبعضها منذ السنة الماضية — للوقت الذي يصبح فيه حرراً ، وبحث ذهنياً عن الكتاب المختار الاول بينها جميعاً ، ومط شفتيه ، وجاء يسقط على سريره فارغ اليدين ، وفكر : « كفى كتباً ، كفى ملاحظات كفى عبارات ! كلمات ! كلمات ! كلمات ! » . ومد ذراعيه نحو ما لا يعرف ، نحو شيء لا يمسك واصبح على وشك البكاء . وتساءل ، وقد ضاق صدره « هل استطيع الآن .. ان اعيش ؟ » ومن جديد : « اما ازال ولدأ ؟ ام انني رجل ؟ » واستفزته مطامح غنيقة ؛ وكان مرهقاً بها ، ولم يجرؤ على القول ماذا ينتظر من القدر .

وردد : « العيش » ؛ « العمل » .

واضاف : « الحب » ، واطبق عينيه .

ونفض بعد ساعة . هل حلم ام نام ؟ كان يحرك رأسه بصعوبة ؛ وكان عنقه

متسجماً . خَوَّرُ ناتج عن قلق دون سبب وقوة مفرطة قيَّد فيه كل ارادة عمل ،
واظلم كل فكرة . واجال عينيه في غرفته . ايظل راكداً شهرين كاملين هنا في
هذا البيت ؟ ومع ذلك فقد كان يشعر بقدر غامض يقيده هنا ، هذه السنة ،
وانه في كل مكان في الخارج سوف يلاقي شقاء اسوأ .

واقترب من النافذة ليتكئ . بمرفقه عليها ؛ وطارت كآبته دفعة واحدة :
كان نوب جيزيل يشكل بقعة واضحة خلال اغصان الكستناء المنخفضة . وكان
يشعر بقربها انه سيجد مذاقاً في ان يكون شاباً وان يعيش .
وحاول ان يفاجئها ولكن اذنها كانت مترصدة ، او ان قراءتها لم تكن
تسجن انتباهها ، لأنها التفتت بسرعة ، وقد عرفت خطى جاك وراءها :
- أخفقت .

- ماذا تقرئين ؟

فرفضت ان تجيب وشدت الكتاب الى صدرها بذراعيها المتصالبتين .
واستعدا للزراع مع ميل مفاجيء للسرور .
- واحد ، اثنان ، ثلاثة .

واوقع الكنبه ، ورمى الفتاة بين العشب . ولم تترك الكتاب فاضطر الى
الصراع فترة كبيرة ضد هذا الجسد المرن الحار ، قبل ان يستطيع الاستيلاء على الكتاب .
- « الساقوايار الصغير » الجزء الاول . وهل يوجد كثير من هذه الاجزاء ؟
- ثلاثة .

- تهنتي . وهل يستهوي ؟

فضحكت وقالت :

- لم أصل بعد حتى الى لإنهاء الجزء الاول

- وايضاً ، لماذا تقرئين اشياء كهذه ؟

- لا خيار لي

(« جيز لا تحب القراءة كثيراً » ، هكذا كانت تؤكّد المدموازيل بعد عدة
محاولات من هذا النوع) . وصرح جاك الذي يرضيه ان ينصح بالتمرد وعدم الطاعة :

- انا ، سأعيرك كتباً .

فلم تظهر جيزيل انها سمعت . وقالت متوسلة وهي تنام على العشب :

- لا تذهب حالاً . خذ مقعدي او اجلس هنا .

فتمدد الى جانبها . وكانت الشمس تسقط اشعتها الحارة على الدائرة التي ترتفع الى علو خمسين متراً عنها في وسط ارض مركومة رملية . فيها اغراس يرتقال في صناديق . ولكن العشب تحت الشجر ظل معتدل البرودة .

- اذن ، ها انت حراً يا جاك .. حر تماماً .

وانحدت هيئة طليقة ليس فيها شيء طبيعي لتسأل :

- ماذا ستفعل ؟

وظلت ملتفتة نحوه وشفاتها مفتوحتان قليلاً .

- كيف ؟

- نعم . الى اين ستذهب الآن . وانت حر لمدة شهرين ؟

- لا الى اي مكان .

فقالت رافعة نحوه عيني كلب جيد ، مستديرتين لامعتين :

- ماذا ؟ انظلي معنا قليلاً .

- نعم . وفي العاشر من الشهر سأذهب الى التورين لحضور زواج صديق

- وبعد ؟

- لا ادري . - وادار رأسه - افكر ان أبقى في ميزون كل العطلة .

فتمتمت منعنية لتلتقط نظرة جاك : اصحيح ؟

وابتسم سعيداً لأنه سبب لها كثيراً من السرور ولم يكن يشعر بكثير من الخوف المبهم لأمله ان يعيش شهرين بالقرب من هذا الكائن الساذج الرقيق الذي يحبه كأخت : افضل من اخت . لم يكن يفكر ان مجيئه سيؤلق الى هذه الدرجة حياة هذه الطفلة ، هو الذي يبدو ان وجوده ليس مرغوباً من احد ؛ وعرف لها كثيراً من الفضل لهذا الاكتشاف بحيث اخذ يدها المتروكة على العشب وداعبها .

— ان بشرتك ناعمة يا جيز — اتستعملين مرهم الخيار انت أيضاً ؟
فضحككت واقتربت منه بزحلفة جعلت جاك يلاحظ مقدار مرونتها . كان
لديها الشهوانية الطبيعية الفرحة لحيوان صغير ، وضحككتها الخارجة من حنجرتها ،
حين لا تبعت على التفكير بضحكة ولد مجنونة ، كانت تشبه هديلاً غرامياً .
ولكن روحها كمذراء كانت تسكن مرتاحة في هذا الجسد السمين ، رغم الألف
رغبة التي كانت تختلج فيها دون ان ترتاب بطبيعتها . وتابعت مكشرة :
— ما زالت عمي لا تريد ان لعب التنس هذه السنة . وانت ، اتذهب

إلى النادي ؟

— بالتأكيد كلا .

— هل ستقوم بنزهات على الدراجة ؟

— هذا ممكن .

فهمت : « يا لها من سعادة ! .. » وكان نظرها يبدو دائماً انه يشاهد
شيئاً مذهلاً .

— انت تعلم ان عمي وعدتني بانها ستدعني اخرج معك . اتريد ؟

فتفحص لحظة حدقتها الداكنتين اللامعتين وقال :

— لك عينان جميلتان يا جيز .

وظن انه لاحظ اضطراباً فجائياً زاد من دكنتها . وادارت رأسها مبتسمة .
ان ذلك الشيء المرح ، الساخر الذي يدهش فيها قبل كل شيء لم يكن يظهر
فقط بواسطة بريق النظرة ، ولا بلمع الغمازتين المتحركتين اللتين ينحفر ظلها
دائماً في زاوية الشفتين ، ولكنه كان يظهر حتى في استدارة الوجنتين ، في طرف
الانف المستدير ، في بروز الذقن المستدير الصغير وعلى كل وجهها اللحم الذي
يتنفس الصحة والبشاشة .

وبما انه لم يجب على ما قالته فقد انتابها الخوف وقالت :

— اتريد ؟ قل .

— ماذا اذن ؟

- تُصحبني الى الغاب ، او الى مارلي كما في الصيف الماضي .
وكانت مسرورة جداً لرؤيته يبتسم علامة القبول ، بحيث التفتت نحوه
وقبلته . ثم بقيا متمددين جنباً إلى جنب حتى الظهر ، ونظرهما يحوس اعماق
الاشجار الكثيرة الغصون .

وكان يُسمع صوت مقوط نوفرة الماء ، ونقيق الضفادع حول حوض الساحة
وبين فترة واخرى اصوات المتزهين على محاذاة سور الحديقة . وكانت رائحة
الباتونيا *Petunia* التي شوت الشمس طول النهار كزوسها اللطخة بالقار ، تمتلئ
بتشاغل من أصص زهور الشرفة ونحوم في الهواء الحار .

- ما اغربك يا جاك ! انت تفكر دائماً ! بماذا تستطيع ان تفكر ؟
ونفض متكننا على مرفق ، ونظر الى جيز ، ورأى شفتيها المفتوحتين قليلا ،
رطبتين مندهشتين .

- افكر بأن لك اسناناً جميلة .

فلم يحمر وجهها ولكنها هزت كتفيها ، وقالت بنبرة ولد :

- كلا ، اني انكلم جدياً .

فأخذ يضعك . وجاءت حشرة طنانة منتفخة بالضوء الأصهب تطوف
حولها ؛ واصطدمت بوجه جاك كخصلة صوف ، ثم استهدفت الارض ، ودخلت
في ثقب بين الاعشاب محدثة ضجة كصوت الدراسة *Batteuse* .

- وأفكر ايضاً ان هذه الحشرة الطنانة تشبهك يا جيز .

- اتا ؟

- نعم .

- لماذا ؟

فقال وقد عاد الى التمدد على ظهره من جديد :

- لا ادري . انها مستديرة وسوداء مثلك . حتى طينيتها يشبه قليلا الضجة
التي تحدثنيها حين تضحكين .

هذه الملاحظة المعبر عنها بنبرة رصينة بدت انها أغرقت جيزيل

بتفكير عميق .

وصمت الاثنان . وعلى المرج الملون باللون الأسمر الذهبي كانت الظلال تمتد منحرفة . وجيزيل ، التي كانت الشمس تبلى وجهها ، لم تستطع مرة أخرى ان تمنع نفسها من الضحك ، وقد دغدغتها الشذرات الذهبية التي كانت تلعب على خديها وتزعج عينيها من خلال الاهداب .

حين اعلن جرمس الحاجز وصول انطوان وشاهد جاك اخاه في طرف المشى . انتصب بعزم كأنه فكر اولاً بما سوف يعمل ، وركض اليه :
— اتعود هذا المساء ؟

— نعم الساعة العاشرة والدقيقة العشرين .
ولم تكن امائر التعب على قسبات انطوان هي التي استلقت اقتباه جاك مرة أخرى اكثر من تألق هذه القسبات بشكل يكسبه مظهراً غير اعتيادي ، شبه محارب . وخفض صوته قائلاً :

— الا تريد ان تأتي معي بعد الطعام إلى بيت مدام دي فوتنان ؟
وشعر ان هذا الاخ يتردد ، فكف عن النظر إليه وأضاف بسرعة :
— يجب ان اقوم بزيارتها ، ويزعجني كثيراً ان اذهب إليها بمفردي .
— هل سيكون دانيال هناك ؟
كان جاك يعرف تماماً ان لا ، وقال :
— بالتأكيد .

وصمتا لرؤيتها السيد تيبو يظهر في احد نوافذ قاعة الاستقبال وفي يده صحيفة منشورة ، وصاح بأنطوان :
— آه ! ها أنت اتي . انا مسرور لاستطاعتك الهجيء . — كان يكلمه دائماً بمراعاة — إبقى خارجاً . سأتي إليك .
ومس جاك :

- إذن متفقان ؟ سنعتذر بنزهة بعد الطعام .

لم يكن السيد تيبو قد عاد عن المنع الذي ابلغه في السابق إلى جاك بأن لا يعقد اقل علاقة مع آل فوتشانان ، وبداعي الحيلة ، فان الاسم الملعون لم يلفظ ابداً امامه . هل كان يجهل ان اوامره قد خرقت منذ وقت طويل ؟ ما من احد يستطيع التأكيد . كان الصلف الابوي اعمى عنده بحيث لم تحط برأيه ابداً ففكرة عصيانه .

وقال السيد تيبو وهو يهبط درجات السلم بخطى ثقيلة :

- حسناً ، لقد نجح ! وما نحن اخيراً نشعر بالاطمئنان حيال المستقبل .
- وأضاف : - لنقم بدورة في المرج قبل الطعام . - ولكي يوضح هذه القضية غير المألوفة صرح قائلاً : - اريد ان اكلكم كما ، كلاهما . ولكن أولاً - ووجه السؤال إلى انطوان : - هل قرأت صحف المساء ؟ ما يقال عن افلاس فيلبو ؟
الم ترَ ذلك ؟

- تعاونيتكم العمالية ؟

- نعم يا عزيزي . هزيمة مع فضيحة في الأساس . هذا لم يدم طويلاً .
وضحك ضحكة صغيرة جافة تشبه السعال .

وكان انطوان يفكر : « كيف اعطتني فيها » . واستعاد في ذهنه المطعم ، وراشيل جالسة قبالة ، والنور يأتيها من اسفل ، كما في المسرح ، بواسطة النوافذ التي على محاذة الأرض . « لماذا تلك الضحكة الغريبة ، حين اقترحت عليها شواءاً خليطاً ؟ » .

وبذل جهداً ليهم بمحدث والده . ومع ذلك فقد كان مندهشاً لأن السيد تيبو قبل هذه « الهزيمة » بسهولة : لأن الحسن كان يشكل قسماً من الجمعية التي جهزت الاشياء الأساسية لصانعي الازرار في فيلبو ، حين ارادوا ، بعد الاضراب الأخير ، ان يؤسسوا تعاونية للانتاج ليثبتوا ان باستطاعتهم الاستغناء عن سلطة أرباب المهنة .

وكان السيد تيبو قد خطب باسهاب آنذاك :

- في نظري ، فان هذه ليست نقوداً ذهبت جزافاً في القضية الصالحة .
وكان دورنا كاملاً . فقد حملنا على حمل الجد التدابير الباطلة للطبقة العاملة ، وكنا
اول من ساعدتم برؤوس اموالنا . النتيجة : الافلاس في اقل من ثمانية عشر
شهرأ . ويجب الاعتراف في هذا الظرف انه كان بين مندوبي العمال وبيننا
وسيط كامل . ولكنك تعرفه جيداً . - اضاف ذلك وهو يتوقف وينحني
نحو جاك . - انه فاييسم الذي كان في كروي في ايامك .
فلم يجب جاك بشيء .

- انه يمك جميع رؤساء الصف بواسطة رسائل يطلب فيها منا هؤلاء
الرسل الصالحون ضرائب ؛ نعم ، رسائل مكتوبة في اسوأ لحظات الاضراب . ما
من احد يجرو على التحرك . - وسئل من جديد سعة راضية وتابع وقد عاد الى
سيره : - ولكن ليس حول هذا اريد استشارتك .

كان يتقدم بتشاقل ، وقد ضاق نفسه بسرعة ، جاراً قدميه على الرمل ،
والجسم منحني الى الامام ، واليدان وراء الظهر ، والسترة مقنطرة منسدلة .
وكان ولداه يحيطان به صامتين . وتذكر جاك عبارة قرأها لا يعرف ابن : « حين
ألتقي برجلين ، احدهما مسن والآخر شاب ، يسيران جنباً الى جنب دون ان
يحدا ما يقولانه ، اعرف انهاب وابنه » وقال تيبو :

- اسمع . اني احرص على ان آخذ رأيكما في مشروع صفته لأجلكما .
واتخذ صوته نبرة حزن ورنه اكيدة لم تكونا مألوفتين لديه :

- سترون يا اولادي حين تبلغون سني كم يسأل المرء نفسه ، رغم كل شيء ،
عن مدى ما فعل . وأعلم جيداً ، وهذا ما كان يقوله لي الاب فيكار دائماً ، ان
جميع القوى المستعملة في عمل الخير تتسابق الى نفس الهدف ، وتضاف بعضها الى
بعض . ولكن اليس من المؤلم التفكير ان كل جهد حياة فردية يمكن ان يضيع في
وحول الجيل ؟ أليس مشروعاً لأب ان يحتفظ اولاده منه بتذكاري شخصي على
الاقل ؟ ولو لم يكن سوى لقب ؟ - وتأوه . - وبموجب ضميري كنت افكر
بكما اكثر من نفسي . وقد قلت لنفسي ان من الممكن في المستقبل ، وانتم اولادي ،

الاتجدوا من الملائم ان تحتلطوا بكل آل تيبو في فرنسا . الا يوجد وراينا قرنان من دناءة النسب مبررة بالشكل المطلوب ؟ وهذا شيء ذو قيمة . وفيما يتعلق بنصبي فأنا مرتاح الضمير لأنني أتميت حسب وسائل هذه التركة المحترمة ؛ ولي الحق - وهذه ستكون مكافأتي - ان اتنى الاتي يجهل اصلكم ؛ وأرغب ان تحملوا اسمي بكامله لتتقلا دون تشويه الى اولئك الذين سيولدون من دمي . وقد توقعت المستشارية رغبات مماثلة . اذن فقد ملأت منذ عدة اشهر الشكليات الضرورية لتبديل احوالكم المدنية ؛ وسيكون لدي بعد قليل بعض الاوراق ليوقعها كل منكم للآخر . وعند العودة ، في عيد الميلاد على الاكثر ، سيكون لكم شرعياً الحق ، حسب رأيي بالاتكونوا من اي تيبو كان . تيبو بصورة مختصرة . بل من عائلة اوسكار - تيبو مع خط متوسط بين الكلمتين : « الدكتور انطوان اوسكار - تيبو » . - وجمع يديه وحك الواحدة بالآخرى - هذا ما كان عندي لأقوله لكم . لاتشكراني . ولن نتكلم في ذلك . وهيا لتناول الطعام : فالدموزيل تشير الينا . - ووضع كالبطاركة ذراعاً على كف كل من ولديه . - فاذا حدث ، فضلاً عن ذلك ، ان هذا التمييز عاد عليكم ببعض الفائدة في علمكم يكون خيراً يا ولدي . أليس عدلاً ، من ناحية الضمير ، ان رجلاً لم يطلب شيئاً لحياته الزمنية ، جعل اعقابه تستفيد من الاعتبار الذي اكتسبه ؟ كان صوته يرتجف . ولكي لا يلين ترك فجأة المر الذي كانوا فيه واسرع الخطى وحده ، متعزراً خلال مدر الارض المعشوشبة ، وبلغ الدارة . ولم يذكر انطوان وجاك ابداً انها رأياه مضطرباً بهذا الشكل . وتتم انطوان وقد شعر بسرور بالغ :

- هذه اشياء لاتشكر !

فقال جاك : اسكت .

لقد شعر أنه اخاه يمس له قلبه بيدين قدرتين . وكان من النادر ان يتحدث جاك عن السيد تيبو دون نوع من الاحترام ؛ كان يتجنب ان يقاضيه : ان بصيرته تؤله حين تعمل ضد والده وفي اغلب الاحيان دون ان يسمى الى ذلك .

ولكن هذا المساء تأثر بشكل مؤلم مما يرشح من قلق من هذه الحاجة الى الخلود :
هو نفسه ، رغم سنه العشرين ، لم يكن يستطيع التفكير بالموت دون خور .

لماذا جئت بأنطوان الى هنا ؟

هكذا كان جاك يتساءل ، بعد ذلك بساعة ، حين كان يتبع مع اخيه
الجادة الخضراء المقروسة بصف مزدوج من اشجار الزيزفون القديمة الموصلة من
القصر الى الغابة . كانت فقرته تؤله : فقد الحّت المدموازيل ليتفحص انطوان
الدمل ، وقد رأى هذا ان من اللازم بضعه رغم احتجاجات المريض الذي كان
قليلا ماهيتم بالخروج وهو مضطرب .

وانطوان ، المتعب ، ولكنه ثرثار ، لم يستطع ان يفكر إلا براشيل ، البارحة ،
في مثل هذه الساعة لم يكن قد عرفها بعد ؛ والآن فهي تشغل كل دقيقة في حياته .
كان هوسه يتناقض مع العواطف التي كانت تحت جاك بعد ذلك النهار
الهادئ ، وخصوصاً في هذه اللحظة ، على هذه الطريق ، وعلى عتبة تلك الزيارة
حيث ايقظ فيه التفكير تأثيراً متغيراً كثير الشبه بالأمل في بعض اللحظات .
وكان يسير الى جانب انطوان ؛ ويشعر انه مستاء ، مرتاب ؛ وكان يشعر في هذا
المساء نحو اخيه بميل غريزي لا يمكن تفسيره ولكنه كان يخفيه في نوع من الصمت ،
مع ان الحديث بينهما كان ودياً اكثر من المعتاد . وفي الواقع كانا يلقيان امامهما
كلمات ، وعبارات ، وابتسامات كخصمين يلقيان ملء الجحافل من التراب
ليشيدا متراساً بين وضعيتين . ولم يكن اي منهما مخدوعاً بهذه المناورة . وخلقت
الاخوة فيها حساسية بحيث لم يكونا يتوصلان الى اخفاء شيء ذي اهمية .
ومجرد رنة صوت بسيطة من انطوان مطرية رائحة الزيزفون المتأخر - والتي
كانت تذكره خفية بشعر راشيل المعطر - دون اعلام جاك بشكل واضح ،
كانت مع ذلك تقول له اشياء بشكل اطول من مسارة . ولم يكن مندعشاً
ابداً حين امسك انطوان بذراعه ، خاضعاً لمضايقته ، وجره بخطوة اكثر سرعة ،
وأخذ يسرد عليه سهرته الغريبة وكل ما تبعها . ونبرة انطوان ، وضحكته ،

وهيئة كرجل ، وبعض التفاصيل الفجة التي كانت تتناقض مع تحفظه المعتاد كأخ اكبر ، أثارت عند جاك اضطراباً نفسياً جديداً . وكان يظهر الحزم ، ويبتسم ، ويوافق برأسه ، ولكنه كان يتألم . وكان يحقد على أخيه لأنه سبب له هذا العذاب ، ولم يغفر لانتوان هذه المذمة التي أوجدها انتوان نفسه . وكلما جعله الآخر يستشف حالة النسوة التي عاشها منذ اثني عشرة ساعة يزداد لجوء جاك الى مقاومة متعالية ويشعر بأن عطشاً الى الطهارة قد غما فيه . وحين كان انتوان يتكلم عن فترة ما بعد الظهر ويسمح لنفسه بقول كلمات « يوم من الحب » كان جاك يشعر برجفة لم يستطع اخفاءها ، وقال متمرداً :

— آه ! كلا يا انتوان ، كلا . ان الحب شيء آخر غير هذا .

فابتسم انتوان ، ليس بدون غطرسة ، وأصيب بالدهشة رغم كل شيء ، وصمت .

كان آل فوتتانان يملكون في نهاية الحديقة ، على طرف الغاب ، ونجاه سور المقبرة القديمة ، مسكناً قديماً كانت مدام دي فوتتانان قد ورثته عن امها . وطريق محاط بالأكاسيا ومطروق قليلاً بحيث يظل دائماً مغطى بالاعشاب المرتفعة ، يربط الجادة بباب الدخول الصغير المثقوب في جدار الجنيّة .

وهبط الليل حين اجتازا العتبة . ورن جرس صغير ، وُسمع في الطرف الآخر من الحوش ، وبالقرب من البيت ، حيث عدة نوافذ قد أضيئت ، نباح بوس كلبة جني . وكانوا يقيمون ، بعد الطعام ، في الناحية الاخرى من البيت ، حيث الارض ، وقد ظللتها شجرتا دلب ، تشكل سطحاً مائلاً فوق حفرة الخندق القديم . واضطر الاخوان الى الدوران حول سيارة كانت كملتها الجامدة تسد المشى .

وتتم جاك ، وقد شعر بأسف مفاجئ لهيئته :

— عندهم من يزورهم .

ولكن مدام دي فوتتانان كانت تتقدم الى امامها . وهتفت منذ ان

استطاعت معرفتها :

- لقد ادركت ذلك !

واسرعت بخطى صغيرة فرحة مفتوحة اليدين ، وعلى وجهها ابتسامة مرحبة .
- لقد كنا مسرورين جداً هذا الصباح عندما فتحنا برقية دانيال ! (لم يحرك
جاك ساكناً) - وأكملت وهي تنظر الى جاك بهيئة جدية : - ولكنني علمت
انك نجحت . ان شيئاً ما قال لي ذلك . في ذلك الاحد من حزيران حين اتيت
مع دانيال . هذا العزيز دانيال ! يجب ان يكون كثير السرور ، كثير الفخر !
وجني ايضاً كانت مسرورة .

فسأل انطوان :

- اذن فدانيال ليس هنا هذا المساء ؟

وكانوا قد وصلوا إلى دائرة المقاعد . وتناهى اليهم رجوع حديث حام . فيز
جاك حالاً بين الاصوات صوتاً له رنة خاصة ، انه رنان ومع ذلك فهو غير جدير :
صوت جني . كانت قد بقيت جالسة بالقرب من ابنة خالها نيكول ورجل في
الاربعين من عمره تقدم انطوان نحوه بدهشة : لقد كان جراحاً شاباً وزميلاً له
في مستشفى نيكر . وشد الاثنان يدي بعضهما البعض بتعاطف .

وهتفت مدام دي فونتانان منتشية :

- أتعرفان بعضكما البعض قبلاً ؟

ثم قالت موضحة للدكتور هيكيه :

- انطوان وجاك تيبو صديقان كبيران لدانيال . اريد أن يشركا

في الحديث ؟

ثم التفتت نحو انطوان وقالت :

- سسمح لي صغیرتي نيكول ان اعلن لكم خطوبتها . أليس كذلك

يا عزيزتي ؟ ان الأمر لا يزال غير رسمي ؛ ولكن انتم ترون : لقد أتت نيكول
بخطيبها إلى بيت عمتها ويكفي النظر اليها لمعرفة سرهما .

ولم تكن جني قد أتت إلى أمام الاخوين ؛ وكانت تنتظر ان يصيرا امامها

لتلف ؟ وتبادلت معها مصافحة باردة . وقالت لنيكول قبل أن يجلسوا :

— تعالي يا صغيرتي نيكول لأريك حمامي . عندي منها ثمان .

— ... لا تزال ترضع .

قذف جاك ذلك بنبرة تستهدف الوقاحة ولكنها لم تكن سوى مكتدرة
وغير لائقة .

وشعر بها حالاً وشد فكيه . ولم تبد بجني انها سمعت . وأكملت :

— ... بدأت تطير .

فقد خلت مدام دي فونتانان بمهارة لتبقيها :

— ولكن الحمام نامت الآن .

— سبب جديد يا امي . في النهار لا يمكن الاقتراب منها . أأأني معنا

يا فليكس ؟

وأسرع الدكتور هيكه ، الذي كان يتحدث مع انطوان ، بالحق بالفتاتين

وقالت مدام دي فونتانان وهي تتعني نحو انطوان وجاه حين ابتعد الخطيبان :

— انه زواج صغير رائع . فنيكول المسكينة التي ليس لها اية ثروة ، كانت

لديها فكرة ثابتة بالآ تكون عالة على احد . ومنذ ثلاث سنوات وهي تربح

معيشتها كمرضة . وها انتم ترون كيف كوفت ! فقد التقى بها الدكتور هيكه

أمام سرير أحد مرضاه ، ووجد لها كثرة الذكاء ، كثرة الاخلاص ، وكثيرة

الشجاعة أمام الحياة بحيث شغف بها حباً . وهكذا . أليس ذلك شديد الروعة ؟

كانت تتذوق بسذاجة رومانتيكية هذا الحادث ، حيث لم يكن يوجد سوى

عواطف نبيلة وحيث انتصرت الفضيلة ؛ وكان وجهها يتألق بالإيمان . وكانت

تتوجه بالكلام مفضلة "انطوان" ، وتحدث معه بنبرة ودية تفترض وجود توافق

لا يتغير في وجهات النظر بينها ؛ وكانت تحب جبهته ، ونظراته النافذة ، دون

ان تفكر مطلقاً انها تكبره بست عشرة سنة ، وانه كان بالامكان ان يكون

لها ولد من سنه . وقد سحرها حين اكّد ان فليكس هيكه كان جراحاً ذا

قيمة ورجل مستقبل .

ولم يشترك جاك بالحديث ، وكان يردد بغضب : « لا تزال ترضع ! » وكان كل شيء يثير سخطه منذ وصوله ، حتى هذر مدام دي فونتانا اللطيف . ولم يكن باستطاعته احتمال تهنتها حتى النهاية ، وقد لفت رأسه ، خجلاً عنها لأنها تعلق أهمية على هذا النجاح - مع انه اعتنى بارسال برقية اليها بالخبر . ولاحظ : « جني على الأقل احسنت الى بجماملاتها . فهل تحسب انني اعلى من هذا النجاح ! كلا ، لامبالاة بمحنة . تفوقى .. لا تزال ترضع ! ابله ! ومع ذلك فهل تعرف فقط ما يعني تليذ دار المعلمين ؟ وماذا يهمها مستقبلي ؟ لم تكن تقول لي صباح الخير . وانا .. ولكن ايضاً لماذا تخلّيت عن هذه الاستحالة ؟ » واحمر وجهه ، وشد على اسنانه من جديد « يقولها لي صباح الخير استمرت في الاصفاء الى ابنة خالها . وعيناها .. لا يدرك كنهها . الوجه كله لا يزال وجه طفلة ؛ ولكن العينان .. » كان الدمع في كل لحظة يذكر حافظته ، بواسطة اوجاع شديدة ؛ وفضلاً عن ثلولة ، كان يتألم ايضاً من ذلك الضماد الذي فرضه الجميع عليه ، المدموازيل ، وجيز نفسها ! وكان ذا مظهر كريبه .

وكان انطوان يبتسم ، ويحدث ، دون ان يهتم بجاك . وكان يقول :
... من وجهة النظر الاخلاقية .

وفكر جاك : « انطوان يتكلم ، وليس هناك شيء إلا له .. » وفجأة ، فان لطف اخيه الاجتماعي ، « وجهة النظر الاخلاقية » تلك ، خصوصاً بعد الحديث الداعر الذي حدث به انطوان ، كانا يقيظانه كمداجاة لا تقتفر . آه ! كم كانا مختلفين ، أحدهما عن الآخر ! كان جاك يندفع دفعة واحدة إلى أقصى غاية ولا يرى شيئاً مشتركاً بين أخيه وبينه . نعم ، عاجلاً أم آجلاً سوف ينفصلان ، وهذا شؤم : كانت قوتاهما متعاكستين ، والاثنان ، منافيتان الواحدة للأخرى ! وعندئذ اجتاحتها كآبة مؤلمة حين فكر ان خمس سنوات من التفاهم لم تكفٍ لتقيسها من التباغض الوشيك الحدوث ، ولم تمنعها من أن يصبحا غريبين الواحد عن الآخر ، وربما اعداء ! وكان على وشك النهوض والذهاب متذرعاً بأي عذر . ويهمهم على وجهه في الليل ولا يهم أين ، خلال الغاب ! هناك

كائن وحيد في الدنيا يعرف أن يجعله يتسم : انها جيز . وهو يتخلى بطيبة خاطر عن نجاحه البارحة ليكون في اللحظة نفسها بقربها على المرج ، بالقرب من وجهها ، بالقرب من عينيها - عينان لا إيهام فيهما : - حين كانت تهتف : « أتريد ؟ قل .. » وتضحك ، بضحكها التي تشبه هديل اليامة ! أما جني ، فلا يذكر أبداً انه سمعها تضحك ، وابتسامتها نفسها ذات تعبير خال من السحرا . وقال لنفسه ، محاولاً أن يتألك : « ما بي اذن ؟ » ولكن ذلك الحنين الذي كان له طعم الحقد ، والذي جعله يكره الجميع دفعة واحدة ، أقوال مدام دي فونتانا ، وهوان انطوان ، والناس ، وشبابه العقيم ، وكل شيء ، وجني التي تبدو انها تعيش على هواها بين الاعتدال العالمي ، ذلك الحنين كان أكثر قوة من إرادته .

وسألت مدام دي فونتانا :

— ماذا ستفعل بعطلتك يا جاك ؟ عليك ان تجعل دانيال يقرر ترك باريس لبضعة أسابيع : رحلة ثنائية ، يمكن أن تكون مسلية جداً ، ومفيدة جداً . (كانت على شيء من الحزن لعدم رؤيتها بوضوح ارتسام المستقبل غير العادي الذي كانت تتوقعه لولدها ، ودون ان تريد تأخره ، كانت تقلق احياناً بسبب الحياة التي يحياها ، كثيرة الحرية ، قليلة الانتظام - ولم تكن تجرؤ على القول انها متعلقة) .

وحين علمت ان في نية جاك البقاء طوال الصيف في ميزون قالت :

— كم انا مسرورة ! أمل ان تجتذب دانيال قليلاً ؛ انه لا يأخذ اجازة أبداً وسينتهي باتلاف صحته .. جني ! - اعلنت للفتاة التي عادت مع ضيوفها - خبر سار : جاك من جماعتنا طوال الصيف ! وهذا يعد ببضعة ادوار جميلة بكرة المضرب (التنس) كما اتصور .. ان جني حانقة هذه السنة ، فهي تضي كل فترات الصباح في النادي . يوجد هنا الآن ناد مشهور لكرة المضرب - أوضحت ذلك للـكتور هيكيه الجالس بقربها - كلها شبيبة فاتنة تكون هناك في الصباح ! ملاعب ممتازة مع مباريات وبطولات .. - واعترفت ضاحكة - اني لا اسمع

هناك شيئاً ذا أهمية ولكن يبدو انه يستهوي .. ويشكون دائماً من نقص في
الشبان ! أنت دائماً عضو في النادي يا جاك ؟

- نعم يا سيدتي .

- حسناً .. يجب ان تأتي يا نيكول هذا الصيف مع خطيبك لتمضية اسبوع
كامل عندنا . أليس كذلك يا جني ؟ انا واثقة ان الدكتور هيكه لاعب
ماهر ايضاً .

والتفت جاك نحو هيكه . وكان قنديل الصالون ينير ، من الفرجة المفتوحة ،
الوجه المستطيل الجذبي للجراح الشاب ، ولحيته الكستنائية القصيرة بالقدر
الكافي ، وصدغيه اللذين بدءا يصبحان فضيين . يجب ان يكون اكبر من نيكول
بعشر سنوات . وكان انعكاس النور اللاعب على زجاج نظارتيه يمنع من ملاحظة
نوع نظرته ؛ ولكن هيئته المفكرة كانت ذات جاذبية . وقال جاك لنفسه :
« نعم . انا ولد ، وهذا هو رجل . رجل يمكن ان يحب . بينما انا » .

وكان انطوان قد نهض ؛ فقد شعر انه تعب ولا يريد ان يفوته القطار .
وألقى جاك عليه نظرة حانقة ، هو الذي كان يفكر منذ بضعة دقائق أن يذهب
منتحلاً اي عذر ، ولم يكن يستطيع البت في انتهاء هذه السهرة هنا ؛ ومع ذلك
يجب أن يرافق أخاه .

واقترب من جني وقال :

- مع من تلعبين في النادي هذه السنة ؟

فنظرت إليه وتقلص خط اهدابها الدقيق بشكل خفيف ، وأجابت :

- مع من أجدهم .

- الاخوات كازان ، وفاكيه ، وعصبة بريغو ؟

- طبعاً .

- دائماً هم أنفسهم ودائماً روجيون ايضاً .

- ماذا تريد ؟ ليس كل الناس ينجحون في امتحان دار المعلمين .

- بعد كل هذا ، ربما كان مما لا غنى عنه أن يكون المرء أبلاً ليلعب جيداً

بكثرة المضرب .

- هذا ممكن - ورفعت رأسها بوقاحة - يجب أن تعرف ذلك أفضل من أي انسان ؛ فقد كنت لاعباً ممتازاً في السابق - ثم قطعت الحديث والتفتت نحو ابنة خالها : - ألم تذهبي بعد يا نيكول الصغيرة ؟
- سلي فليكس .

فقال هيكيه وقد لحق بالفتاتين :

- ماذا يجب أن تسأل فليكس ؟

وفكر انطوان ، وعينه محدقة بنيكول : « ان لهذه الصغيرة صبغة رائعة . ولكن إذا قورنت براشيل .. » ، وفجأة انتفخ قلبه .

وقالت مدام دي فوتتانان :

- إذن ، سراك يا جاك فيما بعد ؟ أذهبين للعب غداً يا جنني ؟

- لا اعرف يا امي . لا اعتقد .

فقالت مدام دي فوتتانان ، محاولة اجراء مصالحة :

- اخيراً ، اذا لم يكن غداً ، فستلقون في احد هذه الصباحات .

ورغم اعتراضات انطوان فانها قادت الاخوين حتى باب الحديقة الصغير .

وقالت نيكول منذ ان ابتعد الاخوان تيبو بعض الشيء :

- الحقيقة يا عزيزتي انك لم تكوني لطيفة ابداً مع اصدقائك .

فأجابت الفتاة :

- أولاً ، هما ليسا باصدقائي .

فقاطع هيكيه :

- ان تيبو الذي عملت معه هو شاب يستحق الاعتبار . وهو معروف جداً .

اما اخوه فلا ادري .

اضاف ذلك ونظره الاصب كان ذا بريق ماكر تحت النظارة ، لانه كان

قد سمع الحوار القصير بين جاك وجني . وقال :

- من النادر قبول ابله لأول مرة في دار المعلمين ، وبين الاوائل ...

فاحمر وجه جني . واسرعت نيكول بالتوسط . لقد عاشت طويلا بجانب ابنة عمتها لتعرف بعض انحرافات طباع جني ، ذلك الحجل الذي يكافح دون انقطاع ضد الكبرياء ، والذي كان احيانا يتحول الى نزق غريب . ولاحظ بتسامح :

— ان للمسكين دملا في عنقه . وهذا لا يهيء لقرطيب الجو . فلم تجب جني . وهيكيه لم يلح ؛ والتفت نحو عروسه وقال بنبرة رجل معتاد على ادارة حياته بضبط :
— نيكول يجب ان نستعد .

وانهى ظهور مدام دي فونتانا لهوم . ورافقت جني ابنة خالها الى الغرفة التي وضعت هذه فيها معطفها ؛ وهناك تمت بعد صمت طويل :
— ها ان صيفيتي فسدت تماما .

وكانت نيكول جالسة امام المراة ترتب شعرها مع همها الوحيد ان تعجب خطيبها ؛ وكانت تشعر انها جميلة ، وتتساءل ماذا كان يقول لمعتمها تحت ، وتفكر بهذه العودة في سيارة الطبيب الشاب ، خلال الليل الصامت ، ولم تكن تعير اهمية كبيرة لمزاج جسني السيء ، ولكنها ابتسمت لرؤية امائر صديقتها المهتاجة وقالت :
— انت طفلة !

لم تر النظرة التي رشقتها بها جني .
وسمع بوق السيارة ، فالتفتت نيكول بمرح ، مع ذلك المزيج من الرقة والبراءة والفنج الذي كان ذا فتنة كبيرة عندها ، وقفزت نحو ابنة عمتها وارادت ان تحتضنها ، ولكن جني اطلقت صرخة لارادية وقفزت جانبا . لم تكن تستطيع احتمال لسة احد ؛ ولم تشأ ان تتعلم الرقص لأن احتكاك ذراع غريب كان يبدو لها جسديا لا يحتمل . وحين كانت لاتزال فتاة صغيرة ، وفي فترة بعد الظهر ، ديس على كعبيها في لوكسمبورغ واصبح من اللازم اعادتها بالعربة . ففضلت صعود الدرج جارة رجلها المصابة على ان تدع البواب يحملها بين ذراعيه

حق الطابق الذي تسكنه .

وقالت نيكول :

— انت سريعة الغيظ !

ثم قالت ، بنظرة صافية ، مشيرة الى اللحظة التي مرافيا وحدهما ، قبل الطعام ، في المشى الوردى :

— أنا مسرورة لاستطاعتي أن اكلمك يا عزيزتي . هناك أيام أشعر فيها بأن سعادتي تخنقني . أما معك ، فكما ترين ، أكون دائماً « حقيقية » . وكما أنا معك أكون في حقيقة نفسي ! اريد يا عزيزتي أن تكوني أنت أيضاً ، عما قريب .. كانت الحديقة التي بدلت هيئتها الاضواء سحرية ومسرحة . وقد رفع هيكله سقف السيارة وأخذ يشد على شجرة بحركات منظمة لرجل ماهر . وكانت نيكول تريد الاحتفاظ بمعطفها مطوياً على ركبتها ؛ ولكن خطيبها أجبرها على ارتدائه . وكان يعاملها كفتاة صغيرة مكلف بحراستها . هل يعامل جميع النساء كالأطفال ؟ إلا أن نيكول كانت تخضع بطيبة خاطر ادهشت جنى وأيقظت فيها نوعاً من الحقد على الخطيبين . وكانت تفكر هازةً جبهة الصغيرة : « كلا ، هذه السعادة .. أنا ، كلا ... » .

وتبعت بعينها طويلاً بين الأشجار الخط المضيء الذي كان يتقدم العربية في الليل ، وهي مستندة إلى جدار الحديقة ، ضامة الكلبة بين ذراعيها ، وكانت تشعر بكآبة مؤلمة ، بكثير من الضغينة ضد ما لاتعرف ، وكثير من الآمال دون هدف ، بحيث رفعت رأسها نحو السماء المألئ بالنجوم ، وتمنت ، خلال بضع ثوان ، أن تموت قبل أن تجرب أن تعيش ..

٦

كانت جيزيل تتساءل لماذا أصبحت النهارات قصيرة منذ بضعة أيام والصيف مجيداً ، ولماذا ، وهي تقوم بزيئتها في الصباح بالقرب من النافذة المفتوحة على مصراعيها ، لم تكن تستطيع امتلاك نفسها عن الغناء والابتسام لكل ما كانت

تراه : لمرآتها ، للسماء الصافية ، للحديقة ، وللجلتبان الذي كانت تسقيه على متكأ نافذتها ، ولأغراس الليمون على الشرفة ، والتي كانت تبدو لها موضوعة بشكل كرة كالفنafd لتدافع عن نفسها بشكل أفضل ضد أشعة الشمس .

ولم يكن السيد تيبو يقيم في ميزون - لافيت أكثر من يومين أو ثلاثة دون أن يعود إلى باريس لمدة أربع وعشرين ساعة لأجل أعماله . وأثناء غيابيه كان يدور في الدائرة هواء أكثر خفة . وكانت وجبات الطعام كالألعاب : كان جاك وجيز يعاودان ضحكهما الصبياني المجنون الاحمق . والمدموازيل ، وهي أكثر نشاطاً ، كانت تركض بخطى قصيرة من المكتب إلى خزانة البياضات ، ومن المطبخ إلى منشر الغسيل ، مدندنة تراتيل بطل طرازها كانت تشبه أدواراً في اغنيات نادو ^(١) Nadaud . وفي تلك الايام ، فان جاك المسترخي ، بعقله المكين المليء بالمشاريع المتناقضة ، كان مستسلماً دون كتمان لموهبته ، ويقضي فترة ما بعد الظهر في زاوية من الحديقة ، جالساً ، ناهضاً ، كاتباً ملاحظات . وجيزيل هي ايضاً وقد اجتاحتها الرغبة في استعمال وقتها بشكل جيد كانت تجلس على سطح الدرج ، ومن هناك كانت تستطيع مشاهدة ذهاب وإياب جاك تحت الاشجار ، وهناك انغمست في كتاب « الآمال الكبرى » لديكنز ، حيث المدموازيل ، بناء على إلحاح جاك ، اجازات القراءة كفرصة للتقدم بالانكليزية ، وكانت تبكي بلذة لأنها أدركت منذ البدء ان يبب سوف يتخلى عن بيدي لأجل الآنسة استيل الطاغية الغريبة الاخلاق .

وهناك غياب قصير اضطر جاك إليه في الاسبوع الثاني من آب ، ليحضر في التورين زواج باتنكور حيث لم يستطع أن يرفض أن يكون الشاهد . وهذا الغياب كان كافياً ليقطع السحر .

وفي غد عودته الى ميزون ، وقد استيقظ باكراً بعد نوم خامل ، وحلقت

١ - غوستاف نادو : مغني فرنسي ولد في روبيه (١٨٢٠ - ١٨٩٣) وقد ظلت بعض أغانيه شعبية كأغنية « الدركيان » .

باعتناء وتأكد من ان صبغته لا تظهر اقل احمرار وأنه لم يبق مكان دمله سوى جرح غير منظور ، فان الامل في استعادة تلك الحياة المتحدة بدأ له خائباً بحيث ترك زينته ليستلقي بالعرض على سريره غاضباً ، وفكر : « والاسابيع تمر » . هل هنا هي العطلة التي كان يأمل بها؟ وفجأة ، وثب إلى الارض وقال لنفسه بنبرة عاقلة كانت تتناقض مع حمى حركاته : « علي ان اقوم ببعض التمارين » . واختار من خزائنه قميصاً ذا قبة مفتوحة ، وتأكد من سلامة حذائه ومضربه ، وبعد بضع لحظات ركب دراجته ليكون في النادي بأقصى سرعة .

كان اثنان من الملاعب مشغولين . وكانت جني تلعب . ولم تظهر انها لاحظت مجيء جاك الذي لم يسرع بالذهاب لتحيتها . وحدث بعض التغيير في الفرق جمعها في فرقة واحدة ، أولاً كخصمين ، ثم كشريكين . وكانا بنفس القوة .

واستعدادا دفعة واحدة النبرة الجليلة لرفقتها الماضية . وكان جاك يهتم كثيراً بجني ، ولكن بطريقة منكدة ، وجارحة ، ساخرأ من اخطائها في اللعب ، مظهرأ السرور بمعارضتها . وكانت جني ترميه بحجره بصوت من الرأس لم يكن طبيعياً لديها . وكان سهلاً عليها تجنب شريك مكدر ، الا انها لم تظهر انها تحاول ابعاده ، بل بالعكس ، كانت تصر على ان تكون لها الكلمة الاخيرة . وحين بدأ اللاعبون الآخرون بالتفرق لتناول الغداء سألت جاك بنبرة لم يطفأ غضبها :

— اني الالعبك اربع دورات فردية .

وأبدت له حدة ميالة للحرب بحيث 'غلب اربعة مقابل صفر . وجعلها الانتصار سمحة فقالت :

— هذا لا قيمة له ، فانت غير متمرن . وستأخذ بئارك ذات يوم .

واستعداد هوتها النبرة غير الجهيرة التي كانت معتادة عليها . وقال جاك لنفسه : « نحن ولدان » . وكان سعيداً لتقاسمه الضعف معها . وكان هذا كبريق امل . واجتاحه الحجل لتفكيره بموقفه حيال جني ، ولكن حين بحث

عن موقف آخر يختاره لم يجد اي موقف . ابدأ لن يعرف ان يكون طبيعياً
حيالها ، ولا يريد ان يكون اكثر حرارة مع اي شخص منه معها .
ودقت ساعة الظهر حين خرجا معاً من النادي ، ودراجتهما بأيديهما ، وقالت :
— الى اللقاء . سر امامي . ابي اشعر بالحر بحيث اخشى ان اصاب بأذى
من الآلة .

فلم يجب وتابع سيره بجانبها .
ولم تكن جني تحب أن يفرض نفسه عليها . وشعرت بالملل لعدم استطاعتها
التخلص من رفيقها في اللحظة التي كانت تتمناه بها . ولم يكن جاك يتحدث بذلك ؛
كان يفكر بالعودة إلى اللعب منذ الغد ويبحث عن عبارة تتيح له تحليل هذه
المواظبة غير المتوقعة . وبدأ بارتباك :

— الآن وقد عدت من التورين ..
وأقلع عن نبرته الساخرة . (إلا أنها كانت قد لاحظت في السنة الماضية أنه
يكف عن التأكيد عليها حين يحدث لها أن يكونا وحيدين) . وقالت ، لكي
تقول شيئاً :

أكنت في التورين ؟
— نعم . زواج صديق لي . ولكنك تعرفينه : ذاك الذي التقيت به
عندكم : باتنكور .

— سيمون دي باتنكور .
وبدت انها تجمع بعض الذكريات ، وقالت بنبرة مؤكدة :
— لم يكن يعجبني .
— عجيب ! ولماذا !

كانت لا تحسن احتمال هذا النوع من الاستجواب ؛ وتابع جاك ، وقد رأى
انها لم تحب : *
— انت قاسية جداً . فهو غلام لطيف . ولكنه بدل رأيه — كلا ، بالحقيقة
انت على حق : أنه متعجرف .

فوافقته بإشارة من رأسها وكان بذلك سعيداً . وقالت :
- لم أكن أعلم أنك مرتبط بصداقةٍ معه .
فأصلح مبتسماً :

- عفواً . أنه هو المرتبط معي . وقد جرى ذلك ذات مساء ونحن عائدان لا
اعلم من أين . وكان الوقت متأخراً . وقد تركنا دانيال . وعندئذ اتخذني
باتتكور مستودعاً لسره دون تحفظ . وسرد عليّ كل حياته ، كمن يودع ثروته
عند صاحب مصرف قائلاً له : « اهتم باشغالي ، انا معتمد عليك » .
كانت تصني اليه بشيء من الفضول ولم تكن تفكر في تلك اللحظة بالتخلص
منه . وسألت :

- هل يحدث لك في الغالب ان تتخذ كموضع اسرار ؟
- كلا ، لماذا ؟ نعم ، ربما ... - وابتنس - نعم ، في الحقيقة ، هذا يحدث
لي في اغلب الاحيان . - واضاف مع شيء من الحذر : - أيدعشك هذا ؟
وتأثر لسماعها تجيب بلهجة عاقلة :
- كلا ، ابداً .

وهبت على وجيها ريح حارة حاملة لهاث الحداث التي كانا يسيران بمحاذاتها ،
واريج تراب مبلل ، ورائحة خفية لزهور في الشمس ، لقرنفل الهند ، لدوار
الشمس . وصمت جاك . وكانت هي التي قالت ثانية :
- ومن حديث إلى حديث ، زوّجته ؟

- اوه ، كلا . بالعكس تماماً . لقد فعلت كل شيء لمنع هذا الزواج الاخرق .
أرملة تكبره بأربع عشرة سنة . ولها ولد ! وقد اختصم آل باتتكور مع ولدهم .
ولكن ليس هناك ما يمكن عمله .

وأضاف ، متذكراً انه استعمل في موضوع صديقه ، كلمة « مجنون » بالمعنى
الطقسي : « أن باتتكور مجنون تماماً بهذه المرأة » .

فقالت دون أن تلاحظ قوة التعبير :

- أهي جميلة ؟

ففكر طويلاً بحيث عضت على شفتيها وأضافت :
— لم اكن افكر بأن القبي عليك سؤالاً مزعجاً كهذا !
وظل يفكر ولم يكن يتسم :

— لا استطيع القول انها جميلة. انها خيفة. ولا أجد كلمة اخرى. — وهتف بعد وقفة : — ان الكائنات عجيبة جداً ! — ورفع عينيه نحو جنبي ورأى انها تبدو مندهشة فتابع : — جميع الكائنات عجيبة ! حتى تلك التي لا تعجب احداً . هل لاحظت ، حين يتكلم المرء عن اناس يعرفهم الى آخرين يعرفونهم ايضاً ، كم من الاشياء الكاشفة ، ذات الدلالة ، تغيب عنهم ؟ لهذا السبب يتفاهم الناس فيما بينهم بشكل سيء .

وتطلع من جديد وشعر انها كانت تصغي اليه جيداً، وانها كانت تكرر ما قاله لنفسها . والحذر الذي كان يحتفظ به دائماً حيال جنبي فسح فجأة المجال لاستسلام فرح : كان يرغب في ان يزيد من أسر هذا الانتباه غير المعتاد ، وان يبعث التأثير في الفتاة بأن يسرد عليها بعض تفاصيل الاحتفال التي لا تزال ماثلة في ذاكرته . وقال بطيش .

— اين كنت ؟ اني احب ان اكتب ذات يوم قصة حياة تلك المرأة من خلال القليل الذي اعرفه عنها ! وقد قيل بأنها بدأت بائنة في سوق . والصعود المتواصل لهذه المرأة ... — قال ذلك مكرراً الصيغة التي كان قد كتبها على دفتر جيب —
اخت لجوليان سوريل . التحيين « الاحمر والاسود » ؟
— كلا ، ابدأ .

فقال .

— عجيب . نعم اني افهم ما تريدن قوله . — وفكر لحظة وابتسم — ولكن اذا بدأنا بفتح هلالين فاني لن انتهي من ذلك . الا أسوء استعمال وقتك على الاقل ؟

— كلا. لن نتناول غداءنا الا في الساعة الثانية عشرة والنصف بسبب دانيال .
— هل دانيال هنا ؟

فوجدت نفسها مضطرة الى الكذب ، فقالت وقد احر وجهها :

— قال ان من الممكن ان يأتي . ولكن انت ؟

— لست متعجلاً ، فأني في باريس . اتريدن ان نأخذ ناحية الظل ؟ اما ما

اريد ان اقص عليك خبره فهي الوليمة التي اقيمت بعد حفلة الزواج . اوه الم يكن الامر على شيء من الامة . ولكنه كان مؤلماً ، واؤكد لك . لئلا كإطار ، قصر من نوع تاريخي ، مع برج ريمه غوبيو . وغوبيو هو الزوج الاول . رجل غير عادي ، مستخدم في محل خردة اكتشف في نفسه عبقرية السوق . ومات صاحباً لعدة ملايين ، بعد ان مهر كل مدنتنا في الاقليم بسوق من طراز القرن العشرين . وبالتأكيد قد رأيت ذلك . لأن الارملة ، ولنقل ذلك بمعرض الحديث ، هي مفرطة في الفنى . ولم أقدم لها ابداً فكيف اصفها لك ؟ امرأة هزيلة ، مرنة ، كثيرة الاناقة ؛ ورأس غير حسن التكوين ، ووجه جانبي فخور ؛ وعينان رماديتان كمعيني الخلد بفارق الاضطراب : الماء الراكد . اترين هذا ؟ ومواقف طفل مدلل ؛ ومواقف اصفر من وجهها بشكل محسوس ؛ تتكلم عالياً ، وتضحك ؛ وبين فترة واخرى — ولا ادري كيف تفسرين ذلك — يركض نظرها الرمادي بين جفونها على طول اهدائها ، وعندئذ ، وفجأة ، تأخذ الصبيان التي تلقيها مرمى مقلقاً ، ويفكر المرء رغماً عنه بالضجة التي سرت بعد ترملها بأنها سممت غوبيو ببطء .

— انها تخيفني .

قالت جني ذلك وقد كفت عن مقاومة الاهتمام الذي احده جاك فيها .

وشمر بذلك فشحن عزيمته بشكل لطيف وردد :

— نعم . ان الامر كذلك . امرأة تبعث على شيء من الخوف . واذكر انه

نفس الشعور الذي انتابني في اللحظة التي جلسنا فيها الى المائدة ، لقد نظرت اليها : كانت واقفة ، بوجه قاس امام المائدة المجهزة بزهور بيضاء .

— اكانت ترتدي الملابس البيضاء ؟

— تقريباً ؛ ليس ثوب عروس تماماً : ثوب حدقة اذا اردت ، مسرحي

بشكل كاف ذو بياض داكن بلون الكريما . وقد وضع طعام الغداء على طاولات صغيرة . وكانت تدعو انا الى مائدتها دون ان تهتم بعدد الاماكن ، بلا تمييز . وكان باتنكور بقرها . وهيلته عصبية ، وقد قال لها : « ها انت ترين انك شوست كل شيء » . وتبادلا نظرة ... آه ! نظرة غريبة جداً ! وقد شعرت انه لا يوجد بينها شيء جديد ، ولا شيء طويل البقاء : من الماضي فقط . وكانت جنى تقول لنفسها : « ربما لا يكون فاسداً كما فكرت ، ولا جافاً ، ولا .. » وفي اللحظة ذاتها ادركت انها كانت تعرف منذ زمن طويل ان جاك كان حساساً وطيباً ، وظلت مضطربة . وحين كانت تتابع حكاية جاك فانها لم تستطع منع نفسها من ان تحفظ ما يزيد من تبرير الحكم المناسب الذي اطلقته عليه . وتابع :

— اراد سيمون ان اجلس الى شماله . كنت الوحيد الحاضر من جميع اصدقائه . وكان دانيال قد وعد بالهيه : ولكنه هرب . وليس هناك اي عضو من عائلة باتنكور ، حتى ولا ابن عم سيمون الذي نشأ معه والذي كانت يعتمد عليه حتى ساعة اخر قطار . لقد كان الشيطان المسكين يستحق الشفقة . انه طيبة حساسة ، رقيقة جداً ، واؤكد لك ؛ اني اعرف عنه اشياء حسنة جداً . كان ينظر الى جميع الناس حوله : الكل غرباء . كان يفكر بأمله . وقال لي : « لم اكن افكر ابدأ انهم سيعاملونني بقساوة الى هذه الدرجة . يجب ان يكونوا حاقدين علي ! » وفي لحظة اخرى اثناء الوليمة قال لي : « لا كلمة ، حتى ولا برقية . اذن انا غير موجود بالنسبة اليهم . قل ؟ » فلم اكن اعرف بماذا اجب . عندئذ امرع واطاف : « اوه ! اني لا أقول ذلك لأجل نفسي . انا لا يعني . بل لأجل انا » . وفي الوقت نفسه فضت انا الرهيبية ختم برقية جيء بها اليها . واصبح باتنكور اكثر شحوباً . ولكن البرقية كانت لها : تهاني من صديقة . عندئذ لم يعد يستطيع التمسك : فرغم جميع الناس الذين كانوا ينظرون اليه ، ورغم أننا ووجهها المقل ، وتلك النظرة الباردة التي كانت تراقبه ، اخذ يبكي . واحتاجت . فحسب حساباً لذلك . وكان

إلى جانبها ، فوضع يده على ذراعها وقال لها بصوت منخفض كولد : « أسألك
الصفح » . كان سماع ذلك فظيماً . فلم تتحرك . عندئذ - وهذا أكثر إيلاماً
من رؤيته باكياً - اخذ يتكلم بجيوية ، ويمزج ، وبين فترة وأخرى وهو يقول
أي شيء بنبرة مرغمة ، كانت ترى الدموع في عينيه ، وكان مسحها بقفا يده
دون أن يتوقف عن الكلام .

كان اضطراب جاك يضيف على هذا المشهد كثيراً من التأثير بحيث تمت جني :
- هذا فظيع ..

وشعر بسرور - مؤلف ، وربما السرور الأول . سرور شديد . ولكنه اخفاء
بمداجاة ، وقال كأنه لم يسمع :
- ألم اضجرك ؟

ثم تابع :

- ليس هذا كل شيء . فأتساءل تناول المربيات نادت الموائد الأخرى :
« العروسان » ! واضطربا تنكورا وزوجته إلى النهوض ، والابتسام ، والقيام
بدورة في القاعة ، وكأس من الشامبانيا باليد . وهنا حدث شيء مؤلم : في
نزعتها حول المائدة نسيا ابنة الزوج الأول ، وهي طفلة في الثامنة أو التاسعة
من عمرها . وركضت الشيطانة وراءهما . وكانا قد عادا إلى مكانيهما . فقبلتها
أماها مسددة طوق الفستان الصغير ، ثم رفعت ابنتها نحو باتنكور . ولكنه ،
بعد تلك الدورة التي لم يلتق فيها بنظرة صديق ، كانت عيناه مليئتين بالدموع
ولم يكن يرى شيئاً : وقد اضطروا إلى وضع الابنة على ركبتيه . ! تلك الابتسامة
الزائفة التي أظهرها وهو ينحني نحو طفلة الآخر ! لقد مدت الصغيرة خدها :
كانت ذات عينين حزينتين ، تلك الطفلة ، ولن أنسى أبداً هذا . وأخيراً قبلها .
وبما أنها لم تذهب ، فقد داعب ذقنها بحمق ، هكذا ، بإصبع . أفهمت ؟ أوكد
لك أنه أمر يستحق الرثاء . ولكن معها كان الأمر فهي حكاية جميلة .. ألم
تجديها كذلك ؟

فالتفتت نحوه مندهشة من الطريقة التي نلفظ بها « حكاية جميلة » ولاحظت

بأن نظرة جاك لم يكن فيها ذلك الثقل العنيف الذي تجده مثيرا للنفور ، وحقى
حدقتاه الصافيتان ، المتحركتان ، المعبرتان ، كانتا في تلك اللحظة كما صاف
جداً . وفكرت : « لماذا لا يكون دائماً هكذا ؟ »

كان جاك يتسم . وكأية هذه الذكريات لا تعد شيئاً بالنسبة لهذا التذوق
الذي يشعر به حيال حياة الغير ، وحيال كل ما يكشف الفكر وعواطف
الكائنات . وجني أيضاً كانت تشعر بهذا السرور ؛ وربما كان هذا السرور عندها
كما هو عنده قد توهم في تلك اللحظة أنه ليس وحيداً .

وبلغا طرف الجادة : وكانا يشاهدان حواشي الغاب . والشمس تفرش أمامها
على الاعشاب بساطاً فاتناً . ووقف جاك وقال :
- اني أثر ، وأضجرك .

فلم تعترض . إلا أنه بدلاً من أن يستأذن ويذهب ، اقترح :
- ما دمت قد أتيت إلى هنا ، فانا راغب بالذهاب لإلقاء التحية على أخيك .
وكان هذا يذكرها بكذبتها بشكل سيء . وانزعجت منه لأنه لم يتردد
في تصديقها . ولم تجب . وأدرك جاك أنها اكتفت منه ولا ترغب أن يرافقها إلى
أبعد من ذلك .

واغم . ومع ذلك لم يكن يستطيع ان يقرر تركها وان يدعها تحت تأثير
مكدر ، خصوصاً هذا الصباح حيث شعر بولادة شيء بينها كان يتمناه بشكل
غامض منذ اشهر ، وربما منذ سنوات !

وطافا صامتين الطريق المحاط بالأكاسيا والموصل الى الباب الصغير . وكان
جاك ، وقد تأخر قليلاً وراء جني ، يشاهد خط خدها المنحني البديع الحزين .
وكما تقدم كان يقل احتمال تغيير فكره وتركها لوحدها . وتتابع الدقائق .
ووصلا الى الباب ، ففتحته . وتبعها ، واجتازا الحديقة .

كانت الشرفة مقفرة وقاعة الاستقبال فارغة . ونادت جني : ماما . فلم
يجب احد . فسارت نحو نافذة المطبخ وسألت وهي لا تزال مرتبطة بكذبتها :
- هل وصل السيد دانيال ؟

- كلا يا آنسة .. ولكن جيء ببرقية منذ لحظة
فقال جاك اخيراً :

- لا تزعجي والدتك . فأنا ذاهب .

ووقفت جني منتصبة واتخذ وجهها تعبيراً عنيداً . وتمتم جاك :

- الى اللقاء . ربما الى الغد .

فأجابته دون ان تتقدم خطوة لإيصاله : الى اللقاء .

وما ان ادار جاك عقيقه حتى دخلت الى الدهليز ووضعت مضربها بعنف
في الشبكة ، وألقت الكل على الصندوق ، مروحة عن نفسها بحركة عنيفة
لإظهار مزاجها . وفكرت : « كلا . ليس غداً . بالتأكيد ليس غداً » .

وكانت مدام دي فوتتانان قد سمعت من غرفتها نداء ابنتها ، وعرفت صوت
جاك . ولكنها كانت مضطربة جداً بحيث لم تكن لديها القوة لتتظاهر بالهدوء .
فالبرقية التي تلقتها كانت من زوجها . كان جيروم في امستردام ، وحيداً
بدون مورد ، كما قال ، بجانب نومي المريضة . وقد اتخذت مدام دي فوتتانان
قرارها على الاثر : سوف تذهب الى باريس ، اليوم بالذات ، وتأخذ ما بقي لها
في المصرف لترسله إلى العنوان الذي اعطاه جيروم .

وكانت ترتدي ملابسها حين دخلت ابنتها الى غرفتها . وقسمات مدام دي
فوتتانان المضطربة ، والبرقية المفتوحة على الطاولة ، أفلقت جني فتمتمت :

- ما الخبر ؟

وكان لديها الوقت الكافي لتفكر : « لقد حدث شيء . لم اكن هنا . انه
خطأ جاك » .

وتأوهت مدام دي فوتتانان قائلة :

- لا شيء خطير يا عزيزتي . ابوك .. ابوك بحاجة الى شيء من المال .

وكانت خجلة من ضعفها ، خجلة على الخصوص من الاب امام الابنة ،
فاحمرت وخبات وجهها بين يديها .

كان الفجر يولد وراء زجاج عربة القطار المغطى بالبخار . ومدام دي فونتانا متلبدة في زاويتها ، تتأمل مروج هولندا المسطحة دون ان تراها عند وصولها عشية امس الى باريس ، وجدت في بيتها برقية ثانية من جيروم : « صرح الطبيب ان نومي تموت . لا استطيع البقاء وحدي . ارجوك الحضور . وهاتي معك نقوداً اذا امكن » . ولم يكن باستطاعتها اللحاق بدانيال قبل قطار المساء . ولكنها تركت له كلمة ، تخبره فيها بذهابها وتكل اليه امر جنني .

ووقف القطار وسمعت من يصرخ :

- هارلم !

انها آخر موقف قبل امستردام . وقد أطفئت المصابيح . والشمس التي لم تظهر بعد كانت قد ملأت السماء كلها ببياض اللؤلؤ ، المنتشر ، المتعدد الالوان . واستيقظ المسافرون ، وتحركوا ، وطووا المعاطف . وجدت مدام دي فونتانا لتطيل أمد هذا الحذر الذي لا يزال يقبها قليلاً ضد شعورها بمملها . ان نومي على فراش الموت . لقد حاولت ان تقرأ في نفسها . غيرة ؟ كلا . فالغيرة هي تلك اللهبات الفجائية التي كانت تلتهمها أثناء السنوات الاولى لزوجها ، حين كان الشك يساورها دائماً ، وتكابر في المعوس ، وتتناضل ضد المزعجات المنظورة التي لا تحتمل . ومنذ ذلك الوقت لم تعد تتألم من الغيرة ، بل من الظلم الذي وقع عليها . ولكن هل كانت تستطيع القول انها تتألم ؟ لقد عرفت عذابات اخرى كثيرة ! ومع ذلك ، فهل كانت امرأة غيرة " حقيقة " ؟ لقد كان أسوأ ما يؤلمها أن تعرف بعد فوات الالوان انها كانت مخدوعة ؛ وفي أغلب الاحيان لم تكن تشعر حيال عشيقات جيروم بسوى شفقة متعالية قليلاً ، وأحياناً ملونة بالعطف ، كما هو الامر حيال أخوات مفتلات .

وارتجفت أصابعها حين اضطرت إلى ربط شريط الحذاء . ونزلت الاخيرة

من عربة القطار. واللمحة السريعة المشدوهة التي أجالتها حولها لم تلتق بالنظرة التي تنتظر صدمتها. ألم تلتق برقيقته؟ أن فكرة امكان وجود عيين تراقبنا اضطررتها إلى التشدد. وتبعت صف الوافدين.

هناك من لمس ذراعها. كان جيروم أمامها. ونظره متردد مع أنه فرح، عاري الرأس، منحني نصف انحناء، ويحتفظ دائماً بكياسته المقلقة كأمر شرقي، رغم وجهه الهزيل وكتفيه المتقعرين قليلاً. ودفعته موجة المسافرين قبل ان يجد كلمة الاستقبال؛ ولكنه استحوذ على حقبة تيريز بسرعة رقيقة، فقالت مدام دي فونتانان لنفسها: «لم تمت». وخافت ان تضطر إلى رؤيتها وهي تموت.

وبلغا ساحة المحطة صامتين. وبإشارة، أوقف السيد دي فونتانان عربة فارغة. وحين صعدت إليها، خنقها تأثير شبه السعادة: لقد جاءت تسمع صوت جيروم! وحين كان يصدر أوامره بالهولندية للحوذي، ظلت لحظة على درجة العربة جامدة مهتزة، ثم فتحت عينيها وجلست.

والفتحت نحوه منذ أن أصبح إلى جانبها في العربة المكشوفة. وعرفت بريق حدقتيه الاسمر الذهبي والحفي؛ وأصبحت مرة أخرى مغلفة بوهجها الحار. وبدا مستعداً لأخذ يد تيريز، ولمس ذراعها. وكان هذا الموقف يناقض كثيراً أساليب لاطفته المهذبة بحيث صدمت منه كما تصدم من دالة مفرطة مسموح بها، ولكنها كانت مضطربة كما لو ان اضطرابها كان برهاناً على حب لم تكن تأمل به. وكانت هي التي ألقت الكلمة الاولى في الصمت:

— كيف حال ..

واصطدمت بالاسم؛ وأضافت حالاً:

— هل تتألم؟

فقال: كلا. كلا. أبداً.

مع انها كانت تتجنب النظر الى وجهه، فقد ادركت من نبرة جوابه ان نوميي تتحسن كثيراً. وظننت انها شعرت انه مضطرب جداً لدعوة زوجته الى

جانب سرير عشيقته المريضة . واستولى عليها أسف محرق . ولم تكن تفهم اي
سحر مؤذ استطاع ان يجعلها تقرر المجيء بسرعة . وما دامت نوميبي ستعود الى
الحياة ، وما دام كل شيء سيعود سيرته الاولى ويستمر ، فماذا جاءت تفعل
هنا ؟ وعزمت على الرحيل حالاً . وتم جبروم :
- اشكرك يا تيريز .

ولانت رنة الصوت رفيقة ، محترمة ، خجولة . وشاهدت على ركبة
جبروم يده الهزيلة قليلاً ، يده الطويلة ذات العروق ، التي كانت ترتجف بشكل
طفيف ، والحجر الثمين المهتز في البنصر . وملكت نفسها فلم ترفع رأسها ،
ولكنها اسندت نظرها الى تلك اليد العارية ولم تتوصل الى الاسف على رحلتها .
ولماذا ترحل ؟ لقد جاءت بحرية ، باندفاع أوحته الصلاة اليها : لا يمكن ان
ينتج عن ذلك اي شر . ولكي تبعد كل عزم على الرحيل اخذت نقطة الارتكاز
دذه معتمدة على ايمانها ، وشعرت انها عادت قوية . لم تكن النسمة الإلهية
تتركها طويلاً في الحيرة .

ودخلت العربية مدينة كبيرة مهوأة ، تسرح فيها العين . ولم تكن مصاريع
الدكاكين قد سحبت بعد ، ولكن عمالاً على الارصفة كانوا ذاهبين الى المشاغل .
وانخذ الحوذي طريقاً اقل عرضاً ، انها قطع متتابعة من الاراضي المرتفعة
مرتبطة بحسور بشكل ظهر حمار : وكان الشارع يقطع اقنية متتابعة متوازية
محاطة ببيوت تخلو راجعاتها من النتوءات ، مرتفعة ، ضيقة ، ومعظمها حمراء
بنوافذ بيضاء ، كانت تنعكس في الماء الراكد قليلاً ، بين اغصان الدردار
المنحنية على حافة الارصفة . وشعرت مدام دي فونتنان انها بعيدة عن فرنسا .
وسأل جبروم :

- كيف حال الاولاد ؟

ولاحظت انه تردد في إلقاء هذا السؤال ، وانه تأثر ، وفي هذه المرة لم
يحاول اخفاء اضطرابه .
- على خير حال .

— ودانيال ؟

— انه في باريس ، يشتغل ، ويأتي الى ميزون عندما يكون حراً .

— أنتم في ميزون ؟

— نعم .

فصمت ؟ من المؤكد انه يستحضر في ذهنه الحديقة ، والمسكن المعروف على حاشية الغاب .

— و . . جني ؟

— بخير .

وبدا انه يستجوبها بنظرته ، ويتوسل ؟ فأضافت :

— لقد كبرت كثيراً وتغيرت جداً .

وطرقت جفون جيروم . وتم بصوت لفقه الجهد :

— نعم ، اليس كذلك ؟ يجب ان تكون قد تغيرت كثيراً .

تم صمت من جديد ، ولفت رأسه وهتف فجأة بصوت خفي ، واضعاً يده على جبهته : « آه ! كل هذا فظيع » . وصرح بدون رابط بين الكلام :

— اني بدون مال تقريباً يا تيريز .

فقالت بسرعة : لقد جلبت معي مالاً .

وشمرت بكثير من الشقاء في تلك الصرخة بحيث انت اولاً بحركة سرور لاستطاعتها تطمين جيروم . ولكن فكرة جارحة برزت حالاً : لم تكن نومي مريضة بالقدر الذي جعلها تعتقده ، ولم يجعلها تأتي الا لأجل المال ! ولهذا ارتجفت ، متمردة ، حين لم يستطع جيروم امتلاك نفسه من مؤالها بنبرة خجولة بعد ان انتظر بضع ثوان :

— كم ؟

وخطر لها ، لبرهة ، ان تنقص الرقم . وقالت :

— كل ما استطعت جمعه . اكثر من ثلاثة آلاف فرنك بقليل .

فتمتم :

- آه ! شكراً ... شكراً .. لو تستطيعين ان تعرفي يا تيريز ... المهم ان يكون لدي خمسينة فلورين لإعطائها للطبيب ...

وكانت العربية قد اجتازت ، على جسر حجري ، نهراً كبيراً مزدحماً بالزوارق ، ثم بعد ان دارت في ازقة احدى الضواحي بلغت ساحة صغيرة ووقفت امام درجات معبد .

ونزل جيروم ، ودفع ، واخذ الحقيبة ، بيئة طبيعية جداً جعل تيريز تمر امامه ، ورقي الدرجات ، ودفع مصراع الباب . انها لم تكن كنيسة ولا معبداً ، ربما هي كنيس لليهود . وقال :

- اسألك الصفح . كان ذلك لكي نتجنب الهيجاء بالعربة حتى البيت . فالاجانب مراقبون جداً . وسأوضح لك ذلك .

وبدّل صوته وتابع بابتسامة جذابة لرجل مجتمع :

- ومع ذلك فان بضع خطوات لن تكون سيئة . كان الطقس جميلاً هذا الصباح ! اني اريك الطريق .

وتبعته دون جواب . لم تكن العربية في الساحة . وسار جيروم في ممر مقبب يدخل بواسطة درجات إلى الرصيف الوحيد لإحدى الاقنية : وعلى الضفة الاخرى ، كانت اسس البيوت مصفوفة في الماء . والشمس تلعب على القرميد ، وعلى زجاج النوافذ اللامع والتي تبعث فيها البهجة أزهار العصفرة وإبرة الراهب . وكان الرصيف مزدحماً بالناس و « الجحاش » ^(١) Les Tréteaux . والسلاسل . فقد أقيم نوع من السوق في الهواء الطلق ؛ وبين الثياب العتيقة والبضائع الرخيصة كانوا يفرغون حولة زوارق صغيرة محملة بالزهور التي كان أريجها يمتزج بعفونة المساء الراكدة قليلاً .

والتفت جيروم وقال :

- ألم تتعي " كثيرأ يا صديقتي ؟

١ - قوائم خشبية توضع عليها ألواح .

كانت لديه دائماً نفس الطريقة المغنّاة في لفظ كلمة « صديقتي » . وخفضت رأسها دون أن تجيب .

ولم يشك أبداً بالتأثير الذي أحدثه ؛ وأشار نحو الضفة الأخرى إلى بيت على الزاوية ينتهي إليه جسر ضيق وقال :

— هناك . اوه ! أنه متواضع جداً . وسوف تسامحيني لاستقبالك بثمل هذه البساطة .

وبالفعل ، فقد كان البيت ذا مظهر فقير ، ولكن طلاءه الحديث بلون الأكاجو وخشبه المدهون بالابيض يبعثان على الظن أنه يخج معتنى به . وقرأت تيريز بحروف متفرقة على ستائر الطابق الاول الليمونية اللون ، والتي كانت مسدلة :

بنميون روج - ماتيلدا

اذن فجبروم كان يسكن نوعاً من الفندق ، منزلاً غفلاً بحيث لم تشعر كثيراً انها استقبلت « عندهما » . وشمرت من ذلك بتعزية .

وسارا على الجسر . وتحرك احد ستائر الطابق الاول . اذن فنوميي ترصد ؟ .. وانتصبت مدام دي فوتنانان ، ولاحظت عندئذ فقط ، بين نافذتين في الطابق الارضي ، آرمة مدهونة من الصفيح ، تمثل يجعة بالقرب من وكنة يخرج منها طفل صغير عار .

وسارا في رواق ، ثم في درج تتوضع منه رائحة الدهان . ووقف جيروم على قرص الدرج ورن الجرس مرتين . وسمع نقل ااث في الداخل ، وانزلت فتحة الباب وراء قضبانها الحديدية ، اخيراً فتح الباب قليلاً ليفسح ممراً كافياً لجيروم . وقال :

— اتسمحين ؟ انا ذاهب لأنبيء بوصولنا .

وسمعت مدام دي فوتنانان مناقشة قصيرة بالهولندية . وعلى اثر ذلك فتح جيروم باب الدخول على مصراعيه . كان وحده . فقبعا ممراً طويلاً مفروشا بقماش مشمع يجعل الطريق حراً ، امامهما ؛ وكانت مدام دي فوتنانان متضايقة ، خائفة في كل لحظة ان تجد نفسها امام نوميي . واستعانت بحدارتها لتحفظ

بدمها البارد ، ، ولكن الغرفة التي دخلها كانت غير مأهولة ؛ انها غرفة نظيفة مبيجة تطل على القناة . وقال بحزم :

— ها أنت في غرفتك يا صديقي .

فأمسكت عن السؤال : « ونوبي ؟ »

الا انه ادرك ما جال في فكرها وقال :

— اتركك لحظة . وسارى اذا كانوا بحاجة الي .

وقبل ان يخرج تقدم نحو زوجته وأخذ يدها :

— آه ! يا تيريز . دعيني اخبرك .. لو تعرفين بأي قلق نفسي مررت !

ولكن ها أنت هنا ، أنت هنا .. — ووضع على يدي مدام فوتتانان شفتيه ،

وخده ، فتراجعت خطوة ؛ ولم يفعل شيئاً لإبقائها ، وقال وهو ينفصل عنها :

— سوف أعود بعد لحظة في طلبك . اتريدن ان .. تريها ؟

نعم ، سوف ترى نوعي ، ما دامت قد قامت بهذه الرحلة بله ، رضاها .

ولكن بعد ذلك ، بعد ذلك سوف تذهب حالاً معها حدث ! وأشارت أن

نعم ، ولم تسمع كلمة « شكراً » التي تتم بها ، وانحنت على محفظتها ، متظاهرة

بالبحث فيها ، إلى ان ترك جيروم الغرفة .

وعندئذ وجدت نفسها وحدها تجاه نفسها ، وهبطت طمأنينتها . ففزعت

قبعتها ، وألقت في المرأة نظرة على وجهها المتعب ، ووضعت يدها على جبهتها .

كيف استطاعت ان تكون هنا ؟ لقد شعرت بالهجل .

ولم يكن لديها وقت للاستسلام ! فقد طرق الباب ، وقبل ان تجيب فتح

الباب امام امرأة ترتدي مئزرأ أحمر ، بدت انها تقدمت في السن رغم شعرها

الكثير السواد ووجهها المعتنى به . فلفظت بضع كلمات استفهامية بلغة لا تفهمها

مدام دي فوتتانان ، وأتت بحركة ملل ، وأدخلت امرأة أخرى أصغر سناً ،

بمئزر ايضاً ولكن بلون زرقاء السماء ، وبدت انها كانت تنتظر في الرواق ،

وحيت مدام دي فوتتانان بصوت خارج من حنجرتها :

— صباح الخير يا سيدتي !

وَجَرى حَدِيثٌ قَصِيرٌ بَيْنَ الْآتَيْنِ الْجَدِيدَتَيْنِ . وَكَانَتِ الْكُبْرَى تَشْرَحُ
لِلصَّغْرَى مَا يَجِبُ أَنْ تَقُولَ ، فَتَجَمَعَتْ أَفْكَارُهَا لِحِظَةٍ ، وَالتَفَتَتْ بِكِيَاةٍ ،
وَبَدَأَتْ تَقُولُ بَيْنَ وَقَفَاتٍ :

- تَقُولُ السَّيِّدَةُ أَنْ عَلَيْكُمْ أَنْ تَحْمِلُوا السَّيِّدَةَ الْمَرِيضَةَ ، وَتَدْفَعُوا الْفَاتُورَةَ
وَتَنْتَقِلُوا إِلَى بَيْتٍ آخَرَ . هَلْ فَهِمْتُ (١) ! هَلْ فَهِمْتُ لَفْظِي ؟
فَأَتَتْ مَدَامُ دِي فُونْتَانَانَ بِإِشَارَةٍ مَرَاوِعَةٍ . كُلُّ هَذَا لَا يَعْنيهَا . وَعِنْدَهُدْ
تَدَخَّلَتِ السَّيِّدَةُ الْمُسَنَّةُ مِنْ جَدِيدٍ ، بِهَيْئَةٍ قَلْقَةٍ عَنِيدَةٍ . وَقَالَتِ الصَّغْرَى :
- تَقُولُ السَّيِّدَةُ ، حَقٌّ لَوْ لَمْ تَدْفَعُوا الْفَاتُورَةَ حَالًا فَيَجِبُ أَوَّلًا أَنْ تَنْتَقِلُوا ،
وَتَذْهَبُوا ، وَتَأْخُذُوا الْمَرِيضَةَ إِلَى غُرْفَةِ فَنْدُقٍ فِي مَكَانٍ آخَرَ . أَفَهِمْتُ ؟ وَهَذَا
أَفْضَلُ لِلْبُولِيسِ .

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ فَتَحَ الْبَابَ بِسُرْعَةٍ وَظَهَرَ جَيروم . وَتَقَدَّمَ نَحْوَ الْمُتَزَّرِ الْآخَرِ
وَإِخْذَ يَشْتَمُهُ بِالْهُولَنْدِيَّةِ وَيَدْفَعُهُ خَارِجًا . وَسَكَتَ الْمُتَزَّرُ الْآزْرَقُ ، مُتَطَلِّعًا بِالدُّورِ
إِلَى جَيروم وَمَدَامُ دِي فُونْتَانَانَ بَعَيْنَيْنِ وَقَحْطَيْنِ . إِلَّا أَنَّ الْعَبْجُوزَ بَدَتْ فِي أَوْجِ
هِيَاجِهَا ، وَرَفَعَتْ يَدَهَا الَّتِي تَوْسُوسُ فِيهَا الْحُلَى كَأَنَّهَا يَدُ غُجْرِيَّةٍ . وَأَخَذَتْ تَصِيحُ
بِعِبَارَاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ تَعُودُ فِيهَا دُونَ انْقِطَاعٍ إِلَى الْكَلِمَاتِ نَفْسَهَا :

- مَوْرَجَنْ ... مَوْرَجَنْ ... بُولِيَّتِي (٢) !

وَإِخْرَافًا تَوَصَّلَ جَيرومُ إِلَى إِخْرَاجِهَا وَاعْلَقَ الْمَزْلَاجَ وَقَالَ مُلْتَفِتًا نَحْوَ زَوْجَتِهِ
بِهَيْئَةٍ مَعَاكِسَةٍ :

- أَسْأَلُكَ الصَّفْحَ .

وَإِذْ رَكَتْ تَبْرِيزَ عِنْدَهُدْ أَنَّهُ بَدَلًا مِنَ الذَّهَابِ إِلَى نُومِي فَقَدْ ذَهَبَ لِتَبْدِيلِ
مَلَابِسِهِ ، لِأَنَّهُ حَلَقَ حَدِيثًا ، وَوَضَعَ قَلِيلًا مِنَ الْبُودَرَةِ عَلَى وَجْهِهِ ، وَجَدَّدَ شَبَابَهُ ،
فَقَالَتْ لِنَفْسِهَا : « وَأَنَا ، كَيْفَ أَنَا بَعْدَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنَ السَّفَرِ ؟ »

١ - بِالْهُولَنْدِيَّةِ فِي الْأَصْلِ .

٢ - *Morgen .. Morgen .. Politie* .

وثأبوع وهو يقترب :

— وكان عليّ أن أقول لك لتقفلي على نفسك . فهذه المؤجرة المجوز امرأة شجاعة ولكنها ثرثرة ولا تراعي شعور غيرها .
فقال تيريز لاهية :

— إذن ماذا كانت تريد مني ؟

وكانت قد عرفت أريج الاترج الذي يحوم دائماً حول جيروم بعد زينته . وظلت بضغ ثوان مفتوحة الشفتين قليلاً ونظرها مضطرب ، وقال :

— لم افهم شيئاً من طعمايتها . فقد حسبتك مستأجرة اخرى .

— قالت الزرقاء عدة مرات بضرورة دفع الحساب والانتقال إلى مكان آخر .
فهز جيروم كفيه ، وانتقطت مدام دي فونتنان ، كصدى لضحكته القديمة ، تلك الضحكة المتصنعة قليلاً ، والمزهوة قليلاً ، والتي كانت تجمعها بقلب رأسه إلى الوراء ، وهتف :

— هه اه اه اه ! ما أعجب هذا ! ربما خافت المجوز أن لا أدفع لها .
كان يبدو أنه يعتبر عجزه عن دفع ديونه هو افتراض مجنون . وتأبوع ، وقد دكن وجهه فجأة :

— هل الخطأ مني ؟ لقد جربت كثيراً . وما من فندق اهتم بأخذنا .

— ولكنها كانت تقول لي : بسبب الشرطة .

فردد بدهشة :

— هل قلت لك : الشرطة ؟

— أعتقد .

وميزت مرة اخرى على قسائم جيروم ذلك التعبير عن سلامة الطوية المرتابة التي ظلت ذكرها مرربطة بازمامات حياتها السيئة . والتي كانت تضايقها كالو ان الهواء يحمل بالطاعون .

— افكار نساء ساذجات ! لماذا القيام بتحقيق؟ لأنه يوجد عيادة طبيب في

الطابق الارضي ؟ كلا - المهم هو القدرة على اعطاء ذلك الطبيب الصغير خمسمائة فلورين .

لم تفهم مدام دي فونتانان جيداً ، وكانت تتألم من ذلك لانها كانت بحاجة دائمة الى الاستشارة . وكانت تتألم على الخصوص لأن تجد جيروم ملبكاً ، محرجاً مركزه دائماً في ترتيبات لم تكن تعرف الا ان تفكر بها . وسألته عازمة على الحصول على بعض الايضاحات :

- منذ متى انت هنا ؟

- خمسة عشر يوماً . كلا ... ليس اكثر : اثني عشر تقريباً . اني لا اعرف ابداً كيف أعيش .

- ولكن ... تلك المريضة ؟

قالت ذلك واكملت بنبرة استفهامية لم يستطع التخلص منها ؟ فقال دون ان يبدو متردداً :

- تماماً ، ان المرء يتعذب كثيراً في التفاهم مع هؤلاء الاطباء الاجانب ! انه مرض من هذه البلاد ، احدى حمايتها ... الهولندية ، اتعرفين ؟ روائح الافنية - وفكر لحظة : - يوجد حتى المستنقعات في هذه المدينة ، وجميع انواع الأبنجرة التي لا تزال بمجولة ..

لم تكن تصغي اليه سوى نصف إصغاء . ولم تستطع منع نفسها من الملاحظة انه في كل مرة يتعلق الامر بنويي ، فان موقف جيروم ، وهزات كتفيه ، وحتى الطريقة الجامدة التي يتكلم بها عن ذلك المرض ، لا تدل على عاطفة قوية . ومع ذلك فقد ابت على نفسها ان ترى في ذلك اقراراً بالانفصال .

ولم يفاجيء النظرة المتفحصة التي القتها عليه : كان قد اقترب من النافذة ، وبدون ان يرفع الستار ، اخذ يتفحص الرصيف باعتناء . وحين عاد نحوها كانت له تلك الهيئة الوقور ، المتهتدة الصادقة التي تعرفها جيداً وترتاب بها اكثر . وقال بدون رابط بين الكلام :

- اشكرك ، فانت طيبة القلب . ولقد اتيت رغم كل ما سببته لك من ألم ..

تيريز .. يا صديقتي ..

كانت قد تراجعت ولم تنظر اليه . ولكنها كانت لينة الجانب لمواطف الغير ، ولمواطف جيروم على الخصوص ، بحيث لم تستطع الانكار في تلك اللحظة انه كان متأثراً وان هذا التكريم كان صادقا . الا إنها رفضت ان تجيبه ، ورفضت حتى ان تطيل الحديث . وقالت :

- سر بي الى تحت .

فتردد لحظة ، ، ورضي .

- تعالي .

واقتربت اللحظة الراهبة .

وكانت مدام دي فونتنان تردد لنفسها وهي تتبع الرواق الطويل المظلم وراء جيروم : « لأتشجع ! الا تزال نائمة ؟ ناقبة ؟ ماذا اقول لها ؟ » وفكرت فجأة بوجهها المنهوك من التعب ، واسفت لأنها لم تعتمر قبعتها على الأقل . وتوقف جيروم امام باب مقفل . وبحركة مرتجفة أمرت مدام دي فونتنان ان يدها على شعرها الابيض وفكرت : « ذلك لأنها ستجديني قد شخت » ، وتحملت حيويتها عنها .

وكان جيروم قد فتح الباب دون ضجة . وقالت مدام دي فونتنان لنفسها : « إنها نائمة » ! كان ضوء الغرفة قليلا ، والستائر من النسيج المصبوغ المشجر الازرق كانت مرفوعة . وهناك امرأتان مجهولتان ، نهضتا . واحدة صغيرة يجب أن تكون خادمة أو حارسة ؛ وتضع مريلة ، وهي تطرز ؛ والاخرى قوية مسنة في الخمسين من عمرها ، تعتمر قلنسوة بنفسجية اللون كقروية ايطالية ، قامت بحركة تراجع بينا كانت مدام دي فونتنان تتقدم إلى وسط الغرفة ، ومست بضع كلمات في اذن جيروم ، وخرجت .

ولم تلاحظ تيريز ذهاب المرأة ، ولا عدم ترتيب الغرفة ، ولا الطست والمناشف الملوثة الملقاة على السرير . ولم تمر انتباهها إلا للمريضة الممدودة على ظهرها ، دون وسادة . هل تلفت نومي رأسها ؟ كانت تنام دون شك ، لانها سمعت

وهي تغط ؛ وفكرت مدام دي فونتنان أن تسحب بثوانٍ لثلاث تمر غفوها حين أشار إليها جيروم أن تقترب حتى رجل السرير . فلم تجرؤ على الرفض . وعندئذ رأت أن العينين كانتا مفتوحتين ، وإن الفطيط كان يتغلب بهزات من الفم المفتوح . ولما كانت معتادة على الظلمة فانها شاهدت الآن الرأس الفقير بالدم ، وتبينك الحدقتين اللتين زال بريقهما ، الزرقاوين كحدقتي حيوان صريع . وأدركت حالاً أن المضطجعة هنا ستموت ، وتأثرت الى درجة أنها التفتت ، مستعدة لطلب النجدة . ولكن جيروم كان يقرئها ، ومع أنه تأمل المحتضرة بوجه يحتاجه الحزن ، فقد رأت أنه لم يكن لديها شيء تعلمه به . وقال موضعاً بصوت منخفض :

— منذ الزيف الأخير ، وقد كان الرابع ، لم تستمد وعيها . وقد بدأت هذه الحشرة البارحة مساءً .

ونفخت دمعتان حافة جفونه ببطء ، واهتزت لحظة بين الاهداب وسالتا على خديه الملونين بلون الصدا .

وبذلت مدام دي فونتنان جهوداً بلا فائدة لتملك نفسها ولم تتوصل إلى قبول هذا المنظر المفروض على نظرها .

إذن سوف تموت ، ستخفي أخيراً من حياتها تلك النومي التي كانت تفكر في هذه اللحظة نفسها أنها منتصرة . لم تجرؤ على فصل عينيها عن ذلك الوجه الذي حمد فيه كل شيء : النظرة ، جناحا الأنف القاسيان ، وتأنك الشفتان البيضاوان اللتان تتفلت من بينهما نسمة آتية من مكان بعيد جداً ، بجاء ، متواترة ، تتجدد دون انقطاع . كانت تتفحص قسماها واحدة واحدة ، دون أن تستطيع إشباع فضول مشحون بالرعب . هل هذه هي نومي ، ذلك اللحم الكامد المفرغ من الدم ، وتلك الحصلة السمراء الملصقة على تلك الجبهة الجافة واللامعة ؟ لم تعرف إلى شيء في تلك السحنة التي لا لون لها ولا تعبير . منذ كم من الوقت لم ترها إذن ؟ عندئذ تذكرت تلك الزيارة التي قامت بها إليها منذ خمس سنوات ، حين هرعت إلى نومي لتصبح بها : « ردي إلي زوجي ! » وظننت أنها تسمع الضحكة المفرطة

لابنة عمها . وفجأة ، دون أن تستطيع منع انتفاضة ، ظنت أنها تشاهد مخلوقة
الجميلة المستلقية على الأريكة ، وتلك الزاوية من الكنف اللحم الذي كان يختلج
تحت المخمرات . في ذلك اليوم ، فإن نيكول في الدهليز .. وقالت بحرارة :
- ونيكول ؟

ماذا ؟

- هل أعلمتها ؟

- كلا .

كيف لم تفكر هي نفسها بذلك وهي تغادر باريس ؟ وقادت جيروم جانباً :
- يجب ذلك يا جيروم . انها امها .

وقرأت كل ضعف هذا الرجل في نظراته المتوسلة ، وهي نفسها ترددت .. بجيء
نيكول الى ذلك البيت الكريه ، ودخولها الى تلك الغرفة ، والتقاؤها بـجيروم
على رأس هذا السرير ! الا انها قالت بصوت اقل صلابة :
- يجب ذلك .

ولاحظت ذلك اللون الترابي الذي يزيد من دكنة صبغة جيروم حين يُرغم في
مشاريعه ، وفتحة الفم تلك التي تتيح رؤية الاسنان بين الشفتين المرفقتين كأثر
شرس . وكررت يهدوء .

- يجب ان تأتي نيكول يا جيروم .

والتقى الحاجبان الرقيقان ، وانخفضا . كان لا يزال يقاوم . وأخيراً
رفع اليها نظره القاسي : لقد خضع . وقال :
- اعطني عنوانها .

وحين ذهب لأجل البرقية عادت إلى جانب نومي . كان مستحيلاً عليها
الابتعاد عن هذا السرير .

وظلت واقفة ، متدلية الذراعين ، واليدان مضمومتان . كيف أمكنها
الظن أن المريضة قد نجت ؟ ولماذا لم يبد جيروم أنه يتألم كثيراً ؟ ماذا يصيربه ؟
أيمود للميش إلى جانبها ! آه ! بالتاكيد فهي لن تقترح عليه ذلك ؛ ولكنها

أيضاً لا ترفض له هذا المأوى .

نوع من الفرح، أو بالاحرى عاطفة عذبة جداً من السلام، عاطفة خجلت منها، كانت تولد فيها، رغباً عنها . وحاولت إبعادها . وحاولت أن تصلي . تصلي لأجل تلك النفس التي ستعود نحو « الروح » . وفكرت : « يا للنفس المسكينة ، ان أمتعها ليست ثقيلة » ! ولكن في هذا التقدم المحتوم للكائنات نحو الافضل ، وخلال تلك المراحل المتتابعة التي تشير اليها التجسّدات الارضية ، فان كل جهد مهما كان صغيراً ، ألا يبقى لمنفعة من قام به ؟ وكل ألم ، اليس هو درجة اكثر نحو الكمال ، بقدر محتوم ؟ لم تكن تيريز تشك ابدأ ان نومي تتعذب . فالبائسة ، رغم حياتها اللامعة ، لم تنقطع دون شك ان تجر معها قلقاً مرّاً ، تلك المعاكسة للضائر التي تجهل بعضها بعضاً ، ولكنها مع ذلك تخاف سرّاً من تديسها . وهذا العذاب للنفس المسكينة 'بعد' كتجسد من جديد بشكل افضل ، وكذلك حبها ، مع انه حب مجرم وقد سبب كثيراً من الأذى ! وهذا الاذى ، غفرته تيريز في هذه الدقيقة دون جهد . كانت تفكر بانها لم تكن ذات فضيلة كبيرة . واقتنعت بأنها لم تنجح بالتفكير ان موت نومي كان مصيبة كبرى . لأي كان . وهي ايضاً ، كجيروم ، كانت قد اعتادت على هذا الاختفاء . وكانت عواطفها تتطور بسرعة لا ترحم . لم يمض ساعة على « معرفتها » - ولم تفعل شيئاً سوى انها سلمت امرها لله .

حين هبطت نيكول من قطار باريس السريع ، بعد يومين ، كان قد مضى ست وثلاثون ساعة على وفاة والدتها . ووجب ان يكون موعد الدفن في الصباح التالي .

كان الجميع يبدون متعجلين الانتهاء من ذلك : المؤجرة ، جيروم ، وخصوصاً الطبيب الشاب ذوالخمساية فلورين والذي اصدر شهادة الدفن دون ان يصعد الى الطابق الذي فيه الميتة ، بعد اجتماع مقتضب في الطابق الارضي .

ومع ان هذا الواجب كان مؤلماً فوق الحد بالنسبة الى تيريز ، فانها ابدت رغبته في المساعدة في زينة نومي الاخيرة ، تستطيع ان تقول لنيكول انها

صلت محلها في هذا العمل التقوي . ولكن في اللحظة الاخيرة ، وبقدر سيء ،
أبعدت عن غرفة الميتة . وكانت الممرضة هي التي قامت بهذه المهمة دون اي
شاهد سوى الحارسة - «من عاداتها ان تفعل ذلك » كما اوضح جيروم .
وكان في حضور نيكول تسليمة .

لا يزال هناك وقت : فلقاءات المرأة المسنة ، والمؤجرة ، والطبيب في
الاروقة أصبحت من ساعة الى ساعة لا تحتل بالنسبة لمدام دي فونتانا ؟
فمنذ مجيء المرأة المسكينة لم تجد في ذلك البيت نسمة هواء صالحة للتنفس
بالنسبة اليها . ووجه نيكول المنفتح ، وصحتها ، وشبابها ، كل هذا حمل اخيراً
إلى ذلك المكان جواً مطهراً . إلا ان انفجار ألمها - الذي ضعضع جيروم فالتجأ
إلى الغرفة المجاورة - بدا لمدام دي فونتانا غير متناسب مع المواطن التي
كانت الفتاة تشعر بها حقيقة حيال تلك الأم التي دالت دولتها ؛ وهذا الحزن
الغني ، غير المفكر لطفلة ، يطابق رأيها حول طبيعة ابنة أخيها ، وفكرت :
« طبيعة سمحة . ولكن دون كثافة حقيقية » .

وكانت نيكول راغبة في نقل الجثة إلى فرنسا ؛ وبما انها لم تكن تريد توجيه
الكلام إلى جيروم الذي لا تزال تعتبره مسؤولاً عن سوء سلوك امها ، فإن العمة
تبريز كلفت بعرض القضية ، فاصطدمت بمقاومة عامة وقطعية ؛ وقد عورضت
بالاجرة المتجاوزة الحد لمثل هذه الانواع من النقلات ، وبالشكليات التي لا تعد
والتي يجب الخضوع لها ، واخيراً التحقيق في كل كبيرة وصغيرة ، والذي لا
يفوت الشرطة الهولندية ان تأمر به ، وهو تحقيق مزعج جداً للجانب كما اكد
جيروم . ولذا وجب الاقلاع عن ذلك .

وأرادت نيكول ان تسهر إلى جانب النعش مع انها منهوكة من التأثير ومن
السفر ، وقد قضى الثلاثة تلك الليلة الاخيرة ، وحدهم ، صامتين في غرفة نومي .
وكان التابوت موضوعاً على كرسيين تحت الزهور . وعبير الورود والباسمين
يدير الرأس بحيث وجب فتح النافذة على مصراعها . وكان الليل حاراً وصافياً
جداً ، وبريق القمر يبهر النظر . وكان يُسمع في فترات متواترة هدير الماء وهو

يضرب أعمدة البيت . والساعات تدق في برج مجاور . وشعاع قمري منزلق على الارض الخشبية كان يمتد ، ويتمطش من دقيقة إلى اخرى ، نحو وردة بيضاء نصف ذابلة ، ساقطة على قدم التابوت وأصبحت شفافة ، زرقاء تقريباً . وكانت نيكول تتفحص بعين عدائية عدم ترتيب الغرفة . ربما كانت امها تعيش هنا ؛ وهنا دون شك قد تعذبت . وربما شعرت بانذار النهاية وهي تحصي باقات هذا البساط ، وربما استعادت بشكل بائس جنونيات حياتها الموحلة ، فهل كان لديها فكرة متأخرة عن ابنتها ؟

وكان موعد الدفن باكراً جداً .

لا المؤجرة ، ولا الممرضة ظهرت وراء الجنازة . كانت العمة تيريز تسير بين نيكول وجيروم ؛ وليس هناك شخص آخر سوى قس هرم كانت مدام دي فوتتانان قد طلبت منه مرافقة الجثمان وتلاوة الصلوات الاخيرة .

ولكي توفر مدام دي فوتتانان على نيكول العودة لرؤية بيت القناة البفيض فقد عازمت ان تسير بالفتاة رأساً إلى المحطة عند خروجهم من المقبرة ؛ وكان على جيروم اللحاق بها مع الامتعة . الا ان نيكول رفضت ان تحمل أي شيء كان شامداً على حياة والدتها في الخارج ؛ وهذا التخلي عن صناديق أمتعة نومي سهل بشكل غريب مناقشات التسويات الاخيرة مع المؤجرة .

وحين أصبح جيروم وحده ، وقد صفيت جميع الحسابات ، في العربة التي يجب أن تسير به إلى القطار ، وبما أنه قد بقي لديه وقت طويل حتى ساعة الرحيل ، فقد أرجع العربة القهقري ، خاضعاً لدافع فجائي ، ليعود مرة أخيرة إلى المقبرة . وناه قليلاً قبل أن يجد مكان القبر . وما أن عرفه من بعيد ، عند الارض المقلوبة ، حتى رفع قبسته وتقدم بخطى منتظمة . هنا تضطجع الآن ست سنوات من الحياة المشتركة ، والانفصال ، والغيرة ، والعودة إلى الوثام ، ست سنوات من الذكريات والإسرار حتى آخر كل شيء ، حتى الاكثر إفجاعاً ، والذي انتهى إلى هنا .

وفكر : «وبعد كل هذا ، فإن الامر كان من الممكن ان ينتهي إلى ما هو أكثر

شراً .. انني أتألم قليلاً». أكد ذلك بينا جبهته المتشنجة وعيناه الغارقتان بالدموع كانت تبدوا أنها تؤكد العكس . هل الخطأ خطأه إذا كان السرور الذي سببه له بحبيء زوجته أشد قوة من حزنه ؟ أن تيريز هي الكائن الوحيد الذي أحبه ! فهل ستعرف ذلك ؟ هل ستدرك أنها وحدها كانت ، في بروده الصارم ورغم الظواهر ، تملأ تلك الحياة لرجل محظوظ حيث لم يكن يوجد سوى حب كبير ؟ أتدرك أن كل ميل آخر إلى جانب الحب الكلي الذي نذره لها لا يمكن أن يكون إلا زائلاً ؟ ومع ذلك فقد كان لديه في هذه اللحظة برهان جديد : أن موت نومي لم يتركه مبعداً ولا وحيداً . وما دامت تيريز حية فإنه لن يكون وحيداً ولو كانت أكثر بعداً ، ولو فكرت أن تقطع جميع الروابط التي تربطها به . وأراد التخيل ، لهنية ، أن تيريز هي المدفونة هنا ، تحت الأرض المغطاء بالزهور ؛ ولكنه لم يستطع احتمال الفكرة . وربما لم يوجه إلى نفسه أقل لوم بسبب الاحزان التي سببها لزوجته ، ما دام في تلك الدقيقة الاحتفالية ، وأمام ذلك القبر ، كان مرتاح الضمير لأنه لم يسرق منها شيئاً جوهرياً ، وأنه كرس لها الأندر والأكثر ديمومة من قلبه ؛ وما دام مرتاح الضمير بأنه لم يكن غير غلص لها ولا ثانية واحدة . وفكر ، ولكن بثقة : « ماذا ستفعل بي ؟ أنها ستعرض علي العودة إلى جانبها ، إلى جانب الاولاد .. » وظل منحنيًا ، والوجه ممس بالدمع - والقلب متألق بأمل مخادع .

« كل شيء سيكون حسناً لولا وجود نيكول » .

واستعاد في ذهنه موقف الفتاة الصامت ، ونظرها الحقود ، واستعادها وهي منحنية على الحفرة ، واعتقد أنه يسمع من جديد ذلك النحيب الجاف ، المؤلم الذي لم تستطع كبهه .

آه ! لقد كان تفكيره بنيكول عذاباً . ألم تغادر الطفلة بسببه منزل امها محدوها الاحتقار ؟ وتصادعت من أعماق ذاكرته شذرات قسم : « الويل لمن يجلب الفضيحة .. » وفكر : « كيف أكفّر ؟ كيف أستحق عفوها ؟ كيف أكتسب عطفها ؟ » لم يكن يستطيع احتمال فكرة وجود من لا يحبه . وعندئذ

اجتازت عقله فكرة رائعة : « لو تبشيتها ؟ »

ووضح كل شيء . وتصور نيكول جالسة إلى جانبه في شقة صغيرة يفرشها لها ، ويحيطها بالعناية ، ويساعدها في الاستقبال ، وفي الصيف يستطيعان السفر معاً . وسيعجب الجميع بحميتة في اصلاح غلظته . وسوف تستصوب تبرز ذلك . واعتمر قبعته ، وابتعد عن القبر ولحق بالعربة بخطى سريعة .

كان القطار جاهزاً منذ وقت طويل حين وصل الى المحطة . وكانت المرأة قد اتخذت مكاناً في مقصورة . ودهشت مدام دي فوتنانان لأن زوجها لم يلحق بها بعد . هل لاقى جيروم صموبة في البنسيون ؟ كل شيء بدا ممكناً . الا يستطيع جيروم الذهاب ؟ ذلك الحلم الذي حلمت به بأن تميده الى ميزون ، وان تسهل عليه عودته الى البيت ، وربما توبته ، هذا الحلم الجميل هل سيتلاشى ولم يكذب يتكون ؟ وتضاعف خوفها وهي تراه يتقدم نحوها بخطى عريضة وهيئة قلقة :

— ابن نيكول !

— انها هنا ، في الرواق .

كانت نيكول واقفة امام الزجاج المنخفض الى نصفه ؛ وكان نظرها ينزلق بثقل على تشابك الخطوط الحديدية . وكانت كثيبة ، وتمبة على الخصوص ؛ كثيبة الا انها سعيدة لأن كل احزان اليوم لم تستطع ان تحررها لحظة من سعادتها . وسواء أكانت امها حية أم ميتة ، لم يكن خطيبها ينتظرها ؟ وحاولت ان تطرد هذه الفكرة مرة اخرى كأنها خطأ . هذه الفكرة القائلة ان اختفاء امها كان لخطيبها على الأقل خلاصاً ومحوراً للنقطة الوحيدة السوداء التي كانت تلوث مستقبلها حتى الآن .

ولم تكن قد سمعت جيروم يقترب منها :

— نيكول ! ارجوك ! باسم والدتك . سامحيني .

فارتجفت ، والتفتت . كان امامها ، وقبعته بيده ، وقد تطلع إليها بنظر خاضع ملاطف . ذلك الوجه الذي أتلغه الألم وتوبيخ الضمير ، لم يربعها هذه

المرّة : لقد شعرت بالشفقة . وقد جرى ذلك كأنها كانت تنتظر هذه الفرصة لتكون طيبة . نعم ، لقد عفت .
ولم تجب ، ولكنها مدت اليه بسلامة طوية يدها الصغيرة في قفاز أسود .
فأخذها ، وشد عليها ، وتمت دون ان يستطيع السيطرة على تأثره :
- شكراً .
وابتعد .

ومضت بضعة دقائق . ولم تتحرك نيكول ابداً . كانت تفكر ان ما فعلته هو الافضل بسبب العمة تيريز وانها سوف تروي هذا المشهد المؤثر لخطيبها .
وبدأ الناس يصعدون ، ويلامسونها بصناديقهم . واخيراً سار القطار . وساعدتها الهزة على الخروج من تعذرها . وعادت الى العربة . وكان مجهولون قد شغلوا الاماكن التي كانت فارغة قبلاً . وفي الداخل شاهدت العم جيروم جالساً قبالة مدام دي فونتنان ، وذراعه في الحلقة المعلقة ، ووجهه مدار نحو المناظر الطبيعية ، وكان يقضم خبزاً بلحم خنزير .

٨

قضى جاك السهرة وهو يتذكر حديثه مع جني كلمة كلمة . لم يكن يحاول تحليل السبب الذي جعل هذه الذكرى ملازمة ، ولكنه لم يكن يستطيع الانفصال عنها ، وقد استيقظ عدة مرات في الليل ليعود إليها بسرور لا يضعف . وكذلك في الغد ، عند وصوله إلى ملعب التنس كان اخفاقه كبيراً لانه لم يشاهد الفناة .

لم يكن يريد رفض دور اللعب الذي عرض عليه ؛ ولمب بشكل سيء ، متطلماً دون انقطاع نحو المدخل . ومضى الوقت ولم تأت جني . وما ان استطاع الهرب حتى فعل . إذا لم يكن يأمل شيئاً فإنه لم ييأس بعد . وفجأة رأى دانيال يتقدم نحوه ، فسأله دون ان يندهش للقاء :
- وجني ؟

— لن تلعب هذا الصباح . إذن فقد كنت تخرج ؟ سأرافقك . انا في ميزون منذ البارحة مساء .

وتابع حين أصبح خارج النادي :

— نعم ، كانت امي مضطرة الى التغيب فطلبت الي ان اُتاه هنا لكي لا تبقي جني وحدها ليلا ؛ فالبيت بعيد جداً عن كل شيء .. ابتكار جديد لوالدي . وامي المسكينة لا تعرف ان ترفض له شيئاً .

وظل مفتعلاً لحظة ، ثم ابتسم بعزم : انه لم يكن يصبر على ما يكون مؤلماً له . وقال مع عناية رقيقة في نظراته :

— وأنت ؟ أنت تعلم انني اعدت التفكير كثيراً « بنجاحاتك المفتنة » . وبالحقيقة فاني مستمر بحجة ذلك . وكلما فكرت به يزداد حيي . انها سيكلوجية غير منتظرة ، عنيفة قليلاً ، غامضة قليلاً ايضاً من ناحية الاماكن . ولكن الفكرة جميلة ، والشخصيتان حقيقتان دائماً وجديدتان جداً . فقاطعه الآخر بلل لم يستطع السيطرة عليه .

— كلا يا دانيال . لا تقاضيني على ذلك . أولاً ، الشكل مكروه ! انه متنفخ . عجيني ، مثقل بالثروة . — وفكّر بهياج : — « الوراثة » ..

وتابع :

— وحتى المحتوى ، انه ايضاً اصطلاحى ، مصنوع .. بواطن الكائن . آه ! اني أرى جيداً ما يلزم . ولكن .. وسكت فجأة .

— ماذا تفعل في هذه الايام : هل بدأت شيئاً آخر ؟ — نعم .

وتابع بدون ان يعرف لماذا احمر وجهه جاك :

— اني أرتاح على الخصوص . كنت اكثر تعباً مما ظننت بعد تلك السنة في البيت . وثم . ثم اني آت من زواج ذلك المسكين باتنكور . يا له من مستسلم ! فقال دانيال :

— لقد قصت جني علي ذلك ،

واحمر وجه جاك من جديد . أولاً استياء مقتضب لأن حديثها البارحة لم يكن سرّاً بين جني وبينه ، ثم سرور شديد جداً لمعرفة أنها أقامت لهذا الحديث وزناً ، وأنها تذكرته ، حتى أنها حدثت أخاها به في نفس المساء .

واقترح وهو يدخل ذراعه تحت ذراع دانيال :

— أريد أن نزل حتى ضفة السين ونحن نتحدث ؟

— مستحيل يا صديقي . اني عائد الى باريس في قطار الساعة الواحدة والدقيقة العشرين . وانت تعلم ، اني أريد أن أكون كلب الحراسة ليلاً .

ان ابتسامته التي فهم منها أي نوع من الواجب يدعوها في باريس ، لم تعجب جاك الذي سحب ذراعه . وقال دانيال ليبدد هذا الظل :

— ولكن ، اتعلم ؟ ستأتي لتناول الغداء معنا . وهذا سيسبب السرور لجني . فخفض جاك عينيه ليخفي اضطراباً جديداً . وبدأ متردداً ، فوالده ليس على وشك العودة ، ومن السهل عليه أن تفوته وجبة . والسرور الذي اجتاحه أدهشه هو نفسه ، فكبحه ليجيب .

— إذا ثلثت : الوقت الذي أمر فيه على البيت لأعلمهم . سر أمامي ، وسألحق بك إلى الساحة .

وبعد بضع دقائق لاقى صديقه ، الذي كان ينتظره ، قائماً على العشب أمام القصر . وصاح فيه دانيال وهو يمدد ساقيه في الشمس :

— ما أجمل الطقس ! ما أجمل هذه الحديقة في هذا الصباح ! ما أمتعك لانك تعيش في هذا الاطار !

فأجاب جاك :

— لم يبق إلا أن تأتي وتعيش فيه أنت أيضاً .

ونفض دانيال مسلماً بما قال رفيقه ولكن بتعبير حالم ومرح :

— اعلم ذلك جيداً . ولكن ، أنا ، ليس نفس الشيء .. اوه ! يا عزيزي .

— قال ذلك مقرباً ومبدلاً النبرة — أعتقد أنني بدأت مغامرة عجيبة .

— الصغيرة ذات العينين الخضراوين ؟

— ذات العينين الخضراوين ؟

— عند باكيل .

قتوقف دانيال ؛ واستقر نظره أمامه برهة ، وابتسم بشكل غريب :

— رينيت ؟ ولكن كلا ، شيء جديد : وأفضل أيضاً ! — وسكت مهتماً ،

وقال أخيراً : — آه ! رينيت تلك ! يا للفتاة الغريبة ! أنت تعلم أنها هي التي

تركنتي . نعم ، بعد بضعة أيام ! وضحك كرجل لم يحدث له شيء من ذلك سابقاً .

أنت الروائي ، ربما تروق لك . أما أنا ، فقد كانت تتمعني . لم ألتق أبداً بامرأة

مثلها لا تحلّ طلاسها . واني لا أزال أتساءل إذا كانت احببني عشر دقائق

متتابعة ؛ ولكن مثلاً ، حين كانت تحبني ! غتلة العقل ! يجب أن تكون ذات

ماض مربب يلاحقها . لقد قيل لي أنها كانت في الماضي تنتمي إلى إحدى

تلك المعصابات السوداء ، أتعلم ؟ ولن أدهش إذا كان الأمر غير ذلك .

— ألا تراها أبداً ؟

— كلا ، حتى اني لا أعرف ما حلّ بها . لم تعد تظهر أبداً عند باكيل . . . وأضاف

بعد وقفة : — أحياناً كنت آسف عليها . أقول هذا ، ولكن في دخيلة نفسي

فإن هذا لا يمكن أن يدوم ؛ أنها تصبح غير محتملة بسرعة . ذات عدم رصانة

ليس لديك فكرة عنها ! لم تكن تنقطع عن إلقاء الاسئلة . أسئلة عن حياتي

الخاصة . ولكن نعم ، عن عائلتي ، عن والدي ، عن اختي ؛ والافضل :

عن والدي !

وخطا بضع خطوات صامتاً وتابع :

— مها كان الامر فعندي منها تذكّار ملكي : تذكّار السهرة حين سرقته

من لودفيكسون .

— وهو ، ألم يسرق منك موارد عيشك ؟

— هو ؟

أخذ نظر دانيال يلعب . وثنية ابتسامته كشفت أسنانه :

- لم تسنح لي فرصة كهذه لاحكم على لودفيكسون : وبعد ، لم يظهر عليه أنه يتذكر شيئاً ! إعتقد به كما يحلو لك ، يا صديقي . أما أنا فأقول : أنه رجل كبير طيب القلب .

كانت جني قد قضت هذا الصباح دون أن تخرج ؛ وحين عرض عليها دانيال أن يرافقها إلى ملعب التنس رفضت بعناد ، متعلقة بأن عندها ما تعمله . ولكنها لم تكن تستسيغ عمل شيء ، ولم تتوصل إلى إشغال وقتها .

و حين رأت الشابين من نافذتها يجتازان الحديقة ، كانت اول حركة لها هي الاستياء : لقد أفسد جاك عليها هذه الوجبة من الطعام مع اخيها بمفردهما ، حيث كانت تتمتع بها . الا ان حزنها الفاضب لم يستطع مقاومة ظهور دانيال السار في الباب المفتوح قليلاً .

- احزري بمن اقتيتك لتناول الغذاء .

ففكرت : « لدي وقت لتبديل ثوبي » .

كان جاك يتنزه طولاً وعرضاً في الحديقة ؛ فقد تزوق هذا الصباح جاذبية المكان اكثر من اي وقت . ولدى الخروج من هذه الروضة ذات الدارات ، فان لعقار آل فوتنانان فتنة مزرعة متروكة على طرف الغابة . ابنية غير متلاصقة جاءت تنضم الى المنزل المركزي . كوخ قديم للصيد دون شك ذو نوافذ عالية أصلحت عشر مرات : « هناك درج خشبي تحت افريز ، يشبه درج هري يوصل الى اعلى الجناحين . وكانت حمام جني تطير باستمرار على منحدر السطوح القرميدية ، والجدران مطلية بحص وردي صارخ يشرب النور كطلاء ايطالي . وصنوبرات كبيرة ، ترتفع بغير ترتيب ، وتغطي البيت بظل جاف يشتم منه رائحة الصمغ وحيث العشب لا ينبت ابداً .

وكان الغذاء ذا بهجة بواسطة بشاشة دانيال المستقلة الى الجميع . كان منتشياً بصباحه ، مليئاً بالأمال لفترة ما بعد الظهر . وقد اطرى جني بسبب ثوبها الكتاني الازرق ، ووضع لها في فتحة الصدر وردة بيضاء ؛ وكان يدعوها « الاخت الصغيرة » ويضحك من كل شيء ، ويسخر هو نفسه من حدة ذهنه

كان يريد من جاك وجني ان يذهبا معه الى المحطة وينتظرا القطار معه . سألت .

- هل ستعود للعشاء ؟

ولاحظ جاك . ليس بدون فرق في الكتابة ، النبوة العنيفة ، اللا ارادية دون شك ، والتي كانت تبدو بين فترة واخرى تحت ظواهرها المحتجبة المعذبة . واجاب دانيال :

- يا الهي ، هذا محتمل . اريد ان اقول انني سأفعل المستحيل لآخذ قطار الساعة السابعة . ولكنني سأعود قبل الليل على كل حال ؛ وقد كتبت ذلك الى والدتي .

لفظ هذه الكلمات الاخيرة بنبرة ولد مطيع ، وبشكل لطيف جداً على شفتيه كرجل ، بحيث لم يستطع جاك ان يمنع نفسه من الضحك ، وحيث جني نفسها ، التي كانت منحنية لتربط الزمام في طوق كلبتها ، رفعت رأسها بنظرة لاهية .

ودخل القطار المحطة . وتركها دانيال ليركض الى العربات الاولى التي كانت تمر فارغة ؛ ومن بعيد ، رأياه منحنياً على النافذة يحرك منديله بشيطنة .

ووجدنا نفسيهما وحيدين ، دون ان يحدا فراغاً من الوقت للاستعداد لذلك ، وهما ما برحا متخدرين من بشاشة دانيال . وقد احتفظا دون جهد بنبرة الصداقة ، كما لو أن دانيال استمر بأن يكون رابطاً بينهما . وشعر الاثنان بالتمزية بسبب هذه المهادة الجديدة وكانا متنبهين لثلا يخسرا الوفاق .

وجني الكثيبة من هذا الرحيل كانت تفكر بغياب اخيها المستمر . وقالت : - عليك ان تطلب من دانيال الا يقض العطلة هكذا بالروح والهوى . فهو لا يعلم مقدار حزن والدتي من رؤيته يأتي قليلاً جداً هذه السنة . وأضافت ولكن دون أية وخزة . - اوه ! من الطبيعي ان تدافع عنه .

فأجاب :

— كلا، ليس لدي اية نية بذلك . اعتقدين انني استصوب الحياة التي يحياها؟

— هل قلت له على الاقل ؟

— بالتأكيد .

— ولكن ألا يصني اليك ؟

— انه يصني الي ، وهذا اكثر خطورة : اعتقد انه لا يفهمني .

فجازفت والتفتت نحوه :

— ... لا يفهمك ابدأ ؟

— ربما ؛ نعم .

للوهلة الأولى اتخذ حديثها منعطفاً جدياً ، وفيما يتعلق بدانيال فقد كانا يتبادلان تعاطفاً لم يكن منذ البارحة جديداً تماماً بينهما . ولكنها لم يكونا يرضيان ابدأ ان يدعا هذا التعاطف يتقرر بشكل مفتوح . وبما انها كانا يدخلان الحديقة ، فانها هي التي اقترحت :

— لو سرنا على الطريق ! اتسير بي إلى البيت بطريق الغاب ؟ لا يزال الوقت مبكراً والطقس جميلاً .

وانتابته سعادة كبيرة لم يحاول إخفاءها ؛ ولم يجرؤ على الاطمئنان اليها؛ كان يخشى ان يزول موضوع تفاهمها الثمين فأسرع بإعادة عقده :

— في دانيال نوع من الاقتضاء بالعيش !

فقالت :

— آه ! اعرف جيداً . دون مضايقة . ولكن حياة دون مضايقة هي كثيرة الخطر . هي دنسة .

أضافت ذلك دون ان تنظر اليه . وردد برصانة :

— دنسة . اني اعتقد مثلك يا جني .

هذه الكلمة التي كان يتردد دائماً في لفظها، بينما كانت تصعد دائماً إلى الشفتين، كان يلتقطها بتلهل على شفقي الفتاة . كانت كل مغامرات دانيال دنسة . وحسب

انطوان دنس ايضاً . ودنسة جميع الرغبات الجسدية . لقد كانت وحدها طاهرة
تلك العاطفة التي لا تسمى ، والتي اخذت تنبت فيه منذ اشهر - ومنذ البارحة
كانت تتفتح من ساعة الى أخرى .
الا انه تابع بهدوء ظاهري :

— كم احقد عليه أحياناً بسبب ذلك الموقف الذي يقفه امام الحياة ! ذلك
النوع من ...
فقالت بسذاجة :

— ... فساد الاخلاق .
وهي عبارة كانت تستعملها في الغالب مع نفسها ، مرادفة عندها لكل
ما يبدو مشبوهاً لدى برائتها .
وقال مصححاً :

— ذلك النوع من قلة الحياء .
مستعملاً هو ايضاً العبارة غير النظيفة ، التي اختارها لاستعماله . ولكن على
أثر ذلك خطرت له الفكرة بأنه كان يشي بنفسه إلى حدٍ ما ، ووقف ، وهتف :
— لا يعني ذلك انني احمل الاعتبار للطبائع التي تناضل دون انقطاع ضد
نفسها : اني افضل .. (كانت جني تتأمله منتبهة لتنفذ إلى تفكيره ، وكما لو ان
تلك الجملة الاخيرة كانت هامة بنظرها بشكل خاص) .. اني افضل
الطبائع التي تحب ان تكون كما هي . الا انه يلزم ايضاً ..

وخطر ببالة عدة امثلة لم يكن يمرؤ على استعمالها امام الفتاة . وتردد . فقالت :
— نعم . اني اخشى ان ينتهي دانيال الى ان يفقد الـ . كيف اقول ؟ معنى
الخطيئة . اتفهمني ؟

فوافق برأسه ولم يستطع بدوره ان يمتنع عن النظر اليها بالحاح لأن وجهها
المفكر كان يضيف الكثير الى اقوالها . وفكر ! « ان فيما قالته اعترافاً لا
إرادياً ! ... »

وظلت مالكة نفسها ؛ ولكن انقباض فمها وتنفسها الضيق كانا يكشفان
عن جهدها في ان تكتم في هذه اللحظة احدى تلك الاندفاعات المباحة التي

كانت تلاشيها في اغلب الاحيان ولاندعها تظهر .
وتساءل جاك : « لماذا اذن يتخذ وجهها بسهولة ذلك المظهر القاسي المفلق ؟
هل ذلك بسبب الحاجبين اللذين كان خطهما كثير الرقة وكثير الجفاف ؟ ..
او بالاحرى ، اليس بسبب دينك الثقين الاسودين اللذين يشكلهما البؤبؤان
عند انقباضهما في الحدقة الزرقاء الرمادية ؟ » ومنذ تلك اللحظة نسي جاك
دانيال لكي لا يفكر بسوى جني .

وسارا بضع دقائق دون ان يتكلما . انها فترة طويلة نسبياً بدت لهما قصيرة
جداً . إلا انها حين أرادا معاودة الحديث أدركا ان أفكارهما كانت ، من هذه
الناحية وتلك ، قد غطت كثيراً من الطريق ، وربما في اتجاهات مختلفة . بنوع
ان أحداً منهما لم يعرف كيف يقطع حبل الصمت .

ومن حسن الحظ كانت الطريق تمر بجانب نوع من المرأب يزحم الارض
بالسيارات التي هي قيد التصليح . ورجة المحركات لا تدعو الى الحديث .

وهناك كلب هرم ، أجرب ، عاجز ، كان يمشي في برك الزيت ، وجاء يدور
حول بوس : فأخذت جني كلبتها بين ذراعيها . وما كادا يحتازان باب ذلك
المكان حتى جعلها الصراخ يلتفتان : هناك هيكل لسيارة تفرقع حدائده
ويقوده تلميذ عامل في الخامسة عشرة من عمره ، قام بدورة فجائية عند
خروجه من المشغل . ورغم صرخة الفلام المتأخرة فان الكلب الهرم الاسود لم
يتسع له الوقت الكافي ليتنحى . ورأى جاك وجني العربية تصيب الكلب المسكين
في خاصرته بحيث مرّ الدولابان الواحد بعد الآخر على جثته .

وصرخت جني مرتعبة :

— سيموت ! سيموت !

— كلا ، انه يمشي .

وبالفعل ، فقد نهض الحيوان وهرب على غير هدى ، دامياً ، عاوياً ، جاراً
في الفبار مؤخرته المخطمة التي كانت تجعله يسير بخط منكسر وينهار كل مترين .
وكانت جني تردد بنفس النبرة ، وقد تغير وجهها :

— سيموت ! سيموت !

واختفى الكلب في باحة البيت ، واصبح أنينه متقطعاً ، ثم انقطع كلياً .
وفقرة الاستراحة هذه بعثت البهجة في عمال المرأب فتبعوا آثار الدماء .
وصاح واحد منهم في الآخرين ، وكان قد وصل حتى البيت :
— انه هنا ، لا يتحرك ابداً .

وكان جني قد خفّ ما بها ، فتركت الكلبة تنزل على الأرض ، وسارا باتجاه الغاب . ولكن هذا التأثير الذي شعرا به معاً زاد من تقاربهما . وقال جاك :
— لن أنسى ابداً وجهك وصوتك حين كنت تصرخين .
— كنت حمقاء . هذا مثير للاعصاب . ماذا صرخت ؟

— لقد صرخت : « سيموت ! » لاحظني : لقد رأيت الكلب تقلبه السيارة ،
ويصبح معجوناً دائماً . وكان هذا هو المرعب . إلا ان القلق النفسي الحقيقي لم
يبدأ إلا بعد تلك اللحظة . يعني في اللحظة الفاجعة حيث الحيوان الذي كان
حيّاً لم يبق له إلا ان يتمدد ليموت . أليس كذلك ؟ لأن الشيء الأكثر تأثيراً
هو ذلك العبور ، تلك السقطة ، التي لا تدرك ، سقطة الحياة في العدم . ان فينا
رعباً من تلك الدقيقة ، نوعاً من الرعب المقدس المستعد دائماً للاستيقاظ ...
اتفكرين غالباً في الموت ؟

— نعم ... يعني كلا ، ليس في أغلب الأحيان ... وانت ؟
— أوه ! انا . دون انقطاع تقريباً . أريد أن أقول ان معظم أفكارني
توصلني إلى فكرة الموت هذه .. وتابع بلهجة خاملة :- ولكن . من المستحسن
الرجوع إليها غالباً ، انها فكرة ...
ولم يكل . كان وجهه محتدماً ، متمرداً ، شبه جميل . وقد امتزج عنده
الملل من العيش بالرعب من الموت .

ومشياً بضع خطوات صامتين ، ثم بدأت بصوت خجول :
— اسمع ، لا أدري لماذا - وليس لهذا أية علاقة - ولكنني افكر بأمرٍ ربما
كان دانيال قد قصه عليك : أول لقاء لي مع البحر .

— كلا ، قولي .

— أوه ! انها حكاية قديمة .. كنت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة وإليك القصة : كنا ، انا وامى ، قد ذهبنا في نهاية العطلة للتحقق بدانيال في تريبور . وكان قد كتب إلينا ان نزل في ما لا أدري أية محطة ، وجاء بطلبنا في عربة . ولكي يجنبني اكتشاف البحر كان يمصب عيني شيئاً فشيئاً عند المنعطفات .. انها حماقة أليس كذلك ؟ وذات لحظة ، جعلني انزل من العربة وقادني من يدي . وكنت اتعثر لدى كل خطوة . وشعرت بريح عاصفة تكنس وجهي ، وسمعت صغيراً وهديرأ وضجة جهنمية . فكدت اموت من الخوف ، ورجوت دانيال ان يتركني . واخيراً ، حين بلغنا النقطة الاكثر ارتفاعاً من الصخور على شاطئ البحر ، مرورائي وفكّ العصابة دون ان يقول شيئاً . وعندئذ رأيت البحر كله : البحر المتفلت من عقاله في الصخور تحتي والقائمة عمودياً تقريباً ؛ البحر حولي على مدى النظر ، وانقطع نفسي ؛ وسقطت بين ذراعي دانيال ، ولم أعد إلى صوابي الا بعد بضع دقائق . وعندئذ اخذت ابكي ، وابكي .. وقد اضطروا إلى اعادتي إلى البيت ، فمنت ، وانتابتني الحمى . وكانت امي مستاءة جداً .. والآن ، اتعلم ؟ اني لا آسف على شيء . واعتقد اني عرفت البحر جيداً .

لم يكن جاك قد رآها ابداً بهذا الوجه الذي اختفت الكآبة منه ، وتلك النظرة المتحررة ، مع شيء من الهوس . وفجأة انطفأت تلك النار . وكان جاك يكتشف شيئاً فشيئاً جني مجهولة . وهذا التعاقب بين التحفظ والفوران الفجائي يبعث على التفكير بنبع مستور ولكنه غزير سوف يجد مخرجه بين لحظة واخرى . هل كان يلمس تقريباً سر تلك الكآبة الاصلية التي تكسب ذلك الوجه انعكاس حياة داخلية بمقدار سرعة زوال ابتساماته ؟ وفجأة اجتاحه القلق لفكرة ان نزهة كهذه يمكن ان تنتهي .

وقال ملمحاً حين اجتاز قنطرة باب الغابة القديم :

— انت لست على عجلة من أمرك . فلنقم بالدورة الكبرى . اؤكد انك

لا تعرفين هذا الدرب الصغير .

هناك ممشى رملي ، سهل على الاقدام ، كان يدخل في ظلال الغابة ، ويحاط عند نقطة الانطلاق بالعشب بشكل واسع ؛ ثم اصبح ضيقاً اكثر فأكثر . وكانت الاشجار في هذه القطاع قد نبتت بشكل سيء ، والسما تظهر من كل ناحية من خلال اوراقها الصفراء . وكانا يتقدمان دون ان يزعجها صمتها .

وتساءلت جني : « ما بي اذن ! انه ليس كما كنت اظن ، انه ... انه .. » ولم يستطع أي نعت ان يرضيها . ولاحظت فجأة ، بعاطفة من الوضوح والسرور « لكم تشابه » . ثم قالت قلقلة : « بماذا يفكر ؟ .. »

لم يكن يفكر بشيء . فقد استسلم لراحة لذيدة وفارغة ؛ كان يسير بجانبها دون ان يتننى شيئاً آخر . وتتم اخيراً :

— هذه واحدة من ابشع زوايانا في الغاب تلك التي اريها لك هنا .
فارتعشت لنبرة صوته وساورتها معاً تلك الفكرة القاتلة ان لدقائق الصمت هذه اهمية رئيسية لاجل الامور المهمة التي كان كلاهما يفكران بها . واجابت :
— انا من رأيك .

وتابع جاك دائساً بشدة على التراب :

— انها ليست اعشاباً ، انها نوع من النخيليات .

— ان كلبي تأكل منها ، انظر اليها .

كانا يقولان كل ما يحول بخاطرهما : ومعنى الكلمات تغيرت قيمته بالنسبة اليها . وقال جاك لنفسه : « أحب صبغة ثوبها الزرقاء . لماذا هذا الازرق الحلو ، الأشهب قليلاً ؟ هل هو لونها ؟ » ثم هتف دون أي استعداد آخر :

— أقول لك : أن ما جعلني كثير الحق . ذلك لانني لم أتوصل إلى أن أفصل

انتباهي عما أشعر به في نفسي .

وظنت جني أنه يحبها ، فصرحت :

— هذا مثلي . اني أحلم في كل وقت تقريباً . وأحب ذلك . هل أنت أيضاً ؟

وما أحلم به لا يخص سواي ؛ ويرضيني ألا أتناقسه مع الآخرين . أتفهمني ؟

فقال : اوه ! تماماً .

هناك فروع من النسر ين يحمل أحدهما ثمرأ صغيراً ، كانت تفرم بالزهر دغلاً على عرض الدرب . وكان جاك على وشك تقديم هذه الفروع لها : « ها هي أزهار ، وأثمار ، وأوراق ، وفروع . وثم .. » وتوقف وتطلع إليها . ولم يجرؤ . وحين اجتاز الدغل قال لنفسه : ذلك لانني أدبي !

وسألت : أتحب فرلين ؟

- نعم . وعلى الخصوص « حكمة » التي كان دانيال يحبها كثيراً فيما مضى .
وتغم :

« جمال النساء ، ضعفهن ، وتلك الايدي الشاحبة
التي تصنع الخير في أغلب الاحيان وتقدر على الشر كله .. »
وتابع بعد وقفة :

- وما لارميه ؟ عندي مجموعة من القصائد المصرية التي لم تنظم بشكل سيء
سأتيك بها . أتريدين ؟

- نعم .

- أتحبين بودلير ؟

- أقل . أنه مثل ويتمان . ومع ذلك فاني أعرف بودلير قليلاً .

- وويتمان هل قرأت له ؟

- لقد قام دانيال ببعض القراءات لي في هذا الشتاء . أشعر جيداً لماذا هو
يحب ويتمان كثيراً . أما أنا .. (وفكر الاثنان بتلك الكلمة « الدنس » التي
لفظاها منذ برهة . وقال جاك لنفسه : « لكم تشبهني ! ») . وتابع :

- ولكن أنت . لأجل هذا تماماً لا تحبين ويتمان مثله ؟

فحنث رأسها ، سعيدة لأنه أتم فكرتها .

وكان الدرب يتسع من جديد لينتهي الى بقعة جرداء فيها مقعد بين سنديانتين
نخرهما الدود . وألقت جني على المشب قبعتها القش الكبيرة اللدنة وجلست .
واعترفت تلقائياً كما لو أنها تفكر بصوت مرتفع :

- هناك لحظات أصاب فيها بالدهشة تقريباً من صداقتك الخالصة مع دانيال .
فابتسم وقال :

- لماذا ؟ ألا نك تجديني أختلف عنه ؟

- اليوم ، جداً .

وتمدد على مسافة منها على المنحدر ، وتمتم :

- صداقتي مع دانيال . هل كان يحدثك أحياناً عني ؟

- كلا ، يعني ، نعم . قليلاً .

واحمر وجهها ؛ ولكنه لم ينظر إليها . وتابع وهو يعض قشة :

- آه ! انها الآن حبة ثابتة ، شيء قد هدا . ولم يكن دائماً كذلك .

وصمت ، ودلها بإصبعه ، في بقعة شامسة وعلى طرف عتبة ، على حازونة
شفافة كالعقيق كانت تحرك قرنيها الهلامي في النور بحيرة . وتابع دون رابط
بين الكلام :

- أنت تعلمين ، أثناء حياتي كطالب ، كانت تمر أسابيع بكاملها أعتقد نفسي
فيها أنني أصبحت مجنوناً ما دامت هناك أشياء في حالة الذوبان في رأسي
المسكين . ودائماً وحدي !

- مع انك تعيش مع أخيك ؟

- من حسن الحظ . ومن حسن الحظ أيضاً اني كنت كثير الحرية . وبدون
ذلك أعتقد جيداً انني كنت سأصبح مجنوناً ، وعلى وجه جدي ، كنت سأهرب .
وفكرت بهربها إلى مرسيليا ، وبشيء من التسامح للمرة الاولى في حياتها .
وصرح هو بصوت قاتم :

- كنت أشعر انني غير مفهوم ؛ غير مفهوم من الجميع ؛ حتى من أخي ،
حتى من دانيال في أغلب الاحيان .
فقالت لنفسها : « مثلي تماماً » .

- أثناء تلك الحقب كنت غير قادر على الاهتمام بأي عمل في البيت . كنت
أقرأ ، أقرأ كالجنون كل ما كان موجوداً في مكتبة . انطوان ، وكل ما استطاع

دانيال أن يأتيه به . وجميع الروايات العصرية تقريباً ، من فرنسية وإنكليزية وروسية ، قد مرت علي . لو تعرفين الاندفاعات التي أكسبنيها ذلك ! وبعد هذا ، فإن كل شيء كان يبدو مضجراً ممتاً : الدروس ، محاضرات النصوص ، اخلاق الناس الصالحين الجميلة ! انني بالتأكيد لم أخلق لكل هذا .

ولم يضع في الكلام عن نفسه أي ادعاء ؛ ولكنه وهو المتمكن من نفسه ككل كائن شاب وقوي ، لم يكن يتخيل متعة أكثر اصالة من تحليل نفسه هكذا أمام ذاتين العينين المنتهيتين ، والسرور الذي أصابه من ذلك كان سريع العدوى . وتابع :

— انه الوقت الذي كنت ارسل فيه الى دانيال رسائل من ثلاثين صفحة ، كنت اقضي في كتابتها ليلة بكاملها . رسائل أسلت فيها كل حماساتي في النهار ، وكل حقدتي بوجه خاص ! آه ! اكاد اضحك منها الآن .. ولكن كلا — قال ذلك ضاغطاً جبهته بين يديه — كل هذا جعلني اتألم كثيراً ، ولا استطيع الصفح عن ذلك حتى الآن . وتلك الرسائل كنت استعيدها من دانيال واعيد قراءتها . وكل رسالة منها كاعتراف مجنون في فترة ألتق من صفاء الذهن . كانت تتابع بين الواحدة والآخرى بضعة ايام ، واحياناً بضع ساعات ، وكانت كل واحدة منها كالانفجار ، انفجار ازمة داخلية تتناقض في اغلب الاحيان مع الأزمة السابقة . ازمة دينية لانني ألقيت نفسي بحسد هالك في الاناجيل ، او في العهد القديم ، او في فلسفة كونت^(١) الوضعية . آه ! رسالتي بعد قراءة لإمرسون^(٢) . وكنت مصاباً بكل امراض المراهقة : « فنسية^(٣) Vincite » حادة ، وبودليرية ساخطة ! ولكن ليس هناك اي داء مزمن ! وذات صباح كنت كلاسيكياً ، وفي المساء رومنتيكياً . وقد اشعلت خفية في مختبر انطوان كتب ماليرب

١ - ارغست كوفت : فيلسوف ورياضي فرنسي . ولد في مونبليه (١٧٩٨ - ١٨٥٧) .

٢ - والف والدو إمرسون : فيلسوف أميركي ولد في بوستون (١٨٠٢ - ١٨٥٧) .

٣ - نسبة الى ليوناردو دي فنسي الرسام الايطالي الشهير .

وبرالو . فعلت ذلك وحدي ، ضاحكاً كالشيطان ! وفي الغد فان كل ما كانت أدباً بدا لي فارغاً ايضاً ، وكريهاً . واخذت ادرس هندستي بجد ، مبتدئاً من الاول ؛ كنت عازماً عزمياً اكيداً على اكتشاف قوانين جديدة يجب ان تقلب جميع المعلومات المكتسبة . ثم عدت واصبحت شاعراً . ونظمت لدانيال قصائد مغناة ، ورسائل شعرية من مائتي بيت مكتوبة دون شطب تقريباً . ولكن ما لا يصدق في كل هذا - قال ذلك وقد هدأ فجأة - هو انني كتبت وانا اكثر جدية ، وباللغة الانكليزية ، نعم ، كله باللغة الانكليزية ، بحثاً بثمانين صفحة حول « حرية الفرد في علاقاته مع المجتمع » . ولا يزال عندي الى الآن . انتظري ، ليس هذا كل شيء ، مع مقدمة قصيرة ، وأعترف بذلك ، ولكن باللغة اليونانية الحديثة (هذا التفصيل الاخير كان خطأ ، فقد كان يتذكر فقط انه كان يريد كتابة هذه المقدمة) . - وانفجر ضاحكاً - كلا ، لست مجنوناً .

قال ذلك بعد صمت . ثم صمت برهة ايضاً ، وأكد دون كبرياء ، نصفه رزين والنصف الآخر ضاحك :

- مهما كان الامر فانا اختلف كثيراً عن الآخرين .

كانت جنيتاداعب الكلبة الصغيرة وتفكر . كم مرة رأت في جاك ذلك الكائن المقلق ، الخطر تقريباً ! ومع ذلك فقد اضطرت الى الاعتراف انه لم يكن يخيفها .

كان جاك متمدداً على العشب يتطلع امامه . وكان سعيداً لأنه تكلم على سجيته . وسأل بكسل :

- ألسنا على خير حال تحت هذه الاشجار ؟

- نعم ، كم الساعة ؟

لم يكن معها ساعة . وكان طرف الغاب قريباً ، وليس هناك ما يتعجلها ، وكانت جنيت تشاهد من مقعدها رؤوس شجرتي الكستناء اللتين تعرفهما جيداً ، وأبعد من ذلك ، ارزة البيت الموجودة في الغاب ، والتي تمد اغصانها السوداء على السماء الزرقاء .

وقالت وهي منحنية على الكلبة التي كانت جالسة على تنورها ، متجنبةً
الالتفات إلى ناحية جاك :

- لقد قرأ لي دانيال بعضاً من أشعارك .

ثم دهشت من صمته فعزمت على النظر إليه : لقد احمرّ حتى منبت شعره ؛
وكان نظره الغاضب يتوه حوله . واحمرت بدورها وهتفت :
- آه ! لقد اخطأت بأن قصصت عليك ذلك .

ولام جاك نفسه على غضبته وحاول كبجها ؛ ولكنه لم يكن يحتمل فكرة
وجود أحد - حتى جني - يستطيع الحكم عليه من خلال الجلجة شاب . وكان متحذراً
في هذا الموضوع بحيث كان يعلم انه لم ينل قيمته في شيء بعد ؛ وهذا ما كان يتألم
منه في جميع أيام حياته . وقال بعنف :
- اشعاري ، انها صفر .

(لم تعترض ، حتى انها لم تحرك يدها ، وقد سره ذلك) . وهتف اخيراً :
- هذا يجعلني أقل اعتباراً من .. اولئك الذين .. آه ! لو كانوا يرجون بها
أريد عمله !

هذا الموضوع المحرق ، ووجود جني ، وتلك الوحدة ، كل هذا بعث فيه
تأثيراً حيث اختنق صوته ، وقرصته عيناه كأنه سينفجر باكياً . وقابع بعد
فترة توقف :

- اسمعي . هذا كأولئك الذين هناوني لقبولي في دار المعلمين ! لو كنت
تدركين ما اعتقد في ذلك ! انا نحجول ! ليس نحجولاً فقط لأنني قبلت ، بل
نحجول لأنني رضيت .. بحكم جميع اولئك ! آه ! آه لو تعرفين ما هم ! كلهم
مصنوعون بنفس القالب ، بنفس الكتب ! الكتب ، ودائماً الكتب ! وقد تحتم
علي ان أذهب لأتسول منهم .. انا ! لقد انخبت إلى .. آه .. انا ..

كانت تموزه الكلمات . وكان يشعر جيداً انه لم يعط لنفوره أي سبب ذي
قيمة . ولكن الحجاج الجيدة ، الحقيقية ، كانت طويلة البقاء ، متأصلة جداً فيه
فلا تقتلّ بسرعة وتنتشر في وضح النهار . وصاح :

- آه ! اني احتقرهم كلهم وازيد من احتقاري لنفسي لأنني بينهم ! ولن
استطيع ابدأ ، ابدأ .. لن استطيع ان اعفو عن كل هذا .
وفعلت حسناً باحتفاظها يهدوئها حين رأته منفعلاً . ولاحظت دون ان
تعرف ما هو تفكير جاك انه كان يعبر في الغالب عن ذلك الحقد غير المحدود ،
وذلك الرفض للصفح . وبالحقيقة ، يجب ان يكون قد تعذب كثيراً . ومع
ذلك - وهو في هذا يختلف كثيراً عنها - فان إيمانه بالمستقبل ، بسعادة مستقبله ،
ظل واضحاً ؛ وخلال لعناته كانت تطوف نسمة دائمة من الامل ، واليقين ؛
وكانت مطامحه تبدو متجاوزة الحد ، ليس فيها أي اثر للشك . وجني لم تكن
تصفحت في السابق ما يمكن ان يكون مستقبل جاك . ولكنها لا تشعر بأية
مفاجأة لو اكتشفت انه وضع هدفه عالياً جداً . وحتى في الوقت الذي كانت
تعتبر جاك فيه ولداً شرساً وزقاقياً ، فانها لم تنقطع عن الاعتراف بالقوة
الموجودة فيه . واليوم ، فان هذه الأقوال المحمومة ، واللهب الذي كانت تشعر
انه يلتهم قلب جاك ، كل هذا اثار فيها دواراً ، كما لو انها وجدت نفسها محمولة
بنفس الاعصار رغماً عنها . وتنتج عن ذلك انطباع بعدم الاطمئنان مؤلم جداً ،
بحيث انها نهضت . فقال جاك عندئذ بصوت مختنق :

- اسألك الصفح ، ذلك لان كل هذا ، كما ترى ، يشد بقوة على قلبي .
وسارا في الدرب المحاذي لممرجات الخندق القديم ، لطريق المس ،
وبلغا باب الغاب الآخر على الحديقة ؛ وكان مقفلاً بقضبان حديدية ذات حراب ،
وكان القفل يصير كمزلاج سجن .

وكانت الشمس مرتفعة ، والساعة لم تتجاوز الرابعة بعد . وما من شيء
يضطرها إلى انهاء نزهتها . لماذا إذن سارا في طريق العودة ؟
وفي الحديقة التقيا ببعض المتزهين ؛ ومع انها البارحة أيضاً طافا معاً هذه
الجادات نفسها دون ان يفكرا بالشر ، فان عاطفة ماثلة من الحياء جاءت بها اليوم
لوجودهما معاً ، وحيدتين ، جنباً إلى جنب .
وقال جاك فجأة عند تقاطع ممرين :

- حسناً ، سأترك هنا ، أليس كذلك ؟

فأجابت دون تردد :

- نعم ، فها أنا في البيت تقريباً .

ووقف امامها قلقاً دون ان يدري لماذا ، غير مفكر حتى يرفع قبعته .
واعاد القلق إلى وجهه ذلك التعبير الثقيل ، الحشن ، الذي يتخذه في اغلب
الاحيان ، والذي لم تره طوال النزهة . ولم يد اليها يده . وبذل جهداً ليبتسم .
وفي اللحظة التي دار فيها على اعقابها ملتفتاً إليها بنظرة خجولة ، قال متلعجلاً :
- لماذا .. لا أكون دائماً .. هكذا .. معك ؟

فلم تظهر جني انها سمعت ، وسارت بخط مستقيم خلال الاعشاب دون ان
تلتفت . انها تقريباً نفس الكلمات التي رُددت عدة مرات منذ البارحة . ولكن
الشك ساورها فجأة . شك لم تكن تجرؤ على صياغته : ربما اراد جاك ان
يقول : «لماذا لم يكن مسموحاً لي ان أعيش معكم دائماً كالיום ؟ » هذا الافتراض
كان يحرقها . وسارعت الخطى ، ودخلت إلى غرفتها ملتبهة الحدين ، مترنحة
الساقين . وامتنعت عن التفكير .

وقضت كل فترة ما بعد الظهر وهي تشتغل بجمي : بدلت ترتيب غرفتها ،
وغيرت مكان الاثاث ، ورتبت خزانة البياضات . وأعدت صنع باقات الزهر
في البيت . وبين لحظة واخرى كانت تمسك بالكلبة الصغيرة ، وتضمها ، وترهقها
بالمداعبات . وحين اضطرت إلى التأكد من ان دانيال لن يأتي على العشاء ، وذلك
بأن نظرت مرة اخيرة الى الساعة ، اجتاحتها اليأس ، ولم تستطع الجلوس على
المائدة وحدها ، فأكلت صحناً من الفريز على الشرفة . ولكي تهرب من احتضار
النهار الذي لا ينتهي التجأت إلى قاعة الاستقبال ، وأشعلت المصابيح كلها ،
واخذت مجموعة بيتهوفن . ثم غيرت فكرها فألقت بـيتهوفن وأخذت دفتر
« دروس » لشوبان ، واسرعت إلى البيانو .

وبالفعل فقد بدا النهار انه يموت ببطء خاص ، لأن ضوء القمر الطالع ،
المختبئ خلف الأشجار ، كان يقوم مقام آخر اضواء المغييب دون ان يشعر به

وكان جاك ، بدون مقصد واضح ، قد وضع في جيبه ذلك الكتاب للشعراء المعاصرين الذي عرضه على جني . ولم يستطع احتمال لا مبالاة الحياة العائلية هذا المساء ، فخرج يطوف في الحديقة . وكان تفكيره يشرد دون ان يستطع تركيزه على شيء . وبعد اقل من نصف ساعة وجد نفسه يسير في الطريق المحاط بالاكاسيا مفكراً : « بشرط ألا يكون الباب مقفلاً » .

ولم يكن مقفلاً . ورن الجرس ؛ وارتعش كأنه مختلس . وكانت رائحة حارة صمغية ، تترج فيها عفونة منملة ، تأتي من تحت الصنوبر . وصوت البيانو الضعيف لا يكاد ينمش الجنينة المقطوفة . انها جني ودانيال يعزفان الموسيقى دون شك . وكانت غرفة الاستقبال تفتح على الواجهة الماكسة . وكان البيت ينام من الجهة التي كان جاك موجوداً فيها ، وكل النوافذ مقفلة ، ولكن السطح كان سابحاً بنور غريب . والتفت مدهوشاً : انه القمر الذي كان يبعث الشحوب في دعائم السقف من فوق رؤوس الاشجار ، ويعمل زجاج النوافذ يلمع . وكان يقترب من البيت واجف القلب ، قلقاً لعدم وجود اية وسيلة يعلن بها عن وجوده وشعر بتعزية حين اندفعت بوس وهي تنبح . اما صوت البيانو فيجب ان يكون قد غطى على النباح ، لأن الموسيقى لم تنقطع . وانحنى جاك ورفع الكلبة الصغيرة بين ذراعيه كما تفعل جني ، ولامس بشفتيه الجهة الحريية . ثم دار حول جناح البيت ووجد نفسه على الشرفة امام قاعة الاستقبال التي كانت فرجة بابها مفتوحة ومضاءة . وكان يقترب دائماً . وحاول ان يعرف ماذا تعزف جني : كان النغم وكأنه حائر ، يبدو انه يتأرجح فترة ، ويقوم بين الضحك والدموع لينفجر اخيراً في منطقة عليا لا وجود للفرح والألم فيها .

وكان قد وصل الى العتبة . وبدت له قاعة الاستقبال فارغة . ولم يميز اولاً سوى الغطاء النسيجي المغطى به البيانو ، والاشياء الصغيرة الموجودة فوقه . وفجأة ، من الثقب المحفور بين إنائين ، شاهد وجهاً ، قناعاً مكشراً ، معلقاً في هالة الشموع ، انها جني التي شوهدت الاهتزاز الداخلي . وكان تعبير هذا الوجه مجرداً ، عارياً ، بحيث تهقر بدافع الغريزة كما لو انه فاجأ الفتاة وقد خلعت

ملابسها .

وأنتظر جانباً في ظل البيت حتى تنتهي المعزوفة ، ضاماً الكلبة دائماً الى كتفه ، مرتجفاً كالسارق : وعندئذ نادى بوس بصوت مرتفع ، متظاهراً انه وصل لتوه الى الحديقة .

وارتجفت جني حين عرفت صوته ونهضت بسرعة واحتفظت على قسماتها بأثر تأثيرها المنفرد ، ونظرها الشارد كان يدفع نظرها كما أنه يدافع عن سر وسأل :

— هل أخفتك ؟

فعبست دون ان تستطيع اخراج صوت . وتابع :
— ألم يأت دانيال بعد ؟ — ثم بعد وقفة قصيرة : — لقد اتيتك بهذه المختارات التي حدثتك عنها قبلاً .

وأخرج الكتاب من جيبه بحمق فأخذته وتصفحته بحركة آلية . ولم تجلس ، ولم تطلب اليه الجلوس ، فأدرك جاك ان عليه ان يذهب . وخرج الى الشرفة وتبعته جني . فقال مدندناً :
— لا تزعجي نفسك .

كانت ترافقه لأنها لم تكن تعرف كيف تنتهي منه بسرعة ، بحيث انها لم تجرؤ على مد يدها اليه وقطع الزيارة .

وكان القمر ينير جيداً ، وقد تخلص من الاشجار ، بحيث انه حين التفت الى جني رأى اهدابها تطرف . وكان لثوبها الازرق سرعة تقلب الرؤية .

واجتازا الحديقة كلها دون ان يلفظا كلمة . وفتح جاك الباب الصغير وهبط الى الطريق ، وكذلك جني اجتازت العتبة دون ان تفكر ، واصبحت في منتصف الدرب واقفة امام جاك ، محاطة بالنور . وعندئذ شاهد على الجدار اللامع بنور القمر ظل الفتاة ، ووجهها الجانبي ، ونقرتها وحواشي شعرها ، والذقن ، حتى اثر الفم — خيال مخملي اسود ، ذو وضوح خال من كل عيب . فدل عليه باصبعه ، واجتازت عقله فكرة مجنونة ، وبدون ان يفكر ، وبذلك

الجرأة التي يقوم بها الحجلون وحدهم ، انحنى على الجدار وقبل خيال الوجه الحبيب ،
فتراجعت جني بشكل فجائي كأنها تريد انتزاع خيالها منه ، واختفت في
فرجة الباب . ولم يعد مربع الجنية الساطع ماثلاً للعيان : وسقط الباب .
وسمع جاك جني هاربة على الحصاء . عندئذ اوسع خطاه وسار في
الليل ضاحكاً .

وكانت جني قد اخذت تركض ، وتركض كأن جميع الاشباح البيضاء
والسوداء التي تعمّر الجنية الصامتة تلاحقها . واندفعت الى البيت وتسلفت حتى
غرفتها ، وارتمت على سريرها . وجعلها العرق البارد ترتعش . وكان قلبها
يتألم ، فضغطت على صدرها بيديها المرتجفتين ، ونبشت الوسادة بقسوة بواسطة
جبتهما . وتحولت ارادتها نحو جهد واحد : الا تتذكر شيئاً ! وقد ضايقها
الحجل ومنع الدموع من الصعود الى العينين . وسيطر عليها شعور جديد :
الخوف . الخوف من نفسها .

واخذت بوس ، المنسية تحت ، تنبح . لقد عاد دانيال .
وسمعه جني يصعد الدرج مدندناً ، ثم يقف دقيقة بقرب الباب . لم يجرؤ
على طرق الباب وقد رأى انه لا يوجد أي ضوء يتسرب من الغرفة ، ظاناً ان
اخته نائمة . إلا ان كل مصابيح قاعة الاستقبال كانت مضاءة .. وجني لم تقم
بأية حركة ؛ كانت تريد ان تظل وحيدة في الظلام . ولكن لدى سماعها خطى
أخيها تباعد ، اثابها القلق ووثبت من سريرها :
- دانيال .

وعلى ضوء القنديل الذي يمسك به ، رأى الوجه المتغير ، والحدقتين
المهملقتين ، فظن ان تأخره اربع اخته ؛ وكان يبحث عن أعذار حين قاطعته
قائلة بصوت صافر :

- كلا ، انا متوترة الاعصاب . لم استطع التخلص من صديقك . فقد تبعني ،
ولم يتركني .

وكانت شاحبة من الغضب ، تطرق كل مقطع . ثم غمرت وجهها موجة

فجائية من الاحرار ، فبكت ، وجلست منهوكة على سريرها :
- أوكد لك يا دانيال . قل له ... اطرده ... لا أستطيع . أوكد لك ،
لا أستطيع !

فتأملها ملياً ، عاجزاً عن الفهم ، محاولاً معرفة ما يمكن انه حدث بينها :
ونتم : - ولكن ماذا ؟
وخطرت له فكرة ، فتردد في اعطائها شكلاً . وارتفعت شفته باعوجاج ،
وبابتسامة قلقة ، ولمح اخيراً :

- هذا المسكين جاك . ربما انه ...
كانت النبرة ذات دلالة بشكل كاف بحيث لم يكن عليه ان يتم عبارته .
ودهش لرؤية جني ترتجف ، منخفضة العينين ، وقد بدت انها اصبحت
لامبالية . وملكت نفسها ، وبعد رقعة طويلة لم يأمل دانيال بعدها يجواب ،
قالت :
- ربما .

واستعاد صوتها رتته العادية .
وفكر دانيال : « انها تحبه » . وهذا الاستنتاج جاء بغتة بحيث ظل صامتاً ،
مصاباً بالذهول .

في تلك اللحظة التقت جني بنظرة اخيها : وقرأت فيها بوضوح ما كان يفكر .
فتمردت : كان لعينيها الزرقاوين بريق ، واتخذت وجهها تعبيراً من التحدي ،
وبدون ان ترفع صوتها ، وعيناها في عيني دانيال ، هزت رأسها الرصين ،
ورددت ثلاث مرات متتالية :
- ابدأ ! ابدأ ! ابدأ !

وبما ان دانيال كان يتأملها حائراً ، ولكن بحنو ، وعناية اخ اكبر كانت
تصفعها ، فانها سارت نحوه ورفعت عن جبهة الشاب خصلة متمردة وربت على
خده قائلة :

- هل تناولت عشاءك على الاقل ايها المجنون الكبير ؟

كان انطوان بالبيجاما ، واقفاً امام الموقد ، يقطع كمكة بخنجر ماليزي .
وتثائبت راشيل وقالت بصوت كسول :
- اقطع بشكل سميك يا عزيزي .

كانت على السرير ، ويداها تحت رأسها ، وهي عارية .
وكانت النافذة مفتوحة ولكنها مغطاة من اسفل بستار من النسيج لا يدع
شيئاً يصل الى الغرفة سوى ظل حار لخمعة في الشمس . وكانت باريس تشوى
بنار نهار احدٍ من آب . ولا تتصاعد من الشارع اية ضجة . والبيت ، هو ايضاً ،
كان صامتاً ، فارغاً تقريباً ، باستثناء الطابق الاعلى حيث كانت ألين دون
شك تقرأ الجريدة بصوت مرتفع لتسلي مدام شاسل والصغيرة الناقهة ، المحكوم
عليها بعدة اسابيع اخرى تظل فيها في وضعية افقية .
واكدت راشيل ، فاتحة فم مرة وردياً :

- انا جائعة .

- الماء لم يغل بعد .

- لا هم ! هات .

فوضع قطعة كمك كبيرة في الصحن ووضعها على حافة السرير . وادارت
جذعها الاعلى ببطء ، دون ان تترك الوضعية المتمددة ، واتكأت على المرفق ،
ورأسها منقلب ، وبدأت تتذوق وهي تشد بين اصبعين شذرات الحلوى التي
اخذت تسقطها في الفم .

- وانت يا عزيزي ؟

فقال وقد استلقى بين وسائد الارىكة :

- اني انتظر الشاي .

- أتشعر بالتمب ؟

- فابتسم لها .

كان السرير منخفضاً ، مكشوفاً كلياً . وكان حرير الستائر الوردي يتكور في المهدح حيث بدا عري راشيل المعروض باعتزاز مرتاحاً كصورة رمزية في تجويف عمارة شقافة . وتم انطوان :

- لو كنت رساماً ..

ولاحظت راشيل بابتسامة سريعة :

- انت ترى انك تعب . حين تصبح فناناً فذلك يعني انك تعب . وألقت رأسها الى الوراء واختفى وجهها في الظل على فراش شعرها المتوهج . وهناك نور كان يشع على هذا الجسد اللامع كعرق اللؤلؤ . والساق الايمن الملقى باسترخاء بشكل منجل كان ينغمس في الاغطية ، والساق الآخر مرفوع بالمكس ، ومطوي فيجعل منحني الركبة بارزاً ويرفع في ضوء النهار رصفته العاجية . وزفرت :

- انا جائعة .

وحين اقترب ليأخذ الصحن الفارغ لفّت حول عنقه ذراعيها ، كذراعي رجل ، وجذبت وجهه وقالت دون ان تبعد :
- اوه ! هذه اللحية ، متى نخلصنا منها ؟
فنهض ، وألقى على المرأة نظرة قلقة ، واخذ يبحث عن قطعة كعك ثانية ، وصرح بينما كانت تقضم الشريحة بأسنانها الجميلة :

- ان ما يعجبني كثيراً عندك هو هذا .

- شهيتي ؟

- صحتك . هذا الجسد الذي يدور الدم فيه جيداً . انت مقوية ! وانا ايضاً ، الجسد جيد ..

اضاف ذلك باحثاً من جديد عن المرأة ليرى نفسه فيها : كان يربع كفيه ، ويرفع ويمدد نصفه الاعلى دون ان يفطن الى اية درجة ظلت اعضاؤه نحيلة بالنسبة لحجم الرأس ، وكان يتخيل دائماً ان لبنيته الجسدية نفس مظهر القوة الذي لقسماته . وهذا الاحساس بالقوة والامتلاء كان قد ازداد منذ اسبوعين الى

درجة الزهو بكل ما اثاره الحب فيه . وقال محتتماً :

— اتعلمين ؟ لقد بُني جسدانا لتعيش قرناً .

فتمتعت وقد رقت عيناها نصف المطبقتين :

— معاً ؟

لقد خطرت لها فكرة غريبة : الخوف من عدم الاحتفاظ الدائم بهذا الطعم الذي شعرت به منه والذي جعلها سعيدة جداً . وفتحت عينيها . وتحسست ساقها ، وأمرأت يديها على طول جسدها المرن وأكدت قائلة :

— اوه ! انا اذا لم أقتل فأني واثقة من العيش الى ان اصبح هرمة جداً . لقد كان لأبي من العمر اثنتان وسبعون سنة حين فقدته . وكان متيناً كرجل في الخمسين . ومات على اثر ضربة شمس ، مصادفة . انهم يموتون بجاذب عندنا ، فأخي مات غريقاً ، وانا ايضاً سأموت بجاذب : بطلقة مسدس . هذه الفكرة تلازمني دائماً .

— وأمك ؟

— امي ؟ ليست ميتة . كنت اراها في كل مرة وقد استعادت شبابها . وصحيح ايضاً ان الحياة التي تحياها ... — اضافت ذلك دون نبرة خاصة — انها حبيسة في سانت — آن .

— في ماوى الـ...

— اما قلت لك ذلك ؟

وابتسمت كأنها تعتذر وتابعت ملاطفة :

— لقد مضت سبع عشرة سنة على وجودها هناك . ولا أذكرها إلا بالجهد . كنت في التاسعة . وهي مرحة ، ولا تبدو انها تتألم من شيء ، وتقني ... اننا مقاومون في العائلة ... ماؤك يغلي .

فأسرع نحو الموقد . وحين انتقع الشاي ، انحنى نحو المرأة مخبئاً لحينه بيده ومحاولاً ان يتخيل مظهر وجهه المألوف . كلا . انها تعجبه تلك الكتلة الداكنة في أسفل الوجه : لقد كانت تجعل كثيراً من الامة لمستطيل الجبهة الظاهر ،

ولتفضن الجفون ، وللنظرة ! وثم ، فإنه كان بدافع الغريزة يخاف ان يكشف
القم كما لو ان ذلك اقرار بالتمرض للخطر .
وجلست راشيل على السرير لتشرب شاها ، واولعت سيكارة ، وانقلبت
من جديد .

- تعال إلى جنبي . ماذا تفعل لتبقى مستاء هناك ؟

وانزلق إلى جانبها مبتهجا وانحنى على وجهها . وتصاعدت رائحة الشعر
المحلول نحوه في برودة المهدح : رائحة مثيرة وعذبة معا ، رائحة لاصقة ،
كريمة نوعاً ، كان يبحث عنها ويحشاها بالتناوب ، لأنه بعد ان تنشقها طويلاً
اصبح مشبعاً بها حتى اعماق خنجرته . وقالت :

- ماذا تريد ؟

- انظر إليك .

- يا عزيزي ..

وما ان انفصل عن شفيتها حتى استعاد وضعيته وتطلع بفضول في عيني
راشيل .

- ماذا تنظر إذن ؟

- اني ابحت عن صدقتيك .

- هل يستصعب إيجادها إذن ؟

- نعم ، بسبب أهدابك . فهي تشكل ضباباً مذهباً أمام عينيك . وهذا
ما يكسبك هذه السحنة .

- أية سحنة ؟

- غامضة .

فهزت كفيها وصرحت :

- ان صدقتي زرقاوان .

- اتظنين ذلك ؟

- ازرق فضي .

- ابدأ .

قال ذلك واضعاً شفتيه من جديد على شفتي راشيل ثم انثرعها بعد ذلك بداعي اللعب .

- حدقتك تارة وماديتان وطوراً بنفسجيتان زاهيتان .

- شكراً .

وابتسمت وحركت عينيها يمناً وشمالاً .

اما هو فكان يتأملها مفكراً : « خمسة عشر يوماً ... يبدو لي ان هناك شهراً . ومع ذلك فلم استطع معرفة لون عينيها . وماذا اعرف من حياتها ؟ ست وعشرون سنة عاشتها بدبرني ، وفي عالم يختلف عن عالمي . عاشتها : يعني ملأى بالاشياء ، والتجارب . اشياء غامضة بدأت اكتشافها شيئاً فشيئاً ... » ولم يعترف لنفسه بكل اللذة التي شعر بها لهذا الاكتشاف ، ولم يدعها ترى ذلك : لم يكن يطلب منها شيئاً . ولكنها كانت تثرثر بطيبة خاطر . وكان يصني إليها ، ويفكر ، ويقرب التفاصيل والتواريخ ، ويحاول ان يفهم . ويندهش على الخصوص ، يندهش دون انقطاع محاولاً الا يظهر شيئاً من ذلك . - اكان ذلك بداعي المداينة ؟ - كلا . ولكن منذ وقت طويل كان موقفه أمام الآخرين هو أن يبدو عارفاً ! لم يتعلم ان يسأل سوى مرضاه . والفضول والمفاجأة كانا في عداد العواطف التي اعتاد كبرياؤه على تغطيتها تحت هيئات صاغية ومنتهبة . وقالت :

- انت اليوم تنظر إليّ كأنك لم تعرفني . كفى . دع هذا .

وأبدت الملل . وكانت قد اطبقت عينيها لتتعاشى هذا الفحص . واراد ان يرفع الجفون باصابعه فقالت وهي تطوي ذراعها الاماري امام عينيها :

- كفى ، كلا . لقد انتهى هذا ولا اريد ان ادعك تنظر في عيني .

- اذن تريد ان اخفاء شيء عني ، يا ابا الهول الصغير ؟

وقبل الذراع الجميل اللامع من الكتف إلى المعصم . وتساءل : « هل تكتم اسرارها ؟ كلا . انه شيء من التحفظ ؛ ولكنه ليس كتمان اسرار . بالعكس ،

انها تتحدث عن نفسها بسرور . وتصبح من يوم لآخر اكثر ثروة ... لأنها تحبني » . وفكر منتشياً : « لانها تحبني » .

ولفت ذراعها حول عنقه وجذبتة مرة اخرى نحو وجهها . ثم فجأة ، وبنبرة جدية :

– هذا صحيح ، كما تعلم : لا يمكن تصور ما يستطيع رؤيته في نظرة واحدة ! وصمتت ، وسمع في اعماق حنجرتها تلك الضحكة الصغيرة الصامتة التي تتغلت منها في اغلب الاحيان حين تستحضر الماضي .

– اسمع . اني اذكر : كان ذلك بنظرة ، بنظرة بسيطة اكتشفت سر رجل عشت معه عدة شهور . كان ذلك على المائدة ، في مطعم في بوردو . وكنا نجلس وجهاً لوجه ، وعيوننا تروح وتجيء من صحنينا إلى وجهينا ، أو تطوف القاعة بسرعة . وفجأة – لن أنسى هذا ابداً – وفي فترة لا تكاد تبلغ الثانية ، فاجأت نظره يتطلع ورائي ، بشكل معبر ... كان كثير القوة بحيث التفت دفعة واحدة ، رغماً عني ، لأرى ..

– وبعد ؟

– وبعد ، ذلك لأقول لك – وتابع بنبرة اخرى : – انه يجب الحذر من نظراته .

وكان انطوان على وشك ان يقول ملحناً : « ولكن ذلك السر ؟ » ولم يجرؤ . كان يشعر بخوف متناه من ان يبدو ساذجاً بمجازفته بأسئلة لا فائدة منها ؛ وكان في السابق قد جازف مرتين أو ثلاث بطلب ايضاح من هذا النوع ، وكانت راشيل قد تطلعت اليه ، مبالغته ، لاهية ، ضاحكة ضحكة صغيرة ساخرة أخزته بشكل عميق .

إذن فقد صمت . وكانت هي التي تابعت :

– هذه القصص القديمة تحزنني . قبّلني . أيضاً . افضل من ذلك – ولكنها لم تكف عن التفكير بذلك لانها أضافت : – الا اني حين اقول « سره » . فان ما عليّ أن اقله هو « واحد » من اسراره ! ان المرء لن ينتهي الى اكتشاف

كل شيء مع ذلك الرجل الساذج .

ولكي تتخلص من ذكرياتها ، وربما ايضاً من استجواب انطوان الصامت ، دارت كلها بحركة بطيئة متموجة بحيث بدا جسدها متجمداً . وقال وهو يداعبها كما تمتدح بهيمة أصيلة :

- أنت مرقة .

- حقيقة ؟ اتعلم انني درست عشر سنوات في الأوبرا ؟

- انت ؟ وفي باريس ؟

- نعم ، يا سيد ، حق انني كنت الأولى عندما تركت

- منذ زمن طويل ؟

- ست سنوات .

- ولماذا تركت ؟

- الساقان .

ودكن وجهها لحظة ، وتابعت على الأثر :

- بعد ذلك كدت ان اصبح فارسة في (سيرك) . أيدمهشك هذا ؟

فصرح بعزم : كلا . في اي سيرك ؟

- اوه ! ليس في فرنسا . في سيرك دولي كبير حيث كان هيرش آنذاك

يطوف خلال العالم . انت تعرف هيرش ، الصديق الذي حدثك عنه ، الرجل

الموجود في السودان المصري . لقد أراد ان يستفيد من مؤهلاتي ؛ ولكنني

لم أمش !

وكانت وهي تتحدث تلهو بان تطوي ساقها وتنده بمهارة مكتسبة من مدرسة

الالعب الرياضية . وتابعت :

- فكرة ساورته . لأنه جعلني اقوم قليلاً بالسير على الحبل في نوبي . وكنت

احب ذلك . وكان عندنا خيول رائعة نستفيد منها .

- هل سكنت نوبي ؟ Neuilly .

- لست انا ، بل هو . كان يملك ميداناً لترويض الخيل في نوبي آنذاك . وكان

دائم الشف ببالخلل . وانا أفضاً . وأنت ؟

فقال وقد انتصب :

— اركب قليلاً . ولكن الفرص فانتني . والوقت أفضاً .

— أما أنا فقد كانت لدي الفرص . بعض منها ! وظللنا ذات مرة اثنين

وعشرين يوماً على ظهور الخيل .

— اين هذا ؟

— في داخلية مراکش .

— هل كنت في مراکش ؟

— مران . كان هيرش يبيع بنادق قديمة لحركات الجنوب . انها غزوة

حقيقية . وذات يوم هوجم مخيمنا ، ودام القتال ليلة ونهاراً .. كلا ، ليلة بكاملها

دون ان نرى شيئاً . كان الأمر مخيفاً ، وكذلك كل فتره صباح الغد . من النادر

أن يهاجموا ليلاً . وقد قتلوا لنا سبعة عشر حملاً وجرحوا ثلاثين . وكنت أنام

بين الصناديق لدى كل اطلاق نار . ومع ذلك فقد أصبت قليلاً .

— أصبت ؟

فقالت ضاحكة : نعم . لا شيء مهم . جلطة .

وأشارت تحت الضلوع ؛ عند طية القامة ، إلى ندبة دقيقة . وسأل انطوان

الذي لم يكن يبتسم :

— لماذا قلت لي أنك سقطت من عربة ؟

فقالت هازةً كفيها :

— اود ! انه يومنا الاول . وكان عليك أن تعلم انني كنت أريد أن أبدو شائقة .

وصمتا . وقال انطوان لنفسه : « أهى إذن خليقة بالكذب علي ؟ »

وأصبحت عينا رايشيل حالتين ، ثم لمعتا من جديد ولكن بوميض حاقـد

انطفأ بسرعة ..

— كان يتصور أنني سألحق به إلى كل مكان ، ودائماً . لقد كان مخطئاً .

وكان انطوان يشعر بسرور مضطرب في كل مرة تلقي على ماضيها هذه النظرة

الحاقدة . وكان يرغب في أن يقول لها : « أبقى معي ، دائماً » . ووضع خده على الندبة وتريث . وكانت اذنه المهنية تتبع رغماً عنه الذهاب والاياب الحويصلي الرخيم في أعماق الصدر الرنان . وشعر بدقات القلب السمحة ، البعيدة ولكنها واضحة . واختلج منخره . وفي حرارة السرير فان جسد راشيل كله كان يبعث بنفس الرائحة المتضوعة من شعرها ، ولكنها أقل ، ومتنوعة : رائحة مسكرة وقافية ، مع لذعة كلذعة الفلفل ؛ وعفونة رطوبة تبعث على التفكير بالرائحة الاكثر تبايناً للسن الناعم ، وورق الجوز ، والخشب الابيض ، وملبس اللوز المعطر بالفانيليا ؛ أنها فوحان أكثر منها رائحة ، أو طعم أيضاً . فقد كان يبقى منها على الشفاه كطعم التوابل . وقابعت :

- لا تكلمي عن كل هذا . واعطني سيكارة .. كلا . السكاير الجديدة على الطاولة الصغيرة . هناك صديقة تصنعها لي : يوجد قليل من الشاي الاخضر المزوج بتبغ ماريلاند ؛ أنه يذكر بالنار المشتعلة في الورق ، والعسكرة في الخارج ، ولا أدري ماذا ، والحريف ، والصيد ؛ وأنت تعلم رائحة البارود هذه حين تطلق النار تحت أشجار القاب ويتبدد الدخان بشكل سيء في الضباب . وتمدد من جديد إلى جانبها في دخان التبغ الحاروني . وكانت يدها تلاعب بطن راشيل الناعم ، ذا البياض شبه الفوسفوري والمتورد قليلاً : بطن رحب كحوض محفور باتقان . وكانت قد احتفظت من رحلاتها بعبادة الدهانات الشرقية . وكان لحم المرأة هذا يحتفظ بنضارة ونقاء جسد ولد غير بالغ .

وتمتت وهي تتلو من الذاكرة ، بقدر الامكان مقطعاً من « نشيد الانشاد » كان قد بعث فيها كثيراً من الاضطراب في سنتها السادسة عشرة :

- *Umbilicus Sicut Crater Eburneus . Venter Tuus Sicut. .. Euh .. Sicut Cupa .*

فسألها وقد نهض نصف نهضة :

- ماذا يعني هذا ؟ انتظري . دعيني أحزر . *Culpa* ، أنا أعرف : *Mea culpa* ؛ وهذه تعني غلطة ، خطيئة . أليس كذلك ؟ بطنك هو خطيئة .

فانفجرت ضاحكة . أنه لم يكبح جاح مرحها منذ أن عاش معها . وقال مصححاً وهو يسند رأسه إلى خصر راشيل .
- كلا . Cupa .. بطنك شبه بقدح .
وأكمل تلاوته التقريبية :

- *Quam pulchroe Sunt Mammoes , Tuos , Soror Mea !*

ما اجل نهديك ، أوه يا شقيقتي ! *Siuct duo* (لا أعرف ماذا) *Gemelli* *qui Paceuntur in Lillis* !
كمزاتين صغيرتين تقضمان العشب بين الزنايق !

وكانت ترفع نهديها دورياً وباعتناء وتتأملهما بابتسامة رقيقة ، كزوج من الحيوانات الصغيرة الخلسة . واكدت بكثير من الجدية :
- من النادر جداً وجود الحملات الوردية ، الوردية النقية ، الوردية كبراعم التفاح . وانت كطبيب ، هل لاحظت ذلك ؟
فأجاب ؟

- لعمري ، نعم . بشرة دون اي بثور تلونها . بياض ، بياض ، ثم ظلال وردية - واغمض عينيه وجثم قريباً منها بقدر ما يستطيع وتابع بصوت ناعس : - آه ! كفاك .. اني اخشى اكثاف الغلمان الصغيرة السهلة التأثر من البرد .

- صحيح ؟

- هذه المدورات السمينة .. وتلك الطيات الجميلة الصلبة ... وذلك الجسد الصابوني .. احب هذا .. لا تتحركي . انا مرتاح .

وفجأة صفعه تذكاً مؤلماً . « جسد صابوني .. » كان ذلك بعد حادث ديديت بايام قليلة . وذات مساء ، كان مسافراً مع دانيال لدى عودته من ميزون . وكانا وحيدين في مقصورة ، وانطوان الذي لم يكن يستطيع التفكير بسوى راشيل خضع ايضاً لسموره من استطاعته ان يقص مغامرة على ذلك الحبير . ولم يستطع امتلاك نفسه طوال الرحلة من ان يقص على دانيال قصة السهرة المؤلمة : العملية النهائية ، والانتظار المقلق على رأس سرير الصغيرة ، ثم رغبته المباغته بالفتاة

الجميلة الشقراء التي نامت ملتصقة به على الارىكة ؛ وقد استعمل هذه العبارات نفسها : « مدورات مميّنة .. جسد صابوني .. » ولكنه لم يجرؤ على سرد البقية ؛
وحين وصل إلى اللحظة التي رأى فيها باب بيت راشيل مفتوحاً حين كان يهبط
درج آل شاسل عند الفجر ، فانه اضاف بدافع اهتمام ارعن ليعطي برهاناً على
إرادته أقل مما هو بدافع الرصانة ؛ « هل كانت تنتظرني ؟ هل يجب ان استفيد
من الظروف ؟ لقد تحاملت على نفسي وتظاهرت بعدم الرؤية ، ومررت .
ماذا كنت تفعل لو كنت مكاني ؟ » عندئذ ، فان دانيال الذي كان يصغي إليه
صامتاً حتى الآن ، اخذ يتطلع في وجهه وناولته هذه الصفحة :

— كنت أفعل مثلك تماماً — أيا الكذوب !

وكانت نبرة صوت دانيال لا تزال تدوي في اذنه ، ساخرة ، ارتيائية ،
جارحة ، ولكن يبقى فيها ما يكفي من سلامة النية لكي يصبح مستحيلاً حملها
على عمل الشر . وهذه الذكرى كانت تلدغه بشدة كل مرة . كذوب ... لقد
كان هذا صحيحاً وكان يحدث له أحياناً ان يكذب ، أو بصورة أصح ، ان
يكون كاذباً .

وفكرت راشيل من ناحيتها : « مدورات مميّنة .. » وقالت :

— ربما اصبحت امرأة مميّنة . فاليهوديات ، كما تعلم .. ولكن والدتي لم تكن
يهودية . فانا لست سوى نصف حصّة من اليهودية . آه ! لو كنت عرفتني منذ
ست عشرة سنة حين دخلت الصف الاعدادي ! فأرة صغيرة حقيقية شقراء ..
وانزلقت خارج السرير قبل ان يستطيع ابقاءها .

— ما بك ؟

— فكرة .

— اخبريني .

فقال ضاحكة ، ومتخلصة من الذراع الممتد :

— الافضل ان لا ..

فتمتم بصوت مرتفع : لولو .. تعالي ونامي

فقالته وهي ترتدي مئزرها :

— كفى يا دودو . فقد وضعت البردعة .

وركضت إلى خزانتها وفتحتها ، واخذت درجاً مليئاً بالصور الفوتوغرافية ، وعادت تجلس على حافة السرير ، والدرج على ركبتيها المضمومتين .

— اني احب هذه .. الصور القديمة . وفي المساء غالباً ما آخذ الكدسة وانا معي واحركها خلال ساعات ، وافكر .. ابقى هادئاً .. انظر . ألا يقلقك هذا؟ وانتصب انطوان المتكوم وراءها ككلب صيد ، قلقاً ، واتكأ على مرفقه بشكل مريح . وكان يرى من الناحية الجانبية وجه راشيل منحنيًا على الصور ، وجه متعقل ، حيث الاهداب المسبلة على الخد كانت تحيط عروة العين الدقيقة بخط من الصمغ الصنوبري . والشعر المرفوع على عجل ، والذي كان يراه في الظل ، يشبه خوذة من الحرير المخملي ، الليموني تقريباً ؛ ولكن ما إن تحرك الرأس على زاوية الصدغ ، وعلى النقرة ، حتى كأن شرراً يتطاير منه .

— هذه هي التي كنت ابحت عنها . اترى هذه الراقصة الصغيرة ؟ هي انا . لقد اضطررتهم الى اللحاق بي في ذلك النهار لانني دعكت دائر ثوب الرقص وذلك بان سحقته هكذا على الجدار ، أتصدق ؟ هذا الشعر على الكتفين ، وهذان المرفقان المروسان ، وهذا الجزء الاعلى من الثوب الذي يكاد لا يكون مقوَّراً . لا يبدو علي انني مبتهجة ، اليس كذلك ؟ وهنا ، انظر . كنت آنذاك في السنة الثالثة : ربلات الساق أصبحت افضل . وهذا ، انه الصف . اترانا على الجاجز ؟ هل وجدتنني فقط ؟ نعم ، هو هذا . وتلك ، انها لويـز . وهذه ، الا تذكرك بشيء ؟ حسناً . انها فيتي بللا الشهيرة التي كانت تدرس معي ، وكانت في ذلك الوقت تدعى لويـز ، بكل اختصار . وايضاً لويـزون . وكنا نتنازع المراكز . وانا ايضاً ربما كنت صرت اليوم اول نجمة لولا التهاب الشريان .. اتريد ان ترى هيرش ؟ آه ! ايشوقك ذلك ؟ هذا هو . كيف تجده ؟ انت لا تعتقد انه مسن ، انا متأكدة . ولكنه يحمل سنيه الحسنين بنشاط ، اؤكد لك . الرجل الرهيب ! انظر الى عنقه ، تلك النقرة الضخمة الغائرة

بين الكتفين : حين يدبر رأسه فان كل ما بقي يدور معه . ومنظره لأول وهلة يبعث على الظن انه ما لا ادري : بائع خيل ، مروض . اليس كذلك ؟ كانت ابنته تقول له دائماً : « ميلورد ، لك هيئة نخاس » . وكان هذا يجعله يضحك ، هو ، بضحكته الضخمة الداخلية . ومع ذلك فانظر الى حجمته ، وهذا الانف المريض الاعقف ، وثنية فيه . انه قبيح ، ولكنه ليس رجلاً كبقية الناس . والعينان ! لو لم يكن لديه هذا النوع من العيون لبدا كأنسان شرس : لا اعرف كيف اقول . هل يبدو واثقاً من نفسه ، مستعداً لكل شيء ، غنياً ! ها ؟ غنياً وشهوانياً ؟ آه ! لو انه كان يحب الحياة ! لقد فعلت حسناً بكرهي له . وقد ارغب في ان اقول كما يقال عن بعض الكلاب ، كما تعلم : « انه جميل من القبح » . الاتجد ذلك ، انت ؟ وهذا ابي ! ابي بين عاملاته . كان دائماً هكذا ، بالقميص ، وبلحيته الصغيرة البيضاء ، ومقصة المعلق . كان يصنع لك بزة بثلاث خرق واربعة دبابيس . وقد أخذت هذه الصورة في مشغله . أترى عارضات أزيائه ملتصقات في الداخل ، والنماذج على الجدار ؟ لقد اصبح صانع ملابس الأوبرا . ولم يكن يشتغل لآخرين . ولا يزال بإمكانك أن تسأل جماعة الأوبرا عما يمتقدونه بالأب غوبفير . حين اضطر إلى الحبر على والدتي وبقي وحيداً معي كان يأمل ان اشتغل معه ، الهرم المسكين ؛ وانه سيستطيع ان يترك لي مؤسسته . وكانت هذه المؤسسة تدر كثيراً من المال . والبرهان هو انني استطيت ان اعيش دون ان اعمل شيئاً . ولكنك تعرف ما هي الطفلة التي كانت ترى المشغل مليئاً دائماً بالاصناف ! لم يكن لدي سوى فكرة : أن أكون راقصة . وقد تركني أفعل ذلك . وهو نفسه وضعني بين يدي الام ستوب . وحين رأى أن الامر يسير على ما يرام كان مسروراً . وكان غالباً ما يتحدثني عن مستقبلتي . لو كان الهرم المسكين يراني اليوم وقد أصبحت فتاة عادية ! آه ! أنت تعلم ، لقد بكيت حين اضطررت إلى ترك كل شيء . والنساء بوجه عام ليس لهن مطامع . انهن يعشن . ولكن نحن ، في المسرح ، نتشبث لنصل ، ونكافح ، ونتذوق الكفاح بسرعة ؛ كالتجاح على الاقل . إذن أنه لرهيب أن يتخلى المرء عن مطامحه

ويعيش كجميع الناس ولا يكون أمامه أي مستقبل .. انظر هذه ، انها صور رحلات ، بدون ترتيب . هذه ، انها صورة غداء تناولناه لا أدري أين ، في الكربات . فقد ذهب هيرش إلى هناك للصيد . ها أنت ترى أنه جعل شاربيه يكبران ويتهدلان، وهيئته كهيئة سلطان . وكان الامير يناديه دائماً باسم محمود . أتري الرجل الاسمر الواقف ورائي ؟ أنه الامير بيير الذي أصبح ملكاً على الصرب . وكان قد أعطاني هذين الكلبين السلوقيين الابيضين النائمين في الصف الاول : انها نائمان مثلك ، مثلك تماماً . وهذا الذي يضحك ، ألا تراه يشبهني ؟ انظر جيداً . كلا ؟ انه مع ذلك أخي . نعم . انه هو . اسمر كوالدي . بينما أنا ، شقراء كوالدي .. أخيراً شقراء ، بلون أشقر متوهج . ماذا ! أنت أحمر ! مغراء هنا ، إذا أردت . ولكن من الناحية الاخلاقية فأنا أخذت عن والدي ، وأخي كان فيه شبه من امي . انظر : انه يرى بشكل أفضل في هذه .. ليس لدي أية صورة لأمي ، لاشيء ؛ فقد أتلّف والدي كل شيء . ولم يكن يحدثني عنها أبداً ، ولم يأخذني إلى سانت - آن أبداً . مع أنه كان يذهب إلى هناك مرتين بالاسبوع ، وقد دام ذلك تسع سنوات دون أن يتأخر مرة واحدة . وقد حدثني الحارسات عن ذلك . كان يجلس أمام والدي ، ويبقى معها ساعة ، وأحياناً أكثر . لأجل لا شيء لانها لم تكن تعرفه ؛ لا هو ولا أحد . ولكنه كان يعبدها . وكان يكبرها بكثير ، ولم يكن يذكر هذه الحوادث . ولا أزال اذكر المساء الذي جاؤا فيه بطلب والدي في المشغل لأن والدي أوقفت . نعم ، في الوفير . كانت قد سرقت قلانس معروضة من أحد المصانع . اتصدّق ، مدام غوبفير ، بائعة ملابس الاوبرا ! لقد وجدوا في فروة كمها جوارب رجل وثوب ولد ! وتركّت على الاثر ، وقيل انها مصابة بمرض السرقة . اتعرف هذا ، انت ؟ انه مرضها الذي كان قد بدأ . ثم ان أخي أخذ كثيراً عنها . وكانت له قصص خفيفة ، قصص مصارف . وكان هيرش مشتركاً بها . وكان سيصبح مثلها بين يوم واخر لولا الحادث الذي وقع له .. وهذه ، دعها . دعها إذن ! ما دمت اؤكد لك انها ليست انا ! انها .. فليونة صغيرة . ماتت .. من الافضل ان تنظر هذه . انها

على أبواب .. طنجة .. كلا . لا تهتم يا عزيزي . لقد انتهى الامر كما ترى . اني لا ابكي .. سهل بوبانا : معسكر محلة سي عباس . وهذه بجانب مسجد سيدي بلعباس . اترى مراکش في الداخل ؟ انظر . وهذه بجانب ميسوم - ميسوم ، أو الدونفو ، لا ادري . انها زعيان من الدزيم *Dzem* . وقد تعرضت للاذى بتصويرهما . من آكلة لحوم البشر . ولكن نعم . فهذا لا يزال موجوداً .. آه ! انه رهيب . ألا ترى شيئاً ؟ ولكن بلى . هنا ، هذه الكومة الصغيرة من الحجارة . اترى الآن ؟ حسناً ، يوجد تحتها امرأة . مرجومة ! انه أمر رهيب . تصور امرأة شجاعة يتركها زوجها دون سبب طوال ثلاث سنوات . لقد اخنتي ، وظنته ميتاً وتزوجت من جديد . وبعد سنتين من هذا الزواج عاد . وتعدد الأزواج في تلك القبائل جريئة لا تفتقر . عندئذ رجوها .. وقد اجبرني هيرش على الهجاء من ميثاد عمداً لرؤية ذلك ؛ ولكنني هربت على بعد خمسمائة متر . وكنت قد رأيت المرأة وهم يسحبونها في القرية صباح يوم تنفيذ العقوبة ؛ وقد اصبت بالمرض من جراء ذلك . اما هو فقد رأى كل شيء . و اراد ان يكون في الصف الاول .. اسمع : يبدو انهم حفروا حفرة ؛ جحراً ، حفرة عميقة جداً ، ثم جيء بالمرأة ، فنامت فيها من تلقاء نفسها دون ان تقول شيئاً . أتصدق ؟ لم تكن تقول شيئاً ، ولكن الجمهور كان يصيح ؛ وقد سمعتهن يصرخون طالبين الموت ، الا اني كنت بعيدة .. وكأنيهم الاكبر هو الذي بدأ . فقرأ الحكم اولاً . ثم اخذوا الجميع حجراً وضخماً وقذفه في الحفرة بكل قواه . وقد قال لي هيرش انها لم تصرخ . ولكن هذا أفلت الجمهور من عقابه . وكانت هناك اكوام كبيرة مهيأة . وكان كل واحد يفترف منها ويقذف كتلاً من الحجارة في الحفرة . وقد اقسم لي هيرش انه لم يلق اي حجر . وحين امتلأت الحفرة (الى فوق الحافة كما ترى) اخذوا يدوسونها صائحين بشدة . ثم ذهب الجميع . وعندئذ اضطرني هيرش الى العودة لألتقط هذه الصورة ، لان آلة التصوير كانت معي . واضطرت ان اذهب .. انظر ، ليس لك الا ان تفكر بذلك لترى اذا كانت قلبي قد وثب . كانت هنا ، تحت .. ميتة .. على الاربع .. آه ! كلا .

ليس هذه .

وانطوان الذي كان يمد رأسه من فوق كتف راشيل لم يتسع له الوقت ليميز شيئاً آخر سوى تشابك اعضاء عارية . وكانت راشيل قد وضعت يدها فجأة على عينيه . وقد ذكرته حرارة هذا الكف على جفونه بالحركة التي كانت تقوم بها اثناء لذتها لتخفي عن عشيقها منظر وجهها وهي في شبه اغماء ، انها الحركة نفسها ولكنها أقل تشنجاً . وكان ينتفض وهو يلعب . ولكنها نهضت بوثبة وهي تضم إلى مئزرها قبضة من الصور المربوطة معاً .

وركضت إلى خزانتها ، ووضعت الرزمة في الدرج وهي تضحك ، وأقفلتها بالمفتاح وقالت :

— أولاً هذه ليست لي . ولا املك حق التصرف بها .

— لمن هي ؟

— لهيرش .

وعادت إلى الجلوس بقرب انطوان .

— ستكون عاقلاً الآن . أتعد ؟ سنستمر . الا يضجرك ذلك ؟ انظر هذه .

غزوة أيضاً . غزوة على الحير في غابات سان كلود . ها أنت ترى اننا قد بدأنا بارتداء ألبام الكيمونو . لقد كان أنيقاً ثوبي الصغير هذا .

١٠

كانت مدام دي فونتانا تفكر : « اني اكذب على نفسي دون انقطاع . ولو كنت صريحة مع نفسي لما املت بشيء » .

كانت واقفة بالقرب من احدى نوافذ قاعة الاستقبال تتبع بعينها رواح وجيء جيروم ودانيال وجني في الحديقة ، دون ان ترفع الستار الرقيق .

وقالت لنفسها : « كم ان باستطاعة الكائنات الأكثر استقامة أن تعيش على راحتها في الكذب ! » . ولكن ، كما انه كان يحدث لها في أغلب الاحيان الا^١ تستطيع الامتناع عن الابتسام ، فكذلك لم تكن تستطيع أن تمنع سعادتها من

ان تصعد فيها كالموجة بين فترة واخرى .

وتركت النافذة وجاءت إلى الشرفة . انها الساعة التي تتعب فيها العيون من النظر ملياً في ما يحيط بها ؛ كانت السماء متموجة ، تظهر فيها نجوم شاحبة . وجلست مدام دي فونتنان . وشردت نظرتها لحظة على الأفق المألوف . وتنهدت . كانت تعرف جيداً ان جيروم لن يستمر في العيش بقربها كما يفعل منذ اسبوعين : كانت تعلم ان هذه العائلة التي وجدت بعد ضياع ستصبح زائلة مرة اخرى ! ألم تجد في موقف جيروم حيالها . وفي رفته اللطيفة ، وبسرور ممزوج بالخوف ، ذلك الذي كانه دائماً؟ أليس هذا برهاناً على انه لم يتغير؟ وانه سيذهب حالاً كما كان يفعل دائماً؟ انه الآن لم يعد جيروم الهرم ، المتضرع الذي أتت به من هولندا ، والذي كان يتعلق بها كالغريق . والآن ، رغم هيئة الولد المعاقب التي يتخذها حين ينفرد بها ، ورغم التهنيدات الخاضعة المستحقة التي يصدرها حين يتذكر حداده ، فقد اخرج من صندوقه ملابس الصيف وبسداً في هيئة متجددة الشباب دون ان يدري . وهذا الصباح نفسه حين قالت له قبل تناول الافطار : « اذهب اذن وهات جني من النادي ، فهذا يجعلك تنزه قليلاً » تظاهر بالانصياع لنصيحتها بلامبالاة ، ولكنه كان قد نهض دون ان يبطيء في الاستجابة ، وبعد قليل ، رأته يخرج بخطوة سريعة ، ينطلقون من الفانيليا البيضاء ، والقامة منتصبه في سرة فاتحة ، حتى انها فاجأته وهو يقطف في طريقه عود ياسمين لعروته .

في تلك اللحظة فطن دانيال إلى ان امه وحيدة فجاء إليها . كانت مدام دي فونتنان تشعر منذ عودة زوجها بشيء من القلق أمام ولدها . وقد لاحظ دانيال ذلك : ولهذا ضاعف زيارته إلى ميزون وحاول أن يكون اكثر انتباهاً من السابق ، راعياً أن يدخل في الاذهان انه كان يعرف اموراً كثيرة ولا يستحسن شيئاً .:

وتقدم في كنبه من النسيج كثيرة الانخفاض ، كنبه كان يحبها . وابتسم لوالدته وهو يولع سيكارة (كم ان يديه وحركاته تشبه يدي وحركات والده) .

— الن تذهب هذا المساء يا كبيرى ؟

— ولكن بلى يا امي . عندي موعد مبكر في الغد .

وأخذ يتحدث عن اشغاله ، الامر الذي كان نادراً ما يفعله : انه يججز للعودة عدداً من « التربية الجمالية » مخصصاً لأحدث مدارس الرسم في اوروبا . واختيار صور عديدة لتزيين النص كان يسليه جداً . ثم توقف الحديث .

كان الصمت مليئاً بتمتمات المساء التي يسيطر عليها تحت الشرفة صرير الصراصير في خندق الغابة ؛ وكان طعم العطور المحروقة يمر بين فترة واخرى في النسمة التي كانت تحتاز الصنوبر وتجعل الاوراق الليلية وجذور الدلب تحدث حفيفاً على الرمل . وجاء خفاش بحففة جناحيه المسرعة الرخوة ، يلامس شعر مدام دي فونتانا ؛ ولم تستطع هذه ان تكبح صرخة خفيفة ، وسألت :

— اتكون هنا نهار الاحد ؟

— نعم ، سآتي غداً ليومين .

— عليك ان تدعو صديقك لتناول الفطور .. فقد التقيت به البارحة

في القرية .

اضافت ذلك لانها كانت تعزو إلى جاك الصفات التي كانت تعتقد انها تلاحظها عند انطوان ، وكذلك ايضاً لتسر دانيال . وقالت :

— انه ذو طبيعة صادقة وسمحة ! فقد مشينا قسماً طويلاً من الطريق معاً .

ودكن وجه دانيال . فقد تذكر غيظ جني الغريب مساء نزهتها في الغابة

مع جاك . وفكر بحزن : « نفس حزينة ثابتة بشكل سيء ، وذات قسمة سيئة ،

وبدون توازن ؛ فضجت كثيراً بسبب التفكير والوحدة والقراءة .. تجعل الحياة

جداً ! ماذا استطيع ان أعمل لاجلها ؟ انها الآن على شيء من الحذر مني . لو

كانت فقط ذات صحة متينة : ولكنها أعصاب فتاة صغيرة ، وتلك

الرومانتيكية ! تلك الحاجة إلى ان تعتقد نفسها انها غير مفهومة ، وذلك

الرفض الدائم للانفصاح عن نفسها ! كبرياء صموت تسم كل شيء ! إلا ان يكون

هذا بقية من العمر الكريه !

وغير كرسية وجاء يجلس اكثر قرباً من والدته . وقال تبريراً لضميره :
- قولي لي يا امي . الم تلاحظي شيئاً في موقف جاك منك ؟ من جني ؟
فرددت مدام دي فوتتانان :
- من جني ؟

هاتان الكلمتان اللتان القاهما دانيال بلورتا فيها ، فجأة ، قلقاً خفياً .
قلقاً ؟ ربما اقل من ذلك : احد تلك الانطباعات الطافية الذي سجلت حساسيتها
المتناهية رسالته دون ان تفهمها جيداً . وعندئذ انتابها القلق النفسي ، ورفعت
اندفاعاً من حرارة العبادة قلبها نحو « الروح » . وصلت :
- لا تتخلّ عنا !

وعاد المتزهون . وهتف جيروم :
- الم تضي عليك شيئاً يا صديقي ؟ احذري ، فالحرارة هذا المساء اقل من
الايام الاخرى .

ودخل الى الدهليز وعاد بشال غطى فيه كفتي زوجته ثم فطن الى ان
جني تجر على الرمل المقعد الحيزراني الطويل حيث كان من عاداتها ان تتمدد
عليه بعد الطعام . وكانت قد ظلت تحت اشجار الدلب فأمرع لمساعدتها
واجلاسها .

كان يبذل بعض الجهد لتدجين هذا العصفور النفور . فقد عاشت جني
طفولتها كلها بجانب امها بحيث قاست نتيجة آلام هذه الام ، واصدرت على
ابيها ، وهي بعد صغيرة جداً ، حكماً لا تساهل فيه . ولكن جيروم ، وقد
شاقه ان يجد جني متغيرة ، امرأة تقريباً ، ضاعف من اظهار الرغبة في خدمتها
واظهر بقرها ادق اغراءاته ، بكثير من الكياسة والفتنة معاً ، بحيث لم تظلم
الفتاة غير حساسة بذلك . واليوم ، فان الاب والابنة اصبحا يتحدثان بدون
حيطة ، كصديقين . وكان جيروم كثير التأثير من ذلك .

وصرح وهو يستلم لرواح وبحيء مقعد هزاز :
- ان ورودك تتزوع هذا المساء يا صديقي . « ان ايجاد ديجون في برج

الحمام ليست سوى زهرة :

ونهب دانيال وقال :

- انها ساعة رحيلي .

واقترب من امه وقبلها على جبهتها . فأخذت وجه الشاب بكلتا يديها وتاملته لحظة عن قرب ، وتمتمت : يا ولدي الكبير !

واقترح جيروم :

- اذن سأرافقك الى المحطة .

لقد حرصته نزهته الصباحية على الهرب قليلا من هذه الحديقة التي عاش فيها اسبوعين مسجوناً .

- الا تأتي يا جني ؟

- سأبقى مع امي .

- اعطني سيكارة .

قال جيروم ذلك آخذاً ذراع دانيال (منذ عودته لم يشأ الخروج لشراء التبغ فقد كان محروماً من التدخين) .

ورافقت مدام دي فونتانان بنظرها الرجلين اللذين ابتعدا . وسمعت صوت جيروم يسأل :

- اتعتقد انني اجد تبغاً شرقياً في المحطة ؟

ثم اختفيا في ظلال الصنوبر .

كان جيروم يشد إليه ذراع هذا اليافع الجميل الذي هو ولده . أية جاذبية يمارسها كل كائن شاب عليه ! ولكن أية جاذبية تسممها الحشرات ! لقد كان ذلك هو عذاب كل يوم منذ أن أصبح في ميزون : كان منظر جني يوقظ فيه الحنين إلى شبابه في كل لحظة . وهذا الصباح ايضاً ، لكم تعذب في ملعب التنس ! جميع اولئك الفتيان والفتيات ذوي النظر الصافي ، المشعشع الشعر من اللعب ، والطوق مفكوك العرى ، والثياب مختلة دون أن يستطيع شيء إفساد فتنة شبابهم المنتصرة ؛ كل هذه الاجام اللينة ، السابجة بالشمس ، كان كل ما

تُضخ به رطباً ينشر أريج الصحة ! آه ! لكم ادرك بشكل عنيف مقدار فضيحة السن أثناء الدقائق العشر التي قضاها هناك ! وكم كان يشمر بالحجل والرعب من ذلك الصراع اليومي الذي كان عليه أن يقوده ضد نفسه ، ضد الذبول ، والقذارة ، ورائحة الشيخوخة ! ضد جميع العلامات المبشرة بهذا الانحلال النهائي الذي بدأ فيه ! ولدى المقارنة بين مشيته المتخدرة ، ونفسه السريع ، وجهوده ليظل رشيقاً ، وبين خطوات ولده المرنة ، فانه ترك فجأة ذراع ولده ولم يستطع ان يرد صرخة حسد :

- كم أتمنى أن تكون لي سنواتك العشرون يا صغيري !
لم تعترض مدام دي فونتنان حين صرحت جني بانها تريد مرافقتها . وقالت لها بعد ان أصبحتا وحيدتين :
- تبدين تعباً يا عزيزتي . ألا تريدان الذهاب لتنامي ؟
فقالت جني :
- باه ! الليالي كثيرة الطول .
- ألا تنامين جيداً في هذه الفترة ؟
- ليس كثيراً .
- لماذا إذن يا عزيزتي ؟

ان اللهجة التي اكسبتها مدام دي فونتنان لهذه الكلمات تجاوزت معناها العادي . وقد نظرت جني إلى امها بدهشة ، وفهمت حالاً ان لدى هذه فكرة تخفيها ، وتمنت ايضاحاً . وبالغريزة ، عزمت على استخراجها منها ؛ لأنها مكتومة ، بل لأنها لم تكن تستسلم منذ ان يبدو ان هناك من يحرضها . وكانت مدام دي فونتنان غير ماهرة في التصنع : كانت قد التفتت نحو ابنتها وتأملت بها بصراحة من خلال رماد المساء ، آملة ان تخضع تحت رقعة نظرتها ذلك التصلب عند جني والذي يضع كثيراً من المسافة بينها . وقالت باصرار خفيف كأنه طلب صفح من الابنة عن الاختلال الذي احدثته عودة الاب في علاقتها الخاصة :

– ما دمنا وحدنا هذا المساء ، فهناك شيء اريد ان اكلمك عنه يا عزيزتي ..
الامر يتعلق بذلك الصغير تيبو الذي التقيت به البارحة .

وتوقفت : كانت على عتبة الموضوع دون اي دوران . ولم تكن تعرف كيف تسير إلى أبعد من ذلك ؛ ولكن الاعتناء بوضعها المنحني كان يطيل عبارتها ويوضح الاستجواب .

ولم تجب جني . أما مدام دي فوتنانان ، وقد ارتفع جذعها شيئاً شيئاً ، فقد أخذت تنظر أمامها إلى الحديقة التي غشيها الظلام .

ومضت خمس دقائق . وكانت الريح باردة . وظنت مدام دي فوتنانان انها لاحظت ارتعاش جني فقالت :

– سيؤذيكَ البرد . لندخل .

واستعاد صوتها رتته العادية . وفكرت : ما فائدة الالحاح ؟ كانت سعيدة لانها تكلمت ، ومتأكدة من انها فهمت ، واثقة من المستقبل .

ونهبنا واجتازا الدهليز دون ان يتبادلا كلاماً آخر ، وسارا على الدرج حين كان الظلام تاماً تقريباً . ومام دي فوتنانان التي كانت تصعد أولاً ، توقفت على قرص الدرج امام باب غرفة جني لتقبل ابنتها ككل مساء . ومع انها لم تكن تستطيع تمييز وجه الفتاة فقد شعرت تحت قبعتها بتمرد هذا الجسد المنقبض ، وأبقت خد الفتاة على خدها مقدار دقيقة ، علامة حنو أثارت عند جني حركة المقاومة . وانفصلت عنها مدام دي فوتنانان بلطف وتابعت طريقها نحو غرفتها . غير انها انتبهت إلى ان جني تبعها بدلاً من ان تفتح بابها لتدخل الى غرفتها ، وفي اللحظة نفسها سمعتها وراءها تهتف دون توقف وبنبهة متحمسة :

– ليس عليك إلا ان تكوني اكثر برودة معي يا امي ، اذا رأيت انه اصبح يأتي كثيراً .

فقالت مدام دي فوتنانان ملتفتة :

– من إذن ؟ جاك ؟ يأتي كثيراً ؟ ولكن ها ان خمسة عشر يوماً قد مضت دون ان أراه هنا

(وبالفعل ، فإن جاك بعد ان علم من دانيال بمجيء السيد دي فونتانان وبالاتقلاب الذي حدث في حياتهم العائلية بسبب هذا الحادث ، فقد حرص ، بدافع الرصانة ، ألا يظهر عندهم) . ومن ناحية اخرى ، بما ان جني كانت تتردد على النادي بشكل أقل انتظاما وتتجنب جاك بقدر الامكان وتنتظر غالباً انها كاه في دورة لعب لتهرب دون ان تكلمه تقريباً ، فإن التقاء الشابين اصبح قليلاً جداً منذ خمسة عشر يوماً .

وكانت جني قد دخلت عمداً إلى غرفة امها ؛ واغلقت الباب وظلت واقفة ، صامئة ذات هيئة جريئة .

وكانت مدام دي فونتانان تشفق عليها جداً ولم تفكر بسوى تسهيل الحديث :

— أوكد لك يا عزيزتي انني لا ارى جيداً ما تريدن قوله .

فقالَت جني بعده :

— لماذا كان دانيال يأتي بآل تيبو هؤلاء الى بيتنا ؟ كل هذا لم يكن ليحصل لولا صداقة دانيال غير المفهومة لهؤلاء الناس .

فقالَت مدام دي فونتانان التي كان قلبها يخفف بشدة :

— ولكن ماذا حدث يا عزيزتي ؟

فاختدت جني :

— لم يحدث شيء . ليس هذا ما اردت قوله ! ولكن لو ان دانيال واثت

يا امي ، لو لم تجتذبا هذين الاثنين من آل تيبو الى البيت لما كنت .. لما ..

وانقطع صوتهما .

فجمعت مدام دي فونتانان شجاعته وقالت :

— لئر يا عزيزتي . اوضحي لي .. هل لاحظت من ناحية .. عاطفة خاصة ؟

ولم تنتظر جني نهاية السؤال لتخفف رأسها بعلامة إيجابية . واستعمادت

صورة الحديقة المألئ بنور القمر ، والباب الصغير ، وخيالها على الجدار ، وحركة

جاك المهينة ؛ ولكن ذكرى هذه الهنية المرعبة التي لا تزال تلازمها ليلاً ونهاراً ،

فانها كانت عازمة على السكوت عنها . كأنها ، باحتفاظها بها سجينة في قلبها هكذا ، تحتفظ بالحرية لتجعل منها موضوع رعب ، او ببساطة موضوع تأثر .
وشعرت مدام دي فونتنان بالساعة الحاسمة . ولم تكن تريد ان تترك جني مستترة في صمتها . كانت المرأة المسكينة مستندة بذراع مرتجف إلى المنضدة الموجودة وراها ومنحنية بكل جسدها نحو جني حيث كانت تستشف وجهها المضاء قليلاً من النافذة المفتوحة . وتابعت :

— يا عزيزتي . ان الامر لن يصبح خطيراً الا إذا كنت .. إلا إذا . انت أيضاً كنت ..

وكانت هذه المرة إشارة سلبية كررت عدت مرات بعناد . وتنهدت دي فونتنان لتخلصها من قلق فظيع .

وصرخت جني فجأة بصوت لم تكن والدتها تعرفه :
— كنت دائماً اكره آل تيبو هؤلاء ! فالكبير نوع من انسان احق متبجح والآخر ..

فقاطعتها مدام دي فونتنان وقد احمر وجهها في الظلام :
— ليس هذا صحيحاً .

— .. والآخر كان دائماً الشيطان السيئ لدانيال !
وهكذا تابعت جني ، مستعمدة شكاية قديعة كانت نفسها قد حكمت فيها حكماً عادلاً منذ وقت طويل . وتابعت :

— آه يا امي ، لا تدافعي عنها ؛ لا تستطيعين ان تحيبيها . فهم اناس يختلفون عنك كثيراً ! اؤكد لك يا امي ، اني لا اخطيء : انهم ليسوا اناساً من نوعنا ! انهم .. لا ادري .. حتى يجب ألا نفترق إذا بدت هيشتهم انهم يفكرون مثلنا ؛ ان ذلك يكون بطريقة اخرى ولأسباب أخرى ! آه ! انه عرق .. وترددت ، وقذفت اخيراً : — كريبه !

وتابعت مقادةً بفوضى افكارها :
— لا اريد ان اخفي عنك شيئاً يا امي . كلا ، ابدأ . حين كنت صغيرة

كنت اعتقد ان لدي عاطفة قبيحة .. نوع من الغيرة من جاك . كنت اتالم لرؤية دانيال مفتوناً بهذا الغلام ! وكنت اقول لنفسى : ليس جديراً به . اناني ، متكبر ، شكس ، ملحاح ، سيء التربية ! لا شيء سوى مظهره الطبيعي ، فمه ، فكه .. كنت احاول الا افكر به ، ولكن لم استطع ؛ كان دائماً يقذفني بشيء جارح أظلم أذكركه ، ويشير غصبي . كان يأتي كل وقت إلى البيت حتى ليظن انه يعتمد الاهتمام بي ! ولكن هذا كان في الماضي . ولا أدري لماذا أعود إليه دائماً .. ومنذ ذلك الوقت أخذت ألاحظه عن قرب . وهذه السنة على الخصوص . هذا الشهر . والآن فاني أقاضيه بشكل آخر . اني احاول ان أكون عادلة . وأرى جيداً ما هناك رغم كل شيء حسن فيه . حتى اني سأقول لك شيئاً يا امي : كنت أظن ، عدة مرات ، نعم ، عدة مرات ، انني أنا أيضاً ، دون أن القي بالآ كنت كأني مجتذبة إليه .. ولكن كلا ، كلا ، ليس هذا صحيحاً . ان كل ما فيه بغيض بالنسبة إلي ، كل شيء تقريباً !

فقالت مدام دي فونتانان مسلّمة :

— جاك ، لا أدري . لقد سنحت لك الفرصة أكثر مني للحكم عليه . أما فيما يتعلق بانطوان ، فبالعكس ، وأستطيع أن أوكد لك .

فقاطعت الفتاة بحدة :

— ولكن عن جاك ، لم أقل .. لم أنكر أبداً أن عنده ، هو أيضاً ، صفات عظيمة جداً . — وكانت قد غيرت نبرتها شيئاً فشيئاً وأخذت تتكلم بتأمل — أولاً ، كل ما يقوله يدل على انه ذكي جداً . واعرف له ذلك . حتى اني أسير إلى أبعد من هذا : انه ليس فاسد الطبع ؛ وهو خليق ليس بالصدق فقط ، بل بالسمو ، بالنبل ، انت ترين يا امي انني لا أقوم ضده . وليس هذا كل شيء . ثم أضافت وهي تزن كلماتها برصانة ، بينما مدام دي فونتانان المندمسة كانت تتفحصها بانتباه :

— أعتقد انه مدعو لمصير سام ، ربما لمصير سام جداً .. وهكذا ترين انني احاول أن أكون عادلة ! وأنا متأكدة تقريباً الآن ان تلك القوة التي فيه هي

التي تدعى المبقرية : نعم ، تماماً ، المبقرية .
رددت ذلك بنبرة شبه مثيرة ، بينما كانت والدتها لا تبدر انها تفكر بمخالفتها
ثم صرخت فجأة بعنف يائس :
- ولكن كل هذا لا يمنع من أن له طبيعة آل تيبو ! انه واحد من آل تيبو !
وأنا أكرهمهم .

وظلت مدام دي فوتنانان لحظة صامتة ؛ ذاهلة ، وغتمت أخيراً :
- ولكن يا جني ..

وعرفت جني في نبرة صوت امها تلك الفكرة نفسها التي قرأتها بوضوح في
نظرة دانيال . عندئذٍ ، كطفلة ، هرعت نحو مدام دي فوتنانان ووضعت يدها
على قمها :

- كلا ، كلا ، ا ليس هذا صحيحاً ! أقول لك ان هذا ليس صحيحاً !
وبينما كانت والدتها تجذبها نحوها وتحيطها بذراعيها كأنها تريد حمايتها ، فان
جني تخلصت فجأة من تلك العقدة التي كانت تشد على عنقها ، واستطاعت أخيراً
ان تمحّب ، مرددة دون انقطاع بذلك الصوت الذي كان لديها في هومها كقناة
صغيرة سابقاً :

- امي .. امي .. امي ..

وأخذت مدام دي فوتنانان تهددها بنحو على صدرها وتقول لتهديتها :
- يا عزيزتي .. لا تخافي .. لا تبكي .. انها أفكار .. ولكن ما من أحد
يحبك .. من حسن الحظ انك لم .. (وتذكرت لقاءها الوحيد مع السيد تيبو
صباح اختفاء الولدين ؛ واستعادت في ذهنها صورة الرجل الكبير بين الكاهنين
في غرفة عمله ؛ وتحيلته رافضاً الموافقة على حب جاك ، معاقباً غرام جني بأسوأ
الازدراءات) . آه ! من حسن الحظ ان هذا ليس .. انت غير ملومة بشيء ..
سأكله أنا ، هذا الصغير ، وسأجعله يفهم .. لا تبكي يا عزيزتي . ستسعين كل
هذا .. لقد انتهى ، انتهى .. لا تبكي ..

ولكن بكاء جني كان يزداد شدة ، لأن كل كلمة من امها كانت تزيد من عذابها .

وظلت المرأتان وقتاً طويلاً واقفتين هكذا ، متعانقتين في الظلام ، والابنة دافئة أليها بين ذراعي امها ، والام تتلو تعزياتها القاسية ، والعينان مفتوحتان بذعر : لأنها ، بمعرفتها الفريزية المعتادة للمستقبل ، كانت ترى المصير المشؤوم مبسوطاً امام جني ، ذلك المصير الذي لاتستطيع مخاوفها ولا خنوها ولا صلواتها ان تنتزع ابنتها منه . وفكرت وهي مرهقة : « في الصعود اللامنتهي للكائنات نحو « الروح » ، على كل فرد منا ان يتقدم وحيداً ، من تجربة الى تجربة ، وفي الغالب من ضلال الى ضلال ، على الطريق المحفوظ له ، في كل ابدية ، كأنه طريقه الخاص ... »

وارتجفت الاثنتان حين سمعا انفلاق الباب في اسفل ، وعرفا خطوة جيروم على بلاط الدهليز . وعندئذ أرخت جني حضنتها وهربت دون اية كلمة ، مترلحة تحت هذا الشقاء الذي اصابها ، والذي لا يستطيع اي انسان في العالم ان يخفف ثقله .

١١

هناك اعلان فخم كان يستوقف المتسكعين في الشارع امام السينما :

افريقيا المجهولة

رحلة إلى قبائل الأولوف والسيرير ،
والفولبيه والموندانج
والباغيرميان

وتأوهت راشيل قائلة :

— هذا لا يبدأ إلا في الساعة الثامنة والنصف

— أرأيت !

لكي يقلل انطوان من عرض نفسه للعيان في خلوته ، استأجر إحدى المقاصير المحاطة بالاسلاك في داخل القاعة ، مع القول انه لم يتخلّ دون أسف عن مؤالفته للفرقة الوردية .

ولحقت به راشيل عند نافذة التذاكر ، وقالت وهي تسير به تحت الرواق
ذي الاعمدة ، حيث كانت تُعرض بعض مناظر الافلام :
- انظر .

فقرأ انطوان الكتابة أولاً : « فتاة من الموندانج تذرو الذرة البيضاء على
ضفة نهر مايو كابي » . جسد برونزي عاري تماماً باستثناء شريط من قش مضفور
بشكل زنار . كانت فتاة الموندانج الجميلة واقفة ، مستندة على الساق الايمن ،
والوجه منهك ، والقسم الأعلى من الجسد يحتذه عليها : ذراعها الايمن المرفوع
بشكل مستدير فوق رأسها كان يحني قرعة كبيرة ملأى بالحبوب فتسيل حبلاً
دقيقاً عالياً بقدر الامكان ، في طاسة ثانية من خشب ممسوكه باليد اليسرى على
مستوى الركبة . كانت وضعيتها طبيعية : الرأس الملقى قليلاً إلى الراء ،
واحناء الذراعين المتأرجحين اللطيفة ، واستقامة القسم الأعلى من الجسد يرفع
نهدين فتيين ذوي استدارة صلبة ، وثنية القامة ، وجهه الخصر ، وطرحه
الساق الحر إلى الامام بحيث لم يكن يمس الارض الا بطرف القدم ، كل هذا
التناسق كان طبيعياً ، فرضه الشغل ، وذا جمال مؤثر .
وتابعت وهي تري انطوان عشرة من الشبان السود يحملون زورقاً هزيراً على
اكتافهم :

- انظر إلى هؤلاء . وذلك الصغير هناك ، هل هو جميل ؟ انه من الأولوف
كما ترى : تيمة في عنقه ، وخرقته الزرقاء وطربوشه .
كانت هذا المساء تتكلم بهرج خاص ؛ وكانت تبتسم دون ان تفتح شفتيها
تقريباً ، كأن عضلات وجهها تتشنج خفية عنها ، وفي شق الجفون ، فان
لنظرتها المحمومة ، المناسبة ، وميضاً غريباً لم يكن يعرفه انطوان .
وقالت : لندخل .

- ولكننا جئنا قبل الوقت بأكثر من ربع ساعة .

فأجابت بلل ولد :

- لا اهمية لذلك . لندخل .

كانت القاعة فارغة . وفي مفارقة الجوقة الموسيقية بعض الموسيقيين يُعدّون آلاتهم ، ورفع انطوان شبكة المقصورة . وظلت راشيل واقفة قبالة . وقالت ضاحكة :

- حلّ ربطة العنق هذه . هيئتك تدل دائماً على انهم أرادوا شنقك وهربت والحبل في عنقك . - فأتى بحركة عنيفة تكاد لا تدرك وتمتعت بعد ذلك : - آه ! ذلك لأنني اشعر بلذة في المهيء لرؤية الفيلم معك . - واخذت وجهه انطوان بيديها واجتذبتة نحو شفتيها : - ثم اني أحبك منذ ان فقدت لحيتك . وخلعت معطفها ، وقبعتها ، وقفازيها . وجلسا . ومن خلال الحاجز الكافي ليبعدهما عن الانظار كانا يشاهدان إجراء التغيير في القاعة التي لم تعد بعد بضع دقائق تلك القاعة الصامتة المعفرة بالغبار ، المحمّرة ، حيث يطفو بعض الحطام لتصبح كتلة متحركة الوجوه ، في جلبة هادئة لقفص طيور ، يسيطر عليها بين لحظة واخرى لحن موسيقي صادر عن آلة موسيقية هوائية . ورغم حر الصيف الحارق للعادة ، فان النصف الثاني من ايلول اجبر كثيراً من الباريسيين على العودة ؛ وبعد ، فلم تكن هذه هي باريس العطلة التي كانت راشيل تحبها ، كل سنة ، كمدينة جديدة على الاكتشاف . وقالت : اسمع .

فقد بدأت الاوركسترا تعزف قطعة من « لاوالكيري » رومانس الربيع . وكانت قد تركت رأسها على كتف انطوان الجالس قريباً جداً منها ، وكان يسمع من خلال شفتي راشيل واسنانها المطبقة شيئاً كالصدى كان يضاعف غناء الكمانات . وقالت بترأخ :

- هل سمعت زوكو ؟ زوكو التينور ؟

- نعم ، لماذا ؟

فاستمرت تحلم ولم تجب حالاً ؛ واخيراً قالت بصوت منخفض كما لو انها مصابة بوسواس اخفاء تفكيرها عنه . وقالت :

- كان عشيقي لي .

وشعر انطوان بفضول شديد لمعرفة ماضي راشيل دون اية غيرة . وكان

يدرك جيداً ما أرادت ان تقول حين اعترفت قائلة: «ان جسدي لا ذاكرة له». إلا ان زوكو... واستحضر في ذهنه شبحاً مضحكاً بلباس قصير من الساتان الأبيض، متسلقاً مكعباً من الخشب، في الفصل الثالث من مسرحية «المعلمون»؛ وهو ضخيم، ربعة، يحتفظ بمظهر عجري رغم شعره الأشقر المستعار، وكان يضع أيضاً يده على قلبه في الغناء الغرامي المزدوج. وحقد انطوان قليلاً على راشيل لهذا الاختيار السيء.

وقامت، واصبعها المرفوع يرسم في الهواء تشابك الجمل الموسيقية:

— هل سمعته يعني هذه الاغنية؟ ألم احثك ابدأ عن زوكو؟

— كلا.

كان ممسكاً بوجه راشيل على صدره، ولم يكن عليه إلا أن يخفض نظره ليراها. ولم يكن لديها ذلك التعبير المستيقظ الذي تتخذه دائماً عند استحضار ذكرياتها: كانت عابسة قليلاً، والجفون شبه مطبقة، وزوايا الفم منخفضة قليلاً. وفكر: «قناع الألم الجميل الذي تستطيع الحصول عليه». ثم لاحظ انها صمتت، والكي يؤكد مرة أخرى انه لا يهتم ابدأ بالماضي، قال ملحناً:

— وبعد، عشيقك زوكو؟

فارتجفت وقالت بابتسامة فاترة:

— ماذا؟ زوكو؟ في الأساس، انت تعلم، ان هذا ليس ذا بال، كان زوكو

هو الأول، هذا كل شيء.

فقال ضابطاً نفسه قليلاً: وأنا؟

فأجابت دون قلق:

— انت الثالث.

وفكر انطوان: «زوكو، وهيرش، وأنا.. فقط»؟

وقامت وقد ازداد انتعاشها:

— اذن، ماذا كنت اروي؟ سترى اذا كان الامر بسيطاً. لقد مات ابي:

وكان اخي يشتغل في مبورغ. وكان لدي الاوبرا التي كانت تأخذ كل نهاراتي.

ولكن في المساء، حيث لم اكن ارقص ، كنت اشعر اني وحيدة . والمرء هكذا في سن الثامنة عشرة . اما هو ، زوكو ، فكان يغازلني منذ وقت طويل . وكنت اجده شخصاً عادياً ، دعيماً - وترددت - احق قليلاً ، نعم ، في ذلك الوقت اعتقد اني اراه على شيء من الحق . ولكني لم اكن اعلم انه شرس . قذفت ذلك فجأة . والقت نظرة على القاعة حيث اطفئت الانوار .

- بماذا يبدأون ؟

- بالحوادث الجديدة .

- وبعد ؟

- فيلم طويل يجب ان يكون سخيلاً .

- وافريقيا ؟

- في النهاية .

وقالت وهي تلقي شعرها المعطر على كتف انطوان :

- آه ! ستخبرني اذا كان يستحق الجهد . الا يتعبك ذلك يا عزيزي ؟

انا مرثاة .

ورأى فيها مفتوحاً رطباً ، والشفتين تنضمان . وكرر :

- وزوكو ؟

وبعكس ما كان ينتظر فانها لم تبسم .

- اني اتساءل اليوم كيف استطعت احتمال كل شيء . كان يعاملني ! سائق

عربة ! كان في الماضي يقود بفالاً في مقاطعة وهران .. وكان صديقاتي يرثن

لي ، ولم يفهم احد لماذا ابقى معه . وانا نفسي لم افهم .. يقال دائماً ان بعض

النساء يجبن ان يُضربن .. - صمتت لحظة وازافت : - كلا ، ولكني اظن

انني كنت خائفة من بقائي وحيدة .

لم يذكر انطوان ابداً انه فاجأ في صوت راشيل قبلاً تلك التغييرات الكثيرة

الموجودة فيه هذا المساء . وقد أطبق ذراعه حول المرأة الشابة كأنه يريد ان

يضعها في مأمن . ثم انحلت حضنته . كان يفكر بتلك الرأفة السهلة التي كانت

أخذ وجوه كبريائه ، وكانت تقريباً سر تعلقه بأخيه ، بحيث كان يتسائل
أحياناً - قبل ان يلتقي براشيل - اذا لم تكن هذه هي الطريقة الوحيدة للحب
عنده . وتابع :

- وبعد ؟

- وبعد ، فهو الذي تركني . بالاتفاق .

قالت ذلك دون اقل مرارة .

ثم بعد وقفة ، وبصوت منخفض يبدو انه يدعو الى الصمت حول هذا
القرار ، اضافت :

- كنت حبل .

فانتفض انطوان . حبل ؟ لم يكن هذا ممكناً . وهو الطبيب ، لم يتح له ان
شاهد آثاره بعد .. هيا اذن !

كانت مشاهد الحوادث الجديدة تمر امام نظره الداهل ، المستاء :

الى المناورات الكبرى

السيد فالير في حديث مع

الملحق العسكري الالماني .

مستقبل مصلحة الاستخبارات .

الهبوط في طائرة لا تالم التي تحمل

معلومات قيمة الى الجنرال القائد الاعلى .

رئيس الجمهورية يستقبل الطيار الشجاع .

وتابعت راشيل مصححة :

- اوه ! ليس لهذا فقط تركني . لو اني تأبرت على دفع ديونه ...

وتذكر انطوان فجأة تلك الصورة لطفل مولود حديثاً والتي رآها عندها
وانتزعتها من يديه قائلة : « انها فليونة لي ، ماتت » .

كان تلك اللحظة اكثر غيظاً ، واكثر مهانة في ضميره المهني ، بحيث لم يكن مندهشاً من اعتراف راشيل . وتمتم :

— اصحيح هذا ؟ اكان لك ولد ؟

ثم اردف بابتسامة فطنة :

— كنت اشك في ذلك منذ وقت طويل .

— الا ان احداً لم يظن لذلك ، فقد كنت شديدة العناية بنفسي بسبب

المسرح .

واجاب بحركة من كتفيه .

— طيب !

فابتسمت ؛ كانت تتباهى بذلك انطوان . وظلت بضع دقائق . وتابعت

دون ان تتخلى عن وضعيتها المضنية :

— انت ترى ، حين افكر في ذلك العهد يا عزيزي أقول لنفسي انني عشت

افضل قسم من حياتي كلها . ذلك لاني كنت فغورة ! وحين لزم الامر إلى طلب

اجازة من الاوبرا لأنني شعرت بالثقل ، ألا تعرف اين كنت ؟ في النورماندي !

كوخ صغير لهجي الوحشة ، حيث عرفت عجوزاً من بيتنا كانت قد قامت على

تربيتنا انا واخي . آه ! هناك حيث استطيع ان اكون موضع عناية ! كنت

أريد ان اظل هناك طوال حياتي . كان بودي . فقط ، انت تعرف المسرح

حين يُعز المرء منه مرة واحدة .. واعتقدت انني افعل حسناً . فقد تركت

الصغيرة مع مرضعة : لم اكن خائفة ثم ، بعد ثمانية أشهر .. وانا ايضاً انتابني

المرض . — وتأوهت بعد صمت قصير : — كنت مختلة الجسم بسبب الولادة .

وكان عليّ ان أتترك الاوبرا ، وافقد كل شيء في الوقت نفسه . وعدت لأرى

نفسي وحيدة .

وانحنى ، ولم تكن تبكي : كانت عيناها مفتوحتين وهي تنظر الى سقف

المقصورة ؛ ولكن جفونها انتفخت بالدموع ببطء . ولم يجرؤ على تقبيلها ، وكان

يحترم تأثرها ، ويفكر بما عرفه . كان يعتقد كل يوم انه توصل مع راشيل إلى نقطة

ثابتة يستطيع منها ان يكون رأياً عاماً عن حياة صديقه ، ولكن في اليوم التالي ، فان حديثاً ، أو ذكرى ، أو تلميحاً بسيطاً ، كان يفتح رؤى ليست موضع شك يضيع فيها نظره من جديد .

وانتصبت من تلقاء نفسها ورفعت ذراعها لتصلح شعرها . ولكن حركتها توقفت حالاً : وامتدت يدها نحو الشاشة وهتفت :

— اوه !

واخذت تتابع بعينها المغشأتين ، وبانتباه لإرادي ، هرب فتاة على الجواد ، يلاحقها حوالي الثلاثين من الهنود كانوا يركضون خيولهم على اثرها كسرب من كلاب الصيد . وتسلفت الامازونية الصخور وظهرت لحظة على القمة ، وهبطت منحدرأ عمودياً ، وقذفت نفسها في سيل دون تردد ؛ والجياد الثلاثون تندفع وراءها وتختفي في عاصفة من الزبد ؛ ولكن الفتاة بلغت الضفة الاخرى ووخزت جوادها بالمهاز وعادت إلى الركض : جهود بلا فائدة : فقد كان مضطهدوها يشبون على أثرها . وحاصروها عن قرب . وكادوا يتلقفونها بواسطة الوحق^(١) الذي كان يسوط الهواء فوق رأسها ، حين بلغت جسراً حديدياً كان يمر تحته قطار سريع كالاعصار : وفي لحظة ، انزلقت عن السرج ، وتخطت الحاجز ووثبت في الفراغ .

وانبهرت القاعة .

وفي اللحظة نفسها عادت الفتاة إلى الظهور على سطح عربية كانت تحملها بأقصى سرعتها ، وهي مشعثه الشعر ، وتنورتها في الهواء ، ويداها على خصرها ، بينما كان الهنود المحرمن أعلى الجسر يحاولون عبثاً ان يصوبوا إليها بنادقهم القصيرة . وهتفت مرتجفة من السرور :

— أرايت ؟ اني احب هذا .

١ - الرحق : حبل في طرفه انشوطه يلقى على الحيوانات للاسالك بها والكلمة ترجمة للكلمة الاسبانية « *Lasso* » .

فجذبها من جديد ، ووضعها على ركبتيه هذه المرة ، وأبقاها بين ذراعيه ، كوله ؛ وأراد التخفيف عنها وان يجعلها تنسى كل ما هو ليس بحبها . إلا أنه لم يقل شيئاً ؛ كان يلعب بمقدما الذي كانت حباته العسلية اللون منفصلة بكرات صغيرة من العنبر الأصهب ، بلون الرصاص ، وكانت تسخن تحت الاصابع فيتضوع منها عطر لاصق جداً لا يندر ان تجد عبيره بعد يومين في تجويف الكف . وقد جعلته يفك عرى ثوبها من أعلى ويضع خده على عنقها .

وقالت : ادخل !

انها عاملة صغيرة تعين لكل متفرج مكانه ، قد أخطأت المقصورة ، وأطبقت المصراع بسرعة بعد ان اتسع لها الوقت لتشمل بنظرة فضولية المرأة الشابة نصف العارية بين ذراعي انطوان . اما هو فقد قام بحركة متأخرة ليتخلص . وضحكت راشيل قائلة :

— انت احق ! ربما كانت تنتظر أن ... انها لطيفة .

وفوجيء بالكلمات وبالنبذة بحيث بحث عن تعبير الوجه ؛ ولكن راشيل كانت قد وضعت جبهتها على كتفه ، واحس بضحكها فقط ، بذلك النقيق الغامض شبه الصامت الذي لم يكن يسمعه ابدأ دون ان يصاب باضطراب نفسي . كل ذلك المجهول الذي كانت راشيل ، بين فترة واخرى ، تظل مثقلة به ، كان يسبب لأنطوان شعوراً بهاوية مفتوحة . انه مزيج من القلق ، ومن الفضول أيضاً يعقده غم خفي : لأنه كان حق الآن ، بصفته كطبيب ، يدهش الآخرين بابتسامات ارتيائية وبافكار مضمرة أنذر بها . اما مع راشيل فالادوار مقلوبة : فقد تكشف انطوان بشكل اعجوبي عن مبتدئ . وبدون ان يعترف بذلك ، كان يشعر انه غير مطمئن على هذا الصعيد . وذات مرة ، لكي يثار ، جرب ان يمزج بتذكارات العيادة بعض الأحاديث عن غرفة الطبيب المناوب في المستشفى ، واخترع لراشيل حكاية عاطفية غريبة جعلها تفهم منها انه كان له ضلع فيها . ولكنها قاطعته منذ الكلمات الأولى بضحكة ودودة :

— هيا ، هيا ! لمن كل هذا ؟ ألا احبك كما انت ؟

فأحمر وجهه ، وازداد غيظه بحيث لم يعد إلى ذلك أبداً .
وانتهت الاستراحة دون أن يفكر واحد منها بقطع الصمت . وأعلن عن
الفيلم الأفريقي . وسادت الظلمة . وعزفت الاوركسترا لحناً زنجياً .
وعندئذ انفصلت راشيل عنه وجاءت تجلس وحدها على حافة المقصورة وتتمت :
- بشرط أن يكون ناجحاً .

ومرت مناظر طبيعية . ونهر من الماء الراكد تحت أشجار عملاقة مرتبطة
بالتراب بواسطة تشابك المعرّشات . وهناك فرس نهر على سطح الماء يشبه جنة
ثور غريق . وقرود صغيرة سوداء تشبه بحّارة مسنين بأطواقها من اللحي البيضاء ،
تلعب لاهية على الرمل . ثم كانت قرية : ساحة مقفرة ، متشققة من الحرارة ؛
وأفق مسدود بالاكواخ والسياج ؛ وباحة فيها « فتيات صغيرات » عاريات
القسم الأعلى من الجسم ، وعضلات الارداف متوترة تحت الوزرة ، كن ينخلن
الحبوب في اوعية خشبية مرتفعة بين أطفال زنوج يتدحرجون في الغبار ؛ ونساء
آخرات ، حاملات سلات واسعة ، وغيرهن أيضاً يغزلن جالسات ، واليـد
اليسرى ممسكة بعنقاس مغزل ، واليد اليمنى تدير في قادوس خشبي مغزلاً
بشكل خذروف يلتف عليه القطن .

وكانت راشيل تحملق في الشاشة ، والمرفق على ركبتيها المتصالبتين ، والذقن
في اليد ، والجبهة إلى الامام . وكان انطوان يسمع تنفسها . وبين وقت وآخر ،
ودون أن ترفع رأسها ، كانت تنادي بصوت منخفض :
- انظر يا عزيزي .. انظر ..

وانتهى الفيلم بقرع طبول وحشي ، عند الفسق ، على ساحة محاطة بأشجار
النخيل . وجمهور مؤلف من السود فقط ، حيث ترى الاقنعة ممدودة والاجساد
مرتجة من الفرح ، كان يؤلف دائرة حول زنجيين شبه عاريين ، جيلين ، ثملين ،
لامعين من العرق ، كانا يتلاحقان ، ويتصادمان ، وينفصلان ، وينقض أحدهما
على الآخر صاراً بأسنانه ، أو أيضاً ، يطلب أحدهما الآخر ، ويتلامسان ، في
جنون ابقاعي ، حربي وشهواني معاً ، لانهما كانا يمثلان بالايماء ، ودورياً ، هياج

المعركة ، واستشهادات الحب . والمتفرجون السود ، لاهون ، يفحصون الأرض
بارجلهم من السرور ، ويضيقون حلقهم أكثر فأكثر حول المجنونين ، ويزيدون
جنونها بزيادة التصفيق وبمصاحبة قراع الطبول . وكانت جوقة السيما الموسيقية
قد صمتت : وفي المقاصير تصفيق منظم يعيد إلى الصورة حياة تسبب الدوار
ويجعل اللذة البالغة حد القلق النفسي أكثر عدوى ، ذلك القلق الذي تفصح
عنه كثرات وجوه هؤلاء المتعصبين .

وانتهى المشهد . واخلى الجمهور القاعة ، واخذت بعض النساء المستخدمات
يسطن أقمشة على المقاعد الخالية .

وراشيل ، صامته ، فائرة الهمة ، لم تنوِ النهوض . ولما كان انطوان قد وقف
وناولها معطف السهرة ، فانها انتصبت واعطته شفتيها . وخرجا الأخيرين
دون اية كلمة . ولكن امام السيما وفي هواء الشوارع ، بين الجمهور الخارج من
جميع اماكن اللهو دفعة واحدة ، وفي عذوبة هذا الليل المتألق بالأضواء ، حيث
كانت تدور بعض اوراق الحريف ، اخذ انطوان ذراعها وهمس في اذنها :

— انعود الى البيت ؟ قولي .

فهمت : اوه ! ليس الآن . هيا الى مكان آخر . انا عطشى .

ثم رأت الواجبات الزجاجية تحت رواق الاعمدة فعادت لتعيد النظر في
صورة الزنجبي الصغير وقالت :

— آه ! هذا مدهش . انه يشبه ولدأ هبط معنا الكازامانس^(١) كله . واحد

من الألوف : مامادو ديانغ .

وسأل دون ان يظهر خيبة امله :

— اين تريد ان تذهبي ؟

— لا يهم . الى « البريتانيك » ؟ كلا : عند باكميل ، اتريد ؟ لنذهب سيرا على

الاقدام . نعم . نعم . كأس من الشارتروز المثلوج عند باكميل ، ثم نعود

١ - الكازامانس : نهر ساحلي في افريقيا الغربية - السنغال .

الى البيت .

والتصقت به باسترخاء مليء بالوعود . وتابعت :

- ان تفكيري بمامادوا الصغير ، في هذا المساء بعد الفيلم تماماً ، يذكرني بأمر . وانت تعلم ، لقد اريتك تلك الصورة التي يجلس هيرش فيها على مؤخرة الزورق الطويل المستعمل لصيد الحيتان . وقلت ان له هيئة بوذا بخوذة المستعمرات . حسناً ان الولد الذي يستند اليه ، الكثير السواد ، بوزرة بيضاء ، اذكر ذلك ؟ انه هو ، مامادو .

فألقى في روعها ملاطفاً :

- ومن قال لك انه ليس هو نفسه ؟

فظلت لحظة دون ان تجيب وارتعشت .

- يا للصغير المسكين ، لقد ألثهم امامنا بعد بضعة ايام . نعم ، وهو يسبح . او بالاحرى كلا ، انه ميرش .. لقد راهن هيرش ان مامادو لا يجزؤ على اجتياز ساعد من النهر سباحة ليلتقط زينة للرأس بشكل باقة كنت قد انتزعتها . وقد اسفت كثيراً على اسقاطي هذه الزينة في النهر . وحاول الصغير ان يجري ، فالقى نفسه في الماء ، وكان يسبح ونحن ننظر اليه ... وفجأة . آه ! لقد كان مشهداً مربعاً ! ببضع ثوان ، تصور ! رأيناه ينتصب خارج الماء ، ممسوكاً من اسفل جسده .. تلك الصرخة ! كان هيرش رائعاً في حالات كهذه ! فقد ادرك في اللحظة ذاتها ان الولد قد فقد ، وانه سيتعذب بشكل فظيع : فتنكب البندقية واطلق النار ! وانفجر رأس الولد كالقرعة . هذا افضل ، اليس كذلك ؟ ولكنني اعتقدت اني سأصاب بأذى .

وصمتت والتصقت بانطوان .

- وفي الغد اردت ان آخذ صورة للمكان . كان الماء هادئاً بحيث لا يمكن

الظن ..

كان صوتها مضطرباً . وصمتت من جديد وقتاً اطول ، ثم تابعت :

- آه ! ان حياة رجل بالنسبة لهيرش ليست شيئاً . الا انه كان يحب غلامه !

وبعد ، لم يحرك ساكناً . فقد كان هكذا . . حتى بعد الحادث كان على خير حال ، ووعده باعطاء ساعته لمن يأتيني بزينة الرأس . ولم اكن اريد . ففرض علي الصمت ، وانت تعلم ، يجب ان يطاع . . واخيراً حصلت على زينة رأسي ، فقد جاء بها احد المحالين وكان محظوظاً اكثر من الغلام . . وابتمت الآن - وهي لا تزال معي ، وقد وضعتها هذا الشتاء على قلنسوه صغيرة ، مخفية رائعة .

ولم يقل انطوان شيئاً . فهتفت منفصلة عنه فجأة :

- آه ! كم فاتك هذا لانك لم تكن هناك !

ولكنها ندمت حالاً وعادت تتعلق بذراعه .

- لا تلق بالأيا عزيزي . ان سهرة كهذه تجعلني مريضة . انا أكيدة اني محبومة قليلاً . في فرنسا يشعر المرء بالاختناق كما ترى ، بالحقيقة لا يمكن العيش إلا هناك . لو كنت تعلم ! تلك الحرية للبيض بين السود ! هنا ، لا يرتابون بما يمكن ان تكون هذه الحرية هناك . ليس هناك أية قاعدة ، ولا أية مراقبة ، حتى انك لا تخشى أحكام الغير ! أفهمت ؟ استطيع فقط ان تفهم هذا ؟ من حقا ان تكون انت نفسك في كل مكان ودائماً . انت اكثر حرية أمام جميع اولئك السود منك امام كلبك هنا . وفي الوقت نفسه تعيش بين كائنات لذينة ، ملأى بالفطنة والتنوع ليس لديك فكرة عنها . ولا شيء حولك سوى الابتسامات الشابة المرحه ، والعيون المتوهجة التي تدرك اقل رغباتك . . واذكر . . ألا يزعجك هذا يا عزيزي ؟ اذكر ذات يوم في داخلية البلاد ، وفي نهاية النهار في إحدى المحطات . كان هيرش يتكلم مع رئيس قبيلة بالقرب من نبع كانت النساء يأتين ويفترفن الماء منه . وكانت الساعة المناسبة . ورأينا فتاتين لذيزتين آتيتين تحملان معاً قربة كبيرة من جلد الماعز . ووضح لنا الرئيس : « انها ابنتاي » . ولا شيء غير ذلك . وفهم الهرم . وفي المساء نفسه ، في الدار التي كنت فيها مع هيرش ، رفع البساط دون ضجة : انها الصغيرتان تبتسمان . لقد قلت لك : أقل الرغبات . . - وتابعت بعد بضع خطوات في الصمت - اني لا أزال اذكر . بما يخفف عني ان اتكلم مع احد عن كل هذا ! اني اذكر ، في لوميه *Lomé* ،

وفي السينا بالضبط . لان جميع الناس يذهبون إلى السينا مساء . وهي شرفة مقهى منارة جيداً ، ومحاطة بأغراس في صناديق ؛ ثم يُطفأ كل شيء وتبدأ السينا ، وتُشرب اشربة باردة . اترى هذا ؟ جميع المستعمرين جالسون ، بقباش ابيض منارٍ نصف إنارة من انعكاس نور الشاشة . وفي ليلة ذات زرقة غريبة ، تحت النجوم التي تلمع هناك كما تلمع في أي مكان ، كان وراةنا وحولنا من سكان البلاد الاصليين ، غلمان وفتيات هناك ، واقفون في الظل لا تكاد تبدو وجوههم ، والعيون تلمع كأحداق الهرة ، جميلة جداً .. وبعد ، فليس لك ان تقوم بأية اشارة ! يقع نظرك على أحد هذه الوجوه الملساء ، وتتلاقى عيونكم لحظة .. هذا كل شيء . هذا يكفي . وبعد بضع دقائق ، تنهض وتذهب حتى دون ان تلتفت ، وتعود إلى فندقك الذي تظل كل أبوابه مفتوحة عمداً .. كنت اسكن الطابق الاول . وما يكاد الوقت يتسع لخلع ملابسني حتى يُخدش الباب ، فأطفئ النور وافتح ؛ فيكون هو ! لقد تسلق الجدار كالجرذ ، ودون أية كلمة ، يزلق وزرته عن جسده الصغير . لن انسى هذا ابداً . كان فمه مبللاً ، رطباً ، رطباً .

ففكر انطوان رغماً عنه : « يا للشيطان ! زنجي دون فحص مسبق ! »

وتابعت راشيل :

— آه ! تلك البشرات التي لهم ! ناعمة كقشرة ثمرة .. انتم الآخرون ليس لديكم فكرة عما يمكن ان يكون هذا . بشرة حريرية ، ملساء ، جافة ، كأنها دلكت بالتالك ؛ بشرة دون عيب ، دون خشونة ، دون رطوبة ، وعمرقة ، ولكنها عمرقة من الداخل ، كما يشعر المرء بحرق الحمى من خلال كمر من المسلمين . اترى ذلك ؟ كجسد حار لعصفور تحت ريشه ! وحين ننظر إلى هذه البشرة في وضوح النهار ، هناك ، حين يلامس النور الكتف او الخصر ، نجد على هذا الحرير الاسمر الذهبي اضواء زرقاء لا يستطيع شرحها لك ، كغبار الفولاذ الذي لا يدرك ، كانعكاس دائم لنور القمر .. ونظرتهم ! هل لاحظت الآن مداعبة نظرتهم ؟ بياض العين ذاك الذي يشبه السكر المذاب إلى حدٍ ما ، وحيث الحديقة تسبح

برشاقة .. وثم .. لا أعرف كيف أقول لك .. الحب هناك ، كلا ، ليس كحبك
أبدأ .. انه هناك عمل صامت ، مقدس وطبيعي معاً . طبيعي بشكل عميق .
لا تقتزج فيه أية فكرة من أي نوع أبدأ . والبحث عن اللذات الذي هو دائماً
أكثر أو أقل خفية ، هنا وهناك ، هو أيضاً مشروع كالحياة ، وكالحياة والحب
هو طبيعي ومقدس . أأدركت هذا يا عزيزي ؟ وكان هيرش يقول دائماً : « في
اوروبا ، لك ما تستحقين ؛ اما هناك فإنها بلاد لنا نحن ، للكائنات الحرة » .
آه ! ذلك لانه يحب السوداوات - وأخذت تضحك - أتعلم كيف فطنت إلى
ذلك لأول مرة ؟ ربما قلت ذلك لك .. في مطعم في بوردو ، كان يجلس قبالي ،
وكنّا نتحدث . وفجأة ، استقر نظره ورائي هنية ، ولكن بلمعان .. بلمعان
حاد جداً بحيث التفت فجأة : ورأيت بالقرب من خوان زنجياً صغيراً في الخامسة
عشرة ، جميلاً كأمير ، وكان يحمل صحناً فيه برتقال . - وأضافت ولكن بنبرة
غير واضحة : - ويمكن أن الرغبة اجتاحتني أنا أيضاً في ذلك النهار للذهاب
إلى هناك .

وسارا بضع خطوات صامتين . وتابعت فجأة :

- وحلمي حين أصبح عجوزاً هو ان ادير بيتاً .. نعم .. لا يصدمتك ذلك ،
يوجد بيوت من جميع الانواع ؛ أود أن ادير بيتاً جيداً ، وهذا طبيعي . ولكن ،
أخيراً ، ألا أشيخ بين الشيوخ .. وان أكون متأكدة من وجود كائنات شابة
حولي دائماً ، وأجساد جميلة فنية ، وحررة ، وشوانية . ألم تفهم ذلك يا عزيزي ؟
وسارا إلى عند باكمل ، ولم يجب انطوان بشيء . لم يكن يعرف ماذا
يقول . كان أمام تجربة راشيل الغريبة يصاب بالهر دون انقطاع . وشربانه
يختلف جداً عنها فهو مرتبط بأرض فرنسا بولادته البرجوازية ، بعمله ، بالمطامع ،
بمستقبل منظم ! وكان يشاهد جيداً السلاسل التي تربطه ، ولم يكن يتمنى
لحظة أن يقطعها ؛ وكان يشعر ضد كل ما كانت راشيل تحبه ، وما كان غريباً
جداً عنه ، بتجهم حيوان أليف ضد كل ما يطوف حول المسكن ويهدد سلامته .

الخطوط الارجوانية المناسبة وحدها من الستائر القرمزية ، كانت تظهر
انتعاشة البار وراء واجهة البيت النائمة . وحاجر الباب يزجر ويدور ، قاذفاً
نسمة غاضبة في الجو المشبع بالحرارة ، والغبار ، وغفوة الكحول .
وكان هناك كثير من الناس . وكانوا يرقصون .

ولحت راشيل بالقرب من غرفة الملابس منضدة صغيرة فارغة . وقبل ان
تسقط معطفها عن كتفها طلبت كأساً من الشارتروز الاخضر بالجليد المسحوق .
وحين جيء لها بما طلبت ، جمدت ؛ المرفقان على المنضدة ، والعينان منخفضتان ،
والشفتان مضمومتان على عصافتي القش .

وتتم انطوان : أأنت كئيبه ؟

فرفعت جفينا لحظة دون ان تكف عن الشرب ، وابتسمت له بقدر ما
تستطيع من المرح .

وبالقرب منها ياباني يظهر اسناناً صغيرة صدئة في وجه طفل ، ويلامس بعدم
انتباه مذهب ذراع ملاك بسطته امرأة سمراء ، كانت تجلس بقربه ، بوقاحة على السباط .
وقالت راشيل مظهرة كأسها الفارغ :

- أتريد ؟ اطلب لي قدحاً من الشارتروز ، قدحاً آخر بمائلا .

وشعر انطوان بيد خفيفة تلامس كتفه . وقال صوت صديق :

- لقد ترددت في معرفتك . اذن جززت لحيتك !

. كان دانيال واقفاً امامها ، رشيقاً ، متقوساً ، تنير الثريا وجهه البيضوي
بشكل شديد . وكان يمسك بين يديه العاريتين مروحة - مسطرة كان يحنيها
ويرخيها كالنابض ؛ وكان يتسم بهيئة جريئة ، ويبعث على التفكير بدادود شاب
يجرب مقلعه .

وحين قدمه انطوان إلى راشيل تذكر الطريقة التي قذفه دانيال بها : «لكنك
مثلك - ايها الكذوب !» ولكن هذا الترجيع بدا له هذه المرة أقل إيلاماً ؛
وفاجأ بسرور تلك النظرة التي ألقاها الشاب ، بعد ان انحنى ليقبل يد راشيل ،
عليها ، وعلى وجهها المرتفع ، وعلى ذراعيها ، وعنقها الذي بدا كثير البياض الى

جانب الزهرة الحريرية الخارجة من أعلى الفستان .
ونقل دانيال نظره الى انطوان ، ثم ابتسم للمرأة الشابة كأنه يهنئها على عملها . وقال : - نعم ، حقيقة . هذا أفضل بكثير .
فقال انطوان مسلماً ، بنبرة تلميذ طب ساخر :
- هذا أفضل بكثير ما دام المرء حياً . ولكن اذا كنت معتاداً مثلي على الجثث ! في مدى يومين .

فصربت راشيل على المنضدة لتسكته . وكانت غالباً ما تنسى ان انطوان طبيب ، والتفتت نحوه وتأملت لحظة وتمتت :
- يا طبيبي !

يمكن ان تكون هذه السحنة المألوفة هي نفسها التي ظهرت لها ليلة اجراء العملية ، في ضوء القنديل الشديد ؟ ذلك الوجه البطولي ، الجميل بشكل خفيف ، الصعب المنال ؟ كم كانت تعرف ، والآن على الخصوص وقد اصبح الوجه معرئى ، كل نتوآت ، كل كشافاته المختلفة ، واقل علاماته ! فقد كشفت الموسيقى ذلك التجوف الخفيف في الحد - ذلك النقص في النسيج اذا صح القول - حيث كانت العذوبة تخفف قساوة الفك قليلاً . وكما أصبحت تعرف أيضاً ، وحتى على طريقة العميان لأنها لمستته اكثر من مرة وهي مضغوطة بين ذراعيه ، ذلك الشكل المربع لعظم الفك . وذلك النتوء القصير للذقن المسطحة من اسفل بحيث قالت له مندهشة : « لك فك افعى تقريباً ! » . اما الأكثر إيلاماً بالنسبة اليها ، منذ ازالة اللحية ، فهو ذلك الشق الطويل الملتوي للقم ، الكثير الليونة ، الا انه جامد ، حيث الزوايا لا ترتفع ابداً تقريباً ، وقليل ما تنخفض ، وحيث شيء من الارادة غير الانسانية تقريباً توقف المفاصل ، كما يرى في شفاء بعض التاميل القديمة . وفكرت مستفهمة : « كثير من الارادة ؟ » . وحنت رأسها وكانت حدقتها تسير بكمبر حتى نهاية الجفون وانزلت تلاًؤ ذهي مقتضب على حواشي أهدائها .

وكان انطوان يدعها تقوم بفحصها ، بابتسامة سعيدة لرجل محبوب . منذ

ان خلق لحيته اكتسب مفهوما عن نفسه يختلف قليلا : لقد قلّ اهتمامه بنظراته المشؤومة . واكتشف امكانات جديدة كانت ترضيه . الا انه شعر منذ بضعة اسابيع بتبدل كبير ، الى درجة ان حوادث حياته بالنسبة اليه ، والتي سبقت لقاءه مع راشيل ، قد غاصت في غياهب الظلمات : وكان مكانها « قبل » . ولم يكن يوضح اكثر من ذلك - قبل ماذا؟ - قبل التغيير . لأنه كان قد تغير اخلاقيا : كأنه لان ، ونضج مع انه اكثر شبابه . كان يحب ان يردد انه اصبح أكثر قوة . وليس هذا غير صحيح . قوة ربما كانت أقل تفكيراً من السابق ، الا انها اكثر قدرة في عفويتها ، واكثر اصاله ايضا في اندفاعها . وقد أدرك تأثيرها حتى في عمله ، حيث كان لعلاقته بها في بادىء الامر لحظة تمكر فيها الجهرى ، ولكنه استعاد تطوره فجأة وملأ وجوده من جديد ، كالنهر الجاري ملء الضفتين .

وقال انطوان مقدماً مقعداً لدانيال :

- لاتهم كثيراً ببني الجسدية . نحن آتيان من السينما . الفيلم الافريقي ،

هل تعلم ؟

وسألت راشيل :

- الم تترك اوروبا ابداً ؟

فدهش دانيال من رنة هذا الصوت :

- كلا يا سيدتي .

فقالت وهي تأخذ كأس الشارتروز الذي جيء لها به وغمست فيه بشراهة

قشتين جديدتين :

- حسناً . يجب ان تذهب اترى الفيلم . هناك ، مع ما يوجد ، استعراض

لحمالين عند مغيب الشمس .. اليس كذلك يا انطوان ؟ نعم ، اولئك الغلمان على الرمل بينما يفرغ النساء الزوارق .

وقال دانيال وهو يتطلع اليها :

- سأذهب بالتأكيد .

واضاف بعد وقفة قصيرة :

— هل تعرفين انيتا ؟

فأشارت بالنفي .

— انها اميركية ملونة ، تكون عادة على البار . انظري . انها تترى من هنا .

ترتدي البياض وراء ماري جوزف ، تلك الكبيرة التي تحمل كثيراً من اللآلئ .

ونهضت راشيل لترى ، من خلال ازواج الراقصين ، وجها جانبياً بلون

الشامو ، ضائعا في ظل قبعة كبيرة . وقالت دون ان تستطيع اخفاء

خيبة املها :

— انها ليست امرأة سوداء . بل هي من مواليد المستعمرات .

فابتسم دانيال ابتسامة خفيفة وقال :

— عفواً يا سيدتي .

ثم التفت نحو انطوان وقال :

— اتأتي غالباً الى هنا ؟

وكاد انطوان يجيب بنعم ، ولكن وجود راشيل منعه ، فصرح :

— أبداً تقريباً .

وكانت راشيل تتبع بعينها انيتا التي اخذت ترقص مع ماري جوزف .

وجسد الاميركية اللدن كان مقولباً في ثوب من الساتان الابيض ، مصقولاً كريش

الطائر ، وحيث الألق اللامع كان يشي بكل حركة من حركات ساقها

الطويلين . وسأل انطوان :

— هل تذهب الى ميزون غداً ؟

فقال دانيال : اتيت هذا المساء .

واراد ان يتحدث عن جاك ، ولكنه نهض عندما شاهد امرأة شابة بطراز

اسباني ، مغطاة بشال كبيرتي اللون وتبدو انها تبحث بعينها عن احد . وتتم

حالا وهو يبتعد :

— أسألكما الصفح .

وأدخل تحت الشال ذراعاً معتمياً ثم قاد المرأة الشابة راقصاً ، نحو زاوية الموسيقيين .

وكانت أنيتا قد توقفت . ورأتها راشيل تشق موجة الراقصين بالكياسة الدمثة لبجعة جميلة ، وسارت نحو الزاوية التي كانت تجلس فيها هي وانطوان إلى منضدة ، ولامست كرسي الشاب واقتربت من المقعد الصغير حيث كانت راشيل جالسة ، وأخذت من محفظتها شيئاً أخفته في تجويف يدها ، وظنت نفسها في معزل (أو ربما دون أن تهتم بأن يراها أحد) ووضعت قدمها على المقعد ، ورفعت أسفل ثوبها برشاقة ووخزت فخذه . ولحمت راشيل موضعاً من بشرة كستنائية اللون بين بياضين حريرين ، ولم تستطع الاستمرار في اختلاج جفونها . وأسقطت أنيتا تنورتها ثم انتصبت باهمال مسترخ جعل القرط البلوري يتوهج على خدها الملون بلون الصداة ، ذلك القرط الذي كانت تثبته لؤلؤة في شحمة الأذن ، وانضمت إلى صديقتها دون عجلة .

وأعادت راشيل وضع مرفقيها على السباط ، مغمضة العينين تقريباً . وتنشقت رائحة الشراب المثلوج يهدوء . أما مداعبة الكمائن وإلحاح أقواسها الطويلة المعبرة فقد مددت فتورها حتى الاسترخاء . وكان انطوان ينظر إليها . وتمم : لولو . . فرفعت عينيها . وأجهزت على لون الجليد المسحوق في كأسها حتى آخر قطرة خضراء ، وحدقت فيه بنظرة غير منتظرة ، ضاحكة ، شبه وقعة ، وسألت :

— ألم تر أبدأ امرأة سوداء ، انت ؟

فقال انطوان هازأ رأسه برابطة جأش : كلا .

فصمت . وكانت ابتسامة مضطربة تتردد في الوقوف على شفتيها . وقالت فجأة :

— اذن ، تعال .

كانت واقفة * مغطاة بمعطفها من التفتا القائم كما في لباس حفلة راقصة مقنعة ليلية . وفي حاجز الباب حيث دخل وراها ، سمع انطوان من جديد ، بين أسنان راشيل المضمومة ، تلك الضحكة الصامتة التي كانت تخيفه .

في الوقت الذي كان جيروم يعيش في باريس ، كان قد أصدر أمراً لبوابه في شارع الاويسرفاتوار بأن يحتجز بريده . وكان من وقت لآخر يأتي شخصيا في طلب رسائله في المنزل . ثم انقطع عن الظهور دون ان يترك عنوانا ؛ وقد تكدست الاوراق باسمه طوال سنتين متتاليتين بحيث ان البواب ، حين عرف بعودة السيد دي فونتنانان الى ميزون - لافيت ، كلف دانيال ان يسلمها بيده للمرسلة اليه .

في تلك المجموعة من المطبوعات دهش جيروم جداً لاكتشافه رسالتين قديمتين . واحدة يعود تاريخها الى ثمانية اشهر خلت تعلن له وضع عشرة آلاف وبضع مئات من الفرنكات في حسابه ، آتية من تصفية عمل غير ناجح لم يكن يأمل منه شيئا منذ وقت طويل .

وتهلل وجهه . فوصل هذا الرصيد بدد آخر آثار القلق التي نفسي الذي كان يشغل عليه منذ سكنه في ميزون ؛ قلق نفسي مسبب ليس فقط من وجوده في عائلة لم يكن يجد مكانه فيها ، ولكن ايضاً من هوم المال التي كانت تعذب كبرياه .

(كان الزوجان يعيشان منفصلين في أموالهما منذ خمس سنوات . وكانت مدام دي فونتنانان قد اقلعت عن الطلاق ، ولكنها افقدت من زوجها الثروة المتواضعة الموروثة عن والدها القس . وهذه الثروة ، مع انها نقصت في السابق فقد كانت حتى الآن تتيح لها العيش بشكل لا بأس به ، دون ان تترك مسكنها أو تقتر على تربية أولادها . اما جيروم الذي لم يكن قد بدد بعد مجمل التركة الشخصية ، فقد كان مستمراً في القيام بأعمال : حتى في بلجيكا وهولندا حيث قادته نومي على اثرها ، كان يضارب بالبورصة ، ويتعاطى اعمالاً تجارية ، ويشارك في مبتكرات جديدة ، انه موهوب بشيء من الذكاء رغم خفته ، وتحذمه روحه المغامرة . وكان يراهن احيانا على مشروع مثير . سنة حسنة

وسنة سيئة . وعاش في أغلب الاحيان كسيد كبير ؛ حتى انه كان يجد الفرصة لتهدئة وساوسه بين وقت آخر ، وذلك بأن يحمل إلى حساب زوجته بعض الاوراق من فئة الالف فرنك ، لكي يساهم ، هو ايضا ، بنفقات جني ودانيال . إلا انه اثناء الاشهر الاخيرة من اقامته في الخارج اصبح رقيق الحال : فقد وجد نفسه ، لفترة ، في حالة لا يستطيع معها لمس رؤوس أمواله . وليس فقط لم يكن يستطيع التفكير في اعادة النقود التي حملتها تيريز اليه في امستردام ، بل رأى نفسه مضطراً إلى العيش على حساب زوجته . وكان يتألم من ذلك ؛ ويتعذب على الخصوص لفكرة خطأها في تقدير عواطفه والافتراض ان الضيق الذي هو فيه كان احد اسباب عودته إلى البيت) .

هذا المبلغ غير المنتظر اعاد إذن الى جيروم شيئاً من اهليته . وصار بإمكانه ان يتحرر .

وفي سرعته ليعلم النبأ لزوجه ، سار نحو الباب وهو يزيل ختم الغلاف الثاني الذي كان خطه السيء لا يذكره بشيء ، إلا انه توقف ، منذهلاً :

« سيدي :

يجب ان أقول لك ان امرأ حدث لي ولم يسبب لي غماً . بالعكس ، فانا سعيدة جداً بسببه رغم كل شيء لأنني تعذبت كثيراً لكوني وحيدة . ولكنني طردت من عملي بسبب ذلك ، وانا يائسة ، ولا اعتقد انك ستستمر في تركي بدون موارد في لحظة كهذه ، لأنني لم استطع ان أجد عملاً . وقد بدأ هذا يشغل علي ، وليس معي سوى ثلاثين فرنكاً وعشرة سنتيمات ، ولا شيء غير ذلك لكي اربي الطفل الذي اود ان اغذيه بنفسي كما يقتضي ذلك .

وكذلك فلن اوجه اليك لوما ، ولكنني آمل ان تجدك رسالتي في وضعية حسنة من ناحيتي لأن من اللازم ان تأتي لنجدتي غداً او بعد غد او الخميس دون خطأ ، وبدون ذلك لا ادري ما سوف يحل بي .

« ف . لوغاد »

تلك التي تحبك باخلاص .

لم يفهم أولاً . « لوغاد ؟ » وفجأة :

— فيكتورين ... كريكري !

عندئذ عاد أدراجه وجلس مديراً الورقة بين أصابعه . « غداً أو بعد غد... »
وقرأ تاريخ الطوابع وأجرى حساباً : هذه الرسالة ظلت تنتظر منذ سنتين !
مسكينة كريكري ! ماذا حل بها ؟ ماذا قالت عن سكوته ؟ ماذا حل بالولد ؟
كان يلقي هذه الاسئلة دون تأثر حقيقي والسحنة المشفقة التي اتخذها وهو لا يدري
كانت اصطلاحية . الا ان جسداً صغيراً ، حياً ومرتمساً ، وعينين دالتين على
سلامة الطوية ، وفم فتاة ، كل ذلك بعث حياً في ذاكرته بشكل واضح يبعث
على المزيد من الاضطراب .

كريكري ... كيف عرفها اذن ؟ عند نومي التي جاءت بها من بريتانيا
وبعد ذلك ؟ كان يتذكر بشكل سيء ذلك الفندق في الضاحية ، حيث خبأها
خسة عشر يوماً . لماذا تركها ؟ كان يتذكر لقاءهما بشكل افضل ، بعد سنتين ، اثناء
هرب نومي ؛ واستعاد في ذهنه بشكل واضح غرفة الخدم حيث صعد عند زوال
النهار ، ثم ذلك الفندق المفروش في شارع ريشبانس حيث اسكنها ، وحيث
شعر نحوها بحب دام شهرين او ثلاثة — ربما اكثر ؟
واعاد قراءة الورقة والتاريخ . وكانت حرارة معروفة تحتاج دماغه ،
وتشوش نظره . فنهض وشرب قرح ماء ، ووضع في جيبه رسالة كريكري
وامسك إعلام المصرف بيده وسار باحثاً عن زوجته .
وبعد ساعة كان يأخذ القطار الى باريس .

ان اولى خطواته خارج محطة سان لازار في الساعة العاشرة صباحاً ، وفي
شمس ايلول ، سببت له دوار فرحاً . وسار الى المصرف ؛ وضرب رجله امام
نوافذ الدفع وحين وقع ايصاله وطوى الاوراق النقدية في حافظة نقوده ،
واستطاع اخيراً الانطلاق في العربة التي كانت تنتظره ، شعر انه افلت هذه
المرة والى الابد من ظلمات تلك الاسابيع الاخيرة ، وانه بعث حياً .

وعندئذ قام خلال باريس ، ومن باب الى باب ، بسلسلة من الخطوات المعقدة غير المثمرة أولاً . والتي اوصلته نحو الساعة الثانية بعد الظهر ودون ان يجد وقتاً لتناول غدائه ، إلى بيت من تدعى السيدة باربان ، والتي كانت تدعى أيضاً مدام جوجو . وكانت قد خرجت . ولكن الخادمة التي كانت فتية وثرثرة صرحت انها كانت تعرف جيداً تلك الأنسة لوغاد ، « أو الأنسة رينيت » :
— فقط ، انها في الفندق الذي فيه غرفتها ، ولا تأتي أبداً إلا نهار الاربعاء :
يوم خروجها .

واحر وجه جيروم ، وكان ذلك خيطاً من النور . ولمح بابتسامة خبيثة :
— أعرف جيداً ، ولكنني احتاج العنوان الثاني .
ونظر إلى بعضها البعض كرفيقين . وفكر جيروم فجأة : « انها لطيفة » .
ولكنه لم يكن يريد التفكير بسوى كريكري .
وقالت الخادمة أخيراً وهي تبتسم :
— انه شارع استوكهولم .

وسار جيروم إلى هناك ووضع رجله على الارض ، ولم يطل به الامر حتى عرف المكان . وحلت كآبة تسربت إليه محل جميع المواطنف التي كانت تنعشه منذ الصباح . ولم يعترف مع أنه كافح ضدها .

ومرور ضوء النهار الخارجي إلى العارفين بالضوء والظلام في هذا المسكن ، ساهم في تضليله . ففي الغرفة « اليابانية » التي أدخل إليها والتي ليس فيها مما هو ياباني سوى مروحة رخيصة منشورة على الجدار عند رأس السرير ، ظل واقفاً وقبعته بيده ، في وضعية طليقة أعادتها إليه بدون رحمة امرأة في ناحية ، حيث التفت : وانتهى بالجلوس على طرف الأريكة .

وأخيراً فتح الباب بنسمة ريح : وظهرت فتاة في غلالة بنفسجية زاهية وتوقفت ، قائلة : آه !

لقد ظنت انها أخطأت الغرفة . ولكنها تلجلجت ، وتراجعت حتى الباب الذي كانت قد أطبقته آلياً وهي داخلة .

— أنت ؟

وكان لا يزال متردداً في معرفتها :

— أهذا أنت يا كريكري ؟

ودون أن ترفع رينيت عينها عن جيروم ، كأنها تنتظر أن تراه يخرج سلاحاً من جيبه ، مدت ذراعها حتى السرير ، وسحبت نحوها القماش الذي كان يغطيه والتفت به ، وسألت :

— ما الامر ؟ هل أرسلك أحد ؟

كان يبحث بيأس عن أمانر كريكري الطفولية على الوجه المطلي بالمساحيق لتلك الفتاة الجميلة ، المتفخة قليلاً ، وشعرها مجزوز بشكل قصير ؛ حتى انه لم يجد الصوت الطريء الفلاحي الذي كان في السابق . وقالت :

— ماذا تريد مني ؟

— جئت لأراك يا كريكري .

كان يتكلم بعدوبة . ولم تلتق بالآ إليه ، وظلت مترددة هنيهة ؛ ثم كتفت عن التطلع إليه وبدت انها تهتم بالحوادث ، وقالت :

— إذا أردت ..

وبدون ان تترك غطاء السرير الذي كانت مغطاة به ، بل خلصت قليلاً الصدر والذراعين ، واقتربت من الاربكة وجلست ورددت منخفضة الجبهة :

— من أرسلك ؟

فلم يفهم سؤالها . وكان واقفاً خجلاً ، وأوضح انه عاد الى فرنسا بعد اقامة طويلة في الخارج ، بحيث جاء ووجد رسالتها . فقالت رافعة عينها :

— رسالي ؟

وعرف وبريق حدقتها الرمادي الاخضر ، وقد ظللتا صافيتين . وناولها الغلاف فأخذته وتأملت بهيئة مشدودة ، وقالت بنظرة حاقدة :

— صحيح !

وأحتفظت بالرسالة في يدها فترة طويلة ، وهزت رأسها من اعلى الى اسفل
وثابتت :

- ومع ذلك ! حتى انك لم تجاوبني !
- ولكن يا كريكري ، ما دمت لم افتح رسالتك الا هذ الصباح .
فصرحت وهي تهز رأسها بعناد :
- هذا لا يبدل في الامر شيئاً . كان عليك على الاقل ان تجيب .
فقال بصبر :

- بالعكس ، لقد اتيت حالاً - ودون ان ينتظر : - اخبريني : الولد ؟
فضمت شفتيها ، وبلعت ريقها وارادت ان تتكلم ، ولكنها صمتت وامتلأت
عينها بالدموع . واخيراً قالت :
- لقد مات . فقد جاء قبل اوانه .

فأفلت جيروم زفرة تشبه زفرة تعزية وظل خجلاً دون اية كلمة يكاد يموت
تحت النظرة الحاقدة التي القتها رينيت عليه . وقالت :
- لقد جرى كل هذا بسببك . (كان في صوتها من القساوة اقل مما في
عينها) . انني لم اكن من بنات الارصفة ، وانت تعرف ذلك جيداً . وقد
صدقت مرتين كل ما كنت تقوله لي . وتركت كل شيء مرتين لأتبعك ! آه !
لكم بكيت حين ذهبت في المرة الثانية !

واستمرت في النظر اليه من تحت . والكتفان مرفوعان ، والضم معوج قليلاً ؛
وكانت عينها تلعبان ، وهما اكثر اخضراراً من خلال الدموع . وهو مهتاج ،
منتفخ القلب ، غير عارف الموقف الذي يتخذه . وكان يبتسم يجهد (لكم
تشبه هذه الابتسامة الجائبة ابتسامة دانيال) .

وجففت عينها ، ثم سألت بصوت هادئ غير منتظر :
- وكيف حال السيدة ؟

فأدرك جيروم انها تتكلم عن نومي . وكان عازماً حين يجيبه على السكوت
عن موت مدام بني - ديتراي خوفاً من تأثير كريكري ، وخوفاً من ان يوقظ

ففيها عواطف ووساوس تعاكس المقاصد المعينة التي اختمرت في رأسه آنذاك .
وانقاد اذن الى الكذبة التي اعدّها دون تفكير آخر :

- السيدة ؟ انها تعمل في المسرح في الخارج .

الا انه شعر بتأثر خفيف اضطر الى التغلب عليه ليضيف :

- اعتقد انها بخير .

فرددت الفتاة باحترام :

- مسرح ؟

وصمتا . وكانت قد التفتت نحوه . وبدت انها تنتظر . وزادت من كشف

عنقها وكتفها وابتسمت ، وقالت :

- ولكنك لم تأت لكل هذا .

كان جيروم يدرك انه ليس عليه سوى القيام بإشارة ليجد رينيت راضية .

ومما يؤسف له ! انه لم يبق شيء من تلك الرغبة الواهية التي جعلته منذ الصباح

يتبع ، ككلب صيد ، اثر هذه الفريسة خلال كل احياء باريس . واجاب :

- لا لشيء آخر .

فبدت رينيت انها بوغتت وجرحت تقريباً .

- انت تعلم انه لا يحق لنا هنا القيام باستقبال .. زيارات بسيطة ..

فأسرع جيروم يغير الحديث :

- لماذا جززت شعرك ؟

- هنا يحبون ذلك .

فابتسم بداعي المسايرة ، ولم يكن يجد شيئاً يقوله لها . ومع ذلك لم يعزم

على الذهاب . هناك عدم رضا كان يختبئ في اعماقه ويمسكه في هذه الغرفة

كان هناك شيئاً هاماً عليه ان يقوم به . ولكن ماذا ؟ مسكينة كريكري ..

كان الشر قد وقع : ولا يمكن عمل شيء .. لا شيء .

ورينيت التي أحست ببعض الضيق من هذا الصمت كانت تتفحص جيروم

خلصة ، بداعي الفضول اكثر مما هو بداعي الحقد . لماذا عاد ؟ ألا يزال يحبها

دائماً؟ هذا السؤال بعث فيها الاضطراب - وفجأة خطرت لها فكرة . باستطاعتها أن تلد ولداً آخر منه . كل هذه الآمال الخفية انتعشت فجأة . ابن جيروم ، أخ صغير لدانيال ، ولد يصبح لها . يصبح لها وحدها .. كانت على وشك الارتقاء على الأرض لتحضن ركبتي جيروم ، وتتمتع وهي ترفع وجهها المتوسل نحوه : « أود ولداً منك ! » . ولكن هذا يهدم بنزوة مستقبلاً أعيد يجهد . وشعرت برعشة خفيفة . وضاعت عينها لحظة في حلمها المستحيل ، وقالت لنفسها وهي مطبقة الفم : « كلا ، كل هذا كلا » . وقذفت فجأة :

— ودانيال ؟

— من ؟ دانيال ، ولدي ؟ — وأضاف قلقاً : — اتعرفينه ؟

ودون ان تعرف رينيت لماذا كانت تأمل ان يكون لدانيال ضلع في عودة جيروم ، اسفت للفظها اسمه ؛ وعزمت على عدم قول شيء : الأب ، ليس اكثر من الابن ، لن يعرف ابداً بأي حب ، بأي حب قد امتزج .. وأجابت متملصة : — اذا كنت اعرفه ؟ كل باريس تعرفه . لقد التقيت به .

وكان جيروم قد اصبح اكثر قلقاً . إلا انه لم يستطع ان يسأل : « هنا ؟ »

وقال :

— أين اذن ؟

— في كل مكان . في علب الليل .

فحقق قائلاً :

— آه ! كنت ارتاب .. وقد قلت له في الماضي عن اعتقادي بنوع حياته .

فأسرعت تضيف :

— اوه ! لقد كان هذا في السابق .. ولا أعرف اذا كان يذهب دائماً الى

هناك . انه مثلي تقريباً . انا الآن رصينة .

فنظر اليها ولكن لم يجب بشيء . كان يفكر ، بحزن صادق ، بفجور

الشباب ، وانحلال الاخلاق ، ثم بهذا البيت ، وبهذه المخلوقة المعطاة للشر

وفكر : « لماذا تكون الحياة كما هي ؟ » . وشعر فجأة انه مرهق وئادم .

واجتاحت رينيت رؤى مستقبل كانت فعاليتها من الآن فصاعداً متجهة إليها ، واخذت تحمل احلاماً مختلفة بصوت مرتفع ، محدثةً صوتاً يربطه ساقها :
- نعم ، الآن .. انا تقريباً منسحبة من القضية . ولهذا لا احقد عليك ..
إذا استمرت في البقاء رصينة واشتغلت ، ففي مدى ثلاث سنوات ، وداعاً يا باريس ! باريسك القذرة الملأى بالشقاء .

- لماذا ثلاث سنوات ؟

- احسب : لم يمضي عليّ شهر منذ دخلت إلى هنا ، وأنا أربع خمسين أو ستين فرنكاً صافية ، أي أربعماية فرنك بالاسبوع . اذن ، ففي مدى ثلاث سنوات ، وربما قبل ذلك ، سوف يكون لدي ثلاثون ألف فرنك . وفي ذلك النهار تنتهي رينيت وكريكري والباقي كله .. وتأخذ فيكتورين ما أذخرته ، وكل ما تملك ، وهوب ! في قطار لانيون ! وداعاً يا جماعة !
وضحكت .

وردد جيروم لنفسه بيقين يائس : « كلا ، مهما كان الامر فلست سيئاً كإيمالي . كلا . الامر أكثر تعقيداً من ذلك . اني اسوي أفضل من حياتي ، ومع ذلك ، فبدوني .. هذه الصغيرة .. بدوني ! .. » وصعد الكلام المقدس من جديد من أعماق ذاكرته : « الويل للرجل الذي يسبب الفضيحة ! » وسأل :
- ألا يزال أهلك أحياء ؟

هناك فكرة لا تزال مبهمة كان يحاول كبجها ، قد ولدت في نفسه ببطء .
- الاب ، مات السنة الماضية في سان - ايف . - وتوقفت مترددة في رسم إشارة الصليب ؛ ولم تقم بها . - ليس لي سوى عمي . لها بيت صغير في الساحة وراء الكنيسة . ألا تعرف بيرو - غيريك ؟ .. ليس للمجوز ورثة غيري ، بالفعل . وهذا لا يعني ان لديها أموالاً . واكن عندها بيتها . وتعيش من دخل عيني لها . ألف فرنك بالسنة . فقد ظلت وقتاً طويلاً في الخدمة عند بعض النبلاء . وهي صانعة كراسي ، وهذا بأنيتها بشيء قليل أيضاً . - رتابعت وقد تهلل وجهها : - حسناً .. بثلاثين ألف فرنك كرأس مال ، تقول مدام جوجو ان

بإمكانني الحصول على نفس المدخول أو شبهه . وسأعرف جيداً كيف أعمل لأربح الزيادة . وسنميش كلانا ، ونتفاهم جيداً هناك .

وختمت بأهة كبيرة ، متطلعة إلى تحرك أصابعها في حداثها الصغير من الساتان :

— هناك ، لا يعرف أحد شيئاً عني : كل شيء سينتهي وينسى .

وكان جيروم قد نهض ، وقد نمت فكرته ، فقمعها . وقام ببضع خطوات طولاً وعرضاً . يكون كريماً .. يفتدي .. ووقف أمام رينيت :

— أتحبين إذن بلادك بريتانيا ؟

وفوجئت لساعه يكلمها بصيغة الجمع بحيث لم تجب حالاً . وقالت أخيراً .
— بالتأكيد !

— حسناً ، ستعودين إليها .. نعم .. إصفي إلي ..

وأخذ يشي ، واستولى عليه ملل ولد مدلل . وفكر : « إذا لم يحدث هذا حالاً فلست مسؤولاً عن شيء » ..

وتفحص وجهها جيداً وقال :

— ستعودين إليها ، هذا المساء .

فضحكت قائلة : أنا ؟

— انت .

— هذا المساء ؟

— نعم .

— إلى بيرو ؟

— إلى بيرو .

فلم تضحك ؟ وخفضت جبهتها وأخذت تتفحصه بتعبير سيء . لماذا يسخر منها الآن ؟ ولماذا يمزح في ذلك ؟

وابتداً قائلاً :

— لو كنت تحصلين على ألف فرنك بالسنة كعمتك ..

فابتسمت ؛ لم تكن ابتسامتها رديئة . ماذا أراد أن يقول بألوف فرنكاته ؟

وحسبت بتمهل وقسمت على اثني عشر .

وتابع ، وقد كف عن الابتسام :

— ماذا يدعى الكاتب العدل عندكم ؟

— الكاتب العدل ؟ أيهم ؟ السيد بينيك ؟

فقوس جيروم قامته :

— حسناً يا كريكري ، اني اعطيك كلام شرف ان السيد بينيك سيدفع لك

الف فرنك على حسابي ، في جميع السنوات ، في اول ايلول . اما لهذه السنة فاليك

المبلغ . — قال ذلك وهو يفتح حافظة نقوده — وهذه الف فرنك زيادة لاجل

سكنك هناك . خذي .

ففتحت عينيها ، وعضت على شفتيها ولم تقل شيئاً . كانت النقود هنا ، تحت

نظرها ، بمتناول يدها ... كانت بقية من السداجة لا تزال موجودة فيها بحيث

كانت ذاهلة ولكن ليست غير مصدقة . واخذت اخيراً الاوراق النقدية التي كان

جيروم يد يده بها بصبر ؛ وطوتها بقدر الامكان ووضعتها في جورها وتطلعت

الى جيروم غير عارفة ماذا تقول له . ولم تخطر على بالها فكرة تقبيله ، فقد

نسيت ما كانته ، وحتى كل ما كان احدهما للآخر : لقد اصبح السيد جيروم ،

صديق مدام بتي — ديتراي ، وكان يخيفها كما في الايام الاولى . وأضاف :

— بشرط واحد . هو ان تسافري هذا المساء .

فشدهت :

— هذا المساء ؟ اليوم ؟ آه ! هذا كلا ، هذا مستحيل !

انه على الارجح يقلع عن عمله الصالح اذا ارجىء التنفيذ يوماً واحداً .

— هذا المساء نفسه يا صغيرتي . وامامي .

فأدركت بسرعة انه لن يخضع ، وفجأة اجتاحتها الغضب . هذا المساء ؟

هذا لا يدل على حسن نية ! أولاً ، انها ساعة العمل تماماً . ثم ، اعمالها في

الفندق ؟ والصديقة التي تقاسمها ايجار غرفتها ؟ ومدام جوجو ؟ وغسيلها عند

الفسالة ؟ أولاً ، هنا ، لن يتركوها تذهب هكذا .. وُجِنت ، كمصفور علق

على الدبق . وصاحت اخيراً والدموع في عينيها وقد ضاقت بها الحيل :
- سأتيك بدمام روز . وسترى جيداً ان هذا مستحيل ! أولاً لا اريد .
- اذهبي . اذهبي بسرعة .

كان جيروم ينتظر مناقشة غاضبة ، واستعد لرفع نبرته . وكان مندهشاً
من ابتسامة مدام روز المتساهلة . وأجابت متنسمة فخاً للشرطة :
- ولكن ، بالتأكيد . كل سيداتنا احرار ولن نمسكن ابداً .

والتفتت الى رينيت وبنبرة دون جواب ، وقد دقت كفيها السمينين الواحد
بالآخر : « هيا ، ارتدي ملابسك بسرعة يا بني . انت ترين ان السيد ينتظر » .
وذهلت رينيت ، وضمت يديها ، وتطلعت بالدور الى جيروم والمعلمة . وقد
اذابت دموع غزيرة مساحيقها . وفي دماغها تتشابك عشرون فكرة متناقضة .
كانت عاجزة ، هائجة ، والهة . كانت تكره جيروم . ولا تزال مترددة في
ترك الغرفة دون ان تشير اليه ألا ينطق بكلمة تتعلق بالورقتين النقديتين اللتين
اخفتها في جورها . وغضبت مدام روز واحمر وجهها ، فأمسكت رينيت من
ذراعها ورفعتها نحو الدرج :

- اتردين ان تطيعي يا آنسة : - ثم قالت لها هامة : « اذكرك بالأا تضي
رجليك هنا ابداً ايها الذبابة » !

بعد نصف ساعة كانت سيارة اجرة تضع جيروم ورينيت في الفندق
المفروش الذي كان لهذه غرفة فيه .

لم تكن تبكي . فقد اعتادت رغم كل شيء على عجلة هذا الرحيل ، لأن كل
مبادهة قد وفرت لها . ومع ذلك ، فانها كانت تتردد كاللازمة بين فترة واخرى :
- في ثلاث سنوات ، لا اقول .. اما حالاً ، فكللاً !

وربت جيروم على يدها دون جواب . وكان يردد لنفسه بصوت منخفض :
« هذا المساء نفسه » . وكان يشعر بقدرته على تحطيم كل المقاومات ، ولكنه
كان يدرك تماماً حدود هذه الطاقة : لم يكن هناك وقت للضياع .

وتذكر بيان الشهر والدليل . كان موعد القطار في الساعة التاسعة عشرة والدقيقة الخامسة عشرة .

وطلبت منه رينيت ان يساعدها على سحب الصندوق القديم الخشبي الاسود من تحت غرفة الملابس ، وكان يحتوي على بضعة اثواب ملفوفة بشكل حزمة . وقالت :

- ثوبي حين كنت مستخدمة .

عندئذ تذكر جيروم خزانة ملابس نوبي التي تركتها نيكول للمؤجرة في امستردام . وجلس ، وجذب رينيت على ركبته ، وبرصانة ، ولكن بحمارة جعلت نهايات عباراته ترتجف ، نصحها بترك زينتها كبغي ، والاقلاع ، والعودة الكلية الى البساطة ، الى طهارة الماضي .

كانت تصغي اليه بتعقل . وكانت كلماته تجدد صدى في قسم قديم جداً منها . ولم تستطع منع نفسها من التفكير : « وثم ، تلك الثياب عندنا ؟ في القديس الكبير ؟ من سيحسبوني ؟ » ولم تستطع ان تحمل القضية بأن ترمي او ان تعطي هذه البياضات ذات المخمرات ، وتلك الملابس الصاخبة التي كلفتها كثيراً من المدخرات . ولكنها كانت مدينة بمائتي فرنك للرفيقة التي تقاسمها غرفتها ؛ ومنذ ان اصبحت القضية قضية رحيل فان هذا الدين لم يكن اقل هموم رينيت ؛ ولكن بتركها ثيابها للصديقة تدفع دينها دون ان تنقص نقود جيروم : وسوي كل شيء .

ثم ان فكرة ارتداء ثوبها المصنوع من النسيج الصوفي الخشن الاسود ، البالي جعلها تضرب كفأ بكف كما لو ان المقصود هو التسكر ؛ ووثبت بلل الى الارض وراحت تضحك ضحكة عصبية هزتها كنوبة نحيب .

كان جيروم قد ادار ظهره لكي لا يزعجها اثناء ارتداء ملابسها . واقتراب من النافذة وشرد ذهنه في تأمل جدار الساحة الصغيرة . وكان يقول لنفسه : « مهما كان الامر فاني اسوي أفضل مما يظنون » . لقد كفر عمله الصالح في نظره عن غلطة لم يكن يعتبر نفسه مذنباً بها .

الا ان شيئاً كان لا يزال ينقص طمأنينته . وهتف دون ان يدبر رأسه :
- قولي انك لا تحقدين علي .
- اوه ! كلا .

- قولي لي ، قولي لي : اني اسامحك .
فلم تجرو . وعندئذ اخذ يتوسل مستمراً بالنظر الى الخارج :
- كوني طيبة . الفظي فقط هذه الكلمات الثلاث .
فنفذت طلبه :

- بالتأكيد اني .. اني اسامحك يا سيدي .
- شكراً .

واغرورقت عيناه بالدموع . وبدا له أنه عاد إلى التوافق المطلق ، وانه وجد السلام في القلب بعد سنوات من الحرمان . وصاح عصفور في نافذة من الطابق الاسفل . وردد جيروم لنفسه : « أنا صالح » ، انهم يقاضونني بشكل سيء . انهم لا يعرفون . فأنا اساوي أفضل من حياتي » . وفاض قلبه بعدوبة دون غرض ، وبالرأفة ، وتتم :

- مسكينة كريكري !

والتفت . كانت زينيت قد انتهت من تزيير ثوبها الصوفي الاسود . وألقت شعرها إلى الوراء ، واستعاد وجهها المفسول زهرته : لقد عادت الخادمة الصغيرة الحجولة العنيدة التي جاءت بها نوعي من مقاطعة بريتانيا منذ ست سنوات . ولم يستطع جيروم امتلاك نفسه ، فتقدم إليها ووضع ذراعاً حول قامتها ، وكان يردد كلاًزمة : « أنا صالح » ، أنا أفضل مما يُظن بي . وكانت أصابعه تحل عرى الثوب بصورة آلية ، بينما كانت شفتاه تستندان إلى جبهة الصغيرة في قبلة أبوية .

وارتعشت زينيت ، ولم تكن أقل نفوراً من السابق . ولكنه أبقاها مضومة إليه . وتأوهت :

- أتعلم أن لديك دائماً هذا العطر الذي يُشتم منه رائحة شراب الليمون ؟

وابتسمت وقدمت فمها وأطبقت عينها .

ألم تكن تلك هي الشهادة الوحيدة التي تستطيع تقديمها اعترافاً بالجميل ؟
أو لم تكن لجيروم هي الحركة الوحيدة القادرة في تلك الهنيئة من الحماس الصوفي
على أن تشرح ، حتى النهاية ، تلك الرأفة الدينية التي كانت نفسه مثقلة بها ؟

حين وصلا إلى محطة مونبارناس كان القطار على الرصيف . وقد أفاقت
رينيت على الواقع حين شاهدت على عربة القطار ورقة كتب عليها : « لانيون » .
كلا ، ليست هذه « خدعة » ، فقد لمست بشكل جدي اتنام ذلك الحلم الذي كان
يداعبها طوال سنوات . فكيف أمكن أن تكون كئيبة ؟

واختار جيروم مكاناً لها . وأخذوا يخطوان المئة خطوة امام المقصورة ، ولم
يكونا يتكلمان . كانت رينيت تفكر بشيء ما ، بأحد ما .. ولكنها لم تنو قطع
الصمت . وجيروم أيضاً بدا أنه يتعذب من هم خفي لانه التفت نحوها عدة مرات
كأنه يريد أن يكلمها ، ويصمت . وأخيراً اعترف دون أن ينظر إليها :

— لم أقل لك الحقيقة يا كريكري . ان مدام بتي - ديتراي قد ماتت .

فلم تطلب أي تفصيل ؛ ولكنها أخذت تبكي ، وهذا الحزن الصامت أحسن
إلى جيروم ، ففكر بعذوبة : « كم نحن صالحان ! » .

ولم يتبادلا أية كلمة حتى موعد الرحيل . لو كانت رينيت على شيء من الجرأة
لأعادت النقود دون أي سبب وصعدت ترجو مدام روز أن تعيدها . وجيروم
الذي كان هذا الانتظار يزعجه لم يشعر بأي سرور لأنه عمل على هذا الانقاذ .
— لو أراد السيد أن يهدي تحيقي لدانيال .

ومنعت الجلبة جيروم من فهم ما قالت . ورات جيداً أنه لم يسمع ؛ فأخذ
فمها يرتجف ، وتشنجت اليد التي أسندتها إلى صدرها . أما هو فكان يبتسم
سعيداً لرؤيتها تذهب . وكان يحرك قبعته بكيةاسة .

وخطرت له فكرة جديدة جعلته يحتاج من الملل : العودة إلى ميزون - لافيت
في أول قطار ، والارتقاء على قدمي زوجته والاعتراف لها بكل شيء تقريباً .

وقال لنفسه ، وهو يولع سيكارة ويبتعد عن المحطة بخطى عريضة :
- وثم ، لأجل هذا الدخل السنوي ، يجب أن تكون تيريز على علم بالامر :
فهي كثيرة التنظيم ولن يفوتها هذا .

١٣

كان انطوان يأتي عدة مرات في الاسبوع بطلب راشيل ليأخذها لتناول طعام العشاء .

وذات مساء ، في لحظة الخروج ، وبينما كانت تقفرت من المرأة وتأخذ علبة البودرة من محفظتها ، أسقطت ورقة مطوية التقطها انطوان .
- آه ! شكرأ .

وظن أنه فاجأ اضطراباً خفيفاً في صوتها ، وأدركت راشيل في اللحظة ذاتها ما جال في فكره ، فقالت محاولة أن تمزح :

- وبعد ؟ ماذا تفترض إذن ؟ اقرأ .. انها ساعات القطار .

فدفع الورقة ، وأعادتها إلى محفظتها ، ولكنه سأل على الاثر :

- أأنت ذاهبة في رحلة ؟

كانت ارتجافة الاهداب اللاإرادية واعوجاج الابتسامة واضحين هذه المرة .
- راشيل ؟

فلم تبتسم . وفكر انطوان وقد انتابه قلق نفسي مفاجئ : « آه ! لا اريد .. لن أستطيع احتمال أقصر غياب !

وجاء اليها ولمس ذراعها فارتجت على صدره منتحبة . وتمتم :

- ولكن ماذا ؟ ماذا ؟

فأسرعت تجيب بعبارات متقطعة :

- لا شيء ، لا شيء ابدأ . أنا متوترة الأعصاب . اسمع ، سترى ان ليس

في الأمر شيء : ذلك لزيارة قبر الصغيرة كما تعلم ، في غيه - لا - روزير . وبعد ،
فاني لم اقم بهذه الرحلة منذ وقت طويل . ويجب أن أذهب ، افهمت ؟ لقد

أخفتك ! ساحني . - ولكنها قالت زافرة وهي تضمه بين ذراعيها : - ولكن يا عزيزي ، أصبح إذن انك متمسك بي ؟ ستكون إذن تعيماً إذا ... ذات يوم .. ؟
- اسكتي .

- تتم خائفاً للمرة الاولى من تقدير المركز الذي تحمله راشيل في حياته .
وأضاف بخجل :

- كم يوماً.. ستظلين غائبة ؟
وكانت قد تخلصت من حضنته ، وحاولت أن تبسم ، وأسرعت نحو غرفة الزينة لتجفف عينيها ، وقالت :

- ذلك لاني حمقاء ببكائي هكذا . اسمع ، كان ذلك ذات مساء كالسيوم ، وقبل الذهاب لتناول العشاء تماماً. كنت في بيتي مع اصدقاء - لا تعرفهم. ورن الجرس : البرقية : « الطفلة مريضة ، حالة خطيرة جداً ، تعالي » . ففهمت . وركضت إلى المحطة كما كنت ، بقبعة من النسيج الدقيق الممشق ، وحذاء مكشوف ، ووثبت إلى أول قطار . تلك الرحلة ، ليلة بكاملها ، وحيدة مرتعدة من الخوف .. كيف لم أعل مجنونة ؟ - والتفتت نحوه : - اصبر قليلاً ، سأجعله يحف ، وهذا أفضل . - وانتعش وجهها فجأة . - أتعلم ، لو كنت لطيفاً ؟ لأتيت معي إلى هناك ! اسمع : يومان يكفيان ، نهار سبت ونهار أحد . نذهب وننام في روان أو في كوديبيك ؛ وفي الغد نذهب إلى مقبرة غيه - لا روزيير . ستكون نزهة لا بأس بها ، كلانا ! الا تظن ؟

وسافرا في آخر سبت من أيلول ، في فترة جميلة من بعد الظهر ، في قطار فارغ تقريباً : كانا وحيدين في مقصورتهما .

وانطوان المنتشي بيومي الراحة هذين ومن وجوده وحيداً معها ، مسترخي الأعصاب ، معيداً الشباب إلى نظره ، ضاحكاً ، يتحرك كولد ، ويمازح راشيل حول صناديق امتعتها التي تملأ الشبكة ، ويرفض الجلوس بجانبها لكي يتسنى له

التهامها بعينيه بشكل أفضل .

وقالت حين نهض مرة اخرى لإسدال الستائر :

— دعها إذن ، لن أذوب .

— كلا ، ولكن عيني تعشيان حين تكونين في الشمس .

وكان هذا صحيحاً : حين كان النور يسبح على بشرة الوجه ، ويحرق الشعر

كان متعباً للعينين اذا أطالتا النظر . وقال ملاحظاً :

— اننا لم نسافر معاً بعد ابداً . هل فكرت بذلك ؟

ولم تتوصل إلى الابتسام . وكان في فمها المتجذب قليلاً شيء من الاحتدام ،
من الارادة . وانحنى وقال :

— ما الأمر ؟

— ابداً .. الرحلة .

فصمت ، مفكراً انه نسي بدافع الانانية هدف الزيارة . ولكنها اوضحت :

— ان السفر يبعث في الاضطراب دائماً . هذه المناظر الطبيعية الراكضة ..

وكل ذلك المجهول في النهاية .. وتوقفت عيناها لحظة على الافق الهارب — طالما

ركبت هذه القطارات .. وتلك السفن !

وأظلم وجهها .

وأنساب انطوان الى جانبها وتمدد على المقعد ووضع رقبته في تجويف

نوبها وتمتم :

— مرة تشبه وعاء العاج^(١) .

ثم سأل بعد لحظة صمت ، وقد شعر ان تفكير راشيل لم يكن معه :

— بماذا تفكرين ؟

— بلا شيء .

وبذلت جهداً لتكسب وجهها هيئة لاهية . وقالت وهي تضع اصبعها

تحت القماش :

١ - باللاتينية في الاصل .

— بربطة عنقك كعلم مدرسة . حق في السفر فانك لا تعرف ان تجعل العقدة مرتخية قليلا ، حرة قليلا . — وتطت وابتسمت أيضا : — ياله من حظ ان نكون وحيدين ! تكلم ، انت ! قص علي شيئا . فضحك :

— ولكنك انت التي كنت تقصين دائما ! اما أنا ، فمرضاي ، وامتحاناتي . كيف استطيع الحصول على شيء اقصد ؟ لقد عشت دائما كخلد في سردابه : وانت التي جعلتني اخرج من جحري وأنظر إلى الكون . لم يكن قد لفظ هذا الاقرار امامها بعد . فالتحنت وأخذت بيديها الرأس العزيز الذي كان يرتاح على ركبتيها وتأملته : — اصحيح هذا ؟ هل هو صحيح تماما ؟

فتابع دون ان يغير مكانه : — انت تعلمين ، اننا لن نبقي طول الصيف في باريس في السنة القادمة . — كلا .

— لم اطلب اجازات هذه السنة ؟ واني ارتب اموري لاحصل على خمسة عشر يوما .

— نعم .

— ربما ثلاثة اسابيع .

— نعم .

— وسنذهب معا الى اي مكان .. اليس كذلك ؟

— نعم .

— الى الجبال اذا اردت . الى جبال الفوج او الى سويسرا ، او أبعد ايضا : فطلت راشيل حاملة ، وقال :

— بماذا تفكرين ؟

— بهذا . الى سويسرا ، نعم .

— او الى البحيرات الايطالية .

- آه ! كلا .

- لماذا ؟ الا تحبين البحيرات الايطالية ؟

- كلا .

فرضي ، وهو لا يزال ممدداً تهدده رجة القطار :

- حسناً ، سنذهب الى مكان آخر .. حيث تشائين .

ولكنه تابع بكسل بعد وقفة :

- لماذا لا تحبين البحيرات الايطالية ؟

كانت تجيل اطراف اصابعها على جبهة انطوان ، وعلى جفونه ، وعلى صدغيه المتقرنين قليلاً كخديه ، ولم تجب . وكان قد خفض جفونه ولكن الفكرة نفسها كانت تقف في دماغه النعسان :

- لماذا لا تريدان ان تقولي ما في نفسك ضد البحيرات الايطالية ؟

فأتت بحركة غضب خفيفة وقالت :

- ذلك لأن هارون مات هناك ! اخي ، اتعلم ؟ في بالانزا .

فأسف لإلحاحه ؛ الا انه اضاف :

- هل كان يعيش هناك ؟

- اوه ! كلا ؛ كان هناك في رحلة . رحلة عرس .

وعبست ، ثم تمت بعد هنيهة كأنها ادركت ما يفكر به انطوان :

- مهما كان الامر .. ان ما رأيته قبلاً كان من جميع الانواع ..

وسأل :

- هل اختلفت مع زوجة اخيك ! انك لم تتحدثي عنها ابداً .

وتوقف القطار فنهضت وانحنى على النافذة . الا انها كانت قد سمعت سؤال انطوان لأنها التفتت .

- ماذا ؟ اي زوجة اخ ؟ كلارا ؟

- زوجة اخيك : قلت انه مات اثناء رحلة عرس .

- لقد ماتت معه . وقد قصصت عليك ذلك . كلا ؟ - واستمرت في

التطلع الى الخارج - لقد غرق في البحيرة . وليس هناك من يعرف ماذا جرى
- وترددت - ما من احد . ربما باستثناء هيرش .
فقال وقد اتكأ على مرفقه :

- هيرش ؟ اذن كان هناك معها ؟ ولكن .. انت اذن ايضاً ؟
فقال متوسلة وقد جاءت لتجلس :

- آه ! دعنا من الحديث عن ذلك الآن . ناولني محفظتي . أأنت جائع ؟
ونزعت الفلاف عن قطعة شوكولا ووضعتها بين اسنانها وقدمتها هكذا
لانتوان الذي استعد للعب مبتسماً . وقالت بنظرة شرهة :
- هكذا افضل .

وتابعت بطريقة غير منتظرة ، فجائية :

- كانت كلارا هي ابنة هيرش ، افهمت الآن ؟ لقد عرفت الاب بواسطة
البنات . الم اقل لك عن هذا ابداً ؟

فأشار بالنفي ، ولكنه امسك عن سؤالها اكثر من ذلك ، محاولاً ضم هذه
التفاصيل الجديدة الى تلك التي التقطها في السابق . الا ان راشيل لم تتأخر في
متابعة الكلام ، كما هو الامر دائماً عندما ينقطع عن سؤالها :

- الم تر صورة كلارا ؟ سأبحث لك عنها . كانت رفيقة لي . وقد عرفتني في
الصف الصغير . ولكنها لم تبق سوى سنة في الاوبرا . لم تكن صحتها ملائمة ،
وربما كان هيرش يفضل ان يبقيا الى جانبه : هذا ممكن تماماً .. وكنت على
صلة بها ؛ وأذهب لرؤيتها نهار الاحد في ميدان ترويض الخيل في نويي . وهكذا
تلقيت اولى دروسي في ركوب الخيل معها في الوقت نفسه . وثم اعتدنا فيما بعد
على الركوب معاً نحن الثلاثة .

- من هذا ، نحن الثلاثة ؟

- كلارا ، وهيرش وانا . ابتداءً من عيد الفصح كنت آتي لأخذهما في الساعة السادسة
صباحاً ، ثلاث مرات بالاسبوع . وكان يجب ان اعود في الساعة الثامنة لاجل

الأوبرا . وفي تلك الساعات كان الغاب لنا ، وكان هذا شيئاً .
وصمت لحظة . وكان ينظر إليها وهو متكئ ، بمرفقه على المقعد ولا يتحرك ،
وتابعت ملاحقة خيط ذكرياتها :

— فتاة جامحة ، كثيرة الجسارة ، كثيرة الطيبة ، فتنة ، فتنة فاسقة قليلاً ؛ وبين
فترة وأخرى نظرة والدها الرهيبة . كانت أفضل صديقة لي في ذلك الوقت . وقد
جن بها هارون منذ سنوات : لم يكن يشتغل الا ليستطيع الزواج بها ذات يوم .
وكلارا لم تكن تريد ، ومن الطبيعي الا يريد هيرش ايضاً . واخيراً قررت الزواج
منه فجأة دون ان يستطيع معرفة السبب . ومع ذلك ، ففي فترة الخطوبة لم
يساورني الريب بشيء . وحين عرفت ، كان الوقت قد تأخر لأقول شيئاً . —
وتوقفت — وثم ، بعد ثلاثة اسابيع من الزواج تلقيت برقية من هيرش يدعوني
فيها الى بالانزا . وكنت اجهل انه لحق بها ، ولكن حين علمت انه كان هناك
تنسمت المأساة حالاً ! وبعد ، فهذا ليس سرّاً ، اذ رويت كدمات حول عنق
كلارا . فقد اضطر الى خنقها .

— من خنقها ؟

— هارون . زوجها . فقد استأجر قارباً ذلك المساء ليذهب الى التنزه على
البحيرة وحده . وجعله هيرش يفعل ذلك ، وقد لاقى هناك حسابه ، ومن
المحتمل ان يكون له مبرارته : كان يعلم ان هارون يريد الانتحار . وكلارا
ايضاً كانت ترتاب في ذلك : فقد اغتنمت الفرصة حين لم يكن هيرش يراقبها
لتنسب الى الزروق الذي اقلع . على الاقل هذا ما ادركته تدريجياً ، لأن هيرش
— وهزتها الرعدة — لا يسبر غوره .

ثم سألت انطوان حين صمتت من جديد :

— ولكن لماذا انتحرت ؟

— كان هارون يتحدث دائماً عن ذلك . هَوَسَ . منذ الطفولة . ولهذا السبب
لم أجرؤ أبداً على قول شيء ، وتركته يتزوج .. — وقالت بلهجة ألم عميق : —
آه ! لقد ملت نفسي كثيراً منذ ذلك الوقت . ربما لو تكلمت في تلك الفترة —

وطلعت إلى انطوان كما لو كان باستطاعته تبرئتها أمام ضميرها : - لقد اطلعت على سرهما ، نعم ، ولكن هل كان ذلك سبباً لاطلاع هارون عليه ؟ قل ؟ كان قد صرح عدة مرات أنه سيقتل نفسه إذا لم تتزوجه كلارا ! وكان يفعل ذلك لو انني أعلمته بما اكتشفت بطريق الصدفة .. ألا تعتقد ذلك ؟

فلم يستطع انطوان الاجابة وردد :

- بطريق الصدفة ؟

- اوه ، تماماً بطريق الصدفة ؛ فذات صباح ، وقد جئت في طلب كلارا وهيرش للذهاب إلى الغاب . وصعدت رأساً إلى غرفة كلارا ؛ وعندما اقتربت سمعت جلبة عراك ؛ فأسرعت .. كان الباب مفتوحاً قليلاً : كانت كلارا بدون النصف الأعلى من ثوبها ، والذراعان عاريان ؛ كانت مرتبكة في تنورتها الامازونية ؛ وفي اللحظة التي دفعت فيها مصراع الباب رأيتها تأخذ سوطها الذي كان على كرسي ، وسقطت ضربة شديدة على وجه هيرش .

- والدها !

- نعم يا صغيري ! آه ! هذا . أعترف انني كنت غالباً ما افكر بذلك منذ ذاك . - وهتفت بانفجار سرور حاقد : - لقد كنت أرى رأسه في أغلب الاحيان ، ووجهه الشاحب ! والندبة الطويلة التي دكن لونها أكثر فأكثر ! آه ! كان يحب أن يضرب هو أيضاً ؛ حتى أنه كان يضرب بشدة ! إلا أنه في هذه المرة ، هه ! هه ! فهو الذي تلقى ضربة السوط .

- ولكن ماذا ؟

- أجل . لم أكن أعلم بالضبط ماذا جرى في ذلك الصباح .. وكان على كلارا أن ترفض منذ الخطوبة . هذه هي الفكرة التي خطرت لي حالاً . وقد تذكرت بعض الاشياء التي أدهشتني في السابق . وفي لحظة ، حزرت ، ورأيت بوضوح .. لقد خرج هيرش من الغرفة مرتدياً ملابس سيد كبير ، دون أن يقول كلمة ؛ وهيئته تدل على أنه متأكد من انني لن أتكلم . وكان على حق ، كما رأيت . أما أنا فقد أرهقت كلارا بالأسئلة ، فاعترفت بكل شيء . ولكنها أقسمت لي - وهنا

كانت صادقة ، وأنا متأكدة - لقد أقسمت لي أن الامر انتهى إلى الابد ، وانها ستزوج لتتخلص من كل هذا . لتتخلص من هيرش ؟ أم لتتخلص من عاطفتها الخاصة ؟ هذا ما كان علي أن أتساءل عنه في ذلك النهار . وكان علي أن أفهم أن الامر لم ينته أبداً ، لا شيء إلا على الطريقة التي تتكلم بموجبها عنه . - وتوقفت قبل أن تضيف بصوت منخفض : - ما دامت امرأة تتكلم عن رجل بهذا النوع من الكراهية ، فهذا يعني أنه لا يزال دائماً شغلها الشاغل ! وظلت حانة طوال دقيقة ، منخفضة الجبهة ، والعينان محدقتان بالارض ، ثم تابعت :

- . وحصلت بعد ذلك على البرهان ، ما دامت كلارا ، هي نفسها ، وفي رحلة العرس .. أتفهم ؟ هي التي جاءت بهيرش إلى ايطاليا .. وبعد ذلك ، ينقصني بعض التفاصيل . ولكن من المؤكد أن هارون فاجأها ، ويدون ذلك لما حاول اغراق نفسه .. أما ما لم أجلاه أبداً فهو مقصد كلارا . لماذا لحقت بزوجها إلى الزورق ؟ لمنعه من قتل نفسه ؟ أم لتموت معه ؟ يمكن افتراض هذا وذاك .. يا لها من مواجهة ، في ذلك الزورق ، وفي ظلام الليل ، وفي منتصف البحيرة ! لقد تساءلت مرة عما جرى . هل اعترفت بكل شيء بوقاحة ؟ كانت خليقة بذلك .. هل أراد هارون قتلها ليتأكد من عدم استمرار ذلك بعد موته ؟ لقد وجد زورقها فارغاً في الغد ، وبعد عدة أيام ، الجثتان معاً .. ولكن الأكثر غرابة بالنسبة إلي هو أن هيرش أرسل إلي برقية يدعوني للمجيء دون أن ينتظر بدء التفتيش ، في مساء النزهة نفسه قبل اقفال المكتب ! - وتابعت بعد عدة ثوان من الاحلام : - ومع ذلك ، فباستطاعتك قراءة هذه الحكاية في صحف ذلك الوقت ؛ فقط ان هذا لم يكن ليدهشك . وقد قامت الشرطة الايطالية بتحقيقات ؛ وتدخلت الشرطة الفرنسية بذلك أيضاً ؛ وقد فتشوا مسكن هارون في باريس ، ومسكني .. ولكنهم لم يجدوا سر اللغز .. اني أعرف ذلك أفضل منهم . - وصاحبك هيرش ألم يكن قلقاً ؟

فانتصبت بحموية وقالت :

— كلا ، فصاحي هيرش لم يكن قلقاً .

كان يوجد تحدٍ في صوتها ، وفي النظرة التي شملت بها انطوان ؛ ولكنه لم ينتبه إلى ذلك ، لأنها حين تروي قصة حياتها الماضية في أغلب الأحيان تستعمل لهجة مثيرة نوعاً ، كأنها تشمر باللذة في ادهاش هذا الرجل الذي فرض نفسه عليها بقوة في أول مساء من لقاءها . ورددت بنبرة أخرى ضاحكة :

— هيرش لم يكن قلقاً أبداً ، ولكنه رأى من الحكمة ألا يعود إلى فرنسا في تلك السنة .

— أمّا كدة أنت أنها هي ، الابنة ، وفي رحلة عرس ..
— كفى .

قالت ذلك ، وجاءت نحوه بذلك الشغف الذي كانت تظهره دائماً حين يكون الامر بينها متعلقاً بهيرش ، وأقفلت فمه بقبلة لا تغلب ، وتمتمت وهي تضم نفسها إليه :

— آه ! أنت لست كالاخرين ، انت كريم ! انت مستقيم ! آه ! ذلك لأنني احبك يا عزيزي !

وبدا انطوان مستعداً لإلقاء الاسئلة عليها ايضاً لأن هذه القصة شاقته ، الا انها رددت :

— كفى ، كفى ... هذا يثير اعصابي كثيراً ... اريد ان انسى ذلك ...
اطول وقت ممكن ... ضمني بشدة ، داعبني برقة ... نعم ، هدهدني ، هدهدني جيداً يا عزيزي لكي انسى ...

فضمها بين ذراعيه ، وفجأة انبجست من اعماق عقله الباطن حاجة المفامرة كعريزة جديدة : الهرب من هذه الحياة المنظمة ، والبدء من جديد ، وركوب الاخطار ، وان يستعمل في اعمال حرة تلك القوة التي كان فخوراً جداً باخضاعها في نهايات شاقة !

— لو ذهبنا معاً ... إصغي الي . نصنع حياتنا معاً من جديد ، بعيداً ، بعيداً .. لا تعلمين ماذا تستطيع ان افعل !

فقال ضاحكة : انت ؟

ومدت شفتيها اليه . وهو نفسه ، وقد انتشى ، ابتسم محاولاً جعلها تظن انه كان يمزح . وقالت وهي تنظر اليه عن قرب بقلقٍ تذكره فيما بعد :
- لك احبك !

كان انطوان يعرف روان . فعائلته الابوية كانت من اصل نورماندي : والسيد تيبول لا يزال له في روان عدة اقارب أدنين . وفضلاً عن ذلك فان انطوان قضى فيها خدمته العسكرية منذ ثماني سنوات . وكان من اللازم ان ترافقه راشيل ، قبل العشاء ، في الجهة الاخرى من الجسور ، في ضاحية مزدحمة بالجنود ، ليسيرا بمحاذاة جدارٍ لا ينتهي لشكنة عسكرية .

وهتف انطوان بسرور ، دالاً راشيل على بناية مضاعة :
- ردهة المرضى ! اترين النافذة الثانية؟ المكتب . لقد قضيت اياماً في الداخل دون أن أعمل شيئاً ، حتى دون ان استطيع القراءة ، وأنا أراقب اثنين او ثلاثة من الكسالى ، وبعض العشاق المصابين .
كانت تضحك دون حقد ، واختتمت :
- ها ؟ ذلك لانني سعيد اليوم !

فلم تجب بشيء ومرت أمامه ؛ ولم ير انها كانت على وشك البكاء . وكانت هناك دار للسينما قد علقت اعلاناً عن «افريقيا المجهولة» . وارى انطوان الأرملة لراشيل ؛ فهزت رأسها وسارت به نحو فندقها .
ولم يتوصل إلى إضحاكها طوال وقت الطعام ؛ وحين فكر بسبب رحلتها لام نفسه قليلاً على مرجه .

ولكن ما ان اصبحا في غرفتهما حتى تعلقت بعنقه وقالت :
- يجب ألا تحقد عليّ .
- بسبب ماذا ؟

- لانني أفسدت عليك نزهتنا .

وأراد الاعتراض ، فاحتضنته من جديد ، مرددة ، كأنها تقول لنفسها :
- آه .. احبك !

وفي الغد بلغا كوديبيك في ساعة مبكرة . وكان الحر ثقيلاً ، والنهر يجري كثير الاتساع تحت بخار يتلأأ . وحمل انطوان الصناديق الصغيرة حتى الفندق الصغير الذي كان يؤجر عربات . والعربة التي طلبها جاءت منذ وقت طويل تقف أمام النافذة التي كانا يتناولان طعامها بقرها . وقصرت راشيل امد تناول الحلوى ، وكدست كل رزما بنفسها في غطاء العربة ، وشرحت بالتفصيل ، للعوذي الطريق التي تريد اتباعها ، واندفعت بمرح في العربة القديمة . وكما اقتربت من اللحظة المؤلة في رحلتها كانت تبدو انها تستعيد انتعاشها . وقد سرت بها المسافة : كانت تعرف الطلعات والنزلات ، والتلال التي نصبت عليها الصلبان ، وساحات القرى . وكان كل شيء يثير دهشتها ، حتى ليظن انها لم تترك الضاحية ابداً :

- كلا ، ولكن انظر ! هذه الدجاجات ، وتلك العجوز المشاولة التي تشوي نفسها في الشمس ! وذلك الحاجز ، مع تلك الكتلة الحجرية لايحاد التوازن ! هل هم متأخرون هنا ؟ انت ترى ، انني انذرتك : غابة الشوك الحقيقية !

وحين شاهدت في الوادي السطوح المبعثرة حول كنيسة غيه - لا - روزير الصغيرة ، نهضت واقفة في العربة . وتألق وجهها كأنها وجدت مسقط رأسها . وقالت للعوذي حين بلغوا بيوت غيه Gué الأولى :

- المقبرة إلى الشمال ، بعيدة عن الضيعة ، وراء تلك الحورات . انتظر . سترها .. ستجتاز القرية خبيأ .

كانت الواجهات البيضاء المخططة بالسواد والمعمرة بالنج依ليات ، والمختبئة في داخل ساحة معشبة ، تلمع خلال أشجار التفاح ، وكانت المصاريح مقفلة . ومروا أمام سطح من الأردواز بين شجري سرو . وقالت راشيل منتشية :
- مكتب المحبرة . لم يتغير شيء ! هنا تكتب القرارات .. أترى هناك ،

خلف ؟ . حسناً .. هناك كانت تسكن مرضعتها . اناس طيبون وقد تركوا البلاد : ولولا ذلك لذهبت وقبّلت المعجوز .. اسمع ، لقد سكنت هنا ذات مرة .
وحين أتيت ، اسكنوني عند اولئك الذين لديهم سرير للاعارة . وكنت أتناول طعامي معهم ، واضعك من لهجتهم العامية . وكانوا ينظرون إليّ كهيمة من معرض الوحوش . والنساء الطبيبات كن يأتين لرؤيتي في السرير بسبب (بيجاماتي) .
انهم هنا متأخرون ، وهذا لا يصدق ! ولكنهم اناس طيبون ، كانوا كلهم لطفاء معي حين ماتت الصغيرة ! وبعد ذلك ارسلت اليهم كل شيء : مريش أثمار ، وشرائط لتوضع على قبعاتهن ، ومشروبات روحية للخوري - ونهضت من جديد - المقبرة هناك ، بعد هذا الضلع . انظر جيداً : ستري القبور في القعر .
ضع يدك . أتعرف لماذا يشب قلبي ؟ اخاف دائماً ألا أجدها ، ابنتي المسكينة .
لأننا لم نشأ أن ندفع ثمن قبر دائم ؛ فقد قال لنا الجميع ان ليست هذه هي العادة السائدة في البلاد . ولكني أقول لنفسي رغماً عني في كل مرة اجيء : « وإذا ذروها لي في الهواء ؟ » . سوف يكون لديهم الحق كما تعلم .. قف أمام المشي يا صديقي ؛ سنذهب سيراً على الأقدام حتى الباب .. تعال ، تعال بسرعة .
وقفزت خارج العربة واسرعت نحو حاجز من القضبان الحديدية وفتحته واختفت وراء شقة حائط ، وعادت إلى الظهور حالاً لتصبح بانطوان :
- انها لا تزال هنا .

وكانت الشمس تلمح وجهها الذي لا يبدو عليه سوى الفرح . وتوارت من جديد .

ولحق بها انطوان . وظلا واقفين وايديهما على خصرهما امام زاوية تجتاحها الاعشاب المهنونة ، على زاوية جدارين ؛ وهناك بقايا سياج كانت تبرز من خلال نبات القراص .

- انها لا تزال هنا ، ولكن في اية حالة ! آه ! الطفلة المسكينة . تستطيعين القول ان مقبرتك مشطية جيداً ! مع اني ارسل اليهم عشرين فرنكاً بالسنة لأجل الصيانة .

ثم التفتت نحو انطوان ، مع تردد خفيف في الصوت ، كأنها تعتذر عن نزوة :
- اخلع قبعتك يا عزيزي ، اتريد ؟ فاحمر وجه انطوان ، ونزع قبعته .
وقالت فجأة :

- يا لطفلي المسكينة !

وأسندت يدها الى كتف انطوان ، وامتلات عيناها بالدمع وتمتت :
- تصور اني لم ارها وهي تموت ، فقد وصلت متأخرة . ملاك صغير حقيقي
شاحب - وفجأة مسحت عينيها وابتمست - نزهة عجيبة جعلتك تقوم بها ،
اليس كذلك ؟ ماذا تريد ، هذا من التاريخ القديم . ولكنه يؤثر بك مهما كان
الامر .. ومن حسن الحظ ان لك عملاً يمنعك من التفكير .. تعال .
ووجب الرجوع الى العربية . وبدون ان يقبل مساعدة الحوذي ، نقل الى
المقبرة الرزم التي اخذت راشيل ، وهي راحة على العشب ، تفتحها بنفسها .
ونشرت على بلاطة مجاورة ، وبترتيب ، مجرفة ومنجلا ، ومطرقة خشبية ،
ثم كرتونة واسعة تحتوي على اكليل من الاؤلؤ الابيض والازرق . وقال
انطوان مبتسماً :

- ادركت الآن لماذا كان هذا ثقيلًا .

ونفضت بمرح :

- ساعدني اذن بدلاً من ان تسخر . اخلع سترتك . خذ المنجل . والمقصود
ان تقطع ، او تنتزع هذه القذارة التي تلتهم كل شيء . انت ترى ان الآجرة التي
تعين المكان موجودة تحتها . لم يكن تابوتها كبيراً ولا ثقيلًا ، الابنة المسكينة !
اعطني هذا ! انه بقايا اكليل . ليس هذا حديثاً : « الى ابنتنا العزيزة » . ان
زوكو هو الذي جاء به . لم اكن معه منذ سنة ولكني اخبرته مهما كان الامر .
افهمت ؟ كان ذلك مناسباً ، وقد جاء ، وكان بلباس الحداد . لعمرى كنت
مسرورة ، كنت اقل وحدة عند الدفن .. ذلك لأنني حقاء ! انتظر : هذا ،
انه الصليب . ارفعه . سنمكنه حالاً .

وشعر انطوان بتأثر مفاجئ وهو يبعد العشب : لم يكن قد شاهد اولاً

الكتابة بكاملها : « روكان - راشيل غوبير » . كان الاسم الاول محواً ، ولم يقرأ سوى اسم صديقه . وظل حالماً بضع ثوان . وقالت راشيل :
- حسناً ، الى العمل . لنبدأ من هنا .

واخذ انطوان يشتغل باخلاص ، لم يكن يشتغل شيئاً نصف شغل . وكان بالقميص ، يحرك المنجل والرفش . واخذ ينضح بالمرق كأنه احد العمال . وقالت :

- الأكاليل . اعطينها لأمسحها .. هيه ! ولكنها تنقص واحداً . انظر .
ذاك الذي قدمه هيرش ، الاجل ! من زهور من البورسلين ! آه ! مثلاً ، هذا ،
انه قاس !

كان انطوان يتبعها بعينيه متسلماً : وهي بدون قبعة ، وشعرها المشعث يلعب في الشمس ، والشفة متحركة وساخرة ، والتنورة مرفوعة ، واكمامها مشمرة حتى المرفقين ، كانت تطوف السور في كل ناحية ، متفحصة كل قبر ، متدمرة بغضب :

- لقد استعاروه مني ، النهمون .
ثم عادت وقد خمدت همها ، وتابعت وقد هدأت كأن ذلك بفعل
السحر :

- لقد حافظت عليه كثيراً ! ربما يضعون منه ما يعلق بسلسلة الساعة ،
انهم متأخرون جداً ، كما تعلم ! ولكنني اكتشفت هناك رملاً اصفر
يصلح للزينة .

وبين ربع ساعة واخرى اتخذ القبر الصغير مظهراً جديداً : الصليب اعيد
وضعه قائماً ، ثم جرى غرزه بضربات المطرقة بحيث اشرف على مستطيل الآجر
الذي نقي تماماً من العشب ، وحول كل ذلك درب ضيق مغطى بالرمل ، اكسب
القبر هيئة حية .

ولم يكونا قد لاحظا امتلاء الافق بالفيوم وفوجئتا بقطرات المطر الاولى ،
وتشكلت زوبعة فوق الوادي . وتحت السماء التي بلون القصدير اصبحت

الحجارة اكثر بياضاً ، والعشب اكثر اخضراراً . وصاحت راشيل :
- لنسرع .

وابتسمت باتجاه القبر ابتسامة ام وتمتمت :

- لقد اشتغلنا جيداً ، حق ليظن انها حديقة صغيرة لإحدى الدارات .
وكان انطوان قد لاحظ على زاوية الجدار غصن وردة متديلاً كان يؤرجع
في الهواء وردتين قلبها كالزعران . وخطرت له فكرة تقديمها كوداع لروكسان
الصغيرة . وأوقفه الاحترام الانساني : فقد فضل أن يترك للأمم هذه الحركة
الرومانتيكية ، وقطف الزهرتين وناولهما لراشيل ..

فأخذتها ، وغرزتها بسرعة في أعلى فستانها ، وقالت :

- شكرأ . ولكن لنذهب ، أكاد أخسر قبعتي .

وهربت نحو العربية دون أن تلتفت ، ممسكة بيديها تنورتها التي بدأ المطر
ينهال عليها .

وكان الحوذي قد حل الجواد عن العربية وآوى مع جواده إلى تجويف في
السياج . والتجأ انطوان وراشيل إلى داخل العربية ، تحت الفطاء ونشرا على
ركبها المريلة الثقيلة التي يشتم منها رائحة الجلد المتعفن . وكانت تضحك ، لاهية
بهذه الزوبعة غير المتوقعة ، سعيدة أيضاً بالواجب الذي قامت به .

ولم تكن سوى مزنة . وتناقص المطر ، وأسرعت الغيوم نحو الشرق ؛
وعلى الأثر ، ومن خلال الجو الذي تطهر من أبخرته ، عادت شمس المغيب إلى
الظهور تبهر العين . وبدأ الرجل يربط جواده . ومر غلمان يدفعون أمامهم صفاً
من الاوز المبلل . وأصغروهم ، ويمكن أن يكون في التاسعة او العاشرة من عمره ،
تسلق درجة العربية ليقيذف بصوت طريء :

- الحب جميل أيها السادة والسيدات .

ثم هرب مفرقماً بقبقابه .

وانفجرت راشيل ضاحكة وقالت لانطوان :

- متأخرون ! ان الجيل الشاب يعد بالكثير

وأخيراً أصبح المسافرين على أهبة السير . ولكن الوقت فات للحاق بقطار كوديبك . واضطرا أن يبلغا مباشرة أقرب محطة على الخط الكبير : ولم يشأ انطوان أن يبقى في الفندق حتى صباح الاثنين . وكان مضطراً للعودة إلى باريس ليلاً . وأوقفها الحوذي ليتناول عشاءه في سان - أوان - لانو . وكان الفندق مليئاً بشاري الاحد مساءً . وقدم الطعام للثنين الجديدين في غرفة خلفية .

وكان العشاء صامتاً . ولم تكن راشيل تمزح . كانت تفكر ؛ كانت تتذكر انها جاءت إلى هنا يوم الدفن ، وفي نفس الساعة ، في عربة ماثلة وربما هي نفسها . ولكن برفقة المغني . وتتذكر على الخصوص المعركة التي اندلعت بينها على الاثر ، وكيف انقض زوكو عليها وصفعها ، هنا ، أمام المعجن ؛ وكيف انها استسلمت إليه من جديد في المساء نفسه ، في غرفة من هذا الفندق ؛ وكيف انها بعد ذلك ، احتملت حماقته وشراسه طوال أربعة أشهر . لم تكن تحقد عليه آنذاك . حتى انها تفكر به في هذا المساء ، بتلك الصفعة مع تذكار شهواني . إلا أنها حرصت على ألا تقص المغامرة على انطوان ، لانها لم تكن قد اعترفت له على وجه أكيد أن المغني كان يضرها .

ثم ان فكرة جديدة ، واخزة ، انبجست في الظلام ، وأدركت ان ذلك كان لكي تتخلص من تلك المضايقة التي تسببها لها ذكرياتها . ونهضت ، واقترحت :
- أتريد أن نسير على الاقدام حتى المحطة ؟ فالقطار لا يسير الا في الساعة الحادية عشرة . والحوذي يسير بالامتنعة .

- ثمانية كيلومترات في الليل ، وفي الوحل ؟

- لماذا لا ؟

- أنت مجنونة .

فتأوهت قائلة :

- آه ! سأصل عاجزة عن السير ، وهذا يفيدني .

ودون أن تزيد من الحاحها تبعته نحو العربة . وكان الظلام تاماً والهواء بارداً . وما كادت تجلس حتى لمست بمظلتها ظهر الحوذي :

— بهدوء ، خطوة خطوة . لدينا متسع من الوقت ،

والتصقت بأنطوان وتمتت :

— الطقس حلو ، وأنا مرتاحة ..

وبعدبضع لحظات أراد أن يداعب الخد المستند إليه فرأى أنه مبلبل بالدموع.

فأوضحت وهي تخلص وجهها :

— أنا متوترة الاعصاب .

ثم تلبدت بشكل أكثر لصوقاً بين ذراعيه وقالت :

— آه ! أبقني يا عزيزي . احتفظ بي بقربك .

وظلا صامتين ملتصقين بعضهما ببعض . وهناك أشجار وبيوت وقعت عليها

أنوار المصابيح كانت تنتصب لحظة كالأشباح وتتلاشى في الليل . وكانت السماء

تتألق فوق رأسها . ورواح وبجيء العربية يؤرجع على كتف انطوان رأس راشيل

المستلقي . وبين لحظة وأخرى ترفع أعلى جسدها لتحضن حبيبها . وكانت تتنهد :

— كم أحبك !

على رصيف المحطة حيث تتشعب الخطوط كانا الوحيدين اللذين ينتظران

قطار باريس . وقد بحثا عن ملجأ تحت أحد الطنوف . وكانت راشيل دائمة

الصمت تمسك بذراع انطوان .

وهناك مستخدمون يركضون في الليل ، محركين مشاعل كانت انعكاسات

أضواؤها تلمع على الرصيف المبلل .

— القطار المباشر ! ارجعوا إلى الورا !

وكانت وثبة قطار سريع ، أسود ، تثقبه النيران ، مر كالفيضان ، رافعا

كل ما يمكن ان يطير ، جاراً معه حتى الهواء الصالح للتنفس . ثم استتب الصمت

بسرعة . وفجأة ، فان خنغنة ضعيفة فوقها كجرس كهربائي اعلنت وصول

القطار السريع .

ووقف القطار ثلاثين ثانية . ولم يكد الوقت يتسع لها للتسلق إلى مقصورة ،

دون اختيار ، كان ينام فيها ثلاثة اشخاص ؛ وكان المصباح مغطى بقماش ازرق . ونزعت راشيل قبعتها وسقطت في الزاوية الوحيدة الفارغة ؛ وجلس انطوان إلى جانبها ، ولكن بدلاً من أن تستند اليه اسندت جبهتها إلى الزجاج الأسود . وكان شعرها الليموني في ظلام العربية النصفية ، والوردي تقريباً في النور ، لم يعد له لون معين ؛ فقد كان يبدو من مادة سائلة ، متوهجة ، حريراً معدنياً أو زجاجاً مهروماً ؛ وبياض الخد الفوسفوري كان يعطي مظهراً غير واقعي لبشرتها . وكانت يدها ملقاة على المقعد ؛ وقد أمسك انطوان بها ؛ وبدلاً من أن راشيل ترتجف ، فسأها بصوت منخفض فلم تجب بسوى ضفطة محومة وزادت من ادارة ظهرها له . ولم يكن يفهم ماذا يجري في نفسها ، وتذكر موقفها في فترة ما بعد الظهر في المقبرة ! ايكن أن يكون الارتجاف العصبي هذا المساء نتيجة لتلك الزيارة التي أتمتها بمرح تقريباً ؟ ... وضاع في الظنون . وعند الوصول ، وحين انتفض رفاقهم في السفر وأزالوا الغطاء عن المصباح ، لاحظ انها ابقت رأسها منخفضاً باصرار .

وتبعها خلال الجمهور دون أن يلقي عليها أي سؤال . ولكن ما إن اصبحا في عربة الأجرة حتى أمسك بمعصمها :

- ما الخبر ؟

- لا شيء .

- ما الخبر يا راشيل ؟

- دعني .. ترى جيداً أن الأمر قد انتهى .

- كلا ، لن أتركك ، ولي الحق .. ما الخبر ؟

فرفعت وجهها الذي أفسدت زينته الدموع ، وتطلعت اليه بياس وقالت :

- لا أستطيع أن أقول لك .

ولكن لم تكن لديها طاقة للسيطرة على نفسها حتى النهاية ؛ فارثمت

عليه قائلة :

— آه ! أبداً لن تكون لدي القوة يا عزيزي ، أبداً ، أبداً .

فأدرك في تلك اللحظة ان سعادته بلغت نهايتها ، وان راشيل ستتخلي عنه ، وتتركه وحيداً ، وانه لم يبق له ما يفعله ابداً . أدرك ذلك دون أن تقول له ، وقبل ان يعرف لماذا ، وقبل أن يتألم من ذلك كما لو أنه كان مستعداً لهذا بشكل دائم .

وصعدا الدرج في شارع الجزائر ونفذا إلى مسكن راشيل دون أن يتبادلا كلمة . وتركه وحده دقيقة في الغرفة الوردية . وقد ظل فيها واقفاً ، مشدوهاً ناظراً إلى السرير في داخل المهدج ، وزينة الرأس ، وداخل البيت ذاك الذي أصبح له . وعادت ، وقد تخلصت من معطفها . ورآها تدخل ، وتقفل الباب ، وتتقدم والحدقتان مخبستان تحت الأهداب الذهبية ، والفم منجذب ، غامض . وفقد كل شجاعة ، وخطأ نحوها متمماً

— ولكن هذا ليس صحيحاً . قولي ... لن تتركيني ؟

وعندئذ جلست ، وصرحت بصوت متعب متقطع ان من اللازم ان يكون هادئاً . وان عليها ان تقوم برحلة طويلة ، رحلة تتعلق بمصلحتها ، الى الكونغو البلجيكي . ثم انخرطت في الايضاحات . ان تركه والدها ، اي كل ما تملكه ، كان هيرش قد وظفها لها في معمل للزيوت لا يزال حتى الآن يسير سيراً حسناً ويعطي مداخيل قيمة . ولكن أحد مديري المعمل قد مات ، وعلمت أن الآخر ، وهو رب العمل حالياً ، عقد صفقة مع تجار كبار من بروكسل ، وأسسوا في كينشاسا ، أي في المناطق نفسها ، مصنعاً منافساً للزيت ، وانهم يستعملون جميع الوسائل ليقضوا على معمل راشيل . (كانت تبدو انها اطمأنت قليلاً وهي تسكلم) . وقد كانت القضية تتعقد بسبب ظروف سياسية . وآل مولر هؤلاء كان يسندهم الحاكم البلجيكي . وراشيل لا تستطيع من بعيد أن تركز إلى أحد . والقضية تتعلق بميراثها الوحيد ، بسلامتها المادية ، بكل مستقبلها . وقد فكرت ، وبحث عن وسائل . ان هيرش يعيش في مصر وليس له أية علاقة بالكونغو . إذن كان

الحل الوحيد ان تسافر بنفسها ، سواء أكان لإعادة تنظيم معمل الزيت ام لبيعه
بشمن مناسب لآل مولر .

واجتاح الدم البارد انطوان ، وهو شاحب الوجه ، عابس ، وكان يتأملها
دون أن يقاطعها . وجازف أخيراً :

— ولكن ايمكن لهذا ان يسوى بسرعة ؟

— نعم ولا .

— ماذا ؟ شهر ؟ اكثر ؟ اثنان ؟ — وارتجف صوته : — ثلاثة اشهر ؟

— نعم .

— ربما اقل ؟

— اوه ! كلا . يلزمي شهر للذهاب الى هناك .

— واذا وجدنا واحدا نرسله الى هناك ؟ واحدا موثوقا به ؟

فهزت كتفها :

— واحد موثوق به ؟ يراقب كل شيء في أربعة أسابيع ؟ مع منافسين

مستعدين لشراء جميع الضمائر ؟

لقد كان هذا صحيحاً بحيث لم يلح . وفي الواقع ، فند اللحظة الاولى لم يكن

على حافة شفتيه سوى كلمة واحدة : « متى ؟ » . وكل قضية اخرى يمكن ان

تنتظر . ورسم حركة خفيفة ، باتجاهها ، وبصوت متوسل يتناقض مع وجهه

المتشنج كرجل عمل ، تتمم :

— لولو . . لن تذهبي هكذا حالاً ؟ قولي .

فاعترفت :

— ليس حالا ، كلا . . ولكن بعد قليل .

فتشدد وقال : متى ؟

— حين يصبح كل شيء جاهزا .. لا استطيع القول .

وساد صمت كانت ارادتهما مرتبكين اثناءه . وقرأ انطوان على قسما

راشيل المنهوكه انها على وشك الانهيار ؛ وهو ايضا تخلت عنه كل صلابه .

فأقترِب منها وثوَّسل من جديد :

- ليس هذا صحيحاً ، قومي ، لن تذهبي ؟

فتلقفته على صدرها ، وضمته ، وقادته متعثراً نحو السرير حيث ارتجما
ومست :

- اصمت . لا تسأل شيئاً . ولا كلمة ، ولا كلمة واحدة حول ذلك ، او
اذهب حالا دون ان اعلمك .

فصمت ، خاضعاً ، مغلوباً ، غامساً وجهه في الشعر الشاحب . واخذ يبكي
بدوره .

١٤

وقاومت راشيل ، وظلت طوال شهر تتجنب كل سؤال جديد . وحين تلتقي
في عيني انطوان بنظرة قلقة ، فانها كانت تدير رأسها . وكان هذا الشهر قاسياً
واستمر في العيش ، ولكن كان لكل عمل ، لكل تفكير ، دويه في عذابها .
وفي غد اليوم الذي اوضحت له مشكلتها تلمس انطوان قوته على غير طائل
بحيث وجد نفسه قد فوجيء بهذا الالم الشديد ، وكان خجلاً لقلته تأثيره على
ألمه . واجتاحه شك موجه : « هل انا حقيقة ؟ » وعلى الاثر : « يجب الا يفطن
احد ! » . ومن حسن الحظ فانه كان ، وهو سجين حياته العملية ، يسترد
خصائصه على اتمام يومه كطبيب ، كالطلسم ، كل صباح وهو يحتاز ساحة
المستشفى ، وامام مرضاه لم يكن يفكر الا بهم . ولكن منذ ان تسنح له الفرصة
ليستفيد من بين زيارتين ، او على المائدة اثناء الطعام (لان السيد تيبو كان قد
عاد الى باريس ، ومنذ تشرين الاول استعاد البيت العائلي سيره) . - ذلك
الجنور الذي لادواء له ، والذي لم ينقطع عن التحويم حوله ، فانه ينهار فجأة
ويحواله الى كائن غير منتبه ، سريع الفضب بسهولة ، كما لو ان كل هذه القوة التي
كان فخوراً بها لم تكن تعرف شكلاً آخر سوى الهياج .

وكان يقضي بالقرب من راشيل امسياته ولياليه ، دون سرور . فكلما

ولصحتها كانا مسمومين بالأسرار . وحضناتها كانت تستنفدهما بسرعة دون
التوصل الى تهدئة ذلك العطش شبه العدائي الذي كان يشعر به واحدهما للآخر .

ذات مساء من اوائل تشرين الثاني ، فان انطوان عند وصوله الى شارع
الجزائر رأى الباب مفتوحاً ، ورأى حالاً منظر الدهليز الذي كان جداره عارياً
والارض دون بساط .. فأسرع الى المسكن : الغرفة فارغة من الاثاث يتجاوب
فيها الصدى ، والغرفة الوردية حيث المخدع لم يكن سوى تجويف لا فائدة منه .
وسمع حركة في المطبخ ؛ فركض اليه ، زائغ العين . كانت حارسه البيت
راكعة تنبش كومة من الثياب والاثاث . فانزع انطوان من يديها الرسالة التي
كانت معها له . ومنذ السطور الاولى عاد الدم الى قلبه ؛ كلا راشيل لم تترك
باريس بعد . انها تنتظره في فندق مجاور . ومساء الغد فقد تأخذ القطار الى
الهافر . وفي اللحظة نفسها أعدت تركيبة اكاذيب تتيح له التفتيح ، ومرافقة
راشيل حتى المركب .

ونهار الغد قام ببعض المساعي التي اخفقت الواحدة بعد الاخرى . واخيراً ،
في الساعة السادسة مساء اتخذ للامر اهبطه ، وتأمنت خدمته واصبح
يستطيع الذهاب .

ولحق بها في المحطة . كانت شاحبة قد هربت ، ترتدي ثوباً لم يعرفها فيه .
وكانت قد سحبت هراً من الصناديق الجديدة .

وفي صباح الغد فقط ، في الهافر ، في الفندق ، في مغطس ماء ساخن ،
كان يحاول تهدئة اعصابه المهتاجة . وتذكر شيئاً صعبه : لقد وضع على امتعة
راشيل حرفاً : ر . ه .

وقفز خارج الماء ، ودفع باب الغرفة :

— انت .. امنت ذاهبة للملاقة هيرش .

وابتسمت راشيل له بجنو ، مع دهشتها العميقة ، وتمت بصوت منخفض
لم يدرك منه سوى نسمة :

ـ نعم .

ولكنه رأى جفونها تنخفض علامة الإقرار ، وانحنى رأسها مرتين .
فجلس على كرسي كانت هناك . ومضت بضع لحظات ، فلم تأت الى شفّتيه اية
كلمة توبيخ ولم يكن الفم والغيرة هما اللذان جعلاه يطوي كتفيه في تلك الدقيقة ،
بل شعوره بعجزه ، بعدم مسؤوليتها ، وثقل الحياة نفسه . وفطن وهو يرتمش
الى انه عار ومبلىل . فقالت :

ـ ستأخذ برداً .

ولم يكونا قد وجدا بعد كلمة يقولانها لنفسيهما .

وجفف انطوان جسده دون ان يعرف ماذا يفعل ، وبدأ يرتدي ملابسه .
وظلت كما باغتها ، واقفة ، مستندة الى المشعة *Radiateur* ، وبين اصابعها
مدلكة . كانا يتعذبان ؛ ولكن رغم كل شيء كانا يشعران ، احدهما كالأخر
تقريباً ، بنوع من التعزية . كم مرة منذ شهر ، شعر انطوان انه لم يكن يعرف
شيئاً ! اما الآن ، فقد انتشرت الحقيقة كاملة امامه على الاقل . وراشيل ، وقد
تخلصت من ضغوط الكذب المعقدة شعرت بأهليتها تنتصب فيها ، وبشيء
قد تفتح .

وقطعت اخيراً الصمت ، وقالت بوجه من الحب تقرأ فيه الرأفة ، دون
اي اثر لتوبيخ الضمير .

ـ ربما كنت مخطئة بالكذب عليك . فللناس دائماً عن الغيرة افكار جاهزة
كثيرة الحق ، كثيرة الخطأ .. وعلى كل حال ، اؤكد لك انني لم اكذب الا
لأجلك ، لأوفر عليك ؛ اما انا فلم افعل شيئاً سوى انني اصبحت اكثر تعاسة .
والآن ، انا مسرورة ، فلم اتركك دون ان تعرف .

فلم يجب بشيء ولكنه كف عن ارتداء ثيابه وجلس . ورددت :
ـ نعم . هيرش يدعوني وانا ذاهبة .

وصمتت من جديد ، ثم تابعت ، بعد ان رأت انه لا يريد ان يتكلم ، وانها
هوجمت من كل ما كانت مجبرة على رده :

- انت طيب يا عزيزي ، وقد سكت . شكرًا . اني اعرف كل ما يمكن قوله . وقد مضت ثمانية اسابيع بكاملها وانا انتفض بقصد التملص ! وما افعله هو الجنون ، وما من شيء استطاع منعي عن فعله .. لنفترض ان افريقيا هي التي تجتذبني . آه ! هذا صحيح ، كما ترى : انها تجتذبني الى درجة انني اجسد نفسي مريضة من الرغبة في بعض الاحيان ! ولكن مهما كان الامر ، فهذا لم يكن يكفي .. عندئذ ربما تظن اني ألي نداء مصلحتي . وهذا صحيح ايضا . ان هيرش سيتزوجني ، وهو غني ، غني جداً ، وفي سني فان الزواج امر هام ، مهما قيل : من الشر ان يظل المرء على الهامش كل حياته .. ولكن ليس هذا ايضا . كلا ، الحقيقة انني فوق هذه الحسابات بقدر ما تكونه يهودية ، نصف يهودية تقريباً ، والبرهان ، هو انك انت ايضا غني ، او انك ستصبح غنياً . حسناً ، لو عرضت علي الزواج غداً لما تغير شيء من امر سفري .

اني أسبب لك الغم يا عزيزي ؛ ولكن اصغ إليّ وتجلبب بالشجاعة ، فهذا يجعلني أقول لك كل شيء ؛ ومن الأفضل ، لأجلك ايضا ، أن تكون على علم بكل شيء . لقد فكرت ان اقتل نفسي . وبالمورفين يجري الأمر بسرعة ، دون قصة ، ودون ألم ؛ حتى أنني حصلت على الجرعة ؛ وقد رميتها البارحة ، قبل أن أترك باريس. اريد أن أعيش كما ترى ؛ انني لم أتمن الموت .. وانت ، لم يبد عليك ابداً انك غيور منه حين كنت احداثك عنه . وكنت على حق . كيف تصبح غيوراً ؟ انت تعلم انه هو يمكن أن يغار منك ! اني احبك يا عزيزي ، احبك ، انت ، كما لم احب احداً أبداً : أما هو ، فاني اكرهه . فهو ليس رجلاً ، انه .. لا أدري ماذا ! أي أكرهه وهو يخيفني . لقد ضربني كثيراً ! وسيضربني أيضاً . وربما سيقتلني .. ذلك لانه غيور ، هو ! وذات مرة ، في شاطئ العاج دفع أحد حاملينا الحثقي . أتدري لماذا ؟ لانه كان يظن أن غلامه جاء اليّ ذات ليلة ، في كوخني . انه خليق بكل شيء .

ورددت بصوت داكن :

- انه خليق بكل شيء ولكنه لا يقاوم .. اسمع : هناك امر لم أجسد

الشجاعة لأقوله لك . أنت تعلم ، في بالانزا بعد المأساة ، حين ذهبت إلى هناك بناء على دعوته . حسناً . هناك بدأ الأمر ؛ إلا اني ادركت كل شيء ، وكدت أموت من الخوف أمامه : وذات يوم لم أجرو على شرب ماء حشائش كان قد أعده لي لانه كان ذا ابتسامة غريبة وهو يحمل ذلك الي . ورغم كل هذا ، رغم كل هذا .. افهمت ؟ آه ! لا تستطيع تكوين فكرة عن جاذبية هذا الرجل . وشعر انطوان برعشة جديدة . والقت راشيل مئزراً على كتفيه وتابعت بصوت لا عاطفة فيه :

– اوه ! لم يكن بحاجة لتهديدي ، ولا لأخذي بالقوة . لم يكن عليه الا ان ينتظر . وكان يعرف ذلك جيداً : انه يعرف قدرته . وانا ، اتيت اطرق بابه ! فلم يفتح لي الا في المساء الثاني .. وعندئذ تركت كل شيء لأذهب معه ، ولم اعد إلى فرنسا ، وتبعته ككلبه ، كظله . وطوال سنتين ، وربما ثلاث ، تحملت كل شيء ، الاتعاب ، الاخطار ، الضربات ، الاهانات ، السجن ، كل شيء . نعم ، السجن ! طوال ثلاث سنوات لم انقطع عن الارتجاف لاجل الغد ! وقد كنا نضطر احياناً الى الاختباء طوال اسابيع دون ان نجرو على الخروج .. وفي سالونيك ، فضيحة حقيقية : كان البوليس التركي كله في اثرنا : واضطربنا الى تغيير الاسماء خمس مرات لنبلغ الحدود ! دائماً قصص اخلاق . في لندن ، في احدى الضواحي ، وجد وسيلة ليشترى عائلة بكاملها : فتاة للجنود ، واختاها ، واخوها الصغير ... وكان يسمى هذا « شواء الخليلط » . وذات يوم حاصر الشرطة البيت وقبض علينا ، ماذا استطيع ان اقول ؟ لقد قضينا ثلاثة اشهر في السجن الاحتياطي . ولكنه توصل إلى اطلاق سراحنا .. آه ! لو اردت ان اقص كل شيء ! لقد رأيت ذلك وقاسيته .

وتقول لنفسك : « اني اعرف الآن لماذا تركته » . حسناً ، هذا ليس بصحيح . لست انا التي تركته ! فقد كذبت عليك . لن استطع ابداً . فهو الذي طردني ! وكان يضعك . وقال لي : « اذهبي » وستعودين حين اريد » . فبصقت في وجهه .. وبعد ، اتريد الحقيقة ؟ منذ ان رجعت لم اكن استطيع

التفكير الابيه ! وكنت انتظر وانتظر . وهما هو قد تذكرني اخيراً ..
أأدر كنت الآن لماذا انا راحلة ؟

ونهدت ، واتت تركع بالقرب من انطوان وتضع جبهتها على ركبتيه ، وبكت .
وكان ينظر الى نقرتها ، وقد هزه النحيب . وكان الاثنان يرتجفان .

وتتمت مغمضة العينين : كم احبك يا عزيزي !

ولم يتكلما طول النهار عن شيء ، كأن ذلك باتفاق ضمني . ما الفائدة ؟
وعدة مرات اثناء الغداء ، بعد ان عجزا عن تجنب جلوس احدهما قبالة الآخر ،
كانت نظراتها تتجاذب ، مضطربة بسبب الافكار نفسها ، وتحول الواحدة
عن الاخرى بعزم . ما الفائدة ؟

وكان عليها ان تقوم بشراء بعض الاشياء التي لا اهمية لها ، وقد قضت في
شرائها وقتاً طويلاً متظاهرة بفائدها . وكانت عواصف من المطر يحملها الهواء
من بعيد تغور في الشوارع وتفتح على محاذاة البيوت . وكان انطوان يتبعها
مطيعاً ، من مخزن الى مخزن حتى ساعة العشاء . ولم يبق عليها سوى الذهاب
لبلوع مكانها على السفينة ، لانها مسافرة على السفينة « رومانيا » . وهي تأتي
من اوستاند وتبلغ الهافر نحو الساعة الخامسة صباحاً وتقلع بعد ساعة دون ان
يقام بزيارات فيها . وكان هيرش ينتظرها في الدار البيضاء . اما حكاية
الكونغو البلجيكي فلم يكن فيها اية كلمة صحيحة .

واطلاا مدة العشاء ، شاعرين بنفس الجبن امام الدقيقة التي سيجدان نفسيهما
فيها وجهاً لوجه في غرفتها الليلة الاخيرة . والمطعم الذي جنحا اليه قاعة
كبيرة مملأ بالناس والاضواء والضجة ، وهو حانة ، وقاعة رقص ، واكاديمية
بليار معاً : بالمستطاع قضاء السهرة فيه بين دخان السكاير ، وقرقعة الكرات
وقبور رقصة الفالس . وحوالي الساعة العاشرة جاءت فرقة من الايطاليين
الجوالين ؛ وكانوا حوالي الاثني عشر ، ببلوزات حمراء وبنطلونات بيضاء مع
قبعات صيادي سمك نابوليتانيين وكانت الاباريم ترقص على اكشافهم . ومع الجميع
آلات موسيقية ، كان ، غيتار ، طبل ، صانجات . وكانوا وهم يعزفون

يفنون بجلء اصواتهم ويتحركون كالشياطين . وكان انطوان وراشيل ينظران اليهم شاكرين ، سعيدين بتوجيه انتباههما المنهوك من الالم الى هؤلاء الذين يبعثون التسلية في الناس . وحين اخذ هؤلاء المجانين يجمعون الصدقات ويفنون مقطوعاتهم الاخيرة كان يبدو لهما ان ألمها قد تضاعف . فنهضا عندئذ مرتعشين تحت المطر وعادا الى الفندق .

وكان الوقت منتصف الليل . ويجب ايقاظ راشيل في الساعة الثالثة . انها ليلة قصيرة لم تنقطع اثناءها رياح تشرين الثاني عن سكب المطر على زرك الشرفة . وقد قضياها دون كلمة ، دون رغبة ، حاضنين بعضها البعض كولين انتابها الهم .

ومرة واحدة سأل انطوان :

— اتشعرين بالبرد ؟

كانت ترتجف بكل اعضائها ، وقالت وهي تشد نفسها اليه كأنه لا يزال بإمكانه ان يحميها ، وينقذها من نفسها :

— كلا ، انا خائفة .

فلم يجب بشيء ، وكان شبه متعب من عدم فهمه .

ولدى طرقة على الباب وثبت من السرير متملصة من العناق الاخير .

وكان راضياً بذلك . ان ارادتيها بأن يكونا قويين جعلت واحدهما يدعم الآخر .

وارتديا ملابسهما صامتين ، وكانا يتظاهران بالهدوء ويتبادلان بعض الخدمات ويطيّلان حتى النهاية عادات الحياة المشتركة . وساعدها على اقفال محفظة ملأى جداً ، وأضطر ان يركع فوقها بكل ثقله ، بينما هي مقعية على البساط لتدير المفتاح . واخيراً ، حين اصبح كل شيء جاهزاً ، وحين لم يكن هناك اية كلمة مبتذلة يقولانها ، او حركة يقومون بها ، وحين لفت اغطيتهما واعتمرت قلنسوة السفر ، وربطت نقابها بدبوس ، وادخلت قفازها في يديها ، وزررت محفظة يدها ، ظل لدهما بضع دقائق انتظار قبل وصول العربة . فجلست

تقرب الباب على مقعد منخفض ؛ واجتاحها برد مفاجئ ، فضمت فكها لثلا قصر بأسنانها ، وخفضت رأسها وحضنت ركبتها بذراعيها . عندئذ جلس هو أيضاً غير عارف ما يقول وما يفعل ، وغير متجرب على الاقتراب منها ، ويده متدلّيتان على أعلى الصندوق . ومضت بضع لحظات في صمت طاع ، منتظر . انها لحظة رهيبة ذات حدة لم يكن باستطاعتها احتياها دون ان تخور قواها ، لو لم يكونا متيقنين ان الأمر سيبلغ نهايته بعد بضع ثوان . وتذكرت راشيل عادة سلافية : فهناك ، حين يسافر شخص محبوب في رحلة طويلة جداً ، فإن الجميع يجلسون حول المسافر ويجمعون افكارهم لحظة . وكانت على وشك ايضاح فكرتها بصوت مرتفع ، ولكنها لم تكن واثقة من صوتها .

وحين سمعت في الرواق خطى الغلمان الذين جاءوا يحملون الأمتعة ، رفعت رأسها فجأة ، ودارت نحوه بسرعة بكل جسمها . وعكست نظرتها يأساً مفرطاً ورعباً وحنواً بحيث مد ذراعه :
- لولو . .

ولكن الباب قد فتح . واجتاح الرجال الغرفة . ونهضت راشيل . كانت تنتظر وجود شهود لتستطيع وداعه . فخطت خطوة ووجدت نفسها امام انطوان . ولم يشأ ان يحتضنها ، ولم يستطع ان يحل ذراعيه ليدعها تذهب . وشعر مرة أخيرة تحت شفتيه بالفم الحار ، المسترخي ، الشاهق . وأدرك انها تتمم :
- وداعاً يا مينو . .

وتخلصت بسرعة واختفت في الباب المفتوح على مصراعيه على رواق مظلم ، دون ان تلتفت ، بينما هو ظل واقفاً لاويأ يديه ، دون اي احساس آخر سوى نوع من المباغة .

لقد جعلته يعدها بالآ يرافقها الى السفينة . ولكنه كان مقتنعاً انه سيذهب الى نهاية السد الشبالي عند قاعدة المنارة لكي يشاهد « رومانيا » عند خروجها من المرفأ . وما ان سمع ابتعاد العربة حتى رن الجرس طالباً ان يحملوا له أمتعته الى

مستودع الحقايب : لم يكن يريد الدخول الى تلك الغرفة . ثم اندفع الى الخارج في ظلام الليل .

كانت المدينة ميتة ، ترشح ماء تحت الضباب ، ولا تزال غيوم مكفهرة تغطيها ؛ وغيوم اخرى كانت تتراكم في الافق ، وبين هاتين البقيتين من العاصفة واللتين تحاولان الالتقاء ، فان قطعة شاحبة من السماء بدت انها تذوب .

وكان انطوان يسير على غير هدى . وكافح ضد الزوبعة تحت أحد مصابيح الشارع لينشر مخططاً للمدينة . ثم ، وقد ضاع في الضباب الكثيف ، ولكنه مهتد بحلجة الامواج ، وبالتنبيه البعيد الصادر عن النفير البحري ، وغترق الريح التي كانت تلتصق معطفه بساقيه ، اجتاز ارضاً زلاقة بالوحل وبلغ رصيفاً ارضه غير مفروشة جيداً بالاسمنت حيث سار فيه .

كان السد يضيق كلما تقدم في البحر . والى اليمين ايقاعات امواج الاوقيانوس الحر ، بينما الى الشمال ، فان الماء المحصور في حوض المرفأ لا يسمع منه سوى هدير مشوش ، وهناك زججرة بحتاء تملأ السماء لبوق يعزف لحناً حزيناً ، آتية من مكان غير معروف ، ولكنها تنضح اكثر فأكثر : هيه ! هيه ! هيه !

بعد عشر دقائق من المشي ، ودون ان يلتقي بكائن حي ، ميز انطوان فوقه تقريباً ، يريق المنارة الذي خبأه الضباب حتى الآن . لقد بلغ طرف المصب . وتوقف على عتبة الدرج الموصل الى السطح محاولاً النظر . كان وحيداً في الجلبة המתزجة بالهواء والفضاء الواسع . وقبلاته تماماً يوجد وميض بلون الكريما يشير الى الشرق حيث تشرق على الآخرين شمس الشتاء دون شك . وعند قدميه درج محفور في الفرايت يدخل في مهواة الماء غير المنظورة .

وحق عند انحنائه لم يكن يستطيع رؤية الامواج التي كانت تضرب الرصيف ، ولكنه كان يسمع تحته ، وفي مكان قريب ، تنفسها المنتظم المؤلف من آهة طويلة يتبعها نجيب مسترخ .

ومضى الوقت دون ان يشعر به . وشيئاً فشيئاً تسرب نور عظيم جداً من خلال ذلك البخار الذي كان يعزله من جميع النواحي عن عالم الاحياء . ورأى

الآن توهج نار السد الجنوبي . ولم يجرؤ على رفع عينيه عن الفضاء الفضى الذي يفصل منارته عن الأخرى : « لأنها » ستبجس من هناك ، بين مركزي الأشماع هذين .

وفجأة ، وإلى شمال النقطة التي كان ملتفتاً باتجاهها ، برز من تلك الحالة التي تشير إلى ولادة النهار ، كتلة ضيقة ، ومرتفعة كانت تتشكل على مرأى العين في الهواء الحليبي ، وتتسع ، وتصبح سفينة ، سفينة كبيرة زال لونها وتنقطت بالنور ، تبحر وراءها دخاناً داكناً ومنخفضاً . كانت السفينة « رومانيا » تدور لتسير في الممر .

وانطوان ، متشنج اليدين على الحاجز الحديدي ، والوجه يسوطه المطر ، كان يحصي بصورة آلية الجسور ، والصواري ، والمداخن . . راشيل ! أصبحت هناك على بعد مئة متر ، منحنية مثله دون شك ، منحنية نحوه ، مثبتة عليه دون أن تراه عينان اعتمتها الدموع ؛ وكل حبها المبتور الذي كان يميل بأحدهما نحو الآخر مرة أخرى أصبح عاجزاً عن أن ينيلها تعزية حركة وداع سامية . ونور المنارة اللامع وحده فوق رأس انطوان كان يبلغ بمداعباته المتناوبة تلك الكتلة التي لاوجه لها ، والتي كانت تحتفي من جديد في الضباب حاملة ، كسرى ، اتصالاً غير أكيد لنظراتها .

ظل انطوان طويلاً هناك دون أية دمعة ، والذهن في خمود ، غير مفكر بالذهاب واذا به المعتادتان على نعمة البوق الحزينة لم تكونا تسمعان نداءه الموجه .

وأخيراً تطلع بساعته وعاد نحو المدينة . كان والها . وأسرع الخطى وخاض في برك الماء دون أن يراها . وكانت المحلات في الميناء الصغير قد اشعلت مصابيحها البنفسجية . وكانت ضربات مطرقة خشبية تطن بشكل سيء في الجو الذي يشبه القطن المندوف . وارتفعت مدينة أحلام وراء الشاطئ الذي يحتاجه المد العالي . وصنوف من الطنابر كانت تدخل خلال الشواطئ المفطاة بالحصى ، آخذة معها موكباً من الصرخات ، وقرقعة السياط ، وهذه الجلبة ، بعد كثير من الصمت ، كانت تعزية لانطوان . فوقف يسمع الدوايب الحديدية التي تحدث صوتاً في الصوان

ثم فكر فجأة ان قطاره لا يسير الا في الساعة العاشرة . لم يسبق له ان واجه هذه الساعات الثلاث من الانتظار : لقد توقف لديه كل استدراك للامور مع رحيل راشيل . ماذا سيجعل به ؟ ان الفراغ القاتل لتلك الساعات التي لا هدف لها زاد من خطورة شقائه الى درجة انه اصبح غير قادر على مزيد من الكفاح . واسند ظهره الى عمود ، وبكى .

وعاد الى السير دون ان يفتن لذلك ، سائراً بخط مستقيم امامه . ودبت الحياة في الشوارع . وبقرب صنادير المياه جماعة من الاطفال المشعي الشعر يتشاجرون على الماء . وهناك كميونات كانت تأخذ عرض الطريق ، وتتدحرج بصخب نحو احوار السفن . ومشى انطوان طويلاً دون ان يعرف الى اين يسير ، ووجد نفسه في وضع النهار امام الاطباق الملأى بالزهور في الساحة التي كان فيها فندقه : وهنا ، البارحة قبل الذهاب الى العشاء ، كاد ان يختار لراشيل باقة من الازهار : ولكنه كان يتفادى ، وكذلك كانا يتجنبان ، وفقاً لاتفاق ضمني ، وحتى وقت الافتراق ، كل حركة ، وكل كلمة يمكن ان تقصم ارادتها في العمل على اشتداد ذلك الحزن الذي يحملانه بكثير من الجهد . عندئذ تذكر ان عليه ان يأخذ نشرته لمستودع الحفائب من مكتب الفندق ، وعادته الرغبة ليرى غرفتها مرة اخرى ، وذلك السرير .. ولكن الغرفة لم تكن شاغرة ؛ فقد اعطيت لاثنتين من المسافرين .

وهبط درجات السطحية يائساً ، وتاه حول تربية ، وعرف شارعاً سارا فيه معاً ، وعاد الى السين على الطريق الموصل الى تلك الحانة التي سمع فيها النابوليتانيين . وهناك شعر برغبة في الدخول .

وبحث عند المنضدة التي تناولا طعامهما عليها ، والنائل الذي قام بخدمتها . ولكنه لم يكن يعرف شيئاً مما يظن انه رآه البارحة .

ونهار الشراب الذي لا يرحم حول مكان السرور هذا الى مخزن فسيح ، قذر ومتجمد ؛ كانت الكراسي تتكدس على الطاولات ؛ ومنصة الموسيقيين - بقمطرها المقلوبة ، وآلة الفيولنسيل المنائمة في تابوت اسود ، والبيانو المغطى

بقماش مشمع شبيه يجلد مقشر لأحد الحيوانات الصفيقة الجلود . - كانت تقوم بين ذلك الاوقيانوس من الغبار ، كطوف محل بالجنث .

- اسمح يا سيد ؟

لقد جاء الغلام يكنس تحت الطاولة . ووضع انطوان ساقيه على المقعد ، وتأخر نظره على رواح ومجيء المكينة : سداة ، عودا ثقاب ، قشرة برتقال .. كلا ، مندرين .. واجتاز القاعة مجرى هواء فبعثر النفايات . وسمل الغلام . وملك انطوان نفسه : هل ترك ساعة القطار تمر ؟ ونهض باحثاً عن الساعة بعينه : مع الاسف ، لم يمس عليه هنا سوى سبع دقائق .

ايعود إلى الجلوس ؟ كلا . فخرج ، واستولت عليه هذه الفكرة ، من انه لن يتعذب اكثر من ذلك إذا جلس في عربة القطار . والقى نفسه في عربة ، وبلغ المحطة كملجأ .

ولكن هناك بعد ان تسجلت امتعته ، أصبح عليه ان ينتظر من جديد ، ينتظر أكثر من ساعة .

وأخذ يمشي . وكان يهرب على محاذاة الرصيف كأنه مطارَد .

« ماذا تريد مني ؟ » . فكر بذلك وهو يتطلع إلى أوائل (ميكانيكي) كان ينظر اليه من فوق آلتِه المتوقفة . والتفت ، ورأى جمهوراً من الرجال يتبعونه بأعينهم . عندئذ تشدد ، وعاد أدراجه ، ودفع باب غرفة الانتظار وارتمى على كنبه . كان وحيداً في الغرفة الاحتفالية المظلمة . وكان هناك امرأة عجوز ، تجاه باب القاعة المزجج ، مقعبة وقد رأى نقرتها الرمادية تتأرجح ، وكانت تهدد طفلاً وترتل بصوت شبه فتي ولكن بدون رنة ، تلك الاغنية القديمة المؤثرة بعذوبتها ، والتي كانت المدموازيل تغنيها في السابق لجيز في أغلب الأحيان :

إلى صيد بلح البحر

لا أريد أن أذهب يا أمي

وامتلأت عيناه بالدموع . لا يريد ان يسمع شيئاً ولا أن يرى شيئاً .

ووضع وجهه بين يديه وتحيل راشيل قبالتها : ذلك العطر العنبري الذي

بقي على أصابعه لتحريكه عقد راشيل في تلك الليلة ! وشعر على صدره بلحم الكنف المستدير ، وعلى شفتيه بخال البشرة الفاترة ! انها صدمة عنيفة جداً بحيث ألقي رأسه إلى الوراء ، وتجمد ، واليدان منفصلتان ناشبتان بذراعي الكنبه ، والرأس مصطدم بشدة بحشية المسند . وجاءت إلى ذاكرته عبارة راشيل : « كنت افكر بقتل نفسي .. » نعم ؛ لاجل الانتهاء ! فان الانتحار هو المخرج الوحيد لقلق نفسي بهذا الشكل . انتحار دون تبصر ، بدون رضا تقريباً ، ببساطة للتخلص ، ولا يهم كيف ، قبل أن تبلغ منتهى هذا العذاب الذي تضغط كلابتيه !

وفجأة ارتجف ، وبوثة اصبح واقفاً : هناك رجل لم يكن قد رآه ، جاء ولمس ذراعه . وكاد بحركة معاكسة ان يدفعه ، ويحند له بضربة من قبضتيه وقال الرجل :

— ماذا ؟

لقد كان رجلاً عجوزاً يثقب البطاقات ، وقال انطوان متلعثماً :

— قطار .. قطار باريس ؟

— الرصيف الثالث .

وأثبت انطوان على الرجل عيني رجل يسير في نومه واندفع بخطوة مسترخية نحو القاعة الكبرى . وصرح الآخر :

— لديك وقت . قطار الشرق لم يتجهز بعد ؟

وبما ان انطوان ، قبل ان يختفي ، كان قد اصطدم بمصراع الباب وهو يتعثر فان الرجل المعجوز هز كتفيه متذمراً :

— وهذا يريد ان يبدو قوياً !

تموز ١٩٢٢ - تموز ١٩٢٣

(انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني)

فهرست

ص	
۵	الدفتري الرمادي
۱۱۴	الاصلاحية
۲۷۰	الفصل الجميل

Roger MARTIN DU GARD

LES THIBAUT

Tome Premier

Le Cahier gris

Le Pénitencier

La Belle saison

Texte traduit en arabe

Par

Bahige CHAABAN

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth - Liban

من التراث الغربي

ق. ل.		
٥٠٠	هونوريه دو بلزاك	الاب غوريو
٥٠٠	»	الناعقون
٢٥٠	بروسبير ميريه	كارمن
٨٠٠	ستاندال	الاحمر والاسود
٧٥٠	غوستاف فلوبيير	مدام بوفاري
٦٠٠	»	سلمبو
٣٠٠	سانت اكزوبيري	أرض الرجال
٦٠٠	اندريه جيد	مزيفو التقود
٣٠٠	»	قوت الأرض
٣٠٠	فرنسوا موريالك	تيريز ديكيرو
٣٠٠	»	صحراء الحب
٦٠٠	اندريه مالرو	الوضع البشري
٣٠٠	»	الفزاة
١٠٠٠	فكتور هوغو	قارع الاجراس
٨٠٠	اميل زولا	الحافة
٤٠٠٠	روجيه مارتان دوغار	اسرة تيسو (٥ اجزاء)

منشورات لويديات
بيروت - لبنان